

مُؤَيِّدِي دِيَارِ



علي مولا

0014938



Bibliotheca Alexandrina

مُؤَيِّدِيكَ

الطبعة الثانية ١٩٨٠
بيروت

تأليف هرمان ملقل

مُؤَيِّدِيكَ

ترجمة الدكتور إحسان عباس

مؤسسة نادر الثقافية

مقدمة

عندما نشر « هرمان ملقل » ، في عام ١٨٥١ ، رائعته « موبى ديك » ، لم يكن يعلم أنه بذلك يعطى الرواية الكونية أحد رموزها الأكثر ثراءً ونبلاً وكماً . فهذه الرواية لا تعتبر أروع عمل ظهر في الأدب الأمريكي خلال القرن التاسع عشر فحسب ، بل تعتبر ، وبحق ، أحد أهم الآثار الروائية في تاريخ الرواية الكونية .

تحكي « موبى ديك » صراع الكابتن آخاب والحوث الأبيض ، أو كما يقول البعض ، تحكي ذلك الصراع السرمدي بين الإنسان والطبيعة : الإنسان في سعيه الحثيث بغية التسيّد على الكون ، والطبيعة في رموزها وألغازها وضرورتها العمياء .

تقتفى « موبى ديك » في أصلاتها آثار كل عمل أدبي عظيم . فهي ليست عملاً أحادي المعنى ومستقيم الدلالة ، لأنها في قراءتها أو قراءاتها تفتح أمام الشرح والتأويل آفاقاً مطلقة السراح . ومع ذلك ، فتعددية القراءة وتعددية التأويل لا تطمس فكرة الرواية الجوهرية ، فهذه الرواية ، في كلها وتفصيليها ، لا تحكي صراع الإنسان مع الطبيعة ، بل صراع « إنسان » مع الطبيعة . ترسم صورة « آخاب » ، سجين فرديته ورهين ذاتيته ، في سعيه اللاهث للتسيّد على الكون وتنصيب ذاته نظيراً للحقيقة ومثيلاً للمطلق . وهذه الحالة ، فإن هذا « الكابتن » ، الهاذي فوق الموج ، لا يمثل حالة فريدة ، أو حالة عصابية

معزولة ، بل يشير إلى ظاهرة بشرية ، إلى حالة إجتماعية ، تسقط شرها على الخارج ، وتعطيه كياناً واسماً ، ثم تطارده كي تبني فوق أنقاضه مملكة الخير .

يعتقد « آخاب » بطل رواية « موبى ديك » أنه رسول الخير ووسيط النعمة الإلهية ، ويمتدّ به الوهم فيرى في حوته مثلاً للشر المطلق ، وينطلق في مطاردة شره حتى يتكسر على أعتاب هذيان فرديته ، فيبقى « الحوت » ويتلاشى « آخاب » في ثنايا الصمت والأمواج .

يعيش آخاب منذ البداية حتى النهاية ، وهم أو أوهام أنانيته وغروره الفج . يقسم العالم إلى حقلين : حقل الخير وحقل الشر ، لكن هذه القسمة لا تعتمد في موضوعيتها الزائفة إلا قوانين الفردية والذاتية الغارقة في نرجسيتها ، أي أن الخير الذي تدعى الدفاع عنه ليس في جوهره إلا تجسيداً للشر ، كل الشر . لهذا ، فإن هزيمة « آخاب » هزيمة للشر الحقيقي ، وهزيمة لكل ذات تضعي بالقيم الإنسانية الحقيقية على مذهب الحرية الفردية المجردة .

رواية « موبى ديك » مرآة ترى فيها الطبيعة البشرية صورة معينة لها ، صورة الذات الباحثة عن الانتقام ، والمتعطشة إلى التأكيد الأعمى لذات عمياء تعتقد وهماً أنها بصيرة ، رواية - مرآة ، ترى الانسان ، ويرى الإنسان فيها صورته ، وتتجدد الصور يتجدد معنى الرواية . وهكذا تظل « موبى ديك » صورة ومعنى ورواية متجددة .

وأخيراً ، لا يمكن إلا أن نشير إلى ترجمة الدكتور إحسان عباس الرائعة والرائدة ، التي صانت « هرمان ملقل » في مقامه ، وصانت روايته في حقلها الإبداعى . فكانت ترجمة إبداعية لعمل خلاق .

الناشر

فصل في الاشتقاق

أعده معلم ماول كانه يعمل أثناء الجاه في مدرسته اعدادية

ذلك المعلم الشاحب، مهلهل الرداء والقلب والجسد واللب، أذكره كاني
اراه . كان دائماً ينفذ الغبار عن معجباته وأجروميته القديمة، بديل عجيب
الطراز، مزخرف - على نحو ساخر - بكل الاعلام البهيجة التي ترمز الى جميع
الامم المعروفة في العالم. وكان يروقه ان ينفذ الغبار ايضاً عن المعلومات النحوية
في ذاكرته، فذلك امر كان يذكّره - في لطف وديع - بانه ينتمي الى اهل
الفناء .

حين تعين الآخرين على ان يتعلموا، وتلقنهم اسم الحوت في لغتنا، مسقطاً
- بطريق الجهل - من اسمه حرف « هـ » H ، وهو الحرف الذي يمنح الكلمة
مغزاها، فأنت تلقنهم ما هو بعيد عن الصواب .
(هكليت)

هويل ... وفي السويدية والدمركية : « هوال » - اسمه مأخوذ من
الاستدارة او التكوّر ، لان الفعل « هوال » في الدمركية تعني « تقوس » او
« تقبب » .

(قاموس وبستر)

هويل اشتقاق مباشر من الهولندية او الالمانية، ففي الالمانية «ويلن»
والصفة منها «ويليان» تعني «يلتوي» او «يلتف» .

(قاموس رتشاردسن)

ح ت	بالعبرية
ق و ط س	باليونانية ^١
ق ي ط س	باللاتينية ^١
هُوَيْل	بالانجلوسكسونية
هوالث	بالدنمركية
وال	بالهولندية ^١
هوال	بالسويدية
هويل	بالانجليزية
هويل	بالاسلندية
بلّين	بالفرنسية
بلّينة	بالاسبانية ^١
بيكي - نويه - نويه	بالفيجية
بيهي - نويه - نويه	بالارومانجونية

١ دخلت كلمة «القاطوس» في اللغة العربية الا ان بعض المصادر اوردها خطأً بالفاء (انظر مثلاً حياة الحيوان للدميري) وكذلك كلمة «البلينة» عرفها الاندلسيون فقد لقب سعيد بن عثمان القرشي بالبلينة (جذوة المقتبس للحميدي : ٢١٤) وقال ابن سعيد : البلينة حوت كبير يعرف بدابة البحر (المغرب ١ : ١٩٣) وتعرب لفظة whale في المصادر القديمة على صور مختلفة منها الغال والوال والاول والاقال .

مقتطفات

أعدها مساعد طائفة مكتب مساعد

سترون، ايها القراء، ان هذا الحفار النقّاب، ان تلك الارضة النفاذة التي
أسميها مساعد الخازن المساعد، قد تغلغل في اقبية المكتبات وسراديها الطويلة،
ملتقطاً الاشارات المتناثرة الى الحيتان أيتان وجدها، من كتب دينية او دنيوية .
لذلك ليس عليكم ان تأخذوا هذا الخليط من الاقوال، وان كان صحيح النسبة،
وتعدوه في جميع الاحوال كتاباً موثقاً معتمداً في علم الحيتان لا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه . فما ابعد هذه الاقوال من ذلك ! اذ ان المقتطفات
المنقولة عن المؤلفين القدامى بعامة وعن الشعراء المذكورين في هذا الثبت، انما
تعد قيّمة او ممتعة من حيث انها تعطي نظرة خاطفة عما قالته الامم والاجيال
العديدة - ومنها جيلنا - او تصوّرتة او تغنت به - على نحو مختلط - عن
« اللويثان » .

اذن وداعاً يا مساعد المساعد المسكين، الذي أمثل انا منه دور الشارح
المعلّق . انك لتنتهي الى تلك القبيلة الشاحبة اليائسة التي لا تستطيع اية خمرة
في هذا العالم ان تبعث في عروقها دفئاً، قبيلة لو وضعت ازاء شحوبها تلك
الصفراء التي لا تنزل الاحزان ساحتها لبدت قانئة كانها الفرصاد، قبيلة يحب
المرء ان يعاشرها احياناً ويحسّ احساسها بالمسكنة والتعاسة، ويفغدو مرحاً
مطرباً على طعم العبرات، ويقول لابنائها في غلظة وجفاء، وشؤونه دافقة وكأسه
خواء، وحزنه مشوب بشيء من الجذل والرضاء : « دعوا عنكم هذا العناء، يا

مساعدتي المساعدين ! » كلما ازددتم كدّاً لارضاء هذا العالم، زاد ما تلقونه من
البخس ونكران الجليل ابدأ. لتمنيت انني استطيع ان أوطنكم هامبتون كورت
او التويلري^١ بعد ان اخليها من يجلها . لكن تجرعوا عبراتكم ، وسارعوا
الخطى صعوداً الى الصاري الملوكي بكل ما أوتيتموه من قوة ، لان اصدقاءكم
الذين تقدّموكم على الطريق اخذوا يخلون السموات السبع ويحلّون لاجئين لدى
الملائكة المتخمين : جبريل وميكايل ورفائيل، ليحولوا بينكم وبين الحلول فيها .
في هذا العالم تفرعون قلوباً مشقوقة بقلوب، اما في العالم الآخر فانكم ستفرعون
كؤوساً سليمة بكؤوس !

فخلق الله الحيتان^٢ العظام . (التكوين ١ : ٢١)

[اللويathan] يضيء السبيل وراءه فيحسب اللج أشيب . (ايوب ٤١ : ٣٢)

وأما الرب فأعد حوتاً عظيماً لابتلع يوثان . (يوثان ١ : ١٧)

هناك تجري السفن ؛ لويathan هذا خلقته ليلعب فيه . (مزامير ١٠٤ : ٢٦)

في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لويathan، الحية الهاربة،
لويathan، الحية المتحوّية، ويقتل التنين الذي في البحر . (اشعيا ٢٧ : ١)

١ في هامبتون كورت قصر ملكي زاره ملغل في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩ ولا بد
انه مرّ في احدى جولاته الباريسية بقصر التويلري؛ وكان هذان القصران قد اتخذتا متحفين في
ايام ملغل، كما ان التويلري كان مقر لويس نابوليون الذي انتخب رئيساً للجمهورية عام ١٨٤٨
ونودي به امبراطوراً عام ١٨٥٢ .

٢ في الترجمة العربية : الثنائين .

وايما شيء اقترب من واقوصة^١ فكسي ذلك الوحش، سواء أكان حيواناً ام قارباً ام صخرة، انحدر في تلك «البالوعة» الويلة المنهومة، وتلاشى في خليج كرشه الذي لا يعرف له قرار .

(الفقرة ٣١ من كتاب الاخلاق لفلوطرخس)

وينتج في البحر الهندي اكثر الاسماك واكبرها ، ومن بينها الحيتان والخطارات التي تسمى البليينات ويبلغ الواحد منها في مساحته اربعة افدنة (٦٤٠ قدماً مربعاً) او اربعة أرفينات - والارفين ٨٤٠٠٠ من الفدان .

(بليي ٢/٩ : ٤)

ولم نكن قد تقدمنا مسافة يومين في البحر حتى ظهر لنا عند الشروق عدد كبير من الحيتان ووحوش البحر الاخرى وكان احد الحيتان بالغ الجسامة ... انتحى نحونا ، فاغر الشدقين وهو يرفع الموج من كل جانب ، ويخبط الماء امامه زبداً .

وزار هذه البلاد ايضاً ليصيد الحيتان ، ولعظاها قيمة بالغة لما فيها من انياب ، وجلب بعضها منها للملك وخير الحيتان يصاد في هذه البلاد ، وبعضها يبلغ ٤٨ ياردة في طوله وبعضها يبلغ خمسين ، وقال انه احد ستة صادوا ستين حوتاً في يومين .

(حديث شفوي جرى على لسان من اسمه ارثر
او أركثر ودونه الملك ألفرد عام ٨٩٠ ب . م .)

كل الاشياء حيوانات كانت او قوارب ، اذا هي دخلت الخليج الخفيف الذي يسمى قم الحوت ، غربت على التو ، واصبحت اثرأ بعد عين إلا سمك القوبيوت

١ الواقوصة ترجمة لكلمة chaos (قاووصة) ومعناها الهوة ، وقد عرفها العرب بهذا الاسم ، وبها سمي المكان .

البحري فانه يلوذ الى ذلك الكهف مطمئناً وينام فيه .

(موتتين - في «دفاع عن ريموند سيند»)

لنهرب ! لنهرب ! حاز روجي الشيطان الرجم ان لم يكن هذا هو اللويثان
الذي وصفه النبي موسى العظيم في سيرة ايوب الصبور . (رابليه)

وكان كبده هذا الحوت يساوي ما تحمله عربتان . (حوليات استو)

[اللويثان] العظيم الذي يجعل العمق يغلي كالقدر .

(ترجمة اللورد بيكون للزمير ١)

اما فيما يتصل بالحجم الهائل الذي تكون عليه الحيتان او الأرخ^٢ فليس لدينا
شيء يقيني، ولكنها تطبق شحماً حتى ان كمية الدهن التي تستخرج من حوت
واحد تفوق حد التصديق . (بيكون في «تاريخ الحياة والموت»)

خير ما في الارض لعلاج جرح دخيل هو زيت الحوت .

(الملك هنري الرابع : ١ : ٥٧/٣ - ٥٨)

كأنه حقاً حوت . (ملت ٣/٢ : ٣٩٩)

لم تجده شيئاً براعة الحجام، وكان عليه

ان شاء الشفاء، ان يعود كرة اخرى

١ قلت : هذا ورد في سفر ايوب ٤١ : ٣١ .

٢ في الاصل ork وصوابها orc وهي من اللاتينية orca وتعني الحوت او الغرمبوز او ما يشبهه .

الى الذي سبب جرحه ، حين رماه بسهم عائر

شكّ به صدره ، وابتعث فيه الالم المبرّح ،

عودة الحوت الجريح المنطلق في عرض البحر نحو الساحل .

(من قصيدة « The Fairie Queen » لسبنسر

٦ / النشيد ١٠ / القطعة : ٣١)

جسيم كالحيّتان التي اذا تحركت اجسامها في البحر الساكن تخبط البحر بها
كأنه يغلي . (من اقوال السير وليم دافنانت في «مقدمة على جندبرت»)

للناس الحق في ان يتساموا عن ماهية زيت الحوت ، لان العالم أوزمان يقول
دون مواربة في مؤلف له قضى في كتابته ثلاثين عاماً : « اننا لا نعرف ما هو » .
(«في زيت الحوت ، وحوت العنبر» للسير توماس براون ٣ : ٢٦)

كأنه طالوس ذو « الفلسفة »^١ الحديثة ، الذي ذكره سبنسر ،
ينذر بالويل والثبور بذيله المهول .

وهو يحمل في جنبه حرايمهم المثبتة
وعلى ظهره تبدو غابة من أسنة .

(معركة جزائر سومر لادمند والر - النشيد الثالث)

بقدره فنان خلق ذلك اللويّان العظيم الذي يسمى في اللغة اللاتينية Civitas
(بمعنى كيان دولة) وليس هذا الكيان إلا انساناً مصطنعاً .

(العبارة الاولى في كتاب «لويّان» لهوبز)

١ الفلقة هي الكلمة اللاتينية flagellum وتعني في الاصل « السوط » .

وابتلعها منصول [الروح الانساني] الغبيّ دون مضغ كأنها كانت سمكة صغيرة في فم حوت .

(رحلة حاج لبنيان)

ذلك الحيوان البحري، اللويثان

الذي جعله الله من بين مخلوقاته

اعظم ما يسبح في الماء .

(الفردوس المفقود ٧/٤١٢-٤١٦)

— هناك اللويثان

اعظم المخلوقات، في البحار

ممتدأ كأنه برزخ، ينام او يسبح؛

ويبدو كأنه ارض تتحرك،

فاذا فغر فاه تجرع بحراً،

واذا نفث زفيره اصدر بحراً .

(المصدر نفسه)

الحيتان الجبارة التي تعوم في بحر من ماء وفي داخلها تعوم بحار من زيت .

(الدولة الدينية والدنيوية لتوماس فلر)

تستلقي اللويثانات الضخمة خلف قنة بحرية

متربصة بفرائسها،

ولا تطاردها، وانما تبتلع السرب

الذي يفضل طريقه ذاهباً خلال الاشداق المفتوحة .

(سنة الاعاجيب (١٦٦٦) للشاعر جون دريدن)

وحين يكون الحوت عائماً عند كوثلة السفينة يقطعون رأسه ويجرونه بواسطة قارب فيقربونه من الشاطئ قدر المستطاع، ولكنه لو جرى في ماء ارتفاعه اثنا عشر قدماً او ثلاثة عشر للامس الارض .

(عشر سفرات الى سبتزرجن لتوماس إدج
مضمنة في رحلات بركاس)

وفي طريقهم رأوا حيتاناً كثيرة ترح في البحر، وهي في عبث ترسل الماء عالياً من خراطيمها ونفائاتها التي جعلتها الطبيعة في اكتافها .

(رحلات السير توماس هربرت في آسيا وافريقية)

وهذا رأوا كتائب ضخمة من الحيتان حتى اضطروا الى السير بحذر بالغ لئلا تفسر بهم سفينتهم عليها .

(التطواف السادس لشوتن)

والمبحرنا من إلب والريح شمالية شرقية في سفينة تدعى « يونان في جوف الحوت » ... بعض الناس يقولون ان الحوت لا يستطيع ان يفتح فمه ، إلا ان هذا قول خرافي وكثيراً ما يصعدون الصواري ليروا ان كانوا يستطيعون ان يبصروا حوتاً ، لان من سبق غيره الى رؤيته نال « دوقه » لقاء تعبته وقد اخبروني عن حوت اصطبغ قريباً من شتلند ، وانهم وجدوا في كرشه برميلاً من سمك الرنجة وأخبرني احد حواتينا انه صاد مرة حوتاً في سبتزرجن وكان ابيض اللون .

(رحلة الى جرينلاند عام ١٦٧١ من مجموعة هاريس)

وقد أملت بهذا الشاطئ (شاطئ فايف) حيتان عديدة ؛ وفي عام ١٦٥٢ أحضر من عظم الحوت ما طوله ثمانون قدماً ، وقد خبروني أن وزن البلين بلغ ٥٠٠ وزنة عدا كمية كبيرة من الزيت ، اما الفكان فقد اتخذوا في بوابة حديقة في بتفرن .

(فايف وكروس لسيبولد)

وقد وافقت انا نفسي على ان اجرب السيطرة على حوت عنبر وان اقتله لاني
لم اسمع بأن واحداً من ذلك النوع قتله انسان ، لما هو عليه من عنف وسرعة .
(رسالة من رتشارد استافورد بعثها من جزائر برمودا ، « ١٦٦٨ »)

حتى الحيتان في البحار

تطيع أمر الجبار

(كتاب المطالعة الأولى)

ورأينا ايضاً الجماء الغفير من الحيتان الضخام ؛ فازاء كل حوت في البحار
الشمالية - استطيع ان اقول - هناك مائة في البحار الجنوبية .

(رحلة القبطان كاوي حول الكرة الارضية عام ١٧٢٩)

.... ويصاحب نفّس الحوت رائحة لا تطاق حتى انها تحدث خللاً في
الدماغ .

(امريكا الجنوبية لأولار)

الى خمسين حورية من ذوات المقام الرفيع

نعهد بالمسؤولية الكبرى ، وهي لباسها الصّدار ،

وقد طالما عرفنا ان تلك الدرع ذات الطاقات السبع تعجز واهنة

وان كانت محشوة بالاطواق ، مزودة باضلاع حوت .

(الكسندر بوب : اغتصاب الخصلة ، النشيد الثاني ،

الابيات ١١٧ - ١٢٠)

اذا قارنا حيوانات البر من حيث الجسامة بالحيوانات التي تتخذ الأعماق مثابة
لها وجدنا الاولى زرية لدى المقارنة ، فالحوت دون ريب أعظم الحيوانات خلقه .

(التاريخ الطبيعي لجولدسميث)

إذا كنت تريد ان تكتب اسطورة للسماك الصغير ، فقد تجعلها تتحدث كالحيتان العظيمة .

(من جولدسميث الى جونسون كما أوردها بوزول)

وبعد الظهر لاح لنا ما حسبناه صخرة ثم تبينا انه حوت ميت قتله بعض الاسيويين وكانوا يجرونه نحو الساحل . وبدا لنا انهم يحاولون ان يخفوا انفسهم وراء الحوت لكي لا تقع اعيننا عليهم .

(رحلات كوك)

اما الحيتان الضخمة فقلما يتجاسرون عليها بهجوم ، فهم يخشون بعضها حتى انهم اذا كانوا في عرض البحر خافوا ان ينطقوا باسمائها ، وهم يحملون معهم في قواربهم الروث والجير وخشب العرعر وبعض المواد الاخرى من هذا القبيل كي يخفوها ويمنعوها من ان تدنو منهم .

(رسائل ارنو فون ترويل عن رحلة بانكس
وزولاندر الى اسلنده عام ١٧٧٢)

وحوت العنبر الذي صادفه بعض النانتوكتيين ، حيوان عنيف نشيط يتطلب لباقة وجرأة عظيمتين في الصيادين .

(ذكريات عن صيد الحيتان كتبها توماس جفرسن
الى الوزير الفرنسي ارمان مارك عام ١٧٧٨)

واستميحك يا سيدي : أي شيء في العالم يضاهيه .

(من خطاب ادمند بيرك في البرلمان (٢٢ آذار ١٧٧٥)
اشار فيه الى حرفة صيد الحيتان لدى اهل ناتوكت)

اسبانيا — تلك حوت ضخمة جانح على شواطىء اوروبا .

(ادمند بيرك — نسيت اسم المصدر)

وعشر الدخل العادي للملك، وهو يعتمد على اعتباره حارساً حامياً للبحار
من القراصنة واللصوص، انما هو حقه في السمك الملكي، وهو الحوت والاسطرغون،
فاذا قذف الموج بهذين الصنفين على الشاطئ او اصطيدها على مقربة منه، كانا
ملكاً للملك .

(وليم بلاكستون - في تعليقات على قوانين إنجلترا،
الكتاب الاول، الفصل : ٨)

وعلى التوّ ينتحي البحارة لعبة الموت :

فيرفع ردمند فوق رأسه، مسدّداً،

السنان المشحوذ، ويرقب كل ناحية .

(سفينة تتحطم لفالكونر - النشيد الثاني)

وتلألأت لامعة السقوف والقباب والجريسيات

وانطلقت الصواريخ من نفسها

لتعلق نارها التي تبقى لحظة

حول قبة السماء .

ومن اجل ان لا يتفوق عنصر النار على عنصر الماء

اخذ البحر المحيط يطغى سامقاً

ينفثه في الفضاء حوت،

ليعبر عن فرح مستحکم الطفيان .

(كوير - قصيدة في زيارة الملكة للندن،

الابيات ١٣ - ٢٠)

ويقذف هو بسرعة هائلة عشرة جالونات او خمسة عشر من الدم من قلبه لدى ضربة واحدة .

(حديث جون هنتر عن تقطيع حوت - صغير الجرم)

ان فوهة الابهر (الاورطى) في الحوت اكبر سعة من فوهة الانبوب الرئيسي في الملتشات المائية عند جسر لندن ؛ اما الماء الهادر في مروره خلال ذلك الانبوب فانه اقل زخماً وسرعة من الدم المنبثق من قلب الحوت .
(اللاهوت لبيلي)

الحوت حيوان ثديي دون رجلين خلفيتين .
(بارون كوفيه)

وعلى الدرجة الاربعين جنوباً رأينا حيتان عنبر لكننا لم نصد شيئاً منها الا في اول ايار (مايو) اذ كان البحر حيثئذ مغطى بها .

(رحلة كولنت لتوسيع نطاق التحويت
لصيد حوت العنبر)

في العنصر الطليق من دوني كانت تعوم
وتتغالب وتغوص، عابثةٌ او مطاردة، او في عراك،
أسماك من كل لون وشكل وصنف ،
تمعجز اللغة عن تصويرها ، وما رأى مثلها الملاحون ،
من الحوت الخوف حتى ملايين الصغار التي تسكن كل موجة
وقد تجمعت في أسراب ضخمة كأنها جزر عائمة
تقودها غرائز خفية خلال ذلك السباب المائي
الذي لا يحفظ أثراً ، وان كان يهاجمها من كل جانب

اعداء ذورهم وضراوة .

حيثان وقرشان وهولات ، مسلحة في مخاطمها او الاشداق ،

بسيوف ومناشر وقرون ملوية او انياب خطافية .

(العالم قبل الطوفان لموتجومي)

انما ايها الربان : ايو وبايان ، تغنيا

لملك الرعايا المزعنفة

فليس في الاطلسي المديد

حوت اقوى من هذا الحوت

ولا يتطوف حول البحر القطبي

حوت اشد منه سمعة وتراة

(مجد الحوت لشارل لام)

في عام ١٦٩٠ كان نفر من الناس يرقبون ، من فوق ربوة عالية ، الحيتان وهي تنفث وتتعاث ، حين قال احدهم وهو يشير الى البحر — هناك مرج أخضر سيذهب اليه احفاد احفادنا طلباً للخبز .

(تاريخ نانتوكت لعبيد ماسي)

وصنعت لي ولسوزان كوخاً وجعلت الباب على شكل قنطرة قوطية ، حين نصبت هنالك عظام فكّ الحوت .

(قصص حكيت مرتين لهوثورن — من حكاية « العم القروي »)

وجاءت لتوصي ببناء نصب تذكاري لحبيبتها الاول الذي كان قد قتله حوت في المحيط الهادي منذ ما لا يقل عن اربعين سنة .

(المصدر نفسه — من حكاية « ضربات بازميل »)

فأجاب توم : « لا يا سيدي هذا حوت أثين ، لقد رأيته ينفت ، فنصب قوسَي قزح في الجوِّ كأجل ما يحلو لإنسان أن يرى . ذلك برميل زيت نادر . (الربان لجيمس فني مور كوبر ، الفصل : ١٧)

وجاءوا بالجرائد فرأينا في « صحيفة برلين » ان الحيتان قد استحضرت فوق المسرح عندهم .

(أحاديث بين اكرمان وجوته ، ٣١ كانون الثاني ١٨٣٠)

فأجبت : « رباه ! ما بالننا يا سيد (تشيز) ! ، لقد شقَّ الحوت سفينتنا » .

(خبر عن تحطم الحوالة « اسكس » من ناقتوك وقد هاجها حوت عنبر وحطمها تحطيماً في المحيط الهادي ، وكان الضابط الاول فيها هو اوين تشيز ، وهو الذي كتب هذا السرد ، نيويورك ١٨٢١)

جلس بحار ذات ليلة في مرقبه

والريح طليقة تنفخ نايها

وضوء القمر الشاحب حيناً يلتمع وحيناً يخبو

ويتلأأ لهب الفوسفور في مجرّ الحوت

وهو يتوثب في الماء .

(من قصيدة البحار الغريق «الابيات ١ - ٩»
لاليزابث اوكس سمث)

وكان طول الحبل الذي سحب من مختلف القوارب المنهمكة في صيد الحوت يبلغ معاً ١٠٤٤٠ ياردة او قرابة ستة أميال انجليزية ... وأحياناً يهز الحوت ذنبه الرابع في الفضاء فيفرقع كأنه سوط ويتدرد صداه على مسافة ثلاثة اميال او اربعة .

(سكورسي)

فاذا جن جنون حوت العنبر المستشيط غضباً بالآلام التي يتلقاها من هذه الهجمات الجديدة تقلب ظهره لبطن ، ونصب رأسه الضخم وانقض بفكيه المفتوحين ناهشاً كل شيء حوله ؛ ويندفع نحو القوارب برأسه ، فتقلب أمامه في سرعة فائقة وأحياناً تتحطم تحطماً تاماً ولعلّ مما يبعث الدهشة البالغة أن يغفل الناس اغفلاً تاماً التأمل في عادات حيوان فذ ، هام (من الزاوية التجارية) — كحوت العنبر — أو ان تكون تلك العادات قد استثارت قليلاً من الفضول لدى عديد من المتطلعين ، وفيهم عدد جمّ من ذوي الكفاية ، الذين سنحت لهم في السنوات الاخيرة أوفر الفرص واشدها مواتاة لمشاهدة عادات الحيتان .
(تاريخ حوت العنبر تأليف توماس بيل ١٨٣٩)

والقشالوط (حوت العنبر) ليس فحسب احسن سلاحاً من الحوت الأثين (حوت جرينلاند) من حيث ان له سلاحاً خفيفاً على طرفي جسمه ، وانما هو ايضاً يبدي — في اكثر الاحوال — ميلاً لاستعمال اسلحته بطريق العدوان ، وعلى نحو فني جسور مؤذٍ معاً ، وهذا يؤدي بالناس الى ان يعدوه اخطر حيوان يهاجمونه بين جميع الفصائل المعروفة من عشيرة الحوت .

(رحلة تحويت حول الكرة الارضية
لفردريك دبل بنيت ١٨٤٠)

١٣ تشرين الاول (اكتوبر) : وسمعنا من يهتف من اعلى الصواري : « هناك ينفت ! »

فقال القبطان : « كم يبعد ؟ »

— ٣/٤ ٣٣ درجة يا سيدي .

— ارفع الدفة . أثبت !

— أثبتّها يا سيدي .

— انت في رأس الصاري ، هل ترى هذا الحوت الآن ؟

— اجل . اجل سيدي ! سرباً من حيتان العنبر . هناك ينفت !

هناك يثب !

— اهتف . اهتف كلها رأيته !

— سمعاً سيدي ! هناك . ينفت — هناك — هناك — هناك ينفت —

ين — ننت — ففف — !

— كم يبعد ؟

— ميلين ونصف .

— يا للبرق والرعد ! أعلى هذا القرب ! ادعوا الجميع !

(صور من رحلة تحويت لروس براون ١٨٤٦)

ان سفينة التحويت « جلوب » التي حدثت على ظهرها هذه الحوادث المريبة
— ونحن بسبيل سردها — تلتهمي الى جزيرة نانتوكت .

(قصة التمرد على السفينة جلوب كتبها
ورثاء لاي وهي ١٨٢٨)

ولما ان لحق به الحوت الذي كان قد جرحه ، تجنب هجمته بعض الوقت
بحريرة ، ولكن الحيوان المتسخط انقض في النهاية على القارب ، ولم يحمه ويحم
رفاقه منه إلا قفزهم في الماء عندما رأوا ان هجمته محتومة لا يمكن تلافيها .

(يوميات الاسفار والرحلات ، لثيرمان وبنت —
بوسطن ١٨٣٢ ، المجلد الاول ، الفصل الاول)

وقال السيد وبستر : « ان نانتوكت نفسها حصاة فذة خاصة من الدخل
القومي ؛ سكانها عددهم ثمانية آلاف او تسعة يعيشون هنا في البحر ، ويضيفون

اضافة كبيرة كل عام الى الثروة الوطنية بحرفة تعد من أجراً الحرف واشدها
تطلباً للمثابرة والدأب .

(من خطاب دانييل وبستر في مجلس الشيوخ
الامريكي ، ألقاه بمناسبة طلب اقامة حاجز عند
الميناء في نانتوكت ، عام ١٨٢٨)

ورقع الحوت عامداً فوقه ولعله قتله في لحظة .

(الحوت وصيادوه او مخاطرات الحوات وسيرة
الحوت ، استقاها القس هنري ت. شيفر في
رحلة العودة الى الوطن من القومودور بريبل)

فأجاب صموئيل : « اذا نأمت نأمة بعثت بك الى الجحيم » .

(حياة صموئيل كومستك (التمرد) كتبها
أخوه وليم كومستك ، وهي صورة اخرى من
قصة التمرد على ظهر الحوالة « جلوب »)

ان رحلات الهولنديين والانجليز الى المحيط الشمالي ، لعلمهم يكتشفون طريقاً
الى الهند من خلاله ، فتحت امامهم ، وان أخفقوا في هدفهم الاول ، المواطن
التي تأوي اليها الحيتان .

(القاموس التجاري ملك كولك)

هذه الامور تتم في تبادل ، فالكرة ترتد لتنتط الى الامام مرة اخرى ؛ وها
هم الحواتون بعد ان انكشفت لهم المواطن التي تأوي اليها الحيتان ، قد وقعوا
— فيما يبدو — على دلائل جديدة تؤدي بهم الى ذلك الممر الشمالي الغربي الخفي .
(من «شيء» لم ينشر)

من المحال أن يصادف المرء حوَّاة في البحر دون أن يدهشه مظهرها المألوف .
فلسفينة ذات الاشعة القصيرة التي يقف رقباءها على رؤوس الصواري يمعنون

النظر اللهيـف في البسيط الممتد من حولهم ، هيئة تختلف اختلافاً كلياً عن تلك السفن المنهمكة في رحلة منتظمة .

(التيارات والتجويـت - البعثة الامريكية)

لقد يذكـر المشاة في جوار لندن وفي جهات اخرى انهم رأوا عظاماً مقوسة قد نصبت في الارض ، اما لتكون اقواساً في البوابات او مداخل المخادع ، ولعلمهم أنبئوا ان هذه العظام اضلاع حيتان .

(حكايـات عن حوآت في المحيط المتجمد الشمالي)

ولم يدرك البيض ان سفينتهم قد حازها غصباً المتوحشون المسجلون بين الملاحين الا حين عادت القوارب من مطاردة تلك الحيتان .

(خبر صحفي عن اغتصاب الحوالة هوبوك واستعادتها)

من المشهور المتعارف انه قلما يرجع احد من بحارة الحوانات (الامريكية) في السفن التي ابجروا على ظهورها .

(رحلة في قارب تحويت لجيمس رودس)

وفجأة انفرج الماء عن كتلة هائلة انطلقت عامودياً في الفضاء واذا بها حوت .

(مريـام كوفن او صياد الحيتان لجوزف هارت)

حقاً ان الحوت يزرق بالحراب ، ولكن تدبر لنفسك كيف يمكنك ان تسوس مهراً أرناً لم يروض من قبل بربط حبل - محض ربط - عند عجب ذنبه .

(فصل في التحويـت على الارينات وتويجات الصواري)

وفي احدى المرات رأيت اثنين من هذه الحيوانات الهائلة (الحيتان) وربما كانا

ذكرأ وأنثى يسبحان في بطنه ، متعاقبين ، على مرمى حجر أو أقل من الشاطئ
(شاطئ ترا دل فويجو) الذي تمد فوقه شجرة الزان اغصانها .

(رحلة عالم طبيعي لدارون)

« جميعاً الى المؤخرة ! » كذلك هتف الضابط حين استدار فرأى فكي
حوت عنبر فاغرين ، قرب رأس القارب ، وهما يهددانه بخراب وشيك . « الى
المؤخرة جميعاً ، نجاةً بأنفسكم ! » .

(وارتون صياد الحوت)

تذرعوا بالبشر يا فتياي ، وبرباطة الجأش ،

حين يغرز الزراق الجسور رمح في الحوت .

(اغنية نانتركتية)

آه يا للحوت الفذ الفريد ، بين العاصف والنكباء ،

يظل في بيته في الماء

مارداً في قوته ، حيث القوة هي عين الحق

وملكاً على البحر المديد ، الذي لا تعرف له حدود .

(أغنية الحواتين)

تباير

قبل بضع سنوات ، لا ادري عددها على وجه الدقة ، كنت انا - وليكن اسمي الذي أعرف به هو اساعيل - خالي الوفاض من الدراهم او كالحالي، ولم يعد على البر شيء يبعث المتعة في نفسي ، فخطر لي انني قد اقضي بعض الوقت مبحراً^١ وأرى الجزء المائي من العالم . ذلك انني كلما أحسست بالتجهم يرتسم حول شفتي، كلما احسست في روحي بشيء من رطوبة تشرين ونضحه البليل، كلما وجدت نفسي أقف، وقفة المأخوذ، امام دكان التوابيت، واشيّع كل جنازة صادفتها في الطريق، بل قل كلما سيطر عليّ الشعور بالمرّة السوداء حتى اصبحت بحاجة الى وازع اخلاقي رادع يحول بيني وبين الضرب في الشوارع وتسديد اللكمات المحكمة الى رموس السابلة ، كلما كنت في مثل تلك الاحوال أحسست انه قد آن لي ان اركب البحر باقصى ما استطيعه من سرعة، فذلك هو ما أثره ان آثر غيري المسدس والرصاص. في رباطة جأش المتفلسف القى كاتو^٢ بنفسه على سيفه، اما انا فاني اتوجه نحو السفينة في هدوء . وليس في هذا ما يثير استغراباً، فلو ان الناس على اختلاف درجاتهم عرفوا هذا الامر لاصبحوا بين الحين والحين يشركونني مشاعري نحو البحر او يكادون .

١ قام ملفل في الواقع بعدة رحلات بحرية، اولها رحلة من نيويورك الى لفربول عام ١٨٣٩ .

٢ يعني ماركوس بوركيوس كاتو (٩٥ - ٤٦ ق. م.) حفيد كاتو الرقيب؛ انتحر بعد مقتل بومبي لثلاثين اسيراً في قبضة بوليوس قيصر وقيل انه قضى آخر ليلة من حياته يقرأ « الفيدون » لافلاطون .

ها هي مدينة منهارتو البحرية، يلفها نطاق من الارصفة كما تلتف الحواجز المرجانية حول الجزائر الهندية ؛ ويكفلها زبد البضائع من كل ناحية، وشوارعها جميعاً تقضي بك الى البحر ، يميناً جعلت وجهتك او شمالاً، وعند اقصاها يقع ذلك السدّ العتيق الذي تغسله الموجات وتنعشه النسائم، واذا كنت في الطرف الآخر من المدينة لم تره لان بينك وبينه مسيرة بضع ساعات . تأمل عند ذلك السدّ الحاجز جماهير المحدثين في الماء .

او ان شئت فطوّف ارجاء هذه المدينة في اصيل يوم حالم قد اخلد الناس فيه الى الراحة؛ توجه من « ثفيّة كورلير » الى « مزلقان كوينتي » ومن ثم انعطف شمالاً ماراً بهوايتهول ، فماذا ترى ؟ آلافاً مؤلفة من الاحياء ، قد استبحروا في تأمل الماء، كأنهم حرّاس صامتون قد انبثوا في كل الارزاء، بعضهم يتكئ على الاسوجة، وبعضهم يجلس على مشارف الارصفة، وبعضهم يمدّ عينيه فوق جنبات السفن القادمة من الصين، وآخرون قد امعنوا في تسلق الحبال كأنما يحاولون ان يبذوا من عداهم في تفرّس الماء . هؤلاء جميعاً ابناء البرّ يقضون ستة ايام في كل اسبوع سجناء خلف جدران من الخشب والطين ، مشدودين الى مكاتبهم، مسمرين في مقاعدهم، مقيّدين عند مناظرتهم . ما السرّ ؟ هل اختفت من الارض مروجها الخضر ؟ ماذا يصنع هؤلاء الناس عند البحر ؟

انظر ! ها هي افواج اخرى عامدة الخطوات نحو الماء كأنما تريد ان تغوص فيه . يا عجباً ! لا شيء يرضيهم دون الوقوف على حافة الماء، فاما التخطّط تحت المشارف الظليلة في تلك المصانع فانه لا يرضيهم . بل انهم يقتربون من الماء اقتراب من يود ان يعانقه دون ان يقع فيه، وهناك يقفون صفوفاً تبلغ الاميال او الفراسخ طولاً . كلهم من سكان البرّ، وفدوا من الزقاقات والمنعطفات، والشوارع والطرقات، جاءوا من جميع الجهات، واتحدوا جميعاً عند الماء، اترى القوة المغنطيسية في إبر البوصلات المستعملة في تلك السفن قد اجتذبتهم نحوها ؟

ثم هب انك كنت في الزيف، في منطقة مرتفعة ذات بحيرات، واسلك اي مسرب شئت، وانا على يقين ان كل مسرب يقودك الى سرارة الوادي، وهناك تجد نفسك قد وقفت عند حوض في جدول . ان في الماء لسجراً، وان شئت على ذلك برهاناً فاعمد الى رجل هوامة في احلامه غريق في مطاويها، ثم اسنده حتى يقف على قدميه، وادفع به حتى يمشي، تجد انه يقودك - دون ان يضل - الى الماء، ان كان في تلك البقعة ماء . واذا ظمئت وانت في الصحراء الامريكية الكبرى فاعمد الى هذه التجربة ان كان في القافلة استاذ سابح في غيوب المتافيزيكا فكل الناس يعلمون ان التأمل الفكري والماء قرينان الى الابد .

وها هو فنان يريد أن يختار للصورة التي يرسمها منظراً خلاياً من مناظر وادي ساكو^١ هو اشدها امعاً في الحلم واكتشفها ظلالاً، واهدأها واكثرها سحراً وخلابة . فما أهم عنصر يدرجه في الصورة ؟ سيرسم ، ولا بد ، شجرات جذوعها مجوفة كأن في داخلها ناسكاً يحمل صليبه ، وهناك يبسط المرج الغافي، وهنا القطيع الجائي ، ويجعل عند الطرف الاقصى كوخاً يتصاعد منه الدخان الواهي ، وتتغلغل في الغابة النائية طريق متعرجة تبلغ أنوف الرعان الغارقة في زرقة الافق . وتظهر الصورة على هذا النحو ساجحة في غيبوبة النشوة ، وشجرة الصنوبر تنثر تنهداتها فوق رأس الراعي كأنها اوراق تتساقط . إلا انها رغم ذلك كله صورة باهتة لا حياة فيها لو لم تكن عين الراعي معلقة بالجدول السحري الذي يترقق امامه . اذهب في زورة الى منطقة السهوب الشاسعة (البريري)^٢ في شهر حزيران (يونيه) حيث تفرق رجلاك حتى الركبتين بين

١ نهر ساكو ، ينبع من قاعدة جبل شنطن ويحري الى الجنوب ويصب في الاطلسي عند مين .

٢ في الانتقال الى الغرب في منتصف القرن التاسع عشر كان لمنطقة السهوب سحر جذاب يأسر نفوس الامريكيين .

ازهار الزنابق على مدى عشرات من الاميال . لكن ما السحر الذي تفتقر اليه تلك المنطقة ؟ — هو الماء — فليس فيها قطرة منه . ترى لو كانت نياجرا شلالاً من الرمل أكنت تقطع آلاف الاميال من أجل ان تراه ؟ وحين تسلم شاعر تنسي البائس ' قبضتين من الفضة : لماذا تراه وقف يميل بين شراء معطف هو في أشد حاجة اليه وبين ان يستغل نقوده في رحلة الى شاطي روكوي يقوم بها راجلاً ؟ لم يكاد كل غلام جزل سليم ذي روح جزلة سليمة يتوق — بين الحين والحين — توقان المجنون للذهاب الى البحر ؟ ولماذا أحسست أنت نفسك في اول رحلة قمت بها مسافراً باختلاجات غريبة وقد قيل لك انك انت والسفينة قد توارى عنكما منظر البر ؟ لم كان الفرس القدماء يعدون البحر مقدساً^٢ ؟ لم جعل الاغريق للبحر رباً عدوه أخاً لرب الأرباب نفسه^٣ ؟ حقاً ان لذلك كله مغزى . وأعمق من هذا مغزى قصة الفتى « نرجس » فانه حين عجز عن ان يمسك خياله الوديع المتمثل امامه في النبع ، وعذبه شعوره ببعجزه ، ألقى نفسه في الماء وأثر الفرق . ونحن انفسنا نرى ذلك الخيال في كل نهر وكل بحر ، ذلك هو خيال شبخ الحياة ، الخيال الرواغ الذي لا نستطيع ان نضم عليه مجمع اليد ، وذلك هو السر في كل ما هنالك .

واذا قلت ان من عادتي ان اذهب الى البحر حين احس بدوائر من التجهم تنعقد حول عيني ، وحين احس بضيق في التنفس ، فليست اعني انني اذهب الى البحر في صورة رحالة مسافر ، اذ المسافر لا بد له من كيس ، وما الكيس إلا

١ لا احد يدري الى من يشير ملفل في هذه العبارة . ولعل المقصود هو بايارد تياور الذي كان يكثر من الرحلة ماشياً .

٢ ذكر هيرودتس ان المجوس يقدمون الضحايا والقرايين للشمس والقمر والتراب والنار والماء والرياح .

٣ هو بوسيدون اخو زفس في الاساطير الاغريقية .

خرقة اذا كان فارغاً لا خشخشة له ؛ ثم ان المسافرين يصابون بدوار البحر ، ويعتريهم النكد والتحفز للشجار ، ويأرقون ولا يجدون لأنفسهم متعاً . كلا . ولا أذهب الى البحر في صورة كومودور او قبطان او طبّاح ، وان كنت أعرف شئون الملاحة . بل اتخلى عمّا في هذه الوظائف من مجد ورفعة لمن كان يهواها ، ذلك أني امقت كل ما يعده الناس مشرفاً محترماً من ضروب الكدح والحن والبلايا ، أياً كان نوعها . فانا أحبّ ان اهتم بشئون نفسي دون ان اهتم بالسفن والمركبات المثلثة الاشعة والمثناة والشواني وهلم جرا . وانا اقرّ ان وظيفة الطباخ ذات مجد وفير ، إذ الطباخ في السفينة يشبه ان يكون ضابطاً ، ومع ذلك لم يخطر لي أبداً ان أشوي الفراخ ، مع ان الفرخة اذا شويت ، وأضيف اليها القدر اللازم من الزبد ، وملّحت وتبّلت في إحكام ، فلن تجد احداً مثلي يستطيع ان يتحدث عنها باحترام ، ان لم أقل بتوقير وإجلال . ان شغف المصريين القدماء بأبيس المشوي وبفرس الماء المحمّرة هو الذي حدا بهم الى وضع مومياءات هذين الحيوانين في مخابزهم الضخمة التي يسمونها « الأهرام » .

غير أني حين أذهب الى البحر أختار ان أكون بحّاراً بسيطاً يقف امام الصاري ، ويسبر غور الماء امام منارة السفينة ، ويصعد الى قمة الصاري الملكي . حقاً ان رؤسائي يأمروني بهذا او بذاك ، فأقفز من دقل الى دقل كأنني جندب ينطّ في المروج الربيعية ، ومثل هذا الامر في البدء يكون مثيراً وكأبة ، اذ يجرح شعور المرء بالاعتزاز ، وبخاصة ان كان ينتمي الى احدى العائلات العريقة^١ كبني رينسلار وبني راندولف والهردكانوتيين . ولعلّه أشدّ شيء مساساً بالكرامة الذاتية ان كان المرء — قبل ان يغمس يده في برميل القار — معلماً في

١ كانت عائلة ملفل نفسه عريقة ، اشتهر منها غير واحد ، وكان هو نفسه معلماً ، والقطعة الاولى التي جعل عنوانها « فصل في الاشتقاق » وتحدث فيها عن المعلم الشاحب المسلول انما يشير فيها الى نفسه في اغلب الظن ، ولعله اراد ان يقرن نفسه بمعلمين صاروا أدباء مرموقين مثل روسو والدكتور جونسون .

مدرسة ريفية ، يحرك يده الأمرة الناهية امام طلابه ، فيجعل اطولهم قامه يقف في رهبة وخشوع . دعني أؤكد لك ان النقلة من وظيفة معلم الى مهنة بحار امرٌ حادٌ مرهف لا يستطيع المرء ان يصبرٌ بأسنانه مكشراً وهو يأخذه على عاتقه الا اذا أثار حماسه لقبوله فيلسوفٌ مثل سنكا وسائر الرواقين . الا ان حدة هذا الشعور تتضاءل بمرور الزمن .

اي عار في ان يستدعيني قبطان فظ عبوس ويأمرني ان احضر مكتسة انظف بها ظهر السفينة ؟ ترى اي درجة تبلغها هذه المهانة — اعني اي وزن تبلغه — في ميزان الانجيل ؟ هل ينحطٌ قدري في نظر جبريل — سيد الملائكة — لاني خففت باحترام مليباً أوامر ذلك الفظ العبوس في ذلك الامر عينه ؟ خبروني أينما ليس خادماً ؟ اذن فهم يأمرني القبطان العجوز ، ومهما يصبني من صفعاته ولطماته فاني اراني راضياً لاني اعلم انه لم يأت شيئاً إلا ، ولأني على يقين ان كل انسان تقدم له الخدمة على نحو او آخر ، اي على نحو مادي او معنوي ، وهكذا تدور اللطمة فتصيب كل الوجوه ، وتنزل اللكمة على كل منكب ؛ وحين أعلم كل ذلك يستولي عليّ الرضى .

ثم انا اذهب الى البحر في صورة بحار لأنني اتقاضى أجراً عن كل اتعابي ، اما الذي يركب البحر مسافراً فانه لا يقبض درهماً واحداً — فيما اعلم . بل الامر على النقيض اذ على المسافر ان يدفع اجراً وفي هذا نفسه كل ما في الكون من فرق بين الدفع والقبض . وربما كان الدفع اسوأ عقوبة انزلها بنا لصاً الجنة ^١ . اما القبض ، فهل شيء يوازيه ؟ ان الحيوية الوديمة التي يبديها المرء وهو يقبض نقوداً غاية في اثرة الاعجاب ، هذا مع اننا جميعاً نعتقد مخلصين ان المال اصل كل الشرور الدنيوية ، وان الغني لا يدخل باب السماء إلا حتى يدخل الجمل في سمّ الخياط . ما اسرع ما نسلم انفسنا الى التهلكة راضين مستبشرين !

١ في هذا اشارة الى قصة آدم وحواء .

ثم انا اختار دائماً ان اكون بحاراً لاني امارس رياضة بدنية مفيدة واستنشق هواءً نقياً عند منارة السفينة، اذ الامر في السفينة كالامر في العالم الذي نُسكنه، اعني ان الرياح في المقدمة اشد انتشاراً من الرياح في الكوئلة (هذا اذا انت لم تنقض الحكمة الفيشاغورية السائرة)^١ ولذلك فان البحارة عند منارة السفينة يستنشقون الهواء أولاً ثم يسلمونه الى الكومودور في موضعه خلف الدقل الكبير ، فيستنشقوه وقد تبدد جوهره ، وهو يظن خطأ انه اول من يتلقاه ؛ وبمثل هذه الطريقة يتحكم المرءوسون في رؤسائهم في شئون اخرى ، والرؤساء غافلون عما يجري . لقد عبأت رثتي من هواء البحر عدة مرات وانا بحار تاجر، فما الذي أوحى اليّ ان اذهب هذه المرة في رحلة لصيد الحيتان ؟ ان مصرّف الاقدار المحجوب وراء الغيب الذي يرعاني في كل خطاي ، ويحفزني سرّاً الى عمل ما اعمل ، ويسيطر عليّ بطريقة لا استطيع تفسيرها، هو وحده القادر على ان يجيب عن هذا السؤال . ولا ريب في ان رحلتي هذه لصيد الحيتان تمثل جانباً من ذلك المخطط العظيم الذي رسمته عناية الله منذ الازل ، فقد جاءت نوعاً من الراحة القصيرة ، نوعاً من النعم المفرد بين فصلين كبيرين من رواية . ولعلّ ما خط في اللوح المحفوظ انما كتب على النحو الآتي :

التنافس على الجولة الانتخابية الكبرى لرئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة^٢

رحلة لصيد الحيتان يقوم بها شخص يدعى اسماعيل

معركة دامية في افغانستان^٣

١ تنص الحكمة الفيشاغورية على الامتناع عن اكل الفول « فذلك خير للعدة » وهذا يجعل الرؤى في النوم اقل اضطراباً واشد هدوءاً .

٢ لعله يشير الى انتخابات عام ١٨٤٠ قبل البحارة على السفينة اكوشنت .

٣ قامت في كابل ثورة عام ١٨٤١ قتل فيها عدد من الضباط الانجليز .

لماذا خصص لي مديرو المسرح ، اعني الاقدار ، هذا الدور الحسيس ، دور صيد الحيتان ؟ ولم قدّروا لغيري ادواراً كبرى في تراجيديات سامية ، وأدواراً قصيرة سهلة في كوميديات ظريفة ، وأدواراً مفرحة في مجونيات ضاحكة ؟ لست اعرف لذلك جواباً ملائماً ولكنني حين استعيد في ذاكرتي جميع الظروف والملابسات ، اعتقد انني قد اتبين بصيصاً يفصح عن جانب من المنابع والدوافع التي تسلمت إليّ ماكرة تحت شتى ضروب التنكر والتخفي ، واغرّني بالشروع في اداء ذلك الدور الذي قمت به ، هذا الى انها داهنتني فجرتني الى التوهم بأن ما اديته انما اخترته بمحض ارادتي الحرة السديدة وحكمتي الرشيدة .

وأقوى هذه الدوافع فكرة^١ مهيمنة عن الحوت الكبير نفسه ، فمثل هذا الوحش المهول الغامض يثير لديّ كل رغبة في الكشف والتطلع . ثم تلك البحار الموحشة النائية حيث يتدحرج الحوت يحمّة كالجزيرة ضخامة^٢ ، واططار^٣ الحوت ، تلك الاخطار التي لا يستطيع ان يتحدث عنها او اسميها باسمائها ، وما يصحب ذلك من عجائب تقدمها آلاف المراثيات والسموعات عند محاذاة بتاغونيا ، كل هذه الامور كانت عوامل تحكمتم بي لتوجهني الى غايتي . وقد تعجز هذه الامور نفسها عن ان تغري اناساً آخرين ، اما انا فاني امرؤ تعذبه الحرقة الدائمة نحو الامور النائية ، فانا أعشق الابحار في بحار ممنوعة والزلزل على شواطئ موحشة همجية . واستطيع ، دون ان اغفل عما هو خير ، ان اسرع الى ادراك الرعب ، كما يستطيع ان اكون مع الرعب على وئام - وليتهم يسمعون لي بذلك - اذ من الخير ان يكون المرء على وفاق مع كل ما في المكان الذي يحل فيه من نزلاء .

لهذه الاسباب جميعاً رحبت صديقاً برحلة صيد الحيتان ، وكان عالم الاعاجيب فتح ابوابه امامي على مصاريحها . وبين الاخيلة الغريبة التي حدثني الى غايتي اخذت تحوّم في آفاق روحي ، مثني مثني^٤ ، مواكب مسترسلة من الحوت لا تنتهي ، وبينها جميعاً أرى شبحاً عظيماً مقلنساً كأنه تلة ثلجية في الفضاء .

١ يقارن ملفل هنا بين ازدراج الاخيلة في آفاق روحه وبين دخول الحيوانات في سفينة نوح « من كل زوجين اثنين » مشبهاً روحه بالسفينة .

حقيبة من القماش

دسست قميصاً او اثنين في حقيبة قماشية عتيقة وطويتها تحت ذراعي، وشرعت في رحلتي نحو رأس هورن والمحيط الهادي، فغادرت مدينة منياتو الطبية القديمة ووصلت نيوبدفورد^١ دون إبطاء، وكانت ليلة سبت في شهر كانون الاول (ديسمبر)، ولشد ما كانت خيبة املي حين علمت ان سفينة الركاب الصغيرة كانت قد اقلعت الى نانتوكت وان ليست هناك من وسيلة لبلوغ ذلك المكان حتى يوم الاثنين التالي.

ان معظم الشبان الذين يرشحون انفسهم لتلقي آلام صيد الحيتان وعقوباته يقفون في نيوبدفورد كي ينطلقوا من ثم في رحلتهم، غير اني لم اكن اريد ذلك ولا خطري في بال، اذ كنت قد ازمعت ان ابجر في سفينة نانتوكتية، وذلك لان شيئاً جميلاً مثيراً يتصل بكل شيء ذي علاقة بتلك الجزيرة القديمة الشهيرة، وكان ذلك الشيء الجميل المثير يبعث في نفسي سروراً وارتياحاً. نعم كانت نيوبدفورد قد اخذت تدريجاً تحتكر مهنة صيد الحيتان، حتى اصبحت نانتوكت القديمة المسكينة متخلفة عنها في هذا المضمار، ولكن هذه الثانية هي امّ الاولى - هي صور التي ولدت قرطاجة - هي المكان الذي جُرّ فيه اول حوت امريكي قتل الى البر. هل تجمع الحواتون الأول - اولئك الرجال الحمر في قواربهم

١ على الساحل الجنوبي من ولاية ماساشوست، على الضفة الغربية من نهر اكوشتن، اما فيرفان فتقع على الضفة الشرقية، وقد زار ملفل مدينة نيوبدفورد عام ١٨٤٠ يوم كانت اهم ميناء لزيت حوت العنبر.

ليطاردوا الحوت (اللويثان)، إلا في نانتوكت ؟ ومن اين - الا منها - اندفعت
اول سفينة مغامرة وحيدة الصاري وقد شحنت فيها حولة من الحصى - كذلك
تقول القصة - لتخذف بها الحيتان، حتى يكتشف الصيادون مدى اقتربها
فيقذفوها بالرمح المريش من محاذة الدقل المائل الامامي .

كان عليّ ان اقضي في نيوبدفورد ليلة ويوماً، وليلة اخرى تتلوها، قبل ان
استطيع الاقلاع الى الميناء المقدور، ومن ثم وجدتي افكر في امر الطعام والنام،
وكانت ليلة مريبة السحنة، لا بل قائمة شديدة القنم والكآبة، مكفهرة قارسة
البرد، ولم اكن اعرف احداً في تلك المدينة . وسبرت غور جيبي باصابع قلقسة
كانها الخطاف فلم ترجع اليّ الا ببضع قطع من الفضة . ووقفت في وسط شارع
مقفر، وقد طرحت حقيبتى على عاتقي، اقرن بين جهمة الافق في الشمال وظلمته
جهة الجنوب، وفي وقفتي قلت لنفسي : حيناً وليت وجهك يا اسماعيل، حيناً
قدّرت لك حكمته ان تأوي الى نزل في هذه الليلة، يا عزيزي اسماعيل،
فكن على يقين من ان تسأل عن الاجر قبل ان تتورط، ولكن لا تمن في
التدقيق .

وذرعت الشوارع بخطى متردة وجاوزت لافتة «الرماح المتقاطعة»،
ولكن كان يبدو لي المكان الذي وصلت اليه باهظ التكاليف مفرطاً في المرح،
ومن امامي كانت «حانة الحوت المسيف»، ترسل من نوافذها الحمر اللامعة اشعة
فياضة حتى لقد بدا لي انها اذابت الثلج والجليد المتراكم من امام الحان، اذ كانت
كل بقعة سواها تحمل من الصقيع المتجمد طبقة يبلغ سمكها عشر بوصات
وتكوّن رصيفاً صلباً كالاسفلت، وكان ذلك نفسه يكربني حين انقل قدمي على
النتوءات الصوانية، لان الخدمات الشاقة المضنية التي اداها نعلاي جعلتهما في
حالة بائسة مزرية . وخطر لي مرة اخرى ان المكان باهظ التكاليف مفرط في
المرح، وتوقفت لحظة لارقب اللاء المنساب على ارض الشارع، واسمع قرع

القوازي والاكؤس في الداخل . واخيراً قلت لنفسي : امض بنا يا اسماعيل ، ألسنت تسمع ؟ هيا ابتعد من امام الباب فان حذاءيك المرقعين يعرقلان المرور . ومضيت ، تقودني الغريزة في الشوارع المتجهة نحو الماء ، اذ عند الشاطئ أجد - ولا ريب - ارض الحانات والفنادق ان لم اقل ارحبها صدرأ .

يا للشوارع الخاوية ! كِسَفٌ من ظلماتٍ على الجانبين لا بيوت ، وهنا وهناك ذبالة تنوس كأنها شمعة منصوبة في قبر . في تلك الساعة من الليل ، وفي آخر يوم من ايام الاسبوع بدا ذلك الحي من المدينة كأنه خراب مهجور . ولكن سرعان ما بلغت ضوءاً يعلوه الدخان منبعثاً من مبنى داني السقف واسع الباحة ، بابه مفتوح على مصراعيه كأنما يرحب بالداخلين ، وعليه سمة من الاستخفاف وعدم الاكتراث كأنما اقيم ليفيد منه الجمهور ؛ ودخلت ، وكان اول ما فعلت أن وقعت متعثراً بصندوق للرماد في الدهليز . وحين كادت الذرات المتطايرة تخنقني كنت اقول لنفسي : يا لهذا البلد ! أترى هذا رماد عامورة التي احترقت ؟ وتذكرت « الرماح المتعارضة » « والحوت المسيف » ، وقلت : لا بد ان تكون هذه هي « المصيدة » ، ولملت نفسي واستجمعت ناهضاً ، وتقدمت وانا اسمع صوتاً عالياً يصدر من الداخل وفتحت باباً داخلياً ثانياً .

وبدا لي كأنني اشهد البرلمان الاسود الكبير منعقداً في ظلمات توفة (الجحيم)^١ ، وان مئات الوجوه تلفتت في مقاعدها تنفرس في القادم ، ومن دونها ملاك المنية الاسود يرتل في كتاب فوق منبر ؛ كان المكان كنيسة للزئوج وكان حديث الواعظ عن ظلمة الظلام وعن البكاء والعيول وتحريق الأرم هنالك .

١ توفة اسم مرتفعات في وادي ابن هنوم حيث جعل الاسرائيليون الجاحدون ابناهم يرون خلال النار الى الصنم في موكب ضلال وجحود (ارميا ٧ : ٣١ - ٣٢) ؛ وذكره ملتن في « الفردوس المفقود » (١ : ٣ - ٤) وقال : توفة هناك وجههم السوداء . . . ولعل ملفل رأى في نيوبدفورد كنيسة للزئوج فقد كانت لهم فيها كنيسة يوم ذهب في السفينة الاكوشنت .

ومتتمت بيني وبين نفسي. وانا متردد حائر : واهباً لك يا اسماعيل، ما أتعس
القرى عند لافتة « المصيدة » .

وتقدمت فبلغت أخيراً ضوءاً خافتاً غير بعيد عن أحواض السفن، وسمعت
في الفضاء صريراً بائساً، وتطلعت الى اعلى فرأيت علامة تتأرجح فوق باب وعليها
طلاء ابيض يمثل - على نحو باهت - فوارة طويلة منتصبه ذات رذاذ ضبابي وقد
كتب تحتها : « حانة النفثات لصاحبها بطرس التابوتي » .

وقلت لنفسي : تابوت ؟ نفثات ؟ لفظتان كرهتاهما في تلك الحال . غير انهم
يقولون ان كلمة التابوت اسم شائع في نانتوكت واطن ان بطرس هذا هاجر
منها الى هذا البلد. ولما بدا لي النور باهتاً والمكان - لاول وهلة - هادئاً، وبدا
البيت الخشبي الصغير الذي تشعت كأنما عمر من خرائب منطقة التهمتها النيران
ولما اوحى لي اللافتة المتأرجحة ان الصرير الذي ترسله انما هو قرقة الفقر
والتعاسة - لما بدا كل ذلك كذلك قلت : لا بد ان تكون هذه البقعة ارخص
نزل، وخير مكان تقدم فيه قهوة المحص .

كان نوعاً من البيوت غريباً - داراً قديمة تنتهي بحملون مفلوج من احد
جانبيه - ان صح التعبير - مائل على شقه الآخر في أسى . وتقع الدار عند
زاوية حادة كثيبة حيث تظل الريح العاصفة اوروكليدون^١ ترسل عواءاً أسوأ
من كل عواء كانت ترسله من حول سفينة بولس المسكين . وعلى ذلك فارت
اوروكليدون نسيم قوي منعش لكل من استكن في البيت، ووضع رجله على
المدفأة ليدفئها قبيل النوم . يقول مؤلف قديم أملك انا من كتابه النسخة

١ هي الريح التي حطمت سفينة بولس، جاء في اعمال الرسل (٢٧ : ١٤) ولكن بعد قليل
هاجت عليها ربح زوبعية يقال لها اوروكليدون .

الوحيدة التي استعصت على الفناء : « حين تحكم على هذه الريح العاصفة التي تسمى اوروكليدون فيجب ان تعين من اية الزاويتين تنظر اليها، لان الاختلاف بينها ينشئ فرقاً مدهشاً في حكمك : أأنت ترمقها من وراء الشباك الزجاجي حيث يتجمع الصقيع كله في الجانب الخارجي، ام انت ترقبها من خلال النافذة العارية التي لا إطار لها، حيث يتجمع الصقيع في الجانبين الخارجي والداخلي، وحيث يكون شخص الموت هو الزجاج الوحيد ». وحين خطرت هذه العبارة ببالي قلت في نفسي : حقاً ايها الاديب القديم انك لذو منطق سديد . نعم هاتان العينان هما النافذتان وجسدي هذا هو الدار، يا ليت الناس رأبوا هذه الصدوع وسدّوا هذه الثقوب وجعلوا هنا وهناك سطاماً او نسالة . لكن لات حين اصلاح وترميم . فقد تكوّن الكون، ووضع حجر الزاوية في البناء، وسوّيت الشظايا منذ مليون عام . مسكين هو لعازر يغرز اسنانه كالمئشار في صوّة من الصوى ليتخذها وسادة، وترتجف فوقه اسفاله كلما اهتز وارتعش، وقد يسد كلتا اذنيه بالخرق، وقد يضع في فمه قرصة قمح، ومع ذلك فان هذا كله لن يحميه من الريح العاصفة اوروكليدون . ويقول دايفس الشيخ^١ وهو ملفّع بمعطفه الحريري الاحمر (ومن بعد اصبح لديه معطف اشد حمرة من الاول) : اوروكليدون ! أح ! أح ! ما اجملها من ليلة ذات صقيع ! ما اشد لألاء الجوزاء ! اي انوار تجيء من الشمال ؟ دع المتحدثين يتحدثون عن المناخ في صيفهم الشرقي ذي الاهراء الخالدة واعطني الحق في ان اصنع لنفسي صيفاً بايقاد النار .

لكن ما رأي لعازر ؟ هل يستطيع ان يدفء يديه الزرقاوين بان يرفعهما

١ وردت قصة لعازر والرجل الغني في المجيل لوقا (١٦ : ١٩ - ٣١) ولم يعين الانجيل اسم ذلك الغني، وانما ورد اسمه Dives في بعض كتب الرحلات .

في وجه الانوار الشمالية العظيمة ؟ ألا يؤثر لعازر ان يكون في سومطره بدلاً من ان يكون هنا ؟ ألا يؤثر ان يستلقي على خط الاستواء ؟ بلى ايها الارباب ! بل يؤثر ان يذهب الى قرارة السعير ليبعد عن نفسه هذا الزمهرير .

فاذا قلت لك ان لعازر استلقى هناك منطرحاً ورأسه على الصوّة امام باب دايفس فهذا امر اشد اثاراً للدهشة من ان تسمع بان جبلاً من الجليد قد ارسى عند احدى جزائر مالوقا^١ . غير ان دايفس نفسه يعيش كأنه قيصر روسي في قصر من الجليد^٢ مصنوع من التهنيدات المتجمدة، وبما انه رئيس هيئة اجتماعية تحرم الخمر فانه لا يشرب الا العبرات الحار التي يسكبها اليتامى .

ولكن حسبنا بكاء فنحن ذاهبون لصيد الحوت ، ولا بد لنا من دموع غزيرة من بعد . اما الآن فلنكشط الجليد عن اقدامنا المتجمدة ، ولنحاول ان نرى اي نوع من المكان هو حانة « النفاث » .

١ جزائر مالوقا او جزائر النهار تشمل كل الجزر الواقعة في ارجيل الملايو .

٢ كان يقام في بطرسبرج قصر من الجليد كل عام يصوّر بالشموع والمشاغل خلال احد الاعياد.

حانة النفث

إذا انت دخلت حانة النفث التي تنتهي يحملون وجدت نفسك في مدخل فسيح متطامن مضلل، ذي طراز عتيق من الافاريز، يذكر المرء بهيكل سفينة عتيقة قبيحة المنظر . وقد علق في احد جوانبها لوحة زيتية كبيرة ، لوث الدخان صفحتها وانطمست معالمها ، حتى انك لا تستطيع ان تستبين فكرتها وانت تنظر اليها تحت الاضواء المتعارضة غير المتكافئة التي كشفتها لعينيك عند دخولك الا بالتفرس المستمر والزيارات المتكررة المنظمة ومساءلة الجيران . انها كتل من الظلال والاخيلة لا مغزى لها حتى تكاد تظن ان الرسام الذي اوجدها فنان شاب طموح كان يعيش في عصر سواحر نيوانجلند وحاول ان يمثّل بها صورة الفوضى الكونية حين تلمسها كف السحر . بعد قسط كبير من التأمل الخالص والتفكير المثابر المكروور ، وبعد ان تفتح النافذة الصغيرة الواقعة نحو الحلف من المدخل ، تستنتج اخيراً ان هذه الفكرة التي خطرت لك - ايّا كان حظها من الغرابة - لها ما يؤيدها .

غير ان اشد ما يحيرك في الصورة ويعيبك فهمه منها انما هو كتلة طويلة لدنة مهولة سوداء تتذبذب في وسط الصورة فوق خطوط ثلاثة زرق معتمة عمودية عائمة في زيد لا يعرف كنهه . انها صورة بليلة موحلة نزاذة طحلبية لو رآها امرؤ عصبي المزاج لتركته مشتت الخواطر ، غير ان فيها لوناً من الروعة يعز على التحديد والتصور الكامل ، ولا يُدرك الا بعض ادراك ، لونا يأسرك ويوثق عينيك بها حتى لتقول : آليت على نفسي لأجدن مغزى هذا الرسم العجيب .

وتتسائل على خيلتك توأ خواطر براءة الا انها - ويا للأسف - خادعة : انها صورة البحر الاسود وقد هبت عليه النسمات في منتصف الليل ؛ انها الصراع الشاذ بين العناصر الاربعة ؛ هي مرج اتلفه حاصب ؛ لعلها منظر شتائي في هيبور ؛ ربما كانت صورة انفجار نهر الزمن الذي يحتضنه الجليد على الجانبين . ثم تتراجع هذه الخيالات حسيرة امام ذلك الشيء الم هول الذي يحتل وسط الصورة ، لانك ان عرفت سرّه ، فكل ما عداه هين ميسور . على رسلك ! أليس فيه شبه يسير من سمكة ضخمة بل شبه من الحوت العظيم نفسه ؟

والواقع انني عرفت فكرة الفنان ؛ وكان ما توصلت اليه نظرية حاسمة كونتها بنفسي ، الا ان بعضها مبني على آراء جمعتها من شيوخ كثيرين تحدثت اليهم في الامر ، وخلاصة ما هنالك ان الصورة تمثل رجلاً من رأس هورن في عاصفة شديدة ، وقد غاصت سفينته هنالك فأصبحت شبه غريقة لا يرى منها الا صوارمها الثلاثة معطلة ، وفي الصورة حوت ساخط يحنق يريد ان ينقض على السفينة ، وتكاد تقول انه لشدة تحفزه سيتسّم في وثبته رؤوس الصواري الثلاثة .

اما الجدار المواجه للمدخل فقد علقت عليه صفوف من الهراوات الضخمة والحراب ، وبعضها قد رصّع بأسنان لامعة تشبه مناشير العاج ، وبعضها الآخر قد جعلت عليه جمة من خصل شعر الانسان ، وكانت احداها في هيئة منجل ذي مقبض ضخّم تتأرجح يمنة ويسرة كأنها القطاع الذي خلفه في عشب حصده حديثاً حصاد طويل الذراع . وحين يحدق فيها الناظر تعتريه رعشة ودهشة : ترى اي متوحش يخيف آكل اللحوم البشرية كان يحمل هذه الاداة المربعة المذرّبة ليحصد بها الارواح كأنه الموت . وبين هذه الادوات حراب ورماح قديمة صدئة مما يستعمل في صيد الحيتان ، وكلها مكسّر مشوّ . ولبعض هذه الاسلحة قصص وحكايات : بهذه الحربة التي كانت ذات يوم طويلة واصبحت

اليوم معقوفة على نحو غريب ، قتل ناثن سوين^١ ، منذ خمسين عاماً ، خمسة عشر حوتاً بين شروق الشمس وغروبها . وذلك الرمح الذي غدا اليوم مثل البريمة ، قذف في بحار جاوة ، فأصاب حوتاً ندّب به هارباً ، وبعد سنوات قتل ذلك الحوت بعيداً عن رأس بلانكو^٢ . لقد دخل سن الرمح في جسمه عند الذنب ثم تسرب فيه اربعين قدماً كاملة ، كما تتسرب الابرّة القلقة وتتغلغل في جسم الانسان ، واخيراً وجد ذلك السن دفيناً في حردبته .

فاذا انت عبرت هذا المدخل المعتم ومضيت في الطريق ذات الاقواس المتدنية ، ولعلها طريق تخترق ما كان في الايام القديمة مدخنة ضخمة فوق مواعد تحيط بها من كل جانب ، فانك تدخل الغرفة العامة ، وهذا مكان اشد ظلمة من الاول منخفض السقف ، قد صفت في سقفه «مورينات» خشبية ضخمة ، وفرشت ارضه بألواح خشبية قديمة متعظمة ، حتى لتكاد تتخيّل وانت تدوس عليها انك تشي على ارض «قمرات» سفينة عتيقة ، وبخاصة في تلك الليلة التي تعوي فيها الريح وتهز هذه الفسّك البالية الراسية في تلك الزاوية هزاً عنيفاً . وفي احد الجوانب تقوم مائدة مديدة قميّة تشبه الرفّ قد غطيت بصناديق زجاجية مصدوعة مشدوخة ، تملؤها أشياء نادرة علاها الغبار ، جمعت من اقصى ارجاء المعمورة . وفي الزاوية القصوى من الغرفة يقوم كهف معتم هو خزانة الشراب «البار» ، وشكله محاكاة غير متقنة لرأس حوت ، وأياً كان شأنه فهناك فك الحوت المقوس ، وهو من السعة بحيث يمكن لعربة ان تمر تحته . وفيه رفوف مهترئة صفت عليها الاباريق القديمة والقناني والقوايز . وبين فكي هذا الدمار الوحيّ شيخٌ بالٍ صغير الجسم منهمك في عمله كأنه يونان آخر

١ لعله هو نفسه الحوات الذي سيتحدث عنه فالج في اواخر الفصل : ١٨ باسم نات سوين .

٢ هناك عدة مواقع تعرف بهذا الاسم ، ولعل المعني هنا هو الرأس بلانكو (الابيض) في بيرو شمالي بايتا .

ملعون (بل انهم ينادونه باسم يونان)^١ وهو يبيع البحارة البُحران والموت
- لقاء ما لهم - بيع الغلاء .

كرهية هي الاقداح التي يصب فيها ذلك السم . اسطوانية الشكل من خارج
هي تلك الكؤوس الخبيثة الخضر الجاحظة اما في داخلها فانها تستدق وتستدق
حتى تقضي الى قرارة خادعة ، وقد رصع الزجاج - دون اتقان - بخطوط
متوازية تحيط بهذه الاقداح التي تشبه ممسحة الاقدام . يقول الشارب : صب
حتى هذه العلامة ، وذلك يكلفه بنساً واحداً ؛ فاذا بلغ الشراب العلامة
التالية كلف بنسين ، وهلم جراً حتى تمتلئ الكأس - وهي المكيال الذي
يستعمله اهل رأس هورن - وثمنها شلن واحد .

وحين دخلت المكان وجدت عدداً من البحارة الشبان قد تجمعوا حول
طاولة يتفحصون على ضوء خافت « عينات » متنوعة من تحف صغيرة يصنعها
البحارة ويسمونها Skrimshander^٢ ؛ وبجئت عن صاحب الحان ، وحين لقيت
أخبرته اني اريد غرفة ، فأجابني ان داره مليئة بالناس وليس فيها سرير واحد
خالٍ ؛ ثم استدرك وهو يدق على جبهته بيده : « على رسلك ! لا أظن لديك
مانعاً في ان تشارك صياد حيتانٍ غطاءه ؟ أليس كذلك ؟ اعتقد انك ذاهب
للتحويث ، ومن الخير لك ان تتعود هذا الامر » .

واخبرته انني لم احب ابداً ان اشارك شخصاً آخر فراشه ، واذا كان عليّ
ان افعل ذلك ابداً ، فهذا شيء يعتمد على هوية الحوات ؛ فاذا لم يكن لديه
- اي رب النزل - مكان آخر يهيئه لي ، ولم يكن لدى الحوات ممانعة وتشدد ،

١ انظر الفصل التاسع في ما يلي .

٢ أخذت معنى هذه الكلمة من تعريف ملفل لها في الفصل : ٥٧ وهي كلمة عامية تختلف
في تهجتها ، وأشيع صورها Scrimshaw .

فاني لأوثر ان . اشارك اي امرىء شريف لحافه على ان اضرب في شوارع مدينة
غريبة في مثل تلك الليلة المريّة .

— « كذلك قدّرت ! حسنًا . تفضل . عشاء ؟ اتريد عشاءً ؟ سيكون
العشاء جاهزاً توّاً » .

وجلست على « مدّي » خشبي قديم ، تحدد وجهه كأنه مقعد فوق السدّ العتيّد
في منهاوت ؛ ورأيت في احد طرفيه فعل نوتي دءوب اخذ يزينه بمديته الصغيرة ،
وتخيلته كيف انحنى وأكب يعمل في حفر المسافة الواقعة بين رجله ، وقلت
لنفسي : لعله جرّب مهارته في سفينة مطلقة الاشرعة الا انه لم يحرز نجاحاً .

واخيراً دعي اربعة او خمسة منا الى تناول الطعام في غرفة مجاورة ، كانت
باردة كأنها إسلندة ، لا نار فيها ابداً ، اذ زعم رب النزل انه يعجز عن القيام
باعدادها ، ولم يكن ثمة سوى شمعتين كئيبتين مصنوعتين من الشحم وقد وضعت
كل منهما في غلاف مفتول . وسررنا اذ قيّض لكل منا ان يزرّ « صدره
السعدان »^١ على جسمه ، وان يرفع الى شفّيه كوباً من الشاي السامط فوق
اصابع تجمدت او تكاد . الا ان السفرة كانت من النوع الخصب الغني اذ لم تقتصر
على اللحم والبطاطس ، وانما كانت تشمل ايضاً الفطير السكري . يا لله ! فطير
للعشاء ! وأقبل شاب يلبس معطفاً اخضر سميكاً على ذلك الفطير اقبالاً مفزعاً
مروعاً .

فقال رب النزل : « يا بني انا متيقن ان الكابوس سيتلبسك الليلة » .

فهست : « ايها السيد ، هذا الفتى لا اظنه الحوات ، اتراه هو ؟ »

١ هي صدره ضيقة يلبسها البحارة .

فقال رب النزول وقد ارتسمت على وجهه امارات مرح شيطاني : « لا . لا .
ان الحوات فتى ذو سحنة سوداء وهو لا يأكل الفطير ابداً . ابداً لا يأكله . لا
يتناول الا الشرائح المشوية ويجبها حباً جماً » .

فقلت : « قبحه الله ، ولكن اين هو هذا الحوات ؟ اهو هنا ؟ » فأجابني :
« سيحضر عما قليل » .

وبدا الريب يساورني في امر هذا الحوات الاسود ، وما استطعت لربي
دفعاً . ثم حزمت أمري وقلت لنفسي : اذا اتفق ان نمنا تحت لحاف واحد فعليه
ان يخلع ثيابه وان يأوي قبلي الى السرير .

انتهى العشاء ، وعادت الجماعة الى غرفة الشراب ؛ واذا لم اكن اعرف ما
يمكن ان افعله قررت ان اصرف ما تبقى من المساء في المشاهدة والتطلع .

وعلى التو سمعنا جلبة في الخارج ، وصاح رب النزول وهو يبادر للنهوض :
« هؤلاء بحارة الباخرة «الغرمبوز»^١ . رأيتها اليوم على مسافة من الميناء . استغرقت
رحلتها ثلاث سنوات . سفينة محملة بالمشحونات . مرحى . ايها الفتيان . سنسمع
آخر الانباء من جزر فيجي » .

وسمعنا وقع احذية البحارة في المدخل . وانفتح الباب على مصراعيه ،
ودلف الينا مجموعة غريبة من الملاحين ، تدثروا بمعاطفهم البحرية الحشنة ، وقتعوا
رءوسهم بغفارات صوفية كلها بال ممزق ، وقد تلبدت لحاهم بما علق بها من
ذلاذل جليدية ، وكأنهم في ذلك الزي قيطيع من الدببة انطلقوا من لابرادور .
لتوهم نزلوا البر من قاربهم وكان هذا اول بيت يدخلونه ، فلا عجب اذن ان

١ الغرمبوز : اسم لنوع من الحيتان ، سيجيء تصنيفه في الفصل : ٣٢ ، وقد قال فيه
ملفل هنالك : « ويرى بعض الصيادين ان ظهوره ارماس بأن حوت العنبر العظيم على الاثر » .

يَمَوّوا عامدين صوب فك الحوت ، أعني خزانة الشراب ، فتلقاهم يونان العجوز
الاعكش - في حركته الدائبة - وأترع الكؤوس - في الحال - لهم جميعاً .
وكان أحدهم يشكو « نزلة » في الرأس ، لذلك مزج له يونان دواءً كالقطران من
شراب الجنّ والدبس معاً ، وأقسم انه سيد الادوية جميعاً لعلاج انواع البرد
والزكام ، أيّاً ما كان عمر المرض وقدرته على المقاومة وسواء في ذلك أعلّقته
المريض عند شاطئ لابرادور او وهو في مهب الريح الصادرة عن جزيرة ثلجية .

وسرعان ما صعد الشراب الى رؤوسهم ، مثلما يفعل دائماً ، حتى ولو كان
'شرابه اخبث السكيرين الذين نزلوا الى البر حديثاً ، فبدأوا يثبون ويصخبون .

ولمحت ان احدهم يقف متنجساً عن رفاقه . لم يكن يرغب في ان يفسد عليهم
جذلم بما يعلو وجهه من صحور رزين ، الا انه على الجملة تحاشى ان يحدث صخباً
كصخبهم ، وراقني هذا الرجل على التوّ؛ وبما ان ارباب البحر قد قدّروا له ان
يكون من بعد رفيقي في السفينة (اما عند هذا الحدّ من قصتي فهو رفيق في نزل)
فاني سأجرب قلبي في وصفه : تبلغ قامته ستة اقدام ، ذو كتفين مهيبتين وصدر
كخزان الماء في السفينة ، وقلما رأيت لدى رجل ما رأيت فيه من قوة عضلية .
كان وجهه برونزي اللون ملوّحاً بالشمس ، فاذا انفرجت شفتاه عن اسنانه
التمعت بشدة ؛ وفي الظلال العميقة المطيقة بعينيه ذكريات حائمة لا تبعث في
نفسه كثيراً من الجذل . وحين سمعت صوته عرفت انه من اهل الجنوب ،
وقدّرت حين رأيت قامته الجميلة انه احد الجبليين الفارعين من سلسلة الينانيا في
ولاية فرجينيا . وعندما بلغت العريضة لدى رفاقه ذروتها انسلّ خارجاً دون
ان يلحظه احد ، ولم اره الا عندما اصبح رفيقي في البحر . وفي بضع دقائق
افتقده رفاقه ، ويبدو انه كان اثيراً لديهم جميعاً ، فرفعوا عقائهم يصيحون :
« ولكنجتون . ولكنجتون . اين ولكنجتون ؟ » وانطلقوا من البيت يبحثون
عنه .

أصبحت الساعة تقترب من التاسعة وبدأ كأن قوى غيبية ضربت على الغرفة غشاء من الهدوء بعد ذلك القصف ، وبدأت أهنيء نفسي على خطة صغيرة خطرت لي قبيل قدوم البحارة :

لا انسان يؤثر ان يكون احد اثنين في سرير واحد . بل لعلّ المرء يتحاشى ان يشارك اخاه لحافه . لست ادري لم كان ذلك كذلك ولكني اعلم ان الناس يفضلون الوحدة حين ينامون . واذا كان الامر ان ينام المرء مع شخص غريب لا يعرفه في فندق غريب في مدينة غريبة ، وذلك الشخص الغريب صياد حيتان فان اعتراضاته تتوالى الى ما لا نهاية . وليس في الوجود سبب يجعلني دون سواي من الناس ، وانا البحار ، اشارك رجلاً آخر فراشه . ذلك ان البحارة لا يشاركون غيرهم أسرّتهم وهم في البحر ، مثلاً ان العازبين من المملوك لا يفعلون ذلك وهم على البر . حقاً انهم جميعاً ينامون في غرفة واحدة ولكن لكل امرئ منهم ارجوحته ولكل منهم بطانيته ، وكل منهم يستقلُّ بإهابه .

وكلما انعمت التفكير في امر ذلك الحوَّات ازداد مقبي لفكرة النوم معه . وكان من حقي ان افترض انه ما دام صياداً فان الكتان الذي يلبسه او الصوف — حسباً كان الامر — قد يكون من اقل الانواع نظافة او انه على وجه اليقين ليس من أجملها . وبدأت اختلج حتى عمّ الاختلاج بدني كله ، ثم : لقد مضى قطع كبير من الليل وقد آن لذلك الحوَّات الارب ان يعود وان يكون قد ذهب الى السرير . هب انه جاء وأوى الى فراشه فوق جثتي في منتصف الليل — كيف أعلم من اي وكرٍ لعين انسلّ قادماً ؟

— « ربّ النزل ! غيّرتُ رأيي حول ذلك الحوَّات — لن انام معه وسأجرب هذا المقعد » .

— « اعمل ما يرضيك . آسف اذ لا استطيع ان أقدم لك غطاء طاولة

لأستعمله مفرشاً . وهذا الخشب كزّ لعين » ؛ وأمرّ يده يتحسس ما فيه من عقد واخاديد . « لكن مهلاً يا تحفّتي الصغيرة ! ، لديّ في غرفة الشراب فارة نجار . سأكفل لك الراحة المسترخية هنا » . وما ان تفوه بهذه الكلمات حتى اسرع فاحضر الفارة ، ونفض الغبار أولاً عن المقعد بمنديله الحريري العتيق ، ثم انحى على الخشبة سحباً قوياً وقد كسر عن انيابه كالقرد . واخذت النشارة تطير بينة ويسرة حتى ارتطمت الفارة اخيراً بعقدة عقداً لا يمكن تحطيمها . وكاد رب النزول ان يوهن رسغه وانا استحلفه ان يكف ، فان السرير قد أصبح املس ناعماً ممهداً لجنبي ؛ ولست اعلم كيف يمكن لاي سحج في الكون ان يصنع ريش نعام من لوح خشب الزان . ورسم رب النزول تكشيرة أخرى واخذ يجمع النشارة وألقى بها في الموقد الكبير القائم في وسط الغرفة ومضى لطيبته وخلفني في تفكير قاتم .

قست طول المقعد فوجدته ينقص قدماً عما يكفيني ، وقلت : ذلك امر ميسور الحلّ اذا انا وصلت به كرسيّاً ، ولكني وجدت عرضه ينقص قدماً ايضاً ؛ وكان المقعد الآخر في الغرفة اعلى من الذي سحج بالفارة بمقدار اربع بوصات ، فلا امل في جمعها معاً . وضعت المقعد الاول طويلاً في البقعة الوحيدة الخالية بموازاة الحائط وتركت بينه وبين الحائط فضاءً صغيراً ليطمئن فيه ظهري ، ولكن سرعان ما وجدت ان تياراً من الهواء البارد تدفق عليّ من تحت اسكفة الشباك ، فاستيقنت ان هذه الخطة لا تجدي شيئاً خصوصاً وان تياراً آخر من الباب الخائر الكسيع اخذ يلتقي بالتيار المندفِع من الشباك ويكون الاثنان سلسلة من الدوامات الصغيرة يجوار البقعة التي قدّرت ان امضي الليلة فيها .

وقلت لنفسِي : ليت الشيطان يُحضر ذلك الحوات ، لكن مهلاً ! ألا تستطيع ان اكسب الجولة منه فأغلق الباب بالمزلاج من داخل ، وأثب الى فراشه ثم لا استيقظ ولو سلطوا على الباب اعنف الدق ؟ بدت لي فكرة غير رديئة

ثم نفيتها عن خاطري عندما اعدت فيها النظر ، اذ من يدري ، ربما وجدت الحوات في الصباح ، حين أطلت من الغرفة ، واقفاً في المدخل على اهبة ان يجدلني ارضاً .

ونظرت حولي مرة اخرى فلم اجد فرصة ممكنة لقضاء ليلة محتملة الا في سرير شخص آخر ؛ وعندئذ بدأت احس انني ربما غرست في نفسي هوًى لا داعي له ضد حوات لا اعرفه ، وقلت : أنتظر برهة فقد يهبط عليّ قبل مضي وقت طويل ، عندئذ اتفرس فيه وربما وجدنا الرفقة في سرير واحد سارة . لا احد يدري .

وظل النزلاء الآخرون يفدون واحداً واحداً ومثنى مثنى وثلاث ثلاث ويندهبون الى النوم الا هو فلم يلح له طيف . وقلت : « ربّ النزل ! اي نوع من الفتيان هو - أيتأخر دائماً في عودته ؟ » وكانت الساعة قد كادت تدق الثانية عشرة .

وابتسم ربّ النزل ابتسامته الواهية مرة اخرى وبدا كأن شيئاً يجاوز ادراكه يدغدغه بقوة . وأجابني قائلاً : « لا . على وجه العموم هو طير لا يغيب عن عشه . ينام باكراً وينهض باكراً . نعم هو الطائر الذي يلتقط الدودة . غير انه خرج الليلة يبيع متجولاً ، ولست ادري اي شيء أخره ، الا ان يكون قد عجز عن ان يبيع رأسه » .

«عجز عن ان يبيع رأسه ؟ ! اي قصة محيرة مضحكة هذه التي تقصها عليّ ؟ » واستبد بي الغضب ، ومضيت اقول : « هل تودّ ان تقول ان هذا الحوات منهمك ليلة السبت هذه ، او على الاصحّ صباح الاحد ، في عرض رأسه للبيع في المدينة ؟ »

فقال : « تماماً . وقد قلت له انه لن يستطيع بيعه هنا ، لان السوق بلغت حدّ الاكتفاء او يزيد » .

فصرخت : « حدّ الاكتفاء من اي شيء ؟ »

— « من الرؤوس يقيناً . أليس في العالم رؤوس كثيرة جداً ؟ »

فقلت : « اود ان اصارك ايها السيد ، من الخير لك ان تكف عن غزل هذا الحيط . فأنا لست غراً غمراً » .

فقال وهو يبري من العصا خلافاً يفرزه بين اسنانه :

« لعلك لست غراً ، ولكنني اظن ان وجهك سيسود اذا سمع ذلك الحوات انك تسخر من رأسه » .

فقلت وقد هاج غضبي من جرّاء هذا الخلط الذي لا اجد له تعليلاً وصاحب النزول يواجهنني به : « بل سأكسر ذلك الرأس » .

فقال : « ولكنك مكسور » .

قلت : « مكسور ! تعني انه مكسور ؟ »

— « دون ريب . وذلك هو السبب الذي يحول دون بيعه ، فيما أحسب » .
عندئذ انتحلت بروداً كهروء جبل هقلا ابان عاصفة ثلجية وقلت له : « ايها السيد ، يا رب النزول ، كف عن برّي هذه العصا . علينا انا وانت ان يفهم احدنا الآخر ، وان يتم ذلك دون ابطاء . ها انا اجيء الى دارك لاكتري سريراً فتقول لي : لا أستطيع ان اقدم لك الا نصف سرير اذ النصف الثاني اصبح من نصيب رجل حوّا لم اره انا بعد ، بينما تصرّ انت على ان تخبرني عنه اشد القصص اثاره

للحيرة والهيّاج، كأنما تريد ان تولّد في نفسي شعوراً مقلّقا نحو رجل قرّرت ان يكون شريكى في سرير - والشرّاقة في السرير، ايها السيد، ألفة وثيقة سرّية من ارفع طراز؛ فانا اطلب اليك ان تدلني على هوية هذا الخوات وماهيته وهل اذا اعتبرت الامر من كافّة وجوهه - اظلّ سالماً اذا انا قضيت الليلة معه . وأود في المقام الاول ان تكف عن سرد تلك القصة - قصة بيعه لرأسه - فاني اعدّها، ان هي صحت، شاهداً قوياً على جنونه المطبق، وما كنت لاناام مع رجل مجنون. وانت يا سيدي، اعني انت يا رب النزل، اي انت نفسك يا سيدي، حين تحاول عامداً متعمداً ان تغريني بالمبيت معه تعرّض بذلك نفسك للمقاضاة على جرم» .

واخذ رب النزل نفساً طويلاً وقال: «اشهد ان هذه موعظة طويلة من فتىّ يشدّ به الهيّاج فيرسل هُجْرَ القول احياناً . هدىء من روعك . هذا الخوات الذي حدثتك عنه وصل حديثاً من البحار الجنوبية حيث اشترى عدداً من الرؤوس الزيلندية المخططة (طُرْفَة من الطرف كما تعلم) وقد باعها جميعاً الا واحداً ذهب يسعى لبيعه الليلة، اذ غداً هو الاحد، ولا معنى لان يجوب الشوارع لبيع رؤوس آدمية والناس غادون الى الكنائس . لقد اراد ان يفعل ذلك يوم الاحد الماضي فاستوقفته وهو خارج من الباب ومعه اربعة رؤوس قد سلكها في خيط حتى كأنها «مشكّك» من البصل .

هذا الشرح فسّر ما ظلّ لولاه لغزاً لا يحلّ ، ودلّني على ان رب النزل لم يخطر له ان يسخر مني . ولكن ما هي نظرتي انا - في الوقت نفسه - الى حوّاّت مكث طوال ليلة السبت حتى ادركه صبح الاحد وهو منهمك في عمل وحشي، اعني بيع رؤوس موتى وثنيين ؟

- « صدقني ايها السيد ان هذا الخوات رجل خطر » .

فردّ قائلاً: «هو رجل لا يخلّ بدفع الاجر . لكن هيا لقد فات الليل . ومن الخير ان تجرب بختك - فالسرير مريح . نمت فيه انا وزوجتي سال ليلة اقتراشنا . فهو يتسع لاثنتين يسرحان فيه ويمرحان . سرير جبار كبير . كانت سال قبل ان نتخلى عنه تضع عند قاعدته ابنيها سام وجوني الصغير . لكنني في احدى الليالي رأيت مناماً واخذت اتقلب وانا بائم، كما ان سام وقع على الارض وكاد يكسر ذراعه . بعدئذ قالت لي سال : لاخير فيه . تعال معي . سأدعك تلقى عليه نظرة خاطفة » . وعندها اضاء شمعة وحوّلتها نحوّي و اشار اليّ ان اتبعه . غير اني وقفت متردداً . ونظر هو الى الساعة في الزاوية وهتف قائلاً : «اقسم ان الاحد قد حلّ » . لن ترى ذلك الحوات الليلة . لقد القى مراسيه في مكان آخر . تعال . بالله عليك تعال . الاتجيء ؟»

نظّرتُ في الامر برهة وتبعته على الدرج، فادخلني غرفة صغيرة باردة كالحجارة، مؤنثة بسرير ضخم يتسع حقاً لاربعة حواتين ينامون فيه وقد افترشوا صدورهم .

وضع رب النزل الشمعة على صندوق بحري قديم عجيب يؤدي مهمتين : فهو حامل للمغسلة وهو طاولة متوسطة، وقال : «يلا... الى الراحة . وتصبج على خير » . ورفعت عيني عن السرير وتحوّلت لانظر اليه فوجدته قد غادر الغرفة .

انخبت فوق السرير بعد ان طويت غطاءه . لم يكن شيئاً بالغ الاناقة ولكنه كان مظنة التحمّل للامتحان . ادرت بصري في الغرفة فما رأيت الى جانب السرير والطاولة المتوسطة من اثاث سوى رفّ خشن، والجدران الاربعة، ولوحة من الورق ترسم عليها صورة رجل يطعن حوتاً . اما الاشياء التي وضعت في الغرفة وليست من اثاثها الدائم فقد رأيت منها أرجوحة مطوية ملقاة على الارض

في احدى الزوايا، ورأيت كيس بحريّ كبيراً يحتوي ملابس الحوات وهو ولا ريب يقوم في البحر مقام الحقيبة على البر . وهناك ايضاً على الرف فوق الموقد صنارات غريبة من عظام السمك، ورمح مُرَيَّشٌ طويل عند رأس السرير.

لكن ما هذا الملقى على الصندوق؟ رفعته وقربته من النور، لمستته وشمته، حاولت كل وجه ممكن لأصل الى رأي مقنع في شأنه؛ لا استطيع ان اشبهه الا بمسحة الارجل التي توضع عند الباب، وقد زخرفت حوافه بجلاجل صغيرة رنانة كريش الشبهم المدهون الذي يزخرف به الهنود أحذيتهم . وفي وسط هذه المسحة ثقب او شق مثل الذي تراه في البرانس التي يلبسها اهل امريكا الجنوبية. ولكن أيصحّ لحوات عاقل ان يلبس مسحة ارجل ويتخطر في شوارع اية مدينة مسيحية وهو في ذلك الزي التنكريّ؟ لبست ذلك الشيء لأجرّبه فاثقلني كأنه زنبيل اذ كان جاسياً خشناً سميكاً، وخيّل اليّ انه ايضاً رطب كأن الحوات العجيب لبسه في يوم ماطر. تقدمت نحو قطعة من مرآة مثبتة في الجدار فلم ارَ في حياتي منظرأ كالذي رأيت . انتزعت نفسي منه بعجلة حتى لأحسست بوثءٍ في عنقي .

جلست على حافة السرير وبدأت افكر في الحوات بياع الرؤوس، ومسحته التي يرتديها؛ وبعد ان قضيت في التفكير فترة في جلستي تلك نهضت وخلعت صدارة السعدان، ووقفت في وسط الغرفة مفكراً . ثم نزعت معطفي ومضيت افكر وانا ما ازال البس قميصي . غير اني بدأت اشعر بشدة البرد بعد ان نزعت بعض ثيابي، وتذكرت ما قاله صاحب الدار عن الحوات وانه لن يعود تلك الليلة الى البيت اذ فات اوان عودته، وعندئذ كففت عن التفكير، وجذبت سروالي ونعلّي في سرعة، واطفأت الشمعة وأويت الى الفراش وخليت نفسي في رعاية الله .

هل كانت الحشوة محشوة باقراص القمح ؟ هل كانت محشوة بكسر من الخبز ؟ لست ادري . غير اني تقلبت طويلاً ولم يراوح النوم عيني واخيراً ذهبت في تهوية خفيفة وكدت أقلع نحو ارض « النعاس » حين سمعت وطناً ثقيلاً في الممر ورأيت بصيصاً من نور يتسرب الى الغرفة من تحت الباب .

نجّني يا رب، فهذا هو الحوات ولا بد، ذلك هو الجهنمي بيّاع الرؤوس . وظللت متمدداً وآليت ان لا افوه بكلمة الا حتى يكلمني . ودخل الغريب الغرفة يحمل الشمعة في يد والرأس الزيلندي نفسه في الاخرى ووضع الشمعة، غير قريب مني، على الارض في احدى الزوايا، ثم اخذ يعمل في فك عقد الجبل عن الكيس الذي اشترت من قبل الى وجوده في الغرفة . وكان بي شوق جامح لرؤية وجهه الا انه ابقاه منزوياً عني مدة وهو يعالج حل الرباط . فلما انتهى من ذلك استدار اليّ . يا لله ! اي منظر ! يا له من وجه ! وجه ذو لون اصفر ميال للارجواني قائم تتخلله بقع سود كبيرة متناثرة . نعم هو كما قدّرت . رفيق مرعب . كان في شجار نال فيه جراحاً رغيبه وعاد لتوّه من عيادة الجراح . واتفق في تلك اللحظة ان اُدار وجهه نحو النور فأتضح لي ان البقع السود على وجنتيه لا يمكن ان تكون ابداء ضمادات مثبتة . انما هي لطخات . ولم ادر في البدء كيف افسر هذا الامر ولكن سرعان ما خطر لي طائف من الحقيقة : تذكرت قصة رجل من البيض - حوات ايضاً - وقع بين المتوحشين فوشموه بمسهم ، وخلصت الى ان هذا الحوات ايضاً قد وقع في مغامرة مماثلة اثناء رحلاته البعيدة . ثم قلت مناجياً نفسي : اي ضير في هذا ؟ هذا هو مظهره وحسب . والمرء قد يكون شريفاً مهما يكن لون بشرته . ولكن كيف افسر سحنته التي لا تنتمي الى الارض اعني ذلك الجزء من وجهه الذي لا علاقة له ببقع الوشم ؟ قد يكون طبقة اكتساها وجهه من تلويح شمس الاستواء، لكنني لم اسمع في حياتي ان الشمس تدبغ بشرة انسان بلون اصفر مائل الى الارجوان . على اية حال انا لم اعش في البحار الجنوبية ولعل الشمس هنالك

تحدث مثل هذه الآثار الغريبة في البشرة . وبينما كانت هذه الافكار تعبر خلال رأسي كالبرق ، لم يتنبه الحوات لي ابدأ ، بل فتح كيسه بعد جهد وبدأ يعيِّث فيه واستخرج منه نوعاً من الطبرزين وكيساً من جلد الصَّيْل لا يزال الشعر عليه ، ووضع هذين على الصندوق القديم القائم في وسط الغرفة ثم تناول الرأس الزيلندي - وهو شيء فظيع حقاً - ودسه في الكيس . ثم خلع قبعته - وكانت قبعة محرّدة جديدة ، ففاجأني بمفاجأة جديدة اذ كان رأسه خالياً من الشعر - مسحاً منه تماماً - الا جمجمة في يافوخه قد عقصها عند جبهته . وتبدى رأسه الاصلع ذو اللون الارجواني لكل ذي عينين كأنه جمجمة متعفنة . ولولا ان ذلك الغريب كان يقف بيني وبين الباب لانطلقت منه هارباً بأسرع مما ألتهمُ العشاء .

بل لعلمي فكرت في ان انسلّ من الشباك لولا انني تذكرت ان الشباك يفضي الى قضاء الطابق الثاني . لست امرأ جباناً ، ولكن أبلس علي فلم ادر ماذا اصنع بهذا الوغد الارجواني بياع الرؤوس . والجهل ابّ للخوف . وبما اني وجدتني في منتهى الحيرة والتردد ازاء هذا الغريب فاني اعترف بان الخوف منه تملكني حتى كأن الشيطان نفسه هو الذي دخل عليّ غرفتي في صمت الليل البهيم . بل بلغ بي الخوف مبلغاً جعلني اخشى ان اخاطبه حينئذ وان اطلب اليه جواباً مقنعاً عما كان يبدو لي فيه لغزاً غير قابل للتفسير .

وفي اثناء ذلك مضى هو يخلع ملابسه وكشف في النهاية عن صدره وذراعيه ، واقسم ان هذين الجزئين المستورين من جسده كانا موشومين بتلك البقع السود نفسها ، فكأنما خاض حرباً كحرب الثلاثين ونجا منها بلفافة من « اللزقات » اتخذها قميصاً . بل ان رجليه كان يغطيها الوشم واذا نظرت اليها حسبت عدداً من الضفادع الخضراء يتسلق جذع لينة صغيرة ؛ وتجلّى لي انه لا بد ان يكون وحشاً مقيتاً او ما شابه ذلك ، نقله حوات في البحار الجنوبية على ظهر سفينته ونزل في هذا البلد المسيحي . وارتعشت اذ جرى ذلك في خاطري . وهو ايضاً

بائع رؤوس ولعلها رؤوس اخوته ، وربما اعجبه رأسي ، يا الله ! انظر الى هذا
الطبرزين !

ولكن لم تبْقَ لدي فرصة للارتعاش لان الرجل المتوحش اخذ في شيء
ملك عليّ انتباهي وأقنعتني بأنه وثني ولا بد ، فقد اتجه الى برنسه الثقيل^١ او
قبائه او قفطانه ، وكان قد علقه على الكرسي ، وعيّن في جيوبه واستخرج بعد
البحث صورة غريبة صغيرة مشوهة محدودة الظهر ولونها يشبه تماماً لون طفل
كونغويّ ابن ثلاثة أيام . وعندما تذكرت الرأس المخطط كدت أظن في البداية
ان هذا القزم الاسود كان طفلاً حقيقياً مخطأً ايضاً ، ولكنني حين رأيته لا لدونة
فيه وانه كان يلتمع كأنه الابنوس المصقول ، استنتجت انه لا بد من ان يكون
صنماً خشبياً ، وقد كان حقاً كذلك .

ذلك ان الوحش اتجه صوب الموقد الخالي وأزاح اللوحة المغطاة بالورق
ونصب أحده القميء كأنه بيذق الشطرنج بين حديدتي الوجاق ، وكانت
جوانب المدخنة واللبنات المرصوفة في داخلها مغطاة بالكّتن ، حتى لتصور
ان هذا الموقد كان خير معبد صغير او مزار لصنمه الكونغوي .

وتخازرت محققاً في التمثال الذي استتر عني نصفه وانا احس بالقلق والتملل
في الوقت نفسه - وحددت البصر لأرى الخطوة التالية . فرأيتة يستخرج اولاً
حفنة من النشارة من جيب برنسه ويضعها باعتناء امام الصنم ثم يضع في قمتها
قطعة من بسكويت المراكب ويقرب اليها شعلة المصباح ويوري النار في النشارة
ليجعل منها لهباً قربانياً . وفي الحال يقرب اصابعه من النار بسرعة ويسحبها

١ استعمل المؤلف كلمة grego ويرى بعض المعلقين انها تركية الاصل ، قلت : ولعلها هي
القرقل بالعربية ، والعامية يقولون القرقر .

بسرعة أشد، عدة مرات (وبهذا السعته النار وأذتها لسعاتها فيما يبدو) وأخيراً وفق إلى استخراج قطعة البسكويت ثم هدأ النار وفرق الرماد وقدمها في اجلال لزنجيه الصغير ، ولكن ذلك الشيطان الصغير لم يبدُ عليه انه احب هذه الوجبة الجافة ابداً فلم يحرك شفتيه . وقد رافق هذه الشعائر الغريبة اصوات حلقيه اشد غرابية كان يرسلها ذلك المتعبد الذي بدا كأنما كان يرتل ترنيمة او لعله يغني مزموراً وثقياً او شيئاً شبيهاً به ، وكان وجهه اثناء ذلك كله يختلج على نحو بالغ الشذوذ . وأخيراً اطفأ النار ، وتناول الصنم دون خشوع او اجلال ، ودسه في جيب برنسه في اكتراث قليل كأنما كان صياداً يدس ديك السلوى الميت في جعبته .

زادت هذه الاعمال الشاذة من قلقي؛ ولما ابصرت الدلائل كلها تدل على انه قد أنهى اعماله وانه سيثب في السرير الى جانبي تصوّرت ان الوقت قد حان ، قبل ان ينطفئ النور، لأحطم ربقة السحر التي كانت تقيدني، واذا ضيعت هذه الفرصة فقد ضاعت للأبد .

الا ان الفترة التي بددتها في التهيؤ لما اريد ان اقول كانت ضربة قاضية فقد تناول الطبرزين عن الطاولة وتفحص رأسه لحظة ثم قربه من النور وقد جعل مقبضه في فمه ونفث سحبا كثيفة من دخان الطباقي وفي اللحظة التالية انطفأ النور وقفز المتوحش ، وكدوسه^١ - وهو ما حسبته طبرزينا - بين اسنانه ، الى السرير بجانبني فلم أتمالك من ان تندّ عني صيحة - حشرجة دهشة - جعلته يشعر بوجودي .

١ الكدوس : كلمة دارجة في السودان تدل على ما نسميه « الغليون » او ما يسمى « الشبك » في التركية ، وقد اتخذته للدلالة على الغليون ذي الساق الطويلة مرادفاً للشبك ، وقصرت كلمة « الغليون » على ما كانت ساقه قصيرة .

وتمت متلعثمًا بما لا ادريه ، وتدحرجت مبتعداً عنه نحو الجدار ثم استخلفته ، اياً كان ومهما يكن ، بأن يبقى هادئاً وان يدعني انفض واشعل المصباح مرة اخرى ؛ الا ان الاصوات المنبعثة من حلقه اقنعتني على التو انه اساء ادراك ما اعنيه .

واخيراً قال : « اي شيطان انت ؟ لا تتكلم انت . والا أقتُل » . وما ان نطق بهذه الكلمات حتى مضى الكدوس يلتمع من حولي في الظلام .

فصرخت : « يا ربّ النزل ! بحق الله ! يا بطرس التابوتي ، يا رب النزل . اشهد ! يا تابوتي ! يا ملائكة ! خلصوني ! » .

فهمهم المتوحش مرة اخرى يقول : « احكِ . خبر انا من هو انت والا ملعون اقتلك » بينا كانت جذبات الانفاس من الكدوس تطير رماد الطباقي الساخن من حولي حتى لحسبت ان منامتي ستحترق . ولكن شكراً لك يا رب ! ففي تلك اللحظة دخل صاحب النزل الى الغرفة وبيده شمعة ، فقفزت من السرير وجريت نحوه .

فكشّر عن انيابه وهو يقول : « لا تخف الآن ، ان كويكوج^١ هنا لن يمس شعرة في رأسك » .

فصحت فيه : « كفّ عن التكشير . لماذا لم تخبرني ان ذلك الحوات الجهنمي من أكلة لحوم البشر ؟ »

١ ان لم تكن هذه الشخصية من نسج الخيال فان ملفل قد نظر في تصويرها الى ماربونا من ناهيتي وقد اعجبه فيه قوة شعوره القومي واعتزازه بوطنه وسماه « فيلسوف الطبيعة » الوثني المتأبد الذي كانت ينتقد الرذائل والحقائق المسيحية في بلاط ناهيتي ، وهو مثل كويكوج في مظهره ودربته في التحويت ومزاجه الفلسفي . ولا ريب في ان كويكوج هو الشخصية الوحيدة التي تستأثر بالحب في القصة كلها .

— « ظننت انك تعرف ذلك . لم اخبرك انه ذهب يبيع الرؤوس في المدينة ؟
ولكن اهدأ الآن واذهب لفراشك . اسمع يا كويكوج . انت تسمع كلامي ، انا
اسمع كلامك . هذا ينام في فراش معك . سامع ؟ »

فهمهم كويكوج قائلاً : « تمام » . ومضى ينفث دخان الكدوس وهو جالس
في السرير .

ثم اشار اليّ بكدوسه وهو يقول : « تعال تنوم » ، ورمى الملابس الى ناحية .
فعل ذلك بطريقة لا اعدّها مهذبة فحسب بل هي في الواقع لطيفة عطوفة .
ووقفت انظر اليه لحظة فوجدته على رغم الوشم الذي يغمر جسمه متوحشاً
نظيفاً مليح المنظر . وقلت لنفسي : ما هذا الازعاج الذي قمت به ؟ الرجل
انسان مثلي ولديه من الاسباب ما يجعله يخافني مثلاً اخافه . من الخير ان ينام
المراء مع متوحش صاحبه من ان ينام مع مسيحي سكران .

وقلت مخاطباً رب النزل : « قل له ان يخبئ عني هذا الطبرزين او الكدوس
او أيّاً كان اسمه ، قل له باختصار ان يتوقف عن التدخين وعندئذ ادخل السرير
الى جانبه ، ولكنني لا استطيع ان اتصور رجلاً يدخن في الفراش الى جانبي .
هذا امر خطر . ثم تذكر انني لم أؤمن على حياتي » .

وتحدث رب النزل بهذا الى كويكوج فاذعن ، ثم اشار اليّ — في تهذيب — ان
ادخل السرير ، وابتعد الى احد الجانبين كأنه يقول لي : لن امس اي عضو من
اعضاءك .

فقلت : « طاب مساؤك يا رب النزل ، تستطيع ان تمضي » . وأويت الى الفراش
ولا اذكر اني نمت في حياتي خيراً من تلك النومة .

غطاء السرير

حين استيقظت في صباح اليوم التالي لدن طلوع الفجر وجدت ذراع كويكوج ملقاة عليّ في هيئة ودية حانية لا مثيل لها ، حتى لو ان احداً رآني على تلك الحال لحسبني زوجته . كان غطاء السرير لفقاً من رقع مليئة بأشكال ملونة صغيرة بعضها مثلث وبعضها مربع ؛ واشهد انني حسبت ذراعه قطعة من ذلك الغطاء المرقع ، اذ كانت موشومة بأشكال مسترسلة متشابكة كأنها تيه في قصر كريقي والبقع عليها متفاوتة الظلال لا تتشابه منها اثنتان، وذلك ربما كان مرده فيما اظن الى انه كان يبقي ذراعه وهو على السفينة في الشمس والظل - دون نظام - ويحسر كمّي قميصه على مسافات متفاوتة كل يوم . وحين تنبّهت من نومي كان قد ألقى جانباً من ذراعه على الغطاء، فلم استطع ان اميزها من ذلك اللحاف لان لونيهما تداخلا وامتزجا ؛ ولولا احساسي بالثقل والضغط لما استطعت ان اقول ان كويكوج كان يحتضنني .

كانت احساساتي غريبة . دعني احاول تفسيرها : اني لأذكر حادثة مماثلة بعض الشيء وقعت لي حين كنت طفلاً . أكانت حقيقة او حلاماً - ذلك شيء لم استطع ان اجزم به . وهذه هي الحادثة : كنت اقطع شجرة قبار احسبها كانت تحاول ان تزحف متسلقة المدخنة، اذ كنت قد رأيت احد عماليجها قبل بضعة ايام يمتد ساجحاً فيها . وجرتني ظئري ، زوجة أبي، من رجلي واستخرجتني من المدخنة - وكان من عاداتها ان تضربني دائماً بالسوط او ان ترسلني الى السرير دون عشاء - الا أنها هذه المرة دفعتني الى النوم مع ان الساعة

كانت الثانية بعد ظهر الحادي والعشرين من شهر حزيران (يونيه)، وهو اطول يوم في السنة في هذا النصف الذي نعيش فيه من الكرة الارضية . كنت مروّع المشاعر ولكنني لم اكن املك لنفسي نفعا ولا ضرا، فصعدت الدرج الى غرفتي الصغيرة في الدور الثالث، ونزعت عني ثيابي بقدر ما استطيعه من ببطء، رجاء قتل الوقت، ثم اندسست في الفراش وانا ارسل تنهدة مريرة .

اضطجعت هنالك مكروب النفس احسب انه ستنقضي ست عشرة ساعة قبل ان ارجو خلاصاً وانعتاقاً . ست عشرة ساعة في الفراش ! حين اتصور ذلك يتحدر الوجع في الصلب من ظهري، وقد كان النور شاملاً، والشمس ترسل اشعتها من النافذة، والعربات في الشارع تحدث جلجلة مدوية، والاصوات الفرحة الجذلى تملأ جوانب البيت . وازداد احساسني سوءاً على سوء، فنهضت من الفراش وارتديت ثيابي وهبطت الدرج في خفة ونعومة، اذ مشيت في جوريّ دون حذاء، وعدت الى حيث كانت زوجة ابي، وفجأت القيت نفسي ضارعا على قدميها، ورجوتها ان تحسن اليّ العقوبة فتجلدني دون هودة لسوء سلوكي، ان تصنع اي شيء تريده الا ان تحكم عليّ بالحبس في الفراش طوال وقت ثقيل ملّ لا يطاق . ولكنها كانت اذا عُدّت زوجاتُ الآباء خيرهُنّ واحسنهنّ ضميراً، فقد ابت الا ان تعيدني الى الفراش . واستلقيت هنالك ساعات عديدة وانا في تمام اليقظة شاعراً انني لم ابلغ من السوء مثلاً بلغت حينئذٍ، ومن بعد عرفت مما حلّ بي من مصائب لاحقة كبيرة انني في ذلك اليوم تجرّعت حقاً أسوأ المصائب جميعاً . ويبدو انني اخيراً ترديت في تهويمة ذات كوابيس مضطربة . وأفقت منها ببطء وانا لا ازال شبه غارق في الاحلام، وفتحت عيني فاذا الغرفة التي كانت تسبح في ضوء الشمس قد تغلفت بحجب الظلام . واحسست على التوّهزة تسري في كياني كله . لم اعد أرى او اسمع شيئاً . الا ان يداً من الغيب كانت تبدو مطمئنة في يدي . كانت ذراعي على الغطاء وكانت الشكل الصامت الذي يعز ان اتصوره او اعرف له اسماً، او قل ذلك الطيف صاحب

تلك اليد يجلس على مقربة من سريري . وظللت مستلقياً هنالك زمناً حسبته
اجيالاً مركومة فوق اجيال، واشد المخاوف ترويعاً قد جمّدت جسمي . وانا لا
اجرؤ على سحب يدي، غير اني كنت اقصور اني لو حركتها مدى بوصة واحدة
لاخلعت من حولي الربكة السحرية المفزعة . ولست ادري كيف انحسر عني
هذا الاحساس اخيراً الا اني حين استيقظت في الصباح تذكرته وجسمي يفتفض،
ومن بعده ظللت اياماً واسابيع واشهرأ وانا ذاهل في ثنايا محاولاتي المحيرة
لتفسير ذلك اللغز، لا بل انني ما ازال حتى هذه الساعة أحاجي نفسي به
احياناً .

لا بل عدّ عن شعوري بالخوف الرهيب تجد ان احساساتي حين شعرت بتلك
اليد من الغيب في يدي مشبهة في غرابتها لتلك الاحساسات التي ذقتها حين
استيقظت ووجدت ذراع كويكوج الوثني تطوّقني . ثم انبعثت احداث تلك
الليلة الماضية واحداً اثر واحد حية مجسدة في ذاكرتي، ثم توارت عني ولم يبق
حياً في نفسي الا ما انا فيه من ورطة مضحكة . حاولت ان ازيح ذراعه — ان
افكّ قبضته الزوجية عني — الا انه ظل على استغراقه في النوم يحتضنني دون
فكّاك، حتى كأنه يوحى بانه لا شيء يفرقنا الا الموت . عندئذ حاولت ان
اوقفه — « كويكوج ! » الا ان الشخير كان هو جوابه الوحيد على نداءاتي .
فتدحرجت مبعداً وانا احس كأن عنقي مطوّقة بأنشطة، وفجأة احسست بخدش
طفيف ، فنحيت الغطاء عني واذا بي ارى الكدوس نائماً الى جانب الرجل
المتوحش كأنه وليد ذو وجه أسجح . يا لهذا « الكبيس » الطريف ! انا في سرير
في بيت غريب في رابعة النهار مع متوحش وكدوس : « كويكوج . بحق الخير،
باسم الانسانية، استيقظ ! » وبعد جهد انفقته في القلب وفي عتاب جهوري
مسترسل على انه لا يليق به ان يحتضن رجلاً مثله احتضان الزوج لزوجته
افلحت بان انتزع منه نخرة فسحب ذراعه على التوّ، وانتفض كله انتفاضة كلب

من كلاب نيوفوندلاند خارج^١ من الماء^١، وجلس في السرير متيبساً كأنه أنبوبة
الرمح، ينظر اليّ ويفرك عينيه كأنه لا يتذكر كيف اتفق لي انك نمت الى
جواره، وان كان يبدو ان خيطاً رفيعاً من شعاع التذكر اخذ يلتصق في رأسه
وينبهِه الى انه يعرف عني شيئاً ما. وفي اثناء ذلك بقيت ساكناً ارمقه اذ كادت
ريبتني فيه تتلاشي، واصبحت اميل الى رؤية ذلك المخلوق الغريب عن كُتب .
ولما بدا ان ذاكرته قاربت ان تتبين شخص رفيقه في السرير، وعندما تقبّلت^٢
هذه الحقيقة الواقعة دون نفور، قفز من الفراش الى الارض، وجعلني افهم بما
رسحه من اشارات واصوات انه - ان كان ذلك يسرني - سيلبس ثيابه اولاً ثم
يتركني لألبس ثيابي بعد ذلك خلياً الغرفة كلها لي . فقلت في نفسي :
كويكوج ! هذا اقتراح، في مثل هذه الظروف، دالّ على سمو الذوق والتهديب .
قل ما تشاء غير انه لا مرأى في ان هؤلاء المتوحشين احساساً باللياقة واللفظ
فطرياً، وهم مطبوعون على التهديب، وذلك شيء عجيب . وانا اثني بهذا ثناءً
خاصاً على كويكوج لانه عاملني بقسط وافر من حسن الادب والاحترام بينما
كنت انا آتماً في حقه بشدة الجفاء والفظاظة . واخذت احده بنظراتي وانا في
السرير وارقب المراحل التي يمرّ بها في اللبس والزينة، وانتصر حبّ الاستطلاع
عندي - فترة - على اصول اللياقة والادب . ذلك انه لا يتاح لك ان ترى
انساناً مثل كويكوج كل يوم، ولذلك كان هو وطرائقه جديرين بالتطلع وان
جافى ذلك المعهود من التزام بأداب السلوك .

بدأ لبسه من قمة الجسم فثبت قبعتة المحرّدة الطويلة على رأسه، ثم اتبع ذلك
وهو ما يزال دون سروال بالبحث عن حذائه . ثم كانت الجولة الثانية انه اندس
في الفراش وحذاءه في يده وقبعتة على رأسه . اما لماذا صنع ذلك فأمر يقضى
منه العجب ولا ادري له وجهاً، غير اني استنتجت من اللهاث والطحير العنيف

١ هذه صورة مستمدة من واقع كان ملفل يعرفه حق المعرفة اذ كان يقتني كلباً من كلاب
نيوفوندلاند .

المتنوع انه كانت جاهدأ في لبس نعليه . لم اسمع بقانون من قوانين الاحتشام يتطلب من المرء ان ينزوي عن اعين الناس حين يلبس حذاءه ؛ الا ان كويكوج — كما ترى — كان مخلوقاً في مرحلة انتقالية : لا هو شرقة ولا هو فراشة^١ . كان قد احرز من التهذيب ما يبرز به خشونته باغرب طريقة ممكنة . وهو لم يكن قد اكمل تعليمه بل كان ما يزال في الصفوف الدنيا ؛ ولو لم يكن قد أصاب قسطاً يسيراً من التحضر فلعله ما عنى نفسه بكل ما يتصل بالحذاء ولبسه . ولكنه لو لم يكن قد احتفظ بقسط من الهمجية لما تصوّر ان يندس في الفراش كي يلبسه ؛ واخيراً برز من السرير وقبعته قد تبعجت وتهذلت فوق عينيه واخذ حذاءه يصّرّ وقدمه تطلع في جنبات الغرفة ، حتى كأنه لم يتعود لبس الحذاء ، وحتى كأن حذاءه الرطب المتغضن المصنوع من جلد البقر الذي لم يهياً على قدر قدميه فيما أرجح ، كان يعتصر قدميه فيعذبه ويؤلمه اول ما يلبسه في صباح بارد مريع .

وارتفع ضوء النهار فرأيت النافذة دون ستارة ، ووجدت الشارع ضيقاً ، ولضيقة يستطيع من في البيت المقابل ان يرى بوضوح كل ما يجري في غرفتنا ، ويلحظ شخص كويكوج في حال تنافي الحشمة واللباقة ، وهو يتخطر عارياً الا من قبعته وحذاءه . وحين اتضح لي ذلك رجوته ، ملحقاً متلطفاً ، ان يسرع في قضاء ما تبقى من لبس وزينة ، وان يضع عليه سرواله — على وجه الخصوص — باسرع ما يمكنه . فامثل لما طلبت وتوجه الى الماء . في مثل هذا الوقت اعني في الصباح يبدأ اي مسيحي بغسل وجهه ، ولكن لشدة ما دهشت حين رأيت كويكوج يكتفي بقصر الغسل على صدره وذراعيه ويديه . ثم لبس صدارته

١ قارن هذا بقول جوته في سيرة حياته: «وفي هذا الصدد يبدو اشد الناس حيوية وحذاقة كالفراش ، مهما يكن حالهم في طور الدودة فانهم ينقصون عنهم غشاء اليفة الذي فيه عوا حتى اكتمل بهم النمو » .

وتناول قطعة من الصابون الصلب كانت على الطاولة المتوسطة التي تمثل أيضاً حامل المفصلة ، وغمسها في الماء واخذ ينشر الرغوة منها على عارضيه وبدأت ارقب لارى ابن يخبىء موسى ، عندما تناول - يا للعجب العجيب - الرمح المريش الذي يستعمله الحوَّاتون من زاوية السرير ونزع منه القناة واستلَّ سنان الرمح وشحذه قليلاً على حذائه ثم تقدم من قطعة المرآة المثبتة في الحائط واخذ يحث شعر عارضيه بشدة ، او قل اخذ « يحوَّتها » . وقلت لنفسى : هذا يا كويكوج استخدام لخير الآلات الحادة التي يصنعها روجر في انتقام وتشفٍّ ؛ ومن بعد قلَّ عجبي من هذه الحلاقة حين اصبحت اعرف اي نوع مرهف من الفولاذ يتخذ في صنع السنان ، وكيف ان شفرتيه الطويلتين المستقيمتين تظلان دائماً غاية في المضاء .

انجز كويكوج ببقية زيتته وغادر الغرفة في خيلاء وقد تلفع بصدارة السعدان ، وهو يتلعب برمحه كأنه عصا المارشالية .

الفطور

لبست ثيابي بسرعة وهبطت الى غرفة الشراب وحييت رب الدار المقلّص
الشفّتين دائماً تحية الانس والارتياح فلم اكن اضمر نحوه ضعينة وان عابثني غير
قليل في امر رفيقي في السرير .

على اي حال انا ارى الضحكة الطيبة شيئاً قوياً طيباً بل هي شيء طيب
نادر بالغ الندرة . وفي هذا ما يؤسف له . فان كان شخص امرئ يصلح لدى
امرئ آخر مادة للتندر والدعابة فاني انصح به بان يكون رحب الصدر فيقبل
بترحاب ان يضحك ويضحك الآخرين . ومن كان على حظ كبير مما يضحك
الناس منه فكن على يقين من ان فيه من الخصائص فوق ما تتصوره .

كانت غرفة الشراب مكتظة بالنزلاء الذين توافدوا في الليلة السابقة ولم يكن
قد اتيح لي ان اتعرف الى ملاحظهم . كانوا جميعاً من المهتمين بالحيتان : على
اختلاف في الدرجات والحرف فمنهم الضباط الكبار ومنهم ضباط الصف الثاني
وضباط الصف الثالث، ومنهم تجارون بحريون، ونحاسون بحريون وحدادون
بحريون ومنهم الصيادون بالرمح واصحاب السفن ؛ فئة من السمر ذوي السواعد
المفتولة واللحى الكثّة والشعر الاشعث المعثكل، يلبسون صدارات السعدان
بدلاً من الجلباب الصباحي .

تستطيع دون عناء ان تحزر منذ متى نزل كل واحد منهم على الساحل :
هذا الشاب ذو الخدّ الفاره، يشبه في لونه الاجاصة التي سفعتها الشمس ورائحته

تكاد تكون مسكية كشذاها . حين تراه تقول انه لم يمض عليه ثلاثة ايام منذ ان القى العصا من رحلته الهندية . وذلك الذي يجلس الى جانبه اخف ظللاً منه وقد تقول ان فيه مسحة من الخشب الاخضر؛ وعلى سحنة الثالث بقايا من صحمة استوائية الا ان سائرهما قد انقشع اذن فلا ريب في انه مقيم على البر منذ اسابيع . ولكن أيهم يحلو عليك عارضاً مثل عارض كويكوج ؟ — ذلك عارض معلم يجادل من الاصبغة فكأنه منحدرات الانديز الغربية يريك في نسق واحد مناطق مناخية متفاوطة، واحدة اثر اخرى .

صاح رب الدار : هيّا، ودفع الباب على مصراعيه، فدخلنا لتتناول طعام الفطور .

يقولون ان الرجال الذين رأوا الدنيا يصبحون ذوي سجاحة واطمئنان في تصرفاتهم، ولباقة وكياسة بين رفقتهم . هذا لا يصح دائماً فان لديارد الرحالة المشهور ابن نيوانجلند ومنجو بارك الاسكتلندي^١ كانا بين الناس اقلهم ثقة بانفسهم في الاهاء والقاعات . ولكن ربما كان اجتياز سيبريا في زلاجة تجرها الكلاب^٢، وذلك هو ما فعله لديارد، وربما كان مشي المتوحد الجائع في قلب افريقيا السوداء، وذلك هو النصيب الذي فاز به منجو ثمرةً لأسفاره، اقول ربما كان هذا او ذاك النوع من الاسفار لا يعد خير وسيلة لاحتراز قسط كبير من

١ جون لديارد (١٧٥١ - ١٧٨٩) قضى اربع سنوات في جزائر المحيط الهادي في رحلة مع الكابتن كوك (١٧٧٦ - ١٧٨٠) وقطع سيبريا في عربة تجرها ثلاثة خيول (صيف ١٧٨٧) واتهم بانه جاسوس فرنسي فاعيد في عربة الى موسكو ثم طرد من روسيا عند الحد البولندي (نيسان ١٧٨٨) . اما منجو بارك (١٧٧١ - ١٨٠٦) فقد عرف برحلاته في داخل افريقية (١٧٩٩) وبين الرجلين مشابه كثيرة .

٢ خطأ من ملفل، والصواب : تجرها الحيلول .

الجاذبية والذلاقة الاجتماعية . ثم ان ذلك الألقى الجذاب في المجتمع يحزره المرء في اي مكان .

أثار هذه التأملات في خاطري اننا بعد ان جلسنا الى المائدة منيت نفسي وهياتها لسماع قصص كثيرة عن صيد الحيتان . ولشد ما كانت دهشتي حين وجدت كل رجل في الجالسين يلوذ بالصمت العميق . بل استولت عليهم جميعاً الحيرة والارتباك . اجل . ها هنا فئة من كلاب البحر ، كثيرون منهم ، دون ومضة من خجل ، واجهوا الحيتان الهائلة في البحار الهائجة — التقوا بمن هم غرباء عنهم — بارزوا الحيتان وصرعوها دون ان يطرف لهم جفن . وها هم يجلسون هنا على مائدة الافطار وكلهم شركاء في المهنة متقاربون في الاذواق ينظر احدهم الى الآخر في استحياء كأنهم لم يفارقوا حظائر الاغنام بين الجبال الخضر . منظر غريب ! هذه الذئبة الحية ! هؤلاء الحواتون الباسلون الخوآرون !

اما كويكوج ، وما ادراك ما هو ، فقد جلس بينهم واتفق ان كانت جلسته في صدر المائدة ، بارداً كأنه الذئب الجليدي . يقيناً لا يستطيع ان اثني على حظه من الادب في هذا المقام . فان اشد الناس اعجاباً به لا يستطيع ان يجد مسوغاً يبرّر احضاره رمح الصيد الى مائدة الطعام واستعماله هناك دون احتفال بمشاعر الآخرين ؛ فقد كان يده الى الطرف القصي من المائدة ، وفي ذلك ما فيه من خطر بالغ على رؤوس الحاضرين ، ويغرز في شرائح اللحم ويقربها الى صحنه . الا انه فعل ذلك في هدوء وكلنا نعلم ان الناس يرون ان من ادّى امرأ في هدوء فقد أداه في ظرف وكياسة .

لن نتحدث في هذا المقام عن كل الشذوذات لدى كويكوج وكيف انه تجنب القهوة والكعك الساخن ، ووجه همته مجتمعة نحو شرائح اللحم حتى اتى على

أكثرها . يكفيني أن أقول أنه بعد انتهاء الفطور انسحب مع سائر القسوم إلى
القاعة العامة ، واشعل كدوسه الشبك ، وجلس هناك في هدوء يهضم الطعام
ويدخن ، وقبعته التي لا تفارقه أبداً جاثمة على رأسه ، بينما اندفعت خارجاً
لأقوم بجولة في البلد .

اذا كانت الدهشة قد تملككني حين لمحت - اول مرة - هجياً مثل كويكوج يتجول في مجتمع مهذب في مدينة متحضرة فان تلك الدهشة سرعان ما انحسرت عني حين قمت بأول جولة صباحية خلال شوارع نيوبدفورده .

كل ميناء ذي شأن كثيراً ما يعرض لك في الشوارع العامة القريبة من دار الصناعة (الترسانة) أغرب السحن التي تنتمي الى مختلف جهات العالم وتعجز الواصفين . حتى انك لترى في شارعى برودواي وشسنت^١ بحارة من حوض المتوسط يزحمون النساء المروّعات احياناً . وليس شارع ريجنت^٢ نائياً على بحارة جزر الهند الشرقية (العسكر) والملايو . وفي بومباي - وفي أبولو جرين منها - يعيش امريكيون يرعبون الاهالي احياناً ؛ الا ان نيوبدفورده تفوق في هذا الشأن كل شارعى ووتر ووابنج^٣ . ففي هذين الشارعين ترى بحارة فحسب اما في نيوبدفورده فترى متوحشين يتوقفون ليتحدثوا في زوايا الشوارع - متوحشين لم تفارقهم وحشيتهم وكثير منهم ما يزال يحمل على عظامه لحماً نجساً ؛ وذلك بما يجعل الغريب يحملق في الوجوه محدّقاً . وترى أبناء جزر فيجي وغيرهم من البدائيين ونماذج غريبة من محترفي صيد الحيتان يتجولون في الشوارع دون ان

١ الشارع الاول في نيويورك والثاني في فيلادلفيا .

٢ اسم شارع بلندن .

٣ ووتر في لفرول ، ووابنج في لندن .

يشيرون التفاتاً ، كما ترى ايضاً مناظر اخرى اشد غرابة واكثر اثارة للضحك .
وفي كل أسبوع يصل الى هذه المدينة عشرات من أغرار فيرمونت ونيوهاامبشير
وكلهم متعطشون للريح والمجد من صيد الاسماك ، واكثرهم شبان ذوو أجسام
قوية ، أناس عاشوا على قطع الاخشاب ورأوا ان يلقوا الفأس ويعتقلوا حربة
الصيد واكثرهم اغرار خضر الوجوه كأنهم الجبال الخضر التي جاءوا منها ؛ وتحسبهم
في بعض الامور الاخرى قد تقدمت بهم السن بضع ساعات . تأمل ! ذلك
شاب يحب عند الزاوية ويلبس قبعة محرّدة ومعطفاً كذنب الخطاف (فراك)
ويتمنطق بحزام بحار ومدية مغمدة . وهذا آخر يلبس السوتر والعباءة
البمبازية .

واذا الريفي اخذ في التأنق عجز عن ان يباريه الغرائقة المتأنقون من ابناء
المدن — واعني بذلك «غندور» الريف المتغطرس السادر الذي اذا ذهب ليحصد
الفدانين اللذين يملكهما — في أيام القيظ — لبس قفازاً من جلد الغزال كي لا تلوّح
الشمس يديه . فاذا صم هذا «الغندور» الريفي على ان يحرز سمعة فائقة ،
ويسلك نفسه في عصابة صيد الحيتان ، فلا بد لك من ان ترى الامور المضحكة
التي يأتيها حين يبلغ الميناء ، فهو اذا اراد ان يجعل زيه البحري يتم عليه أوصى
الحياط ان يضع له أزراراً جرسية الشكل على صدراته ، وان يزود سرواله
الخيشي بالسيور . مسكين انت يا ابن التبن والقش ! ما أسرع ما تنفرط تلك
السيور في أول هبة ربح ضارية حين تلقى انت وسيورك وأزرارك وكل ما
لديك بين فكي العاصفة .

لكن اياك ان تظن ان هذه المدينة الشهيرة لا تقدم لزارها الا الحوّاتين
والمتوحشين والمتغندرين . لا بل ان نيوبدفوردي اغرب شأنًا مما تتصور . ولولانا
— نحن رجال الحيتان — لظلت تلك البقعة من الارض حتى اليوم دويّة مقفرة
كأنها ساحل لابرادور . وبعض الريف الممتد من خلفها يفرع المراء منظره لانه

أجرد قاحل . ولعلّ المدينة نفسها من أكثر الامكنة غلاء في نيوانجلند جميعاً .
نعم انها بلد الزيت . ولكنها ليست مثل ارض كنعان بـلد القمح والتمر ، ولا
تتدفق في شوارعها انهار اللبن ، ولا ترصف تلك الشوارع في ايام الربيع بالبيض
الطارج ؛ ورغم ذلك كله فلن تجد في كل امريكا بيوتاً كبيوتها أهبة وفخامة ، او
كمتنزهاتها وجناتها وفرة ونضارة . من أين تلك الجنات ؟ كيف غرست في بقعة
ريفية لم تكن الا مُطرحاً لحبث المعادن ؟

اذا شئت جواباً على هذا السؤال فاذهب وانظر الى الرموز التي تمثلها رماح
الصيد الحديدية المريشة حول ذلك الصرح العالي . أجل . ان تلك البيوت الجبارة
والجنائن الزاهرة انما انبثقت من الاطلسي والهادي والهندي . انها اصطيدت من
أعماق البحر وجرت حيث نصبت . هل يستطيع السيد اسكندر^١ ان يعمل مثل
هذا العمل العظيم ؟

والناس يقولون : ان الآباء في نيوبدفورد يدفعون المهور لخطّاب بناتهم
حيثاناً ويفرقون على القريبات حصصاً من البروز . لا بد من أن تذهب الى تلك
المدينة لتشهد عرساً رائعاً فالناس يقولون ان في كل بيت هنالك احواضاً من
الزيت وفي كل ليلة يوقدون ، دون حساب ، شموعاً من شحم العنبر تبلغ مثل
قاماتهم طولاً .

من اللاذّ ان ترى المدينة في فصل الصيف — فهي مليئة بأشجار الغُرب
الجميلة ، والشوارع التي تظللها الاشجار الخضراء ذات الازهار الذهبية . وفي
شهر آب (اغسطس) يقدم الشاه بلوط الجميل الوفير الذي يشبه الشمعدانات —
يقدم للعابرين عناقيد من براعمه في اشكال مخروطية مستقيمة مستدقة . الفن ذو

١ ساهر ألماني كان يؤدي ألعابه السحرية في مسارح نيويورك بين عامي ١٨٤٥ - ١٨٤٩ .

قوة مهيمنة فقد أضاف ربعاناً مشرقة من الازهار الى تلك النفائات من الحجارة العقيمة التي طرحت آخر يوم خلق فيه العالم .

ونساء نيوبيدفورد : انهن يزهرن إزهار الورد الاحمر في بلدهن . الا ان الورد لا يتزعرع الا في الصيف ؛ اما جمال خدودهن فانه دائم كضوء الشمس في السماء السابعة . لا تستطيع ان تجد لتوردهن مثيلاً في اي مكان الا في سالم ، فقد أخبرني الثقة ان انفاس الفتيات فيها تنفث مسكاً ، حتى ان عشاقهن من البحارة يتنسمون شذاهن العطر وهم على اميال من الشاطئء وكأنما يقتربون من « جزر البهار » بدلاً من « رمال المتبررين الغيارى » .

يقوم في هذه المدينة التي تسمى نيوبدفورد معبد صيادي الحيتان وقليل هم الصيادون ذوو الامزجة المتقلبة الذين يترآخون عن القيام بزيارته في احد ايام الاحاد ما داموا يزعمون الابحار وشيكاً الى المحيط الهندي او الهادي . وانا على يقين بأن تلك الزيارة لم تفتني .

فعندما عدت من جولتي الصباحية الاولى خففت مرة اخرى لقضاء هذا الارب ، وقد تغيرت السماء من حال صفاء وشمس وبرودة الى ضباب ومطر مصحوب بالبرّد . لذلك تلفعت بسترتي الخشنة المصنوعة من قماش يسمونه « جلد الدب » ، واتخذت وجهي في مقاومة العاصفة العنيدة . وعندما دخلت المعبد وجدت جمعاً مشتتاً صغير العدد من البحارة ونساءهم وأراملهم . وكان يغشّي الوجود صمت مخيم لا يمزقه بين الحين والحين سوى زعقات العاصفة . وقد ابتعد كل مصلٍّ عن اخيه عامداً كأن كل حزن صامت كان مقصوراً على صاحبه فهو لا يفضي به الى غيره . ولم يكن القسيس قد وصل فوقف كل فريق صامت من الرجال والنساء يرمقون شواهد رخامية عديدة ذات حواف سود قد غرزت في الجدار على جانبي المنبر . ويشبه ان يكون ما كتب على ثلاثة منها كما يلي :
وان كنت لا أدعي ان هذا هو النصّ الحرفي :

وقفاً على ذكرى جون تلبوت الذي غرق
وهو في الثامنة عشرة قريباً من جزيرة الدمار ،
هذاء ساحل باتاغونيا في غرة تشرين الثاني
عام ١٨٣٦ . نصبت هذه اللوحة اخته لذكراه .

وقفاً على ذكرى روبرت لونج وولس
إلري ونathan كولمان وولتر كاني وسيث ماسي
وصموئيل جلايچ ، وهم من بحارة السفينة « اليزا »
التي جرها حوت فأغرقها على مبعدة من البر في
الحيط الهادي في ٣١ كانون الاول ١٨٣٩ وقد
أقام هذا النصب الرخامي رفاقهم الناجون .

وقفاً على ذكرى المرحوم القبطان حزقيال
هاردي الذي قتله وهو في مقدم قاربه حوت
العنبر عند ساحل اليابان في الثالث من آب ١٨٣٣
وقد نصبت أرملته هذه اللوحة لذكراه .

بعد ان نفضت البرد عن قبعتي وسترني اللتين كساهما الجليد بطبقة زجاجية
تخذت مجلسي عند الباب ، وتلفت يمينه ويسرة ، فأدهشني ان ارى كويكوج
قريباً مني . كان مثابراً بجديّة المشهد فارتسمت على ملامحه نظرة المندھش الذي
ثار في نفسه حب استطلاع ظامئ . وكان هذا المتوحش هو الشخص الوحيد
الذي لحظ دخولي - فيما يبدو - ذلك انه كان الأمي الوحيد بين الناس ، ومن
ثم لم يكن قد شغل بقراءة تلك النقوش الجامدة على الجدار . لست أدري هل
كان في الجمع احد اقرباء البحارة الذين كتبت اسماءهم على الرخام ، غير اني اعلم
ان ما لا يدون من احداث مهنة الصيد على الشواهد والنصب كثير العدد ،
وكثيرات هن النساء الحاضرات اللواتي كن يحملن على وجوههن سمات
حزن لا يريم ، ان هنّ لم يتسلبن ثياب الحداد ، حتى لأحسست مستيقناً انه
قد احتشد امامي أولئك الذين يبتعث الأسى في قلوبهم المتناعة منظر تلك
اللوحات الكثيرة وينكأ جراحهم القديمة .

أوه يا من يرقد موتاهم بين العشب الأخضر ! يا من اذا وقفوا بين الازهار
قالوا : هنا ، هنا يرقد الأحبة ! انكم لتجهلون الوحشة التي تعشش في تلك
الصدور . اي فراغ مريّر في ذلك الرخام ذي الاطار الأسود الذي ليس تحته
رفات ! أي يأس في هذه المنقوشات الثابتة ! اي خلاء ممت وكفر محرّم في
تلك الأسطر التي تهضم الايمان وجوده وتنكر البعث على الأحياء الذين قضوا
دون ان تحط لهم قبور . لو نصبت هذه اللوحات في مغارة الفيلة ١ لكانت أيضاً
في موضعها الملائم .

في أي فريق من المخلوقات الحية يدرج موتى بني الانسان ؟ لم يقول المثل

١ مغارة قرب بومبي بالهند والى جانبها ست مغاور صغيرات ، وهي وقف على عتاد شيفا
الدمر الذين يؤثرونه على فشنو الحافظ ، وكانت مزينة بالتأثيل .

السائر فيهم انهم لا يحكون حكايات وان كانت لديهم أسرار تزيد على رمال
عالم ويبرين ؟ كيف نقرن باسم الذي فارقنا امس الى العالم الآخر كلمة كفرة
مرموقة ، ولا نمنحه هذا الحق اذا شاء ان يبحر الى اقصى بقعة في هذا العالم
الحي ؟ لم تدفع شركات التأمين تعويضات عن موت من يعدون خالدين ؟ في اي
شلل خالد كسيح وغيبوبة مميته يائسة يقبع آدم القديم الذي مات منذ ستين
قرناً كاملة ؟ ما بالناس نزال نرفض ان نتعزى عن لا نفقاً نؤمن - رغم ذلك -
انهم يقيمون في نعيم مقيم ؟ لم يحاول الاحياء جميعاً ان يخرسوا الاموات جميعاً ،
مع ان اشاعة تروي كيف سمع صوت الدق في احد القبور تكفي لترعب مدينة
كبيرة ؟ هذه الاشياء جميعاً ليست دون معنى .

الا ان الايمان كالثعلب يجد غذاءه بين القبور ، ومن الريب الميتة يستجمع
أشد آماله حياة ونصرة .

لقمما يحتاج القارئ ان اخبره بأي مشاعر تأملت تلك الشواهد الرخامية
وأنا على أهبة السفر الى نانتوكت ، وكيف انني على ضوء ذلك اليوم الحزين
المظلم - وهو ضوء خافت - قرأت مصير صيادي الحيتان الذين مضوا قبلي على
الطريق . نعم يا اسماعيل ، انك قد تواجه مثل ذلك المصير . غير ان المرح
عاودني على نحو ما : مغريات ممتعة تحفزني على الرحلة ، فرصة ذهبية لتحسين
الحال - فيما يبدو - اجل : فان قارباً مخروفاً يجعلني خالداً بالبراءة التي يمنحنيها
بعد ان كنت من ابناء الفناء . نعم ان في مطاردة الحيتان موتاً - الا انه ازجاء
للانسان في احضان الابدية على نحو سريع صامت ملموج . ثم ماذا نجد في
احضان الابدية ؟ هب اننا اخطأنا خطأ فادحاً في فهم مسألة الحياة والموت .
هب ان ما يسمونه على هذه الارض « ظلمتي » انما هو جوهرى الصحيح . هب

اذنا حين ننظر الى الامور الروحية نشبه السرطان الذي يرى الشمس من خلال
الماء فيظن ان الماء الكثيف هو اشد نوع من الهواء شفافية . هب ان جسدي
ليس الا الحمى الذي يأوي اليه وجودي الافضل . بل في الواقع ليأخذ جسدي
من شاء - اقول ليأخذه - فانه ليس انا . مرحى ثلاثاً لنانتوكت وليأت القارب
المخروق والجسم الموهون متى شاء ، اذ ان جوبتر نفسه يعجز عن ان يخرق
روحي .

لم اكن قد جلست طويلاً حين دخل رجل ذو وقار جليل، وما ان استدار الباب الذي تصفعه العاصفة على عقبيه مرحباً بقدميه حتى توجهت الانظار اليه متطلعة عجيلى، وكان ذلك دليلاً على ان هذا العجوز الجليل هو القسيس . اجل . كان هو الأب مابل المشهور، فكذلك كان يدعوه صيادو الحيتان، وكان بينهم اثيراً مرموقاً . وفي شبابه كان بحاراً وحواتاً الا انه منذ عدة سنوات نذر حياته للتبشير والوعظ . واثناء كتابة هذه السطور كان قد بلغ من العمر الفصل الشتائي من شيخوخة صحيحة سليمة، أعني ذلك النوع من الشيخوخة الذي يخيّل اليك انه يفضي الى شباب ثانٍ مزدهر، اذ كان يلعب في أثلام تجمعدهاته ألقى وديع من نصارة آخذة بالنمو، كأنها خضرة الربيع تنفلت للظهور من تحت ثلوج شباط . وكل من سمع قصته من قبل فلا بد من ان يتلقاه باهتمام بالغ، اذ كانت قد رسخت عنه في النفوس خصائص اكليروسية تعزى الى حياة المخاطر البحرية التي خاضها في شبابه . وعندما دخل لحظت انه لم يكُ يحمل مظلة، ولم يأتِ على وجه اليقين في عربة، اذ ان قبعته التربولين كانت تقطر برداً ذائباً، وسترته الكبيرة المصنوعة من قماش الملاحين تكاد تشده الى الارض بثقل ما امتصته من ماء . مهما يكن من شيء فقد نزع عنه قبعته ومعطفه وخفّته، واحداً اثر آخر، وعلقها في فجوة صغيرة في الزاوية المجاورة له، وحين ارتدى ثياباً مناسبة تقدم بهدوء نحو المنبر .

وكان منبراً ككل المنابر القديمة في طرازها، عالياً بالغ العلوّ؛ وبما ان الدرج العادي الصالح لمثل هذا الارتفاع يكون مع الارض زاوية طويلة فيبتلع مساحة

المعبد - وهي بطبيعتها صغيرة - لذلك قام المعماري امثالاً لارشادات الاب مابل ببناء منبر دون درج، متخذاً عوضاً عنه سلماً جانبياً قائماً كالسلام التي تستعمل في الصعود الى السفن من قارب في البحر . وقامت زوج احد قباطنة الحواتين فتهرعت للمعبد بزوجين جميلين احمرين مبرمين من الكروور . ولما كانت المنبر نفسه متقن الرأس مدهوناً بلون كلون خشب الماهوغاني فقد كان التدبير جملة ، اذا انت اعتبرت حال المعبد، يدلّ على ذوق طيب . توقف الاب مابل لحظة عند قاعدة السلم وقبض بكلتا يديه على عقدتي الحبل البارزتين للزينة، والقى نظرة الى فوق، ثم وضع يداً على يده، واخذ يصعد مرقاة اثر مرقاة في رشاقة تليق بالبحارة ، الا انها ايضاً مشفوعة بالوقار ، كأنما يصعد الى قمة الدقل الرئيس في سفينته .

وكانت مراقي هذا السلم الجاني، حسبها هي الحال في كل السلام المتأرجحة، مصنوعة من حبال مغلقة بالقماش وليس فيها خشب الا في العوالق، ولذلك كان في كل مرقاة مفصل . وحين لمحت المنبر اول مرة لم يفتني ان هذه المفاصل اذا كانت تصلح للسفينة فانها في حال المنبر تبدو غير لازمة . غير أنني لم اكن قد تهيأت لأرى الاب مابل بعد ان رقي في منبره يستدير ببطء، وينحني فوق المنبر، ويعمد الى جرّ السلم مرقاة اثر مرقاة، حتى يودعها جميعاً لديه، وقد اصبح ممتنعاً متحرزاً في «سفينة» الصغيرة .

وتفكرت في هذا الامر بعض الوقت دون ان افهم وجه السرّ فيه . ذلك ان الاب مابل كان قد احرز شهرة واسعة في الاخلاص والتأله ولذلك لم يتجه بي الريب الى انه كان يحجر على نفسه سوء السمعة بمثل هذه الحيل المسرحية، وقلت في نفسي : لا . لا بد من سبب وجيه لهذا . ثم لا بد ان يكون هذا الامر رمزاً لشيء غير مرئي . ألا يجوز انه بهذه العزلة الجسمانية يرمز الى انعتاقه الروحي - بعض الوقت - من أسر العلائق والروابط الدنيوية ؟ اجل ان هذا المنبر وقد

طُفِحَ بَخْمَرِ الْكَلِمَةِ وَلَحْمِهَا يَمَثُلُ حِمَىً حَصِينًا دَائِمَ الْمَدَدِ لِلرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ - فِيمَا أَرَى -
كَأَنَّهُ قَلْعَةٌ شَاهِقَةٌ^١ مَزُودَةٌ بِبُئْرِ مِنَ الْمَاءِ الْمَعِينِ دَاخِلِ اسْوَارِهَا .

أَلَا إِنْ السَّلْمُ الْجَانِبِيِّ لَمْ يَكُنْ هُوَ وَحْدَهُ الْمَظْهَرُ الْغَرِيبُ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، بَلْ
كَانَتْ هُنَاكَ شُيُونٌ أُخْرَى اسْتَمَدَهَا الْقَيْسِيُّ مِنْ وَحْيِ أَعْمَالِهِ الْبَحْرِيَّةِ السَّابِقَةِ ،
مِنْهَا صُورَةٌ كَبِيرَةٌ تُمَثِّلُ سَفِينَةً جَرِيئَةً تَصَارِعُ عَاصِفَةً عَنِيفَةً عِنْدَ شَاطِئِ عَاصِفٍ
ذِي صَخُورٍ سَوْدٍ وَمَوْجَاتٍ بَيْضٍ . وَقَدْ عُلِقَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ بَيْنَ الشَّاهِدِينَ
الرَّخَامِيِّينَ الْقَائِمِينَ عَلَى جَانِبِي الْمَنْبَرِ ، وَزَيْنَ بِهَا الْحَائِطُ الَّذِي يَمَثُلُ ظَهَرَ الْمَنْبَرِ نَفْسَهُ ،
وَفَوْقَ الْغِيَمَاتِ السَّابِحَاتِ وَالسَّحَبِ السَّوْدِ الْمَتَدَحْرِجَةِ كَانَتْ تَعُومُ جَزِيرَةٌ صَغِيرَةٌ
مِنْ نُورِ الشَّمْسِ يَبْزُغُ مِنْهَا وَجْهٌ مَلَكٌ ، وَهَذَا الْوَجْهُ الْمُتَأَلِّقُ يَرْسُلُ فَلَكَهَ مِنْ
الشَّمْعِ عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ الْمُتَقَاذِفَةِ ، شَبِيهَةً بِذَلِكَ الطَّبَقِ الْفُضِيِّ الَّذِي طَعِمَتْ بِهِ
الرَّبْعَةُ خَلْفَ الدَّقْلِ الْأَعْظَمِ فِي سَفِينَةِ « النَّصْر » حَيْثُ سَقَطَ نَلْسُونُ^٢ . وَكَأَنَّ
الْمَلِكَ يَقُولُ : « آيَتِهَا السَّفِينَةُ الْكُرَيْمَةُ . تَقْجَمِي ، أُنْدَقِمِي ، قَدِّمِي دَفْعًا جَسُورَةً .
هِيَ هِيَ الشَّمْسُ تَشُقُّ الدَّجْنَ ، وَالسَّحَبُ تَنْحَسِرُ مَتَدَحْرِجَةً ، وَالزَّرْقَةُ الصَّافِيَةُ قَدْ
أَصْبَحَتْ وَشِيكَةً » .

وَلَمْ يَكُنِ الْمَنْبَرُ نَفْسَهُ بِنَجْوَةٍ مِنْ أَثَرِ الذُّوقِ الْبَحْرِيِّ الَّذِي خَلَقَ السَّلْمَ وَالصُّورَةَ
بَلْ إِنْ مَقْدَمَتَهُ « الْمَقَرُّ وَزَّةٌ » كَانَتْ تَشْبِهُ الْقَيْدُومَ السَّامِقَ فِي السَّفِينَةِ ، وَكَانَ وَضْعُ
الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ عَلَى قِطْعَةٍ بَارِزَةٍ مِنْ حَلِيَةِ التَّدْوِيرِ أَمَّا هُوَ مُحَاكَاةٌ لِلْمَنْقَارِ الْحَدِيدِيِّ
أَوْ الْمَلَسِيِّ فِي السَّفِينَةِ .

١ فِي الْأَصْلِ كَأَنَّهُ : Ehrenbreitstein وهي قلعة زارها ملفل عام ١٨٤٩ .

٢ « النَّصْر » Victory اسم سفينة نلسون وهي في ميناء بورتسموث ، وقد رآها ملفل عام

١٨٤٩ .

أي شيء أشد من هذا احتفالاً بالمعنى ؟ اذ المنبر هو مقدّم هذه الأرض وكل شيء عداه ينجي في المؤخرة، والمنبر هو الذي يقود العالم ويهديه، منه تلمح عاصفة الغضب الإلهي أول ما تلمح، ولا بد للقيء من أن يتلقى الصدمة الأولى ؛ منه يتوجه الدعاء إلى رب الرياح - رفيقة كانت أو عنيفة - لكي يرسلها رخاء طيبة . أجل أن العالم سفينة مبحرة، لمّا تستكمل رحلتها، والمنبر فيها هو قيئومها .

الموعظة

نهض الاب مابل ، وامر الناس المتفرقين ان يتجمعوا ، بصوت لطيف يوحي
بسلطان وديع : « انتم في ميمنة السفينة ، قفوا جانباً ، اتجهوا نحو ميسرة
السفينة . وانتم في الميسرة ، تجمعوا ، هيا الى الميمنة ؛ جميعاً توسطوا السفينة ،
توسطوا » .

تحركت الاحذية البحرية الثقيلة بين المقاعد وأرسلت دمدمة غير عالية ،
وبعثت احذية النساء حسيساً ، ثم هدأ كل شيء ، واتجهت الاعين نحو الواعظ .

تريث هنيهة ثم جثا على ركبتيه عند مقدمة المنبر ، وطوى يديه الكبيرتين
السمراوين امام صدره ، وشخص بعينه المغمضتين ، ودعا دعاءً قانتاً حتى
خيّل انه راكع يصلي في قاع البحر .

وحين انتهى من ذلك أخذ يقرأ الترنيمة التالية في نغمات مستطيلة جليلة
كأنها صوت جرس مسترسل في سفينة مشرفة على الفرق في ضباب البحر . الا
انه غيّر أسلوبه في المقطعين الأخيرين واندفع في تهلل وابتهاج مجلجل يرتل
قائلاً ١ :

١ لعل ملفل هو ناظم هذه الانشودة الدينية ، فلم يعثر احد لها على أصل في كتاب آخر .

أضلاع الحوت وما في الحوت من مفزعات
نشرت فوق ظلاماً كثيباً
وتدافعت من حولي أمواج ساقها الله مضوأة بنور الشمس
فرفعتني ثم هوت بي وطوحت بي للأجل المحتوم

ورأيت جهنم وقد تفلّعت أحشاؤها
وهي تتميز بآلام وأحزان أبدية
لا يقدر على وصفها إلا من كابدها ؛
واهاً لي . لقد كنت أهوي في لجج اليأس .

وفي محنتي السوداء دعوت ربي
حين كدت أججده رباً
فسمع الله شكاتي
ولم يعد بطن الحوت لي محبساً

وبادر مخفأ الى خلاصي
كأنما انطلق به دلفين كالشعاع
وتجلى لي وجه الرب منتقذي
رهيباً ، متلألئاً كخطفة البرق

ستظل ترنيمتي الى الأبد
تعيد ذكرى تلك الساعة الرهيبة البهيجة
لله المجد خالصاً
فهو القويّ الذي وسعت رحمته كل شيء .

شارك جلّ المصلين في ترديد هذه المناجاة فتعالت على عواء العاصفة ، وتلا ذلك توقف قصير الامد ، وقلب الواعظ ببطء صفحات التوراة ، وأخيراً قال وهو يطوي يده على الصفحة المبتغاة : « أحبابي رفاق البحر ، قفوا عند الجملة الاخيرة من الاصحاح الاول في سفر يونان حيث يقول : « واما الرب فأعدّ حوتاً عظيماً ليبتلع يونان » .

« يا رفاقي البحارة . يحوي هذا السفر إصحاحات اربعة ، او خيوطاً اربعة ، فهو من أصغر القوى في حبل الكتاب المقدس القوي المفتول . اي اعماق روحية يسبرها حبل يونان المديد ! اي عبرة حفيظة نستمدّها من هذا النبي ! اي شيء سامٍ هي تلك الانشودة في جوف الحوت ! ما أشبهها بالموجة في عنفها وعظمتها ! اننا لنحسّ الطوفان يتدفع من فوقنا ، واننا نقمس معه الى اغوار الماء حيث ينزوي جنّ البحر ، ومن حولنا أعشاب البحر وكلّ ما فيه من حمأة . ولكن اي درس هذا الذي نتعلمه من سفر يونان ؟ يا رفاقي البحارة انه لدرس ذو طاقتين : درس لنا بني الانسان المذنبين ، ودرس لي انا قائد سفينة الحيّ القيوم . هو درس لنا جميعاً — نحن المذنبين — لانه قصة الخطيئة وفساوة القلب والخاوف التي استفاقت فجأة والعقاب العاجل والتوبة والصلوات والنجاة والفرح الذي غمر يونان . وقد كانت خطيئة ابن أمّتاي — كخطيئة جميع الآثمين من الناس — هي عصيان اوامر الله إصراراً حين وجدها اوامر شاقة . لا يهمنا ماذا كانت تلك الاوامر ، وكيف أُلقيت اليه ، غير أن كل ما يأمرنا الله ان نفعله يشق علينا فعله ، تذكروا هذا واعلموا انه من ثمّ يأمرنا بدلاً من ان يسعى لإقناعنا . واذا كنّا نطيع الله فعلينا ان نعصي انفسنا ، وفي عصياننا لانفسنا تكمن الصعوبة في امتثالنا لأوامر الله » .

« لم يقتصر يونان على العصيان بل ذهب يسخر من الله بالفرار من وجهه . ظن ان سفينة صنعها الآدميون قد تحمله الى بلاد ليس لله فيها سلطان ، وكل

السلطان فيها انما هو لثباطنة هذه الارض . فتواری في أرصفة يوبا يبحث عن سفينة متوجهة الى ترشيش ، وربما كان يكمن في هذا نفسه معنى خبيء لم يتنبه له أحد حتى اليوم . اذ ان ترشيش لم تكن سوى مدينة قادش الحديثة ، ذلك ما يقول به العلماء . وأين هي قادش يا رفاق البحر ؟ في اسبانيا أبعد مكان من يوبا يمكن ان يبحر اليه يونان في الايام القديمة ، حين كان الأطلسي ما يزال بحراً مجهولاً او يكاد . ذلك لان يوبا - وهي يافا الحديثة يا رفاق البحر - تقع على ساحل المتوسط ، او البحر الشامي ، وتبعد عنها ترشيش او قادش ما يزيد على ألفي ميل غرباً ، وراء مضيق جبل طارق . ألستم ترون يا رفاقي البحارة ان يونان كان يحاول ان يعن هرباً من وجه الله حتى ليقطع العالم من طرف الى طرف ؟ يا لك من رجل تعس ! ايها الحقير الذي يستأهل كل ازدراء ! أتريد ان تحتفي عن إلهك بقبعة منكفئة الحوافي^١ وعين منكسرة ! وأنت تنسل بين حشود السفن كالخارب اللص تريد ان تعبر البحار ! كان مضطرباً تخونه نظراته وملاحه ، ولو كانت في تلك الايام شرطة لقبضت على يونان قبل ان يلمس ظهر السفينة بشبهة اقترافه جرماً . ما أوضح ما تنبئ احواله انه هارب : لا متاع ولا صوان للقبعة ولا وليجة ولا كيس أمتعة ، ولا أصدقاء يصحبونه الى الرصيف مودعين . وبعد بحث وتسلل كثير يجد اخيراً سفينة ترشيش وهي تتلقى آخر البضائع من مشحوناتها ، وحين يخطو على ظهرها ليقابل قبطانها في قمرته يتوقف البحارة جميعاً عن رفع البضائع ليبصروا هذا الغريب وعينه المشؤومة . فيدرك يونان ذلك ويحاول عبثاً ان يبدي أمارات الثقة والاطمئنان . وعبثاً يحاول ان يمتحن أثر ابتسامته التاعسة ذلك ان حدساً قوياً يلهم البحارة انه لا يعقل ان يكون بريئاً ، فيهمس احدهم للآخر في جدّ ظاهره هزل ويقول : « جاك ، لقد سرق مال أرملة » . او يقول : « جو ، ألسنت تبصره ؟

١ كذلك كانت قبعة آخاب منكفئة الحوافي ، انظر الفصل : ٣٠ (الجملة الختامية) .

انه زوج اثنتين . او يقول : « هاري ايها الفتى ! اني لأظنه الزاني الذي هرب من السجن في عامورة القديمة ، او لعله احد القتلة الهاربين من سدوم » . ويجري آخر ليقراً الاعلان المثبت على اسوار الرصيف الذي تأوي اليه السفينة وفيه جائزة بخمسمائة قطعة ذهبية لمن يرشد الى قاتل ابيه ، وفيه أوصاف القاتل . فيقرأ ناقلاً عينيه بين يونان تارة والاعلان تارة اخرى بينا يتجمهر رفاقه البحارة الذين يشاطرونه شعوره حول يونان على أهبة ان يلقوا القبض عليه . فيترصد يونان المرتاع ، ويستنجد بكل جرأته لترسم الجرأة في قسماً وجهه فلا يزداد في أعينهم الا جبناً . فهو لا يريد ان يعترف بأنه مشبوه ولكن ذلك نفسه شبهة قوية ، غير انه يفيد من ذلك الى اقصى حد ، وعندما يجد البحارة انه ليس هو الموصوف في الاعلان يطلقون سراحه فيهبط الى القمرة .

« فيصبح القبطان وهو جالس الى طاولة عمله ، يعد الاوراق لتقديعها للجمارك : « من هذا ؟ » - من هذا ؟ سؤال هيّن ولكنه يقع على سمع يونان وتوقع الصاعقة ويكاد يستدير هارباً الا انه يتطאר قائلاً : « أود ان أسافر على هذه السفينة الى ترشيش . هل بقي لإبحارك وقت طويل يا سيدي ؟ » . حتى هذا الوقت لم يكن القبطان قد تطلع الى يونان وان كان ماثلاً امامه ، ولكنه ما يكاد يسمع ذلك الصوت الأجوف الخاوي حتى يرميه بنظرة فاحصة . وأخيراً بجيبه في أناة : « نبحر مع ارتفاع المدّ التالي » ، وما يزال محدّد البصر اليه . فيقول يونان : « ألا تبادرون للبحار قبل ذلك يا سيدي ؟ » فيقول القبطان : « إبحارنا مع المدّ مبادرة يرضى بها كل مسافر شريف » . واهماً لك يا يونان ! هذه طعنة اخرى . ولكنه يسرع فيحوّل فكر القبطان عن الامعان في هذه البادرة من الريبة ويقول : « سأسافر معكم . اجرة السفر - كم تبلغ ؟ سأدفع على التوّ » . من اجل ذلك نوّه « سفر يونان » بأمر الدفع كأنه يوحي لنا بأن ذلك امرٌ يجب ألا نغفل عنه في هذه القصة اذ ورد فيه : « فدفع اجرتها » اي قبل ان

تنشر السفينة امرعتها . واذا قرأت هذه العبارة في قرائنها وجدتتها حافلة بالمعنى .

« وكان قبطان تلك السفينة يا رفاقي البحارة حصيفاً ألعياً يستطيع بنافذ بصره ان يستشف الجريمة لدى اي امرىء اقترفها ، الا ان جشعه لم يكن يسمح له ان يفضحها الا ان كان مقترفها مفلساً . ان الخطيئة التي تستطيع ان تدفع الاجرة في هذا العالم ، يا رفاق البحر ، تسافر حرة طليقة دون ان تحتاج الى وثيقة سفر ؛ ولكن ان كانت الفضيلة مسكيناً مدقعاً أوقفوه عند كل الحدود . لذلك شاء القبطان ان يختبر انتفاخ هيمان يونان قبل ان يدينه علناً ، فتقاضى منه ثلاثة اضعاف الاجرة التي يدفعها امثاله ، وامثل يونان لهذا الاشتطاط ودفع . وكان القبطان يعرف ان يونان هارب الا انه صمم في الوقت نفسه على ان يساعد الهارب الذي يمتد طريقه بالذهب . ولكن حين استخرج يونان كيس نقوده كانت الريب الفطنة ما تزال تساور القبطان . فنقر كل قطعة ليجد فيها زيفاً مبهرجاً فما وجد شيئاً من ذلك فتمتم يقول : « على اي حال لا أراك مبهرجاً » ؛ وقبّد اسم يونان بين المسافرين . فقال له يونان : « عيّن لي غرفتي يا سيدي ، فأنا امرؤ قد انهكني السفر ، وبني حاجة الى النوم » . فقال القبطان : « ذلك يبدو في ملاحظك . هناك غرفتك » فدخلها يونان وكان يود لو يقفلها لولا ان المفتاح لم يكن موجوداً . وعندما سمعه القبطان يتلمس مغلقها متحامقاً ، ضحك ضحكة خافتة وتمتم بشيء عن أبواب مخادع المتهمين التي لا يسمح لهم ان يقفلوها من داخل . وألقى يونان نفسه وهو أشعث أغبر مرتد كل ثيابه فوق سريره ، وأحس كأنما سقف الغرفة الصغيرة جاثم على جبهته ، وأخذ يلهث وهو مبهور الانفاس في هواء محصور . وأحس وهو في ذلك الوكر المتضائق وقد نزل دون خط الماء ببوادر نذر الشؤم التي تسبق الساعة الخانقة ، ساعة يطويه الحوت في أدق مسالك أحشائه .

« وكان في غرفة يونان قنديل معلق يتأرجح تأرجحاً واهناً وقد شدّ عند

وسطه الى الجدار بلولب . وعندما ترنحت السفينة نحو الرصيف بسبب ثقل الرزم الاخيرة التي قذفت فيها بقي القنديل واللمب وكل ما يتصل بهما في وضع انحراف مستمر بالنسبة للغرفة وان كانت حركتها خفيفة ؛ ومع انه كان في الحقيقة مستقيماً استقامة لا تخطئها العين فانه جلا للعين المستويات الكاذبة الحادعة التي كان معلقاً بينها . وكان القنديل يرعب يونان ويخيفه . وفيما كان مضطجعا على سريره أخذت عيناه المتعبتان تدوران في ارجاء المكان ، ولم يجد الهارب الذي وجد ملجأ لنفسه اي ملاذ لنظرته القلقة ، ولكن التناقض في وضع القنديل ما يزال يثير الرعب في نفسه ، فأرض الغرفة وسقفها وجوانبها تبدو جميعاً مائلة . فيئن يونان قائلاً : كذلك هو ضميري معلق في داخل نفسي على استقامة ، وكذلك هو يتلهب مضيئاً الا ان الغرفة التي تحتلها روحي مائلة .

« بعد مصارعة أليمة مرت على يونان في سريره أثقله عبء تعاسته الباهظة ، وقد هوى به يغرقه في أعماق النوم ، كأنه سكير أوى الى فراشه بعد ليلة من العريضة وهو ما يزال يترنح، الا ان ضميره يخزه مثل وثبات فرس رهان روماني يزداد شداً كلما أهوى عليه صاحبه بسوطه المذبذب بالفولاذ ؛ او كأنه امرؤ في تلك الورطة التاعسة يدور ويدور في نوبة دوار ، داعياً الله ان يغنيه كي تمرّ النوبة ، وأخيراً يحس وهو في غمرة الويل خدراً عميقاً يتسلل الى جسمه مثلما يتسلل في النهاية الى امرئ ينزف حتى يموت ، اذ الضمير هو الجرح وليس ثمة ما يوقف نزيفه . »

« وحين وقت المدّ وألقت السفينة حبالها ، وانسابت على وجه الماء مبتعدة عن الرصيف ، وهي منحنية متجهة صوب ترشيش وليس عليها علامة من التهلل والاستبشار . تلك السفينة يرافق كانت من أوائل السفن التي اتخذت للتهريب ، وكانت البضاعة المحظورة هي يونان . غير ان البحر يثور لانه يأبى ان يحمل ذلك العبء الشرير ، فتهب عاصفة مخيفة وتكاد السفينة ان تنشق . »

حينئذ يهيب رئيس النوتية بالأيدي لتخفيف حملها ، فتطرح الصناديق والرزم والجرار وتسمع جلبتها وهي تلقى في الماء . وفيما الريح تزعق والرجال يصرخون وكل لوح خشبي فوق رأس يونان يجأر بالانين من شدة وطء الاقدام عليه ، اذ ذاك كان يونان يغط في نومه الشنيع ، والجلبة هذه تشتد من حوله . فهو لا يرى سماء سوداء او بحراً غاضباً ولا يحس بالخشب المترنح ، ولا يسمع ولا ينصت لاندفاع الحوت القوي ، وهو يشق البحار خلفه بشدق مفتوح . نعم يا رفاق ، كان يونان قد نزل في جوف السفينة ، وهو ما أقدر ان يكون سريراً في قمرة ، وكان مستغرقاً في النوم . الا ان القبطان المرتاع يجيء اليه ويصرخ في أذنه التي حل بها الوقر : « ماذا تعني ايها النائم ! انهض ! » فيهب من نومه فزعاً لدى سماع الصيحة الخفيفة ، وينهض مترنحاً على قدميه ، ويتعثّر متجهاً نحو ظهر السفينة فيمسك بحبل ويلقي نظرة على البحر . وفي تلك اللحظة تثب نحوه احدى الموجات وثبة النمر ، مندفعة من جانب السفينة نحو قمتها . وتثب في السفينة موجة اثر موجة ، واذا لا تجد منفذاً كي تتسرب منه تجري هادرة نحو مقدمة السفينة ومؤخرتها حتى يشرف النوتية على الغرق والسفينة ما تزال طافية . ومثما يبدي القمر الشاحب وجهه المفزع من الاخاديد العميقة المنحدرة في الظلمة المطلة عليها ، كذلك يرى يونان وهو مبهور الدقل المائل وهو يمتد في الفضاء ثم يراه وقد توجه الى اسفل نحو الاعماق الهاجئة .»

« أفواج من الرعب اثر أفواج اندفعت تصرخ في روحه . الهارب من وجه الله انفضح امره مما كان أبداه من مداهنة وتولاه من تملق . عرفه البحارة بسياءه . غلبت ريبته في أمره . أرادوا ان يفوضوا الامر الى حكم السماء ليكشف وجه الحقيقة ، فلجأوا الى القرعة ليروا بسبب من ثار ذلك الزوء الخفيف . وقعت القرعة على يونان . واذا استبان الأمر تألبوا محنقين يقذفونه بالاسئلة : ما هو عملك ومن ابن أتيت ؟ ما هي أرضك ؟ ومن اي شعب انت ؟ تأملوا يا رفاق البحر مسلك يونان : سأله البحارة ملحفين متطلعين عن هويته وأرضه فلم يتلقوا

منه جواباً على هذه الاسئلة فحسب بل أجابهم عن سؤال لم يوجهوه اليه ؛ يد الله القوية هي التي انتزعت منه ذلك الجواب الذي لم يطلب ، حين صاح يقول : « انا عبراني وانا خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر » . تخافه يا يونان ! ما أحسن ان تخاف الله إذن ! ودون مواربة يفضي باعترافه كله . وعندئذ يزداد النوتية رعباً وان كانت انفسهم تفيض بالثناء لحاله . ذلك ان يونان لم يتضرع الى الله طالباً الرحمة اذ كان يخشى ألا يستجيب الله دعاءه وهو الذي أورط نفسه في ظلمات الهرب من وجهه ، وانما أهاب ذلك التعس بالنوتية ان يأخذوه ويطرحوه في البحر ، اذ كان يعلم ان ذلك النوء العظيم انما ثار بسببه ؛ وحينئذ استثيرت شفقتهم عليه ، وتلمسوا وسائل أخرى كي ينجوا السفينة ، وذهبت محاولاتهم سدى ، واشتد عواء العاصفة الغاضبة ، فرفعوا الى الله يداً داعية ، وأمسكوا يونان بالأخرى وطرحوه في البحر وهم كارهون .

« ها هو يونان يهوي الى الاعماق كأنه المرساة المطروحة . واذا السكون ينسبط من قبل المشرق ، فيكف البحر عن الهياج ، ويحمل يونان العاصفة معه ، خلفاً ماءً هادئاً وراءه . ويتخطفه وهو هابط جوف الهياج الجامح حتى لا يكاد يعي اللحظة التي ينزل فيها بين شقي شديقين أهرتين فاغرين لتلقيه ، ويطبق الحوت وراءه كل انيابه العاجية كأنها مزاليج بيض يقفل بها باب سجنه . وصلت يونان الى الرب إلهه من جوف الحوت . تأملوا صلاته . وخذوا منها عبرة زاجحة . ذلك أنه وهو الآثم لم يبك ولم يعول طالباً الخلاص الفوري . بل كان يحس ان العقوبة التي نزلت به عادلة فهو يسلم امر خلاصه لله ، ويقنع هو نفسه بشيء واحد رغم ضروب آلامه وعذابه : وذلك الشيء هو ان يعود فينظر الى هيكل قدس الرب . وهذه يرافق البحر توبة نصوح خالصة اذ ليس فيها الاحاف بطلب المغفرة وانما فيها الشكران على العقاب . واذا شئتم ان تعرفوا مبلغ رضى الرب عن عمل يونان دلکم عليه ان الله نجاه في آخر الامر من البحر والحوت . رفاقي ! لست اعرض صورة يونان امام انظاركم لتحاكوه في خطيئته

وانما اعرضها عليكم لتتقنوا بطريقته في الندم والتوبة . لا تقعوا في الائم ولكن ان وقعتم فيه فتوبوا الى الله منه كما فعل يونان .

وحين كان يرسل هذه الكلمات كان زئير العاصفة الصارخة المتحرّفة في خارج المعبد كأنما يضيفي قوة جديدة على الواعظ ، وكأنما كان الواعظ نفسه وهو يصف العاصفة البحرية امرءاً تتلاعب به عاصفة . اذ كان صدره يعلو ويهبط كأن فوقه جرثومة تراب ، وكان ذراعاه وهو يطوّح بهما كالعناصر وهي تتقاتل متصارعة ، وكانت الرعود التي تتدحرج عن جبهته القائمة والبروق التي تثب من عينيه تجعل مستمعيه البسطاء ينظرون اليه في خوف سريع غريب عليهم .

ثم غشت السكينة نظره حين أخذ يقلب صامتاً صفحات الكتاب مرة اخرى ، ووقف دون حراك ، مغمض العينين ، مدى لحظة ، كأنه كان في النهاية يناجي ربه ويناجي نفسه .

ثم مال بجذعه الى الامام نحو المستمعين ، وطأطأ رأسه في وضع يدلّ على أعمق ضروب التواضع وعلى أشدها رجولة في آن معاً وقال :

« يا رفاق البحر . ان الله قد وضع عليكم احدى يديه اما انا فقد بسط عليّ يديه كليهما . لقد قرأت لكم على ضوء خافت ينساب من نفسي العبرة التي علّمتها يونان — نحن الآثمين — فهي عبرة لكم ولكن العبرة لي من قصة يونان اقوى لاني اشد منكم أثماً . كم احب ان انزل عن قمة هذا الصاري واجلس بينكم فوق عنبر السفينة ، وأصغي كما تصغون بينما يقرأ لي احدكم العبرة الاخرى ، العبرة الاقوى التي يعلمونها يونان — انا قائد سفينة الحيّ القيوم . كان يونان مثلي رباناً ، نبياً مسيحاً ، ينطق بالحق ، أمره الله ان ينادي بالحق اهل نينوى الذين صعد شرهم امام الرب ، فخشي العداوة التي قد يثيرها وهرب ناكلاً عن أداء رسالته ، ومضى يريد ان يفر من وجه واجبه ووجه ربه بالارتحال في سفينة مقلعة من

يافا . لكن حينئذ ولى المرء وجهه فثم وجه الله . فلم يبلغ يونان ترشيش ، وأناه وعيد الله في صورة حوت ابتلمه وأهبطه الى قرارة المصير ، وانحرف به في سرعة خاطفة الى العمق « في قلب البحار » ، حيث حومات الاعماق اجتذبتة عشرة آلاف قامة الى القرار ، « والتفّ عشب البحر برأسه » ، وعجّت فوقه جميع ويلات الماء . وحين كان على عمق لا يبلغه اي مسبار بحري - « من أحشاء الجحيم » - حين كان الحوت قد أرسى على أقصى عظام المحيط ، سمع الله من الظلمات نداء النبي التائب السجين . وأمر الرب الحوت فجاء من عالم البرد الزمهريري وظلمة البحر يتضرّب صعوداً نحو الدفء والشمس المنعشة ومتع الهواء والارض «فقذف يونان الى البر» . وحين صدرت كلمة الله الى يونان مرة اخرى ، وكان يونان مشجعاً منهوك القوى وفي أذنيه اللتين تشبهان محارتين طنين البحر ، امتثل أمر ربه . أي امر ؟ ان يصدع بالحق في وجه الباطل - ذلك هو الامر .

« هذه هي العبرة الاخرى التي أستمدها من قصة يونان يرافاق وويل لربان الحي القيوم الذي يستخف بها ؛ ويل لمن ألهته هذه الحياة الدنيا عن أداء فروض الكتاب ؛ ويل لمن أثار فتنة أطفال الله نارها ؛ ويل لمن يبتغي ان يترضى الناس اكثر مما يخوفهم ؛ ويل لمن كانت سمعته آثر لديه من عمل الخير ؛ ويل لمن لا يستدعي الهجنة الى نفسه في هذه الدنيا ؛ ويل لمن يتجنب الحق وان كان الباطل منجاة ؛ ويل لمن يعظ غيره ولا يتعظ ! - كما قال القديس بولس^١ . »

وتدلّى رأسه ونأى عن نفسه لحظة عاد بعدها فرفّح رأسه الى القوم ، والبشر يلتصع في عينيه ، حين صرخ في حماسة ربانية : « لكن يرافاق السفينة :

١ يشير الى ١ كورينثوس ٩ : ٢٧ « بل أقنع جسدي واستعبده ، حتى بعد ما كرزت للآخرين لا أصير انا نفسي مرفوضاً » .

في ميمنة سفينة كلّ ويل مسرة حقيقية^١ - طوبى حقة - وقمة تلك المسرة موعلة في سموها بأكثر مما يوغل الويل في انحداره العميق . اذا أنتم قسم علو الصاري الكبير حتى الصفحة المعدنية في رأسه وانخفاض الكلازون - او اللوح المثبت في قاعدة السفينة - ألسنتم تجدون علو الاول اكثر من انخفاض الثاني ؟ طوبى ؟ سامقة شاهقة روحية - لمن عرّض نفسه الصليبية ضد الارباب والقباطنة المستكبرين في هذه الارض . طوبى لمن أسعفته ذراعا القويتان حين تفرق سفينة هذا العالم الحقيير الخائن - . طوبى لمن لم يسمع في الحق لومة لائم وانما يقتل الإثام ويحرقها ويهدمها ، وان كان يستلّها من تحت ثياب القضاة والحكام - . طوبى - شاهقة نبيلة - لمن لا يقر بشرع سوى شريعة الله وبرب سوى ربه ومن أخذته الحمية للسماء وحدها - . طوبى لمن اذا احتشدت كل أمواج بحار الرعاع الهائجة المائجة لم تزحزحه عن قاعدة سفينة الاجيال - . طوبى خالدة لذيدة لمن يقول حين يضجعونه في لحده : رباه - انت يا من عرفتك بصولجان سطوتك - ها هنا أرقد ، خالداً كتبت لي ان اكون او فانياً . لقد سعيت لأكون من حزبك لا لأكون من حزب الدنيا او من حزب نفسي . غير أن هذا ليس امراً ذا بال فاني لا حق لي بالخلود ، اذ الخلود لوجهك ، وما هو الانسان حتى يطلب البقاء ، والبقاء صفة خالصة لربه . »

لم يزد ، وانما لوّح بيده نحو الرءوس ينثر فوقها البركات ، ثم غطى وجهه بيده ، وبقي راکعاً وحيداً في موضعه ، حتى فصل القوم جميعاً .

١ لاحظ ان اسم السفينة في الفصل : ١٣١ هو «مسرة» ، وهي آخر سفينة التقت بها الباقوطة .

٢ تأمل التوازن بين تكرير كلمتي «ويل» و «طوبى» في هذه الموعظة .

حين رجعت من المعبد الى حانة النفاث وجدت كويكوج هنالك وحده، اذ كان قد غادر المعبد قبل نثر البركات، وكان يجلس على مقعد امام النار، وقدماه على وجاق المدفأة، وقد قرَّب من وجه صنمه الزنجي الصغير باحدى يديه، وأخذ يحدد النظر في وجه الصنم ويعبث عند أنفه بمديته، وهو في اثناء ذلك يهمهم لنفسه بطريقته الوثنية.

ولما قطعت عليه وحدته نحى التمثال من يده، وذهب تواء الى الطاولة وتناول عنها كتاباً كبيراً، ووضع على ركبتيه وأخذ يعد صفحاته على نحو لا يختل؛ اذ كان يقف لحظة بعد كل خمسين صفحة - فيما تصوّرت - وينظر من حوله نظرات فارغة ثم يتفوّه بصفير طويل مفرغر من الدهشة، ثم يبدأ في عدّ الخمسين التالية، ويبدو انه كان في كل مرة يبدأ بواحد كأنما كان يعجز عن ان يتجاوز الخمسين في عده، وبعد ان كثر لديه عدد الخمسينات معاً ثارت دهشته من كثرة عدد الصفحات.

جلست أرقبه باهتمام بالغ: كان متوحشاً وكان وجهه مشوهاً - حسب ذوقي - تشويهاً بالغاً مفرعاً ومع ذلك فقد كان في قسائه ما لا يوصف باثارة النفور. ان المرء لا يستطيع ان يخفي حقيقة روحه، وكذلك كان حال كويكوج، فاني اظن انني رأيت من خلال وشمه الغريب آثار قلب بسيط شريف، ورأيت في عينيهِ النجلاوين العميقتين اللتين تتلهبان سواداً وجسارة أمارات روح تستطيع

ان تتحدى ألف شيطان . زد على هذا ان هذا الوثني كان يطيف به منزع رفيع لم تستطع ان تشوّهه خشونته وفظاظته منبته . كان يبدو لي انساناً لم يعرف الملق ولا يد الدائن العليا . وكان رأسه حليقاً وقد اتخذت جبهته سمناً متطقاً ألمعياً بالنسبة لرأسه وبدت أعرض مما هي في حقيقتها . أتراها كانت كذلك اذ كانت رأسه حليقاً ؟ ذلك شيء لا أجرؤ على الجزم به ، ولكنني على يقين من أن رأسه كان رأساً ممتازاً اذا نظرت اليه من زاوية علم القوى العقلية ؛ قد يبدو مضحكاً ، غير انه ذكرني برأس الجنرال واشنطن كما نراه في تمائيله المعروضة للناس ؛ ففيه ما في رأس واشنطن من الخدار مقعنسس متدرج بانتظام فوق الحاجبين وهما لديه ايضاً حاجبان شديدا البروز كأمتين طويلتين يتكاثف الشجر في قمتيهما . كان كويكوج هو جورج واشنطن وقد تطوّر في اتجاه بدائي .

وبينا كنت أرقبه عن كشب وانا كأنا أوهم في الوقت نفسه أنني انظر الى العاصفة من النافذة لم يتنبه هو لوجودي ، ولا عنسى نفسه ان يلقي عليّ نظرة واحدة وانما بدا أنه منهمك كل الانهك في عد صفحات ذلك الكتاب العجيب . واذ تذكرت كيف كنا ننام معاً على وئام في الليلة السابقة ، وبخاصة اذ تأملت تلك الذراع الحانية التي وجدتها تطوقني حين صحت في الصباح ، خيل اليّ ان قلة احتفاله بي امرٌ مستغرب . غير ان المتوحشين كائنات غريبة ولا يعرف المرء بدقة احياناً كيف يُعاملهم . فهم يبدوون أول الامر مصدر رهبة بالغة ، وتبدو السكينة المطمئنة في بساطتهم حكمة سقراطية . ولحظت ايضاً ان كويكوج لم يكن على شيء من الانسجام — او لعله كان على انسجام قليل — مع البحسرة الآخرين في الحان . فلم يحاول ان يباشر التعرف الى أحد منهم ، بل بدا انه لا يرغب في ان يوسع دائرة معارفه . كل هذا لفتني بانه شيء فذ فريد ثم كررت فيه النظر فوجدت فيه ايضاً شيئاً من الروعة . ها هنا رجل ابتعد عن وطنه عشرين الف ميل عن طريق رأس هورن ، وهو الطريق الوحيد الذي يبلّغه الى وطنه ، وقد رماه القدر بين ناس غرباء عنه فكأنما ألقاه في كوكب المشتري ،

ومع ذلك كان مسترسل الطمأنينة محتفظاً بأقصى حظ من الهدوء والرصانة ،
قانعاً بصحبة نفسه ، غير متعدّ طوره . وفي هذا — دون ريب — مسحة من
فلسفة جميلة ، وان كان هو لم يسمع على وجه اليقين بما نسميه فلسفة ؛ ولكن
لعلنا ان شئنا، نحن الفانين، ان نكون فلاسفة حقاً فعلينا ألا نعي أننا نعيش
عيش الفلاسفة او نسعى لنكون كذلك . وكلما سمعت بان زيداً او عمراً من
الناس يرى في نفسه انه فيلسوف فاني استنتج — كما استنتجت العجوز المصابة
بسوء الهضم — أنه « قد كفّ عن تناول الهاضوم »، ولا بدّ .

جلست في تلك الغرفة المتوحدة والنار تتلهب في غير حدة، وانما هي في
مرحلة لطيفة من التوقد وقد خفتت فيها حدتها التي أدفأت الهواء فأصبحت
تصلح لمتعة النظر . جلست وأطياف المساء واشباحه تتجمع حول النافذة وتسرق
النظر البينا في صمت، نحن الاثنين الوحيدين، والعاصفة تهدر في الخارج في موجات
مهيبة، وفي جلستي تلك أخذت أحس بمشاعر غريبة . أحسست شيئاً يذوب
ويتهاوى في دخلة نفسي؛ لن أوجه بعد اليوم قلبي المعزق ويدي المجنونة ضد عالم
الخلب والناب، فهذا المتوحش الذي ينشر الطمأنينة من حوله قد اقتدى العالم .
ها هو يجلس هناك وقلة اكترائه بالاشياء تنبئ عن طبيعة لا يندس فيها نفاق
الحضارة وخدعها المستعذبة . نعم هو وحشي المنبت، يحلو للمرء ان يراه،
ولكنني بدأت احس انني المنجذب اليه على نحو غريب، والمغناطيس الذي يشدني
نحوه هو تلك الامور التي تنفر منه معظم الآخرين ؛ وقلت لنفسي : سأجرب
صداقة امرئ وثني بعد ان برهن اللطف المسيحي على انه تودد أجوف .
وقرّبت مقعدي منه ورسمت بعض الاشارات والحركات الودية، باذلاً ما في
وسمي من جهد لأتحدث اليه اثناء ذلك ؛ ولم يكثرث هو بهذه البوادر الودية
اول الامر، غير اني حالما أشرت الى كرم ضيافته في الليلة الماضية عانى صوغ
عبارة يسألني فيها : هل سنكون رفيقي سرير مرة أخرى ؟ فأجبت أن نعم،
وخيل اليّ انه استشعر الرضى او لعله ابدى ارتياحه بما عدّه تقديراً .

ثم أخذنا نقلب صفحات الكتاب معاً، وحاولت ان اشرح له الغاية من الطباعة ومعنى الصور القليلة التي احتواها الكتاب وسرعان ما أثرت اهتمامه، ومن ثم انتقلنا نهذرم، بأقصى ما نستطيع، حول المناظر الخارجية المتنوعة التي لا بد للمرء من ان يراها في هذه المدينة الشهيرة . وفي التوّ اقترحت عليه ان نشترك في التدخين فأخرج كدوسه وجرابه وعرض عليّ في هدوء أب اسحب انفاًساً . وجلسنا نتبادل سحب الانفاس من ذلك الشبّك العجيب وجعلناه يتنقل فيما بيننا في انتظام .

ان كان قد تسلسل الى صدر ذلك الوثني شيء من جليد اللامبالاة نحوي فان هذه الانفاس الممتعة المؤنسة قد أذابت ذلك الجليد وجعلتنا خدنين، فقد ألفتني على نحو طبيعي عفوي مثلما ألفته، وعندما انتهينا من التدخين ضغط جبينه على جبيني وطوقني عند الحصر وقال : « منذ اليوم تمّ اقتراننا » ؛ وهذا يعني في لغة بني قومه اننا قد اصبחנו صديقين حميمين، وانه قد يقدم حياته من اجلي مغتبطاً اذا استدعى الامر ذلك . لو ان احد ابناء وطني بادهنى هذه الوقدة المفاجئة من الصداقة لقلت ذاك تسرّع لا تحمد عقباه، ولأحطت حماسه المندفعة بالشك والريبة، غير ان هذه النظرة القديمة الى معنى الصداقة لا تنطبق على هذا المتوحش الساذج .

ذهبنا معاً الى الغرفة بعد تناول العشاء وتبادل الحديث الودّي والتدخين . فأهداني الرأس المحنط الذي لديه ثم استخرج كيس الطباق الكبير وتلمس باصابعه ماتحت الطباق ، واخرج ثلاثين دولاراً فضياً ونشرها على الطاولة وقسمها بالتساوي قسمين بطريقة آلية، ودفع باحدهما نحوي وقال : هذه حصتك . وكنت على ان اعترض الا أنه اسكتني حين سكبها في جيوب سروالي، فتركها حيث اطمأنت . ثم قام يؤدي صلوات المساء فأخذ صنمه، وأزاح اللوح المغطى بالورق ، وظننت من بعض الاشارات والاعراض انه يرغب في ان اشاركه

صلواته ، ولما كنت اعلم ما سوف يتلو فكرت لحظة : ترى اذا دعاني فهل اطاعه او لا ؟

كنت مسيحياً متديناً ، ولدت ونشأت في احضان الكنيسة المشيخية (البرسبتيرية) المعصومة . كيف اتحد مع هذا الوثني البدائي وأعبد قطعة من الخشب ؟ ولكنني قلت لنفسني : ما هي العبادة ؟ اتظن يا اسماعيل ان الهك العظيم رب السماء والارض — رب الوثنيين وغيرهم — يمكن ان يفار من قطعة تافهة من الخشب الأسود ؟ مستحيل . لكن ما العبادة ؟ — الامثال لارادة الله ، تلك هي العبادة . وما هي ارادة الله ؟ ان اعمل لاخوتي بني الانسان ما أحب ان يعمل به بنو الانسان من اجلي ، تلك هي ارادة الله . وكويكوج أخ لي في الانسانية فما الذي أرغب في أن يعمل من اجلي ؟ ان يؤدي العبادة معي على حسب المذهب المشيخي . اذن فعلي ان اتحد معه . اذن فعلي ان أصبح عابد صنم . لذلك اشعلت النشارة ونصبت الصنم الصغير البريء وقدمت اليه بسكويتاً محروقاً انا وكويكوج وانحنيت له بالسلام مرتين او ثلاثاً وقبّلت أنفه . وحين انتهينا من ذلك خلعنا ملابسنا وذهبنا الى السرير وقد اطمأن ضميرانا واصبحنا في سلام مع العالم كله . غير اننا لم نتم قبل ان نتبادل قليلاً من الحديث .

ليس في الدنيا مكان للكاشفة بالاسرار بين الاصدقاء مثل السرير ، ولا ادري لم كان ذلك كذلك . يقولون ان الرجل وزوجه يفتح احدهما للآخر اعماق روحه في السرير ، وبعض الأزواج الشيوخ كثيراً ما يستلقون ويتحدثون عن الايام الخوالي حتى الصباح . كذلك استلقيت انا وكويكوج في عرس قلبيين ، قرينين مطمئنين متحابين .

المنامة

اضطجعنا في السرير نثرثر، وتدر كنا سنة قصيرة فنذوق النوم غراراً ثم نصحو، وبين الحين والحين كان كويكوج يطرح - في حنوّ - رجله السمراوين الموشومتين فوق رجلي ثم يسحبها. كنا على غاية من اللفة والانطلاق والطمأنينة. ومن حلاوة السمر انقشعت عن عيوننا اخيراً كل اثاره للنعاس، وشعرنا كأننا قد اخذنا قسطنا من النوم وصحونا، وان كان الصبح ما يزال نائياً عنا في الغيب.

نعم استكملت يقظتنا حتى بدأ الاضطجاع يبدو لنا متعباً، وقليلًا قليلًا وجدنا انفسنا نجلس، والثياب مطوية من حولنا، وسندنا ظهرينا الى ظهر السرير وقد جعلنا ركبنا الاربع متقاربة في هيئة تشبه الحبة، وانحنينا بحيث يتجه الانف نحو الركبتين كأننا النقرة بينها مدفأة نستمد منها الحرارة. كنا نحس بعذوبة واسترخاء، وازداد احساسنا بذلك اذ كان البرد قارساً في الخارج، ولا بد انه كان قارساً في الداخل اذا نحن تجاوزنا ثياب النوم، فقد كانت الغرفة دون نار. اقول: ازداد احساسنا بذلك لان المرء ان شاء ان يستمتع بدفء الجسد فلا بد له من ان يدع جزءاً من جسمه عرضة للبرد، اذ ليس هناك من صفة في العالم تتخذ لها وجوداً متعيناً دون ان توضع موضع المفارقة لصفة اخرى. ليس هناك شيء قائم بذاته. اذا اوهمت نفسك انك مرتاح وانه قد مضى عليك وقت طويل وانت كذلك فاعلم ان صفة الراحة لم تعد تنطبق عليك. ولكن ان كنت مثلي ومثل كويكوج في السرير قد جعلت ارنبة انفك او يافوخك يحسّ بالبرد قليلاً فهناك تشعر شعوراً عاماً بانك في دفء ممتع حقيقي. لهذا السبب

يجب ان لا تزود غرفة النوم بالنار فهذا من عيوب الترف في حياة الاغنياء . اذ ان ذروة السرور في لذة الدفء هي ان لا يفصل بينك انت وما تهوّم فيه من جام وبين برد الهواء في الخارج شيء سوى البطانية ، عندئذ تستلقي كأنك قبس دافئ في جوف بلورة قطبية .

كنا قد اتخذنا هذه الحبة بعض الوقت حين خطر لي فوراً ان افتح عيني ، ذلك انني ان كنت بين ملاءتي السرير ، ليلاً او نهاراً ، نائماً كنت او يقظان ، فان من عادتي دائماً ان ابقى عيني مغمضتين لكيما استغرق في الشعور بالاسترخاء في السرير . وما من امرىء يستطيع ان يحس بهويته الحق الا وعيناه مغمضتان ، كأنما الظلمة هي العنصر الذي يتكون منه جوهرنا ، وان كان النور اكثر انسجاماً مع الطبيعة الطينية فينا . فلما فتحت عينيّ وخرجت من الظلمة الراضية التي خلقتها لنفسى الى ظلمة جامدة مفروضة عليّ لا يتخللها ضياء في الثانية عشرة ليلاً أصابني انتكاس وبيل . ولذا أمّنتُ على اقتراح كويكوج بانه قد يكون من الخير ان نشعل المصباح ما دامت يقظتنا مستكملة ؛ ثم هو قد شعر برغبة لاهفة الى بضعة أنفاس هادئة من كدوسه . لقد أصابني نفور حاد في الليلة الماضية من تدخينه في السرير ولكن ألا ترون كيف يصبح الهوى العنيد المتصلب مرناً ليناً حين يحاول الحب ان يحنيه ؟ فأصبح أحب شيء اليّ ان أرى كويكوج يدخن الى جانبي حتى ونحن في السرير لانه كان في تلك الحال يبدو في فرح عائلي لطيف . ولم أعد اُبدى اهتماماً لا مسوّغ له بعقد التأمين الخاص بربّ المنزل . وانما أصبحت أعنى بالطمانينة المكتنزة الخاصة الناجمة عن مشاركة صديق صدوق في كدوسه وسريره . وتبادلنا الشبك فيما بيننا وقد طرحنا سترتين الحششتين على اكتافنا حتى انعقد فوقنا - في بطن - ظلة زرقاء من الدخان يتخللها ضوء المصباح الذي أشعلناه قبيل ذلك .

هل كانت تلك الظلة المتموجة هي التي طوّحت بذلك الانسان البدائي الى مشاهد الماضي ؟ لست أدري، غير انه تحدث عن وطنه، وكنت تواقاً الى سماع تاريخه، فرجوته ان يمضي في الحديث، فامتثل في سرور ورضى. حينئذ لم أحسن فهم كثير من كلماته الا ان ما أفضى اليّ به من بعد حين أصبحت اكثر ألفة بتعبيراته « المكسرة » يجعلني الآن قادراً على ان أقدم قصّته كلها أياً كانت وقائعها في هذا الموجز الذي أسرده .

موجز سيرة

كان هذا الرجل من أبناء كوكوفوكو وهي جزيرة تقع الى الغرب والجنوب ، وليس لها على المصورّات الجغرافية وجود فالأماكن الحقة لا تدرج على تلك المصورات أبداً .

وحين كان حديث الولادة يجري كأنه حيوان برّي في أرجاء الغابات وهو يخصف عليه تباناً من الحشيش ، فتتبعه المعزى قاضمة العشب عنه كأنه شجيرة خضراء ، في ذلك الحين تغلغلّت في روحه الطمّاحة رغبة جياشة ليعرف عن دنيا المسيحية أكثر مما يستطيع ان يراه في أنموذج او اثنين من صيادي الحيتان . كان والده رئيساً كبير المقام ، كان ملكاً ، وكان عمه رأس الكهنة ، وكان اذا ذكر النسب الامومي يستطيع ان يفخر بأن له خالات تزوجن محاربين باسليين لا يغلبون . كان الدم الذي يجري في عروقه ممتازاً — اذ كان ملوكياً ، وان كنت أخشى انه للأسف قلّل من النسبة الملوكية فيه بنزوعه في شبابه الجاهل الى أكل لحوم البشر .

وذات يوم زارت سفينة قادمة من ميناء ساج^١ الخليج الواقع في مملكة ابيه ، وتلمس الشاب ان يسافر الى أرض مسيحية ، الا ان السفينة كانت مزودة بما يكفيها من بحارة ولذلك ردت طلبه بازدياء ، ولم ينجع نفوذ والده في تذليل ذلك الردّ، غير ان كويكوج أقسم أن يحقق ما تصبو اليه نفسه ، فدفع

١ قرية صغيرة على الساحل الجنوبي ، على مقربة من الطرف الشرقي من لونج آيلاند .

بزورقه وحيداً الى مضيق بعيد كان يعلم ان السفينة لا بد من ان تجتازه حين تغادر الجزيرة ، وكان على احد جانبيه حاجز مرجاني وعلى الجانب الثاني برزخ منخفض من الارض تغطيه غابات المنجروف التي تنمو وتترعرع في الماء ، فخبأ زورقه وهو عائم بين تلك الغابات جاعلاً مقدمته قبلاً البحر وجلس هو على كوثلة الزورق وقد أمسك بالمحذاف منخفضاً بيده ، فلما جاءت السفينة تنساب على الماء انطلق من مكمنه كالبرق الخاطف وتعلق بجانبها وركل بقدمه زورقه فقلبه رأساً على عقب وأغرقه ، وتسلى السلاسل ، ورمى نفسه مستجمعاً كل طاقته على ظهر السفينة ، وقبض على مزلاج حلقي هنالك وأقسم ان لا يفلقه ولو قطعوه ارباً ارباً .

هدده القبطان بأنه سيقذف به في الماء ، فذهب تهديده سدى ، علق سيفاً بمحارٍ فوق معصيه العارين ، ولكن كويكوج - وهو ابن ملك - لم يطرف له جفن . وأعجب القبطان بهذه الجرأة المستبسة وبرغبته الفذة في ان يزور دنيا المسيحية ، فلان شماسه اخيراً وأخبره انه يتقبله على الرحب والسعة . الا ان هذا الشاب المتوحش الاريب ، هذا الرجل الذي كان في بلده وريث عرش لم يرَ ابداً قمرة القبطان ، وانما وضعوه بين البحارة وجعلوا منه صياد حيتان . ومثلما كان القيصر بطرس الاكبر راضياً ان يكذب في أحواض السفن في مدن أجنبية^١ ، كذلك كويكوج لم يأنف من كل ما قد يلحق به الهوان ، اذا هو استطاع بذلك ان يكسب القدرة على تنوير بني وطنه الاميين وتثقيفهم . وقد قال لي انه كانت تحدوه في أعماقه رغبة عميقة في ان يحرز بين المسيحيين تعلم الفنون والوسائل التي تجعل قومه أسعد حالاً مما كانوا عليه ، بل يريد ان صحّ له ذلك

١ بطرس الاكبر (١٦٧٢ - ١٧٢٥) سافر متكرراً باسم بطرس ميخايلوف ودرس عدة فنون وعلوم في مدن ألمانيا وهولندا . وقضى بضعة اشهر من عام ١٦٩٨ عاملاً في دار الصناعة بمدينة دبتفورد بالانجلترا يتعلم بناء السفن ، كي يدخل فنون اوروبا الغربية وصناعاتها الى روسيا .

ان يجعلهم خيراً مما كانوا . لكن واأسفاه ! فان تصرفات الصيادين أقنعتهم بأن المسيحيين قد يكون فيهم التعساء والاشرار وأنهم قد يتفوقون في تعاستهم وشروهم على رعايا ابيه الوثنيين . واخيراً وصل مرفأ ساج ورأى ما يفعله البحارة هنالك ثم ذهب الى نانتوكت ورأى في اي الوجوه ينفقون اجورهم هنالك ايضاً ، وعندئذ قال كويكوج المسكين لنفسه : واضياع جهدها ! هذا عالم شرير اينما ولتى الانسان وجهه . سأظل وثنيًا حتى أقضي نحبى .

وهكذا عاش بين هؤلاء المسيحيين وتزيا بزيهم وانتحل رطانتهم وهو وثني عريق في أعماقه . وهذا هو وجه الغرابة في عاداته وان كان قد نأى عن وطنه منذ زمن .

وألحت اليه متسائلاً : لماذا لا يفكر في العودة الى بلده ليتوَّج فيه ملكاً ، اذ هو قد يعدد اباه في الموتى الفائنين بعد ان أصبح شيخاً هماً ضعيفاً . فأجابني بأنه لم يحن أوان ذلك بعد ، وأضاف يقول : انه يخشى ان تكون المسيحية — او اهلها بالاحرى — قد جعلوه غير ملائم لارتقاء عرش نقي خالص توارثه ثلاثون ملكاً وثنيًا قبله . وقال : انه قد يعود مع الزمن حين يحسّ انه قد استعاد « العماد » الوثني مرة اخرى . اما هدفه قبل ذلك فهو ان يطوف مبحراً ، وان يبذر « زوانه » في المحيطات الاربعة جميعاً . لقد جعلوا منه حوَّاتاً وأصبح رمح الصيد الشائك في يده بديلاً عن الصولجان .

وحين وقف الحديث عند ما يزمع ان يؤديه في المستقبل سألته ما الذي ينوي ان يفعله في الحاضر الراهن فوراً ؟ فأجابني بأنه عائد الى البحر آخذ في حرفته القديمة . عندئذ أخبرته ان صيد الحيتان هو هدي أيضاً ، وأعلمته انني أنوي الابحار الى نانتوكت اذ هي خير ميناء يبحر منه الصياد المغامر ، أعني خير ميناء يعدد بصيد وفير . فقرر حالاً ان يرافقني الى تلك الجزيرة وان

يسافر معي على نفس السفينة ، ونكون معاً في نوبة واحدة ، وقارب واحد ، وعلى مائدة واحدة . وبإيجاز : سيشاركني في كل ما يقدر لي ، ويداي الاثنتان بين يديه ، وقد غمست الايدي معاً بجرأة في « وجبة » العالمين الذين ننتمي اليهما . فوافقت على كل ما قاله وانا جذل فقد كنت أحمل له ودّاً ، وكانت الى ذلك حوّاًتاً مدرباً ، ومن كان مثله لم يعجز عن ان يكون ذا نفع عظيم لامرئ مثلي يجهل كل شيء عن اسرار صيد الحوت وان كان يعرف البحار معرفة الملاحين التجار .

وانتهت قصته عند آخر نفس اجتذبه من « الشبك » فعانقني وضغط جبّهته على جبّتي وأطفأ النور ، فتباعدنا احداً عن الآخر كل الى ناحية ، وارتمينا نوّاً في أحضان النوم .

في صباح اليوم التالي - وهو يوم الاثنين - تخلصت من الرأس المخطط حين دفعته الى حلاق ليعرض عليه جمّة من الشعر المستعار ، وبعد ذلك دفعت ما عليّ وما على صديقي من حساب مستغلاً النقود التي أعطانيها ذلك الصديق . ويبدو ان ربّ النزل والنزلاء جميعاً أحسّوا على نحو مدّهش بالغيرة من هذه الصداقة المفاجئة التي نبتت بيني وبين كويكوج ، وخصوصاً وأن بطرس التابوتي - ربّ النزل - حكى لي عنه حكايات موعظة في الاسراف والغلو فأخافني من الشخص نفسه الذي أصبحت اليوم أرافقه .

استعرنا عربة يد ونقلنا اشيائنا وفيها حقيقتي القماشية البائسة وفيها من أمتعة كويكوج كيسه الخيشي وأرجوحة نومه ، ومضيفنا منحدريّن الى «الطحلبة» تلك السفينة الصغيرة المئناة الشراع الراسية عند رصيف الميناء على أهبة الاقلاع الى نانتوكت . وبينما كنا سائرين كان الناس يحملةون فينا ، ولم تتجه انظارهم كثيراً الى رفيقي اذ تعودوا ان يروا متوحشين مثله في شوارع بلدهم ، وانما كانوا يحدقون لرؤيتنا انا واياه في صحبة وثيقة : غير اننا لم نعرهم اهتماماً وظللنا ندفع العربة ، كل بدوره ، وكان كويكوج يقف بين الحين والحين ليسوتي الغمد على ريش رمح . فسألته لم يحمل مثل هذا الشيء المزعج على الساحل ، أليست كل السفن المخصصة لصيد الحيتان مزودة بالرماح الصالحة للصيد ؟ فأجابني على هذا السؤال بما فحواه : ان ما أملت اليه حق تماماً ولكنه ذو مقّة خاصة لرمحه اذ هو من مادة مضمونة مجرّبة في عديد المعارك وقد أصبحت قلوب الحيتان

مألفاً لسانه . اي ان كويكوج - بعبارة موجزة - كان لاسباب خاصة يؤثر
سلاحه مثلما ان الحصادين الذين يستأجرون للحصاد في حقول المزارعين يذهبون
الى عملهم وقد حملوا معهم مناجلهم الخاصة بهم وان لم يكونوا مجبرين على ان
يتزودوا بها .

واذ نقل العربية من يدي الى يده قصّ عليّ قصة مضحكة عن موقفه من
أول عربية يدّ شاهدها . كان ذلك في مرفأ « ساج » ويبدو ان أصحاب السفينة
التي ركبها أعاروه عربية لكي ينقل فيها صندوقه الثقيل الى الفندق الذي ينزله؛
ومن اجل ألا يقال انه يجهل كيف يستعملها - والواقع انه كان على جهل تام
بطريقة استعمالها - وضع صندوقه عليها وربطه ربطاً محكمًا، ثم حمل العربية
على منكبه ومضى يشق الرصيف . قلت له : « أوه يا كويكوج، أظن انك
كنت تعرف خيراً مما فعلت ؛ ترى ألم يضحك الناس من ذلك ؟ »

فلما سمع ذلك مني حكى لي قصة اخرى . قال : ان الناس في جزيرة
روكوفوكو يعصرون في حفلات الاعراس الماء العطر من أثمار جوز الهند الفتيّ
في سقاء يقطيني مدهون يشبه الكأس الذي يصب فيه شراب البنش . وهذا
الكأس - أو لنسمّه الرّفد - يمثل ثأماً واسطة العقد في الزينة على البساط
المجدول حيث يقام الاحتفال . وذات يوم وقفت في ميناء روكوفوكو سفينة
تجارية كبيرة، ودعي قائدها الى عرس أخت كويكوج، وكانت اميرة جميلة
يُزهف بها العمر نحو الحادية عشرة . وكان القبطان من أي وجه اعتبرته يعد
سيداً جليل المظهر عارفاً بأصول اللياقة وآدابها، بما يليق بقبطان في سفينة . فلما
اجتمع الضيوف جميعاً في كوخ العروس - وهو من البوص الهنديّ - دخل
القبطان وقد خصص له مجلس الشرف، فجلس عند ذلك الرّفد بين رأس الكهنة
وجلالة الملك ، والد كويكوج؛ وحين انتهوا من تقديم التحميد والدعاء،
- فأولئك الناس يبدؤون ايضاً بالتحميد وقد أخبرني كويكوج أنهم يفعلون

حينئذٍ خلاف ما نفعل، فنحن ننظر، اذ نردد أدعية الشكر، الى الصحاف
المفشورة بين ايدينا، أما هم فيقلدون طيور البط، وتشرئب اعناقهم وأعينهم
نحو الوهّاب العظيم الذي يمنحنا جميع الاعياد والاحتفالات - أقول : حين
انتهوا من تقديم التمجيد افتتح رأس الكهنة المائدة بالشعائر الخالدة التي عاشت
عليها الجزيرة، أي بأن غمس اصابعه الميمونة التي تفيض البركة، في الرفد، قبل
ان يدار العصير المبارك على الشاربين . ولما رأى القبطان أنه يجلس الى جنب
رأس الكهان وبعينيه فعل ذلك الكاهن الأعلى ما فعل ، وظناً منه انه ما دام
قبطاناً لسفينة فهو مقدّم على ملك لا يملك إلا جزيرة، وبخاصة وهو ضيف في
دار الملك - أقول : لذلك تقدم ذلك القبطان - غير مبالٍ - وغسل يديه في
ذلك الرفد ظاناً انه قدح كبير تغسل فيه الأيدي . وقال كويكوج : « تفكر
ماذا ؟ أما ضحكك منه قومننا ؟ »

وأخيراً دفعنا أجرة السفر وأودعنا الامتعة ووقفنا على ظهر تلك الشانية،
ففشرت شراعها وانسابت على نهر آكشنت . وعلى احد الجانبين تجلت
نيوبدفورد وقد امتدت شوارعها صفوفاً ، والاشجار التي يغطيها الثلج تتلألأ في
الفضاء الصافي البارد، وقد كدست على أرصفتها تلال وجبال من براميل فوق
براميل، وقد تلاصقت سفن صيد الحيتان التي تجوب العالم ووقفت صامتة بعد ان
أرست سالمة هنالك في نهاية مطافها . بينما كان ينبعث من سفن اخرى أصوات
النجارين وصانعي البراميل وقد اختلطت بضجيج النيران والأفران لإذابة القار،
وكل ذلك ينبىء عن التأهب لرحلات جديدة . فما تنتهي أخطر سفرة وأطولها
حتى تبدأ ثانية، وما تكاد تنتهي الثانية حتى تبدأ ثالثة وهلمّ جرّاً الى الابد .
ذلك هو الدعوب الدائب، بل تلك هي الفداحة الباهظة، في كل السعي الانساني
على الارض .

النسيم المنعش يزداد طلاقة وترويحاً عندما يحتضن بسيط الماء، و «الطحلبة»

الصغيرة تنثر الزبد المتسارع عن مقدمتها كما ينفث المهر الفتي أنفاسه . كيف كنت اتنفس ذلك الهواء الجهنمي ! ما أشد ما احتقر الارض ذات الحواجز والاثارات والجوازات ! تلك الطريق العامة التي خددتها نعال العبودية وحواقرها ! وتحولت الى الاعجاب بعظمة البحر الذي لا تنطبع فيه آثار .

ويبدو ان كويكوج كان يرد موردي ويشرب من دنّ كدنيّ ويترنح مثل ترنّحي ، فقد تفاجئت فتحنا أنفه الأسمر وابتسم جذلان ابتسامة كشفت عن اسنانه المشحوذة المحددة . وطارت بنا السفينة ، وكسب عرض البحر الجولة ، وأدت « الطحلبة » شعائر الولاء لهيمنة الريح ، فانحنت اجلالاً وانعمرت مقدمتها كأنها عبد بين يدي سلطان ؛ وكلما مالت الى جانب انبعثنا نميل معها ، وكل كرّ من كرورها يجلجل كأنه سلك معدني ، والصاريات الطويلان ينكبّان كأنها قصبتان هنديتان في وجه إعصار برّي . وانهمكنا في هذا المشهد المترنح حين كنا واقفين امام الدقل المائل الغاطس ، حتى لقد مرّ علينا وقت لم نلاحظ فيه النظرات الساخرة التي كان يسدها اليها المسافرون وهم مجموعة من الحمقى تعجبوا من ان يكون اثنان من الناس على مثل هذه الصحبة ، كأن الرجل الابيض شيء أرفع من الزنجي الذي فقد البياض . لكن كان هناك بعض الحمقى والمتعطرسين تدل صفرتهم الشاحبة على أنهم جاءوا من قلب الضغينة ومن سويداء الغيرة . وفاجأ كويكوج احد هؤلاء الأيفاع الأغرار وهو يحاكيه ساخرأ من وراء ظهره . وظننت ان ساعة ذلك المتعطر قد دنت ، فقد نجّى ذلك المتوحش المفتول الساعد ربحه ، وأمسك بالفتى من ذراعيه وطوّح به في رشاقة وقوة خارقة في الفضاء ، ثم ضربه على كفه في انقلابة ، فأرسل على قدميه ، وصدره يكاد ان يذشق ، ولدار كويكوج ظهره غير مكترث وأشعل كدوسه ودفعه اليّ لاسحب منه نفساً .

فصرخ المتعطر وهو يجري نحو الضابط : « كبّتان ! كبّتان ... هذا

شيطان» وصاح القبطان، وهو ضلع عجفاء، فيما هو يمشي في خيلاء نحو كويكوج :
« انت . هناك . بحق الشياطين ماذا تعني بذلك ؟ ألا تدري انك قد تقتل
الفتى ؟ »

فقال كويكوج وهو يلتفت نحو بلطف : « هو ، يقول ماذا ؟ » قلت :
« يقول لك انك كدت تقتل - هو » وأشارت الى ذلك الفر المرتعد .

فصرخ كويكوج وهو يلوي قسماته الموشومة في تعبير من الازدراء غريب :
« انا أقتل هو - سمكة هو صغيرة !! ان كويكوج يقتل - ه - حوتاً كبيراً » .

فزار القبطان يقول : « انا أقتلوك يا آكل لحوم البشر إذ انت قمت باحدى
حيلك ها هنا على هذه السفينة . فاحذر ثم احذر » .

في تلك اللحظة آن الاوان لكي يكون القبطان نفسه على حذر ؛ ذلك ان
الضغط الهائل على الشراع الاكبر قد فصل الحبل الذي يضبط زاوية الشراع ،
وأخذت السارية الكبرى التي بها تمتد قاعدة الشراع - ولتسمها المشحان -
تتأرجح من جانب الى جانب وتكنس في حركتها الجزء الخلفي من ظهر السفينة .
اما المسكين الذي عَنُفَ عليه كويكوج فقد اكتسحته وألقته في البحر .
وعقل الخوف الايدي جميعاً عن الحركة ، ولو حاولت يد ان تمتد الى السارية
لتثبتها لكان ذلك هو الحق عينه . فقد كانت تطير يمينه ويسرة وتعود ثانية في
أقل من رجع البصر وفي كل لحظة تكاد تتطاير الى شظايا . فلم يعمل احد شيئاً
ولم يبدو ان شيئاً يمكن ان يعمل . اما الذين على الظهر فاندفعوا نحو المقدمة
ووقفوا يرقبون السارية - المشحان - كأنها الفك الاسفل من حوت محنق
يستشيط غضباً . وفي غمرة هذا الفرع المشلول انحنى كويكوج برشاقة على
ركبتيه ، وزحف تحت متأرجح السارية ، وأمسك بحبل ، وأوثق أحد طرفيه

الى الجانب الواقع فوق ظهر السفينة ، ثم قذف الطرف الثاني كأنه انشودة ، وأعلقه حول السارية وهي تتأرجح فوق رأسه ، وفي الهزة التالية اعلق السارية نفسها وثبتها ، وبذلك سلم كل شيء . واندفعت الشانية مع الريح ، وبينما كانت الايدي تعالج القارب في المؤخرة ، نزع كويكوج ثيابه حتى الحصر ، ووثب من الجانب وثبة متقوسة حيوية طويلة . وظللنا نراه مدة ثلاث دقائق او اكثر وهو يسبح كأنه كلب ، يلقي ذراعيه الطويلتين على استقامة أمامه ، وأحياناً يبرز كتفيه المفتولين من خلال الزبد الذي يجمد الاطراف . ونظرت الى ذلك الرفيق العظيم الرائع فلم أرَ شخصاً يتطلب انقاذاً . لان ذلك الفتى الغرّ كان قد انحدر الى الاعماق . غير ان كويكوج انطلق عمودياً من خلال الماء ولمح ما حوله في لحظة ، ثم - كأنما عرف الامور على حقيقتها - غاص واختفى عن الانظار . وبعد بضع دقائق ظهر ثانية وإحدى ذراعيه تضرب الماء والاخرى تجرّ شيئاً لا حياة فيه . فالتقطها القارب حالاً ، واستعيد المتغطرس المسكين ، وصفقت الايدي جميعاً تحيي كويكوج ، وسأله القبطان المغفرة ؛ ومنذ تلك الساعة التصقت به كأنني محارة ، الى ان غاص كويكوج المسكين آخر غوصة طويلة .

أهناك مثل انكاره للذات ؟ لم يتصوّر انه يستحق نيشاناً من الجمعيات الانسانية العظيمة . لم يطلب شيئاً سوى الماء - الماء القراح - حتى يزيل عنه الملوحة ؛ واذ فعل ذلك لبس ثياباً جافة وأشعل كدوسه وأسند ظهره الى جدار السفينة ونظر الى من حوله في دماثة وكأنه يقول لنفسه : « هذا عالم مشترك يتبادل الناس التعاون في كل بقعة من بقاعه ؛ ونحن المتوحشين أكلة لحوم البشر لا بد من ان تساعد هؤلاء المسيحيين » .

نانتوكت^١

لم يحدث في السفرة شيء آخر يستحق ان يذكر وهكذا وصلنا نانتوكت
سالمين بعد جري جميل .

نانتوكت ! خذ خريطةك وانظر اليها . تأمل اي بقعة تحتلها في هذه الارض
وكيف تقع ، حيث تقع ، بعيدة عن الشاطئ ، متوحدة اكثر من فنار
اديستون . انظر اليها — ما هي الا كثيب رمل او حَقِش ، كلها شاطئ
ليس وراءه ارض . فيها من الرمل اكثر مما قد تستعمله في خلال عشرين سنة
بديلا عن ورق النشاف . ولو حدثك عنها بعض الظرفاء المغامرين لأخبروك
انهم يزرعون العشب نفسه فيها لانه لا ينبت وحده برياً وانهم يستوردون
اشواك كندا ، وانهم يبعثون الى ما وراء البحار في طلب سداة يمنعون بها
تسرب الزيت من برميل ، وان قطع الخشب في نانتوكت تحمل وتنقل كأنها
شظايا من الصليب الحقيقي بروما . وان الناس هناك يزرعون « الفطر » امام
بيوتهم لكي يجلسوا في ظله إبان القميط ، وان سنبلة واحدة من النبات تكون
واحة ، وثلاث سنابل تنبت على مدى مسيرة يوم تمثل سهوباً شاسعة ، وانهم
يلبسون احذية للمشي في الرمل المهيل كتلك التي يستعملها اهل لابلاند للمشي على
الثلج وأنهم محاط بهم مطوقون محصورون من كل وجه معزولون قد جعل

١ جزيرة تقع على بعد ٢٧ ميلا الى الجنوب من رأس كد ، واكبر مدنها تسمى نانتوكت .

المحيط بلدهم جزيرة محضاً حتى انهم ليجدون البزاق عالقاً بكراسيهم وموائدهم كما يعلق بظهور السلاحف البحرية . الا ان هذه الشطحات لا تدل الا على ان نانتوكت ليست هي إلينوي .

تأمل هذه القصة المأثورة العجيبة عن استيطان الرجال الحمر لهذه الجزيرة . تقول الاسطورة : في سالف الازمان خات نسر على ساحل نيوانجلند وطار يحمل وليداً هندياً في مخالبه . وأعول الوالدان وهما يريان طفلها وقد غاب عن انظارهما فوق الامواه المترامية فعزما على اللحاق به في الاتجاه نفسه ، وأبحرا في زورقيهما وبعد سفرة خطيرة استكشفا الجزيرة ، وهناك وجدا علبة عاجية صغيرة ، وما كانت سوى هيكل الوليد الهندي المسكين .

أي عجب ، وأهل نانتوكت يولدون على الشاطئ ، في ان يألفوا البحر مصدراً لعيشهم . كانوا اول الامر يجمعون السرطان من الرمل ، فلما اشتدت جراتهم خاضوا الماء بشباكهم بحثاً عن سمك المقريل ، فلما ان شبت دربتهم انطلقوا في قواربهم يصيدون البكلاه (سمك القد) . وأخيراً أنزلوا في الماء اسطولا من السفن التجارية الكبرى واستكشفوا العالم المائي ، وطوقوه بنطاق من الملاحة ، وأطلقوا على مضائق برنج؛ وفي كل فصل وفي المحيطات جميعاً شنوا حرباً أبديّة على اكبر جرم حافل بالحياة ، تخلف بعد انحسار الطوفان ، اشدها هولاً واكثرها ضخامة اعني ذلك الجبار كأنه هملايا ، ذلك الماموث الذي يعيش في البحر الملح ، ويكسوه شؤم قوة خفية ، حتى ان الهلع الذي ينشره ، يخشى اكثر مما تخشى هجئاته الجريئة الحاقدة .

هكذا جاب أهل نانتوكت العراة ، نساك البحر ، العالم المائي وفتحوه ، صادرين من جرثومة النمل التي يسمونها جزيرة ، وكأن كل واحد فيهم هو الاسكندر الكبير . وجزأوا بينهم الاطلسي والهادي والهندي مثلما اقتسمت

بولنڊۃ ثلاثۃ من قوى القراصنة . اذا شاءت امريكا ان تضيف المكسيك الى تكساس وان تكس كوبا فوق كندا فلتفعل ، وليحتشد الانجليز في طول الهند وعرضها مكاترين اهلها عدداً ، وليركزوا علمهم الشهير على قرص الشمس . غير ان ثلثي هذه المعمورة المؤلفة من بر وبحر من نصيب ابن نانتوكت ، لان البحر منها هو نصيبه ، فهو يملكه مثلما يحرز الاباطرة امبراطورياتهم ، وليس للبحارة الآخرين من حق فيه الا العبور . وما السفن التجارية الا جسور ومعاير ، وما الحربية منها الا قلاع عائمة وقد يذهب القراصنة وقباطنة السفن الخاصة في مسالك البحر كما يفعل قطاع الطرق على البر ولكنهم لا ينهبون الا سفناً ليست لاهل نانتوكت ولا يقتطعون الا اجزاء اخرى من الارض دون أن يحاولوا استمداد عيشهم من أغوار الماء العميق . الا ابن نانتوكت وحده فانه هو الذي يقطن البحر ويقيم المآدب والحفلات فوق مياهه ، هو وحده على حد قول التوراة : « ينزل اليه في سفن »^١ ، ويفلحه ذهاباً واياباً كأنه مزرعته الخاصة ، فيه بيته ، وفيه موطن عمله ، وعمله دائب لا يوقفه طوفان كطوفان نوح ، ولو كان طوفاناً يكتسح كل الملايين في الصين . هو يعيش في البحر كما تعيش ديوك السهوب في السهوب ؛ يختبئ بين الامواج ويتسلقها كما يتسلق صيادو الاروى جبال الالب . تضي عليه سنوات لا يعرف فيها البر ، فاذا نزل على البر اخيراً وجد فيه رائحة عالم آخر ، اغرب من القمر في نظر ابن الارض . ابن نانتوكت كطيور النورس التي لا بر لها ، تطوي جناحيها عند الغروب وتهدهد نفسها للنوم بين الامواج . وهو عندما يحنه الليل نائياً عن البر يلف أشعرته ويخلد الى الراحة وتحت وسادته نفسها تندفع قطعان من الفظ والحيتان .

١ من المزامير ١٠٧ : ٢٣ - ٢٤ « النازلون الى البحر في السفن العاملون عملاً في المياه الكثيرة ، هم رأوا اعمال الرب وعجائبه في العمق » .

كان المساء قد أظلم حين أرست « الطحلبة » الصغيرة في هواة، ونزلتُ انا وكويكوج الى الشاطئ، ولم نكن نستطيع في تلك الساعة المتأخرة ان ننجز عملاً سوى ان نبحث عن عشاء ونزل . وكان صاحب حان النفاث قد أوصى بنا ابن عمه هوسيا هسي (آل السليط) من عائلة « القدور المجرّبة »^١، وأكد لنا انه صاحب فندق من أحسن الفنادق في نانتوكت كلها، واذاف يقول : ان ابن العم هوسيا مشهور بأطباق الشودر . اي انه بايجاز ألمح اليّنا ان خير ما نفعله هو ان نجرّب وجبة عند عائلة « القدور المجرّبة » . ولكنه حين وصف لنا كيف نهتدي الى الفندق قال : إجعل على يمينك مستودعاً اصفر اللون حتى تواجه كنيسة بيضاء على اليسار، واجعل الكنيسة على اليسار حتى تنعطف نحو اليمين بعد ثلاثة منعطفات، فاذا فعلت ذلك فاسأل اول رجل تلقاه عن ذلك المكان - وحين تذكرنا هذه التعليمات الملتوية حيرتنا بادىء الأمر ، وبخاصة وان كويكوج أصرّ على ان المستودع الاصفر، وهو بداية انطلاقنا، لا بد ان يكون على اليسار. بينما فهمت انا من بطرس التابوتي أنه على اليمين . مهما يكن من شيء أخذنا نخبط في الظلام، وبين الحين والحين نطرق باب امرىء آمن مطمئن لنسأله عن الطريق حتى وصلنا اخيراً الى شيء لا مدب فيه للخطأ .

١ الاصح ان يقال « قدور التصفية » Try-Pots ، واذا آثرت شيئاً من المبانيّة للاصل رجاء الايماء بالقدرة على الطبخ .

فقد رأينا امام الباب العتيق قديرين ضخمتين من الحشب مدهونتين باللون الأسود، معلقتين من أذنين كآذان الحمار، وتدلّيان من ساريتين افقيتين مسمرتين على دقل كبير مغروز امام ذلك الباب . وقد نشر قرنا تينك الساريتين من الجانب غير المواجه حتى بدا ذلك الدقل غير بعيد الشبه بالمشنقة ؛ ولعلّني كنت حينئذ مسرفاً في التقاط الانطباعات التي تأدت اليّ من ذلك المنظر، ولكنني لم أملك ان أحقق في تلك المشنقة إلا وأنا استشعر ريبة غامضة، وأحسست في عنقي بشيء من التصلب وأنا أحقق في القرنين اللذين لم ينشرا . نعم هما اثنان ؛ واحد لي وواحد لرفيقي، وقلت لنفسني : هذا كله نذير شؤم يقتضي خطواتي : حين نزلت في اول ميناء للصيد كان صاحب النزل الذي حللت فيه تابوتياً . وفي معبد الصيادين كانت شواهد القبور تحدد النظر في وجهي . وما هنا مشنقة ! وهذان زوجان من القدور السود الضخام ! أتراهما يلحان تلميحاً موارباً الى درك الجحيم السفلي !

استردني من التهويم في هذه الافكار منظر امرأة كلفاء، ذات شعر أصفر وعباءة صفراء، واقفة في دهليز الفندق تحت مصباح بليد أحمر متأرجع يبدو شبيهاً بعين مطروفة، وقد اشتبكت مع رجل ذي قميص صوفي ارجواني في سباب طريف . كانت تقول للرجل : « انصرف وإلا ... عفرت الارض بك » . فقلت : « هيا يا كويكوج . قد وصلنا، فتلّك هي زوجة السيد هسي » .

وكذلك كانت، اذ ان السيد هوسيا « السليط » كان قد سافر، وترك لزوجته ان تشرف بما لديها من كفاية تامة على كل اعماله . وعندما أعلنّا عن رغبتنا في العشاء والمنام أرجأت زوجة « السليط » أمر السباب مؤقتاً وأدخلتنا الى غرفة صغيرة ، وأشارت الينا بالجلوس الى مائدة تناثرت فوقها بقايا وجبة استهلكت قبيل قليل، ثم استدارت نحونا وقالت : « بكلاه او حزون ؟ »

فقلت في أدب جم : « ما شأن البكلاه يا ستي ؟ »

فرددت : « بكلاه او حازون ؟ »

فقلت : « حازون للعشاء ؟ وبارد ايضاً أهذا ما تعنيه ؟ ولكن هذا استقبال فاتر حازوني في وقت الشتاء . أليس كذلك يا مسز « سليط » ؟ »

ولكن لما كانت في عجلة تودّ ان تستأنف شتم الرجل ذي القميص الارجواني، وكان هو ينتظر استئناف ذلك في المدخل، ولما لم تسمع من كلماتي شيئاً سوى لفظة « حازون » أسرعت نحو باب مفتوح يؤدي الى المطبخ وصرخت : « حازون لاثنين » واختفت عن انظارنا .

فقلت : « كويكوج، هل تظن اننا الاثنين نستطيع ان نكتفي في عشاءنا بمحارة واحدة ؟ »

وانطلق من المطبخ بخار دافئ لذيد الشذا كدّب . ما حسبناه رجاءً خائباً، وعندما حضر الشودر يعلوه البخار النحلّ اللغز بما تطيب له النفس . أصبحوا اليّ يا أحبتي ! كان ذلك الطبق مصنوعاً من حازون صغير غضّ، لا تكاد الواحدة منه تتجاوز حبة البندق، وقد مزج ببسكويت السفن مسحوقاً، وشرائح من لحم الخنزير رقيقة مملحة، وقد غذي كل ذلك بالزبدة، وأدم بقدر سخّي من الفلفل والملح . وكانت الرحلة البرود قد شحذت شهوتنا للأكل، وخاصة كويكوج حين رأى طعامه البحريّ الأثير أمامه، والشودر متعناً غاية في ذلك ؛ فالتهمنا ما بين أيدينا بسرعة فائقة . وحين سندت ظهري لحظة وفكرت في ما صاححت به زوجة « السليط » وهي تعلن للطباخين ما يحلبونه للنزلاء من بكلاه او حازون قلت : سأقوم بتجربة صغيرة، فتقدمت الى باب المطبخ وقلت : « بكلاه » بصوت جهوري، وعدت الى المائدة . فانبعث البخار اللذيد مرة اخرى في بضع لحظات الا أنه كان ذا شذا مبين للاول، وفي وقت غير طويل وضع أمامنا طبق من شودر البكلاه .

استأنفنا الجدد ؛ وفيما كنا نجيل الملاعق في صينية الطعام ، قلت لنفسى : أترأه يؤثر في الرأس . وإلا فلماذا جرى ذلك الوصف العيَّاب عن ناس يقال فيهم : هؤلاء ذوو رموس شودية ؟ « انظر يا كويكوج أليس ذاك الذي في صحنك أنكليس حى ؟ أين رمحك ؟ »

كان فندق « القدور المجرّبة » أشد المحلات التي تقدم السمك امعاناً في « السمكية » ، وبحق ما استحق تلك التسمية ، اذ كانت القدور دائماً تقرر بالشودر . فهو طعام الفطور وطعام الغداء وطعام العشاء ، حتى لبدأ المرء المقيم هنالك يتحسس حسك السمك خارجاً من ثيابه . وأمام الدار باحة قد رصفت بصدف الحلزون . ثم إن زوجة « السليط » تلبس عقداً مصقولاً من فقرات سمك البكلالة ، وزوجها يحتفظ بسجل حساباته مجلداً يجلد قرش فاخر عتيق . حتى الحليب له نكهة السمك ؛ ولم أستطع ان أفسّر ذلك الا حين قمت بجولة ذات صباح على الشاطئ بين قوارب بعض الصيادين ورأيت بقرة هوسيا المخطططة تتغذى على قمامة من بقايا السمك ، وكانت تسير على الرمل وقد علق في كل حافر من حوافرها رأس سمكة البكلالة . وانا أؤكد لكم انها كانت تبدو محذوة منتعلة .

ختمنا العشاء فتسللنا مصباحاً وقدّمت لنا زوجة « السليط » كل التعليقات المتعلقة بأقصر طريق تبلغنا غرفة النوم . ولكن بينما كان كويكوج يتأهب ليتقدمني صاعداً الدرج مدت السيدة اليه يدها وطلبت اليه ان يسلمها رحمه ، اذ ان إدخال الرمح الى احدى الغرف أمر غير مسموح به . فقلت لها : « ولم لا ؟ كل حوَّات عريق ينام والى جانبه رحمه . لم لا ؟ » فقالت : « لان ذلك خطر . منذ ان عاد استجز الشاب من رحلته التعيسة وليس معه إلا اربعة براميل من الجعة بعد ان غاب اربع سنوات ونصف سنة ، ووجد ميتاً في الطابق الاول الخلفي ورحمه الى جانبه - منذ ذلك الحين لا أسمح للنزلاء ان يأخذوا هذه الاسلحة

الخطيرة الى غرفهم ليلاً ؛ وعلى هذا يا سيد كويكجوج (وكانت قد حفظت اسمه)
سأخذ هذه الحديدية منك واحتفظ لك بها حتى الصباح. ولكن أي شئ تريدان
في فطور الغد ؟ البكلاء أم الحلزون ؟»

قلت : « كليهما ، وليكن مع ذلك على سبيل التنويع زوجان من سمك
الرنجة المدخن » .

في السرير تدبرنا خططنا من أجل غد ولكن ثار عَجَبِي وقسط غير قليل من اهتمامي حين أعلمني كويكوج بأنه قد كان مثابراً على استشارة يوجو^١ - إلهه الاسود الصغير - وان يوجو أخبره مرتين او ثلاثاً، وأصرّ عليه في كل مرة اصراراً شديداً ، بأن لا نذهب سوية بين أسطول الصيد في الميناء لنختار معاً السفينة التي نبحر عليها، اقول : ان يوجو نبه في حرارة واخلص الى ان اختيار السفينة يجب ان يكون منوطاً بي وحدي ، ان شئنا ان يظلّ يوجو مقيماً على رعايتنا ، ومن اجل ذلك وقع اختيار يوجو على سفينة ، لو تركت انا اسماعيل لشأني لوقع عليها اختياري دون خطأ ، كأن الحظ هو الذي قدّر ان تكون من نصيبي ، وعليّ ان ابجر في تلك السفينة على الفور ، بصرف النظر في الحال الراهنة عن كويكوج .

نسيت ان اذكر ان كويكوج كان في أمور عديدة يضع ثقة كبيرة في براعة يوجو وحسن تقديراته ، وتنبؤاته المدهشة ، وأنه كان يحبوه إعظاماً بالغاً ويرى فيه إلهاً طيباً حسن النوايا على الجملة ، وان لم تكن خططه الخيرة ناجحة دائماً .

ولما كانت خطة كويكوج هذه ، او قل خطة يوجو ، تمس اختيار السفينة

١ يذكر اسمه بلفظة ياجوج ولكن لعلّ ملفل لم يطلع على هذا ، واختار اسماً مقارباً لما يعرفه من اساء في البحار الجنوبية .

التي نبحر عليها وجدتني أواجهها بشيء من التكرّر . نعم انا لم اعتمد اي اعتماد على حكمة كويكوج لكي يدلّ عليّ خير سفينة تحملنا وتحمل مقدّراتنا في أمان . ولكن حين تبددت جميع اعتراضاتي فلم تحرك شيئاً في كويكوج اضطررت الى التسليم ؛ وعلى ذلك تأهبت للشروع في هذا العمل بطاقة وقوة مندفعة حاسمة لكي أسوّي ذلك الامر الصغير النافه على عجل . وفي صباح اليوم التالي خلفت كويكوج مع يوجو قابعين في غرفة نومنا الصغيرة ، اذ يبدو ان ذلك اليوم كان عندهما رمضان او يوم صيام وخشوع وصلاة . كيف كان كويكوج يؤدي هذه الشعائر ؟ ذلك سرّ لم استطع استكشافه فاني وان كنت حاولت ممارستها مرات عديدة لم استطع ان أحكم صلواته ولا بنودها التسعة والثلاثين . تركت كويكوج صائماً وكدوسه بين شفّتيه ، ويوجو يدفىء نفسه على نار الفشار القربانية ، وذهبت في جولة بين السفن . وبعد تجوال طويل واستفسارات عارضة علمت ان هناك ثلاث سفن مزمعة على رحلة تستغرق ثلاث سنوات : وهي « زوجة الشيطان » و « اللقمة السائغة » و « الباقوطة »^١ . اما الاولى فلست ادري من اين جاء اسمها واما الثانية فاسمها واضح واما الباقوطة فانتم تذكرون دون ريب انه اسم قبيلة مشهورة من هنود مساشوستس انقرضت كما انقرض الميسديون . أمعنت النظر في « زوجة الشيطان » وتفحصتها متطلعاً ثم قفزت منها الى « اللقمة السائغة » واخيراً وصات ظهر « الباقوطة » وتأملت لحظة وقرّرت اخيراً انها هي السفينة التي نريدها .

لعلك رأيت في زمانك كثيراً من السفن الفارحة الانيقة ؛ لعلك رأيت ذوات الاشرعة المربعة ، والينكات اليابانية كأنها الاطواد ، والجليوت الهولندية التي تشبه البط الامريكي ، وغيرها ، ولكن صدقني ان قلت لك انك لم تر سفينة

قديمة نادرة المثال كالباقوطة ، تلك السفينة العتيقة التي يعز وجود مثلها حقاً .
 كانت سفينة من الطراز القديم اقرب الى الصغر ، تحمل ملامح الخطاف ذي
 الطراز العتيق ؛ طال ترمسها وتقلب الجو بها بين عاصف وساكن في المحيطات
 الاربعة ، فاسودت سحنة هيكلها كأنها جندي فرنسي حارب في مصر وسيبريا
 على السواء . وتبدو مقدمتها الجليلة وكأنها قد التحت . فقدت صواريتها الاصلية
 في احدى العواصف وركبت لها صوار جديدة قطعت من موضع على ساحل
 اليابان ، وانتصبت كأنها أصلاب ملوك كولون الثلاثة القدماء^١ . اما ظهرها فقد
 بلي وتغضن كأنه الحجر الذي نهكته ايدي الحجاج الذين يؤمنون كنيسة
 كانت بري حيث لقي توماس بيكت مصرعه . غير انه أضيف الى هذه العناصر
 القديمة فيها ملامح جديدة مدهشة تتصل بذلك العمل الفذ الذي اضطلعت به
 نصف قرن او يزيد ، ويعزى كثير من هذه الترميمات والتحسينات الى فالج
 القبطان العجوز الذي ظلّ يدير شئونها سنوات عديدة قبل ان ينتقل الى قيادة
 سفينة يملكها وقبل ان يصبح اليوم بحاراً متقاعداً وواحداً من اصحاب
 الباقوطة . فان فالج هذا في اثناء رئاسته قد بنى فوق المظاهر الاصلية العجيبة
 ورصعها بأناقة في المادة والرسم لا يلحق بها شيء إلا الدرع الخارجي المنقوش او
 القاع في سفينة ثوركل هيك . فكساها كأنها امبراطور حبشي اثقلت عنقه
 زخارف ثقيلة مدلاة من العاج المصقول ، وجاءت كأنها نصب تذكارى . سفينة
 في صورة انسان بدائي مستوحش زين نفسه بعظام منقوشة استلها من أجسام
 اعدائه . وأما جوانبها المفتوحة غير المُفَرَّوْزة فوق الظهر العلوي فقد
 زينت ، كأنها فك واحد مديد ، بأنياب حوت العنبر الحادة ، وقد زجت
 الانياب هنالك بدلاً من المسامير لكي تشد اعضادها وأمراسها . وهذه الامراس
 لا تحترق خشباً وانما تمرّ برشاقة عن بكرات من عاج البحر . اما عند دفتها
 الرزينة فانها بدلاً من ان تتواضع فتتخذ عجلًا دوّاراً ركزت هنالك نخلًا ،

١ المجوس الثلاثة الذين أتوا بالهدايا الى عيسى في مهده ، قيل انهم مدفونون في كولون .

جعلته كتلة واحدة منحوتة نحتاً عجيباً من فك عدوها اللدود، ذلك الفك السفلي المستدق الطويل . فكان القيمُ على الدفة اذا وجهها في عاصفة أحس كأنه تتري يكبح جواده المنطلق بإمساكه من فكه . سفينة كريمة الا أنها صورة للكآبة وكل شيء كريم ففيه مسحة من الاسى الكثيب .

وعندما أجلت طرفي خلف الدقل الاعظم على الربرة المؤخرة من السفينة بحثاً عن مسئول لكي أقيّد اسمي بين المشتركين في الرحلة لم أرَ في بادىء الامر احداً ، ولكن بصري لم يستطع ان يتجاوز شيئاً منصوباً كالعريش او الكوخ الهندي على مسافة يسيرة خلف الصاري الرئيس . وبدأ لي انه ليس سوى مثابة مؤقتة تستخدم في الميناء . كان مخروطي الشكل يبلغ ارتفاعه زهاء عشرة اقدم ويتألف من صفائح طويلة ضخمة من العظم الاسود اللدن اخذت من الاجزاء الوسطى والعليا في فكي الحوت الأثين، وقد غرست بحيث وقعت نهاياتها المستعرضة على ظهر السفينة ، وسلكت دائرة من هذه الصفائح معاً ، وانحدرت احداها نحو الاخرى في تبادل ، ثم ضمت عند الذروة في نقطة مقنزعة حيث الالياف المسترسلة المكسوة بالشعر تتموّج جيئةً وذهوباً كأنها العقدة العليا على رأس الشيخ المسنّ رئيس قبيلة بوتونامي . وتنفّتح في مواجهة مقدم السفينة فتحة مثلثة الشكل حتى ان من كان في داخلها يستطيع ان يشرف على المنظر كاملاً أمامه .

وبعد لأي وجدت واحداً منزوياً بعض انزواء في هذا العريش الغريب ؛ وأوحى لي منظره انه رجل مسئول ، وانه كان يستمتع وقت الظهيرة، حين يتوقف العمل في السفينة، بالارتياح من عبء الامر والنهي . كان جالساً على كرسي قديم الطراز من خشب البلوط غطي بمنعرجات من الزخارف ، وقاعدته مصنوعة من صفائح قوية من نفس المادة المرنة التي صنع منها العريش .

ربما لم يكن في مظهر ذلك الرجل المسنّ شيء متميز . كان أسمر مفتول

الساعدين كغيره من قدامى البحارة ، وقد أثقل جسمه بما لفته حوله من قماش البحارة الازرق وفصله على طراز الكويكرين ، الا ان شبكة من الغضون الدقيقة جميلة صغيرة كانت تتشابك حول عينيه ، ولعلها من آثار إبحاره المستمر في عواصف جائحة قاسية ، كان هو في اثنائها يتطلع نحو مهب الريح ، وهذا يجعل العضلات حول العينين تنكمش وتنقلص ، ومثل هذه التجمعات ذو أثر كبير في من كان عبوساً متجهماً .

قلت وقد تقدمت الى باب العريش : « أأمامي قبطان الباقوطة ؟ » فأجاب :

— هب انه قبطان الباقوطة فما تريد منه ؟

— كنت أفكر ان أبحر .

-- كنت ! أحقاً كنت ! ارى انك لست من اهل نانتوكت — هل اتفق ان سافرت على سفينة مخروقة ؟

— أبداً يا سيدي .

— اذن — أجزؤ على ان أقول انك لا تعرف شيئاً عن صيد الحيتان .

— لا شيء يا سيدي ولكن لا شك في انني سأتعلم في وقت قصير . لقد سافرت عدة سفرات في الخدمة التجارية ، واظن . . .

— الخدمة التـجـارية عليها اللعنة ! لا تكلمني بهذه اللهجة . أترى تلك الرجل ؟ سأنزع تلك الرجل من قفاك اذا تكلمت اليّ عن الخدمة التـجـارية مرة اخرى . يا سلام على الخدمة التـجـارية ! اظنك تحس بالخلاء لانك خدمت في سفن التـجـارة . اغرب يا رجل عن وجهي . ما الذي تريده من صيد الحيتان ؟

أمرك مريب . أليس كذلك ؟ لم تكن في حياتك قرصانا، هل كنت ؟ لم تسرق آخر قبطان عملت تحت أمرته، هل سرقتة ؟ لا تفكر في قتل الضباط حين تعمل في البحر ؟

أقسمت اني بريء من كل تلك الامور . وفهمت ان هذا البسار العجوز كشأن رجل كويكري منعزل من اهل نانتوكت يخفي تحت هذه الاعاريض شبه الساخرة هوىً لبلده وتعصباً له، وانه لا يثق في الغرباء إلا ان انطلقوا من رأس كود او من فنيارد .

— لكن ما الذي يجذبك الى صيد الحيتان ؟ أود ان اعلم قبل ان أوافق على إبحارك .

— أود يا سيدي ان أعرف ما هو صيد الحيتان . اريد ان أرى العالم .

— تريد ان تعرف ما هو صيد الحيتان، مش كده ؟ هل ألقيت نظرة على القبطان آخاب^١ ؟

— من هو القبطان آخاب ، يا سيدي ؟

— معلوم، معلوم، ادركت ذلك . القبطان آخاب هو قبطان هذه السفينة .

— اذن فأنا مخطيء . ظننت انني أكلم القبطان نفسه .

— انك تكلم القبطان فالج، — ذلك هو الذي تكلمه، ايها الشاب . انا والقبطان بلدد مسئولان عن اعداد الباقوطة للابحار وانها مزودة بكل ما تحتاجه،

١ الاسم في العبرية يعني أخا الاب اي العم ؛ ودراسة شخصيته في هذه القصة تحتاج مساحة واسعة ؛ يكفي ان يقال ان ملفل استغل في تصويره شخصية بروميثيوس والسيطان عند ملتن وبعض خصائص الشخصيات الكبرى عند شكسبير وخاصة في المناجيات الذاتية .

بما في ذلك الملاحون . نحن من اصحابها ووكلائها، ولكن اعود فأقول: اذا كنت تريد ان تعرف ما هو صيد الحيتان - كما اخبرتني - فاني استطيع ان أضعك حيث تعرفه قبل ان تربط به مصيرك وتتورط فتفوت عليك فرصة التراجع . ألقى نظرة على آخاب القبطان ايها الشاب وسوف تجده ذا رجل واحدة .

— ماذا تعني يا سيدي ؟ هل أفقده الرجل الاخرى حوت ؟

— أفقده اياها حوت ! ايها الشاب اقترب مني : بل افترسها وامتصغها وضرّسها بأنيا به اشد ذي ناب وحشي مزقّ سفينة . آه . آه .

ذعرت لمهاسته وربما استثارني قليلاً ما اودعه في آهاته الختامية من أسمى عميق؛ غير اني قلت بكل ما استطيع من هدوء : « ما تقوله صحيح دون ريب يا سيدي ، ولكن لعلّ ذلك الحوت عينه كان ذا شراسة متميزة ، ولو خلّيتني لتقديرى لاستمتعت ما حكيتّه لي من تلك الحادثة نفسها » .

— انتبه ايها الشاب . ان رئتيك نخبّ هواء . أظنك لا تخادعني في القول . مؤكد مؤكد انك مارست البحر قبل اليوم . أمّا كد انت ؟

قلت : « سيدي ظننت انني اخبرتك بأني قمت باربعة رحلات في التجا - » .

— اعفني من ترديد هذا ! تذكر ما قلته انا عن الخدمة التجارية - لا تثقل عليّ - لا احب ان اسمع ترديدك . لكن دعنا نتفاهم . لقد المهت اليك بما تعنيه مهنة صيد الحيتان . ألا تزال تحس انك تميل اليها ؟

— نعم يا سيدي .

— حسناً . أنت المرء يستطيع ان يسدّد رمحاً الى زور حوت حيّ ثم يقفز وراءه ؟ أجب بسرعة .

— نعم يا سيدي اذا لم يكن بد من ذلك ؛ لا انك تقول هذا لتخلص مني وهذا ما لا اتصوره .

— حسناً ثانية ! اذن فأنت لا تريد فحسب ان تذهب في صيد الحيتان لتعرف بالتجربة ما هو ذلك الامر ولكنك تريد ايضاً ان تذهب لترى العالم ؟ أليس ذلك ما هو قلته ؟ أظن ذلك . اذن تقدم خطوة هنالك وانظر حال الجو من مرقب الجو واخبرني ماذا ترى .

وقفت هنيهة وقد حيرني هذا المطلب الغريب لاني لم اعرف تماماً طبيعته : أهو مزاح أم جد . ولكن فالج القبطان استجمع كلّ تجهيزات وجهه في عبسة واحدة وامرني بتحقيق المهمة .

تقدمت ونظرت من المرقب فلمحت السفينة التي تتأرجح مع التيار في مرساها وقد مالت ميلاً موارباً نحو المحيط الفسيح . كان المنظر شاسعاً لا حدود له الا انه كان مملاً موحشاً ، ولم أر فيه الا استرسالاً لا يتخلله شيء من تنوّع .

وعدت فقال فالج : « طيب ماذا تقول ؟ ماذا رأيت ؟ » فأجبت : « لم أر شيئاً ذا بال ، لم أر الا الماء . آفاق بعيدة وعاصفة مصحوبة بالغيوم على وشك ان تهب » .

— طيب . ماذا تظن في رؤيتك للعالم ؟ أتريد ان تدور حول رأس هورن كي تراه بوضوح ؟ ألا تستطيع ان ترى العالم من حيث انت واقف ؟

زعزعني هذا القول ؛ ولكني لا بد ان اذهب في صيد الحيتان ، وانا اريد ذلك ، والباقوطة سفينة كأى سفينة اخرى حسنة — بل لعلها خيرهن . واعدت هذا الذي مرّ في خاطري على مسامع فالج . فلما رأى عزمي وحزمي ابدى موافقته

على إبحاري في تلك السفينة . ثم اضاف قائلاً : « وتستطيع ان تقضي الاوراق على التو . تعال معي » . وما ان قال ذلك حتى تقدمني نازلاً الى القمرة .

على الطرنسوم - او الخشبات التي تتخذ مقعداً في كوثلة السفينة - رأيت ما خلته اغرب الصور وأشدها اثارة للدهشة . عرفت من بعد ان الجالس هنالك هو بلد القبطان الذي كان من اكبر الشركاء المالكين لتلك السفينة . اما الحصص الاخرى فكانت - كما هي الحال احياناً في تلك الموانئ - ملكاً لجمهور من المساهمين من ارامل وآباء لا ابناء لهم وقاصرين تحت الوصاية ، وكل فرد منهم يملك قيمة رأس خشبة او قاعدة لوح او مساراً او اثنين في السفينة . اذ الناس في نانتوكت يستثمرون اموالهم في سفن صيد الحيتان مثماً يستثمر غيرهم الاموال في الاسهم الدولية التي تأتي بربح وفير .

كان بلد مثل فالج ومثل كثيرين من ابناء نانتوكت كويكرياً في مذهبه ، اذ ان تلك الطائفة كانت اول من استوطن تلك الجزيرة ولا يزال سكانها الى اليوم يحتفظون بخصائص ابناء هذه الطائفة ومميزاتهم على نحو غير قليل . الا ان اموراً غريبة وغير متجانسة قد حوّرت من تلك الخصائص والميزات بما زادت عليها وانقصت منها . فبعض هؤلاء الكويكريين من اشد البحارة والصيدان نزوعاً لسفك الدماء . فهم كويكريون محاربون ، يحبون الثأر والانتقام .

ومن العادات الشائعة في الجزيرة ان يسمّي الآباء ابناءهم باسماء مما ورد في التوراة . وبينهم رجال يحملون تلك الاسماء وينتحلون في طفولتهم طريقة التخاطب الكويكرية القائمة على التبجيل باستعمال « انتم » و « انتمو » وتجري بها سنتهم كأنها سليقة فيهم ثم تمتلئ حياتهم من بعد بمغامرة مستبسة جريئة لا تعرف حدوداً ، فيمزجون بهذه الخصائص المميزة التي شب بهم العمر عنها آلافاً من اعمال الجرأة والاقدام لو اضيفت الى ملك اسكندنافي او وثن روماني من

ابطال الملاحم اصلحت له وصلح لها . وحين تجتمع هذه الامور في رجل ذي قوة طبيعية فائقة ، ذي دماغ كرّبي وقلب كبير، وقد اعانه على ان يفكر تفكيراً مستقلاً مبتوت الصلات بالموروث ما اتيح له من هدوء وانفراد — الليالي الطوال — في يقظاته الليلية في المياه النائية تحت كواكب لا نراها نحن في مناطقنا الشمالية، رجل يتلقى كل أثر للطبيعة غصاً — سواء أكان عذباً او مريراً — من صدرها البكر المطواع المؤتمن، وبذلك يتعلم بعون من الفوائد المعارضة لغة جريئة رفيعة حادة، فان ذلك الرجل في ميزان أمة كاملة يعدّ مخلوقاً جليل القدر قوي النفس يصلح للتراجيديات السامية، وحين تسيطر عليه علة من العلل مستقرة في اعماق طبيعته وينقاد هو لها بما يشبه ان يكون رضى واختياراً فان ذلك من الزاوية المسرحية لا يزري به سواء أكانت العلة فيه وراثية او اكتساباً . ذلك ان كل الرجال العظماء من الزاوية التراجيدية انما يكونون كذلك بسبب ما فيهم من علة . ثقوا ايها الشبان الطامحون ان العظمة الانسانية مرض، ولكننا لا نتحدث عن هذا بل عن شيء آخر ؛ نتحدث عن رجل ان يكن فذاً فانما ذلك ناجم عن وجه آخر من وجوه الكويكرية فيه وقد وقعت عليه ظروف فردية فحورتها وغيّرتة .

كان القبطان بلدد كزميله فالج صياداً ثرياً متقاعداً . الا ان فالج لم يكن يهتم قدر قلامة ظفر بما يدعى امور الجدّ والرصانة، بل كان يعد هذه الامور عينها لبّ التفاهة ونقائوتها . وفي هذا كان بلدد يختلف عنه اذ انه لم ينل فحسب تعليمه وثقافته على اشد مبادئ الطائفة الكويكرية في نانتوكت تنطعاً وتزمتاً، بل ان حياته البحرية من بعد ، ومنظر كثير من العرايا الجميلات في الجزر حول هورن كل ذلك لم يزحزح ذلك الكويكرى المتشدد قيد شعرة، ولم يغيّر خيطاً واحداً في زيّه وملبسه . وعلى هذا الثبات الراسخ فان طبيعة بلدد كانت عرضة للتقلب . نعم ان وازع الضمير قد حال بينه وبين ان يحمل السلاح ضدّ غزاة البر الا انه كان يغزو المحيطين الاطلسي والهادي غزوات لا تقف عند حد، ومع

انه كان خصماً لدوداً لسفك الدم الانساني، الا انه اهرق وهو يلبس معطفه الضيق اطناناً على اطنان من دم الحوت العبيط. كيف كان بلد التقى في امسيات التأمل يوفق بين هذه الامور المتناقضة من ذكرياته؟ ذلك شيء لست ادريه، ولكن يبدو ان خطره كان مطمئناً؛ ولعله أرسى منذ عهد طويل عند استنتاج حكيم عاقل يقضي بان دين المرء شيء وان هذا العالم العملي شيء آخر. هو عالم يدفع حصصاً واسهماً. وذلك شيء هام عند رجل مثل بلد نشأ اجيراً في قسرة يلبس ثياباً قصيرة من اخشن الاصواف، وارتقى الى حوآت ذي صدارة واسعة كأنها كرش الشبوط، ثم اصبح قائداً لقارب ثم رئيس ضباط ثم قبطاناً واخيراً صاحب سفينة. واختتم بلد حياة المغامرة كما ألححت من قبل بالتخلي عن اي نشاط عملي في سن الستين، ووقف ايامه الباقية على تسلم الدخول الطيب الذي يرد اليه، في هدوء.

ويؤسفني ان اقول ان بلد شهر بانه فظ عاتٍ جبار وانه كان في سفراته البحرية سيداً مريراً قاسياً. وقد اخبروني في نانتوكت، وان كان ما قالوه غريباً، انه حين البحر حوَّاتاً على ظهر حوَّاة تسمى « كاتيجوت » فان ملاحيه حين عادوا الى الوطن نقلوا جميعاً الى المستشفى وقد انهكهم الألم والاعياء. وأقل ما نقوله فيه انه وهو الكويكري التقى، كان قاسي القلب غليظ الكبد. ومع ذلك فهم يقولون انه لم يكن يستعمل السباب مع ملاحيه ولكنه كان يستنزف منهم قدراً مسرفاً من الجهد الجائر الثقيل. فكان اذا حدّد عينه العسلية المصفرة في احد البحارة يوم كان رئيس ضباط في سفينته جعله يشعر بانه اصبح ثائر المزاج عصبياً حتى ان البحار ليمسك بأي شيء - مطرقة كان او مثقباً - ويتوجه من فوره الى العمل في شيء ما، اي شيء كان، بحمية كأنها حمية الجنون. كان التراخي والكسل يتلاشيان امامه وكان تكوينه الجسماني يعكس صورة عن طبيعته النفعية، فكان جسمه الطويل الضامر لا يحمل لحماً زائداً ولا لحية مسترسلة، بل كانت ذقنه ذات زغب ناعم مقتصد كالزغب المنجرد على قبعته ذات الحافة الواسعة.

كذلك كان الشخص الذي رأيته يجلس على الطرنسوم حين تبعت فالج القبطان هابطاً الى القمرة. كانت المسافات بين الدكات صغيرة وهناك جلس بلد الشيخ منتصباً كالوتد؛ وكان يجلس دائماً هذه الجلسة فلا يتكئ كي لا ينجرد الزغب عن معطفه . وكان قد وضع قبعته الواسعة الى جانبه وجعل رجله متقاطعتين في تصلب ، وزرّ رداءه الصوفي حتى الذقن ، وألقى النظارة على أنفه وبدأ مستغرقًا يقرأ في مجلد ضخّم .

صاح فالج : « مرة اخرى تكبّ عليها يا بلدد ؟ مش كده ؟ منذ ثلاثين سنة وانت تدرس أسفار الكتاب ، حسب علمي ، اين وصلت يا بلدد ؟ »

وكان بلدد تعود منذ عهد بعيد ان يسمع هذا الحديث المستخف من صديقه القديم ، فصعد بصره في هدوء دون ان يلحظ ما يحمله صديقه من استهانة ، وحين رأي نظره مرة أخرى نحو فالج متساوئلاً .

فقال فالج : « يقول انه صاحبنا ؛ سيبحر على السفينة » ؛ فقال بلدد في نغمة جوفاء وقد تحول إليّ : « أتريدون ذلك ؟ » فقلت لاشعورياً : « نريد » ، وقد كان هو كويكرياً متحمساً وبلغه التبجيل يتحدث .

فقال فالج : « ما رأيك فيه يا بلدد ؟ »

فقال بلدد : « ينفع » ورمقي ثم مضى يقرأ في كتابه في لحن هامس مسموع .

تصورته أغرب كويكري عجوز وقعت عليه عيناى وبخاصة حين قارنته بصديقه وزميله القديم فالج الذي يحب الضجيج والعجيج . غير اني لم أقل شيئاً بل تطلعت من حولي بنظر حديد . فتح فالج صندوقاً واستخرج منه عقداً من عقود العمل في السفينة ووضع امامه دواة وقلمًا وجلس الى طاولة صغيرة ؛ وبدأت افكر انه قد آن الاوان لكي أقرر بيني وبين نفسي اي شروط ارضى ان انزل

على حكمها من اجل هذه الرحلة . وكنت أعلم انهم في التحويت لا يدفعون اجوراً وانما يتسلم العاملون ، بما في ذلك القبطان نفسه ، حصصاً معينة من الربح يسمونها « الانصباء » lays وهذه تتناسب ودرجة الامة التي تناط بكل واجب من واجبات عصابة السفينة . وكنت أعلم ان غرّارتي في ميدان التحويت لن تقسم لي نصيباً كبيراً ، ولكن بما اني عرفت البحر وأستطيع توجيه السفينة وربط الحبل وجدله وكل ما الى ذلك ، فاني لم أشكّ من كل ما سمعته في انهم سيقدمون لي على الاقل النصيب رقم ٢٧٥ أعني هذا الجزء من صافي غلة الرحلة ، أياً كان مقداره في النهاية ؛ ومع انهم يسمون هذا النصيب باسم « النصيب البطيء » فانه خير من لا شيء ، واذا كانت رحلتنا موفقة فانه يكاد يفي بضمن الشباب التي سأبليها خلالها ، دع عنك أمر الطعام خلال ثلاث سنوات وذلك ما لا أدفع فيه مليماً واحداً .

قد يظن من يسمع هذا ان هذه طريقة بائسة لجمع قدر محترم من المال — نعم هي كذلك ، طريقة جد بائسة حقاً ، ولكني انا بمن لا يحفلون بالثراء وأنا قانع من الدنيا اذا هي زودتني — لقاء عملي — بالطعام والمأوى ما دمت أحمل هذه الشارة الجاهمة ، شارة « الغيمة الكهربائية » . وعلى الجملة قدّرت ان النصيب الخامس والسبعين بعد المائتين شيء معتدل ولكني لن اندهش اذا ما عرضوا عليّ النصيب المائتين اذا هم اعتبروا انني عريض الكتفين جزل البنية .

وعلى رغم ذلك فان شيئاً جعلني قليل الثقة بعض الشيء في تسلم حصة سخية من الارباح ، فقد سمعت على البر شيئاً عن القبطان فالج وعن بلد خدنه العجوز غير المسؤول وانها المالكان الكبيران للباقوطة ومن ثم ترك سائر الشركاء الموزعون ذوو الحصص الصغيرة أمر ادارة شئون السفينة جميعاً لهذين الرجلين . وما عرفت الا ان بلد الشيخ البخيل قد يكون لديه الكثير مما يقوله في الابدني التي تعمل في سفينته وبخاصة وقد وجدته على ظهر الباقوطة مطمئناً في قمرة

يقرأ التوراة كأنه جالس امام الموقد في بيته . وبينما كان فالج يحاول — عبثاً — ان يصلح قلماً ببطواه ، كان بلدد العجوز — لدهشتي البالغة — اذا قدّرت انه شريك هام في الاجراءات المرتقبة — بلدد هذا لم يعرنا اهتماماً ومضى يتمتم لنفسه ويقرأ : « لا تنصبوا » لكم كنوزاً على الارض ، حيث يفسد السوس ... » .

فقاطعه فالج قائلاً : « طيب يا قبطاننا بلدد . ماذا تقول ؟ اي نصيب نفرضه لهذا الشاب ؟ »

فأجابه وكأن صوته منبعث من القبر : « انكم تعرفون هذا خيراً مني ، النصيب السابع والسبعون بعد السبعمئة (٧٧٧) ليس كثيراً ، أليس كذلك ؟ » ويمضي فيقرأ : « حيث يفسد السوس والصدأ ولكن « انصبوا »^١ ... فقلت لنفسي : لا تنصبوا ، حقاً ، وأي نصيب ! السابع والسبعين بعد السبعمئة ! يا بلدد العجوز انت مصرّ على انني ، انا من الناس ، لن أنصب لنفسي « أنصباء » على هذه الارض حيث السوس والصدأ يُفسدان ؛ هذا « نصيب بطيء » غاية في البطء حقاً ، ومع ان كبر الرقم قد يخدع المرء الذي يعيش على البر الا ان أقلّ حساب يبيّن انه وان كان رقماً كبيراً فانك حين تجعله جزءاً وتسميه الجزء السابع والسبعين بعد السبعمئة فان هذا الجزء من الفاردينج farthing أقلّ بكثير جداً من ٧٧٧ دبلون ذهبيّ . كذلك جرت هذه الخواطر في نفسي حينئذ .

فصاح فالج : « عمى بعينك يا بلدد . أتريد ان تغيب هذا الشاب ؟ يجب ان يأخذ اكثر من ذلك » .

١ النص في متى ١٩ : ٦ « لا تكتنوزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ ... بل اكنوزوا لكم كنوزاً في السماء ... » وقد استعملت كلمة « انصبوا » لانت المؤلف يتلاعب بالجناس بين هذه اللفظة ولفظة « نصيب » .

فأجاب بلدد دون ان يرفع عينيه : « النصيب ٧٧٧ » ثم مضى يتم :
« لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك ايضاً » .

فقال فالج : « سأسجل اسمه ازاء النصيب الثلاثمائة . اتسمع ذلك يا بلدد؟ اقول:
النصيب الثلاثمائة » .

فوضع بلدد كتابه واستدار نحوه في هدوء وقال : « قبطان فالج ، قلبك
سخي ؛ ولكن عليك ان تعتبر الواجب المنوط بك تجاه الشركاء الآخرين في
السفينة — من ارامل وأيتام وغيرهم — واذا كافأنا اتعاب هذا الشاب بسخاء
فنحن قد نختطف الحيز من افواه هؤلاء الارامل وأولئك الايتام . النصيب
السابع والسبعون بعد السبعمئة يا قبطان فالج » .

فزأر فالج وقد وقف واخذ يذرع ارض القمرة : « ويلك يا بلدد ؛ سحقاً
لك ! لو اتبعت مشورتك في هذه الامور لسحبت حيناً اتجهت ضميراً مثقلاً يكفي
ليفرق بثقله اكبر سفينة ابحرت حول رأس هورن » .

فقال بلدد في ركانة : « قبطان فالج قد يجرّ ضميرك عشر بوصات من الماء او
عشر قامات ، ذلك ما لا ادريه ؛ ولكن بما انك ما تزال يا فالج رجلاً سادراً في
آثامه غير تائب منها فاني اخشى ان يكون ضميرك مثقوباً وانه في النهاية سيفرقك
في الدرك الاسفل من الجحيم ، يا قبطان فالج » .

— « الدرك الاسفل ، الدرك الاسفل ! انك تهينني ايها الرجل ، تهينني بما تعجز
الطبيعة الانسانية عن ان تطيقه . من الغضب المشتط ان تقول لاخيك الانسان
انه صائر الى الجحيم . ديدان ونيران ! يا بلدد أعد ما قلته عليّ ، واستر غضبي ،
لكن انا ، انا نعم انا سأبتلع بطيخة مثلجة على حالها . أخرج من القمرة يا منافق
يا اصفر يا ابحر يا ابن البندقية الخشبية ، لأطمس أثرك » .

وحين أُرعد بهذه الشتائم اندفع نحو بلد الا ان هذا تحاشاه عندئذ في سرعة عجيبة مواربة منحدره .

أفز عتني هذه السورة الصارخة بين اثنين كبيرين مسئولين من مُلاك السفينة، وشعرت ان نفسي اخذت تزهّد في الرحلة وتود ان تتخلى عن الابحار في سفينة : ملكيتها موضع شبهة ، وإمرتها عرضة للنزوات ، فخرجت لامنح بلد منغذاً اذ كان دون ريب جامح الرغبة في ان يختفي من وجه غضب فالج المندلع . ولشدّ ما دهشت حين رأيته يجلس مرة اخرى على الطرنسوم في هدوء ودون ان تكون لديه ادنى رغبة في الانسحاب . ويبدو انه قد ألف القبطان فالج العاصي وتعود اساليبه . اما فالج فانه بعد ان نفّس عن غضبه لم يبق لديه شيء منه فيما يبدو ، فجلس ايضاً كالحمل الوديع ، وان ظل يرتعش قليلاً كأن اعصابه كانت ما تزال ثائرة . واخيراً صفر : « اف . ف . أظن الريح تتجه معاكسة . بلد كنت في الماضي ماهراً في شحذ الاسنة ، أصلح هذا القلم ، من فضلك ؛ ان مديتي تحتاج تجليخاً . احسنت ، شكراً لك يا بلد . اما انت ايها الشاب ، اسمك اسماعيل ، أليس كذلك ؟ سأسجل اسمك هنا يا اسماعيل ، ازاء النصيب الثلاثمائة » .

فقلت : « ايها القبطان فالج ان معي صديقاً يريد ان يبحر ايضاً فهل آتي به غداً ؟ »

فقال فالج : « اكيد . احضره ، ونحن نرى في أمره » . فارسل بلد أنة ورفع رأسه من الكتاب بعد ان كان قد دفنه فيه وقال : « اي نصيب يريد ؟ »

فقال فالج : « اوه ! لا تهتم بهذا يا بلد » . ثم التفت اليّ وقال : « هل سبق له ان مارس التحويت ؟ »

— قتل من الحيتان اكثر مما استطيع عدّه ايها القبطان .

— طيب، اذن احضره معك .

ومضيت بعد ان وقعت على الاوراق لا يخالجنى ريب في انني أدبت عملاً طيباً في ذلك الصباح ، وان الباقوطة هي نفس السفينة التي قدّر يوجولي ولكويكوج ان تنقلنا حول الرأس .

وما إن مشيت غير بعيد حتى بدأت احدث نفسي بأنني لم أر القبطان الذي سأبحر معه . هذا مع ان سفينة صيد الحيتان في احوال كثيرة قد تعد إعداداً كاملاً ويحضر فيها جميع الملاحين قبل ان يظهر القبطان للأعين ويأتي ليتسلم القيادة . اذ تكون الرحلات احياناً طويلة وتكون فترات الراحة على البرّ في الوطن بالغة القصر ، فان كان القبطان صاحب عائلة او مصالح تشغل باله فانه لا يعنّي نفسه كثيراً بأمر السفينة في الميناء وانما يتركها لاصحابها حتى يكون كل شيء قد أعد للانطلاق في البحر . غير ان إلقاء نظرة عليه أمر مستحسن قبل ان يصبح الانسان في عهده بعد لا ينقض . فعدت ادراجي ودنوت من فالج القبطان محيياً وسألته اين يمكن ان أجد القبطان آخاب .

— وماذا تبغي منه ؟ لقد حققت ما تريد ، وسوف تبجر على السفينة .

— هذا صحيح ولكنني أحب ان أراه .

— لكنني لا أظنك تستطيع ذلك في الحاضر . لست أدري ما أمر القبطان على التام ولكنه لا يبارح بيته ، كأنه مريض ومنظره لا يوحي بذلك ؛ والواقع انه ليس مريضاً ، ولكنه غير معافى تماماً . على اي حال ايها الشاب انه لا يستقبلني دائماً ولذلك لا أتصور انه يستقبلك . هو شخص غريب الاحوال — ذلك القبطان آخاب ، كذلك يظن بعض الناس ولكنه انسان طيب . ستحبه كثيراً ، لا خوف ، لا خوف . رجل جليل هو القبطان آخاب ، مقدّس رباني

لا يعرف التقوى . لا يتكلم كثيراً فاذا تكلم، فما عليك الا ان تنصت . حذارِ
يا هذا ، ان آخاب فوق مستوى العامة ، درس في الكليات وعاش بين أكلة
لحوم البشر. أليفَ عجائب أعجب من الامواج، وأثبت حربته المتألقة في اعداء
اقوى وأغرب شأنًا من الحيتان ؛ حربته، أجل، انفذ سنان وأسده في كل
الجزيرة . آه انه ليس القبطان بلدد، وليس القبطان فالج . انه آخاب، يا غلام،
آخاب القديم كما تعلم كان ملكاً متوجاً .

- واعلمُ انه ملك شرير، وعندما ذبح ذلك الملك الشرير، اما ولغت
الكلاب في دمه ؟

فقال فالج وفي عينه معنى كاد يفزعني : « تعال اليّ، اقرب، اقرب .
اسمع ايها الفتى لا تنفوه بمثل هذا الكلام على ظهر الباقوطة . لا تنفوه به في أية
بقعة . ان القبطان آخاب ليس هو الذي اختار اسمه لنفسه، وانما كانت نزوة
حمقاء جاهلة من امه الارملة الخرقاء التي ماتت عنه وعمره اثنا عشر شهراً، ومع
ذلك فان تستغ المرأة الهندية المعجوز في جايبيد قالت ان ذلك الاسم قد يحمل
النذر ويكون نبوياً . وقد يحدثك حمقى آخرون مثلها بمثل ما قالت . لكنني
أود ان احذرك . فتلك اكذوبة محض ؛ انا اعرف القبطان آخاب معرفة حسنة،
سافرت معه ضابطاً منذ سنوات، اعرف ما هو - طيب - لا اعني انه طيب
تقي مثل بلدد، وانما اعني انه طيب شتّام، يشبهني الا انه يفوقني كثيراً . اجل
اجل انا أعلم انه لم يكن في حياته كثير المرح، وانا اعرف انه في عودته الى
الوطن فقد عقله فترة ولكن كان السبب في ذلك هو الآلام الحادة النافذة في
جذعه النازف بالدماء، وذلك امرٌ يعرفه مَنْ خبره . واعلم ايضاً انه منذ فقد
رجله في آخر سفرة بسبب الحوت اللعين اصبح متقلب المزاج، متردد الطباع
يائساً، متوحشاً احياناً، ولكن كل ذلك يزول . ودعني اخبرك وأؤكد لك،
دفعه واحدة ، ايها الشاب ان من الخير لك ان تبهر مع قبطان طيب متقلب

المزاج على ان تبجر مع قبطان بشوش سيء الطباع. اذن وداعاً ، ولا تظلم القبطان آخاب لانه يحمل اسماً شريراً؛ ثم تذكر ايها الفتى ان له زوجة لعله لم يمس على زواجه منها ثلاث رحلات، فتاة حلوة وديعة راضية بما قدر لها. تدبر هذا؛ ذلك الشيخ قد أولد هذه الفتاة الحلوة ولدأ . أعتقد اذن انه يمكن ان يكون لدى آخاب أذى مطلق لا يكبح ؟ لا . لا . يا بني ان كان آخاب ذا عاهة ممقوتاً منهوك القوى فان لديه جوانب انسانية .

وحين بارحته امتلأت نفسي بالأفكار ؛ ذلك ان ما انكشف لي عن القبطان آخاب ملأ جوانحي بغموض غريب من التألم له، وشعرت حينئذ بعطف عليه وأسف من اجله ، لكنني لم أدر لماذا غمرني ذلك الشعور الا ان تكون نكبته بفقدان رجله هي السبب . ومع ذلك شعرت برهبة غريبة منه ، الا انها نوع من الرهبة لا يستطيع ان أصفه ، فانه لم يكن رهبة على وجه الدقة لكنني لست ادري ما هو ؛ غير اني أحسست به فلم ينفرني من الرجل ؛ بيد اني شعرت بما يشبه ان يكون جزعاً فيما حسبته لغزاً فيه ، لغزاً بنسبة القدر الضئيل الذي عرفته عنه . ومهما يكن من شيء فقد انطلقت افكاري - من بعد - في وجهات اخرى ، حتى تلاشى وجود آخاب المبهم من مخيلتي عندئذ .

كان كويكوج قد نذر الصوم ، وهو على ان يستمرّ فيه طوال اليوم ، ولذلك لم أشأ ان أزعه بالعودة المبكرة ، وقرّرت ان أرجع عند ما يحن الليل ؛ ذلك أني أكنّ أبلغ احترام نحو الفروض الدينية التي يمارسها اي امرىء كان ، مهما تكن مضحكة ، ولا أجد في قلبي نزوعاً الى التهوين من شأن عبّاد اي دين حتى ولو كان أولئك العبّاد قرية من النمل يعبد أهلها الكمأة ، او لو كانوا بعض المخلوقات التي تعيش في نواح من أرضنا وتنحني على نحو من العبودية ، غير معهود الا على هذا الكوكب ، أمام جذع رجل إقطاعي مثوف مريض لا شيء إلا لأنه يملك أملاكاً مترامية الاطراف ويؤجرها باسمه .

أقول : علينا نحن الصالحين أتباع المذهب المشيخي ان نرْحُبَ صدرأ بهذه الأمور فلا نتصور أنفسنا أعلى مقاماً من سائر الناس ، وثنيين كانوا او غير ذلك ، لما لديهم من تصوّرات ممرورة في شئون دينهم . هذا كويكوج كان يستطعم أشد الخواطر سخفاً عن يوجو وعن صومه . وماذا في هذا ؟ كان كويكوج يظن أنه يعرف ما هو بصده ، فيما أختن ، ويبدو انه كان راضياً بذلك ، فليطمئن حيث وجد رضاء وطمأنينته ، وكل مجادلاتنا معه لن تجدي شيئاً . إذن لندعه وشأنه ، أنزل الله علينا جميعاً رحمته ، مشيخين كنا او وثنيين ، اذ أننا جميعاً نمشي برءوس « مشعورة » تحتاج صدوعها رأياً .

وحين قدّرت ان صلواته وشعائره لا بد ان تكون قد انتهت ، توجهت عند المساء الى غرفته وقرعت الباب ، فلا جواب ؛ حاولت ان أفتحه فوجدته مغلقاً من داخل . ناديت من ثقب المفتاح في لطف : « كويكوج ! » ، فلم أجد إلا الصمت الشامل . « أقول : كويكوج ! لم لا تتكلم ؟ هذا أنا - اسماعيل » . ولكن كل شيء بقي ساكناً صامتاً . بدأ الفزع يساورني فقد غبت عنه زمناً كافياً ، وأخشى ان يكون قد أملت به نوبة من التشنج . نظرت من ثقب المفتاح ، ولكن الباب كان يواجه زاوية شاذة في الغرفة ، ولذلك كان المنظور من خلل الثقب شيئاً شاذاً مشثوماً إذ لم أستطع ان أرى الاجزاء من مرقاة السرير وخطاً من الحائط ولا شيء سوى ذلك ، ودهشت حين رأيت قناة رمح كويكوج التي كانت ربة النزل قد أخذتها منه في المساء السابق قبل ان نأوي الى الغرفة مركوزة الى الجدار . قلت لنفسي : هذا غريب ولكن بما ان الرمح على أية حال موجود ، وبما ان كويكوج قلما يخرج دون ان يعتقله اذن فهو موجود ولا بد في الغرفة . وليس في هذا التقدير أدنى خطأ . صحت : « كويكوج ! كويكوج » — كل شيء هادىء ساكن . حدث شيء ما ولا بدّ . أصيب بالسكتة ! حاولت ان أستعمل العنف في دفع الباب فقاومني بعناد . هبطت الدرج راكضاً ، وأفضيت بما في صدري من ظنون لأول شخص صادفته — وكان هو الخادمة ؛ فصرخت : « لا ! لا ! قدّرت ان هناك امرأ . ذهبت لأسوي السرير بعد الفطور فكان الباب مقفلاً ولا تسمع في الداخل نائمة . وظل الصمت شاملاً حتى هذه اللحظة . وقلت : لعلكما خرجتما معاً وأقفلتما الغرفة حفاظاً على ما فيها من أمتعة لكما . لا ! لا ! ستي ! سيدتي ! قَتَل ! مسز هسي ! سكتة ! » وجرت وهي تردد هذه الصيحات نحو المطبخ وانا على أثرها .

برزت مسز هسي (السليط) لدى سماع الصوت وفي احدى يديها بوطاة الخردل وفي الاخرى وعاء الخلّ وقد فرغت لتوها من الاشراف على المواعين ومن شتم خادماها الغلام الاسود في اثناء ذلك .

صرخت : «مستودع الخشب ! اين الطريق اليه ؟ كرمال الله اركضوا ، احضروا شيئاً نكسر به الباب ، الفأس ! الفأس ! أصابته نوبة ، يقيناً ! ، وفيما قلت ذلك اندفعت أصعد الدرج فارغ اليد على غير هدى ، فاعترضت زوجة « السليط » طريقي ببوطة الخردل ووعاء الخلّ وبكلّ خروج يتقمصه وجهها :

— « ما بك ايها الشاب ؟ »

— « فأساً ! كرمال الله ! اسرعوا الى الطبيب ، واحد منكم ، بينا أنا أكسر الباب . »

فقالت ربة البيت وهي تضع وعاء الخل على الارض بسرعة لتكون احدى يديها حرة طليقة : « اسمع ! اسمع . أنت الذي تتحدث عن كسر احد أبوابي ! » وفيما هي تقول ذلك قبضت على ذراعي : « ما لك ! ما بك أيها البحار ؟ »

بكل ما استطيعه من هدوء وسرعة أفهمتها القصة جميعاً ، فضربت بوعاء الخل جانب أنفها دون وعي ، واستغرقت تفكر لحظة ، ثم هتفت : « لا ! لم أره منذ أخذته منه » وجرت الى غرفة صغيرة تحت اسكلة الدرج ، وأجالت فيها عينيها وعادت تقول ان رمح كويكوج قد اختفى منها . وصاحت : « قتل نفسه . هذه حادثة استعجز التعيسة تتكرر — ضاع شرشف آخر — كان الله لأمه المسكينة ! سيخرب بذلك بيتي — ألهذا الفتى المسكين أخت ؟ اين هي ؟ بقي ! اذهبي الى سنارل الخطاط قولي له ان يصنع لي لافتة يكتب عليها : « الانتحار ممنوع والتدخين ممنوع في القاعة » — بهذا نقتل عصفورين بحجر . نقتل ؟ رحم الله روحه . ما هذه الدوشة ؟ انت ايها الشاب . قف عندك . »

وجرت خلفي وأمسكت بي وانا أحاول مرة اخرى ان أفتح الباب بالقوة :

« لا أسمع بهذا ، لا أسمع باتلاف ممتلكاتي . اذهب الى صانع الأغلاق ، هناك واحد على بعد ميل . قف عندك » ثم وضعت يدها في جيبها وقالت : « هذا مفتاح مناسب ، فيما أظن . لنجربّه » وأدارت المفتاح في المغلاق ولكن واأسفاه بقي المزلاج الداخلي مثبتاً لا يتحلحل .

فقلت : « لا بد من كسره » ، وجريت هابطاً قليلاً عن باب المدخل ، تهماً بالانقضاء ، حين أمسكت ربة السنزل بي ، وحلفت أني لن أحطم شيئاً من عقاراتها ، ولكنني نزعت نفسي من قبضتها واندفعت وألقيت جسمي وانا مندفع ضد الباب ، فانفتح محدثاً جلبة شديدة ، وحين ارتطمت الكرة بالجدار نثرت الجير حتى السقف وهناك رأيت ، يا لله ! كويكوج جالساً رابط الجأش مطمئن النفس في وسط الغرفة تماماً وقد تقرفص على فخذه وحمل يوجو على يافوخ رأسه . ولم يلتفت لا الى هذه الناحية ولا الى تلك وانما جلس كالتمثال المنصوب دون ان تبدر منه دلالة على الحياة والحركة .

قلت وانا أتقدم نحوه : « كويكوج ؟ ما دهاك ؟ »

وقالت ربة النزل : « طبعاً لم يجلس هذه الجلسة طول اليوم . أترأه فعل ؟ »

ولكننا رغم كل ما قلناه لم نستطع ان نستخرج منه كلمة واحدة ، وكدت أهم بأن أدفعه لكي يغيّر جلسته لانها كانت غير محتملة ، فهي مؤلمة معقدة للأعصاب على نحو شاذ ؛ وبخاصة وأن الدلائل تشير الى انه جلس كذلك ثماني ساعات او عشرأ واستمر على ذلك دون ان يتناول طعاماً .

قلت : « مسز هسي هو حيّ على اية حال ، فاذا تكلمت اتركينا وسأتولى النظر انا نفسي في هذا الامر الغريب » .

وأغلقت الباب وراءها وحاولت ان أقنع كويكوج بأن يجلس على كرسي ،

وسدىّ ما حاولت . ظلّ حيث هو ؛ توسلت بكل أسباب اللطف والأدب ولكن كان رده الوحيد على ذلك انه بقي لا ينتقل خطوة ولا ينبس بكلمة ولا ينظر اليّ ولا يلحظ وجودي ولو لمحا .

وقلت للنفسي . عجيب أمره . أيكون هذا جزءاً من الصوم لديه ؟ أتراهم يجلسون القرفصاء وهم صائمون في وطنه ؟ هو كذلك ولا بد ، أجل ! هذا جزء من عقيدته فيما أظن . طيب لأتركه حيث شاء فانه سينهض - دون ريب - عاجلاً أو آجلاً . شكراً لله لانه لا يستطيع ان يبقى كذلك ابداً . ثم ان صومه لا يحلّ الا مرة في العام . ولا أظنه ملحاً ما دام كذلك .

ذهبت الى العشاء . وبعد ان جلست وقتاً طويلاً أنصت الى قصص مسهبّة يقصها بعض البحارة الذين عادوا لتوهم من رحلة يسمونها مجازاً « حلاوة البرقوق » (ويعنون بها رحلة قصيرة لصيد الحيتان في شانية او سفينة ذات صاريين وهم لا يتجهون فيها الا الى شمال خط الصيد في المحيط الاطلسي دون سواه) . أقول : بعد ان أصغيت الى هؤلاء الصيادين حتى ناهزت الساعة الحادية عشرة صعدت الى غرفة النوم وانا على مثل اليقين ان كويكوج حينئذ قد ختم صيامه . ولكن خاب ما ظننته يقيناً فقد كان ما يزال حيث خلّفته لم يتزحزح قيد أنملة . فبدأ استيائي منه يثور ، ذلك انه كان من البلادة واللوثّة المحض ان يجلس القرفصاء يوماً ونصف ليلة في غرفة باردة وقد وضع على رأسه قطعة من الخشب :

« بحق السماء يا كويكوج انهض وتحلّل ؛ قم تناول بعض الطعام انك تميت نفسك جوعاً ، تقتل نفسك يا كويكوج » . غير انه لم ينبس ببنت شفة .

عزمت وقد يئست من امره ان آوي الى الفراش وأنا ، ولا ريب في انه سيلحق بي بعد وقت غير طويل . غير أنني قبل ان استدير منصرفاً تناولت

صدارتي الثقيلة التي تسمى جلد الدب وألقيتها عليه اذ كانت الليلة توحى بأنها ستكون قارسة البرد ، ولم يكن يرتدي شيئاً سوى سترته المستديرة . ومضى وقت وانا عبثاً أحاول ان استجلب النعاس . كنت قد أطفأت الشمعة ولكن خطرت لي ان كويكوج على بعد اربعة أقدام جالس تلك الجلسة المرهقة متصلباً متخشباً وحده في الظلام ، فلأني هذا الخاطر شعوراً بالنعاسة . تصوروا حالي نائماً طوال الليل في غرفة واحدة مع وثني ساهر يجلس القرفصاء في هذا الصوم الموحش الذي لا أعرف له تفسيراً !

ولا أدري كيف غفوت اخيراً إغفاءة امتدت حتى الصباح وحين أفقت نظرت عبر السرير فرأيت كويكوج مقرصاً كأنما شدة الى الارض بمسار . ولكن ما كاد اول خيط من أشعة الشمس ينفذ الى الغرفة حتى نهض ومفاصله متيبسة تصرّ وعلى وجهه سمات المرح ، فتقدم مني يطلع ، وضغط جبته على جبتي وقال ان صومه قد انتهى .

انا ، كما ألمحت من قبل ، لا اعترض على دين اي فرد مهما يكن حاله ، ما دام ذلك الفرد لا يقتل غيره ولا يهينه من اجل ان غيره لا يشاركه ايمانه . ولكن حين يصبح دين المرء مشيراً للسخط ، حين يكون مصدر عذاب لصاحبه ، وبإيجاز حين يجعل العيش على هذه الارض كالسكن في فندق مزعج ، حينئذ أعتقد ان الوقت صالح لنتنحي بصاحب ذلك الدين ناحية ونناقشه في معتقده .

وهذا هو ما فعلته إزاء كويكوج . قلت له : « اذهب الى السرير تَوّاً واضطجع وانصت لما أقول » . ثم مضيت في حديثي مبتدئاً من نشأة الدين البدائي وتطوره حتى بلغت مرحلة الاديان المختلفة في عصرنا الحاضر ، وخلال ذلك كله جهدت لكي أبين له ان كل ضروب الصوم وجلوس القرفصاء في غرف باردة مكفهرة إنما هي هراء صراح ، فهي ضارة بالصحة ، لا تفيد الروح ،

وتتعارض - في ايجاز - وقوانين علم الصحة المعروفة وحسن التدبير . وأخبرته ايضاً انه اذ كان في امور اخرى بدائياً بالغ التعقل والحكمة فانه مما يؤلني ، بل يحرضني ويرمضني ، ان أراه محمّقا الى مدى يحزن في امر هذا الصوم الذي يمارسه ، ثم قلت : زد على ذلك ان الصوم ينحلل الجسم ومن ثمّ تضوى الروح ، وكل افكار تتولد عن الصيام فان نصفها بالضرورة يكون ميتاً جوعاً . وهذا هو السرّ في أن أكثر المتدينين المصابين بعسر الهضم يجترون خواطر سوداوية عن مصايرهم . وأقول في كلمة ، وقد قلتها على نحو ملتوي غير عامد : كويكوج ! ان جهنم فكرة ولدت اول مرة اثر عسر هضم من تناول الفطير السكري ثم خلّدت تلك الفكرة خلال مراحل عسر الهضم الذي يولده الصيام .

ثم سألته أتراه يصاب احياناً بعسر الهضم ، ووضحت له الفكرة في تبسيط شديد حتى ادركها فأجاب بالنفي الا مرة واحدة في حادثة لا تنسى . وكانت ذلك عقب حفلة كبيرة أقامها والده الملك حين انتصر في معركة عظيمة ، فقتل خمسين من العدو في حوالي الثانية ظهراً وشويت اجسامهم وأكلت في ذلك المساء .

قلت وانا ارتعش : « حسبك يا كويكوج . كفى . كفى » . اذ كنت أعلم النتائج دون ان يلمح اليها ، فقد كنت رأيت بجاراً زار تلك الجزيرة نفسها ، وأخبرني ان العادة جرت في حال الانتصار في معركة كبيرة ان يشوى المذبوحون جميعاً في فناء دار المنتصر او حديقته . ثم يوضعون واحداً اثر آخر في مزاود خشبية كبيرة ، ثم تصف حولهم زخارف من ثمر الخبز وجوز الهند كأنهم اطباق الارز ويهديهم المنتصر لأصدقائه وقد وضع في فم كل واحد منهم ضمة من البقدونس كأنهم الديوك الرومية التي تسوّى احتفالاً بعيد الميلاد .

بعد ذلك كله لست اظن ان تعليقاتي على الدين تركت اثرأ في نفس كويكوج

ذلك لانه كان في المقام الاول كأنما في أذنه وقر اذا انت حدثته في ذلك الموضوع الهام إلا اذا تناولته من وجهة نظره . ثم لانه في المقام الثاني لم يفهم ثلث ما قلته ، مهيا بسطت افكاري ووضحتها ، ثم لأنه أخيراً كان يعتقد انه يعرف عن الدين الحق أكثر مما اعرف . فنظر إلي نظرة مجاملة وحنوء كأنما كان يرى من المؤسف ان يضلّ شاب عاقل مثلي ضلالاً لا رجاء فيه عن إدراك التقوى الوثنية .

أخيراً نهضنا وارتدينا ثيابنا ، وتناول كويكوج بنهم فطوراً كبيراً من جميع انواع الشودر كي لا يوفر صيامه شيئاً على ربة النزل ، وانطلقنا الى الباقوطة ، ونحن نتسكع في مشيتنا ونخلل اسناننا بحسك القفندر .

حين كنا ننحدر الى نهاية الرصيف نحو السفينة ، وكويكوج معتقل رحمه ،
حيانا القبطان فالج بصوته الاجش من عريشته وقال انه لا يشك في ان صديقي
كان متوحشاً من اكلة لحوم البشر ، وان هذا الصنف من الناس لا يؤذن لهم بالبحار
على سفينته الا ان تقدموا بأوراقهم قبل التسجيل .

قفزت على جانب السفينة وتركت رفيقي واقفاً على الرصيف وانا أقول :
« ماذا تعني بهذا يا قبطان فالج ؟ »

فأجاب : « أعني انه لا بد ان يبرز اوراقه » .

وقال بلدد بصوته الخاوي وهو يد رأسه من خلف رأس فالج من العريش :
« حقاً عليه ان يبرز ما يدل على انه تنصّر » . واستمرّ ملتفتاً الى كويكوج :
« يا ابن الظلام ! هل انت في الوقت الحاضر على صلة باية كنيسة مسيحية ؟ »

فقلت : « بل هو ينتمي الى اول كنيسة مجمعية » . وهنا يجدر بي ان أقول
ان كثيراً من هؤلاء المتوحشين الموشومين الذين يبحرون في سفن من نانتوكت
يتحولون الى احد المذاهب المسيحية في النهاية .

فصاح بلدد : « أول كنيسة مجمعية ! ماذا ؟ أعني تلك التي تقام صلواتها
واجتماعاتها في بيت الشمس ديوترونومي كولمان ؟ » . واذا قال ذلك اخرج نظارتيه

ومسحها بمنديل كبير اصفر زاهي اللون واثبتها على عينيه بتؤدة وخرج من العريش والمخني، الخناء المتيبس، على جانب السفينة، وسدد الى كويكوج نظرة طويلة .

ثم قال وهو يستدير نحوي : « كم مضى عليه وهو عضو فيها ؟ أعتقد ايها الشاب انه حديث الانماء » .

وقال فالج : « ثم انه لم يعمد ولو فعل لغسل ماء العماد عنه بعض هذه الزرقة المشومة في وجهه » .

فصاح بلدد : « اخبرني أهذا الفريسي عضو منتظم منتسب الى اجتماعات الشماس ديوترونومي ؟ لم أره هناك وانا أتردد اليها كل يوم احد » . قلت : « لا اعرف شيئاً عن الشماس ديوترونومي ولا عن اجتماعاته . كل ما أعلمه ان كويكوج بحكم مولده ينتمي الى الكنيسة الجمعية الاولى . وهو نفسه شماس، اعني كويكوج نفسه » .

فقال بلدد في عبوس : « ايها الشاب انت تعابثني . أوضح ما تقول ايها الخبيث الشاب . الى اي كنيسة تنتمي ؟ أجبني » .

واذ وجدتني محرجاً أجبت : « اعني يا سيدي تلك الكنيسة القديمة كنيسة الفطرة التي تنتمي اليها أنت وانا والقبطان فالج هناك وكويكوج هنا، ننتمي اليها كلنا واليها ينتسب كل ابن أم وكل ذي نفس، تلك الكنيسة الجمعية الاولى الأبدية التي تضم كل من سبح لله . كلنا ابناؤها الا ان بعضنا قد تراوده اخيلة ضالة زائفة تنحرف به قليلا عن المعتقد الاعظم الذي يوحدنا جميعاً ويجمع بين أيدينا » .

فصاح فالج وهو يدنو مني : « تعني يربط الأيدي ، أي يشدها في وثاق واحد . أيها الشاب خير لك ان تسافر على السفينة مبشراً واعظاً بدلاً من ان تكون بحاراً . لم أسمع موعظة خيراً من موعظتك . لم يبذرها الشمس ديوترونومي بل حتى الاب مابل نفسه ، وهو ما هو في الخطابة والوعظ . اصعد الى ظهر السفينة . اصعد . دع عنك مسألة الاوراق . أقول : قل لكويهوج - ما اسمه ؟ - قل لكويهوج ان يتقدم . وحقّ المرسى العظيم ، انه ليحمل ربحاً نعم الرمح ! من نوع جيد ، وهو يلعب به لعب المتمرسين . أقول : يا كويهوج ، او أياً كان اسمك ، هل وقفت في حياتك على رأس قارب لصيد الحيتان ؟ هل اتفق لك ان طعنت سمكة ؟ »

ولم ينبس كويكوج بكلمة وانما قفز على جانب السفينة بطريقته الوحشية العفوية ، ومن ثم انطلق الى مقدمة احد قوارب التحويت المعلقة على احد الجوانب ثم طوق ركبته اليسرى وسدّد من عليها ربحه وصاح يرطن : « قبطن . أنت هو تراه النقطة القار على الماء هاك ؟ تراه ؟ فرضاً هو عين الحوته . شفت ! » وسدّد الرمح ثم قذف به فويق قبعة بلد الواسعة الحواشي ، عبر ظهر السفينة على خط مستقيم وأزال بقعة القار التي كانت تلتصع .

وقال في هدوء وهو يسحب ربحه : « فرضنا هو عين الحوته ، داك الحوته يموت » .

فقال فالج الذي بهرته مصابقة الرمح الطائر فتراجع نحو ممرّ القمره موجهاً الكلام لشريكه : « بلد اسرع . أقول : عجل يا بلد واحضر الاوراق لا بد من ان نسجل هجوهج اعني كويهوج في احد قواربنا . اسمع يا كويهوج . سنعطيك النصيب التسعين . وهذا اكثر مما اعطيه اي حوّا من نانتوكت » .

لذا نزلنا الى القمره وما كان ابلغ سروري حين سجل كويكوج بين رفاق السفينه التي اصبحت انتمي اليها .

وعندما انتهت الامور التمهيدية واصبح كل شيء في يد فالج جاهزاً للتوقيع ، التفت الي وقال : «أظن ان كويهوج أمي لا يكتب . أليس كذلك ؟ أقول يا كويهوج عليك اللعنة أتوقع اسمك او ترسم علامتك ؟»

الا ان كويكوج الذي كان قد أدى هذه الفريضة مرتين او ثلاثاً من قبل لم يخجل عندما سمع السؤال بل اخذ القلم المقدّم اليه ونسخ على الورقة ، في الموضع الصحيح ، نسخة دقيقة عن شكل مستدير غريب كان موشوماً به ذراعه ، وقد ادركه الخطأ العنيد الذي تلبس فالج وهو يلفظ اسمه ، فكان ما رسمه شبيهاً بما يلي :

كوهوج



علامته

في اثناء ذلك كله جلس القبطان بلدد يحدق النظر منعماً في كويكوج واخيراً نهض في وقار وعيّت في جيوب معطفه الصوفيّ الضخم ذي الزيتى العريض ، واستخرج رزمة من الكراسات الدينية ثم اختار كراسة عنوانها « اقتربت الساعة او العمل قبل الأجل » ووضعها بين يدي كويكوج ، ثم زمها والكتاب بينهما بيديه ، وأنعم النظر في عينيه وقال : « يا ابن الظلام ! عليّ ان أؤدي واجبي نحوك . انا شريك في هذه السفينة وأحس بأني مسئول عن أرواح بحارتها جميعاً . فاذا كنت ما تزال متشبهاً بشئونك الوثنية ، وذلك ما اخشاه

آسفاً، فاني اتوسل اليك ان لا تبقى لحظة من أولياء الشيطان الرجيم . ا طرح
عنك بعلا والتنين الوبيل . احذر يوم الهول الاكبر . وتبصر وتدبر . (الطف
بنا يا رب !) حاذر ان تقع سفينتك في هوة جهنم ! »

كانت اثاره من البحر الملح ما تزال عالقة بلغة بلد وقد اختلطت بلغة
الكتاب وبالعبارات المألوفة في بلده .

فقال فالج : « قف . خلّ عنك . حسبك لا تفسد علينا حوّاتنا . انت
الحوّاتين الاتقياء لا يحسنون الصيد . تقوّم تسيّب القرش من ايديهم . الحوات
لا يسوى دانقاً ان لم يكن كالقرش وحشية ومضاء . إ تذكر الشاب نات سوين
أجراً من وقف على رأس قارب في نانتوكت وفنيارد ؟ بعد ان سلك نفسه في
الاجتماعات الدينية ، فقد جرأة الحوات - أصبح يرتعش اشفاقاً على روحه
المثوفة ، حتى غداً يخيم ويحجم اذا واجه الحيتان ، خوفاً من ان ينشق به
القارب فيهوي الى دركات الجحيم .

رفع بلد عينيه ويديه وقال : « فالج ! فالج ! لقد رأينا - انا وانت
نفسك - لحظات عديدة من الخطر . انت تعلم يا فالج ما معنى الخوف من
الموت . كيف تهرف بهذا البهتان المضلل ! انك تكذب حقيقة قلبك يا فالج !
قل لي عندما تحطمت صواري الباقوطة الثلاثة في الاعصار عند اليابان ، في تلك
الرحلة التي رافقت فيها القبطان آخاب ، ألم تفكر في الموت واليوم الآخر ؟ »

فقال فالج وهو يخطر في القمرة وقد دسّ يديه الى أعماق جيبيه . « ما
شاء الله ! ما شاء الله . اسمعوا بالله عليكم جميعاً . تصوّروا ! حين كنا في كل
لحظة نتصوّر ان السفينة غارقة ! الموت واليوم الآخر وقتئذ ؟ ماذا ؟ حين
اخذت الصواري الثلاثة تضرب جوانب السفينة وتبعث اصواتاً كالرعد ، وأخذ

كل بحر يتفجر منقضاً علينا في القيدوم والكوثلة ، أفكّرنا في الموت واليوم الآخر حينئذ ؟ كلا . ما كان لدينا وقت للتفكير في الموت حينئذ . الحياة هي ما كنا نفكر فيه انا والقبطان آخاب - كيف نخلص الجميع - كيف نكسو الصواري العارية بالاشرعة والحبال - كيف نصل الى اقرب ميناء - ذلك هو ما كنت افكر فيه .

لم يقل بلد شئاً وزرّ معطفه ، ومشى مختالاً فوق ظهر السفينة فتبعناه ، وهناك وقف يطل في هدوء على بعض صناع الاشرعة ، وهم يصلحون شراعاً كبيراً من وسطه . وبين الحين والحين كان ينحني ويلتقط خرقة او يلمّ طرف دوبارة مقيّرة ، حرصاً منه على ان لا تذهب سدى .

إيليا المتنبئ^١

ما كدنا نغادر الباقوطة، ونبدأ تسكعنا بعيدين عن الماء، وكل منا غارق في افكاره، حتى طالعنا شخصٌ غريب، وقف امامنا وصوب سبابته المكتنزة نحو السفينة وقال :

— يا رفيقي، هل اتفق لكما ان تبجرا في تلك السفينة ؟

كان مرتدياً ثياباً مهلهلة، سترةً حائلة اللون وسروالاً مرقعاً، وقد لفّ حول عنقه خرقة من منديل أسود. وقد غمر وجهه كله بثر الجدري في جميع النواحي، وخلاؤه كجري التيار المعقد المضلّع بعد ان تنحسر عنه المياه او تجفّ .

فأعاد قوله : « هل تبجران فيها ؟ »

قلت محاولاً ان اكسب بعض الوقت لأشمله بنظرة طويلة : « تعني الباقوطة فيما أظن » .

فقال : « نعم الباقوطة — تلك السفينة هناك » . وأرجع ذراعه كلها ثم

١ اختار له اسم « إيليا » عمداً لأن إيليا هو الذي كان ينذر آخاب، انذره اولاً بثلاث سنرات من القحط، وتنبأ له ايضاً بأن الكلاب ستلغ في دمه (انظر اخبار الملوك الاول ١٧ ، ١٨ ، ٢١) .

ردّها على استقامة امامه ، وقد جعل أنملة سبابته مصوبة تمام التصويب الى السفينة .

قلت : « نعم قبيل هنيهة وقعنا العقد » .

— هل يحيك شيء في روحيكما ؟

— حول أي شيء ؟

فقال في سرعة : « اوه لعلكيا لا تشعران بشيء ! لا بأس ، اعرف فتيانا كثيرين لا يشعرون بشيء — يا حسن حظهم ! خليّون لا يؤرقهم شيء . ان الروح كالمجل الخامس للعربة » .

قلت : « عن اي شيء تهرف ، ايها الرفيق البحار ؟ »

— « هو لديه ما يكفي ليعوض الآخرين عما ينقصهم في أرواحهم » . تفوه الغريب بتلك الكلمات في اقتضاب وقد تلفظ لفظه « هو » في نبرة عصبية شديدة . فقلت : « كويكوج ! هيا بنا ، هذا امرؤ قد ندّ من عقل ، وهو يتحدث عن شيء وشخص لا نعرفها » .

فصاح الغريب : « قف ! بالحق نطقت — فأنت لم ترَ « الرعد الرعّاص » بعد ! »

قلت وقد لفتني الحماسة الملتاثرة في هيئته : « من هو الرعد الرعّاص ؟ »

— « آخاب القبطان » .

— « ماذا ؟ قبطان سفينتنا الباقوطة ؟ »

— « ايوه . بيننا نحن البحارة القدامى ، ذلك هو اسمه . لم تراه بعد ، أليس كذلك ؟ »

— « بلى ! لم نره . يقولون انه عيَّان الا أنه في تحسَّن وسيكون معافى في زمن قصير » .

فضحك الرجل الغريب ضحكة ساخرة مهيبة في آن ، وقال : « معافى في زمن قصير . اسمع ! حين يعافى القبطان آخاب تكون يدي اليسرى هذه قد صحت ، وليس قبل ذلك » .

— « ماذا تعرف عنه ؟ »

— « ماذا اخبروك عنه ؟ هكذا قل ! »

— « لم يخبروني عنه كثير شيء . سمعت انه صياد حيتان ماهر ، طيب في معاملة بحارته » .

— « كلا هذين الخبرين صحيح — نعم ، كلاهما صحيح ، ولكن عليك ان تقفز حين يأمر . تقدم ثم تدمر ؛ تدمر لكن لا تتوقف — هذا هو ما يقضي به آخاب . ولكنكما لم تسمعا شيئاً عما اصابه عند رأس هورن ، منذ زمن بعيد ، حين استلقى كالميت ثلاثة ايام بليااليها ، ولا عن المناوشة بينه وبين الاسباني عند المذبح في سانتا . لم تسمعا شيئاً من ذلك ؟ مش كده ؟ ولا شيء عن القدح الفضي الذي بصق فيه ولا عن فقدانه لرجله في آخر رحلة حسبما جاءت النبوءة ، لم تسمعا شيئاً عن هذه الامور وعما هو اكثر منها ، مش كده ؟ لا . لا اظنكما سمعتا . وأنسى لكما ! ومن يعرف ما اعرف ؟ لا اظن نانتوكت كلها تعرف . لكن مهما يكن من امر فلا بد انكما سمعتا شيئاً عن رجله وكيف فقدها ؛ أجل .

اجل سمعتما، فيما أختن. حقاً كل الناس يعرف ذلك - اعني يعرفون انه ذو رجل واحدة ، وان حوت العنبر اخذ الاخرى . قلت : « يا عزيزي عمّ كل هذا الهذيان، لست ادري ولا يعنيني ان ادري اذ يبدو لي ان هناك منطقة معطلة في رأسك بعض الشيء . لكن ان كنت تتحدث عن القبطان آخاب ، قبطان تلك السفينة الراسية هنالك، اعني الباقوطة ، فليكن معلوماً لديك اني اعرف كن شيء عن فقدانه لرجله . »

— « كل شيء، مش كده - تعرف حقاً؟ كل شيء؟ »

— « يقيناً . »

وقف الغريب الذي يشبه الشحاذ في هيئته، لحظة، واصبعه تشير الى الباقوطة ونظره مسدد نحوها، كأنما هو في استبحار فكري مضطرب . ثم قدّم قليلاً ثم استدار وقال : « تبهران . أليس كذلك ؟ قد كتبنا توقيعيكما ؟ حسناً حسناً ! ما أمضي فقد أمضي، وما قضي فلا بد كائن ! وقد يشاء الله ان لا يكون . كل شيء قد أعدّ ورتب، ولا بد ان يبحر معه بحارة، فيما اظن ؛ ويبحر معه رجال آخرون . كان الله لهم ! وداعاً يا رفيقي، وداعاً ! وحلت عليكما بركة السماء الموشحة بالقداسة . انا آسف اذ أوقفتكما ! »

قلت : « اسمع يا عزيزي اذا كان لديك شيء هام تقوله لنا، هيّا ننته، أفضّر به، ولكن ان كنت تحاول فحسب ان تضحك علينا وتخدعنا، » فالعب غيرها ! « — ذلك كل ما لديّ من قول . »

— « وقولك فصيح ؛ وأنا أحب ان اسمع فتى يتحدث على هذا النحو . انت تناسبه — انت وأمثالك . صباح سعيد — يا رفيقي — وداعاً ! حين تقابلانه قولاً له : اني قرّرت ألا اكون واحداً منهم . »

— « يا عزيزي، يا رفيقي انك لا تستطيع ان تضحك علينا كأننا من الحمقى، ليس لك ان تخدعنا بهذا الأسلوب ؛ أسهل شيء في الوجود على المرء ان يبدو للناس وكأنه ينطوي على سرّ عظيم . »

— « وداعاً يا رفيقي . صباح سعيد ! »

— « يا له من صباح ! هيا بنا كويكوج لنمضِ عن هذا المجنون؛ مهلاً! قل لي ما اسمك ! »

— « ايليا . »

ايليا ! كذلك رددت في نفسي ونحن نبتعد عنه ، وكل منا يعلق بطريقته على هذا البحار المعجوز ذي الأسماك ، واتفقنا على انه لم يكن سوى نصّاب يحاول ان يبدو «بعبعاً» . وربما لم نكن قد أبعدنا عنه ما يزيد على مائة ياردة حين انعطفنا في أحد المنعطفات ، والتفتُّ ورائي وأنا أدور منعطفاً ، فاذا بإيليا يقتفي خطانا عن بعد ، وأثر مرآه في نفسي على نحو جعلني لا أنبه كويكوج الى أنه يسير في آثارنا ، وانما مضيت ورفيقي وأنا أتوق لأتحقق هل ينعطف الغريب في نفس الزقاق الذي اتجهنا فيه . وكان ان فعل وبدا لي انه يتعقبنا ؛ أما ماذا كانت قصده من ذلك فشيء لم أستطع ان أتخيله ابداً . هذه الحادثة ولدت في نفسي ، حين اجتمعت مع كلماته المبهمة التلميحية الموهمة المغلفة ، جميع ضروب العجب والاشفاق ، وكلها كانت تتصل بالباقوطة والقبطان آخاب والرجل التي فقدوها ، والنوبة عند رأس هورن ، والقدح الفضي وما قاله عنه القبطان فالج حين غادرت السفينة أمس ، ونبوءة المرأة الهندية تستغ والسفرة التي ارتبطنا بها ومئات من أمور أخرى كالطيوف .

وعزمت على ان أعلم علم اليقين هل ايليا الباذّ الهيئة يتعقبنا حقاً ؛ وتحقيقاً
لهذه النية اجتزت الطريق بصحبة كويكوج ثم عدنا معاً على الجانب الآخر منها،
الا أن ايليا مضى في طريقه دون ان يلحظنا - فيما يبدو - . ذلك نفّس عني،
ومرة اخرى، قلت في نفسي انه نصّاب، وبداء لي أني أطلق عليه هذا الوصف
لآخر مرة .

كل شيء على قدم وساق

مضى يوم او يومان ، واحتدم النشاط فوق ظهر الباقوطة . لم تصلح الاشرعة القديمة فحسب بل استحضرت أشرعة جديدة ، ولفائف من الخيش والحبال ، اي جلب كل شيء يدل على ان الاعدادات في السفينة تؤذن بالانتهاء . اما القبطان فالج فلعله لم ينزل الى البرّ او نزل مرات معدودة ، وظلّ اكثر الوقت في عريشه يرقب الايدي بنظرات نافذة . واما بلدد فقام بكل ما تحتاجه السفينة من مشتريات ومن مخزونات . واما الرجال العاملون في عنبر السفينة وعلى الحبال فكان عملهم يمتد بهم وقتاً طويلاً بعد حلول الليل .

في اليوم التالي لليوم الذي أمضى فيه كويكوج العقد، عمم على جميع الفنادق التي ينزل فيها بحارة السفينة أمر بأن تودع حقائبهم وصناديقهم في السفينة قبل حلول الليل ، اذ توشك ان تبحر في أية لحظة . فحملنا انا وكويكوج أمتعتنا وقررنا ان ننام على الشاطئ حتى يحين موعدنا . ولكن يبدو انهم يبكثرون في تعميم مثل هذه الأوامر في هذه الحالات فقد مضت عدة ايام ولم تبحر السفينة؛ ولكن لا عجب في ذلك اذ كان ما يجب انجازه كثيراً ولا احد يحصي ما يجب ان لا يغيب عن البال قبل ان تكون الباقوطة قد أعدت واخذت كل أهبتها .

كل منا يعلم كثرة الاشياء التي لا يستغني عنها بيت : من أسرة وقدرور وسكاكين وشوكات وجوارف وملاقط وفوط وكسارات وغيرها . وتلك هي

الحال أيضاً في سفرات الصيد التي تحتاج الى ما يكفي ثلاث سنوات تقضى في عرض البحر بعيداً عن كل البدالين وبائعي الخضر والفواكه والاطباء والخبازين والصارفة . وهذا يصدق أيضاً على السفن التجارية وان لم تبلغ في ذلك مبلغ سفن التحويت . فالسفرة في صيد الحوت طويلة ، هذا الى تعدد الادوات التي يحتاجها الصيادون في مهمتهم ، واستحالة استبدالها او إيجاد عوض عنها في المواني النائية التي تمر بها سفن الصيد ؛ ويجب ان نذكر بأن سفن التحويت من بين جميع السفن اكثرها تعرضاً للحوادث من كل نوع وخاصة تلف الاشياء التي يعتمد عليها نجاح الرحلة ، او فقدانها ، ولذلك يأخذون فيها مزيداً من القوارب ومزيداً من الصواري ومزيداً من الحبال والرماح ، يأخذون مزيداً من كل شيء إلا شيتين هما السفينة نفسها وقبطانها .

ولدى وصولنا الجزيرة كانت الباقوطة قد استكملت كل المخزون المطلوب او تكاد ، وذلك يشمل ما تحتاجه الرحلة من لحم البقر والحبز والماء والوقود والاطواق الحديدية والاشخاب . ولكن ظل احضار الاشياء المتنوعة ، صغيرة كانت او كبيرة ، مستمراً قائماً بعض الوقت .

ومن أبرز الذين كانوا يقومون بالجلب والنقل أخت بلد القبطان ، سيدة عجوز نحيلة ذات روح حازمة لا تعرف الكلل إلا انها الى ذلك ذات قلب حنون ، آلت على نفسها - ان هي استطاعت - ألا تدع شيئاً ينقص الباقوطة بعد ان تنساب على الماء . وكانت حيناً تجيء وهي تحمل جرة من الحلل الى مخزن المؤن ، وحيناً آخر تحمل حزمة من أقلام الريش لتضعها في درج رئيس الضباط حيث يحفظ سجله ، وحيناً ثالثاً لفافة من الفانلا يحزم بها صلبه من يشكو الروماتزم في ظهره . ليس في الكون امرأة يليق بها اسمها كما كان اسم هذه المرأة لاثقاً بها - اسمها «احسان» - العمة احسان - وبذلك كان الجميع يدعونها . كانت العمة المحسنة احسان كاحدى راهبات الاحسان والمحبة تنهمك

هنا وهناك موجهة يدها وقلبها لكل شيء يبشر بالسلامة والراحة والعزاء كل من على ظهر السفينة التي يرعاها اخوها المحبوب بلدد وتملك هي فيها عشرين او اربعين دولاراً ادخرتها .

ولكن كان من المفزع ان يرى المرء هذه المرأة الكويكرية الطيبة المتفانية في الخير تجيء الى ظهر السفينة - مثلما فعلت في آخر يوم - وهي تحمل في احدى يديها مغرفة زيت طويلة وفي اليد الاخرى رمحاً أطول للتحويت . كذلك لم يتخلف كل من بلدد وفالنج عن اداء واجباتها ، فأما بلدد فانه كان يتجول ومعه قائمة طويلة بالحاجات المطلوبة ، وعند وصول اي حاجة منها كان يضع علامة ازاءها على الورقة . واما فالنج فكان يأتي وهو يقلب من كهفه المصنوع من عظم الحوت ويزأر في الرجال الموجودين في المداخل او يرفع زئيره نحو العاملين فوق الحبال عند رأس الصاري ، ويختم ذلك كله بالزئير وهو يأوي الى عرينه .

وكثيراً ما كنت انا وكويكوج نزور السفينة اثناء تلك الاستعدادات ، وكثيراً ما سألت عن آخاب القبطان وكيف حاله ومتى يفد الى السفينة . وقد كانوا يجيبونني على هذه الاسئلة بأنه آخذ في التحسن المطرد ، وان حضوره الى السفينة متوقع في اي يوم ، وان القبطانين فالنج وبلدد يستطيعان في اثناء ذلك ان يرعا كل ما هو ضروري كي يجعل السفينة متأهبة للرحيل . ولو كنت صادقاً مخلصاً مع نفسي لرأيت بوضوح في قلبي انني لم اكن اتصور تمام التصور معنى ان أسلم نفسي لمثل تلك الرحلة الطويلة دون ان تقع عيناى على الرجل الذي سيكون السيد المطلق في الرحلة حالما تأخذ السفينة مجراها في عرض البحر . ولكن حين يشتبه المرء بوقوع ظلم او خطأ فانه احياناً يسعى دون ان يشعر ليخفي شكوكه وشبهه حتى عن نفسه ، ان كان الأمر يعنيه ويملك عليه فكره . تلك هي حالي ولذا لم اقل شيئاً وحاولت ان ابتعد بنفسي عن التفكير .

واخيراً اعلنوا لنا ان السفينة ، في وقت ما في اليوم التالي ، ستبحر يقيناً ، ولذلك نهضت انا وكويكوج مبكرين في صباح اليوم الموعد .

ركوب البحر

كانت الساعة تقترب من السادسة والفجر أطلس موشح بالضباب حين اقتربنا من الرصيف .

قلت لكويكوج « ان كان بصري لم يخدعني . فهناك بعض البحارة يجرون امامنا . لا يمكن ان تكون هذه ظلالاً . ستقلع عند طلوع الشمس - فيما أختن - هيا بنا » .

« قف مكانك » : صاح صوت يقترب صاحبه على اعقابنا ، ثم وضع يديه على كتفينا ، ثم زج نفسه بيننا ، ووقف منحنيًا بعض انحناء ، في ذلك الشفق المنبهم ، وهو يحدق ناقلًا بصره بيني وبين كويكوج على نحو غريب .
كان هو ايليا .

— « أتركيان البحر ؟ »

قلت : « انزع عنا يدك ، أسمع ؟ »

وقال كويكوج وهو يفلت من يده : « اسمع ي انت . رح » .

— « اذن فلستما مبحرين ؟ »

قلت : « بل سنبجر فما شأنك أنت ؟ هل تعلم يا سيد ايليا انني أعتبرك
وقحاً متطفلاً ؟ »

فقال وهو ينقل بصره بيني وبين كويكوج في بطء ودهشة وبنظرات يعجز
المرء عن تفسيرها : « لا . لا . لا . لا . لم اكن ادرك ذلك » .

قلت : « هل تفضل عليّ وعلى صديقي ، يا ايليا ، بالانسحاب . اننا ذاهبان
الى المحيط الهندي والهادي ونؤثر ألا تستوقفنا وتعطلنا » .

— « تذهبان ؟ تذهبان ؟ وترجعان قبل الفطور ؟ »

فقلت : « كويكوج ، انه « مشعور » . امض بنا » .

فهتف ايليا المسمّر في مكانه يودعنا وقد ابتعدنا خطوات : « هالو ! »

قلت : « لا تأبه به يا كويكوج ، وامض بنا » .

ولكنه لحق بنا ثانية ، وفجأة ربت على كتفي وقال : « هل رأيت اشياء
تشبه الاشخاص ذاهبة نحو السفينة قبل قليل ؟ »

وهزني السؤال الذي أصاب حقيقة واقعة فأجبت : « نعم ، أظنني رأيت
اربعة رجال او خمسة الا ان الجو كان معتماً فلست واثقاً من ذلك تماماً » .

فقال ايليا : « معتماً جداً ، معتماً جداً . سعدتما صباحاً ! » وخلفناه مرة
اخرى الا انه سرق الخطى خلفنا مرة اخرى ومس كتفي وهو يقول : « جرب
ان كنت تستطيع ان تعثر عليهم . أتفعل ؟ »

— « أعثر على من ؟ »

فردّد : - « سعدتم صباحاً ! سعدتم صباحاً » ثم مضى وهو يقول : « آه ! كنت على وشك ان احذركما - لكن لا . لا بأس . لا بأس - لا فرق ... كله في العائلة ايضاً . صقيع قارس هذا الصباح ، أليس كذلك ؟ وداعاً لكما . لن أراكما عن قريب ، فيما أختن ، الا ان يكون ذلك امام هيئة المحلفين العظمى » . وانصرف اخيراً بعد ان فاه بهذه الكلمات الملتاثرة وتركني لحظة وانا مندھش أشد الدهشة من وقاحته المرورة .

واخيراً اعتلينا ظهر الباقوطة فوجدنا كل شيء في سكون عميق وليس فيها نفس يتردد . كان باب القمرة مغلقاً من داخل ، ومنافذ ظهر السفينة كلها مثبتة في اماكنها ، وقد كدست فوقها لفائف الحبال . وحين تقدمنا من منارة السفينة وجدنا باب الناروزة مفتوحاً . ورأينا ضوءاً فهبطنا ولم نجد هنالك الا رجلاً عجوزاً من الحبالين وقد تلفع بصدرة بحار مهلهلة ، وتمدد على صندوقين ووجهه الى اسفل وقد طوقه بذراعيه ، وجثا عليه النوم الثقيل العميق .

- « أولئك البحارة الذين رأيناهم يا كويكوج تراهم اين ذهبوا ؟ » - قلت ذلك ونظرت في ريبة الى النائم ؛ ولكن يبدو اننا حين كنا على الرصيف لم يلحظ كويكوج ابداً ما كنت ألمح اليه . ولقد كنت أظن نفسي واهماً مخدوعاً من الناحية البصرية لولا ان ايليا سألتني عنهم سؤالاً لا اعرف له تفسيراً . الا اني أخذت هذه الخواطر وأخذت ارقب الرجل النائم ، وألححت هازلاً الى كويكوج ان من الخير لنا ان نجلس مع هذا الجسد الممدد ، وقلت لكويكوج ان يتخذ لنفسه جلسة تتفق ووضع ذلك النائم . فوضع يده على قفا الرجل كأنه يتحسس ان كان ناعماً وثيراً ثم جلس هنالك مطمئناً لا يبالي .

فقلت : « يا لطف الله ! يا كويكوج لا تجلس هنالك » .

فقال كويكوج ! « آه : جيد مقعدة جلوس . هكذا في بلدنا . لا أؤذيه وجهه » .

قلت : « وجه ! أتسمي هذا وجهه ؟ هذا اذن وجه لطيف . لكنه ثقيل
النفس كأننا يلهث ، قم يا كويكوج ! انت ثقيل الوطأة فوقه ، وذلك يحطم وجه
المسكين . انهض يا كويكوج ! أراه سينفضك حالاً . اني لأعجب كيف لا
يستيقظ » .

زحزح كويكوج نفسه وجلس غير بعيد عن رأس النائم وأشعل كدوسه .
وجلست انا عند قدميه . وظللنا نتبادل الكدوس من فوق جسم النائم . وعندما
سألت كويكوج ما الذي يعنيه بقوله « جيد مقعدة جلوس . هكذا في بلدنا » ،
أفهمني بلهجته المكسرة انهم في بلدهم ، لانعدام جميع انواع الطنافس
والكتبات ، يعمد الملك والرؤساء والاعيان الى ان يسمتوا بعض ابناء الطبقات
الدنيا ليتخذوهم مقاعد لهم . واذا شاء احدهم ان يزود بيته بمثل هذا الاثاث
المريح فعليه ان يشتري ثمانية او عشرة من « التنايل » ثم يطرحهم في الدواوين
والأواوين . ومثل هذا الاثاث الوثير مفيد في الرحلات فهو خير من كراسي
الحديقة التي تتحول الى عصي . وأحياناً يستدعي السيد تابعه فيرغب اليه ان
يجعل من نفسه مقعداً تحت شجرة ظليسة او في مكان رطب تنبسط فوقه
المستنقعات .

وبينا كان كويكوج يحدثني بهذه الامور كان كلما تسلم الشبك مني جعل
فوهته فوق رأس النائم .

— لم تفعل ذلك يا كويكوج ؟

— سهل كثير ، يقتل — هـ — سهل كثير .

ومضى يستعيد ذكريات غريبة عن كدوسه ، وهو — فيما يبدو — ذو فائدتين :
ينثر أدمغة الأعداء ، ويسكن روح صاحبه ، وفي تلك اللحظة التفتنا الى الحبال

النائم . فقد ملأ الدخان القوي ذلك الوكر الضيق وبدأ أثر ذلك يظهر عليه ،
فأخذ يتنفس تنفس الخنوق ثم بدا ان أنفه يضطرب ثم تقلب مرة او مرتين ،
ثم جلس يفرك عينيه .

وأخيراً تنفس وقال : « هالو . من أنتم ايها المدخنان ؟ »

فأجبت : « من المبحرين . متى تقلع ؟ »

— « أجل . أجل . انتما ذاهبان فيها . أليس كذلك ؟ تقلع اليوم . جاء
القبطان الليلة الماضية » .

— « اي قبطان ؟ — آخاب ؟ »

— « ومن سواه ؟ »

هممت ان أسأله بضعة أسئلة أخرى عن آخاب ، حين سمعنا جلبة فوق ظهر
السفينة .

فقال الحبّال : « هلا ! استاربك بدأ نشاطه . انه رأس الضباط ، حيويّ
طيب تقي . وما دمت قد استيقظت فلا بد من ان أتوجه اليه » . وما ان قال
ذلك حتى اتجه نحو ظهر السفينة وتبعناه .

كانت الشمس قد بزغت ساطعة . وسرعان ما أخذ البحارة يفدون مثنى مثنى
وثلاث ثلاث ، ونهض الحبّالون وانهمك الضباط المساعدون في العمل ، وانشغل
كثير من رجال البر يجلب آخر الحاجات اللازمة . وفي أثناء ذلك كله ظلّ
القبطان آخاب مختفياً متوارياً في جوف قمرته .

عيد ميلاد سعيد

ومن بعد، وكان وقت الظهيرة وشيكاً، صرف الحبّالون بعد أن جرّت الباقوطة من مرساها، وبعد ان جاءت «إحسان» التي تذكّر ولا يغلبها النسيان، في قارب تحويت، ومعها آخر هدية - قبعة مسائية لصهرها اسطب الضابط الثاني، ونسخة من التوراة لخازن المؤن؛ بعد ذلك كله خرج القبطانات فالج وبلدد من القمرة، واستدار فالج نحو رئيس الضباط وقال :

— «أأنت واثق يا سيد استاربك ان كل شيء على ما يرام؟ القبطان آخاب حاضر - كلمته قبل لحظات - لم نعد نحتاج شيئاً من البر؟ طيب؛ ادع الملاحين جميعاً. احشدكم هنا في الكوئلة - قبحهم الله !»

فقال بلدد : « لا حاجة بنا الى السب والشتم، يا فالج، مهما نكن بحاجة الى العجلة . لكن هيا يا صديقنا استاربك . نفذ الاوامر . »

كيف يكون ذلك ! ها هي السفينة على وشك ان تبدأ رحلتها، وصاحب الكلمة العليا على ظهرها القبطان فالج وزميله بلدد كأغما سيكونان الأمرين معاً فيها في عرض البحر مثلاً كانا في الميناء . وأما آخاب فلا دلالة على وجوده سوى قول القائلين انه في القمرة . ولكن كل ما قاله فالج وزميله من قبل : ان حضور آخاب غير ضروري بأي حال لرفع المرساة وتوجيه الدفة في عباب البحر، وذلك قول حق لان ذلك ليس من مهمة آخاب وانما هو من عمل الربان،

ثم ان آخاب لم يكن قد استكمل العافية — كذلك قالوا — واذن فلا غرابة ان يغيب عن السفينة وهي راسية . كل هذا يبدو أمراً طبيعياً معقولاً ومما يؤكده ما عرفه عن السفن التجارية فهناك ايضاً يمضي وقت غير قصير على رفع المرساة قبل ان يظهر القباطنة على ظهور السفن ، وانما يكون عند مائدة القمرة ، يحتفون بتوديع اصداقهم ابناء البر قبل ان يغادروا السفينة نهائياً مع الربان .

ولكن لم يكن لدي فرصة للتفكير في الأمر ذلك ان القبطان فالج كان بالغ الحيوية والحركة ، وكأنما هو المسئول عن الحديث والأوامر ، دون بلدد .

فصاح وقد تلكأ البحارة عند الصاري الكبير : « الى الكوثلة ، هيا يا اولاد الأرامل . سقمهم الى المؤخرة يا سيد استاربك » .

وكان الأمر التالي : « انصبوا العريش هناك ! » وكنت ألححت من قبل الى ان هذا العريش المصنوع من عظام الخوت لا ينصب ابدأ الا في الميناء ولكن على مدى ثلاثين سنة كان الامر بنصب تلك الخيمة على الباقوطة هو الامر الذي يتلو رفع المرساة توالاً .

وتلا ذلك أمر آخر : « جهزوا المسحاب . صاعقة تبتلعكم ! اقفزوا » ووثب البحارة الى العتلات .

وأقول : عند رفع المرساة يكون الموقف الذي يحتله الربان في الجزء الامامي من السفينة ، ولذلك كنت ترى بلدد منهمكاً في الاشراف على مقدم السفينة ليرى المرساة الصاعدة ، وهو بين الحين والحين يغني مقطوعة كئيبة من بعض الاناشيد الدينية لينعش ايدي العاملين عند الدولاب الرافع ويبعث فيهم ارادة وعزماً ، أما أولئك العاملون فكانوا يجأرون كأنهم جوقة يتغنون بحمال الفتيات

في زقاق بوبل . ولا عجب في ان يؤدي بلد عمل الربان، فقد كان الى وظائفه الاخرى رباناً مجازاً بالعمل في الميناء ، وقد اتهمه الناس بأنه ما اصبح رباناً الا لكي يسلم من دفع اجرة لوظيفة الربان في كل السفن التي كانت في ملكه . وأما عن تغني العمال بالفتيات فاني اذكر ان بلدد قبل ما يقل عن ثلاثة ايام أخبرهم بأنه لا يسمح بالأغاني الدنيوية على ظهر الباوقطة، وأحضرت اخته « إحسان » نسخاً صغيرة مختارة من أناشيد وطس الدينية^١، ووضعت في سرير كل بحار نسخة منها .

وفي الوقت كان فالج، وهو يشرف في الجزء الآخر من السفينة، يتميز غضباً ويسب ويفحش في السباب . وكاد الظن يساورني بأنه سيعرق السفينة قبل ان تسحب المرساة . واتكأت لارادياً على العتلة التي معي وطلبت الى كويكوج ان يعمل كما عملت، وأنا اتصور المخاطر التي نعرض لها انفسنا حين نأخذ في رحلة مع شيطان مثله يسمى نفسه رباناً . وطيبت خواطري المستثارة حين تذكرت ان طريق النجاة قد توجد لدى بلدد التقي رغم النصيب السابع والسبعين بعد السبعائة؛ وحينئذ أحسست بلكمة على أذني فاستدرت، واصابني الرعب عندما رأيت شبح فالج وهو يسحب رجله من جواربي المصاقب . تلك كانت اول ركلة اناها .

وزأر فالج يقول : « أهذه هي الطريقة التي يرفعون بها المرساة في السفن التجارية ! اقفز يا رأس الكبش؛ اقفز واكسر صلبك. لم لا تقفز؟ أقول : انتم جميعاً لم لا تقفزون ؟ انت يا كوهوج اقفز . وانت يا ذا الشاربين الاحرين !

١ هو اسحاق وطس (١٦٧٤ - ١٧٤٨) نظم أناشيد دينية كثيرة ترتل في الكنائس البروتستنتية .

وانت يا صاحـب القـبـعة الاسـكتلنـديـة ! وانـت يا لابس السـروال الـأخـضر . اقـفـز . اقـفـزوا جـمـيـعاً ، ودعوا اعينكم ثـب من محـاـجرها » . وما ان نـثر هـذه الـكـلمات حق مـضى عـلى طـول الدولاب الـرافـع يـستـعـمـل رـجلـه في الـركـل هـنا وهـناك جـزافاً دون وازع بـينا ظـل بـلد المحتشم الـوقـور ماضياً في تـرتـيـلاتـه . فـقـلت لـنـفـسي : لا بد من ان يـكـون القـبـطان فـالـج قد شـرب شـيئاً الـيـوم .

وأخيراً رفعت المرساة ، ووقف كل بحار في مكانه ، وانسابت بنا السفينة . كان الـيـوم هو عـيد المـيـلاد ، وكان يـوماً قـصـيراً قـارس البـرد ؛ وحين ولج النـهار الشـمالي القـصـير في الـليل وجـدنا انفسنا في عـرض الحـيـط والفـصل شتاء ، والـرذاذ الـمتـجمـد يـطـوئـقنا بالـجـليـد كأننا في درع صـقـيلة . وأخذت صـفـوف الـأسـنان عـلى الجـوانـب تـلـتـمـع في ضـوء القـمر وتـدلـت من مـقـدم السفـينة ذلـالـة ثـلـجيـة كـبـيرة مـنـحـنيـة كأنها أنـياب فـيل عـاجـية بـيـضاء .

قام بـلد الـنـحـيف – وهو يـؤـدي وظيفـة الرـبـان – بأول نوبة في الرقابة وظلت تـتردّد نغماته دائماً وإبداً كلما غاصت السفينة القديمة في احضان البحار الخضـر وأرسلت صـقـيعاً راعشاً فـوق جـسمـها ، وجـارت الـريـاح وقـعـقـعت الحـبال ، وكـنا نـسمـعه يـقـول في تـغـنيـه ^١ :

وراء الامواج العالية حقول حبيبة

قد كستها الطبيعة ثوباً اخضر

كذلك تجلت كنعان القديمة ليهود

بينما كان يتحدر الأردنّ خلالها .

١ من اناشيد وطس . انظر التعليق السابق .

لم تقع هذه الكلمات العذبة اليّ مثلاً وقعت عندئذ، فقد كانت مفعمة بالأمل والرجاء؛ وعلى الرغم من هذا الليل الشتائي القارس في الأطلسي، على رغم من الرطوبة التي تبلل قدميّ وتضفي على صدريّ بللاً أغزر بدا لي ان الاقدار قد وفرت لنا في جمعيتها كثيراً من الموانئ والملاجئ، وكثيراً من المروج والمسارب ذات الخضرة الابدية، التي يهيج فيها العشب في الربيع ويبقى حتى منتصف الصيف دون ان يزوي او تدوسه الأقدام.

ها قد اصبحنا في عرض من البحر بحيث لم يعد لوجود الربانين معنا حاجة، فبدأ البحارة بانزال القارب الشراعي القويّ الذي حمل معنا.

كان التأثير الذي ألمّ بكل من فالج وبلدد - والثاني منها بخاصة - في موقف الفراق عجباً غير خالٍ من الامتاع. كانا ينفران من الفراق، كانا شديدي التكره لىغادرا سفينة مُقَدِّمةً على سفرة طويلة مليئة بالمخاطر - تبلى الى ما وراء الرؤوس العاصفة، سفينة استثمر فيها بلدد بضعة آلاف من دولاراته التي شقي في جمعها، سفينة يسافر فيها احد رفاقه القدامى قبطاناً، رجل مثله في كبر السن يبدأ مرة اخرى في مواجهة كل مرعبات الشدق القاسي الجبار؛ كان بلدد ينفر من ان يقول وداعاً لشيء امتلأت جوانبه بكل ما يهمه - فأطال المسكين اللبث، ذرع ظهر السفينة بخطوات قلقه، جرى الى القمرة ليقول وداعاً مرة اخرى، عاد مرة اخرى الى ظهر السفينة ونظر صوب الريح، نظر نحو الامواه المتراصة التي لا حد لها، إلا حد من القارات الشرقية النائية التي لا يبلغها البصر، نظر الى البر، نظر الى أعلى، نظر يميناً وشمالاً، نظر الى كل وجهة والى لا وجهة، واخيراً لف حبلاً حول وتد بحركة آلية، وأمسك وهو يرتعش بيد فالج القوية، ورفع القنديل، ووقف لحظة يحرق بشجاعة في وجهه كأنه يقول له: «مع كل ذلك، يا صديقي فالج، استطيع ان اتحمل، نعم أستطيع».

أما فالج فقد نظر الى الامر نظرة فيلسوف، ولكن رغم فلسفته كلها كانت العبرة تترقرق في عينه حين اقترب القنديل منه . وهو نفسه لم يتوقف عن الجري من القمرة الى ظهر السفينة — ملقياً كلمة في الاسفل ، واخرى الى استاربك، رئيس الضباط .

ثم تحول الى رفيقه في نظرة كأنها الاخيرة وقال : « قبطان بلدد — هيا يا رفيقي القديم علينا ان نذهب — اسندوا دعامة الشراع الرئيسي هنالك ! ها هو القارب ! قفوا جانبا حتى يقترب ! باعتناء ! باعتناء ! — هيا يا بلدد ، أيها الرجل ، قل كلمتك الاخيرة : حظ سعيد لك يا استاربك — حظ سعيد لك يا سيد اسطب — حظ سعيد لك يا سيد فلاسك، وداعاً، وحظ سعيد لكم جميعاً . بعد ثلاث سنوات من هذا اليوم سأحضر لكم عشاءً ساخناً يتصاعد فوقه البخار في نانتوكت القديمة . مرحى ومع السلامة ! »

فهمهم بلدد الشيخ يقول وكأنه يهذي : « حاطتكم بركة الله، وجعلكم في حفظه ورعايته المقدسة . أرجو ان تحلّوا في جو جميل كي يتمكن القبطان آخاب من الظهور بينكم — كل ما يريده هو الشمس الممتعة وستجدون وفرة من أشعة الشمس في الرحلة الاستوائية التي تزمعونها . كونوا حذرين في الصيد يا رفاق ! لا تكسروا القوارب دون حاجة تستدعي ذلك أيها الحوّاتون ، ان اللوح من خشب الشربين الأبيض الجيد قد ارتفع سعره ثلاثة في المائة . كذلك لا تغفلوا عن الصلوات . وأنت يا سيد استاربك احرص على ان لا يبدد صانع البراميل ذاك تلك الاطواق الفائضة . آه ! وإبر الاشرعة مودعة في الدرج الأخضر . لا تحسّوا كثيراً في أيام الآحاد يا رجال، ولكن لا تدعوا فرصة تفلت من ايديكم ايضاً فذلك بطرٌ وتعجرف على هبات السماء . وأنت يا سيد اسطب خلّ بالك من مكيال الدبس فقد كان يرشح بعض الشيء فيما اظن . واذا نزلتم الى الجزر يا سيد فلاسك فحذارٍ من الزنا . مع السلامة ! مع السلامة !

لا تبقوا تلك الجبنة طويلاً في العنبر يا سيد استاربك لثلاثتلف . دققوا في توزيع الزبدة فقد اشترينا كل رطل بعشرين سنتاً، واذكروا أنه اذا ...» .

— «يلتلا، يلتلا يا قبطان بلدد . كفاك هذراً — لنمضِ اِ» وجرّهُ فالج مسرعاً عند جانب السفينة، وهبطا كلاهما في القارب .

وافترقت السبيل بالسفينة والقارب، وهب النسيم الليلي البارد الرطب يفصل بينهما، وطارت فوق رءوسنا نورية تصيح، وتدحرج الهيكلاان تدحرجاً غريباً. صحننا من قلوبنا الحزينة مريحى ثلاثاً وغصنا على غير هدى ، كأننا القدر، في الأطلسي الموحش .

الساطى ، الآمن من الربيع

قبل فصول^١ ذكرت شخصاً اسمه بلكنجتون وهو بحار طويل القامة كان قد نزل على البر حديثاً ورأيتُه في الحان في نيوبدفور د .

في تلك الليلة الشتائية المرتعشة عندما طعنت الباقوطة بمقدمتها الموقورة صدر الامواج الحاقدة المقرورة: من تراه مثل امامي عند دفتها سوى بلكنجتون؟ تطلعت في رهبة مشفقة وخشية الى ذلك الرجل الذي لم تكد قدماء تطآن الارض ، في منتصف الشتاء بعد رحلة خطيرة استغرقت سنوات اربعاً ، حتى أثاره القلق فاندفع في فصل آخر عاصف مرة اخرى . لذعت حرارة اليابسة قدميه فيما يبدو . أعجب الاشياء هي التي لا يستطيع ذكرها ، وأعمق الذكريات لا يخلد في شواهد ، وهذا الفصل القصير هو القبر غير الحجري الذي أعدده بلكنجتون . حسبي ان اقول ان حاله كانت كحال سفينة تلعبت بها العاصفة فهي تتوجه نحو الحمى ، نحو المرفأ الآمن من الريح في ذلة وتعاسة . ويرحب بها الميناء ويفتح صدره لها ملاذاً فهو عطوف ، آمن ، مريح ، عنده النار والعشاء ، والاعطية الدفيئة والاصدقاء ، وكل ما يولينا عطفاً ولطفاً . ولكن اللجوء الى البر او الميناء في تلك العاصفة هو أسوأ مخاطرة تتعرض لها السفينة ، فهي تريد ان تفر من وجه اللطف والبشاشة والكرم ، ولو لمست اليابسة طرف قاعدتها لمساً لتخلل الارتعاش جسمها كله ، ولذلك تستجمع أشرعتها بكل ما أوتيته

١ انظر الفصل الثالث .

من قوة لتبارح الشاطئ ، وفي هذا تقاوم الرياح التي تحاول ان تردّها الى الميناء ،
وتندفع الى الرحب اللابريّ بين ذراعي البحر المتضربّ المهتاج . من اجل
المأوى تندفع وحيدة في قلب الاخطار وصديقها هو ألد اعدائها .

أتعلم يا بلكنجتون ؟ اني لأحس انك ترى التّاعات من تلك الحقيقة المروّعة
التي لا تحتمل ، انك لترى ان كل تفكير عميق مخلص فانما هو جهد جريء تبذله
الروح كي تبقي لبحرها انفتاحَ جوانبه وحرّيته الطليقة ، حين تتأمر أعنى رياح
السماء والارض لتلجئها الى الشاطئ الخائن المستعبد المغلول .

في حالة اللابريّة وحدها تكمن أعلى الحقائق ، لا برّ لها ، مطلقة كالإله —
ولذا فخير للمرء ان يهلك في ذلك المطلق الصخّاب من ان تقذف به الامواج على
البرّ ، ولو كان هو برّ السلامة . اذ من ذا الذي — واأسفاه ! — يؤثر لنفسه
حيث ان يزحف كالودودة زحف الميهن الهدان الى البرّ . يا ويسلات المفزع
المرعب ! أكل هذا العذاب يضيع سدى ؟ كن رابط الجأش ، شدّ حَيْلك يا
بلكنجتون ! تحمّل وصابر عابساً جاهاً يا صِنوّ الجبّارين ! من رذاذ بحرك
الذي ينضمّ فوق جسدك الهالك ، يثبّ عالماً مجدك وجبروتك !

دفاع عن التحويت^١

بما أني انا وكويكوج قد اقلعنا شوطاً في سفرة التحويت ، وبما ان التحويت
نفسه مشنوع السمعة منزور الألق والرواء في نظر ابناء البر لذلك فاني جسد
حريص على ان أقنعكم يا ابناء البر بالظلم الذي ينال صيادي الحيتان من نظرتكم
هذه .

أما في المقام الاول فلعلته من تحصيل الحاصل ان أقرر بأن مهنة التحويت
لا تعدّ بين معظم الناس على مستوى ما يسمونه المهن الحرّة . فلو ان غريباً دخل
في مجتمع مديني متنوع الاجناس وقيل للناس هذا حوّا لما زاد هذا الوصف
في كفاياته عندهم الا قليلاً ، ولو انه منافسة لضباط البحرية أضاف الى اسمه على
بطاقته هذه الرموز (ص. ح. ع.) اي صياد حوت العنبر لرأى الناس في عمله هذا
شيئاً عجرياً مضحكاً .

ولا ريب في ان من اكبر الاسباب التي تجعل العالم يحرمنا التمجيد، نحن
الحوّاتين، هو ان الناس يظنون بأن مهمتنا في خير احوالها لا ترقى الا الى
نوع من الجزارة ، وأننا حين ننهمك فيها فانما يحيط بنا كل نوع من الدم والدنس .
جزارون نحن ، ذلك صحيح ، ولكن ماذا عن القادة العسكريين الذين يقتبض

١ معظم هذا الفصل استمده ملفل - روحاً وافكاراً - من الفصل الحادي عشر في كتاب
بيل « نشوء حرفة صيد حوت العنبر وتطورها » وكذلك أرحى اليه سكورسي ببعض الافكار.

العالم على اختلاف نواحيه في تمجيدهم وتكليل رءوسهم بالغار ! أليسوا جزارين ، وجزارين يحملون أقنى شارة دموية ؟ امسا عن الدنس المزعوم في مهنتنا فاني سألقي اليكم بعض الحقائق التي ما تزال مجهولة بوجه عام ، وهي على الجملة ستضع حرفة صيد حوت العنبر بين أنظف الاشياء على هذه الارض النظيفة . ولكن لو سلمنا بأن هذه التهمة صحيحة فأني ظهر سفينة فوضوي زلق بما ساح فوقه من دماء يمكن ان يقارن بمجزرة في ميدان القتال لا يحقها وصف ، ويرجع منها كثير من الجنود ليشربوا وداد جميع السيدات ؟ واذا كانت فكرة الخطر تزيد في تصوّرات الناس عن حرفة الجندي فلاؤكد لكم ان كثيراً من المهندسين الذين يمشون الى المدفعية طوعاً خواطرهم يخيمون ناكسين اذا لاح لهم شبح ذنب حوت العنبر وهو يحرك الهواء دوّاماتٍ فوق رأسه . أي شأنٍ لأهوال الانسان التي لا تفوت حدّ التصور اذا أنت قارنتها بأهوال الله وعجائبه المتواشجة ؟

ولكن مع أن العالم يزدريتنا نحن الحواتين الا انه يولينا - غافلاً - أعمق آيات الولاء والخشوع . اجل ، يقدم لنا إجلالاً وفيراً غزيراً ، ذلك ان جميع القناديل والمصابيح والشموع التي تشتعل في جميع أرجاء الكرة الارضية فانما تضاء في مجدنا كما تضاء امام قبور القديسين والأولياء .

بل انظر الى هذه المسألة تحت أضواء اخرى ، زنها بكل ضروب الموازين وانظر ما نحن الحواتين وماذا كنا :

لم كان لدى الهولنديين في ايام دي ويت أمراء بحر (اميرالات) لأساطيل التحصيت ؟ لمّ جهر لويس السادس عشر ملك فرنسا على حسابه سفناً لصيد الحيتان أرسلها من دنكرك ، وتلطف فدعا الى تلك المدينة عشرين او اربعين عائلة من جزيرتنا ناتتوكت ؟ لمّ دفعت بريطانيا بين عامي ١٧٥٠ و ١٧٨٨ الى حواتيها هبات تربو على مليون جنيه ؟ واخيراً كيف تأتي ان اصبح حواتو امريكا يربون على حواتي العالم مجتمعين في العدد ، وان لديهم اسطولا من سبعمئة

سفينة يعمل فيه ١٨ ألف رجل ويكلف في العام أربعة ملايين من الدولارات ،
وتسوى السفن فيه ايام الاقلاع ٣٠ مليوناً من الدولارات ، وتحضر كل عام الى
موانئنا غلة تقدر بسبعة ملايين . كيف كان كل ذلك اذا لم يكن في حرفة
التحويث شيء ذو حول وطول ؟

وهذا لا يبلغ نصف الحقيقة بعد ، فاسمعوا ايضاً :

أؤكد لكم دون كججمة ان الفيلسوف العالمي لا يستطيع — حياته — ان
يدلنا على اي عمل سلمي أثر خلال الاعوام الستين الماضية بقوة وكفاية في العالم
الواسع كله — مجتمعاً — بأكثر من تأثير مهنة التحويث ، تلك المهنة السامية
الجبارة . فقد ولدت على نحو او آخر أحداثاً هامة في ذاتها ، هامة خالدة فيما
نجم عنها من أحداث مسترسلة حتى لتعد حرفة التحويث كتلك الأم المصرية
التي كانت تحمل في بطنها بنات يولدن حاملات ايضاً . وربما كان عد هذه
الاحداث مهمة لا تطاق ولا تقف عند غاية فلنكتف بحفنة منها : منذ سنوات
عديدة مضت كانت حرفة التحويث رائداً في الكشف عن أقصى ارجاء الارض
المجهولة ، فقد استكشفت بحاراً وأرخبيلات لا خرائط لها ، حيث لم يبلغ
مستكشف مثل كوك وفانكوفر ؛ واذا كان المحاربون الامريكيون والاوروبيون
يركبون بأمان فيما كان من قبل موانئ المتوحشين ، فعليهم ان يطلقوا نيرانهم
تحية لشرف سفينة التحويث ومجدها ، فهي التي مهدت لهم الطريق في البداية ،
وكانت الترجمان بينهم وبين المتوحشين . انهم قد يجدون ذكرى ابطال الرحلات
الاستكشافية مثل كوك وكروزنشترن^١ ومن لف لفها ؛ ولكني أقول ان
عشرات من القباطنة المجهولين الذين أبحروا من نانتوكت كانوا كهؤلاء المكتشفين

١ آدم ايفان كروزنشترن (١٧٧٠ - ١٨٤٦) أول روسي طاف حول الكرة الارضية
وكان ملفل يعرف حق المعرفة « رحلته حول العالم ١٨٠٣ - ١٨٠٦ » .

عظمة بل أعظم من كوك وكروزنشترن لانهم وهم العزل الذين لا يجدون نصيراً
تمرسوا في البحار الوثنية المليئة بالقرش وعند شواطئهم جزر لم تقيد لها في
المصورات الجغرافية اسماء وأهلها من رماة الحدق ، تمرسوا بالحرب ضد عجائب
وأهوال بكر لا يجرؤ ان يتمرس بها كوك عن طيب خاطر بكل ما معه من
قوى بحرية وبنادق ؛ وقد ألف الابطال أهالي نانتوكت ما يزهو بعمله سواهم
من الناس في الرحلات الى البحار الجنوبية حتى أصبحوا لا يعدونه الا مبتذلاً
هيناً من الاعمال . فالمغامرة التي يخصص فانكوفر لسردها ثلاثة فصول لا يعدها
أولئك الابطال جديرة بالتسجيل في سجل السفينة العمومي ، ولكن آه من العالم
رواهاً له !

لم يكن من تجارة بل من صلة اية صلة بين اوروبا وذلك الخط الغني من
الولايات الاسبانية على ساحل المحيط الهادي حتى استدار التحويت حول
رأس هورن ، اللهم الا ان تكون صلة بين البلد الام ومستعمراتها او تجارة قائمة
بينهما . وكان الحوات اول من ثلم حد السياسة الغيري التي يتبعها التاج الاسباني
حين تعرف الى تلك المستعمرات . وقد أبين بوضوح - ان سمح لي حجم
الكتاب - كيف ان تحرير بيرو وشيلي وبوليفيا من نير اسبانيا وانشاء
ديموقراطية خالدة في تلك المناطق انما يعزى الى أولئك الحواتين .

اما امريكا العظمى في الجانب الآخر من الكرة ، تلك التي نسميها استراليا ،
فان الذي كشف عنها الغطاء وقدمها للعالم المستنير هو رجل حوات ؛ اذ بعد ان
استكشفها احد الهولنديين خطأ ظلت السفن تتجنب الدنو من شواطئها زمناً
طويلاً لان همجيتها تشبه الداء الوبيل ، إلا سفن التحويت فقد كانت تحاذي
شواطئها وتدنو منها . اذن فان سفينة التحويت هي البلد الأم الذي تنتمي اليه
تلك المستعمرة القوية اليوم . زد الى ذلك ان المهاجرين الأول في العهود الاولى من
الاستيطان باستراليا كانوا يواجهون المجاعات ولم ينقذهم مراراً من الموت جوعاً إلا

البسكويت السخيّ الذي كانت توزعه سفن التحويت حين ترسو لحسن حفظهم في مياههم . وتشهد جزر بولينيزيا التي لا تحصى عدداً بهذه الحقيقة نفسها وتؤدي فروض الولاء التجاريّ لسفينة التحويت التي مهدت الطريق امام البشر والتاجر، وحملت المبشرين الاولين في كثير من الاحوال الى حيث ينشرون تعاليمهم . واذا كان لليابان ، تلك البلاد المسوّرة المغلقة ، ان تصبح بشوشاً مضيافة فلن يرجع الفضل في ذلك الا لسفن التحويت ، لان هذه السفن تقف على عتبة تلك البلاد .

فاذا لم يقنعك كل هذا وذهبت تقول ان حرفة التحويت لا تشتمل على ما هو شريف رفيع من الناحية الجمالية ، فاني على استعداد لأحطم في مبارزتك خمسين رجلاً حول هذه النقطة ، وأنزلك عن جوادك كل مرة وخوذتك قد شقت نصفين .

تقول بزعمك : لم يكتب عن الحوت مؤلف مشهور ولا أرّخ مهنة التحويت مؤرخ ذائع الصيت .

أتقول ذلك وتفتح به فمك على مصراعيه ؟ قل لي اذن من كتب اول خبر عن الحوت العظيم (اللويثان) ؟ أليس هو أيوب مضرب المثل في الصبر ؟ ومن كتب اول حكاية عن رحلة لصيد الحوت ؟ ألم يكن أميراً ؟ أليس هو ألفرّد العظيم الذي أمسك بقلمه الملوكي ودوّن كلمات أوثر الحوات النرويجي في تلك العصور ؟ ومن هو الذي ألقى عنا مسديحاً رناناً في قاعة البرلمان ؟ من سوى ادمند بيرك ؟ وتقول زاعماً : كل هذا صحيح ولكن الحواتين أنفسهن شياطين بؤساء ليس في عروقهن دماء نبيلة .

ليس في عروقهن دماء نبيلة ؟ بل دماؤهم خير من الدم الملوكي . ذلك ان جدّة بنيامين فرنكلن هي ماري موريل ، ثم أصبح اسمها بعد الزواج ماري فولجر وهي من أوائل المستوطنين القدامى في نانتوكت ومن ابنائها وحفدتها عدد

كبير من عائلة فولجر ومن الحواتين وكلهم من اقرباء بنيامين العظيم ، يقذفون بالحديدة المزججة من طرف في العالم الى طرف .

وتقول : هذا حسن . الا ان الجميع يقرون ان التحويت مهنة غير محترمة .

مَنْ أنباك هذا ؟ والتحويت ملكيني المنزع ، فقد أقر القانون الدستوري الانجليزي القديم ان الحوت « سمكة ملكية » * .

فتردّ قائلاً : آه إنما هذا شيء اسمي ، فان الحوت نفسه لم يدخل مرة واحدة في مناسبة فخمة جليلة .

أنسى لك هذا ؟ ألا تعلم انه في احدى حفلات النصر التي أقيمت لقائد روماني وهو يدخل عاصمة العالم ، جلبت عظام الحوت من الساحل الشامي ، وكانت أبرز شيء في ذلك الموكب الصاخب^١ ؟

فتجيب : صدقتُ ما تقول ما دمت انت ترويه ولكن قل ما تريد فليس في التحويت عزة أصيلة .

ليس في التحويت عزة ؟ عزة حرقنا تشهد بها السماء . في سماء الجنوب كوكب اسمه « القاطوس » اي الحوت ، ولا أزيد . شدّ قبعتك أمام القيصر واخلعها احتراماً لكويكوج ، ولا أزيد . عرفت رجلاً صاد في حياته ثلاثمائة وخسين حوتاً ، وانا أعد ذلك الشخص أبلغ شرقاً من ذلك القائد القديم الذي كان يتمدح بأنه فتح هذا العدد من المدن المحصنة .

* انظر مزيداً عن هذا الموضوع في فصول تالية .

١ قيل ان ماركس اميليوس سكارس أخذ الى روما هيكل حوت كان قد قذفه البحر عند ميناء يافا .

وأما أنا ، فان قدر لي ان يكتشف الناس فيّ مجداً لم يستب من قبل ، واذا أصبحت جديراً بأي صيت حق في ذلك العالم الصغير – العالم ذي الصمت البليغ الذي أطمح اليه طموحاً له ما يسوغه ، واذا أدبت بعد اليوم شيئاً خليقاً بالانسان ان يؤديه على ان يتركه دون أداء ، واذا وجد من يصفون تركتي – بل دائنيّ على وجه أدق – مخطوطة نفيسة في درج مكتبي فأنا هنا أعزو ، وأنا استشرف المستقبل ، كل شرف ومجد الى حرفة التحويت ، اذ ان الجامعة التي تخرجت فيها هي سفينة صيد الحيتان ، فقد قامت في حياتي الثقافية مقام هارفارد وييل .

في الدفاع عن معنى العزة في التحويت يسرني ان لا أقدم شيئاً سوى حقائق جوهرية . ولكن بعد ان يعد المحامي شواهد ، أترأه يعطل ما يعرض له من حدس معقول ينبىء عن القضية بحجة ناصعة وبيان ذليق ؟ أليس مثل هذا المحامي — ان فعل ذلك — مظنة لوم ؟

من المتعارف المشهور في تتويج الملوك والملكات حتى المحدثين منهم ان يتدرجوا خلال خطوات غريبة من « التندشين » تجعلهم صالحين لما يناط بهم . فهناك ما يسمونه « مملكة الدولة » وما يسمى « مزينة الدولة » . كيف يستعملون الملح على وجه الدقة ؟ — من يدري ؟ انا واثق على أي حال ان رأس الملك « يزيت » يوم التتويج ، كأنه صحن سلطة . أترأهم مسحونه بالزيت رجاء ان يجعلوا ما في داخل رأسه يتحرك ويعمل في يسر مثلما يزيتون الآلات ؟ ها هنا شيء كثير يصلح للنظر والتأمل حول هذه العزة الاصيلة لهذا الصنيع الملكي ، لأننا في شئون الحياة العامة ننظر باحتقار وازدراء الى المرء الذي يدهن شعره ، وتذيع منه رائحة الزيت . والواقع ان الرجل الناضج الذي يستعمل زيتاً لشعره يعد مهزوزاً في جانب من جوانب نفسه ، الا ان وصفه الطبيب ذلك . ومن القواعد العامة انه في جلته لا يبلغ شيئاً كثيراً .

لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي نود ان نقف عنده في هذا المقام : أي نوع من الزيت يستعمل في حفلات التتويج ؟ طبعاً لا يمكن ان يكون هو زيت

الزيتون او زيت « مكسّر » لتقوية الشعر او زيت الخروع او زيت الدب او
زيت القطارات او زيت كبد البكلاه . اذن ماذا يمكن ان يكون سوى زيت
العنبر في حاله الطبيعية الصافية دون شوب، زيت العنبر أحب الزيوت جميعاً ؟

فكروا في هذا يا نسل البريتون الناشئين على الطاعة . اننا نحن - الحواتين -
نزود ملوككم وملكاتكم بالمادة الصالحة للتدويج .

فرسان ووصفاء

كان استاربك رئيس الضباط في الباقوطة من اهالي نانتوكت ومن أتباع المذهب الكويكري بالولادة ، وكان رجلاً طوالاً جاداً ، ذا بنية مناسبة لتحمل المناخ الحار ، وان ولد على ساحل جليدي ، اذ كان لحمه عاسياً مضطراً كالبسكويت الذي دخل الفرن مرتين . وبما انه نقل الى جزائر الهند فان دمه أصبح لا يتلف كالجمعة المعبأة في القناني . ولا بد من أنه ولد ايام سنة مُسْنِتة او مجاعة جائحة او في احد ايام الصوم التي يُعرف بها بلده . وقد شهد ثلاثين صيفاً أعجف ، جففت في بنيته كل الحواشي وضمرت كل موضع رخو ، فاذا هو ناحل قضيف ؛ وليس نحوله علامة على الهموم والارصاب المضنية ، ولا هو دلالة على آفة تنحت الجسم ، وانما هو ضمور وحسب . ولم يكن ابداً دميم المنظر بل كان على الضد من ذلك ، اذ كانت بشرته الصافية الضيقة المشدودة لبوساً ممتازاً فتلبس هو بها 'محكمة' مُقدّرة ، وطيب من داخل بالعافية والقوة كأنه مصري محنط ، فبدا وكأنما هو مستعد للبقاء أجيالاً طويلة ، مستعد ان يظل في كل حين كما هو في الحال الراهنة . وسواء أكان هناك جليد قطبي او شمس استوائية فهو في كل الاحوال كآلة التوقيت الموثوقة ، تكفل له حيويته الداخلية ان يؤدي مهمته في جميع أنواع المناخ . واذا نظرت في عينيه بدا لك وكأنما ترى فيها أخيلة لا تزال ماثلة من آلاف الاخطار التي واجهها في حياته بثبات وسكينة . انه رجل رابط الجأش حازم ، كانت حياته في معظمها رواية ذات « حركات معبّرة » لا فصلاً خاملاً من الاصوات . لكنه كان ، على رصانته الجريئة وجلده الجسور ، ذا صفات تؤثر احياناً في سائر ميزاته وتكاد ترجع

بها في احيان اخرى . كانت يقظة الضمير لديه غير مألوفة في البحارين وكانت قد وهب الحشوع الطبيعي العميق ، لذلك نزعته به الوحدة الموحشة على الماء نزوعاً قوياً الى الخرافة ، الا انه نوع من الخرافة يبدو في بعض الظروف وكأنه نابع من الذكاء لا من الجهالة . كان يؤمن بالندر الخارجية ويصغي الى صوت الشعور بالشؤم في دخيلة نفسه . واذا استطاعت هذه الامور ان تحني فولاذ روحه احياناً ، فان الذكريات العائلية عن زوجه وطفله في منطقة « الرأس » كانت تنزع الى ان تثنيه عما في طبيعته من حزنه أصيلة وتزيد من تعريضه لتلك المؤثرات الكامنة التي اذا أصابت بعض ذوي القلوب الشريفة كبحت لديهم تدفق الجراءة التي تشبه جراءة العفاريث ، وهي الجراءة التي تتجلى كثيراً لدى الآخرين في أشد صروف الصيد اخطاراً . كان استاربك يقول : « لا أريد من يرافقتي في قاربي الا ان يكون امرءاً يخشى الحوت » . ويبدو انه كان يعني بهذا القول ان أشد الشجاعة نفعا وأحسنها معتمداً هي التي تنشأ من تقدير الخصم لخصمه وحسبان خطره المرتقب ، كما يعني ان من لا يعرف الخوف يُعد رفيقاً اخطر على صاحبه من الرعديد الجبان .

فكان اسطب الضابط الثاني يجيبه : « اجل يا استاربك ها هنا رجل « حويط » ليس في كل الصيادين مثله » . وبعد صفحات غير كثيرة ستعرف ما تعنيه كلمة « حويط » بدقة حين يستعملها رجل مثل اسطب او اي واحد من صيادي الحيتان .

لم يكن استاربك ذا حماسة تسعى لركوب الاخطار ، لم تكن الشجاعة فيه وقدة عاطفية ، بل كانت شيئاً مفيداً له ، قريباً من متناول يده في كل الظروف العملية الخطيرة . ولعلّه كان يتصور ان الشجاعة في مهنة التحويت انما هي جزء من الزاد الذي تزود به السفينة ، شيء شبيه بما تحتاجه من الخبز واللحم ، لا يجوز استهلاكها وتضييعها بسوء التدبير ؛ ومن ثم لم يكن يميل الى التحفز

لصيد الحيتان بعد الغروب ولا الى الاصرار على مقاتلة السمكة التي تصرُّ على الثبات في مقاتلته . اذ كان استاربك يقول لنفسه : « انا هنا في هذا المحيط المخرج لأقتل الحيتان كي أعيش ، لا لتقتلني الحيتان كي تعيش » ؛ وكان استاربك يعلم ان مئاتٍ من الرجال خرجوا يبحثون عن مثل غايته ولقوا مصارعهم . اذ ما هو المصير الذي لقيه ابوه ؟ وأين في الاعماق التي لا قرار لها يمكن ان توجد أشلاء أخيه ؟

فاذا اعتبرت هذه الذكريات التي تخيله وقدرت انه يستسلم الى الايمان بالخرافات — كما أشرت من قبل — وجدت ان شجاعته التي تستطيع بعد كل هذا ان تتحقق وتنطلق إنما كانت شجاعة متطرفة غاية في وفرتها . ولكن حين يكون مثل هذا الرجل على هذه الفطرة وعلى مثل تلك التجارب والذكريات المهولة فان من المعجز ان تقصّر هذه الامور المستكنة في نفسه عن ان تولّد فيه عنصراً قد ينطلق في الظروف الملائمة من مكمنه ويعصف بما لديه من جرأة وشجاعة . وعلى مبلغ ما كان يتمتع به من شجاعة فان شجاعته كانت من النوع الذي تراه في بعض الجراء الباسلين الذين تقف جرأتهم ثابتة لا تتزعزع ولا تتكل ما داموا يصارعون البحر او الرياح او الحيتان او اي مفزع من مفزعات عالم الطبيعة إلا انها تعجز عن ان تقف موقف الندّ من مفزعات أشد هولاً لأنها أعلق بالنفوس ، مفزعاتٍ تنطلق متوعدة من رجل محرّب قويٍ ساخطٍ عاقدٍ ما بين حاجبيه .

ولكن ان كانت القصص التالية ستكشف في بعض امثلتها تهوينا تاماً من شأن شجاعة استاربك المسكين ، فقلما أجد قلبي يطاوعني على تدوينها ، لان من أشد الامور اثاراً للأسى والأسف ، بل من اشدها زعزعة للشعور ، أن تعرض على الناس تهراوي الشجاعة في الروح . قد يكون الناس مجوجين حين تراه في شركات مساهمة او أمم ، وقد يكون بين الناس محتالون وحمقى

وسفاحون ، وقد تكون لهم وجوه دنيئة هزيلة ؛ ولكن الانسان ، في المستوى المثالي ، مخلوق كريم ألمعي سامٍ وضّاء ، وهو جدير اذا انكشفت لديه هنة تشينه بأن يسرع اليها رفاهه ويستروها بأعلى ما لديهم من أردية . تلك الرجولة الطاهرة نحسها في دخيلة أنفسنا ، في أعماق أعماقنا ، حتى لتظل سليمة لم يمسه سوء وان اندثرت كل السمات الخارجية ؛ انها لتنذف وهي تتلوى بأصدق الألم كلما شهدت منظر امرئ محطم الشجاعة بارزاً للعيون . بل ان روح التقوى نفسها لا تملك إزاء هذا المنظر المخجل ان تكبح في نفسها لومها للاقدار ؛ غير ان هذه الانفة التي أتحدث عنها ليست أنفة الملوك والطيلسانات وانما هي أنفة وفيرة ليس لها كسوة من طيلسان . تراها تلتمع من ذراع امرئ يحمل معولاً او يدق مسماراً ، هي أنفة ديموقراطية تنزل على الايدي نوراً ابدياً من عند الله ، من الله الاول والآخر ، مشابهة الديموقراطية وفلكها ، الكليّ الوجود الذي جعلنا سواسية على أرضه .

فاذا انا بعد اليوم نسبت الى أحقر البحارة والحلّعاء والمنبوذين أسمى الصفات وان كانت قاتمة ، ونسجت من حولهم أمجاداً مأساوية ، واذا استطاع اشدّهم جزءاً — ولعله ان يكون اكثرهم نصيباً من الزراية — ان يرفع نفسه في بعض الاحايين الى الذرى الشاهقة ، واذا سكبت على ذراع ذلك العامل ضوءاً أثرياً ، واذا نشرت قوس قزح امام غروب شمسهِ الفاجع ، فانصرتني في موقفني على كل ناقد يسلقني بلسانه الحديد يا نبع المساواة التي نشرت فوق جميع الناس رداءً واحداً سامياً هو رداء الانسانية . انصرتني في موقفني هذا ايها الرب ، يا رمز الديموقراطية الاعظم ، انت يا مَنْ لم تحرم « بنيان » ، الجاني الاسود من نعمة الشّعر ؛ انت يا من كسوت بأوراق مطرّقة من رقيق الذهب ذراع ثرفانتس الشيخ حين بترت وأخذ من اجلها يستكفّ الايدي ، انت يا من انقذت

أندرو جكسون^١ من اللصوق بالدقعاء وأمطيته حصان فارس محارب ورفعته
الى ما سما به فوق العروش ، أنت يا من تنظر الى ابناء الارض من عليائك
وتختار أحب أحبابك فيهم من عامة الناس الذين يشرفون الملوك ، أنت يا
رب ، انصرني في موقفى وأيدني وتقبل مني يا ذا المنّ والطول .

١ أندرو جكسون رئيس الولايات المتحدة : ١٨٢٩ - ١٨٣٧ توفي عام ١٨٤٥ بعد ان
عاد ملفل الى الولايات المتحدة وبدأ حياته الادبية .

فرسان ووصفاء

اما اسطب الضابط الثاني فكان من أهل رأس كد ولذلك كانوا يسمونه، حسب العادة المحلية المتبعة، «الراسكدّي»: هَيْنَ لَيْنَ، لا هو جان ولا هو شجاع، يواجه الاخطار كيفما جاءت في هيئة من لا يبالي. ويظل وهو منهمك في أشد أزमत الصيد منهوك من شدة الاعياء، هادئاً مستتب النفس كأنه صانع يعمل منهمكاً طوال العام. طيب المزاج يسير سبهي، يتصدّر قارب التحويت كأن أشد لقاء مميت مع الحوت ليس سوى مائدة عشاء وبحارته ضيوف حولها. ذو اهتمام خاص بتنفيذ الجزء الخاص به من القارب على نحو مريح، مثلاً يهتم سائق العربة التي تخص المسرح بالاطمئنان على صندوقه. وحين يكون قريباً من الحوت، في غمرة الموت، يصرف ربحه الغشوم ببرود وبداهة كما يصرف «السمكري» مطرقته وهو يصفر. وقد يهمهم بالنغمات القديمة التي يرددوها البحارة حين يكون جنباً لجنب مع أعتى حوت مستشيط الغضب. طول التمرس قد جعل شدي الموت كرسياً مريحاً لدى اسطب. ولا أحد يعلم كيف كانت يتصور الموت، بل لعل من حق المرء ان يتساءل: أترأه تصور الموت أبداً؟ ولكن ان اتفق له أن وجهه فكره تلك الوجهة بعد عشاء لذيد كما يفعل البحار الطيب فانه كان يعتبره نوعاً من دعوة أصحاب النوبة ليثبوا الى الحبال العليا ويقفوا متأهبين هنالك فاذا وثب معهم عرف الشيء الذي من أجله وثب حين امتثل للأمر، لا قبل ذلك.

ولعل هناك شيئاً - بين سائر الاشياء الاخرى - جعل اسطب يسراً سجيحاً،

غير هيّاب ، ينقل خطواته فارعاً مستبشراً وقد حمل عبء الحياة في عالم مليء
ببائعي السقط الجاهمين العابسين الذين انحنى أصلاهم تحت ثقل بضاعتهم ؛ شيئاً
استخرج منه طيب مزاجه ودعابته التي تبلغ حدّ الاستخفاف بالتدين ، أما ذلك
الشيء فهو غليونه ولا بدّ . ذلك أن غليونه الصغير القصير الأسود كان كأنفه
واحداً من قسّمات وجهه الثابتة . ولا تستكثر ان يبرز من منامته في السفينة
دون أنف اذا حسبت أنه يستطيع التخلي عن غليونه ، فكلا الأمرين سواء .
ولديه صف كامل من الغلايين معبأة جاهزة قد ثبتها في لوحة مسنّنة وجعلها في
متناول يده ، فاذا دخل غرفته دخنها جميعاً على التوالي ، مشعلاً واحداً منها من
الآخر حتى النهاية ، ثم عبّأها مستأنفاً ووضعها جاهزة حيث كانت . ذلك ان
اسطب حين يرتدي ثيابه يضع أولاً غليونه في فمه بدلاً من ان يدخل رجله في
سرواله .

أقول : ان هذا التدخين المستمر قد كان في الاقل سبباً واحداً في مدّه بتلك
الصفات الخلقية الخاصة ، اذ كل امرئ يعلم ان هذاء الهواء الارضي ، سواء أكان
على البر أو على الماء ، تثقل اليه العدوى بسرعة من تعاسات لا تحصى ، نفّثها من
لا يحصرون من الاحياء الذين لقوا حتفهم ؛ ومثلما ان الناس في أيام وباء المرض
الاصفر يمشون وقد وضعوا على أفواههم مناديل مضمخة بالكافور كذلك فعل
اسطب في مواجهة البلايا والحزن التي تصيب بني الانسان ، اذ اتخذ من دخان
الطباق وقاءً يصدّه به العدوى عن نفسه .

أما الضابط الثالث فهو فلاسك من أهالي تسبري في فنيارد التابعة لمرتا .
شاب قصير القامة صلب العود ، أحمر اللون ، شرس فيما يتصل بالحيتان كأنسه
يتصوّر ان الحيتان العظمى قد أهانتة في شخصه ونسبه ، ولذلك كان إهلاكها
كلما عرضت له من سمات النخوة والأنفة . وقد فقد كل احساس بالاكبر
للعجائب الكثيرة التي تصدر عن الحيتان في حجوماها الهائلة وطرائقها الغريبة ،

ومات لديه كل خوف من الاخطار التي يمكن ان تنجم عن لقاءها حتى كان رأيہ الفائل يصوّر له أن الحوت العجيب ليس إلا نوعاً من فأر تضخم وانتفخ او لعله جرد مائي لا يتطلب منه إلا قليلاً من المخادعة وبعض الوقت والجهد كي يقتله ويشويه . هذه الشجاعة الحمقاء اللاواعية جعلته هازلاً بعض الشيء في شتوت الحيتان فهو يتبعها من أجل التفكه ، ورحلة حول رأس هورن يقضي فيها ثلاث سنوات ليست لديه الادعابة مرحة تستمر طوال ذلك القدر من الزمن . وقد ينقسم الناس في فريقين على نحو ما تنقسم مسامير النجار في قسمين : منحوتة ومصنوعة ، والى الفريق المصنوع ينتمي فلاسك ، اذ صنع لكي يثبت محكماً مشدوداً ويبقى أمدأ طويلاً ؛ كانوا يسمونه : « الدعامة الكبرى » على ظهر الباقوطة لانه في هيئته يمكن ان يشبه بتلك الحشبة القصيرة المربعة التي يطلق عليها ذلك الاسم حواتو المناطق القطبية وهي بما يزوج فيها من خشبات جانبية مستعرضة تحمي السفينة من الارتجاجات الجليدية في تلك البحار المصطفقة .

كان هؤلاء الضباط الثلاثة ، استاربك واسطب وفلاسك ، رجالاً ذوي شأن وخطر . فقد أجمع الرأي على ان يكونوا قادة ثلاثة من قوارب الباقوطة ؛ وفي التعبئة العظمى للمعركة التي قد يقود فيها آخاب القبطان جيوشه لتتنقض على الحيتان يمثل هؤلاء الثلاثة مركز القواد في الفيالق ، واذا اعتقل الجيش حراب التحويت الطويلة النفاذة كان هؤلاء ثلوثاً مختاراً من الرماحين بينا الصيادون الآخرون هم الزرّاقون .

وبما ان كل ضابط او قائد في حملة الصيد يصاحبه ، كالفارس القوطي في الازمان القديمة ، 'موجّه' للدفة في القارب او زرّاق برمحه يقدم له في بعض الاحداث والظروف سناناً جديداً اذا التوى الاول او انحنى عند الهجوم ، وبما ان الاثنين يقيان فيما بينهما صلة وثيقة وصداقة حميمة لذلك أرى من المناسب ان أثبت في هذا المقام شيئاً عن زرّاقة الباقوطة ولأي قائد ينتمي كل منهم .

واذكر منهم كويكوج اول من أذكر فقد اختاره استاريك رأس الضباط وصيفاً معاوناً . ولكنكم تعرفون كويكوج فلا حاجة بي الى التحدث عنه .

ثم اذكر طاشطيقو ، وهو هندي عريق خالص من جاي هيد ابعد قمة في فنيارد التابعة لمرتا غرباً ، حيث لا تزال آخر قرية من البحر طالما زودت جزيرة نانتوكت المتاخمة بأجرأ حواتيها الزراقيين . وهم بين الصيادين يعرفون بنسبتهم فيقال فيهم « الجايهيديون » . وطاشطيقو هذا ذو شعر مسترسل متهدل اسود ، وخدين بارزي العظام ، وعينين نجلاوين حوراوين ، شرقتين في اتساعها ، قطبيتين جنوبيتين في تعبيرهما المتألق - صفات تتحدث انه وريث الدم النقي من أولئك الصيادين المحاربين المختالين الذين جابوا ، وأقواسهم في ايديهم ، الغابات العادية في تلك الارض وهم يطاردون وعول الموطن في نيوانجلند ، ولكن طاشطيقو لما كف عن استنشاء ربح الوحوش البرية في الغابات أخذ يقص أثر الحيتان الكبيرة في البحار ، وهكذا حلّ الرمح السديد الذي يحمله الابن محل السهم الصائب الذي كان يرسله الآباء . وان انت نظرت الى العضل الاصحم في اعضائه الافعوانية كدت تؤمن بخرافات بعض البيورتان الاوائل وأوشكت ان تصدق بأن هذا الهندي المتوحش ابن امير القوى الهوائية . كان طاشطيقو وصيفاً لدى اسطب الضابط الثاني .

وثالث الزراقين اسمه دغة : زنجي متوحش فحمي السواد ضخّم له على الارض وطأة الاسد ، اذا رأيته حسبته احشويرش . يتدلى من أذنيه بُرّتان ذهبيتان كبيرتان حتى سماها البحارة « الوتدين الذهبيين » ، وتحدثوا كيف يمكنهم تثبيت حبال الصاري الرئيس بها . تطوع دغة في شبابه بالسفر على ظهر سفينة حوّاة كانت راسية عند خليج منعزل في ساحل وطنه فلم يذهب الى أي بقعة في العالم سوى افريقية ونانتوكت والمواني الوثنية التي يتردد اليها الحوّاتون ، وعاش عدة سنوات حياة الصيد الجريئة في سفن يهتم أصحابها اهتماماً فريداً بنوع

الرجال الذين يختارونهم للبحار في سفنهم، لذلك كله استمر دغة يتمتع بكل فضائله الممجية، منتصباً كالزرافة يتنقل على ظهور السفن في خيلاء امرئ فارغ الطول يبلغ ١٩٠ سنتيمتراً دون حذاء . فاذا نظر المرء اليه شعر بقهارة جسمانية، وإذا وقف امرؤ من البيض أمامه بدا كأنه علم أبيض جاء يتوسل الى عقد هدنة مع احدى القلاع؛ ومن المستغرب أن يكون دغة - احشويرش، الزنجي الطود، هو وصيف فلاسك الصغير الذي يبدو الى جانبه كأنه بينق الشطرنج . أما سائر عصابة الباقوطة فيكفي أن أقول : لا يبلغ أن يكون نصف العاملين في هذا العصر أمام الصاري في صيد الحيتان بأمريكا - وهم ألوف - من أبوين أمريكيين، بينما يكاد كل الضباط أن يكونوا أمريكيين نسباً . وفي هذه الحقيقة تتفق الحال في صيد الحيتان مع الحال في الجيش الأمريكي وفي الأساطيل الحربية والتجارية وفي قوى الهندسة التي تعمل في بناء القنوات وطرق السكك الأمريكية . أقول : تتشابه الحال هناك وهنا لأن الأمريكي الاصيل في جميع الاحوال يحود بالأفكار، وسائر العالم يقدم العضلات بسخاء . ويتنمي عدد غير قليل من بحارة التحويت الى جزائر الأزور حيث يرسو حواتو نانتوكت في أسفارهم البعيدة، ليضيفوا الى بحارتهم عدداً من الفلاحين الاشداء القاطنين على تلك السواحل الصخرية . كذلك فان حواتي جرينلاند الذين ينطلقون من هـل' أو لندن يتوقفون عند جزائر جتلند ليستكملوا عدد ملاحيم فاذا كانوا عائدین الى أوطانهم أنزلوهم في جزائرهم، ويبدو أن أهالي الجزر هم خير الحواتين وان لم أعلم سر ذلك . وقد كان معظم ملاحي الباقوطة من هؤلاء الجزريين ، وأنا أسميهم « المتأبدین »، لا أحفل بمدى اجتماعهم في صعيد، بل أعني ان كل متأبد منهم يعيش في دنياه الخاصة . وإذا احتشدوا على صعيد سفينة واحدة فأی قبيل هم ! مندوبون من أتباع الثوري أنخاريسيس كلوتز^١ جاءوا من كل جزر البحار

١ ثوري روسي فرنسي (١٧٥٥ - ١٧٩٤) كان اسمه جان بابتست فجعله أنخاريسيس ولقب نفسه « خطيب الجنس البشري » .

ومن جميع أطراف اليابسة، يصحبون آخاب الشيخ في الباقوطة ليبسطوا مظالم الكون أمام قفص الاتهام الذي لم يرجع من عنده الا القليل . بيب الاسود الصغير — أترأه عاد ؟ لا . لم يعد، وانما تقدم على الطريق. ذلك الفتى الألبامي المسكين ! على منارة الباقوطة الجاهمة ستراه قبل وقت طويل يضرب طنבורه، استهلالاً للسوقت الازلي ، حين يدعى الى الصعيد العلوي كي يشارك الملائكة عزفهم ويضرب طنבורه في مراقي المجد . اسمه هنا جبان، وهم يحيونه هناك تحية البطل .

مضت عدة أيام على مغادرتنا نانتوكت ولم يلح آخاب أبداً فوق العنابر . وكان الضباط يتناوبون المراقبة في انتظام ، ولم يبد شيء ينقض عليّ تصوّري أنهم هم الأمور الوحيدون في السفينة لولا أنهم كانوا أحياناً يصدرون عن القمرة بأوامر مفاجئة جازمة ، فكان هذا الفعل يدلني على أنهم انما يقودون السفينة بالنيابة . أجل ان « ريتسهم » الأعلى ودكتاتورهم كان موجوداً وان لم تره العين التي لم يؤذن لها أن تنفذ الى معتكفه المقدس في القمرة .

و كنت كلما صعدت الى ظهر السفينة اثر نوبة من المراقبة في الاسفل شخصت ببصري توأ الى مؤخرة السفينة لأرى ان كان هناك وجه غريب . ذلك ان قلقي المبهم إزاء القبطان المجهول كاد يصبح لديّ في عزلة البحر بلبالاً منغصاً . وأحياناً كان يلم بي - غير مأذون - الهذيان الشيطاني الذي سمعته من ايليا الرثّ القشيف فيزيد في بلبالي على نحو غريب ، ويشتد بي التوجس على وجه لم أتصوّره من قبل . وفي مثل تلك الاحوال لم أكن أستطيع مقاومة ذلك الهذيان الشيطاني مثلاً أني كنت في لحظات اخرى أتبسم من تلك التخيلات الكثيبة التي أرسلها على مسمعي عرّافُ الارصفة الغريب .

ولكن سواء أكان ما أحس به هو التوجس أو الانزعاج - ان صحت تسميته كذلك - فاني كلما كنت اتلفت حولي في السفينة كان يبدو لي ان استحواذ هذه المشاعر عليّ لا يجيد له مسوغاً ؛ نعم ان الزرّاقين وسائر هيئة البحارة كانوا

أشد هجية ووثنية واختلاطاً من أي فريق صحبته على السفن التجارية وتعرفت إليه في تجاربي السابقة، ومع ذلك فاني كنت أعزو هذه المشاعر - وبحقٍّ ما أعزوها - الى التفرد الفذ في طبيعة تلك الحرفة الاسكندنافية التي أسامت إليها نفسي . ولكن منظر الضباط الثلاثة في السفينة كان أقوى معتمد لي لتبديد هذه التوجسات الباهتة واستثارة الثقة والاستبشار في كل مرحلة من مراحل سفرتنا . ليس من السهل أن تجد ثلاثة رجال أو ضباط بحر، لكل امرئ منهم سبيله الفذ، خيراً منهم . وكل واحد فيهم أمريكي النسبة احدهم من فانتوكت والثاني من فنيارد والثالث من «الرأس» . ولما أن كنا في فترة عيد الميلاد حين انطلقت السفينة من الميناء فقد سرنا مسافةً في جو قطبيّ قارس، وان كنا انما نهرب من هذا الجو طوال الوقت متجهين جنوباً، وكلما قطعنا درجة أو دقيقة من تلك العروض خلفنا الشتاء الغشوم وجوّه الراهق من ورائنا تدريجاً . وفي صباح يوم قليل الاكفهرار إلا أنه ما يزال أطلس متجهماً، في فترة الانتقال من المناخ البارد، والسفينة تجري في ريح رخاء وتشق عباب الماء في وثبات شامته وسرعة أسيانة، صعدت الى ظهر السفينة تلبية لدعاء نوبة الحراسة قبل الظهر وصوبت نظري نحو أعلى الكوثة . اعترتني قشعريرة تنذر بالشرّ . جاز الواقع حدود التوجّس . أمامي على ظهر السفينة يقف آخاب القبطان .

لم تبد لي فيه أية دلالة على مرض جسماني ، ولا على نقاهة منه . بدا لي كأنه امرؤ استنقذ من النار بعد أن ربط الى السارية ليحرق، وكانت النار قد سفعت الأعضاء دون أن تلتهمها ودون أن تفني جزءاً واحداً من عنقوانها المعمر المجدول . وبدأت بنيته الشاخة المستعرضة كأنما هي مصنوعة من البرونز الصلب وقد جبلت في شكل لا يدركه التغير كأنها تمثال بريسوس الذي صبّه تشليني^١،

١ تمثال بريسوس يحمل رأس مدرزا في فلورنسة من البرونز صنعه بنيفنوتو تشليني (١٥٠٠-١٥٧١) .

واذا نظرت اليه رأيت وسمّاً دقيقاً كأنه اثر سفود، بين البياض والدكنة ، وقد اتخذ طريقه بين شعره الأشيب واستمرّ نازلاً عن اليمين على احد جانبي وجهه ورقبته اللذين سفعتها الشمس ودبعتها، حتى غاب تحت ملابسه . وهو يشبه ذلك الأثر العامودي الذي يرتسم أحياناً على جذعٍ مستقيم عالٍ من شجرة ضخمة حين ينفذ فيها سهم من البرق العلوي فيشقها، فيسحج اللحاء ويشقه من الرأس الى القاعدة قبل أن يغور في الثرى ، غلفاً الشجرة حية خضراء إلا أنها موسومة دون أن يلوي منها غصناً . هل ولد آخاب يحمل تلك السمة ؟ هل كانت ندباً خلفه جرح رغيّب ؟ ما من أحد يعرف وجه اليقين في ذلك . ولكن كأنما أجمع القوم ضمناً ، وبخاصة الضباط، على أن لا يلحوا اليها خلال الرحلة كلها، إلا أن رئيس طاشتيقو وهو هندي شيخ جايبهدي بين البحارة، أكّد ذات مرة توهاً أن آخاب لم ينل ذاك الوسم إلا بعد أن استكمل الأربعين، وأنه أصيب به في كفاح مع قوى الطبيعة في البحر لا في غمرة عراك بين آدميين . لكن نفى هذا التاميح المفتشت نفيّاً ضمناً تاميح آخر أورده شيخ ثانٍ من جزيرة مان، عجوز خفيض الصوت لم يبحر أبداً من نانتوكت ولم تقع عيناه على آخاب قبل ذلك . ومع ذلك فإن التقاليد البحرية القديمة والمعتقدات العريقة زوّدت هذا الشيخ بقوى خارقة للطبيعة في المكاشفة . فلم يكن أي بحار أبيض ليناقضه مناقضة جادة حين قال : إن صحّ للقبطان آخاب أن تسجى جثته كمن يموت حتف أنفه، وهذا ما لا أكاد أقول بمحدثه (وتتم بهذه الكلمات في خفوت) فإن من يغسل جثته سيرى سمة الولادة تمتد من رأسه الى أخمص قدمه .

أثرت فيّ طلعة آخاب الجاهمة والوسم الداكن الذي يمتد فيها تأثيراً بليغاً، حتى كدت في اللحظات الأولى أغفل عن أن قسطاً غير ضئيل من جهامته المتشاحنة إنما يعزى الى رجله الهمجية البيضاء التي ألقى عليها جانباً من ثقله . وقد سبق لي أن تصوّرت أن هذه الرجل العاجية قد قدّرت له في البحر من العظم الصقيل المنتزع من فك حوت العنبر . وذات مرة قال الشيخ الهندي

الجامعيدي : « نعم تحطم صاريه بازاء اليابان ولكنه « ركب » لنفسه صارياً جديداً قبل أن يعود الى الوطن ، مثلما فعلت سفينته حين تكسرت صواريخها ، نعم . لديه خُرُجٌ من هذه الصواري . »

ولفتني وقفته الفريدة التي اعتمدها . في كل جانب من جانبي ظهر الباقوطة خلف الدقل الأعظم قريباً من أسرع المظين ثقب حفر بالثقاب ، سعتة نصف بوصة في المينة ، وقد ثبت آخاب رجله السليمة في واحد من تلك الثقوب ، وجعل احدى ذراعيه مرفوعةً ممسكةً بطرف المظين ، ووقف منتصباً ينظر على مدي مستقيم وراء مقدم السفينة المترنح على الدوام . وفي تلك النظرة المسددة الجريئة المعلقة بالاتجاه الأمامي يتجلى قدر لا يحد من البأس الركين والصلابة الحازمة التي لا تهن ولا تلين . لم ينطق بكلمة ، لم يحدثه ضباطه بشيء ، وانما دلت أدق حركاتهم وتعبيرات وجوههم على أنهم يعانون ادراكاً قلقاً ، ان لم أقل مؤلماً ، بأن الرقيب المسلط يلحظهم بعين كدرة . وليس ذلك فحسب بل إن آخاب ذا المزاج المتقلب وقف أمامهم واللم قد ارتسم على وجهه ، في غطرسة وصيْد ملوكي ثقيل ، لا أجده له اسماً دقيقاً ، كأنه ويل وويل .

ولم يطل به الوقوف أول مرة في العراء فانسحب الى قمرته . ولكنه كان بعد ذلك الصباح يبرز كل يوم ويراه الملاحون إما واقفاً مثبتاً رجله في الثقب المحوري وإما جالساً فوق مقعده العاجي او متخبطاً على ظهر السفينة بوطء ثقيل . ولما أخذت جهمة السماء تنقشع ، أي بدأت تظهر البشر والسماحة بعض الشيء ، أخذ آخاب يقلل من اعتكافه وعزلته ، كأنه لم يفرض عليه العزلة حين اقلعت السفينة من مرساها إلا زمهرير البحر الشتويّ المرير ، ورويداً رويداً أصبح يبرز دائماً أو غالباً ولكن كل ما قاله وما فعله في الواقع على ظهر السفينة حيث انسكبت أشعة الشمس أخيراً جعله يبدو لي حشواً زائداً حيث هو كأنه دقل آخر . إلا أن الباقوطة كانت تنخر البحر حينئذٍ ولم تكن تتجول تجوالاً

منتظماً وكان الضباط ذوي كفاية تامة للاشراف على معظم المعدات والاعدادات اللازمة للتجويات، فلم يكن هناك شيء يستدعي جهود آخاب أو يستثيره للعمل فان وجد شيء من ذلك فهو قليل. وهكذا أخذ يبدد - حينئذ - تلك السحب التي كانت قد تكدست، كومة فوق كومة على جبهته، مثلما أن الغيوم جميعاً تختار أعلى القمم لتحتشد من فوقها .

ومع ذلك، لم يمض وقت طويل حتى استطاع الاغراء الدافئ الناغم في ذلك الجو الممتع المتهلل الذي وقعنا في نعيمه أن يغير مزاج آخاب تدريجاً . ان الغادتين الراقصتين الورديتين الحدود، أعني نيسان ونوار، حين تعودان الى الغابات الباردة الناقمة المكفهرة، ترحب بمقدمهما اكبر سندية شائخة جاسية عريت من الورق وشققتهما الصواعق، وترسل في الأقل بضعة عساليح خضر احتفاءً بالقادمتين الجذلتين، كذلك استجاب آخاب في النهاية الى الاغراءات المرحية التي حملها ذلك النسيم اللعوب . وقد انتحل غير مرة برعماً باهتاً من نظرة لو أتيح لرجل غيره لتفتح تواءاً عن ابتسامة .

مضت بضعة أيام منذ أن خلفت الباقوطة الجليد وجباله من وراء ظهرها ، وأصبحت تتدحرج في ربيع كيتو المشرق ، وهو فصل يكاد يهيمن أبداً في البحر على أعتاب آب (أغسطس) الخالد في المناطق الاستوائية . وأصبحت الأيام المنعشة الصافية الناعمة العبقة الفيضة الوفيرة كالكتؤوس البلورية التي تترع بالاشربة الفارسية - تطفح بالماورد وتقدم أفواهاها بالثلوج . والليالي البهية المرصعة بالنجوم كأنهن السيدات المختالات في الحبرات المزينات بالجواهر يتعلان في خيلائهن المتوحدة بذكري بعولتهن السادة الذاهبين في ميادين الفتح والغلبة ، وما أولئك السادة سوى الأيام المشمسة المقنعة بالخوذ الذهبية . فمن كان يريد النوم تحير ايها يختار : أتلک الأيام الجميلات أم تلك الليالي المغريات . ولكن فنون السحر في ذلك الجو السرمدم تتحف العالم الخارجي فحسب بتعاويذها وحيويتها الجديدة بل تغلغل رقاها الى الروح وبخاصة حين كانت تحل الأمسيات الوديمة ، عندئذ تطلق الذكريات بلوراتها مثلما يتكون الجليد الصافي في الشفق الصامت . وكل هذه المؤثرات اللبقة تسالت الى بنية آخاب .

غير أن من علت سنه يظل صاحباً يأبى الرقاد ، كأن المرء كلما طالت بالحياة صلته نفر من ممارسة اي شيء يشبه رقدة الموت . وأمتار البحر الشيوخ ذوو اللحى الشمطاء هم الذين يغادرون أسرتهن ليزوروا ظهر السفينة المجلب بالظلام . وتلك هي حال آخاب ، إلا أنه في الأيام الأخيرة كان يبدو كأنما يعيش في الهواء الطلق ، حتى لتقول انه كان يلم بالقمرة زائراً وكانت زيارته لها

لما ، اذا أنت قست مكثه فيها الى مكثه فوق الألواح الخشبية . وربما كان يتم لنفسه : « حين ينزل قبطان مسن مثلي الى هذه الناروزة الضيقة فكأنما ينزل الى قبره ، إني أحس كأني أذهب الى لحد يسمونه سريراً » .

ففي كل أربع وعشرين ساعة تقريباً ، حين تنصب الحراسة الليلية ، ويقوم الفريق الموجود على ظهر السفينة بالسهر على نوم الفريق في الأسفل ، حتى لو أن حبلاً كان يحتاج أن يسحب على المنارة لما ألقى به البحارة الى الأسفل في جفاء وخشونة كما يفعلون أثناء النهار ، وانما يسقطونه الى مستقره في حيطه وحذر لئلا يزعج رفاقهم النائمين ، أقول : حين يبدأ هذا النوع من السكينة ينسحب على الوجود ، في المعتاد ، يحرس ربّ الدفة الصامت ناروزة القمر ، ولا يمضي وقت طويل حتى يبرز منها الرجل الشيخ وهو يتشبث بالدرابزين الحديدي ليعين رجله على مشيتها الطالعة . كانت فيه لمسة من الانسانية ترعى مشاعر الآخرين ، اذ كان في مثل هذه الساعات يأبى في العادة ان يعتسّ على ظهر السفينة وراء الدقل الاعظم ، ذلك ان ضباطه المنهوكين الذين أخلدوا الى الراحة على بعد ست بوصات من كعبه العاجي قد تطيش بألبابهم أصداء الصلصلة والصرير المنبعثة من تلك الخطوات العظيمة حتى ليرون في منامهم أنياب حيتان القرش وهي تصطك . وذات مرة كانت السوداوية قد استغرقت فأنغلته عن رعاية مشاعر الرفاق ، وذهب يذرع السفينة من أعلى الكوثل حتى الدقل الاعظم بخطى ثقيلة كأنها صخر يتقلّص ، واذا ذاك طلع الضابط الثاني اسطب من أسفل وألح في دعابة مترددة مستنكرة معاً ان القبطان آخاب ان كان يعجبه « المشي على الخشبة »^١ فلا أحد يستطيع ان ينكر عليه ذلك ، ولكن قد تكون هنالك

١ to walk the planks في العبارة قورية ، فقد كان آخاب يمشي على خشب السفينة ، كما أن المشي على الخشب عقوبة يستعملها القراصنة في السفن اذ يجعون شخصاً يمشي على الخشبة ثم يزلونها تحت قدميه حتى يهوي في البحر .

وسيلة صالحة لكم الصوت وإخامده ، وألمح في غمغة وتردد الى كرة من القنّب
يلبّس بها الكعب العاجي . ويلك يا اسطب ! انك لم تكن تعرف آخاب
حينئذٍ .

قال آخاب : « أنا قنبلة مدفع يا اسطب حتى انك تريد ان تحشوني
كذلك ؟ لا بأس قل ما تريد فأنا قد نسيت . أهبط الى قبرك السفليّ المظلم فاذا
اندست بين أكفانك ، اتخذناك في النهاية كبة غزل . أهبط ايها الكلب
وانجحرجر » .

انعقد لسان اسطب لحظة حين أفزعته الخاتمة غير المتوقعة في كلمات الشيخ
الذي انقلبت لهجته فجأة الى سباب وتحقير ، ثم قال في انفعال : « لست متعوداً
ان يوجه اليّ الكلام بهذه اللهجة يا سيدي ؛ لقلّما أطيع مثل هذه اللهجة
يا سيدي » .

— « صه ! ذلك هو الصوت الذي صرّت به أسنان آخاب وتحرك بعنف
مبتعداً كأنما يريد ليتجنب حوافز الهياج .

فتجراً اسطب وقال : « لا يا سيدي ، على رسلك . لا أريد أن أدعى كلباً ،
استذلالاً » .

— « اذن فليقل لك عشر مرات انت حمار وبغل وأتان ؛ وانقشع والا
كنستك من العالم جملة » .

وفيما هو يتلفظ هذه الكلمات اقترب من اسطب وفي طلعتة مفزعات مروعة
حتى ان اسطب تراجع من وجهه لا إرادياً .

فتمتم اسطب وقد وجد نفسه يهبط الى ناروزة القمر : « لم يعاملني أحد

هذه المعاملة من قبل دون ان اردّ عليها بالمثل . هذا غريب . قف يا اسطوب . لا أدري أأرجع فأضربه أم ... ما هذا ؟ — أركع على ركبتيّ وأتوسل اليه داعياً ؟ نعم ، هذه هي الخاطرة التي عنّت لي . ولكنها تكون أول مرة أركع فيها داعياً مصلحاً . غريب ، غريب جداً ؛ وهو رجل غريب أيضاً . نعم خذه من أساسه الى راسه ، يكاد ان يكون أغرب شيخ أبجر اسطوب معه . يا لله كيف اندفع نحوي ! عيناه كخزانتي البارود في البندقية ؛ أهو مجنون ؟ على اي حال به مسّ وهذا أمر اكيد مثلما ان ظهر السفينة لا يقعقع إلا ان يكون فوقه شيء . ثم هو لا يستلقي في سريره هذه الايام إلا ثلاث ساعات من أربع وعشرين ، ولا يغفو في اثناهما . ألم يخبرني خازن المؤن ، الغلام العجّان انه في الصباح يجد فراش أرجوحة الرجل العجوز كله معكوكاً مقلوباً والملاءات قد لبكت عند آخر السرير ، والغطاء يكاد ان يكون ملوياً مثنيّاً في عقد ، والوسادة ساخنة سخونة مفرغة كأن آجرة محماة كانت فوقها ؟ عجوز حار حاد . أظن لديه ما يسميه بعض الناس على البر ضميراً ، ويقولون انه نوع من الاختلاج النورالجي ، أسوأ من ضربان الضرس . طيب . لا بأس . أنا لا أعرف ما هو ولكنني أسأل الله ان يحميني من عدواه . وهو مليء بالألغاز ولا أدري سرّ ذهابه الى العنبر الخلفي كل ليلة حسبما حدثني الغلام العجّان وقال انه يظن انه يذهب هنالك . لم يذهب ؟ أريد ان أعرف . من الذي يعبده اللقاء في ذلك العنبر ؟ أليس هذا عجباً ؟ ولكن لا أحد يدري . ها هنا تستمر اللعبة القديمة — يذهب لينال غفوة . عليّ اللعنة ، جدير بنا ان نأتي الى هذا العالم حتى ولو لم يكن نصيبنا منه الا ان نطرح ناثنين . وها انا يخطر لي هذا الأمر ، وهو اول شيء يعمله الطفل حين يولد ، وهذا شيء غريب ايضاً . عليّ اللعنة ، لكن كل الاشياء غريبة حين نفكر فيها إلا أن التفكير في الامور ضد مبادئ . « لا تفكر » تلك هي الوصية الحادية عشرة التي انقاد لها . « نم حينما تستطيع » هي الوصية الثانية عشرة — هكذا إذن . ولكن كيف ؟ ألم يدعني كلباً ؟ المشنوع ! ودعاني عشر مرات حماراً وكدّس فوق ذلك كله مجموعة من الأتق ، كان في مقدوره ان

يرفسني ويتمم منظر الحمير . لعله رفسني ولم أشعر فقد أفزعتني جبهته بعض الشيء ، اذ أومضت كأنها عظمة مغسولة . يا للشيطان ما بي ؟ انا لا أقف منتصباً على رجلي . اصطدامي بذلك العجوز قد خلط كياني . تالله كنت أحلم . كيف ؟ كيف ؟ كيف ؟ – لكن الطريقة الوحيدة ان أكنم الأمر . الى السرير إذن . وفي الصباح أرى كيف تلوح للفكر هذه الفعلة الاحتمالية المزعجة » .

الغليون

حين انصرف اسطب وقف آخاب هنيهة منحنيًا على جدار السفينة ثم استدعى ، كما أصبحت عادته في الايام الاخيرة ، احد بحارة النوبة وأرسله الى القمرة ليحضر له مقعده العاجي وجليونه . وأشعل الغليون من المصباح الموضوع عند صندوق الابرّة المغناطيسية ، وثبت المقعد مستقبلاً الريح وجلس يدخن .

تقول الأسطورة ان عروش الملوك الدنماركيين المغمرين بالبحر في غابر أيام الامم الشالية كانت تصنع من أنياب النّورل . فكيف يستطيع أمرؤ ان ينظر الى آخاب حينئذٍ وقد جلس على ذلك المقعد المصنوع من العظام دون ان تخطر له السمة الملكية التي يمثلها . كان آخاب خاقان سفينة ، وملكاً على البحر ، وسيداً عظيماً على الحيتان .

مضت بضع لحظات انطلق فيها الدخان من فمه في نفثات سريعة مسترسلة ارتدت الى وجهه ، وأخيراً أخذ يناجي نفسه وقد سحب الغليون من فمه : « ما لهذا الدخان لم يعد يهدثني . آه يا غليونني ! ستكون حياتي عسيرة اذا تلاشى سحر كعني ؛ ها هنا كنت أجهد دون وعي ، من غير استمتاع ، أجل ولجولي جعلت أدخن ضد الريح طول الوقت . ضد الريح وبمثل هذه النفثات العصبية كأن نفثاتي الاخيرة هي أقوى النفثات وأحفلها بالاضطراب ، شأني في ذلك شأن الحوت المحتضر . ما شأني بهذا الغليون ؟ هذا الشيء الذي يراد

للتسكين ، لإرسال أبخرة لطيفة بيضاء بين شعرات بيض لطيفة لا بين خصل في
دكنة الحديد مثل خصلي . سأكف عن التدخين .

قذف بالغليون الذي ما يزال مشتعلًا في البحر^١ ، وسمع حسيس جمرته بين
الامواج ، وفي اللحظة نفسها ضربت السفينة الحبيب الذي أحدثه الغليون
الغارق . أما آخاب فأخذ يذرع السفينة وعلى رأسه قبعة منكفئة الحوافي .

١ قد تقدم في الفصل العاشر ص: ١٠٢ كيف أن تبادل الانفاس من غليون واحد كان رمز
صداقة حيمة بين اسماعيل وكويكوج ، وها هو آخاب يقذف بغليونه في البحر وتلك اشارة على
أنه يستسلم لسيطانه ويكسر « طوق الانسانية السحري » . كان ملفل نفسه يحب التدخين فهو
يستعمله في أدبه رمزاً للراحة والاطمئنان .

في الصباح التالي دنا اسطب من فلابسك محيياً وقال :

« مثل هذه الرؤيا لم أرَ في حياتي ايها الدعامة الكبرى ؟ أنت تعرف الرجل العاجية التي يمشي بها الرجل العجوز . رأيت في المنام أنه ركمني بها، وحين حاولت أن أرد عليه بالمثل، وحياة روعي، يا رفيق، انخلعت رجلي . ثم بلح البصر ! بدا آخاب هَرَمًا وأنا آخذ في ركله كأنني أحمق مرور . وأغرب من هذا يا فلاسك - وأنت تعلم مبلغ غرابة الأحلام جميعاً - أني خلال هذه السورة الغضبية التي انتابتني رأيتني أقول لنفسي : إن تلك الركلة التي سدّدها اليّ آخاب، في آخر الأمر - ليست إهانة لي . قلت لنفسي : ما ضرّ ؟ علام كلّ هذه الحنافة ؟ هذه ليست رجلاً من لحم وعظام إنما هي اصطناعية . وبين الضربة الحية والأخرى الميتة فرق كبير . هذا هو الذي يجعل ضربة اليد يا فلاسك ، مذلة مؤلمة للمرء خمسين مرة أكثر من الضرب بالقناة . العضو الحيّ هو الذي يحدث الاهانة الحية يا بني . وأقول لنفسي طوال ذلك كله، إفهم، وأنا أخبط. أصابع قدمي الكليلة ضد ذلك الهرم اللعين، وكل شيء يحدث في تناقض مضطرب، طول الوقت، أقول : كنت أقول لنفسي : هل رجله لإقناة - قناة من عظم الحوت . وأقول أيضاً : نعم إن الضرب لم يكن إلا دعابة، في الواقع لم يكن إلا رَمْحًا بعظم الحوت لا رفسة مهينة . ثم أقول لنفسي : « بل انظر إليها مرة، الى نهايتها، أي موضع القدم، ما أصغرها . بينا لو ركمني فلاح عريض القدم، لكانت تلك اهانة شيطانية عريضة . أما هذه الاهانة فقد

استدقت واستدقت حتى أصبحت نقطة . ثم تأتي النكتة الكبرى في الحلم، يا فلاسك . بينما كنت أركل الهرم ظهر لي انسان الماء العجوز (المرمان) وعليه شعر كشعر الغرير، وله في ظهره حردبة وأمسك بي من كتفي وذبحني . كان يقول لي : ماذا تحاول ؟ تحرك أيها الرجل، ولكنني كنت خائفاً . يا لها من فراسة ! الا أني في اللحظة التالية أتيح لي أن أغلب على الخوف . « ماذا أحاول ؟ » ذلك ما قلته لنفسى أخيراً . وأي دخل لك في هذا، أود ان أعرف أيها الأحذب ؟ أتريد انت ركلة ؟ والله يا فلاسك ما كدت ألفظ هذه الجملة حتى أدار لي مؤخرته وانحنى ونزع عنه كمية من عشب البحر كان قد اتخذها تبناناً . ماذا تظنني رأيت ؟ وحق الرعد ايها الرجل كانت مؤخرته قد غرزت فيها كلها مخارز رموسها الى خارج . وقلت في نفسي بعد ان ترويت في الأمر : « اظنني لا أريد ان اركلك أيها الرفيق العجوز » فقال : « عاقل يا اسطب، عاقل يا اسطب » ، وظل يتمتم بهذه العبارة طول الوقت كأنه يتغذى من لثته مثل عفريته المدخنة . ولما رأيت أنه لا يريد أن يكف عن قوله : « عاقل يا اسطب، عاقل يا اسطب » خطر لي انني قد أنحي على الهرم ركلاً كرة أخرى . وما كدت أرفع قدمي حتى زأر : « كف عن الركل » فقلت : « مرحباً . ما المسألة أيها الرفيق القديم ؟ » فأجابني : اسمع يا هذا تعال نبحث في أمر الالهانة . ركلك القبطان آخاب . أليس كذلك ؟ فقلت : بلى لقد فعل . ها هنا وقعت قدمه . فقال : طيب . واستعمل رجله العاجية ، أليس كذلك ؟ فقلت : بلى لقد فعل . فقال : طيب يا اسطب يا عاقل من أي شيء تتذمر ؟ ألم يركلك بنية حسنة ؟ لم تكن رجلاً من الخشب المقيّر تلك التي ركلك بها . أكانت كذلك ؟ كلا بل ركلك رجل عظيم ذو رجل عاجية جميلة يا اسطب . هذا شرف . أنا أعدده شرفاً . اصغر اليّ يا اسطب يا عاقل . في العهود القديمة بالجلترا كان أعظم اللوردات يعدون من المجد الرفيع ان تصفهم الملكة وتجعل منهم أنجد الفرسان . ليكون موضع فخرك يا اسطب أن آخاب الشيخ ركلك وجعل منك امرءاً عاقلاً . تذكر ما أقوله لك : اجعله يركلك . عدّ ركلاته

شرفاً لك ولا تردّ عليه بالمثل لأنك لا تستطيع أن تعين نفسك يا اسطبط يا عاقل . ألا ترى ذاك الهرم ؟ وفجأة بدا لي على نحو غريب أنه يعموم في الفضاء ، فأرسلتُ شخيراً ، وانقلبتُ على الجانب الآخر ووجدتني في أرجوحتي . فماذا ترى في هذا الحلم يا فلاسك ؟ »

— لا أدري يبدو لي شيئاً من الحق .

— ربما ، ربما ؛ ولكنه جعلني عاقلاً يا فلاسك . هل ترى آخاب واقفاً هناك يوارب النظر من على مؤخرة السفينة ؟ خير ما تستطيع ان تعمله يا فلاسك أن تدع ذلك العجوز وحده . لا تكلمه مهما يقل لك . ويك . ها هو يصرخ فماذا يقول ؟ أنصت !

— انتم عند رأس الصاري . حددوا الابصار جميعاً . ها هنا حيتان من حوالينا . اذا رأيتم حوتاً أبيض فأنذرونا بأصوات جمهورية تشق الصدور .

— ماذا ترى في هذا يا فلاسك ؟ ألسنت ترى نقطة صغيرة من شيء مستهجن مستغرب فيه ؟ مش كده ؟ حوت أبيض ، هل أدركت هذا ؟ اسمع — في الريح شيء فريد . قف متأهباً يا فلاسك . على عقل آخاب شيء دموي . صه ! ها هو قادم نحونا .

لقد توغلنا في أحضان العباب وعمّا قليل نغيب في مدّه المترامي بلا ساحل ولا مرفأ أمين . لكن قبل أن يتم هذا ، قبل ان يتدحرج هيكّل الباقوطة المطحلب الى جانب هياكل الحوت الحليزة ، من المناسب في البداية ان نلتفت الى مسألة يكاد لا يستغني عنها من شاء أن يدرك ما يتلو من معلومات عن الحوت واشارات مختلفة اليه .

وانه ليسرني ان أقدم اليكم في هذا المقام عرضاً منظماً عن مختلف أجناس الحوت . غير أن مهمتي هذه ليست سهلة ، اذ التصنيف لا يعدو ان يكون تصنيفاً لمشمولات الفوضى ، ولا تتضمن المحاولة شيئاً أقلّ من ذلك . اصفوا الى ما قاله خير الحجج الاثبات وأحدثهم رأياً :

قال القبطان اسكورسي (١٨٢٠) : « ليس في علم الحيوان فرع اكثر تعقيداً من ذلك الذي يسمونه علم الحيتان » .

وقال الجراح بيل (١٨٣٩) : « ليست غايقي ، لو كان لي في الأمر يدان ، أن أدخل في بحث عن الطريقة المثلى لتقسيم الحيتان الى فئات وأسر . . . فالاضطراب المطلق قائم بين من يؤرخون لهذا الحيوان « (حوت العنبر) .

وهاك أقوالاً أخرى : « ضعف الاستعداد اللازم لمتابعة أبحاثنا في الأمواه

التي لا يسبر غورها» - «حجاب كثيف يعز النفاذ منه يقف دون معرفتنا عن الحيتان» - «هذا ميدان قد نثرت فيه الاشواك» - «وكل هذه الدلالات الناقصة انما تعذبنا نحن علماء التاريخ الطبيعى» .

هكذا تحدث عن الحوت كل من كوفيه العظيم وجون هنتر، ولسون، بدور علم الحيوان والتشريح . ومع ذلك فان كانت المعرفة الصحيحة منزورة يسيرة فان الكتب عديدة وفيرة ؛ وكذلك هي الحال الى حد ما في علم الحيتان . فكثيرون هم الذين كتبوا عن الحوت كباراً وصغاراً، قدامى ومحدثين، أهل برّ وأهل بحر، ومنهم من أسهب ومنهم من توخى الايجاز . تعال نعد بعضهم : منهم مؤلفو كتاب يهود، وأرسطوطاليس وبليني والدروفاندي والسير توماس براون وجستر وراي ولنايوس ورونديليتيوس ويولوي وجرين وارتيدي وسيبولد وبريسون ومارتن ولاسيبيد وبوتير ودزمارست وبارون كوفيه وفردريك كوفيه وجون هنتر واوين وسكورسي وبيل وبنت وج. روس براون ومؤلف Miriam Coffin وأولستد والقسيس ت. شيفر . ولكن ما الغاية القصوى التعميمية التي من أجلها كتب هؤلاء، ذلك ما تبينه المقتبسات السابقة .

ولم يرَ حوتاً حياً من هؤلاء المؤلفين الذين سُردت اسماءهم سوى من ذكرتهم بعد أوين ، ولم يكن فيهم حوَّات ورمّاح محترف إلا واحد هو القبطان اسكورسي فهو خير حجة في شأن «الحوت الأثين» أو حوت جرينلاند، ولكن اسكورسي لم يعرف شيئاً ولم يقل شيئاً عن حوت العنبر الكبير الذي اذا قارنت به «الحوت الأثين» وجدت هذا الثاني يكاد لا يستحق ان يذكر . ويجب أن أقرر في هذا المقام أن الحوت الاثين مقتصب يجلس على عرش البحار بل انه ليس بأية حال أضخم الحيتان وقد وطّدت له الاغتصاب سبقه الى الاستئثار بالعرش وتراخي الزمن على تنويجه، والجهل العميق الذي بقي الى ما قبل سبعين سنة يكتنف حوت العنبر ويخيّل للأذهان انه شيء أسطوري أو شيء غير

معروف اطلاقاً ، ولا يزال هذا الجهل سائداً في جميع المجالات إلا في بعض صوامع العلماء وموانئ التحويت . ان الرجوع الى جلّ الاشارات الواردة عن الحيتان لدى الشعراء العظام في الازمان الغابرة سيدلكم على أن الحوت الاثين كانت في نظرهم عاهل البحار دون منازع . وأخيراً حان الأوان لبيعة ملك جديد . وهذا هو مكان البيعة ^١ . أصغوا اليّ أيها الناس الطيبون جميعاً ! لقد عزل الحوت الاثين - وتولى العرش حوت العنبر !

ليس هناك الا كتابان يقدّمان لكم حوت العنبر الحيّ على حقيقته، ويوفقان في ذلك الى أقصى حدّ من بين جميع الكتب التي تزعم لنفسها ذلك . وهما كتاب بيل وكتاب بنت وكان كل منهما في زمنه جراحاً على سفن التحويت الانجليزية التي تراد البحر الجنوبي وكلاهما دقيق ثقة . وما في كتابيهما من مادة حول حوت العنبر ضئيل ضرورة ، ولكنها في بابها مادة من نوع ممتاز وان كانت في معظمها مقصورة على الوصف العلمي . ومهما يكن من شيء فان حوت العنبر من الناحيتين : العلمية او الشعرية غير واضح القسما في أي أدب . فلم يجد من يخطّ سيرته مع أنه يسمو سموّاً بالغاً على كل ما يصاد من الحيتان .

وتحتاج الفصائل المختلفة من الحيتان نوعاً من التصنيف الشامل المقرب للمعرفة حتى ولو جاء في شكل مسرّد ميسر بما يسد الحاجة الراهنة على أن يتولى الخلف العاملون في الميدان استكمال أبوابه والاضافة الى ما وضعه السلف ، على التوالي . وبما أنه لم يتقدم الى تحقيق هذا الأمر من هم خير مني معرفة واطلاعاً ، أراني أتقدم في هذا الصدد بجهود المتواضعة . ولست أعدكم بأن يكون عملي

١ في الاصل : هذه هي مربعة تشارنج (Charing Cross) وكانت مركز لندن منها يبدأ قياس المسافات بالأميال ومنها يعلن النداء بملك جديد .

كاملاً، فكل أمر انساني يظن فيه الكمال لا بد من أن يكون لهذا السبب عينه غير بريء من النقص والخطأ . ولست أزعج أني سأقوم بوصف تشريحي دقيق لمختلف الفصائل، أو أنني في هذا الموضع على الأقل سأسهب في الوصف . غايي هاهنا رسم مسودة من تصنيف للحيتان فأنا المهندس ولست المعمار الباني .

إلا أنها مهمة جسيمة لا يحسنها أي « فرّاز » عاديّ للرسائل في دائرة البريد . انه لأمر مخيف ان أذهب في الاعماق خلف الحيتان متحسّساً ، مخيفٌ أن يضع المرء يديه في أسس العالم الهائلة وأضلاعه وعظام حوضه نفسها . ومن أنا حتى أسعى لأعلق هذا اللويان من أنفه بصنارة ؟ لعلي أتعظ بالزواج الرهيبة التي وردت في سفر أيوب : « هل يقطع (أي لويانان) معك عهداً فتتخذُه عبداً مؤبداً ... هوذا الرجاء به كاذب » (٤١ : ٤ ، ٩) . ولكني غصت في عالم المكتبات وأقلعت في ارجاء المحيطات ، تمرست بيدي هاتين بالحيتان وأنا جاد مخلص فيما أنتويه وأود ان أحاول، ولكن لا بد من تمهيد أجلو به مسألتين :

أولاهما : ان علم الحيتان ما يزال غير يقيني ، غير مستقر على وضع حاسم ؛ وشاهدي على ذلك لأول وهلة أن بعض الجهات لا تزال تناقش في هوية الحوت : أهو سمكة أم لا . يقول لينايوس (١٧٧٦) في كتابه « نظام الطبيعة » : « بهذا أود أن أفصل بين الحيتان والأسماك » . ولكنني أعلم أنه رغم هذا التصريح الجليّ الذي أورده لينايوس ظلّ القرش والشبوط والرنجة والنوع الذي يسمى من الرنجة « انثى الآل » حتى عام ١٨٥٠ كلها تشارك اللويانان نفس البحار .

• ويورد لينايوس الاسباب التي جعلته يكاد ينكر على الحيتان ان تكون حيوانات مائية على النحو التالي : « ان قلبها حار ذو مخدعين ولها رثتان وجفنان يتحركان وأذنان مجوفتان » *penem intrantem feminam mammis* ، وقد أطلعت على هذا كله *lactantem — ex lege naturæ jure meritoque* .

صديقي "سيمون ماسي وشارلي كوفن من نانتوكت وكلاهما كان رفيق المائدة في إحدى السفرات، واتفق رأياهما على أن هذه الاسباب المقدمة غير كافية، بل أضاف شارلي يقول بلهجة جحدوية انكارية إنها أسباب من قبيل النصب والاحتيال .

وليعلم من شاء أنني نحييت الجدل جانبا وأخذت الرأي القديم القائل بأن الحوت من السمك واستنصرت يونان المقدس ليسندني في الرأي . وما دمت قد سويت هذه المسألة الجوهرية فإن النقطة التالية هي : على حسب أي اعتبار داخلي يختلف الحوت عن سائر السمك ؟ لقد قدّم لينايوس وجوه الخلاف قبل قليل وهذه هي في ايجاز : الرثتان والدم الحار بينما سائر السمك ذو دم بارد وليس له رثتان .

وثانيتهما : كيف نعرّف الحوت بمظاهره الخارجية الواضحة حتى نسمة بسمياه أينما عرض لنا في المستقبل ؟ أوجز فأقول : الحوت سمكة نفثاة ذات ذنب أفقي . هذا هو الحوت ؛ فإن كان التعريف موجزا فاعلم انه نتاج تأمل طويل . قد تقول : ان اللفظ حيوان نفثا، هذا صحيح ولكنه ليس سمكة لأنه برمائي . وإذا أخذت الشق الاول من التعريف مع الثاني، جاء مقنعا مرضيا . ويكاد كل امرئ ان يكون قد لاحظ ان جميع السمك الذي يعرفه أهل اليابسة ليس له ذنب منبسط وانما ذنبه عمودي أو منشعب . أما في السمك النفثا فان الذنب قد يتخذ هذا الشكل نفسه إلا أنه يظل أفقي الاتجاه دائما وأبداً .

ولست أقصد من هذا التعريف الذي أوردته للحوت أن انفي من حظيرة الحيتان أي مخلوق بحري وضعه في تلك الحظيرة أهل نانتوكت العارفون الحبيرون ، ولا أريد ان أزج فيها بأية سمكة يعدها هؤلاء الثقات غريبة أجنبية

على الحيتان * لذلك لا بد أن تضاف في هذا الجدول من علم الحيتات جميع الاسماك الصغيرة النفثة ذات الذنب الأفقي . وهذه هي الاقسام الكبرى في قبيل الحيتان :

اولاً : أقسم الحيتان - حسب الجرم - في ثلاثة كتب اولية (يتفرع كل كتاب منها الى فصول) وستشمل هذه الكتب جميع الاصناف من كبير وصغير . والكتب هي : ١ - الحوت من القطع الكبير ٢ - الحوت من قطع الثمن (١/٨) ٣ - الحوت من قطع جزء من اثني عشر (١/١٢) واذكر من نماذج النوع الاول ، « حوت العنبر » ، ومن النوع الثاني : « الغرمبوز » ومن النوع الثالث « البربوز أو الدوحر » .

الكتاب الاول : يحتوي - فيما يحتويه - الفصول الآتية : ١ - حوت العنبر ٢ - الحوت الاثني عشر ٣ - الحوت المزعنف او المناري ٤ - الحوت المسنم ٥ - الهركول ٦ - الحوت الازرق .

الكتاب الاول (القطع الكبير) - الفصل الاول : حوت العنبر : يعرفه الانجليز القدماء - في ايهام - باسم « إوال ترومبا » Trumpha Whale و « إوال فيستر » Physeter Whale و « الحوت الذي رأسه كالسندان » Anvil Headed Whale ويعرفه الفرنسيون اليوم باسم « القشالوط » Cachalot والالمان باسم

* انا اعرف انه حتى وقتنا الحاضر لا يزال كثير من الطبيعيين يعدون السمكة التي تسمى Lamatins والآخرى التي تسمى « الاطومسات » Dugongs (وتسميها عائلة كوفن في نانتوك باسم السمكة الخنزير Pig-fish والسمكة الخنزيرة Sow-fish) ، من جملة الحيتان . ولكن بما ان هذين النوعين مجموعة انافية مهيئة تتربص في معظم الاحوال عند مصبات الانهار وتفتدي بالتن المبلول ، وبما أنها لا ينفشان ، لذلك افكر عليها النسبة الى الحيتان وقد قدمت لها جوازي سفرهما كي يغادرا مملكة علم الحيتان .

Pottsfich ويسميه العلماء « مقروقفال » Macrocephalus . وهو دون ريب أضخم من يقطن هذه الكرة الارضية ، وأشد الحيتان التي يواجهها الانسان إخافة ، وأجلتها منظرأ ، واكثرها في التجارة قيمة اذ هو الحيوان الوحيد الذي تؤخذ منه المادة القيمة التي يسمونها زيت العنبر Spermaceti . وسأفيض القول في خصائص هذا الزيت في مواضع أخرى كثيرة . اما في هذا المقام فأكثر ما يهمني هو اسمه . فاذا اعتبرت اسم الزيت (اي Spermaceti) من زاوية فقه اللغة وجدته سخيفاً . منذ بضعة قرون ، حين كان حوت العنبر في صورته المتعينة مجهولاً او يكاد ، وعندما كان زيتته يؤخذ عرضاً من السمك الذي يطرح على الشواطىء ، في تلك الايام كان يظن ان زيت العنبر يؤخذ من حيوان صنو للحوت المعروف في انجلترا باسم الحوت الاثين او حوت جرينلاند (القاطوس) وكان الناس أيضاً يظنون ان هذا الزيت المسمى Spermaceti انما هو منى الاثين (القاطوس) لان كلمة Sperm تفيد هذا ، و ceti تعني « قاطوس » . وفي تلك الايام كان زيت القاطوس هذا بالغ الندرة لا يستعمل في الاضاءة وانما يقتصر استعماله على اتخاذه مرهماً ودواءً . ولا يحصل عليه المرء الا من الصيادلة مثلما تشتري اليوم أوقية من الراوند . وعلى مر الزمن - فيما أرى - عرفت حقيقة هذا الزيت ولكن ظل اسمه القديم مع ذلك عالقاً به لدى البائعين وذلك - دون ريب - ليوهموا أنه نادر فتزيد بذلك قيمته ، ثم نقلت التسمية الى الحوت الذي يستخرج منه ذلك الزيت .

الكتاب الاول (القطع الكبير) - الفصل الثاني : الحوت الاثين : يعد هذا الحوت من احدى النواحي اكثر أنواع اللويثان التي يحلها الانسان ويقدرها لانه أول نوع كان يصيده الانسان بانتظام . ومنه تؤخذ المادة التي تسمى عظم الحوت او البلين ، والزيت الذي يعرف بخاصة باسم « زيت الحوت » وهو مادة ضئيلة القيمة في التجارة . ويطلق عليه الصيادون جميع الألقاب الآتية دون تمييز : الحوت - حوت جرينلاند - الحوت الأدهم « حوت الجليد » - الحوت العظيم -

الحوت الصحيح - الحوت الأثين . وهناك قسط من الغموض فيما يتصل بهوية الأنواع التي تطلق عليها هذه الاسماء . فما هو هذا الحوت الذي أضعه ثانياً في الكتاب الاول من هذا التصنيف ؟ هو الذي يسميه علماء التاريخ الطبيعى من الانجليز باسم «السبلحوت العظيم» Great Mysticetus ويسميه حواتو الانجليز حوت جرينلاند ، وحواتو الفرنسيين باسم البلينة العادي ، والسويديون باسم بال جروفلاند Growlands Walfish . وهو الحوت الذي كان يصيده الانجليز والهولنديون على مدى القرنين الماضيين في البحار القطبية الشمالية . وهو الذي طارده الصيادون الامريكيون في المحيط الهندي وعلى ضفاف البرازيل وعلى الشاطئ الشمالي الغربي وجهات أخرى مختلفة من العالم سموها مناطق صيد الحوت الاثين .

ويزعم بعضهم أنه يجد فرقاً بين حوت جرينلاند لدى الانجليز والحوت الاثين لدى الامريكيين ، ولكنها يتفقان اتفاقاً دقيقاً في الملامح الكبرى ، ولم يقدم أحد حقيقة واحدة حاسمة تقيم بينهما فرقاً أساسياً . إلا أن بعض دوائر التاريخ الطبيعى تعتمد الى التعقيد المنفرد لكثرة حرصها على التفريع الكثير القائم على فروق واهية . وفي موضع آخر سأتناول الحوت الأثين بأسهاب عند إفادة البيان عن حوت العنبر .

الكتاب الاول (القطع الكبير) - الفصل الثالث : الحوت المزعنف او المناري : أضع تحت هذا العنوان وحشاً متعدد الاسماء : فهو المزعنف Finback وذو النفثة الطويلة Tall-Spout وجون الطويل Long-John ؛ يكاد الناس أن يكونوا رأوه في كل بحر ، وهو الحوت الذي يستبين المسافرين المسافرين نفثته البعيدة وهم يعبرون الأطلسي في المراكب النيويوركية . وهو يشبه الحوت الاثين في طوله وبليته ، إلا انه أقل منه قطراً وأخف لوناً ، يقترب لونه من الزيتون ؛ ومشفراه الضخمان يمثلان منظراً يشبه الجبل اذ يتكوانان من طيات متشابكة منحرفة

ذات تجاعيد ضخمة . اما المظهر الكبير الذي يميزه وبه سمّي فهو زعنفته وهي في الغالب شيء واضح بارز ، طولها ثلاثة أقدام او اربعة تمتد رأسياً من القسم الخلفي من الظهر وذات شكل زاويّ ولها طرف حديد جداً . ولو ان الحوت اختفى فلم يظهر منه أدنى شيء لظلت هذه الزعنفة المستقلة أحياناً بارزة فوق السطح بوضوح ، وحين يعتدل البحر الى السكون وتنداح فيه التعضّنات الدائرية بعض اندياح وتقف هذه الزعنفة التي تشبه عقرب المزولة منتصبه وترسل ظلالاً على السطح المجمع فان المرء قد يحسب الدائرة المائية المحيطة بها شبيهة بالمزولة بعض الشيء ، لها ميل المزولة ، وخطوطُ الساعات المتموجة محفورة عليها . وغالباً ما يذهب الظل على هذه المزولة^١ الى الخلف ، والحوت المزعنف « غير مدنيّ » اي لا يحب الانثناء الى القطيع ، فهو يبدو كأنه يكره الحيتان مثلما ان بعض الناس يكرهون الناس . خجول ، متفرد دائماً ، على غير توقع يصعد الى السطح في أنأى البحار وأشدّها ركوداً . ونفائته المستقيمة العالية ترتفع كأنها حربة طويلة تبغض البشر ملقاة على سهل قاحل . وهب قوة عجيبة وسرعة في السباحة بحيث يتحدى أية مطاردة يقوم بها الانسان . وكان هذا اللويثان هو قابيل الطريد العنيد بين أبناء جنسه ، وقد جعل سمته ذلك الميل القائم فوق ظهره . وبما أن بلينه في فمه فان البعض أحياناً يدرجه هو والحوت الأثين في فصيلة نظرية يسمونها « الحيتان البلينية » ومنها ، فيما يبدو ، أنواع عديدة أكثرها غير معروف ؛ ويسمي الصيادون بعض أنواعها بالاسماء التالية : الحيتان ذات الأنوف المستعرضة — الحيتان المنسّرة ذوات المناقير — الحيتان المحرّبة الرؤوس — الحيتان المحدّبة — الحيتان ذوات الفك الاسفل الضخم — الحيتان ذوات الخطم .

من الهام ان أذكر فيما يتصل بهذه التسميات التي تطلق على الحيتان البلينية

١ في الاصل Ahaz-dial وذلك ناظر الى ما ورد في أشعيا ٣٨ : ٨ « ها أنا ذا أرجع ظل الدرجات الذي نزل في درجات آحاز بالشمس عشر درجات الى وراء ... » .

أنها قد تسهل الإشارة الى بعض أنواع الحيتان ولكن لا طائل في محاولة انشاء تصنيف واضح للويثان مؤسس على بلينه او حذبتة او زعنفته او أسنانه ، هذا على الرغم من أن هذه الاعضاء او الملامح — اذا اتخذت أساساً في بناء كيان منظم من علم الحيتان — بدت أصلح من المميزات الجسدية الاخرى التي تبرز مختلفة في مختلف أنواع الحيتان . أنتى ذلك ؟ هذه الملامح من بليين وحذبة وزعنفة في الظهر وأسنان : موزعة دون تمييز على جميع أنواع الحيتان بقطع النظر عما تكون طبيعة بنائها من حيث الخصائص الجوهرية الاخرى ؛ فالحذبة المسنمة موجودة في حوت العنبر والحوت المسنم الاحدب على السواء ، ثم تنقطع وجوه الشبه بينهما . وهذا الحوت الاحدب المسنم وحوت جرينلاند كلاهما ذو بليين ، ثم لا شبه بينهما بعد ذلك . وهكذا قل في الاعضاء واللامح الاخرى التي تقدم ذكرها . فاذا أخذت أنواعاً مختلفة من الحيتان وجدت تلك الملامح تجتمع او تفترق على غير نظام ؛ واذا أخذت أحد الانواع على حدة وجدت أحد الملامح فيه يشدّ عما هو عند غيره . وهذا كله يستعصي على كل تصنيف عام تتخذ فيه تلك الملامح أساساً ، تلك صخرة تحطمت عندها جهود كل عالم من علماء التاريخ الطبيعى .

وقد يظن البعض أننا اذا اعتبرنا الاجزاء الداخلية من الحوت ، أي الجانب التشريحي فيه ، فهناك على الأقل نستطيع ان نعثر على التصنيف الصحيح . وأقول : كلا . خذ الجانب التشريحي من حوت جرينلاند — مثلاً — وهناك شيء فيه أهم من بلينه ؟ وقد رأينا انه من المستحيل ان نصنف حوت جرينلاند على أساس بلينه تصنيفاً صحيحاً . واذا اعتبرت أحشاء الانواع المختلفة من الحيتان لم تجد مميزات تبلغ في نسبتها واحداً الى خمسين من المميزات الخارجية التي عدناها من قبل . ماذا يتبقى اذن ؟ لا شيء سوى ان نأخذ جسم الحوت ، بحجمه المستفيض كله ، ونتخذه أساساً في التصنيف دون تردد . وهذه هي

الطريقة الببليوغرافية التي آثرناها هنا وهي الوحيدة التي يكتب لها النجاح لأنها الطريقة العملية دون غيرها . فلنمضِ على منهجنا :

الكتاب الاول (القطع الكبير) - الفصل الرابع : الحوت المسنّم : كثيرأ ما يرى هذا الحوت على الساحل الشمالي من امريكا، وكثيرأ ما اصطيد هنالك وجرّ الى الميناء . يحمل رزمة ثقيلة كأنه تاجر متجول ، أو قد تسميه الحوت - الفيل، أو الحوت - القلعة . على أي حال لا ينفع اسمه الشائع في تمييزه لان حوت العنبر أيضاً ذو حذبة مسنمة وان كانت اصغر من حذبة هذا المسنّم . وزيته غير ذي قيمة وله بلّين ، وهو أشد الحيتان ميلا الى اللعب والمرح، فيكثر حوله الزبد المتطاير والماء الأبيض مما لا يائله فيه حوت آخر .

الكتاب الأول (القطع الكبير) - الفصل الخامس : الهر كول : لا يعرف عن هذا الحوت عدا اسمه، الا الشيء القليل . رأيتُه على مسافة من رأس هورن؛ محبٌ للعزلة، يهرب من الصيادين والفلاسفة . غير جبان إلا أنه لم يبدِ حتى الآن شيئاً من جسده سوى ظهره الذي ينتصب في شكل ربوة طويلة حادة . لينذهب في حال سبيله فلا أنا أعرف عنه شيئاً ذا بال ولا غيري .

الكتاب الأول (القطع الكبير) - الفصل السادس : الحوت الازرق : هذا ناسك آخر يحب العزلة، ذو معدة ذات لون كبريتي، انتحله دون ريب من الاحتكاك بالصخور القارية في بعض غوصاته المتعمقة . قلما يبرز للعيان . على الأقل أنا لم أره إلا في أقصى البحار الجنوبية، وهو دائماً بعيد ناءٍ بحيث لا يمكن المرء من استثبات ملاحه . لا أحد يصيده إذ يهرب مبعداً في الوثبة الواحدة بمقدار طول حبل كامل ؛ تحكى عنه أعاجيب ؛ وداعاً أيها الحوت الازرق، لا أستطيع أن أزيد شيئاً أعلم أنه صحيح عنك، ولا يستطيع ذلك أكبر المعمرين في ناتوكت .

بهذا ينتهي الكتاب الأول ويبدأ الكتاب الثاني . قطع الثمن : يضم هذا حيتاناً متوسطة الجرم قد نعدت منها في هذا المقام ١ - الغرمبوز ٢ - الحوت الأدهم ٣ - النرول أو اليأمور ٤ - الدرّاس ٥ - السفّاح .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) * الفصل الأول - الغرمبوز : أوحى تنفسه الرنان أو بالأحرى لهائه بمثل يردده أهل البر ، وهو قاطن مشهور من قطبان المحيطات ، إلا أنه لا يصنف عادة بين الحيتان لكن حين وجده معظم المؤرخين الطبيعيين يحوز جميع الملامح العظيمة التي تميز اللويثان عدوّه منها . حجمه معتدل من قطع الثمن ، يتراوح طوله بين ١٥ - ٢٥ قدماً وله محيط مشابه عند الخصر . يتنقل قطعاناً ولا يصاد بانتظام ، وإن كان زيتته كثيراً وصالحاً للاضاءة ، ويرى بعض الصيادين أن ظهوره إرهاباً بأن حوت العنبر العظيم على الأثر .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) : الفصل الثاني - الحوت الأدهم : الاسماء التي أطلقها على جميع هذه الحيتان هي الاسماء التي ألفها الصيادون وشاعت بينهم وهي أحسن الاسماء بعامّة . وحيث يتفق أن يكون الاسم مبهماً أو غير دقيق التعبير فاني سأقرر أنه كذلك وأقترح اسماً آخر . وهذا هو ما أفعله بصدد الحوت الأدهم لأن الدهمة أو السواد لون غالب على جميع الحيتان ، ولذلك سمّاه الحوت - الضبع أن شئت . هو مشهور بالشمره وبما أن الزاويتين الداخليتين من مشفره منحنيّتان إلى أعلى فانه يحمل على وجهه كلوحاً شيطانياً خبيثاً كأنه مفوسّطفليس . معدّل طوله يتراوح بين ١٦ - ١٨ قدماً ويعيش في مختلف أنواع

* لم اسم هذا الكتاب الثاني « قطع الربع » - وهو الذي يتلو القطع الكبير حجماً ؟ لأن الحيتان الواقعة في هذه الفئة - وإن كانت أصغر حجماً من الفئة الأولى - لا تزال تحمل أوجه شبه كبيرة بها . وقطع الربع عند مجلد الكتب ذو حجم ضئيل لا يحتفظ بشكل القطع الأكبر بينما قطع الثمن يحتفظ بحجم القطع الأكبر .

المناخ . وله طريقة خاصة في إبراز زعنفته الظهرية الحجناء وهي تبدو شبيهة بالأنف الروماني . وحين يكفّ أصحاب السفن عن استخدام صيادي الحيتان بما يدر عليهم ربحاً يتجه هؤلاء أحياناً الى صيد الحوت — الضبع حتى يكفلوا المئونة من الزيت الرخيص للاستهلاك في الشؤون المنزلية — مثلاً أن بعض القومة المقتصدين في المنازل والفنادق يستعملون الشحم النتن في الإضاءة حين ينفردون ويقل الرواد بدلاً من الشمع الشدي . وطبقة الشحم في هذا الحوت رقيقة إلا أن الواحد منه يقدم أحياناً ما يربو على ثلاثين جالوناً من الزيت .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الثالث — النورول : ومعنى الكلمة « الأنافي » ، وهذا مثل آخر على التسمية الغريبة التي ألصقت بهذا النوع ، ولعله إنما سمّي كذلك خطأ حين ظن من رأوا قرنه أنه أنف أحجن ؛ يبلغ طوله نحواً من ١٦ قدماً بينما يبلغ معدل قرنه خمسة أقدام ، وبعض القرون يتجاوز عشرة أقدام بل يبلغ خمسة عشر . وما هذا القرن اذا توخينا الدقة إلا نابٌ ممتد نابت من الفك في اتجاه ينزل قليلاً عن الاتجاه الأفقي ، ولا يوجد الا على الجانب الأيسر من فكه الاعلى ، وله من أجل ذلك تأثير سيء إذ يمنح صاحبه شهياً بمنظر الرجل الأعسر . ومن العسير ان نعين الغاية التي يحققها هذا القرن العاجي او الحربة ويبدو أنه لا يستعمله كما تستعمل السمكة المسيفة والسمكة ذات المنقار ما لديهما من سلاح ، وان أخبرني بعض البحارة ان النورول يستعمل قرنه بحرفة في قلب قاع البحر بحثاً عن غذاء . وقال شارلي كوفن انه يستعمله مخراقاً للجليد ، ذلك أن النورول إذ يرتفع الى السطح في البحر القطبي يحده مغلفاً بالجليد فيقطع بقرنه ويشق خلاله طريقاً ؛ ولكنك لا تستطيع أن تبرهن على صدق هذه الاستنتاجات . أما انا فأرى انه على أي وجه استعمل النورول قرنه الاعسر فانه يفيد كثيراً لو اتخذته أداة يمسك بها الكراسات حين يقرأ . وسمعتهم يسمون النورول : ذا الناب والأقرن ووحيد القرن ؛ وهو مشكل غريب حقاً على وحدانية القرن التي تكاد توجد في كل مملكة من ممالك الطبيعة الحية . وقد استنتجت من

أقوال بعض المؤلفين الرهبان القدامى أن قرن هذا الاقرن البحري كان يعد في الايام الغابرة الترياق العظيم ضد السم، ولذلك كانت مستحضراته تدر أرباحاً هائلة . وكان يقطر إلى الملح الطيار لتسعف به النسوة اللواتي يصبن بالاغواء على النحوي الذي يصنع به النشادر من قرون الغزال الذكر . وقد كان القرن يعد فيما مضى تحفة عجيبة ؛ أخبرني بلاك لتر عن عودة السير مارتن فوربشر حين رجع من تلك الرحلة ولوّحت له الملكة بس بيدها المزينة بالجواهر من نافذة قصر جرينتش^١ ، وسفينته الجريئة تنحدر مع نهر التيمس فقال بلاك لتر : « عندما عاد السير مارتن من تلك الرحلة قدّم لجلالته ، وهو راكم ، قرناً ضخماً طويلاً من قرون النرول ظلّ معلقاً مدة طويلة من بعد في قلعة وندسور » . ويؤكد مؤلف إرلندي أن آرل ليست كذلك قدم الى جلالته وهو يحني ركبتيه قرناً آخر لوحيد قرن من حيوانات البر .

والنرول طلعة بهية يشبه بها النمر الارقط فلونه العام في بياض اللبن ولكنه منقط ببقع سود مستديرة ومستطيلة . وزيته رفيع النوع صافٍ جميل إلا أن ما يوجد منه قليل وقلما يطارده الصيادون ويعيش في الاكثر في البحار حول القطب .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) الفصل الرابع - الحوت السفّاح : ما يعرفه أبناء نانتوكت عن هذا الحوت قليل فأما العالم الطبيعي فلا يعرف عنه شيئاً . وأستطيع ان أقول بناء على ما رأيته منه عن بعد انه في حجم الغرمبوز . متوحش شديد الوحشية ، يشبه ان يكون نوعاً من حوت فيجي . أحياناً يعلق بمشفر أحد الحيتان الكبيرة التي وصفت في الكتاب الاول ويظلّ متشبهاً به

١ يعني الملكة اليزابث، وقد لوحت له بيدها عندما سافر في رحلته الاولى، ثم قدم لها قرن النرول عند عودته من الرحلة الثانية .

كأنه المعلقة حتى يتردى الحيوان القوي الضخم من الانهاك ميتاً . والصيادون لا يطاردون السفاح أبداً ولم أسمع شيئاً عن نوع زيتته . قد أقف متردداً في إطلاق اسم « السفاح » عليه لأنه اسم مبهم ذلك أننا جميعاً سفاحون قتلة ، براً وبحراً ، سواء من كان منّا من صف بونا بارت أو من فئة أسماك القرش .

الكتاب الثاني (قطع الثمن) - الفصل الخامس - الدراس ١ : هذا السيد مشهور بذنبه اذ يستعمله هراوة يصك بها أعداءه . يمتطي ظهر احد الحيتان الكبرى (من النوع الاول) واذ يذهب ساجماً يشق دربه بجملته - طريقة يتبعها مديرو المدارس في هذه الدنيا . ما يعرف عنه أقل مما يعرف عن السفاح . كلاهما خارجي حتى في البحر الذي لا تحكمه شريعة .

بذلك ينتهي الكتاب الثاني (قطع الثمن) ويبدأ الكتاب الثالث (قطع الجزء من اثني عشر ١/١٢) .

قطع الجزء ١/١٢ : في هذه الفئة تقع الحيتان الصغيرة وهي جميعاً من أنواع البربوز أو الدوحر :

١ - بربوز مرحى ٢ - البربوز الجرين ٣ - البربوز الطحيني .

الذين لم يتفق لهم بخاصة ان يدرسوا هذا الموضوع قد يستغربون ان تصنف أسماك لا تتجاوز الاقدام الاربعة أو الخمسة في عداد الحيتان - وكلمة الحوت في الاستعمال الشائع تفيد الضخامة . ولكن هذا النوع الثالث حيتان حقاً اذا

١ كان حقه ان يجعله « الفصل الرابع » حسب الترتيب الذي اورده من قبل .

احتكمتنا الى التعريف الذي وضعته للحوت أعني : سمكة تنفث ولها ذنب أفقي .

الكتاب الثالث (قطع ١/٢) الفصل الاول - بربوز مرعى : هذا هو النوع الشائع من البربوز ويكاد أن يكون موجوداً في جميع انحاء الكرة الارضية ، وأنا الذي منحته هذا الاسم ، إذ هنالك غير نوع من البربوز ولا بد من استحداث شيء للتمييز بينها ؛ وإنما أسميه كذلك لانه يسبح دائماً في رعالٍ جاذلة تظل تتوَّشَّب في البحر الواسع نحو الفضاء كأنها قبعات الجماهير في الرابع من تموز (يولييه) [عيد الحرية] . والبحار يتطلع الى منظرها مستمتعاً مسروراً ، وهي مليئة بالحيوية والمرح وتنبج دائماً من الامواج التي يراوحها النسيم نحو مهبّ الريح ، فهي عصابة الفتيان التي تعيش دائماً مستقبلة الريح . ويعدها البحارة أمارة فال حسن ، انك لا تملك إلا ان تقول مرعى ثلاثاً وأنت تنظر الى هذه الاسماك الطروب فاذا لم تفعل فحالتك يرثى لها ، كان الله في عونك ، اذ ان روح المرح ليست من نصيبك . وربوز مرعى البدين الذي حسنت تغذيته يعطي جالوناً من الزيت الطيب غير ان السائل الرقيق الناعم الذي يستخرج من فكليه بالغ القيمة إذ يبعث في طلبه الجواهريون والساعاتيون . ويضعه البحارة على حجر المسنن ؛ ولعلك تعلم ان لحم البربوز طيب للأكل وربما لم يخطر لك ان البربوز ينفث ؛ نعم ان نفثته صغيرة حتى انها لا تدرك . ولكن ان صحّ لك ان ترى البربوز مرة اخرى فارقبه وسوف ترى أنه حوت العنبر في صورة مصغرة .

الكتاب الثالث (القطع ١/٢) الفصل الثاني - بربوز الجرين : قرصان متوحش ممن في وحشيته ، لا يوجد - على ما أظن - إلا في المحيط الهادي . اكبر من بربوز مرعى إلا انه يشبه في البنية العامة ؛ استثره تجده تحوّل قرشاً . قطبتُ حاجبي لمراه عدة مرات ولكنني لم أره يصاد أبداً .

الكتاب الثالث (قطع ١/٢) الفصل الثالث - البربوز الطحيني :
 اكبر أنواع البربوز ولا يوجد إلا في المحيط الهادي، حسباً بلغ اليه العلم . والاسم
 الانجليزي الوحيد الذي أطلقه عليه البحارة حتى اليوم هو « البربوز الأثين »
 لاجل أنه يوجد مصاقباً للحيثان الأثينية . يختلف بعض اختلاف في شكله عن
 بربوز مرجى إذ هو ذو محيط أقل استدارة ومرحاً . والحق أن له هيئة سيد
 نظيف أنيق، ليس له زعانف على ظهره (ومعظم أنواع البربوز ذات زعانف)
 وله ذنب جميل وعينان هنديتان حالمتان عسلية اللون، إلا أن لون الطحين على
 فمه يفسد كل هذا الجمال . لون ظهره أسود حالك حتى زعانفه الجانبية ، إلا
 أن جدّة فارقة كأنها العلامة في هيكل السفينة تطوقه من أعلى الى أسفل وتسمى
 « الخصر اللامع » وتفصل بين لونين : سواد الظهر وبياض البطن . ويشمل
 البياض جانباً من رأسه وسائر فمه فيجعله يبدو وكأنما فرّ بعد ان قام بزورة
 فاحشة الى كيس الطحين . منظر بالغ في الدناءة والطحينية ! أما زيته فيشبه
 زيت سائر أنواع البربوز .

* * *

بعد القطع ١/٢ يتوقف التصنيف، اذ أن البربوز أصغر صنف من الحيثان .
 وفي أعلى القائمة تجد الحيثان الكبرى المرموقة إلا ان هناك خليطاً من حيثان
 شرودة أو منقرضة أو شبه أسطورية أعرفها أنا الحوتات الامريكي سماعاً لا
 عياناً . وسأعدها مستعملاً الاسماء التي وضعها البحارة وقد تكون هذه القائمة
 مفيدة لباحثي المستقبل فيكملون ما بدأت به واذا اصطيد أحد الحيثان التالية
 وعوين حاله أمكن ادراجه في التصنيف الذي رسمته آنفاً ، وفي واحد من
 الابواب الثلاثة، حسب حجمه :

الحوت الذي يشبه عنق الزجاجة - الحوت الينك - الحوت ذو الرأس

الذي يشبه البودنج - حوت رأس هورن - الحوت القائد - الحوت المدفع -
الحوت القضيف - الحوت المغلف بالنحاس - الحوت الفيل - الحوت يشبه
جبل الجليد - الحوت الكووغ - الحوت الازرق . . . الخ . ويقول
الثقات من اسلنديين وهولنديين وانجليز قدماء أنه يمكن اقتباس قوائم اخرى
من حيتان لا تعرف هويتها يطلق عليها كل نوع من الاسماء الشاذة . ولكنني لا
أوردها لأنها انقرضت وأنا اَتصور أنها كانت كما تدل عليه اسمائها حافلة بالحوتية
إلا أنها أصبحت أسماء دون مدلولات .

وأخيراً : قلت في البداية ان هذا التصنيف لن يجيء في هذا المقام مستكملاً
ولعلك ترى أنني التزمت بما قلت . غير أنني أخلي هذا التصنيف الحيتاني غير
مستكمل مثلما تركت كاتدرائية كولون، والآلة الرافعة ما تزال هنالك على قمة
الجرسية التي لم تتم^١. ذلك ان المباني الصغيرة قد يتممها المعماريون الذين ابتدأوها،
أما المباني العظيمة، المباني الحق، فان حجر الزاوية فيها يترك للخلف . وقاني
الله سبحانه إتمام أي شيء وما هذا الكتاب كله إلا مسودة، لا بل هو مسودة
المسودة . وهاهنا أين الوقت والقدرة والمال والجلد !

١ زار ملفل تلك الكاتدرائية في ٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ .

مقطع الشحم

يصلح هذا الموضع لتقييد خاصية من الخصائص المألوفة على ظهر السفينة تتصل بضباط مهنة التحويت وتنشأ عن وجود فئة ضباط من الزراقين ، وهي فئة لا توجد طبعاً في اي قطعة بحرية أخرى سوى أسطول الحوالة .

مما يشهد بالاهمية الكبرى المنوطة بحرفة الزراق ان الهولنديين في أعمال الصيد منذ قرنين او اكثر لم يكونوا يعهدون بقيادة سفينة الحوالة الى الشخص الذي نسميه اليوم « القبطان » وانما كانت القيادة شركة بينه وبين آخر يدعونه سبكزندر Speksynder وهي لفظة تعني حرفياً « مقطع الشحم » وقد درج استعمالها حتى أصبحت تعني رأس الزراقين . في تلك الايام كانت سلطة القبطان قاصرة على الابحار وعلى الادارة العامة في السفينة ، أما عملية التحويت وكل ما يتصل بها فكان مقطع الشحم او رأس الزراقين هو السيد الاول فيها دون منازع . وما تزال وظيفة رأس الزراقين قائمة في السماكة الانجليزية بجزيرة جرينلاند تحت اسم محرف هو سبكسيونير ، الا ان العزة القديمة التي كانت تحف بصاحبها قضاة باهتة . فهو اليوم لا يعدو ان يكون زراقاً مقدماً ، وهو بذلك واحد من أدنى الملازمين لدى القبطان . ولكن النجاح في سفرة التحويت يعتمد الى حد كبير على السلوك الطيب لدى الزراقين ، ثم ان الزراق في الحوالة الامريكية ليس فحسب ضابطاً هاماً في القارب وانما هو في بعض الظروف (كنوبة الحراسة الليلية او في ميدان التحويت) صاحب الامر على ظهر السفينة ايضاً ؛ لهذا كله تتطلب السنّة السياسية الكبرى في البحر ان يعيش — اسماً —

منفصلاً عن الرجال الذين يقفون أمام الصاري وان يكون له من التمييز ما يجعله رئيسهم على نحو ما ، وان كانوا هم يعتبرونه في العادة صنواً لهم في المنزلة الاجتماعية .

في البحر يفرقون تفرقة فاصلة بين الضابط والرجل العادي ، فالأول يسكن في المؤخرة والثاني في المقدمة ؛ لذلك تجد الضباط في سفن التحويت والسفن التجارية على السواء يتخذون مساكنهم مع القبطان ، وكذلك في معظم الحوآت الأمريكية يسكن الزرّاقون في القسم الخلفي من السفينة ، ومعنى هذا انهم يتناولون وجباتهم في قمرة القبطان ، وينامون في موضع يفضي الى القمرة بطريق غير مباشر .

وسفرة الحوأة في البحار الجنوبية أطول سفر قام به إنسان او يقوم به أبداً . فطول السفرة وما يكتنفها من أخطار والشعور بالفائدة المشتركة الذي يسود الجماعة فكل منهم ربيعاً كان او وضعياً يعتمد في مكاسبه على الحظ المشترك لا على أجور مقدرة وكل منهم مدعو للسهر والدأب والبسالة ، أقول : كل هذه الأمور قد تولد في بعض الاحوال تراخياً في النظام المحكم باكثر مما يتصدى له النظام في السفن التجارية . ولكن ان يكن هؤلاء الحوأتون أحياناً يعيشون معاً كالأسرة البابلية القديمة في بعض الاحوال الساذجة فانهم مع ذلك كله قلما يتهاونون في شئون الآداب التي لا بد ان يراعوها وراء الدقل الاعظم — في الاقل ، ولا يتجردون منها بحال . حقاً كثيرة هي السفن النانتوكتية التي ترى فيها الربان يتخطر وراء الدقل الاعظم في عظمة تياهة لا مثيل لها في اي أسطول حربي ، لا بل انه يتطلب فروض الطاعة والولاء من حوله كأنما هو يلبس الارجوان الامبراطوري لا الكتان المهلهل الذي يرتديه البحار .

وكان قبطان الباقوطة ذا المزاج المتقلب أقل نظرائه استسلاماً لدواعي هذه

العجرفية الضحلة ؛ فلم يكن يتطلب من فروض الولاء سوى طاعة كاملة مبادرة، ولم يكن يأمر أي رجل ليخلع نعليه قبل ان يخطو وراء الدقل الاعظم ، وان يكن في بعض الظروف ، المتصلة بأحداث سأرويها بأسهاب فيما بعد ، يخاطب رجاله بالفاظ لم يالفوها سواء أكان مصدرها التواضع او التهيب او غير ذلك ، أقول مع هذه الصفات في القبطان آخاب فإنه لم يكن يتنازل ابداً عن مظاهر السيادة والآداب المرعية في البحر .

لا بل ربما لن يفوتنا ان نلاحظ في النهاية انه كان أحياناً يتخذ من هذه المظاهر وتلك الآداب المرعية قناعاً لنفسه ، ويستغلها بين الحين والحين في تحقيق غايات أخرى خاصة به غير التي وضعت شرعاً من أجلها . فأصبح النزوع السلطاني الذي يخيل ذهنه متجسداً - عن طريق هذه المظاهر - في هيئة دكتاتورية سادرة لا تقاوم ، ولولا تلك المظاهر لبقى ذلك النزوع خافياً غير مستعلن . اذ مهما يكن شأن التفوق الفكري لدى الانسان فان ذلك التفوق يعجز عن ان ينتحل سيادة ميسرة عملية على الآخرين دون عون من حيل وأساليب خارجية تكون في ذاتها دائماً متفاوتة الحظ من الخسة والدناءة . وهذا هو الذي أبدأ يضع أمراء الله العدول في امبراطوريته الكبرى بمنجاة عن كل ملابس الدنيا من دسوت ومنصات ومعارك انتخابية وغيرها فيتخلون عن الابداع الكبرى التي تتمخض عنها تلك الحيل والاساليب الخسيسة ويتركونها لأولئك الرجال الذين ينالون الشهرة عن طريق وضاعتهم وتدنيهم السحيق اذا قورنوا بتلك الصفوة القليلة من أولياء الله الزاهدين في أجداد الحياة الراضين بالستر والخمول لا عن طريق سمو أكيد فيهم يرفعهم فوق مستوى الجماهير . وحين تقوم الخرافات السياسية المتطرفة باستغلال هذه الشئون والحيل الصغيرة فانها تمدها بقدرة كبرى ، حتى انها في بعض ما يتصل بالملك من شئون لتمنح قدرة وصوله للبلهاء الاغبياء ؛ ولكن ان كان التاج المستدير الذي يطوق امبراطورية واسعة النواحي ، يستدير ايضاً محكماً حول ذهن امبراطوري كما هو الشأن في

حال القيصر نقولا^١ عندئذٍ ترك قطعان الرعاع مهينة أمام تلك السيادة المركزية المحكمة الهائلة . ان كاتب المآسي ان شاء ان يصوّر الصمود الانساني العنيد الركين في نطاقه الكامل وخطراته الفوريّ فانه لجدير به ان لا ينسى ابدًا لحة كالتي ألحمت اليها ذات أهمية بالغة أحيانًا لفنّه .

إلا أن قبطني آخاب ما يزال يتحرك أمامي في عبوسه وبذاذته النانتوكتية . وفي هذه النبذة التي لمست فيها جانب الاباطرة والملوك عليّ ألا أخفي أنني سأتعامل مع حوات مسكين عجوز مثله ، ولذلك فاني محروم من كل زينة ملكية ظاهرة ، ومن كل ما يعلق بها من حواش وأسباب . آه يا آخاب ! كل شيء عظيم فيك يجب ان يُتَخَطَف من الفضاء ، او يفاص عليه في الماء ، او يتجسد في الهواء اللاجسداني .

١ نقولا الاول امبراطور روسيا (١٨٢٥ - ١٨٥٥) مثال موفق على الاستبداد المطلق حتى عرف باسم القيصر الحديدي .

المائدة في القمرة

الوقت ظهراً ؛ وأمين المؤن ذلك الغلام العجان ذو الوجه الشاحب ، كأنه رغيف خبز ، يبرز من ناروزة القمرة ، ويعلن لسيده ومخدومه ان قد حان وقت الغداء . وسيده جالس لواذاً من الريح يرقب الشمس ، ويحسب صامتاً موقع المكان على المصورّ الاملس الذي يشبه في شكله المدالية ، وهو يحتفظ به لتلك الغاية اليومية على الجزء الاعلى من رجله العاجية . واذا اعتبرت استغراق آخاب في ذهول تام عما أعلنه أمين المؤن ظننت ان ذلك الرجل المتقلب المزاج لم يسمع ما قاله خادمه . ولكنه يمكّ توأ بأشعة المظين ، ويطوح بنفسه على ظهر السفينة ، ويقول بصوت مستوٍ غير مبتهج « الغداء ، يا سيد استاربك » ثم يختفي داخل القمرة .

وحين يتلاشى آخر صدى لخطوات السلطان ، ويقتنع استاربك ، الامير الاول ، ان سلطانه قد أخذ مجلسه على المائدة ، ينهض من سكيته ، ويدور بضع دورات على الألواح الخشبية ؛ وبعد أن يلقي نظرة رزينة على صندوق الابرة المغناطيسية يقول بصوت فيه مسحة من التهلل « الغداء ، يا سيد اسطب » ، ويهبط في الناروزة . ويتسكع الامير الثاني فترة حول الحبال ، ثم يهز حلقة الرباط الرئيسي بخفة ليرى ان كان ذلك الحبل الهامّ على حال جيدة ؛ ويحمل على عاتقه العبء القديم فيقول في عجلة : « الغداء ، يا سيد فلاسك » ويقتفي آثار سلفيه .

غير ان الامير الثالث وقد وجد نفسه وحده وراء الدقل الاعظم كأنما يحس بأن عبثاً جائئاً انزاح عن صدره ، فهو يوزع الغمزات المتفهمة في جميع الجهات ، وينفض مذكرويه ، وينفخ في المزمار القرني نغمة حادة لا ضجيج لها ، فوق رأس « الباب العالي » ثم في خفة رشيقة يقذف بقبعته على قمة الصاري المظين متخذاً لها منه رفثاً ، ويجر رجله هابطاً ، ما دام على الأقل بعين الرائي الواقف على ظهر السفينة ويعكس ما يجري في المواكب حين تتخذ موسيقى الختام في البداية . غير ان فلاسك الصغير ، قبل ان يخطو الى باب القمرة ينتحل وجهاً جديداً ، ويدخل حضرة الملك آخاب في صورة القن او العبد بعد ان كان حراً مرحاً .

في تقاليد البحر أشياء غريبة تولدها شدة التصنع والتكلف ، وليس أقلها غرابة ان يكون بعض الضباط في الهواء الطلق فوق ظهر السفينة اذا هم استشيروا جرماء يتحدثون أمرهم ؛ حتى اذا جعلت هؤلاء الضباط أنفسهم في اللحظة التالية يهبطون الى مائدة الغداء ، في قمرة ذلك الأمر نفسه ، فما أسرع ما تناث جرائهم ، فاذا هم يلبسون وجوه المسالين ان لم أقل هيئة المسكنة والانخذال ، حين يجلس أمرهم على رأس الطاولة . هذا عجيب وأحياناً يكون مبعث هزل وسخرية . من أين جاء التباين في الحالين ؟ أهنالك مشكلة ؟ لعلها ليست كذلك . حين يكون المرء بليشاصر ملك بابل ، وحين يكونه في الدماعة لا في الخيلاء ، فذلك يعني وجود مسحة من العظمة الدنيوية . ولكن من يتصدر مائدة غدائه بروح ملكية ذكية ومن حوله ضيوفه فان سلطانه الذي لا يبلغ شأوه أحد ، ونطاق نفوذه حيثئذٍ ، والملوكية التي يتبجح فيها ، كل تلك الشئون تفوق ما كان لدى بليشاصر من سلطان ونفوذ وملوكية لان بليشاصر لم يكن يبلغ الذروة في هذه الشئون . ومن أدب مأدبة لاصدقائه مرة واحدة استطاع ان يتذوق طعم « القيصرية » . ففي هذا العمل سحر القيصرية الاجتماعية الذي لا يستعصي على قوته أحد . وان أضفت الى هذا الاعتبار ما في وظيفة قبطان السفينة من

سيادة مفروضة ، استطعت ان تستنتج السبب في هذا اللون المتفرد الذي ذكرته
أنفأ من حياة البحر .

ترأس آخاب المائدة المرصعة بالعاج كأنه أسد بحري صامت مروّض جالس
على شاطئ مرجاني أبيض ، يحفه أشباله الحرّيون المؤدبون في آن معاً . وكل
ضابط فيهم ينتظر دوره في سكب نصيبه من الطعام . كانوا كالأطفال الصغار
في حضرة آخاب ، ومع ذلك فلم يكن في آخاب نفسه أدنى نصيب من العجرفة
المتبسطة . واحتشدت خواطرها جميعاً في بؤرة واحدة حين اثبتوا عيونهم على
سكين الرجل العجوز وهو يقطع جانباً من الصحن الرئيسي أمامه ؛ ولست
أظن أبداً أنهم دنسوا قداسة تلك اللحظة بهنة هينة من حديث حتى ولو دار
حول موضوع كموضوع حال الطقس مما لا يكلف جهداً . كلا لعمرى ! وحين
بلغت قطعة اللحم الحبيسة بين سكين آخاب وشوكته مأمنها في صحن
استاريك ، دفع اليه آخاب بصحنه فتلقى رأس الضباط نصيبه من اللحم كأنه
يتلقى صدقة ، وقطعها بلطف ، حذراً من أن تخدش السكين وجه الصحن فتبعث
حشرة مزعجة ، ومضغها دون صوت ، وازدردتها في غير قليل من الحيلة
والحذر . كانت هذه الوجبات في القمرة خشوعية تؤخذ في صمت رهيب كأنها
مأدبة التتويج في فرنكفورت^١ حيث يتغدى الامبراطور الألماني مع المستشارين
الامبراطوريين السبعة . ومع ان آخاب لم يكن يحرم الحديث على المائدة فانه
هو نفسه كان يظل أخرس صامتاً . أيّ ارتياح كان يحس به اسطب المختنق حين
كان أحد الفيران يحدث ضجة مفاجئة في العنبر ! أما فلاسك الصغير البائس فهو
أصغر الابناء وأدناهم منزلة في هذا الشمل العائلي المتعب الضجر . حصته هي
الظنايب التي كان يكسوها لحم البقر المملوح ، حصته قد تكون عظام الدجاجة

١ مدينة فرنكفورت على نهر المين ، اتخذت مقر الانتخابات الامبراطورية منذ ١٣٥٦ .

بين الفخذ والرسغ . اذ لو أن فلاسك خيل اليه ان يحتزى نصيبه من الطعام لنفسه لبدا له ان هذا أمرٌ يناظر السرقة الفاحشة . لو تقدم فتناول نصيبه من الطعام على المائدة لما استطاع دون ريب ان يحتفظ برأسه في هذا العالم الشريف . ومع ذلك فربما استغرب من عرف ان آخاب لم يمنعه من ذلك ابداً . ولو تقدم فلاسك وشارك في أخذ ما يريد فربما لم يلحظه آخاب ابداً . وأقل ما كان يدور في خاطر فلاسك هو ان يأخذ نصيبه من الزبدة . هل كان يظن ان اصحاب السفينة يحرمونه منها لانها تعقد سحنته الصافية الواضحة ؟ أكان يحسب أنه ما دام في رحلة بحرية طويلة في مياه ليس فيها أسواق فان الزبدة نوع من العلاوة لا يستحقها لأنه ملازم وحسب ؟ أياً كان السبب فان فلاسك ، واأسفاه كان امرءاً لا زبدة له !

وثمة شيء آخر : كان فلاسك آخر شخص يهبط الى الغداء وأول شخص يغادر المائدة ؛ تأمل ! من ثم كان فلاسك يلومج غداءه لضيق الوقت . كان استاربك واسطب مقدمين عليه ، وكانا يتمتعان أيضاً بحق التلكؤ في الخاتمة ، واذا اتفق ان كان اسطب الذي لا يعد أعلى من فلاسك إلا بدرجة واحدة ضعيف الشهوة للطعام وأبدى في الحال أعراضاً تدل على انه ختم وجبته ، فاحتوم على فلاسك ان ينهض وعندئذ لا يكون قد زاد على ثلاث لقم في ذلك اليوم ؛ ذلك أن التقاليد المقدسة تحرم على اسطب ان يسبق فلاسك الى ظهر السفينة لذلك أقر فلاسك ذات مرة لخلصائه أنه منذ ان ارتقى الى رتبة ضابط لم يعرف منذ تلك اللحظة شيئاً سوى انه جائع ، على تفاوت في كلب الجوع لديه . ولم يكن مقدار ما يأكله ليخلصه من الجوع ويقضي عليه بل كان ذلك القدر من الطعام يطيل عمر الجوع ويخلصه . وكان فلاسك يقول لنفسه : « الهدوء والاكتفاء شيئان قد غادرا معدتي الى الابد . انا ضابط ولكن ما أشد ما أتوق الى ان أمسك قطعة من لحم البقر في منارة السفينة كما كنت أفعل يوم كنت أقف أمام الصاري . هذه هي ثمرات الترقية ، هذا هو بطلُ المجد ، هذا هو جنون

الحياة ! ثم لو ان أحد البحارة كان ينقم على فلاسك شيئاً من تصرفاته الرسمية ، فما على ذلك البحار ، اذا شاء ان يثار منه ثأراً عريضاً ، الا ان يذهب الى مؤخرة السفينة وقت الغداء ، ويطل على فلاسك من فضاء القمرة وقد جلس في بلادة والحيرة تعقد لسانه أمام آخاب الرهيب .

كان آخاب وضباطه الثلاثة يمثلون ما يسمى « الفوج الاول » على المائدة في قمرة الباقوطة . وبعد مغادرتهم المكان في ترتيب على عكس ترتيب القدوم ، ينظف غطاء المائدة الخيشي او بالاحرى يقوم « السفرجي » الشاحب بترتيبه في دهشة وعجلة . ثم يدعى الزرقاؤون الثلاثة الى الطعام ، اذ هم الوريث لما تبقى منه ، فيحولون القمرة العالية الممتعة تحويلاً مؤقتاً الى شيء يشبه قاعة الخدم .

ما أغرب الفرق القائم بين حالين على المائدة اولاً حين تشهد الكبت والتوتر وضروب التسلط الحفي حين يكون القبطان وفوجه وثانياً حين تشهد خلو البال والسجاجة بل الديموقراطية الصاخبة التي يمارسها الزرقاؤون ، أولئك الفوج الذي يعد في منزلة أدنى من الفوج الاول . بينما كان أسيادهم الضباط في الحال الاولى يبدون خائفين من صوت حركة الفكين عند طحن الطعام كان هؤلاء الزرقاؤون يمضغون طعامهم في قابلية متفتحة حتى لتسمع للمضغ أصواتاً واضحة . كانوا يأكلون كأنهم سادة ، ويملاؤن معدهم كأنهم سفن هندية تعباً بالبهارات طول النهار . كانت شهوة كل من كويكوج وطاشطيقو الى الطعام ساعرة حتى اذا شاء ان يملأ الفراغ الذي لم تملؤه الوجبة السابقة كان على الغلام السفرجي الشاحب ان يأتيها بكتلة ضخمة من لحم البقر المقدد المملوح كأنها احتزت من جسم الثور الصلب . واذا لم يقم الغلام بعمله في عجلة ، اذا لم يذهب بين الهرولة والوثب ، لجأ طاشطيقو الى حفزه بطريقة غير حميدة ، اذ كان يقذف ظهره بالشوكة كأنه يحوت بالرمح . ومرة استولت الدعابة فجأة على دغة فحاول ان ينعش ذاكرة الغلام ، فرفعه بيده ودسّ رأسه في جفنة خشبية فارغة بينما أمسك

طاشطيقو بموساه وأخذ يرسم دائرة تمهيداً لنزع جلدة رأسه . كان ذلك الغلام الذي يشبه وجهه رغيف الخبز عصبياً رعديداً مستضعفاً ، ولد لأب خباز مفلس وأم ممرضة في مستشفى . وما الذي يناله من يرى طلعة آخاب القائمة المربعة كل حين ويشهد تلك الزيارات الدورية الصخابة التي يقوم بها أولئك المتوحشون الثلاثة سوى ان تكون حياته كلها ارتعاشة في الشفتين ! كان في العادة اذا زود الزرّاقين الثلاثة بما يريدونه هرب من قبضاتهم الى كراهه الصغير المجاور ، وأخذ يسرق النظر اليهم من مفاصل الباب حتى ينتهوا من طعامهم .

منظر يستحق المشاهدة ان ترى كويكوج جالساً قبالة طاشطيقو ، وأسنانه المحددة تواجه أسنان زميله الهندي ، وبينهما دغة يجلس على الارض لان الجلوس على مقعد يبعث برأسه الذي يشبه التابوت المحلى بالريش ، هابطاً الى جحيم السواحر ، وكلما حرك في جلسته كراديسه الضخمة جعل القمر المنخفضة تهتز كأنه فيل افريقي ينقل في سفينة . ولكن على ذلك كله كان هذا الزنجي العملاق عموفاً متقشفاً ان لم أقل متفندقاً نظيفاً . ويكاد يستحيل على امرئ مثله ان يحتفظ بحيويته منبثة في جثته المستعرضة الفخمة الرائعة الفارعة وهو يكتفي بتلك اللقم التي تعدّ نسبياً ضئيلة قليلة ؛ لكن لا ريب في ان هذا الهمجي النبيل كان يتغذى ويعب من عنصر الهواء حوله ويستنشق بوقتي منخريه النافجين حياة الاكوان الرائعة . العمالقة المردة لا يصنعهم اللحم والخبز ولا يعيشون عليها . أما كويكوج فكان اذا أكل تمطق بشفتيه على نحو همجي بدائي فأحدث بذلك صوتاً بشعاً ، حتى ان الغلام الرعديد يكاد ينظر اليه ليرى ان كانت هناك علامات من أضراره تختفي في ذراعيه الناحلتين ، وحين كان يسمع طاشطيقو يغني له لعله يتمطى حتى ترتاح عظامه ، كان الغلام الساذج يكاد يحطم المواعين المعلقة حوله في الكرار بما ينتابه من ارتعاد فالجي فجائي . وكيف يهدأ ذلك المسكين وهو يرى حجر المسن الذي يحمله الزرّاقون في جيوبهم ليشحنوا به أسلحتهم وأسلحة أخرى ، يراه وقد استخرجه كل واحد منهم على الغداء واخذ

يشحذ به سكينه محدثاً صوتاً كأنه الصريف . كيف ينسى ان كويكوج — مثلاً — ايام ان كان في وطنه تورط ولا بد في حماقات تجمع بين القتل والاحتفال بلحوم القتلى ! أسفاً ايها الغلام ، ما أشقى النادل الابيض الذي يقف في خدمة آكلي لحوم البشر . عليه ان يحمل معه ترساً لا فوطة . ولكن ما أشد سرور الغلام حين ينهض فرسان البحر الملصح ويغادرون المكان في الوقت المناسب ؛ غير ان أذنيه سريعتان الى التوهم تصنعان الاساطير فتخيلان اليه ان عظامهم الحربية تفرقع في كل خطوة كأنها سيوف عربية في أغصانها .

ومسح ان هؤلاء الهمجين كانوا يتناولون طعامهم في القمرة ، ويعيشون — اسماً — فيها ، إلا أنهم لكراهيتهم اطالة الجلوس قلما كانوا يدخلونها فيما عدا أوقات الطعام وقبل وقت النوم ، حين يجتازونها ذاهبين الى مخادعهم الخاصة .

في هذه الناحية لم يكن آخاب بدعاً بين معظم قباطنة التحويت الامريكيين ، اذ كانوا ينجحون الى اعتبار القمرات حقاً مقصوراً عليهم ، فاذا دخلها شخص غير القبطان في اي وقت فذلك من باب الحفارة والتسامح . لذلك يمكن ان يقال ان الضباط والزرّاقين في الباقوطة ، كانوا في واقع الأمر يقطنون في خارج القمر لا داخلها اذ انهم عندما كانوا يدخلونها فانما كانوا في ذلك كباب البيت الشارع على الطريق ، يدور الى الداخل لحظة ليعود بعدها الى مستقره ويظلّ ابدأ في مكانه قاطناً في العراء . ولم يخسروا في هذا شيئاً اذ ليس في القمرة ألفة الأصحاب لان آخاب كان من الناحية الاجتماعية نائياً كالعيّوق . كان محسوباً — بالاسم — في عداد المسيحيين الا انه كان مسألاً أجنبياً على دنيا المسيحية . كان يعيش في العالم كما يعيش آخر دببة جرسلي في ولاية مسوري بعد ان مهدها الانسان موطناً ، فاذا ذهب الربيع والصيف دسّ ذلك الحيوان ابن الغابات نفسه في جذع شجرة جوفاء وقضى فيه الشتاء وهو يلحس برائته ؛ كذلك كانت روح آخاب في شيخوخته المقرورة العاوية محبوسة في جذعه الجوّف تقتذي هنالك من مخالب عبوسه الكباي .

اعلى الدقل

حين طاب الجو واعتدل جاء دوري أول مرة في سياق التناوب الدوري بين البحارة، لأصعد الى قمة الدقل .

تزود قهم الصواري في معظم الحوادث الامريكية بالرجال حين تهم السفينة بمغادرة الميناء، حتى ولو كان عليها ان تبصر ١٥ ألف ميل او اكثر قبل ان تبلغ ميدان تطوافها ؛ واذا كانت تقترب من الوطن في العودة بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات او أربعاً او خمساً وفيها شيء فارغ - هب أنه دنّ - فان أعالي الصواري فيها تظل مزودة بالرجال حتى النهاية ولا تتخلي عن رجائها في صيد حوت آخر حتى تصبح أعمدة أشرعتها العلوية بين منارات المرفأ .

وبما ان الوقوف عند قهم الصواري، سواء في البرّ او البحر، عمل قديم ممتع فلا تحدث عنه في هذا الوطن باسهاب . أعتقد ان أقدم من وقفوا على قهم الصواري هم المصريون القدماء اذ أنني لم أجد في كل استطلاعي وتنقيي احداً سبقهم الى ذلك . نعم ان اسلافهم بنساء بابل قد هدقوا من بناء البرج الى ان يشيدوا أعلى قمة صارى في آسيا جميعاً او افريقيا ايضاً، ولكنهم قبل ان يسقفوها هبّت عليها ريح مرعبة من غضب الله ذهبت بتلك السارية الحجرية وأغرقتها، لذا لا نستطيع ان نقول بأسبقية هؤلاء البابليين على المصريين في هذا الصدد . وحين اقطع بأن المصريين كانوا شعباً له قوام على صواريه فانما أبني هذا القول الجازم على المعتقد الشائع بين علماء الآثار اذ يرون ان الاهرام الأولى انما بنيت

من اجل غايات فلكية ، وتلك نظرية مؤيدة بأن الجوانب الاربعة في هذه الصروح مبنية على شكل مدرج فكان أولئك الفلكيون القدامى يصعدون الى الذروة بخطوات متفاجئة ينقلون بها أرجلهم صعوداً ويهتفون اذا رأوا نجماً جديداً ، مثلما يهتف مراقبو السفن الحديثة اذا رأوا شراعاً او حوتاً على مرأى منهم . ولدينا مثل آخر فذ غير هباب على رجل من القائمين على قمم الصواري ذلك هو سمعان العامودي الناسك المسيحي المشهور في الايام القديمة ، فقد ابتنى لنفسه عموداً من الحجر في الصحراء وقضى كل النصف الثاني من حياته على قمته يرفع اليه طعامه عن الارض ببكرة ، ولم يكن ليزحزحه من مكانه ضباب او صقيع او مطر او برد ولكن ظل يواجه كل شيء الى النهاية اعني حتى قضى في موضعه . اما القائمون على قمم الصواري من المحدثين فليس لدينا منهم الا مجموعة غير حيّة ، اعني رجالاً من حجر او حديد او برونز ، وهم وان كانوا اكفاء قادرين على مواجهة النوء القاسي إلا انهم فاقدو القدرة على النداء عندما يستكشفون اي شيء غريب . منهم نابليون على قمة عامود فندوم يقف وقد طوى ذراعيه على ارتفاع ١٥٠ قدماً في الفضاء ، لا يبالي من يحكم ظهر السفينة دونه ، سواء أكان الأمر المسيطر يسمى لويس فيليب او لويس بلانك او لويس الشيطان . ومنهم واشنطون العظيم الذي يقف شاهقاً على الدقل الرئيس السامقي في بليتيمور ، وكان العمود الذي يقف عليه واحد من اعمدة هرقل ، اذ يصيب رأسه حدّ العظمة الانسانية التي قل ان يتجاوزها احد من بني البشر . ونلسون امير البحر ايضاً على رافعة من معدن المدافع يقف على قمة دقله في ميدان الطرف الأغر ؛ وكلما غلفه دخان لندن كان ذلك نفسه دلالة على ان هناك بطلاً مختبئاً اذ حيث الدخان فثم نار . ولكن واشنطون العظيم ونابليون ونلسون لا يجيبون أية صيحة تتأدى اليهم من اسفل ، حتى ولو استنخاهم الصائحون في لهفة لكي يعطفوا بحسن مشورتهم على السفن الضالة التي ينظرون اليها من عل . وقد يجوز لنا ان نستنتج بأن ارواحهم تتغلغل خلال ضباب المستقبل الكثيف وتستبصر اي شعاب صخرية وصخور يجب ان تتحاشاها تلك السفن .

وقد يبدو أمراً لا مسوغ له ان نجتمع بين القوام على الصواري في اليابسة وزملائهم البحريين في نطاق . والحق ان الحال على خلاف ذلك ويشهد بصدق ما ذهبنا اليه نبذة كتبها عبيد ماسي مؤرخ نانوكوت الوحيد فيحدثنا عبيد الجليل ان الناس في تلك الجزيرة في دور مبكر من تاريخ التحويت ، قبل ان تعد السفن بانتظام لمطاردة الصيد ، اقاموا سواري سامقة على طول الساحل كان يصعد عليها المراقبون بوساطة مراقٍ مسمرة ، مثلما تصعد الفراخ في بيت الدجاج . ومنذ بضع سنوات اقتبس حواتو الخليج في نيوزيلندة هذه الطريقة فكان المراقبون اذا ابصروا الصيد نهوا القوارب المعدة على مقربة من الشاطئ . غير ان هذه العادة أصبحت أثراً بعد عين ، فلنعد الى الحديث عن القيام الصحيح على قمة الصاري أعني على سفن التحويت في البحر : تبقى الصواري الثلاثة مزودة بالرجال من شروق الشمس الى غروبها ، ويتناوب فيها البحارة كل في نوبته (كما هي الحال عند الدفة) ويتعاقبون كل ساعتين . وحين يكون الجو في المناطق الاستوائية هادئاً فان القيام على قمة الدقل غاية في الامتاع ، لا بل انه مبعث للبهجة عند الرجل المتأمل الحالم . هناك يقف المرء على علو مائة قدم فوق ظهر السفينة الصامت متفاجّ الرجلين فوق الأعماق كأنما الصواري ركازات ضخمة ، ومن دونه ومن بين رجله تسبح أضخم وحوش البحر ، مثلما كانت السفن تمر من بين حذائي تمثال كولوسوس العملاق المشهور في رودس قديماً . هناك يقف المرء مستغرقاً في أثباح البحر المسترسلة الى ما لانهاية ، في هدأة لا تصخب فيها الا الامواج ، وتتدحرج السفينة المسحورة في تراخٍ وأناة ، وتهب الرياح التجارية الناعسة ، فيدفعه كل شيء الى أحضان النوم وتلتف حوله ، معظم الوقت في حياة التحويت الاستوائية ، وتيرة من الاسترسال الرائع الذي لا تعكره الاحداث ، فلا يسمع خبراً ولا يقرأ جريدة ولا تضلله ملاحق الصحف وأخبارها المثيرة عن مبتذلات الحياة في سورة من الهياج لا ضرورة لها ، ولا يسمع عن مآسي الأسر ولا عن كبيالات مسحوبة على مفلسين ، ولا عن تدهور

الأسهم ، ولا يشغل باله التفكير في أمر الغداء لان وجباته على مدى ثلاث سنوات مخزونة وادعة في البراميل ، وقائمة الاسعار لا تتبدل .

وقد تبلغ الساعات المختلفة التي يقضيها المرء عند قعة الصاري - في سفرة من سفرات التحويت الجنوبية تستمر ثلاث سنوات او أربعاً - اذا أنت جمعتها معاً عدة أشهر كاملات ؛ وبما قد يأسف المرء له ان المكان الذي ينفق فيه هذه الحصة الوفيرة من عمره كله خالٍ محروم للأسف من كل ما يضارع السكن المريح او من كل ما يولد اطمئناناً واستقراراً في المشاعر كالسرير او الأرجوحة او التابوت او قفص الاتهام او المنبر او العربة او اي شيء من هذه العدد والوسائل الصغيرة المهددة التي يحيد فيها المرء عزلته المؤقتة . ولعل الموطىء الوحيد الذي يحمله انما هو قعة الصاري الاشم حيث يقف على عصوين دقيقتين متوازيتين (ويكاد ان يكون هذا أمراً تتميز به سفن الحوافة) يسمونها «الحشبتان الشهمتان» . ها هنا يحس الغرّ المبتدئ في شئون المراقبة ، والبحر يتنفض من حوله ، أنه في موقف مريح كما لو انه وقف على قرني ثور . وتستطيع في الجو البارد ، دون ريب ، ان تحمل معك بيتك الى القمة وما بيتك هذا إلا معطف ؛ غير اننا اذا توخينا الصدق قلنا ان أسمى نوع من هذا المعطف لا يمثل بيتاً إلا بمقدار ما يمثل الجسد العاري ، إذ مثلما ان الروح ملصقة مُقَرَّاة داخل هيكله اللحمي ولا تستطيع ان تتنقل فيه حرّة ولا أن تغادره إلا اذا ركبت الغرر وعرضت نفسها للفناء (كالحاج الجاهل الذي يجتاز جبال الألب الثلجة شتاءً) كذلك معطف المراقب ليس فيه من صفة البيت الا انه غلاف او جلد آخر يغلفك ويحيط بك ؛ وأنت لا تستطيع ان تزج في جسدك رفاً او صندوقاً ذا أدراج ، ولا تستطيع كذلك ان تحوّل معطفك حين المراقبة الى مقصورة مريحة .

وبالإشارة الى هذا كله من المؤسف الممض ان لا تزود رءوس الصواري في سفن الحوافة الضاربة جنوباً بتلك الخيم او المنابر الصغيرة التي يغبط عليها

أصحابها ، وتسمى « أعشاش الغراب » وبها يتقي المراقبون من حواقي جرينلاند صبارة القرّ في البحار المتجمدة . للقبطان سليت ^١ كتاب مؤنس ممتع عنوانه : « رحلة بين جبال الجليد بحثاً عن حوت جرينلاند ، واعدة كشف - وهذا هدف عارض - للمستعمرات الاسلندية المفقودة التي كانت تابعة لجرينلاند في القديم » . وفي هذا الكتاب المعجيب وصف جذاب خطير الشأن لإطلاع جميع القوام على قمم الصواري على عش الغراب في « جبل الجليد » ، وجبل الجليد هو اسم سفينة القبطان سليت ، فسمّى اختراعه الجديد « عش غراب سليت » تمجيداً لنفسه ، اذ كان هو نفسه مخترعه وصاحب الامتياز الاصيل فيه ؛ وكان بارئاً من كل تواضع مضحك كاذب ، وكان يرى أننا ما دمنا نسمي أبناءنا بأسمائنا (ونحن الآباء مخترعو هؤلاء الابناء وأصحاب الامتياز الاصيل فيهم) فعلينا بالمثل ان نسمي بأسمائنا كل جهاز آخر نلده . وعش غراب سليت يشبه في الشكل أنبوبة او قطعة من أنبوبة ، مفتوح من أعلاه حيث زود بحجاب جانبي متحرك يدور نحو مهب الريح ليلتقاها في النوء الشديد عن الرأس ، وهذا العش مثبت في أعلى الصاري فاذا شئت استعماله صعدت فيه من خلال فوهة في أسفله كفوهة المصيدة . وفي الجانب الموالي لمؤخرة السفينة مقعد مريح تحته خزانة للمظلات والأقبية والمعاطف وفي الواجهة الامامية لوحة مسننة يضع فيها المرء المصوثة ^٢ والغليون والتلسكوب وغير ذلك من الحوائج البحرية . وعند ما كان القبطان سليت نفسه يقف على قمة الصاري في هذا العش الذي اختراعه يقول انه كان دائماً يحمل بندقية (مثبتة ايضاً في اللوحة المسننة) ومعها قارورة من البارود والطلقات ، من أجل ان تجفل ، اذا أطلقها ، حيتان النرول الضالة ، او الحوت

١ اسم وضعه ملفل ساخرأ ويشير به الى القبطان وليم اسكورسي الاكبر والد مؤلف « خبر عن المناطق القطبية » ، وكان اسكورسي الاكبر من أنجح الحواتين في تلك المناطق اذ قام بثلاثين رحلة ناجحة في مياه خطيرة ولم يفقد سفينة واحدة .

٢ آلة لتقوية الصوت .

الأقرون الجوّال ، التي تغير على تلك البحار ؛ ذلك لأنك لا تستطيع ان تطلق عليها النار من ظهر السفينة بسبب مقاومة الماء اما اطلاق النار عليها من عل فانه شيء مختلف تماماً . وواضح ان الوصف الذي كتبه القبطان سليت ، ليبين في اسباب أصغر ضروب المنافع التي حققها اختراعه ، كان أمراً محبباً الى نفسه وهو يطنب في تبيان كثير من الدقائق ويسلمنا الى وصف علمي دقيق لتجاربه في عيش الغراب ، فيحدثنا انه اتخذ بوصلة صغيرة أودعها هنالك لكي يحسب الاخطاء الناجمة عما يسمى « الجذب المحلي » في مغناطيس صندوق الابرّة ، وانما ينجم الخطأ عن كون الحديد الأفقي مجاوراً عند ظهر السفينة لصندوق الابرّة ، وربما كان ناتجاً في حال « جبل الجليد » لوجود كثير من الحدادين المعلولين بين بحارتها . ومع أن القبطان فطن علمي المتزعم في هذه الشئون الا أنه رغم كل نظرياته في « انحرافات الابرّة » و « ملاحظ على بوصلة السمّت » و « أخطاء تقريبيه » فانه يعلم علم اليقين انه لم ينغمس في هذه التأملات المغنطيسية العميقة انغماساً يعجزه عن ان ينجذب بين الحين والحين الى تلك الزجاجاة الصغيرة الطافحة الملففة بعناية ولطف في جانب من عيش غرابه ، في متناول ميسر لليد ؛ ومع أني في الجملة معجب كثيراً بالقبطان الشجاع النزيه العالم ، بل أوليه الحب ، إلا أني أراه قد أساء النية حين تجاهل أمر تلك الزجاجاة تجاهلاً تاماً ، وهو يرى كيف كانت صديقاً صدوقاً وندياً رفيقاً حين كان يدرس الرياضيات في الاعالي في عيش الطائر على بعد يسير من القطب ، وقد وضع القفاز في يديه والقلنسوة على رأسه .

لكن ان كنا نحن ، حوّاتي البحار الجنوبية ، محرومين من المهاد المريح في الأعالي ، لا ننال ما كان يستمتع به القبطان سليت وحواتو جرينلاند فان لدينا ما يعوض هذا الحرمان ويوازيه ويربو عليه فنحن — حوالة الجنوب — قد ننعم بالطمأنينة في تلك البحار المغرية التي نبخر غالباً فيها . وأنا أصدقك القول عن نفسي فقد كنت أصعد الجبال متلكناً متكاسلاً ، وأرتاح في القمة لأتحدث الى

كويكوج او الى اي امرىء آخر انتهت نوبته والتقيت به لدى سعودي ، ثم أرقى قليلاً فألقى رجلاً متكاسلاً فوق سارية الشراع الرئيس ، مرسلًا نظرة رائدة على المروج المائية وأخيراً أصدع الى مستقري النهائي .

ودعني أنفض خبيثة صدري في هذا المقام وأقرُّ في صراحة ان الرقابة التي كنت أقوم بها كانت بئيسة . هذا الكون يدور في داخلي فهل في مقدوري — وأنا قد أصبحت وحدي على علوِّ يولد الحواطر والافكار — الا ان أستخف بالواجبات التي تفرض عليّ ان أراعي أمر سفن التحويت حين تقول: « كن يقطاً مفتح العينين على الجوِّ من حولك ، وارفع عقيرتك بالنداء كلّ مرة » .

ولأوجه اليكم يا أصحاب السفن النانتوكتين تحذيراً حافزاً مثيراً في هذا المقام ! حذار من ان يكتتب للعمل في سماكاتكم اليقظة اي فتى شاحب الجبين غائر العينين مستسلم الى التأمل في غير إبانه ، يبحر معكم وقد حمل حوار « الفيدون »^١ في رأسه بدلاً من « جداول » بودتش . أقول لكم حذار من مثل هذا الفتى . ذلك ان الحيتان لا بد ان تقع عليها العين قبل ان يمكن قتلها ، وهذا الشاب الافلاطوني ذو العين الغائرة قد يجركم في عشر دورات حول العالم ولا يزيد غلتكم من زيت العنبر ربع لتر واحد . وما أقدم لكم هذه التحذيرات اعتباطاً وأنتم في غنى عنها ، لان سماكة الحيتان في هذه الايام قد جعلت تصبح ملجأ لكثير من الشبان الرومنتيكيين السوداويين الذاهلين الذين اشمأزت نفوسهم من الهموم المضنية على اليابسة ، فجاءوا يطلبون رضى مشاعرهم في الشحم والقار . وكثيراً ما كان تشايلد هارولد يقوم عند قمة الصاري في احدى سفن التحويت التاعسة الخائبة ثم يرسل كلماته المنكدة قائلاً :

١ هو الحوار الذي تناول فيه افلاطون مسألة خلود النفس ، وكان من الكتب التي يحبها ملفل .

تدافعي تدافعي يا أمواج الخضم العميق الاخضر

ففوقك آلاف من متصيدي الشحم يتذبذبون متقلبين من غير طائل .

وكثيراً ما يوقف قباطنة السفن هؤلاء الفلاسفة الشبان الداهلين موقف التقريرع ويوبخونهم لانهم ليست لديهم « رغبة » كافية في الرحلة ، ويلمحون اليهم بأنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً عن الطموح السامي اذ أنهم يؤثرون في قرارة نفوسهم ان يروا اي شيء سوى الحيتان . ويضيع كل تقريرع سدىً ، فهؤلاء الافلاطونيون يعتقدون ان الرؤية عندهم ناقصة ، وأنهم مصابون بقصر النظر فيما جدوى أن يتعبوا أعصاب العين ؟ وهم لم يحضروا معهم نظاراتهم التي يستعملونها في المسارح .

قال احد الزرّاقين لاحد هؤلاء الفتية : « يا قرد ، قد قضينا في التجوال ما يناهز ثلاث سنوات وأنت لم ترَ حوتاً . ان كنا نجد للدجاجة أسناناً ، وجدنا الحيتان وأنت موكل بالحراسة في الأعالي » . لعلّ الحيتان اختفت أثناء نوبته ، او لعلها كانت أكداساً على الأفق البعيد ، ولكن هدير الموج الذي اختلط بالأفكار هدهد ذلك الفتى الداهل في هدأة حلم أجوف غير واع كأنه سحب الأفيون ، فأفقده في النهاية هويته ، فأخذ يحسب الخضم الغامض عند قدميه صورة محسوسة لتلك الروح العميقة الزرقاء التي ليس لها قرار ، والتي تغلغلت في الانسان وتخللت عالم الطبيعة ؛ وغدا كل شيء غريب منساب جميل لا تحقه العين بدقة يفره ، وكل زعنفة بارزة لا تستبان بوضوح في اي شكل لا يثبتته الادراك تتبدى في عينيه تجسيدا لتلك الخواطر والافكار الغرّارة التي لا تعمر الروح إلا ان استمرت ترق من خلالها . وفي هذه الحال المسحورة تنحسر الروح هاربة الى الموطن الذي جاءت منه ، وتتخلل الزمان والمكان كأنها رفات كرائر المؤمن

بوحدة الوجود حين ذرّيت فأصبحت في النهاية جزءاً من كل شاطئ في الكرة الأرضية^١ .

تنحسر الحياة من راكب السفينة إلا تلك الحياة المهددة التي تهبطها السفينة نفسها وهي تقدل فوق الامواج هوناً ما . حياة استمدتها السفينة من البحر ، ووهبتها للبحر تيارات إلهية خفية لا تدرك . وبيننا المرء مستغرق في هذه الهدأة ساجد في هذا الحلم ، قل له ان يحرك قدمه او يسده على مدى بوصة ، ليزحزح رأسه قيد انملة ، ترجع اليه هويته في فزع . انه ليخلق فوق «دوامات» ديكرت^٢ ، ولعله في منتصف النهار والجو غاية في الاعتدال يرسل صيحة مختنقة محشجة ويتردى خلال ذلك الهواء الشفاف في أعماق البحر إبان الصيف ، فلا يرتفع من مهواه الى الأبد . تنبهوا لهذا ايها المؤمنون بوحدة الوجود !

١ هو توماس كرانر نخبه هنري الثامن رئيساً لاساقفة كانتربري ، وقد أحرق في اكسفورد عام ١٥٥٦ متهماً بالهرطقة بمعد ان عادت سلطة الكنيسة الرومانية في حكم الملكة ماري . ولكن لم يذكر احد ان وفاته ذرّيت ، ويبدو ان الامر اشتبه على ملقل ، باستخراج وفات ولم يكلف وخرقها وقذفها في نهر هنالك «حملها في أرجاء المعمورة» حين ألقى بها أخيراً في البحر المحيط .

٢ اعتماداً على نظريات كوبرنيكس وغليليو تقدّم الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكرت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) بنظرية تقول ان كل حركة في الكون فهي دائرية او في هيئة دوامة . وقد بقيت هذه النظرية حتى قضى عليها نيوتن بنظريته في الجاذبية .

الربعة خلف الدقل الاعظم

(يدخل آخاب ثم يدخل الجميع)

بعد مدة قصيرة من حادثة الغليون كان آخاب ، حسب عادته ، يصعد ذات صباح بعيد الفطور من دهليز القمرة الى ظهر السفينة . ومعظم قباطنة البحر يتمشون في العادة هنالك في تلك الساعة كالسادة الريفين الذين يدورون في الحديقة بضع دورات بعد وجبة الافطار .

وسرعان ما تأدت الينا أصوات خطواته العاجية الثابتة وهو يذهب ويحيى في دوراته المعهودة على ألواح ألقت وطأته حتى انحفرت آثار مشيته فيها ، وكأنها حجارة جيولوجية . هل حدثت ممناً في ذلك الجبين المفضن المحدد ؟ هنالك ترى ايضاً آثار أقدام أغرب من تلك - هي آثار أقدام الفكر الذي لا ينفك مسهداً يذرع رأسه جيئة وذهوباً .

لكن في المناسبة التي نحن بصدددها بدت تلك الطوايع المنحفرة أشد غوراً مما هي في العادة ، مثلما ان خطواته العصبية القلقة في ذلك الصباح تركت علامة أعمق . وملأ الفكر نفس آخاب ، حتى انك لتكاد عند كل دورة يدورها حيناً عند الصاري الرئيس وحيناً عند صندوق الابرة ان ترى ذلك الفكر يدور فيه كلما دار ويخطو فيه كلما خطا ؛ قد تملكه تملكاً تاماً في الواقع حتى كأنما لم يكن سوى الشكل الداخلي لكل حركة خارجية .

همس اسطب يقول : « أترأه يا فلاسك ؟ ان الصوص الذي في داخله ينقر القشرة ولا بد من ان ينقف سريعاً » .

وانقضت الساعات . وكان آخاب حبيس قمرة ثم توأ يذرع ظهر السفينة وفي مظهره ما كان فيه من التهمم المستبد نحو غايته .

وأخذ النهار يقترب من نهايته ، وفجأة وقف عند جانب السفينة ودسّ رجله العاجية في الثقب ، وأمسك بيده جانب الشراع ، وأمر استاربك ان يبعث بكل الرجال الى مؤخرة السفينة .

« سمعاً ! » — ذلك ما قاله الضابط وقد اعترته الدهشة لأمر قلما يصدر على ظهر السفينة الا في الظروف الشاذة .

فردد آخاب : « أرسل كل الرجال الى المؤخرة . المراقبون على رؤوس الصواري ؛ هيا ! لينزلوا ! »

وحين احتشدت العصابة كلها وأخذوا يتطلعون اليه ووجوههم يرين عليها الاستغراب وشيء من الخشية والتوجس — اذ أنه لم يكن يختلف كثيراً عن الأفق حين تنذر العاصفة بالهبوب — ألقى آخاب لمحة عجيلى من فوق جانب السفينة وسدد عينيه في البحارة وبدأ المشي من حيث يقف ، أعني استأنف خطواته الثقيلة كأنه لا يحس نامة إنسي على مقربة منه . ومضى يمشي مطأطأ الرأس وقبعته منكفئة بعض الشيء ، غير منتبه الى الهمس المندesh الدائر بين الرجال ، حتى همس اسطب في حذر الى فلاسك بأن آخاب دعاهم ، ولا بد ، ليشهدوا براعة المشي . ولم يستمر هذا الأمر طويلاً اذ صاح بعد تلبث عنيف :

— « ماذا تفعلون عندما ترون حوتاً ايها الرجال ؟ »

— « نرفع عقائرتنا بالنداء » رددت هذا الجواب المتسرع عشرون حنجرة معاً .

— « حسن ! » كذلك صاح آخاب وفي صوته نغمة استحسان غريبة اذ لاحظ الانتعاش المخلص الذي أثاره سؤاله غير المتوقع وألقى الرجال في حومته بقوة مغناطيسية .

— ثم ماذا بعد ذلك يا رجال ؟

— ننزل قواربنا ونقبه !

— واي لمن ترددون وأنتم تجدفون يا رجال ؟

— حوت ميت او قارب محطوم !

وعند كل صيحة أخذت أساري الرجل العجوز تزداد تطلقاً واستحساناً على نحو غريب عنيف . هذا بينما أخذ البحارة ينظر أحدهم الى الآخر نظرات دهشة واستغراب ، كأنهم يعجبون كيف انساقوا هم أنفسهم الى الانفعال بهذه الأسئلة التي تبدو دون غاية .

غير انهم عادوا وكلهم شغف وتطلع حين خاطبهم آخاب ، بعد ان دار نصف دورة في الثقب المحوري ، ويده مشبوحة على الشراع وهو يقبض عليه قبضة محكمة لا تخلو من ارتعاش ، فقال :

« أنتم يا حراس الاعالي جميعاً لقد سمعتموني ألقى الأوامر حول حوت أبيض . تنبهوا ! هل ترون هذه الأوقية الاسبانية من الذهب ؟ » ورفع في وجه الشمس

قطعة نقد عريضة لامعة ثم مضى يقول : « هذه القطعة تسوى ستة عشر دولاراً يا رجال . هل ترونها ؟ ناولني يا سيد استاربك تلك المطرقة » .

وبينا ذهب الضابط يحضرها جعل آخاب، دون أن يتكلم، يحك القطعة الذهبية ببطء على زيق سترته كأنما يريد أن يزيد في لألأها، وكان عندئذ يهيمهم نفسه بصوت خافت دون ان يستعمل ألفاظاً، محدثاً صوتاً مغمغماً مكتتماً حتى بدا وكأنه مهمة آلية تصدرها عجلات حيويته التي تدور في دخيلة نفسه .

وتناول المطرقة الخشبية من استاربك وتقدم نحو الدقل الاعظم والمطرقة مرفوعة في احدى يديه، والقطعة الذهبية معروضة في الاخرى وهتف في صوت جهوري :

« من نبته الى وجود حوت أبيض الرأس ذي جبهة مجمدة وفك أعوج، من نبته الى وجود ذلك الحوت الابيض الرأس وفي جانبه الأيمن ثلاثة ثقوب ، من نبته الى وجود ذلك الحوت الابيض نفسه فله هذه الاوقية الذهبية يا أبنائي ! »

« زه مرحى ! زه مرحى ! » صاح البحارة تحية تسمير القطعة الذهبية على الصاري وهم يؤرججون قبعات التربولين في الفضاء .

وفي اثناء ذلك كله كان طاشطيقو ودغة وكويكوج يتطلعون وقد ساورهم اهتمام ودهشة أشد من سائر الملاحين، وأجفلوا حين سمعوا ذكر الجبهة المتجمدة والفك الأعوج كأنما كل واحد على حدة مسّته ذكرى خاصة .

قال طاشطيقو : « قبطاننا آخاب، لا بد ان هذا الحوت الابيض هو الذي يسميه بعضهم : مويي ديك » .

فصاح آخاب : « مويي ديك ؟ اذن فأنت تعرف الحوت الابيض يا طاش ؟ »

فقال الرجل الجاهلي في تؤدة : « أترأه يحرك ذنبه تحريكاً غريباً بعض الشيء يا سيدي قبل ان يغوص ؟ »

وقال دغة : « وله نفثة غريبة وهو كثُ الحاجب بالقياس الى حيتان العنبر الأخرى ، سريع جسور ، يا قبطان آخاب ؟ »

وصاح كويكوج بكلمات متقطعة : « وله واحد . اثنان . ثلاث آه ! أسنة كثيرة فيه جلده ، قبطان ؟ وكل الأسنة عج معج فيه مثل... مثل » وأخذ يتلس جاهداً كلمة يعسّر بها عن نفسه ويبرم يده ويبرمها كأنه يفتح قنينة : « مثل هيك... مثل هيك » . فصاح آخاب : « مثل البريمة . صدقت يا كويكوج كل الأسنة تعوّجت فيه والتوت . صحيح يا دغة نفائته كبيرة كأنها عرمة قح ؛ بيضاء ككرومة من جزز الصوف النانتوكتي اثر الموسم السنوي العظيم لقص الاغنام . أيوه يا طاش وذنبه يخطر كالشرع المشقوق في العاصفة . يا للموت ! يا للشياطين ! يا رجال ان ما رأيتموه هو مويي ديك — مويي ديك » .

فقال استاربك ، وكان حتى هذه اللحظة يلحظ رئيسه هو واسطب وفلاسك بدهشة متزايدة ؛ واخيراً بدا ان فكرة لاحت له فسرت بعض الشيء كل دهشته : « قبطان آخاب ، قبطان آخاب سمعت بمويي ديك — أليس هو مويي ديك الذي خلع رجلك ؟ »

فصاح آخاب : « من أنباك هذا ؟ » وبعد ان توقف قليلاً مضى يقول : « نعم يا استاربك ، نعم يا احبابي المجتمعين . هو مويي ديك الذي نزع صاري . مويي

ديك هو الذي ألجأني الى هذا الجندم الميت الذي أقف عليه ^١ . نعم . نعم . «
وصرخ في شهقة مرعبة جمهورية حيوانية كأنها شهقة موظ أصيب في قلبه واستمر
يقول : « أجل . صحيح ! هو ذلك الحوت اللعين الذي هدّ ركني وجعل مني
خشبة نائمة الى الابد وكل يوم » . ثم لوح بذراعيه كأنه يصب لعنات لا تحصى
وصاح : « نعم . نعم . وسأطارده حول رأس الرجاء وحول رأس هورن وحول
الدوامة النرويجية وحول شعل الهلاك والدمار قبل أن أياس من لقائه . ومن
اجل ذلك أبحرتم أيها الرجال ، كي تتعقبوا ذلك الحوت الابيض في نصفي الكرة
الارضية وعلى كل جوانب المعمورة الى ان ينفث دماً أسود ويتقلب ويتضرب
وتطفو زعنفته على الماء . ما قولكم يا رجال أعطوني ايديكم على هذا ؟ اني
لأراكم شجعاناً باسليين » .

« أجل . أجل » صاح الرماحون والبحارة وقد جروا يقتربون من الشيخ
الهائج وقالوا : « عيون نفاذة ترقب الحوت الابيض . رماح حادة معدة لموبي
ديك » .

بين الشهقة والصراخ قال : « بارك الله فيكم . بارك الله فيكم يا رجال . يا
امين المؤمن . اذهب واحضر مكيال الجروك الكبير . ما بالك مططت بوزك يا
سيد استاربك ؟ ألا تريد ان تطارد الحوت الابيض ؟ ألسنت كفوؤاً لموبي ديك ؟ »

— « انا كفوؤ لفكّه المعوج ، كفوؤ لفكّي الموت ايضاً ، يا قبطان آخاب ، ان
كان ذلك يتفق مع العمل الذي من اجله نسعى ؛ ولكنني جئت هنا لصيد الحيتان
لأثأر لرئيسي . كم برميلاً من الزيت يأتيك بها انتقامك ان حققته يا قبطان

١ في الاصل razeed me ومعنى الكلمة : قطع الربة العليا من سفينة .

آخاب ؟ انه لا يغفل عليك ما يفيدك كثيراً في أسواق نانتوكت » .

— « اسواق نانتوكت ! تباً ! اقترب يا استاربك . انك لتطلب نصيباً اكبر^١ . ان كان المال هو المقياس ايها الرجل وقدر الحاسبون ان تكون الكرة الارضية بيت حساباتهم الكبير فطوقوها بالجنيهاً ووضعوا جنيهاً على مدى كل ثلاثة ارباع من بوصة فدعني اخبرك بأن انتقامي يدر كسباً عظيماً في هذا المجال » .

فهمس اسطب : « انه يدق صدره بيده . ترى لماذا ؟ والصدى يدل على انه صدر واسع إلا انه أجوف » .

فصاح استاربك : « أتنتقم من وحش اخرس ! ضربك بوحى من غريزته العمياء ؟ جنون ! انك حين تغضب من شيء اخرس يا قبطان آخاب فذلك ذو سبب بالكفر » .

— « أصيخوا مرة اخرى — هذا يريد نصيباً في الارباح ؛ كل الاشياء المرئية ايها الرجل ليست إلا أقنعة من الورق المقوى . ولكن في كل حادث — في العمل الحي — في الفعل اليقيني — يقوم شيء مجهول إلا انه متعلل ، فيخفي طابع ملاحظه وراء ذلك القناع غير المتعلل ، فاذا كان للمرء ان يضرب فليضرب من خلال القناع . كيف يمكن للسجين ان ينفذ الى الخارج إلا اذا اخترق الجدار ؟ انا أرى الحوت الابيض هو ذلك الجدار وقد اندفع قائماً على مقربة مني ، واحياناً

١ يلح آخاب هنا الى ان موافقة استاربك قد تشتري بزيادة نصيبه من الارباح (a little lower layer) ؛ وقد مرّ بنا ان الانصباء التي ينالها الذاهبون في التحويت تسمى lays (انظر الفصل ١٦ : ١٤١) .

يخيل اليّ ان ليس وراءه شيء ، ولكنه وحده يكفي فانه يستنزف جهدي ،
يطرحني كالكومة ، وأرى فيه قوة غاصبة فاضحة يبتغىها حقد مبهم ، وذلك
الشيء المبهم هو ما امقته ؛ وسواء أكان الحوت الابيض نائباً عنه او كان هو إياه
فاني سأجعل ذلك المقت له نكالا . لا تتحدث عن الكفر ، يا رجل . اني لأضرب
الشمس لو انها اهانتني اذ ان كانت الشمس تستطيع الاهانة فأنا أستطيع الضرب ،
فهناك دائما نوع من التعامل الانتصافي ما دام الحسد يهيمن على كل المخلوقات
ولكن ليس رئيسي نفسه يا رجل كفاءً بهذا التعامل ؛ ومن ذا الذي هو اعلى
مني حتى يستحق اسم الرئيس ؟ ليس للحقيقة حدود . حول بصرك ! لأسهل
ان يطيق المرء تبريق الشياطين من ان يطيق النظرة البلهاء ! كذا اذن : تحمر
وتصفّر ، لقد اذابتك حرارتي فأصبح يتطاير منك شرر الغضب . لكن افهم يا
استاربك : ان ما يقال في حرارة ، فذلك شيء يخرس نفسه فلا يبين ؛ بعض
الناس تصدر عنهم الكلمات الحارة وهي خسة صغيرة . لم أقصد ان أثرك .
معلش . ها فانظر تلك الحدود التركية ذات الصحمة البقاء ، تلك الصور الحية
المتنفسة التي رسمتها الشمس . هذه الفهود الوثنية — التي لا يهمها شيء ولا تعبد
شيئاً ، تلك التي تحيا ولا تتطلب اسباباً عن الحياة المتلظية التي تحس بها ولا تقدم
أسباباً . هؤلاء البحارة ايها الرجل ، هؤلاء البحارة أليسوا وحداناً ومجتمعين مع
آخاب في امر الحوت ؟ انظر الى اسطبل ! انه يضحك ، وانظر ذلك التشيليّ
هناك انه يقهقه اذ يتصوّره . شجيرتك المزعزعة لا تستطيع ان تقف وحدها
في العاصفة الجائحة يا استاربك ! وما الامر ؟ قدره وحدك . أن تعين غيرك في
ضرب زعنفة ؛ ليس هذا عملاً بطولياً يقوم به استاربك . وماذا ايضاً ؟ عن
هذا الصيد البائس ، لن تبقى خير حربة في نانتوكت كلها محجمة حين امسكت
كل يد بمحجر المسن ؟ آه ! أثقلتك القيود والاغلال . ها ! رفعتك الامواج !
تكلم — تكلم وحسب ، اجل ، اجل انه صمّتك اذن الذي ينطقك . (ثم على
حدة) : انطلق شيء من وقبي منخريّ الواسعين فتجرّعه حتى بلغ رئتيه .
أصبح استاربك في قبضي ، لا يستطيع ان يقاومني دون تمرد وثورة .

« حماني الله ! حمانا جميعاً ! » كذلك تغم استاربك بصوت خفيض .

إلا ان آخاب، وهو مبتهج جذلان اذ يرى التسليم المسحور الضمني لدى استاربك، لم يسمع دعاءه الاخير المحمل بالنذر والتوجسات، ولا الضحكة الحفيضة التي انطلقت من عنبر السفينة، ولا ذبذبات الريح المنذرة بالشرّ وهي تصطدم بالامراس، ولا الحفقات الجوفاء تصدر عن الاشرعة وهي تلمطم الصواري، وقد هوت قلوبها ذعراً في تلك اللحظة. اذ ان عناد الحياة واباءها عادا يشعلان في عيني استاربك اليائستين، وماتت الضحكة التي تأدت من اسفل، ومضت الريح في هبوبها وانتفخت الاشرعة، وذهبت السفينة كما كانت من قبل تتأيل وتتدحرج. آه منك ايها النذر والمنبهات ! لماذا لا تبقين حيث أنت حين تقررين القدوم ؟ ولكن أنت ايها الاطياف مرهصات لا نذر إلا أنك لست مرهصات آتية من الخارج بقدر ما تمثلين الامور التي تجري في الداخل . اذ ان قليلاً من العناصر الخارجية يعترض طريقنا ويصدنا ؛ عندئذ تلجّ الضرورات الدخيلة على ان تحفزنا للمضي .

صاح آخاب : « المكيال ! المكيال ! »

فجاءوه بالاناء القصديري الطافح، فالتفت نحو الرماحين وأمرهم ان يحضروا أسلحتهم، ثم صفهم امامه قرب المسحاب وقد امسكوا رماحهم بأيديهم، بينما وقف ضباطه الثلاثة الى جانبه ومعهم حراهم . وكوّن سائر العصابة دائرة حول تلك الفئة ووقف برهة يلحظ كل فرد في الملاحين . إلا ان تلك العيون الغريبة واجهت عينيه كأنها عيون ذئاب السهوب الحمر المتوقدة تواجه عيني قائدها قبل ان يندفع وهو على رأسهم في أثر البيسون ليسقط وا أسفاه في فخ خيء نصبه الرجل الهندي .

سلم الاناء المترع لاقرب بحار وصاح : « اشرب وأدره لمن يليك . ليشرب

الملاحون وحدهم الآن . ثم أديره . أديره ! شرباً قصيراً ، وتمزّزاً طويلاً يا رجال ! انه ساخن كحافر الشيطان . تمام . تمام . هكذا يدار . انه ليتغلغل متولباً ثم ينشطر متجهاً الى العين الغاضبة الافعوانية . أحسنتم . كدتم تأتون على ما فيه . في هذا الاتجاه ذهب . في هذا يجيء . لقد تحسّيت الحياة المترعة . املاً ايها الساقى ! »

« أصفوا اليّ ايها الشجعان لقد جمعتمكم حول هذا المسحاب ؛ وانتم ايها الضباط أحيطوا جناحيّ بحرابكم ؛ وانتم ايها الرماحون قفوا هناك ومعكم رماحكم ؛ وانتم ايها البحارة الاقوياء الاشداء تحلقوا حولي كي أحيي عادة سامية درجت قبلي بين أسلافي الصيادين . ايها الرجال انكم سترون أنّ ... يا غلام ! عجّل ! الدراهم الزائفة لا تعود بسرعة ؛ حسنًا . ها هو الاناء مترع مرة اخرى ، لو لم تكن انت عفريت سنت فيش ! غُرْ يا حَمَى البرداء ! »

« تقدموا ايها الضباط . ضعوا حرابكم أمامي متقاطعة . احسنتم دعوني ألس نقطة الالتقاء . وما ان قال ذلك حتى مدّ ذراعه وضم جمع يده على الاسلحة المتعارضة في مركز التقائهما جميعاً . واذ فعل ذلك هزها فجأة وفي عصبية بينا هو ينعم النظر حيناً الى استاربك وحيناً الى اسطب وحيناً الى فلاسك ، وكأنه كان يود ان يفرغ في دخيلة نفوسهم عن طريق عزم دخيل لا يحدّ تلك الشحنة النارية التي تجمعت داخل الجرة الليدنية من حياته المغناطيسية ، وأصيب الضباط بالوهن الخائر امام مظهره القوي الصامد الغامض ؛ أما اسطب وفلاسك فحوّلا نظراتهما عنه الى ناحية ، وأما نظرة استاربك الشريف فسقطت عند قدميه . وصاح آخاب : « عبثاً ؛ ولكن ، لعل الخيرة في ذلك لانكم لو أخذتم مني تلك الشحنة المتأججة إذن لنقصت الكهرباء او تلاشت مني أنا ، وربما لم تقدروا على تحملها فصعقتكم ، وربما لم تكونوا بمن يحتاجها . اخفضوا حرابكم ! وأنا أوظفكم يا ضباطي الثلاثة سقاء لأنسابي الوثنيين الثلاثة الواقفين

هنالك — أشرف الناس وأعلاهم محتداً، أولئك الزّراقين الشجعان . أتزدرون هذه المهمة ؟ ماذا تقولون في البابا العظيم وهو يغسل اقدام الشحاذين مستعملاً تاجه البابوي ابريقاً ؟ آه ايها الكردينالات الاحياء ! ان تواضعكم هو الذي يحني جباهكم لأدائها . انا لا آمركم وانما انتم تريدون . جذّوا الاربطة وافصلوا القنوات من الأسنة ايها الزراقون » .

أطاع الزراقون الثلاثة أمره في صمت ووقفوا امامه وقد انفصلت الاسنة من قنوات رماحهم — وطول السنان منها ثلاثة اقدام — وهم قد أشرعوها .

— « لا تطعنوني بذلك الفولاذ النفّاذ ! اميلوها ! اميلوها ! ألا تعرفون قرارة الكأس . اجعل ثعلبة السنان الى اعلى . تمام . كذا . انتم ايها السقاة تقدموا . الأسنة ! خذوها . احملوها وأنا أصب » . وبذلك مشى ببطء من ضابط الى آخر وملاً ثعلبة كل سنان بالشراب الناريّ يصبه من الاناء .

— « انتم الآن ثلاثة يواجهون ثلاثة . ضعوا ثقتكم في هذه الكؤوس الفولاذية القاتلة . سلّموها الى اصحابها يا من أصبحتم فريقاً في هذه الرابطة التي لا تنفصم . ها ! استاربك ! لقد تمّ كل شيء ! وهذه الشمس المؤمّنة على خطتنا تشهد على العهد . اشربوا ايها الزّراقون . اشربوا وأقسموا انتم يا من تقفون عند مقدم القارب المرصد بالموت — أقسموا ان يكون الموت نصيب مويي ديك . قولوا : جعلنا الله جزّراً لنقمته إن لم نجتزّر مويي ديك حتى يموت » . رفعت الاسنة التي اتخذت كؤوساً وتصاعدت الصيحات وانصبت اللعنات على الحوت الابيض ، وأغرقت الارواح عندها في جرع الشراب . اصفر استاربك وحول وجهه وارتعد ؛ ثم جرى الاناء مرة اخيرة يدور بين الملاحين الهاجّين ، وعندما لوح لهم آخاب بيده تفرقوا جميعاً ، أما هو فذهب ينزوي في قمرته .

الفروب

(المنظر في القمرة، عند النوافذ المطلة على مؤخرة السفينة . آخاب جالس وحده يحرق في الفضاء)

« حيثما انجبت خلفت أثراً أصفر كدراً . حيثما أبجرت فتمّ مياه شاحبة وخذود أشدّ شعوباً . الأمواج الغبرى الحاسدة تتدافع على الجانبين لتطمس أثري . لتفعل ان شاءت فأنا أمرّ أولاً وأخلفها ورائي » .

« هناك عند حافة هذا الكأس المترع أبداً تعلو الامواج الدافئة حمرة الحجل كأنها الحمر ، والحاجب الذهبي يسبر غور الازرق المائي . والشمس قامس يهبط - وقد مالت عن سمت الظهيرة - وروحي تصعد لانها سئمت لبثها عند مشارف الارض . هل التاج الذي ألبسه - إذن - ثقيل ؟ تاج لومبارديا الحديدي ؟ هذا وفيه تتلألأ جواهر عديدة . أنا الذي ألبسه لا أرى المدى الذي يبلغه للألواها، إلا أنني أحس إحساساً مبهماً بأني ألبس شيئاً يحترق ويعشي . حديديّ هو - أدري ذلك - لا ذهبي . مصدوع هو ايضاً - أحس ذلك . والحافة المثلمة تشكّنتي حتى ان دماغني ليدق دقاته ضدّ المعدن الصليب . نعم .

١ محفوظ في كاتدرائية مونزا بإيطاليا ، كانت يستعمل في تتويج إباطورة الامبراطورية الرومانية المقدسة وتروي الاساطير أن فيه مسباراً من مسامير الصليب الذي دق لعيسى .

جمجمة فولاذية هي مجموعتي . مثلها لا يحتاج خسوذة في اي قتال ينثر حشو
الرءوس .

«أتعلمو جيبتي حرارة جافة؟ يا لله ! رحم الله أياماً كنت اذا لسعتني فيها حمة
الشروق رقتني منها تعويذة الغروب . كل ذلك انقضى . هذا الضوء الجميل لا
يضوء جنبات نفسي . كل جمال أصبح مصدر عذاب لي لأنني لا أستطيع ان
أتملاه . وهبت الادراك العالي فأعوزتني القدرة الدانية التي تحسن التملّي
والاستمتاع . ملعون على نحو خبيث ماكر ! مطرود من الرحمة وأنا في رحبة
الفردوس ! طابت ليلتكم - طابت ليلتكم ! » [يلوح بيديه ويغادر النافذة] .

« لم تكن مهمة صعبة . ظننت أنني سأجد في الاقل واحداً حروناً عنيداً .
الا أن شنتي وافق طبقتهم؛ طوقى المسنن يلائم كل عجالاتهم المختلفة فتدور حوله
وفاقاً . او ان شئت فقل ان كل امرىء فيهم جرثومة من مسحوق البارود تقف
أمامي ، وأنا أعواد الكبريت . تشبيه صعب غير موفق ! اذ ان الكبريت ان
شاء ان يشعل الآخرين فقد وجوده أولاً . ما جرؤت عليه أردته ، وما أردته
سأحققه . يظنونني مجنوناً - استاربك يظنني كذلك ، الا أنني شيطاني ، انني
الجنون هائجاً مجنوناً ! جنوني هو الجنون الذي لا يهدأ الا ليتأمل نفسه ! قالت
النبوءة انني سأفقد عضواً - صدقت فقد فقدت هذه الرجل ، وأنا الآن أتلبأ
بأنني سأفقد من ذهب برجلي أعضاءه . لأكن انا العراف ومحقق العرافة معاً .
هذا شيء ابتها الآلهة العظيمة فوق طوقك . انا أضحك وأمكو منكم سخرأ ،
يا لاعبي الكريكت يا «قبضيات» ، أيها الصمّ مثل بيرك أيها العمي مثل بنديجو ،

١ كان بيرك بطل إنجلترا في الملاكمة عام ١٨٣٣ ، وكان بنديجو واسمه وليم طومسن بطلاً
آخر ١٨٣٩ - ١٨٤٥ .

لن أقول كما يقول تلميذ المدرسة لفتوة من فتوات العواهر : « فتش لك على واحد قدك ، لا تلكمني » . لا . لقد صرعتوني وها انا أنهض من كبوتي ، إلا أنكم هريتم واختبأتم من وجهي . ابرزوا اليّ من وراء حشيات القطن التي تحتمون بها . ليست معي بندقية طويلة تبلغ مداكم . تعالوا ! آخاب يهديكم تحياته . تعالوا وانظروا ان كنتم تستطيعون ان ترحزحوني من موقعي . ترحزحوني ! لا تستطيعون ذلك الا اذا زحزحتم أنفسكم . أمامكم رجل . ترحزحوني ؟ لقد مددت الى غايقي المثبتة سكة حديدية ورسمت لروحي ان تجري عليها لتبلغها فأنا أندفع دون خطأ فوق مضائق لا يعرف غورها وخلال جبال لم تخرق صعاها وتحت أثباج السيول والتيارات الجارفة . لا شيء يقف عقبة في طريقي ، لا انعطاف في السكة الحديدية العامدة » .

غيبس الظلم

(عند الصاري الرئيس وقد استند اليه استاربك)

«روحي لم تنلها أطراف الثقاب فحسب ، انها معبأة الى درجة الانفجار .
عبأها رجل مجنون . حمة لا يطاق لسعها ان يبسط الجنون ذراعيه حول كل هذا
الجهل . الا انه حفر عميقاً عميقاً ووضع لغماً فجّره به كل عقلي . أظنني أبصر
خاتمته الكافرة ولكنني أحسّ ان عليّ مساعدته لبلوغها ؛ شئت او أبيت — لقد
ربطني به ذلك الشيء الذي لا أجد له اسماً او وصفاً ، ربطني بجبل لا أجد
معي سكيناً أجذه بها . يا للشيخ المفزع الرهيب ! يصيح قائلاً : من ذا يسيطر
عليه ؟ نعم انه قد يكون ديموقراطياً مسع كل من فوقه . انظر كيف يبسط
سيادته على كل من دونه ! آه ! بوضوح أرى مهمتي التاعسة — ان أطيع والثورة
تعتلج في نفسي ، وأسوأ من ذلك ان تخالط كراهيتي لمسة من شفقة ، اذ انني
قرأت في عينيه ويلاً مربعاً مكفهرأ لو كان بي لشلّ قواي . ومع ذلك فثمة
أمل . الزمن والمدّ تياران عريضان ، فالعالم المائي كله مجال للحوت البغيض
مثلاً ان الزهرية الزجاجية بيت للسמكة الذهبية الصغيرة ، والله قادر على ان
يرخي حبال الزمن بينه وبين غايته التي أهان بها وجه السماء . لاستخفّ قلبي
الرجاء لو لم يكن قلباً مثقلاً كأنه الرصاص ، لكن مزولة حياتي تنحدر ، وقلبي
هو الذي يرجح بها ، وقد ضاع مني المفتاح الذي يعينني على رفعها من منحدرها» .

[يسمع صوت عربدة آتياً من المنارة]

« رباه ! كيف يبجر المرء مع أفراد عصابة وثنية لم تسلدهم أمهات من بني
الانسان وانما تمخض عنهم البحر او قرش البحر . فالحوت الابيض هو الغرغون
الخفيف لديهم . سمعاً ! هذا هو اللهو الشيطاني . تجيء العريضة اولاً ثم يعقبها
صمت محتوم . أظن هذا يمثل لنا الحياة . في الامام ينطلق مقدم السفينة المرح
المتأهب المتأجّن خلال البحر اللامع الفوّار لا شيء الا ليجر آخاب في أعقابه ،
حيث يقيم مستغرق الفكر في قمرته الواقعة عند المؤخرة المبنية على ماء المخر
السّاكن الهامد ، ومن بعد يتشبّث بها الخريز المتذبذب . يهز العواء المديد أعماقي .
صمتاً ! ايها المعربدون وابدأوا نوبة الحراسة . آه أيتها الحياة في ساعة كهذه
الساعة حين تكون روعي قد قهرتها المعرفة واستولت عليها — معرفة كالتّي
تتغذى بها الاشياء المستوحشة الجاهلة مضطرة — في ساعة كهذه ايتها الحياة
أحس بالعرب الكامن فيك ، لكنه ليس رعباً من داخلي ، هو رعب يقع خارج
نفسي ، وسأحاول ان أقاتلك يا أشباح المستقبل الجاهمة بالشعور الانساني الرقيق
الذي فيّ . أيديني ثبتي قلمي " أعلقي حبالك بي ايتها القوى المبروكّة ! »

النوبة الاولى في الحراسة الليلية

مرقبة الصاري الامامي (اسطب وحده يصلح احد الاربطة)

ها ! ها ! ها ! إحم ! أجولو زوري . منذ ذلك الحين وأنا أفكر فيها والختام دائماً سلسلة من ها ! ها ! ها ! لم كان ذلك كذلك ؟ لان الهاهاة الضاحكة أحكم جواب وأسهله عن كل تلك الغرابة . واذا كفلت للانسان راحته ، تلك الراحة التي تحضر حين تطلب ، فلا خير ان يقع ما يقع ، فكل شيء بقضاء وقدر . لم أسمع كل حديثه مع استاربك ولكن استاربك تبدى لعيني المسكينة شيئاً كالذي أحسست به أنا في تلك الامسية . كن واثقاً ان السلطان العجوز قد صلبه . أدركت ذلك ، عرفته ، ولو كانت لديّ الموهبة لتنبأت به لأنني حين صفت جمجمته بنظري رأيت ذلك الامر . حسناً يا اسطب . يا اسطب يا عاقل - ذلك هو اللقب الذي أحرزته - حسناً يا اسطب ، اي بأس عليك ؟ ها هنا جثة . انا لا اعرف كل ما قد يقع ولكن مها يكن فاني سأذهب للقائه ضاحكاً . اي غمز عابث تنطوي عليه مرعبات دنياكم ! أشعر انني مضحك فـا . لا . ليرا . سيرا ... ترى ماذا تصنع إجاصتي الشهيدة الريا في البيت الآن ؟ أتراها تبكي ؟ أم تراها تستضيف آخر دفعة وصلت من الرماحين ، فهي مرحة كأنها علم الفرقيلة ، وكذا انا فـا . لا . ليرا سيرا . آه !

سنشرب الليلة بقلوب جذلى

استخفها الحب فهي مرحة رشيقة

كالحب الطافي عند حافة الكأس
يناث اذا لامسته الشفاه .

شعر جزل جميل - من ذا ينادي ؟ السيد استاربك ؟ نعم سيدي نعم - (ثم على
حدة) هو رئيسي وله رئيسه ايضاً اذا لم اكن مخطئاً في التقدير - أجل . أجل
يا سيدي تمهل عليّ . أكاد أنهي هذه المهمة . آت اليك

منتصف الليل عند المنارة

الراقون والبحارة (يرتفع الصاري الامامي،
فيظهر الحراس المناوبون واقفين متبلدين متكئين
مضطجعين في ارضاع مختلفة وكلهم يغنون معاً
في جوقة) :

وداعاً وفي رعاية الله يا ايها السيدات الاسبانيات
وداعاً وفي رعاية الله يا سيدات اسبانيا
قبطاننا قد أمر — .

البحار الاول من نانتوكت :

ايها الفتيان لا تكونوا عاطفين . ذلك شيء يضرّ بالهضم . احفظوا
اللازمة وهيئوا أنفسكم للنعمة ورددوا بعدي . (يعني ويأتمّ به الجميع) :

قبطاننا واقف فوق الدكة
وفي يده مراقب
يرى به الحيتان الجريئة
وهي تنفث عند كل شاطي

ضعوا دنانكم في قواربكم يا فتیان
وقفوا عند معاهد الجبال
وسنصید حوتاً من هذه الحیتان
فاعقدوا العزائم وتکاتفوا کالبنيان

تهللوا وافرحوا يا فتیان ، لا خارت منكم القلوب !
حين ينقض الرماح الجريء ليطعن الحوت .
يتأدى صوت ضابط من الربعة وراء الدقل الاعظم :
اقرع الجرس ثمانی مرات ، هناك هيا !

البحار الثاني من نانتوكت :

أوقفوا الغناء ! ثمانی دقائق هناك ! أسمع يا جراس دق الجرس
ثمانی دقائق انت يا بیب ! يا أسود ، ولأدعُ النوبة فمي صالح لذلك ،
فم كأنه البرميل . هكذا . هكذا : (يدلي رأسه في الناروزة) ستار -
بو - لي - نز آهوي ! ثمانية أجراس هناك في الاسفل ! هيا أسرع !

البحار الهولندي :

تعسيلة عظيمة هذه الليلة يا صويحب ؛ ليلة مسترخية كسلى . لحظت
ذلك في الخمرة التي أدارها علينا ریتسنا ، فهي ميمتة لبعضنا ، مهبجة
لسائرنا . فنحن نغني وهم ينامون ، اي نعم ، يضطجعون هنالك
كالبراميل المشدودة بالارض . خذ هذه اليراعة وانفخ فيها ونادهم ؛ قل
لهم يكفّوا عن ان يخلعوا بصواحبهم . قل لهم 'نفخ الصور

وبعث من في القبور . عليهم ان يطبعوا على شفاه الحليلات آخر قبلة
- في المنام - وينهضوا للحساب. هذا هو السبيل ، هذا هو . ان حلقي
لم يتلفه أكل الزبدة الهولندية .

البحار الفرنسي :

صه . يا أولاد ! للرقص رقصة او رقصتين قبل ان نرسي في خليج
بلانكت . ما قولكم ؟ ها هم أفراد النوبة الثانية . استووا على أرجلكم .
بيب ابيب ! هات الطنبور .

بيب (وهو برم مأخوذ بالنوم) :

لا أعرف أين هو .

البحار الفرنسي :

اضرب على كرشك إذن بدلاً منه ، وحرك أذنيك . ارقصوا
الرقصة يا رجال . حلوة هي لفظة الرقص ؛ مرحى ! وبلي ألا تريدون
الرقص ؟ اصطفوا واحداً واحداً واقفوا في دبكة مزدوجة .
تطوّحوا . أرجلكم ! أرجلكم !

البحار الاسلندي :

لا أحب هذه المصطبة يا رفيق ، ذوقي يراها رطبة بليدة ؛ انا تعودت
على مصاطب الجليد . آسف اذ أسكب ماءً بارداً على ما انت متحمس
من أجله . ولكن معذرة .

البحار المالطي :

وكذلك انا أجدني متقاعساً عن الرقص . أين الفتيات ؟ اي أحرق

يأخذ يده اليسرى في عناءه ويقول لنفسه وهو يهزها : مرحبا . كيف
حالك ؟ أريد رفيقة تراقصني ، اين الرفيقات !

البحار الصقلي :

اي نعم ! فتيات وبساط عشبي أخضر عندئذٍ أثب وأنط معكم بل
أصبح جندبا ان شئتم .

بحار لونج آيلاند :

يا بلداء ! ان قعدتم عن الرقص فغيركم كثير . أقول : احصدوا
قمحكم حين تريدون . ستسعى الارجل عما قريب الى الحصاد . آه .
ها هي الموسيقى حضرت . هيا اليها !

البحار الأزوري : (يصعد ويضع الطنبور عند أعلى الناروزة)

بيب . ها هي الآلة وهناك عضادة الرافعة . اصعد ! يلا يا فتيان !

(نصفهم يرقص على نغمات الطنبور، بعضهم يهبط الى أسفل، بعضهم
ينام او يستلقي بين لفائف الامراس . الشتائم سيل غزير)

البحار الأزوري (يرقص) :

نغم . نغم يا بيب . دق يا جراس دق . نغم . حكّم . دمدّم .
قدّم . يا فتى الاجراس . ابعث الشرار فوق النار . واحطم الجلاجل .

بيب :

تقول الجلاجل ! هذا واحد قد هوى . انا أطمه هكذا .

البحار الصيني :

جلجل بأسنائك ودعها تتلاطم . اجعل من نفسك معبداً هندياً .

البحار الفرنسي :

استطارني الطرب ! أمسك هذا الطوق يا بيب حتى أقفز من خلاله .
ايتها الاشعة المشقة . تمزقي !

طاشيقو (يدخن في هدوء) :

هذا رجل ابيض بحق يسمى ما يفعله مراحاً . أف له . انا في غنى
عن التعب والعرق .

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

عجباً هل يعلم هؤلاء الفتية المرحون اي شيء هو الذي يرقصون
فوقه . أمرٌ وعيد تتفوه به نساء الليل عندكم ، أولئك اللواتي تصفعهن
الريح عند المنعطفات ان تقول احداهن : سأرقص فوق قبرك ،
سأرقص . يا للمسيح ! حين يفكر المرء في الاساطيل الخضر والبحارة
ذوي الجماجم الخضر ! ايه . ايه صدق علماءكم حين قالوا ان الارض
مستديرة ولذلك صحّ لاهلها ان يجعلوا منها دواراً للرقص . ارقصوا يا
فتيان فانتم في عهد الشباب . كان لي شباب .

البحار الثالث من نانتوكت :

عرق ! عرق ! واه ! هذا أسوأ من جرّ القوارب خلف الحيتان في
جو - هات نفساً يا طاش .

(يتوقفون عن الرقص ويتحلقون حلقاً . في الوقت نفسه تكفهر
السماء وتقوى الريح)

البحار الهندي :

وحق براهما يا فتیان سيقولون انزلوا الاشرعة عما قليل . مدّة عالٍ
سماوي كأنه مدّة نهر الكنج قد تحول ريحاً . انك ترينا عين الغضب
المكفهر يا رب الانواء !

البحار المالطي (متمدد يهز قبعته) :

هي الامواج - قبعات الثلوج جاءت ترقص رقصتها . عما قليل تهز
هدايتها . ليت الامواج جميعاً كانت نساء ، اذن لنزلت اليهن ورقصت
معهن . ليس في الارض ما هو عذب مثل الممحات الخاطفة ترسلها
الصدور الدافئة الثائرة في الرقص حين تخفي كرمه الاذرع التي تظللها
عنباً ناضجاً جامعاً مستوفزاً .

البحار الصقلي (وهو متمدّد) :

على الخبير سقطت . اسمع يا فتى . لهاً واذا الاجسام تتعانق -
تمتّح كتمتّح الاغصان الغضة - لمسات وجهشات - رعشات . الشفة !
القلب ! الرانفتين ! تمتع بالنظر اليها . لا تكف عن لمسها ثم امض . لا
تذق . افهم ان ذقت شبع ! مش كده يا وثنى ؟ (يلكزه لينتبه) .

البحار التاهيتي (متمدد على حصير) :

يا ما أحلى العربي المقدس في فتياتنا الراقصات - رقصة الهيا هيا .
آه يا دانية الخمار يا سامقة النخيل يا تاهيتي . لا أزال أريح جنبي على
حصير من صنعك ولكن اين الثرى الناعم ، ثراك ؟ رأيتك يا حصيري

١ هو سيفا رب الدمار والخراب في الدين الهندوسي .

تنسجين في الغابات . خضراء كنت اول يوم جئت بك من هناك . وما
انت بليت وذبلت النضارة . ويلاه ! لا انا ولا انت نستطيع ان نطيق
البلى . كيف بك لو تعرضت للأنواء . ها انا أسمع الجداول الهادرة من
قمة بيروهيتي ذات الشعاف حين تندفع من خلل القنان وتغرق القرى
والقيمان . العاصفة ! العاصفة ! انهضي يا نفس وواجهيها (يقفز واقفاً
على قدميه) .

البحار البرتغالي :

يا للبحر كيف يتدافع متناثراً على جنب السفينة . تهاوا لطى
الاشرعة يا أحبباء . الريح قد استلت سيوفها وشهرتها وعماء قليل ستقوم
المبارزة حالاً .

البحار الدنمركي :

قمقمي قمقمي ايتها السفينة القديمة فانت متأسكة الجوانب ما دمت
تقمقمين . أحسنت ! الضابط هناك يمسك بك بثبات . لم يعد يخاف
كأنه قلعة في جزيرة كايتهجوت شيدت هناك لتقاتل بحر البلطيق بمدافع
تجلبدها العواصف ، وينعقد عليها ملح البحر .

البحار الرابع من نانتوكت :

تذكر ان لديه أوامر . سمعت آخاب الشيخ يقول له انه يجب ان
يقتل العاصفة مثلما يفجرون أنبوب الماء بمسدس — سمعته يقول : أطلق
سفينتك رأساً في قلب العاصفة .

البحار الانجليزي :

دم ! هذا الشيخ كاجار^١ عجوز . نحن الفتيان الذين سنصيد له
الحوت !

الجميع : نعم . نعم .

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

كيف تهتز هذه الصنوبرات الثلاث . الصنوبر اصلب نوع من الشجر
وأقدره على الحياة حين ينقل من تربة الى تربة ولكن ابي تراب في
السفينة سوى التراب الملعون الذي صنع منه الملاحون . ثبات يا قيم
الدفة ، ثبات . هذا نوع من الجوتخور فيه القلوب الجريئة على السبر
وتتصدع الهياكل المنبسطة في البحر . على قبطاننا علامة الميلاد . انظروا
هناك يا أولاد تروا علامة أخرى في السماء ، تتوهج لامعة — وكل ما
عداها اسود كالقار .

دغة :

وماذا في هذا ؟ من كان يخاف السواد فانه يخافني . انا قطعة
منتزعة منه .

البحار الاسباني (على حدة) :

يريد ان « يتقبضن » آه ! الحق القديم يجعلني حساساً سريع
الانفعال ، (يتقدم) نعم ايها الزرّاق لا نكران في ان بني قومك هم
الجانب المظلم من بني الانسان — سواد كسواد الشياطين ؛ هل زعلت ؟

١ كاجار : Cajar شحاذ مكّد، وقد استعملها الجاحظ في البخلاء .

دغة (في تجهم) :

ابدأ .

بحار من سنتياغو :

هذا الاسباني اما ان يكون مجنوناً او سكران . والاول أقرب الا
ان تكون المياه النارية التي سقاها اياها ريسنا طويلة الاثر في كيانه .

البحار الخامس من نانتوكت :

ما هذا الذي رأيته — برق ؟ نعم .

البحار الاسباني :

لا . هذا دغة كشر عن أنيابه .

دغة (واثباً) :

سكّر بوزك ، يا قزم . بشرة بيضاء وقلب منخوب .

البحار الاسباني (يلاقيه) :

بمديتي أشق صدرك في سرور . جرم كبير وروح صغيرة !

الجميع :

خناقة ! عركة ! خناقة !

طاشطيقو (وهو ينفث نفساً) :

خناقة في الاسافل وخناقة في الاعالي - الآلهة والرجال - كلاهما
متترع متسرع للقتال - أف !

بحار بلفاست :

عركة ! ها خناقة ! بركاتك يا عدراء ، خناقة ! ما عاش من
تخلف !

البحار الانجليزي :

المهم التكافؤ ! اخطفوا المديّة من الاسباني ! تحلقوا ! تحلقوا !

البحار الشيخ ابن جزيرة مان :

ما أسرع ما تحلقوا . هناك ! الافق المتحلق . الدائري . في تلك
الحلقة قتل قابيل هابيل . أهذا شيء حلو ! أهذا عمل صحيح ! كلا .
لم يا رب خلقت هذه الحلقة الدائرية ؟

صوت ضابط يتأدى من الربعة خلف الدقل الاعظم :

تسكاتفوا عند جوانب الاشرعة . اقتربوا كي تطووا الاشرعة العليا !

الجميع :

العاصفة ! العاصفة ! اقفزوا ايها الاعزاء ! (يتفرقون) .

بيب (انكمش ودخل تحت الرافعة) :

اعزاء ؛ يا رب عونك لهؤلاء الاعزاء . دعامة الشراع تئن ! تحشرج !
واخ - واخ ! رباه . تطامن متحاشياً لائذاً يا بيب . كأنك في الغابة
الملكية ذات الصيد الوفير . بل هذا اسوأ من المكث في الغابات التي
تجتاحتها الرياح في آخر يوم من ايام السنة . من ذا الذي يتسلق اشجار
الكستناء بعد ان رحلت ؟ دأبهم لا ينفكون عنه ، يلعنون ويشتمون
اما انا فلا . مستقبلهم مزهر . طريقهم تؤدي الى السماء . احكم قبضتك !
اية عاصفة هي هذه يا جيني ! ولكن اولئك الشبان هنالك اسوأ
ايضاً . انهم عواصف بيضاء . بيضاء ؟ حوت ابيض . اش . اش .
تسمعت لما قالوه قبل قليل ، والحوت الابيض . اش . اش . تحدثوا
عنه مرة . وفي هذا المساء نفسه سمعت ذلك الاعمى العجوز ، وما سمعته
يجلجل جسمي ويهزه كالطنبور ، سمعته يقسم انه لا بد من ان يصيده !
آه ايها الاله الابيض الكبير ، حيثما كنت في سماواتك محتجباً في الظلام
ارحم هذا الغلام الاسود الصغير في أرضه . احفظه من كل الرجال الذين
ليس لهم احشاء تعرف الخوف .

موبي ديك^١

كنت انا، اسماعيل، احد أولئك الملاحين : صرخاتي صعدت متحدة مع صرخاتهم ، ويميني انعقد مع أيانهم . وجأرت بقوة ورسخت يميني واغلظته للخوف القابع في نفسي . ملأني شعور فائر غامض حنون حتى كأن نقمة آخاب الظامئة كانت تقمي . بأذان منهومة أنصتُ الى تاريخ ذلك الوحش القتال الذي اقسمت انا والآخرين أيان الانتقام والثأر منه .

منذ عهد مضى كان الحوت الابيض المنفرد المنعزل في فترات متقطعة يلمّ بالبحار المتأبدة التي يرتادها صيادو حوت العنبر لكن لم يكونوا كلهم يعرفون عن وجوده ، ولم يره منهم رؤية معرفة إلا عدد قليل نسبياً منهم ؛ اما الذين نازلوه عن معرفة منازل واقعية فكانوا اقل عدداً . وهناك اسباب كثيرة بعضها مباشر وبعضها غير مباشر حالت طويلاً دون انتشار الاخبار الفذة المتميزة في عالم التحويت الواسع المترامي الاطراف عن موبي ديك . فالحوانات كثيرة العدد منتشرة على غير نظام في مدى المحيط المائي ، وبعضها تغامر مندفعة في بحثها على عروض منعزلة ، فتمتد غيبيتها اثني عشر شهراً كاملة دون ان تلقى في طريقها شراعاً واحداً يحمل اليها نبأ اي نبأ، وكل رحلة على حدة تطول او تقصر حسب

١ لا ريب في ان ملفل عرف اساطير كثيرة عن التحويت والحيتان واستعار من بعضها اسماً لهذا الحوت الخيالي، غير ان شخصاً اسمه رينولدز نشر عام ١٨٣٩ مقالات في مجلة Knickerbocker عن حوت ابيض اسمه موكا ديك فيه خصائص كثيرة مما ذكره ملفل متصلاً بموبي ديك.

ظروفها ، وليس لاجساد السفن وقت محدد تنطلق فيه معاً ، الى غير ذلك من اسباب . ولا يكاد احد يشك في ان بواخر عديدة ذكرت انها التقت ، في هذا الوقت او ذاك او على هذا الخط الزوالي او ذاك ، حوت عنبر ذا ضخامة وشراسة غير عاديتين ، وان ذلك الحوت بعد ان ألحق الاذى بمهاجميه نجا منهم ولم يصب ؛ ولعل بعض الناس كانوا يفترضون - ولهم وجه من الحق - ان هذا الحوت المذكور لا بد ان يكون مويي ديك ، ولا شيء سواه . غير ان سماكة حوت العنبر قد عرفت فيها امثلة متعددة متكررة عن وحشية الوحش المطارد وخبثه وحققه لذلك فان أولئك الذين دفعتهم المصادفة جاهلين لحوض معركة ضد مويي ديك - اقول لعل أولئك الصيادين في اكثر الاحوال قنعوا ان يسندوا الرعب الذي ولده فيهم الى اخطار سماكة الحيتان عامة ولم يقصروه على حوت واحد . وعلى هذا النحو في اغلب الظن نظر الناس الى ذلك اللقاء الكارث بين آخاب والحوت حتى عهدئذ .

وأما الذين سمعوا من قبل عن الحوت وألفته المصادفة في طريقهم وتسنى لهم ان يروه فكل واحد منهم في مبادي الامور هاجمه وحاول صيده في جسارة ومن دون خشية ، كما يهاجم كل حوت آخر من فصيلته . ولكن مع الزمن كثرت الكوارث الناجمة عن تلك الهجمات ولم تكن قاصرة على رض الارساغ والاعقاب وكسر اعضاء وبتر اخرى ، بل كانت كوارث مميتة لا يرجى معها شيء . وهذه الاخفاقات المتكررة والنوازل كلها احتشدت ونسب ما فيها من الرعب والافزاع الى مويي ديك ، واصبحت مبعث فرق يهز فرائص كثير من الصيادين الباسلين الذين بلغتهم في آخر الامر قصة مويي ديك .

والشائعات الغريبة من كل نوع لا تعجز عن المبالغة وازافة شحنة من الرعب الى التاريخ الصحيح لتلك اللقاءات المميتة ؛ ذلك ان الشائعات المختلقة لا تنمو فحسب نمواً طبيعياً من الاحداث المرعبة المدهشة - مثلاً ان الشجرة التي

اصابتها الصاعقة تلد من حولها نبات « الفطر » - وانما تكثر الشائعات الغريبة في الحياة البحرية اكثر مما تكثر في البرّ ، وتنمو حيناً وجدت نواة من حقيقة صالحة لان تتشبت بها وتلتف من حولها . ومثلما ان البحر يفوق اليابسة في هذا الامر فان سماكة الحيتان تفوق كل نوع آخر من حياة البحر في غرابة الشائعات التي تدور احياناً حولها وفي مبلغ الخوف الذي تثيره . ذلك لان الحواتين - اذا اعتبرتهم فئة واحدة - ليسوا بارئين من ذلك الجهل والاطمئنان الى الخرافة ، وهما من خصائص البحارين ، بل انهم من دون البحارين جميعاً معرضون بحكم مهنتهم الى الاقتراب من كل ما يثير الدهشة والخوف في عرض البحر . انهم لا يقفون امام اعاجيبه الكبرى وجهاً لوجه ولكنهم يصارعون اشداق الرعب بأيديهم . وحين يسافر المرء وحده في تلك المياه النائية ويقطع مبحراً الف ميل ويمر بألف شاطئ فانه لا يقف على ديار ولا نافخ نار ولا يجد شيئاً يرحب بمقدمه تحت تلك الشمس ؛ وفي مثل هذه المواقع طويلاً وعرضاً تهيمن على الحوات الذي يسعى وراء حرفته مؤثرات تجعل تخيلته حبلً بأجنّة عديدة .

لا عجب اذن ان كبر حجم الشائعات عن الحوت الابيض وتضخم بحض انتقالها على مدى المسافات المائية الشاسعة ، حتى انطوت في النهاية على كل نوع من انواع التامبيحات السقيمة وعلى الماعات خداج عن قوى غيبية ناطت بموي ديك في النهاية احوالاً جديدة لم يستمدّها الخيال من عالم المنظورات . ونشر هذا الحوت - في احوال كثيرة - رعباً في النفوس حتى لقلّما وجد بحار من أولئك الذين لم يعرفوا موي ديك الا عن طريق تلك الشائعات يرضى ان يواجه اخطار فكّه مختاراً .

وكانت هناك مؤثرات اخرى اقوى وأشد حيوية تفعل فعلها في النفوس . حتى في عصرنا الحاضر لم تنطمس من اذهان الحواتين جملة « المنزلّة » الاصلية لحوت العنبر من حيث هو يتميز تميزاً مخيفاً عن كل انواع الحيتان ؛ وبينهم اليوم من

يؤهلهم ذكاؤهم وشجاعتهم لمنازلة حوت جرينلاند او الحوت الاثين الا انهم قد يجمعون عن خوض معركة مع حوت العنبر، إما لقلة التجربة او لضعف في الكفاية او للتعب . وعلى اي حال فثمة عدد وفير من الحواتين وبخاصة بين حواتي الامم الذين لا يبحرون تحت ظل العلم الأمريكي لم يواجهوا حوت العنبر مواجهة الخصم العدو، وانما كل معرفتهم الوحيدة عن اللويثان قاصرة على الوحش المغمور الذي كان الصيادون يطاردونه قديماً في البحار الشمالية . وهؤلاء الرجال يصغون وهم جالسون في عتابر السفن برهبة وبرغبة، كرجبة الاطفال في الحكايا عند الموقد ، الى القصص الغريبة الفريدة عن التحويت في البحار الجنوبية . ولا يدرك الهول الجبار الذي يتمتع به حوت العنبر العظيم ادراكاً شعورياً مثل أولئك الذين يذهبون فوق مقدمات السفن التي تصدمه مواجهة .

وكأنما حقيقة قوته التي أيدها الاختبار قد ألفت ظلها امامها في الايام الاسطورية السابقة فنجد اثنين من المؤرخين الطبيعيين المطلعين هما أولاسن وبوفلسن يقولان ان حوت العنبر ليس فحسب مصدر فزع وحيرة لكل مخلوق آخر من مخلوقات البحر ، وانما هو ايضاً بالغ الشراسة والوحشية حتى ليظل ظمآن ابداً الى الدم الانساني . ولم تكن هذه الانطباعات او ما يكاد يشبهها قد طمست على مرّ الزمن حتى عهد كوفيهه ذلك لان البارون نفسه يؤكد في تاريخه الطبيعي ان كل الاسماك (والقرش من بينها) حين ترى حوت العنبر : « تصاب بأقوى انواع الرعب » و « انها من شدة افراطها في السرعة وهي ناجية تندفع نحو الصخور بعنف يؤدي بها الى موت وحي » . ومهما تصحح التجارب العامة في السباحة من هذه المعتقدات يظل الايمان بها لدى الحواتين في بعض التقلبات التي تنال مهنتهم حياً في أذهانهم ، ويظل لتلك المعتقدات وجهها المرعب المروع بل لعلها تحتفظ بما قاله بوفلسن عن الظمأ الى الدم الانساني .

واذ سيطرت على الصيادين رهبة من مويي ديك ولدتها الشائعات والنذر

ذهب غير قليل منهم يتذكرون فيما يتصل بذلك الحوت حوالة الايام القديمة للحصول على حوت العنبر حين كان من الصعب في الغالب ان يغرى حواتو الحوت الاثين المدربون المتمرسون بأن يمحروا بين اخطار تلك الحرب الجديدة الجريئة ، فقد كان هؤلاء الناس يردون قائلين : قد تكون مطاردة الحيتان الاخرى ذات جدوى . أما مطاردة شبح اسمه حوت العنبر وتسديد الحراب نحوه فأمر ليس منوطاً بالانسان الذي لا عاصم له من الفناء . فمن حاول مثل ذلك فقد عرض نفسه حتماً ليذهب أشلاء ممزقة في ذمة الابدية . وفي هذا الموضوع وثائق هامة يمكن الرجوع اليها .

مع ذلك كله كان بعض الصيادين على استعداد رغم هذه الامور جميعاً ليطاردوا مويي ديك ، واتفق لعدد اكبر من الصيادين ان سمعوا عنه أموراً غامضة عن بعد دون احاطة بتفصيلات اية نازلة من النوازل التي أحدثها ، ودون اية متعلقات خرافية ؛ وهؤلاء ايضاً كانوا على حظ من الصلابة والعناد يتيح لهم الثبات في المعركة ان حان حينها . ومن الاماعات الغريبة التي أشرت اليها الماعة اقترنت اخيراً بالحوت الابيض في الازهان ذات النزعة الخرافية وهي ذلك التصور الواهم الذي مثل للناس ان مويي ديك من « أهل الخطوة » . اي انه موجود في كل مكان وقد رآه من أبصروه في أمكنة مختلفة في وقت واحد .

ومها يكن حظ تلك الازهان من سذاجة التصديق فان هذا التصور كان قائماً على ظل خفيف من الاحتمال الاسطوري . وبيان ذلك ان أسرار التيارات البحرية لا تزال مغلقة لم يفكّ طلاسمها البحث العلمي الحصيف ؛ فاذا بقي حوت العنبر تحت السطح لم يستطع مطارده ان يجدوا تفسيراً وتعليلاً للطرق الخفية التي يسلكها ؛ ومن حين الى حين تولدت حول مسالكه أغرب التصورات وأشدها تناقضاً وبخاصة حول الاسباب الغامضة التي ينتقل بها ، بعد ان يقمس الى أغوار بعيدة ، في سرعة فائقة بين أشد المراحل تباعداً .

ومن المتعارف المشهور لدى حوانات الامريكيين والانجليز ، وهو شيء قد دوّنه اسكورسي منذ سنوات تدويناً موثقاً ، ان بعض الحيتان اصطيدت في أقصى الشمال من المحيط الهادي ووجدت في أجسامها أسنة رماح قذفت بها في بحار جرينلاند. وليس هناك ما ينقض القول بأن الفترة التي انقضت بين الهجومين في حال بعض الحيتان لا يمكن ان تتجاوز اياماً معدودات . لهذا اعتقد بعض الحواتين استنتاجاً ان الممر الشمالي الغربي ، وهو عقبة أمام الانسان ، لم يكن يمثل مشكلة لدى الحوت . وهكذا تثبت التجربة الحية الواقعية التي قام بها الاحياء ان الوقائع المروية عن الحوت تكاد توازي تلك الاقاصيص الخرافية امثال الاعجوبة التي رويت في سالف الايام عن جبل استرلو الداخلي في البرتغال وعن قصة أعجب ايضاً تروى عن نبعة أرثوسة قرب سرقوسة بصقلية . اما استرلو فقد قيل ان بحيرة كانت عند قمته وجد فيها حطام سفن عامت على سطحها . وأما ارثوسة فقد زعموا ان مياهها كانت تأتينا من البلاد المقدسة^١ في مجرى خفي تحت الارض .

وما دام الحواتون قد اضطروا الى ألفة هذا اللون من الاعاجيب وعرفوا ان الحوت الابيض نجاحياً بعد هجمات متكررة بطاشة فليس من المستغرب ان يعم بعض أولئك الحواتين في ايمانهم بالخرافات فيعلنوا ان موبى ديك ليس من « اهل الخطوة » فحسب وانما هو خالد ايضاً (لان الخلود هو ان يصبح المرء من أهل الخطوة زمنياً ايضاً) وان جوانحه قد تفرز فيها غابات من الأسنة ومع ذلك يمضي ساجحاً لم يمسه أذى بل انه اذا طعن وأخذ ينفتح دماً عاقداً فما هذا المنظر فيه الا تهاويل خداعة مبعثها الرعب ، ذلك انك ترى نفائثه النقيصة الناصعة بعد مئات من الفراسخ بين امواج لا أثر فيها للدماء .

١ الصواب : من بلاد اليونان ، حسبما ذكرت الاسطورة .

ولو ان هذا الوحش جرّد من جميع هذه الارهام الخارقة الغيبية لظل في بنيته الحقيقية وشخصيته الفذة ما يؤثر في الخيال بقوة غير مألوفة . ذلك ان حجمه المستفيض لم يكن هو الذي يميزه كثيراً عن سائر حيتان العنبر وانما ما ألعنا اليه في موضع آخر من جبهة مجمدة فذة بيضاء كالثلج وحردبة عالية هرمية بيضاء . تلك هي الملامح البارزة فيه ، تلك هي العلامات التي كان يعلن بها للذين يعرفونه عن هويته على مسافة طويلة حتى في البحار المترامية التي لم ترسم لها خرائط .

اما سائر جسمه فكان معلماً أبقع مشمولاً بلون الرخام - صفة غدت في النهاية علماً عليه حين دعي الحوت الابيض ، وكان يسوغ هذه التسمية حقاً بما فيها من دلالة حرفية منظره الناضر حين ينساب وقت الظهيرة في بحر ازرق معتم الزرقة مخلفاً وراءه خيطاً من الزبد الابيض ملعاً كله بومضات ذهبية .

وقد يكون حجمه الهائل ولونه المعلم وفكه السفلي المشوه ، عوامل أحاطته بذلك الرعب الطبيعي الا انها لا تبلغ في ذلك مبلغ ضغنه الذكي الذي ليس له نظير ، فقد روت الاخبار كيف انه أبدى مثل هذا الضغن في هجأته مرة اثر مرة . ثم ان ضغنه لا يبلغ في اثاره الرعب مبلغ تقهره الخداع الذي كان يبعث الهول اكثر من اي شيء آخر . فلقد كان يسبح امام مطارديه الزاهين المتهللين وهو يبدي لهم كل اعراض الذعر وشواهدة ولكن كم مرة استدار فجأة وحمل عليهم حملة منكرة فاما جعل من قواربهم شظايا متناثرة واما ردّهم مدهوشين مأخوذين الى سفنهم .

ولقد شهدت محاولات اقتناصه مصاير عدد من الهلكى ، ولم تكن مثل تلك الكوارث شيئاً شاذاً في السماكة وان لم تلفظ بها اللسنة كثيراً على البر ، الا ان الوحشية الجهنمية التي تتمثل في الحوت الابيض كانت تحيّل لخصومه انها

وليدة تدبير سابق فكلمها أطاح بعضو أو سبب موتاً قالوا ان مثل هذه الامور لا ينزلها بخصوصه خصم غير ذكي .

قدّر لنفسك إذن كيف تبلغ أذهان صياديه المستيئسين الى ذروة السخط اللاهب الحائر حين كانوا يسبحون عائدين وسط شظايا من القوارب كأنها العصف المأكول وأشلاء غارقة من رفاق مزقوا ارباً ارباً ، ليخرجوا من تلك الحثارة البيضاء التي عقدتها حولهم غضب الحوت المريع الى ضوء الشمس الهادئ المحقق بهدوئه وابتسامته كأنما يزف بشرى مولد او عرس .

غير أن قبطاناً رأى قواربه الثلاثة محطمة من حوله ورأى المجاذيف والرجال ينسابون في احشاء الدوامات فانزع مديته من مقدم سفينته المنحطم وانقض على الحوت كما ينقض المبارز الاركناسي على خصمه ، وسعى في خنق عشوائي بشفرة تبلغ ست بوصات الى ان يستل حياة الحوت من أعماق أعماقه السحيقة . ذلك هو آخاب القبطان . ثم كان ما حدث ان طوَّح موبى ديك فكّهُ السفلي الذي يشبه المنجل ، من تحته فجأة ، وحصد به رجل آخاب ، كما يحشّ الحصاد سنبله في الحقل . وما كان لأحد سواه ان يسدد ضربة مثلها ناضجة بالضغينة الحاقدة ، لا استثنى من ذلك تركيا معممأ او احد ابناء البندقية او الملايو الذين يستأجرون للقتل . اذن فليس ثمة من ريب في ان آخاب بعد ذلك اللقاء الذي كاد يودي به هالكاً احتقب في صدره نحو الحوت حققد الموتور ، وزاد حقهده ضراماً انه أخذ في علمته الحانقة يرى الحوت مسؤولاً عن مصابه الجسائي كله وعن مرارة الحزن والضغينة التي استولت على عقله وروحه . وحين مضى الحوت الابيض أمامه سباحاً تمثله صورة المسّ التي تجسدت فيها كل العوامل الحاقدة التي يحس بها بعض الحبشاء الماكرين تتأكل في دخائل نفوسهم حتى لتترك أحدهم يحيا بنصف قلب وبعض رئة . ذلك الحققد الجرد الذي كان منذ بدء الخليقة ، ذلك الحققد الذي يؤمن بعض المسيحيين المحدثين ان نصف

العالم ينتمي الى سلطانه ، ذلك الحقد الذي اتخذ له الاوفيتيون^١ القدامى في المشرق تمثال شيطان وعبدوه ، لم يسجد آخاب أمامه خاشعاً عابداً مثلهم وانما نقل صورته وهو في شبه بحران الى الحوت الابيض البغيض وضرّم في نفسه الثورة الناقمة عليه وهو يتلمّس مدى التشويه في جسمه وروحه . ورأى آخاب الذي أصابه المسّ كل ما يثير الجنون ويستفز العذاب وكل ما يستثير روااسب الاشياء ، وكل حقيقة يستكن فيها الحقد وكل ما يفتت القوى العضلية ويشوي الأدمغة ، وكل ضروب الشيطنة الماكرة التي تعشش في الحياة والفكر ، رأى كل ذلك اي كل الشرّ مجتمعاً قد تمثل كائناتاً مرثياً يمكن له ان ينقض هاجماً عليه في صورة موبى ديك . وفوق حردبة الحوت البيضاء كدّس جميع الغضب والكراهة اللذين جرىا في نفوس بني جنسه منذ عهد آدم ثم فجّر قنبلة قلبه الملتهبة على تلك الحردبة كأنما اتخذ من صدره مدفعاً .

ولعلّ هذا المسّ فيه لم ينشأ دفعة ، وقت ان فقد رجله ، ذلك انه حين انقض على الوحش ومديته في يده اطلق العنان لعداوة مفاجئة متضمرة جسدية فلما تلقى الضربة التي بترت منه شلواً حينئذٍ لعله لم يحسّ إلا بالتمزق الجسدي المؤلم ولا شيء سواه . غير ان آخاب حين اضطرت الصدمة الصادمة للعودة نحو الوطن واستلقى اشهرأ مسهدة طويلة الايام والاسباع ، ممدداً هو والعذاب في ارجوحة واحدة يدور في صبرة قرّ الشتاء حول رأس باتاغونيا الموحش العاوي ، حينئذٍ تسرب النزيف من جسمه الممزق الى روحه الجريحة وبالعكس وتمازج النزيفان معاً فجعله اختلاطهما مختلطاً مجنوناً . ومما يؤكد ان هذا المسّ النهائي لم يصبه إلا وهو عائد بعد ذلك اللقاء ، انه كان في بعض الفترات اثناء الرحلة يهذي كلمقامور المحبول ؛ وان قوته الحيوية ، وان فقد رجله ، كانت ما تزال تكمن في

١ فرقة غنوصية بدائية يقدرّون قوى الشر ويشبهون في هذا فرقة اليزيدية .

صدره الاسود وقد زادت غيبوبته حدة حتى اضطر ضباطه ان يوثقوه بالاغلال وهو مبحر يهذي في أرجوحته . وأخذ وهو في معطف المجانين الضيق المشدود يتقلب وفق تناوح الرياح المجنونة ؛ وعندما وقعت السفينة في عروض مقبولة عامت وقد نشرت أشرعها الخفيفة في ريح رخاء عبر المياه الاستوائية الساجية .

وحينئذ دلت الظواهر جميعاً على ان الرجل العجوز خلف بحرانه الهادي وراءه بين أثباج رأس هورن وخرج من كهفه المظلم الى نعيم النور والهواء . وحين بدت طلعتة حازمة واثقة على شحوبها ، وأخذ يصدر اوامره الهادئة الرزينة مرة اخرى ، وتوجه ضباطه الى الله يشكرونها على ان جنون قبطانهم قد بارحه ، اقول حتى حينئذ كان آخاب ما يزال يهذي في دخيلة نفسه . ذلك ان الجنون الانساني كثيراً ما يكون ما كراً خبيثاً ، يتحول ، وقد ظننته تولسى ، في صورة اشد قدرة على التسلل لواذاً . وكذلك كان جنون آخاب المطبق ، فانه لم يهدأ وانما انكمش وغار في اعماق سحيفة كنهر الهدسن حين يضيق به المجرى وماؤه على حاله من الغزارة وينفذ من ممر التلال فوق عمق لا يسبر له غور ، وفي المجرى الضيق الذي انساب فيه جنون آخاب الغزير المستعرض لم تتخلف نقطة واحدة كذلك لم تفرق في ذلك الجنون الغزير المستعرض نقطة واحدة من عقله الطبيعي الكبير . فذلك العامل الحيوي الذي كان ، اصبح اداة حيوية ، واذا صح لهذه الاستعارة العنيفة ان تصدق قلت ان جنونه الخاص غزا تعقله العام وأخذه اسيراً وحول مدفعه المصوب نحو هدفه المجنون حتى ان آخاب لم يفقد شيئاً من قوته الموجهة نحو غايته الوحيدة بل أصبح يمتلك ألف ضعف من الطاقة التي كان يوجهها ابدأ في عهد التعقل نحو اي هدف واحد معقول .

وفي هذا القدر كفاية . غير ان الجزء الاكبر الاعمق الاعتم من آخاب لم ينل منّا تلميحاً كاشفاً . لا طائل في نبش الاعماق ليعرفها الناس وكل حقيقة فانما تكمن في الاعماق . نحن الآن نقف على قمة فندق كلوني المروّس^١ فلنغادره

١ متحف بباريس حاول ملفل ان يزوره في اول كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ فوجده مغلقاً .

مهما يكن فخماً عجبياً ذاهبين في طرق متعرجة من خلال قلبه . شقي طريقك
ايتها الارواح ذات المنزع الشريف الاسيان الى أبهاء ثرمس الواسعة الرومانية في
طرازها حيث اصول جلال الانسان اي جوهره المهيّب يجلس في وقار الملتحين
بعيداً بعيداً تحت الابراج الوهمية القائمة في هذه الارض العليا ، جوهر عاديّ
قديم مدفون تحت العاديّات ، جالس على عرش من اجساد انسانية مبتورة
الاطراف . وتسخر الآلهة العظيمة من ذلك الملك المأسور جالساً فوق عرش
محطم مشوه . ويجلس هو كأنه تمثال امرأة اتخذ سارية في رواق ، صابراً ساكناً
يسند فوق جبهته الباردة اروقة العصور . تعطفي متعرجة في طريقك ايتها
الارواح الذاهبة في استكبارها واساها . سلي ذلك الملك المستكبر الاسيان .
صفاتك من صفاته ومن أشبه اباه فما ظلم ! فأنت من نسله ايتها الارواح الغضة
المنفية ، ربيبة ملك . سليه فلا يعرف سرّ الدولة العريق الا من هذا الوالد
الجامم .

كانت تلتمع في قلب آخاب ومضة فحواها : كل وسائلي سليمة عاقلة غير ان
دوافعي وغاياتي مجنونة . الا انه كان يعرف ايضاً دون ان تكون لديه قوة ليقتل
الحقيقة او ليغيرها او ليتحاشاها بأنه كان يوارى حقيقته ويكتمها عن الناس
منذ عهد بعيد وما يزال يوارىها على نحو ما . الا ان أمر ذلك الكتمان كان يقع
تحت ادراكه الحسّي فحسب ولم يكن خاضعاً لحزمه الارادي . ومع ذلك فقد
وفق في التورية والتنكر حتى انه حين كان يخطو على البر برجل عاجية لم يتصوره
اي نانتوكتي الا انه حزين حزناً طبيعياً ، بلغ منه مبلغاً ، بسبب ذلك العارض
الفظيع الذي أصابه .

• وقد نسب الناس الخبر عن البحران الذي أصابه في البحر الى سبب مماثل
ايضاً ؛ وكذلك فعلوا ايضاً في شأن ذلك القلب المزاجي الذي أصبح يخيم دائماً
على جبهته من بعد حتى اليوم الذي أبحرت الباقوطة فيه في هذه الرحلة . ولعل

أهل تلك الجزيرة الذكية الماهرين في التقدير والحساب كانوا أبعد من ان يسيثوا الظن بكفائته للخروج في سفرة تحويت اخرى بسبب من تلك الاعراض السكاكية فوق جبينه فجنحوا الى ان يُسرّوا التوهم بأن هذه الاسباب نفسها جعلته صالحاً متأهباً للقيام بمطاردة مليئة بالغضب والوحشية كالمطاردة الدامية في صيد الحيتان . واذا وجد رجل يعرضه الحرّضُ الدخيل ويحرق الغضب ظاهراً ، وقد دامت نفسه بفكرة لا يرجى شفاؤها ذات مخالب محددة ضارية لا تنكل فمثل هذا الرجل قد يكون « عينه فرارُهُ » — هو هو الذي يصلح ان يقذف ربحه ويرفع حربته ضد أشد الوحوش هولاً وافزاعاً . واذا تعرّض الظن بأنه عاجز جسدياً ، فانه قد يكون أبعد الناس كفاية في ان يحفز اتباعه ويذمرهم ويستثير نخوتهم عند الهجوم . ومهما يكن من أمر هذا التقدير ، وهو يقيني ، فان آخاب الذي جعل سرّ غضبه المتضرم — وهو سرّ مجنون — حبيس نفسه وأقفل عليه وضرب بمزلاج ، قد عمد الى السفر في هذه الرحلة ولديه غاية — وحيدة — لا ثاني لها ، استغرقت وكده كله ، وتلك هي صيد الحوت الابيض . ولو ان بعض معارفه القدامى على البر خطر لهم شيء مما كان يعتلج في نفسه لانقضت عليه ارواحهم المأخوذة المعتدلة وانتزعت السفينة من مثل ذلك الرجل الشيطاني ! كانوا يسعون الى رحلات دارّة بالربح ليقبضوا بالغلة الحاصلة دولارات خارجة من دار الضرب ، اما هو فكان مطوي النفس على انتقام خارق وقح لا ينادى وليده .

ها هنا اذن شيخ أشيب الرأس كافر النفس يطارد باللعنات حوت أيوب حول العالم على رأس بحارة جلهم من أفناء الخلعاء المارقين والاراذل المنبوذين وآكلي لحوم الآدميين . وما زاد معنوياتهم ضعفاً قلة غناء الفضيلة او الاستقامة الخذولة التي لا تجد لها نصيراً لدى استاربك ، والخفة وقلة المبالاة والاستهتار — تلك الخلال التي يعتصم بها اسطب ، والتوسط الغالب في الكفاية عند فلاسك . مثل هؤلاء البحارة ، يسوسهم مثل هؤلاء الضباط ، كأنما انتقاهم وحشدهم قدر

جهنمي ليعينوه على ثأره المجنون . كيف اتفق لهم ان استجابوا عن بكرة أبيهم لغضب الشيخ - بأبي سحر شرير حاز ارواحهم حتى انتحلوا الكراهية التي لديه فأصبحت هي كراهيتهم ، وأصبح الحوت الابيض عدوهم اللدود مثلاً هو عدوه - كيف تمّ كل ذلك ، كيف كان الحوت الابيض في نظرهم او كيف كان يبدو لفهمهم الخفي اللاواعي على نحو مبهم يقيني في صورة الشيطان الكبير الذي ينساب في بحار الحياة - هل من تفسير لكل ذلك ؟ هذا يتطلب عمقاً أبعد غوراً مما يستطيعه اسماعيل . فينا جميعاً حفّار دخيل لا يكفّ عن العمل في منجمه ولكن أنى لنا ان ندري الى اين يتجه النفق الذي يحفره من الاستماع الى صوت فأسه المكتوم المتنقل ابداً ؟ من ذا الذي لا يحس بجذبة ذراع لا يستطيع مقاومتها ؟ اي زورق « اسكف » بين اربعة وسبعين مربوطة بجبل يقف ثابتاً لا يهتز ؟ اما انا فاني أسلمت نفسي طائعاً لرحمة الزمان والمكان . وبيننا انا في أشد اندفاع لمواجهة الحوت لا أرى شيئاً في ذلك الوحش سوى دائرة السوء المميت .

بياض الحوت

ماذا كان يعني الحوت الابيض لدى آخاب، ذلك ما أُلعت اليه ؛ اما ماذا كان يعني لديّ -- في بعض الاحايين -- فذلك شيء لم اتحدث عنه حتى الآن .

هناك خاطرة اخرى او قل رعب غامض لا يوصف فيما يتصل بموي ديك، عدا تلك الاعتبارات الواضحة التي لم تستطع الا ان توقظ بعض الفزع والتوجس في روح الانسان . غير ان تلك الخاطرة كانت تهيم في حديثها هيمنة تامة على سائر المخاوف . الا انها غريبة غامضة ، قريبة يعجز التعبير عنها ، حتى لأكاد أياس من وضعها في صورة مفهومة . تلك هي بياض الحوت فقد كانت بياضه يفرزني اكثر من كل شيء آخر . ولكن كيف أرجو ان اعبر عن نفسي في هذا الامر ؟ على انه لا بد لي من التعبير عن نفسي ولو على نحو غائم عارض والا كانت كل هذه الفصول خواء .

كثير من الاشياء الطبيعية يزيد البياض في جمالها ويرهف منه كأنما يسكب عليها فضيلة من ذاته، مثما هي الحال في الرخام والسكرجل الياباني والآلآء . وقد رأت كثير من الشعوب -- حتى الهمجية منها -- في هذا اللون تفوقاً ملكياً، حتى ان قدامى ملوك بيجو العظماء وضعوا لقب « سيد الفيلة البيض » على سائر المتعلقات الملكية الفخيمة، وأبرز ملوك سيام الحديثين صورة الفيل

الابيض على العَلَم الملكي^١ . وحمل عَلم هانوفر صورة وحيدة هي صورة جواد فاره ناصع البياض . اما الامبراطورية النمساوية القيصرية التي ورثت روما السيدة المتبسطة فقد اتخذت اللون الابيض رمزاً امبراطورياً . وبسبب البياض كذلك نسب التفوق الى الجنس الانساني فمنح الانسان الابيض سيادة مثالية فوق كل الشعوب الملونة . ثم كان البياض الى ذلك كله دلالة على السرور ، فكان الرومان يرون الحجر الابيض علامة على اليوم البهيج . وفي كثير من الشعائر والرموز جعل هذا اللون رمزاً لاشياء حساسة شريفة مثل طهر العروس وسمت الشيخوخة . وبين الحمر في أمريكا يعد تقديم النطاق من الخرز الابيض أعمق مظاهر التشريف والتبجيل . ويمثل البياض في كثير من الاجواء عظمة العدالة في فروة القاضي ، ويضفي شأناً على سلطان الملوك والملكات الذين يمتطون الجياد الكريمة الناصعة . وقد جعل البياض في غيبيات الاديان الكبرى رمزاً للطهارة المقدسة والسلطان ؛ فيرى الجوس ان الشعلة البيضاء المنشعبة أقدم شيء على المذبح ؛ وتقول الاساطير اليونانية ان زفس العظيم تجسد ذات مرة في صورة ثور ناصع البياض . وكان الايروقيون ذوو المعتقد الكريم يضحون في منتصف الشتاء كلباً أبيض مقدساً ويتخذون ذلك اليوم أقدم أعيادهم ، ويعتقدون ان ذلك الحيوان الطاهر المخلص أنقى رسول يذهب الى « الروح العظيم » حاملاً له تقريراً سنوياً عن اخلاصهم ووفائهم . ومن اللفظة اللاتينية التي تعني أبيض alb استمد الاساقفة المسيحيون اسم واحد من اقدس الثياب التي يلبسونها وهو « الألب » او الرداء المنزّر الذي يلبسونه تحت الكازاك . وكان البياض في الدين الرومي يستعمل بين مظاهر الأبهة المقدسة في ذكرى آلام الصلب . وفي رؤيا القديس يوحنا تقدم

١ كانت الحرب بين امراء سيام في القرن السادس عشر تقوم في سبيل احتياز الفيل الابيض ، وهم يسمون الملك « ملك الفيل الابيض » ، ويكون هذا الفيل ملكاً على سائر الفيلة ، والمسألة راجعة الى عقيدة دينية في اصلها .

التياب البيض الى الذين قتلوا من أجل كلمة الله ، ويقف الاربعة والعشرون شيخاً متسربلين بثياب بيض حول العرش الابيض العظيم ، والواحد الذي استوى على العرش أبيض كأنه الصوف ؛ ومع كل هذه الشئون التي تجمع فيها كل ما هو عذب وشريف ورائع فانه ما يزال يكمن في دخيلة الفكرة عن البياض شيء روائع يصيب الروح بالهلع اكثر من الحمرة التي تفرعها حين ترى الدماء .

وهذه هي الصفة الروّاعة التي تجعل البياض اذا فصل من القرائن الوديعة اللطيفة ووصل بشيء مرعب ، يزيد ما فيه من رعب حتى الذرورة . تأمل الدب القطبي الابيض والقرش الابيض في البحار الاستوائية : ما الذي يجعلها رعباً راعباً سوى بياضها الناعم الشامل ؟ ذلك البياض الكالح هو الذي يضيفي ذلك اللطف البغيض الممقوت الذي يثير التقزز اكثر مما يثير الفزع على الحلقمة الخرساء في مظهرها . حتى ان النمر ذا الخلب المضرّي في برده التي تنبئ عن شرسته لا يستطيع ان يصيب الشجاعة بالقرنح مثلما يصيبها الدب او القرش المشتعلان بشملة بياض * .

* بالاشارة الى الدب القطبي فقد يقول من يلذه ان يتعمق هذه المسألة : ليس بياض الدب اذا نظرت اليه منفصلاً هو الذي يعلي من درجة الرعب الذي لا يطاق في هذا الوحش اذ قد يقال انك اذا حالت هذا الرعب المستزاد وجدته ينشأ من ان وحشية هذا المخلوق محاطة من حولها بجزرة من البراءة والحب السماويين فاذا يجتمع شعوران متناقضان لدينا يخيفنا الدب القطبي بهذه المفارقة ولكن لو سلمنا بصحة هذا كله لقلنا انه لولا البياض لما تمّ هذا الخوف الحاد . وأما القرش الابيض فان المسكينة الشبحية المناسبة في صورة ذلك الحيوان حين يرى في أحواله العادية تضاهي على نحو غريب تلك الصفة نفسها في الدب القطبي . وقد وفق الفرنسيون في ابراز تلك الصفة في القرش في تسميتهم له باسم Requiem وهي كلمة تذكر بلفظة Requiem «وتعني راحة الموت» - ثم اطلقت على القداوس الجنائزي - وهذا القرش ابيض صامت صمت الموت .

وفكّر في طير الفطرس من اين جاءت سحب الدهشة الروحية والرعب
الشاحب التي يبحر فيها ذلك الشبح الابيض في الأخيلة جميعاً . لم يكن كولردج
اول من ألقى تلك الرقية السحرية . اول من ألقاها شاعر الحضرة الالهية الذي
لا يشاري ولا يماري أعني الطبيعة * .

* اذكر اول طائر فطرس رأيته في حياتي . كان ذلك في هبة ريح طويلة في المياه فوق البحار
القطبية ؛ من نوبة حراسة الظهيرة في الاسفل صعدت الى ظهر السفينة المغطى بالغيوم وهناك عند
مدخل العنابر رأيت شيئاً مريشاً ملكي السميت ذا بياض صافٍ وعرف مقوس روماني وبين الحين
والحين كان يقوّس جناحي ملاك كأنما يريد ان يعانق تابوت عهد . وكانت تهزه خفقات وانتفاضات
عجيبة . لم يصبه اذى جسائي غير انه كان يرسل الصيحات كأنه شبح ملك في مصيبة لا قبل له
بها وأظنني رأيت في عينيه الغريبتين اللتين لا يستطيع تفسيرهما اسراراً تجلّي فيها الله فانحنيت كما
انحنى ابراهيم قدام الملائكة . كان ذلك الشيء الابيض ابيض ناصعاً يفرد جناحيه على مدى واسع
وكنت في تلك المياه المنقطعة قد فقدت الذكريات التيمسة المنحرفة — ذكريات التقاليد والمدن .
وطويلاً حدثت في تلك الاعجوبة من الريش . لا استطيع ان احدث بما تغلغل في نفسي وانما ألمح
اليه الماحاً . واخيراً استيقظت والتفت فسألت بحاراً ؛ اي طير هو ذاك ؟ فأجاب : goney . ولم
اكن سمعت بهذا الاسم من قبل واعتقد ان هذا الطير المجيد غير معروف للناس على البر ؛ ابداً !
ومن بعد عرفت ان هذه اللفظة هي اسم طائر الفطرس عند بعض الملاحين ؛ ولا يمكن ان تكون
قصيدة كولردج العجيبة ذات علاقة بتلك الانطباعات الغريبة التي ألت بي عندما رأيت ذلك
الطائر على ظهر السفينة ذلك اني لم اكن قرأت القصيدة ولم اكن اعرف انه هو طائر الفطرس .
غير اني حين اقول هذا فاني بطريقة غير مباشرة ازيد من ألمعية فضل تلك القصيدة وصاحبها .

أؤكد اذن ان سر السحر يكمن في ذلك البياض الجسدي العجيب في الطائر وهي حقيقة
يؤيدها تسميتهم لبعض انواع الفطرس باسم الفطرس الداكن وقد رأيت هذا النوع ولكن مشاعري
لم تكن كمشاعري يوم رأيت الفطرس الابيض .

ولكن كيف امسك ذلك الطائر الغريب ؟ هل تصون السر ؟ ان كنت تفعل حكيت لك .
بصنارة خائنة غدارة وحبل حين كان الطائر يعم فوق الماء . واخيراً جعل منه القبطان رسولاً
اذ ربط حول عنقه قطعة من جلد كتب عليها الوقت والمكان ثم اطلقه . ولكي لا اشك في ان
تلك القطعة الجلدية التي كتبت ليراها الناس اخذت في السماء حين طار الطائر الابيض لينضم الى
صف الملائكة المهللين المسبحين !

وما أعظم شهرة جـواد السهوب الابيض في تواريخ الغرب الامريكي وفي الموروث الهندي ! حصان رائع فاره في بياض اللبن ، ذو عينين نجلاوين ورأس صغير وجؤجؤ راب وعزة كعزة ألف ملك وهو في هيئته السماء المغالية في الاستخفاف ، انتخب ملكاً على قطعان الخيل البرية العديدة وكانت مراعيها في تلك الايام تمتد بين جبال روكي وجبال الليفاني . في طبيعتها الوهاجة كان يرود بها مرتبثاً متجهاً نحو الغرب كأنه ذلك النجم المرموق الذي يقود كل مساء جيوش الضياء . وقد زودته معرفته التي تشبه الشلال المتألىء الوضاء وذنبه الذي يشبه الشهاب المنقض بزينة أشد تألقاً مما يستطيع صاغة الذهب والفضة ان يزودره به . ترى فيه طيفاً ملكياً ملائكياً من ذلك العالم الغربي الحي الذي كان يجلو لأعين قدامى القناصين وناصبي الفخاخ أجداد الايام الاولى حين كان آدم يمشي في أبهة وسناء كأنه إله ، مقعنساً غير هياب كأنه هذا الجواد الجريء . وسواء أكان ذلك الجواد الابيض يمضي بين أركان حربه ومارشالاته في طبيعة كتائب تموج دوماً فوق السهول كأنها نهر أوهايو او كان بين رعاياه المطيفين به وهي ترعى في نطاق واسع على مدى الافق فانه كان يتفقد ما بمنخريه الدافئين الحميرين وسط بياضه البرود . وأياً كان المظهر الذي يطالع به الناس فقد ظل لدى أشجع الهنود موضع اجلال راعش ورهبة متهيبة . وليس للشك مجال فيما بني على شهادة الاساطير عن هذا الجواد العتيق اذ تقول ان بياضه الروحي بخاصة هو الذي وشحه بالقداسة ، وأن في هذه القداسة ما استخرج الخشوع من العابدين وفيها ما أثار في الوقت نفسه رعباً لا يحده وصف .

غير ان هناك أمثلة اخرى يفقد فيها البياض كل هذه الحوائث وذلك المجد الغريب الذي يكتنفه في الجواد الابيض وطائر الفطرس .

ما الذي في المغرب ينفر العين ويصدمها حتى ليشمئز منه أحياناً الاهل والاصحاب ؟ هو ذلك البياض الذي يكتنفه . لقد خلق المغرب في أحسن تقويم

كغيره من الناس دون ان يكون فيه تشويه جوهري ، ومع ذلك فان تفشعّ
البياض فيه يجعله بشعاً اكثر من اي طرح بشع قبيح . فلم ذلك ؟

ولم تنسَ الطبيعة في مظاهر أخرى ان تجعل البياض صفة تكلل بها سائر
صفات المفزع من قواها الخفية او شبه الخفية التي ليست - على خفاءها - أقلّ
من سواها حقداً وحفيظة ؛ فشبح البحار الجنوبية الضاوي يسمونه بسبب
مظهره الثلجي « العاصفة البيضاء » . كذلك لم ينسَ فنّ الحقد الانساني ان
يستعين بهذا اللون القدير في بعض الاحداث التاريخية . فالمستيثسون المقلّسون
بالقلانس البيض من غنت يقدمون على ذبح وكيل الحاكم بمقاطعتهم في سوق
المدينة^١ ؛ ومما يزيد في روعة وصف الحادث حسبا أورده فرواسارت اتخاذ
تلك العصابة رمزاً لثلجي اللون - أعني قلانس بيضاء يتقنعون بها .

وفي بعض الامور لا تقصر التجربة العامة المتوارثة عند البشر جميعاً عن ان
تشهد بما لهذا اللون من قوة خارقة للعادة . فلا ريب في ان الصفة المنظورة في
منظر الميت التي تخيف المشاهد هي ذلك الشحوب الرخامي البادي فيها كأنما
الشحوب يشبه شارة الهلع في العالم الثاني . مثلاً انه شارة الجزع في عالم الفناء .
ومن صفرة الموتى استعرنا اللون المعبر للأكفان التي ندرج فيها الموتى . كذلك
نحن لا ننسى ان نطرح هذه الملاءة البيضاء في أساطيرنا على كل الاشباح فنصورها
وقد أخذت ترتفع في ضباب أبيض كاللبن - ولننصف الى ما تقدم وهذه

١ كان ذلك عام ١٣٧٩ اذ اقدمت عصابة من ذوي المبعات البيض يقودها جون ليون على
قتل روجر دوترف وكييل ايرل مقاطعة فلاندر ، في سوق المدينة . وقد وصف جون فرواسارت
هذه الحادثة في كتابه : « حوليات انجلترا وفرنسا واسبانيا » .

المفزعَات آخذة بمجامع قلوبنا ، ان الواعظ الانجيلي حين يريد ان يجعل ملك المفزعَات مشخِصاً متجسداً يصوره راكباً على حصان أبيض^١ .

اذن فان الانسان قد يجعل البياض رمزاً للجليل والمهيّب ولكنه لا أحد ينكر ان هذا البياض في حالات نفسية اخرى قد يستحضر في أعمتى دلالاته المثالية صورة الشبح أمام الروح .

واذا كانت هذه المسألة تلقى اجماعاً فكيف للانسان الفاني ان يعملها ؟ قد يحاول تحليلها فيجده أمراً مستحيلاً . إذن فهل نستطيع ان نستقرئ أمثلة يكون فيها البياض قد تعرى او كاد من الملابس المباشرة التي تلتصق به معاني الرعب ، غير أنه مع ذلك يظل يأخذ بمجامع قلوبنا على نحو معتدل ؟ هل نرجو ان تقع على قفس يهديننا الى السبب الخبيء الذي نفتش عنه ؟

تعال نجرب . لكن لنذكر ان الدقة المتسللة في مثل هذا الامر لا تستجيب الا للدقة المتلمسة ولا يستطيع امرؤ ان يتبع آخر في هذه المسارب دون عون من خيال ، ومع ان بعض الانطباعات التخيلية التي سنقدمها هنا كانت — دون ريب — شراكة بين معظم الناس الا انه قلما وعاما أحد منهم في حينها ولذلك فقد يعجز المرء عن تذكرها في هذا المقام .

تصوّر شخصاً ذا مثالية لم ينلها بالتشقيف ، اتفق له ان يعرف طبيعة أحد العنصرة ، معرفة عابرة غير محكمة ، وقل لي لماذا تسترسل في خياله اذا ذكر

١ انظر سمر الرؤيا ٦ : ٢ فنظرت واذا فرس ابيض والجالس عليه معه قوس وقد أعطي اكليلاً ؛ والسفر نفسه : ٨ واذا فرس أخضر والجالس عليه اسمه الموت (وهنا أخضر ترمز الى الشحوب) .

اسبوع العنصرة محض ذكر سلسلة من مواكب طويلة كثيفة صامتة يمشي فيها حجاج بطيئ الخطوات مطأطئ الهامات مقنعون بقلانس من الثلج الذي سقط حديثاً ؟ او خذ بروتستانتيًا أمياً ساذجاً من احدى الولايات المتوسطة بأمريكا وقل لماذا اذا ذكرت له الراهب الابيض او الراهبة البيضاء ذكرًا عابراً آثار ذلك في روحه صورة تمثال أعمى .

وقلعة لندن البيضاء : عدّ عن الروايات التي تحدثنا عن من سجن فيها من الملوك والحاربين فتلك روايات لا تعلل تماماً خطورة شأنها وقل لي ما الذي يجعل تلك القلعة ذات أثر بعيد في خيال الأمريكي الذي لم يتمرس بالاسفار أبلى من أثر تينك القلعتين الشاهقتين جارتيهما : قلعة بايورد والقلعة الدامية .

ثم الجبال البيض في نيوهامشير وهي قلاع أعلى وأرفع : لم يطيف بالروح لدى ذكر اسمها محض ذكر في بعض الحالات النفسية « شبحية » مهولة ضخمة بينا يبعث ذكر سلاسل فرجينيا الزرقاء « حلمية » ناعمة ندية قصية . ان لم يقع الخيال في إسار « الطيفية » اذا ذكر اسم البحر الابيض - بقطع النظر عن موقعه - اما اسم البحر الاصفر فانه يهدد الخيال بخواطر عن أصائل وديعة مزعفرة قضاها المرء على الامواج ، مشفوعة بأهوى ساعات الغروب وأشدها سينة . او لنأخذ مثلاً لا علاقة له بالمادة ، يتأدى الى الخيال خالصاً شفافاً : لماذا اذ نقرأ في قصص أوروبا الوسطى عن الجنيات القديمة يتبدى لنا « الرجل الطويل الشاحب » الذي يعيش في غابات هارتز - وهو الذي تنساب صفوته الثابتة الملازمة بين خضرة الغابات دون ان تحدث حفيفاً - أقول : لماذا يتمثل هذا الشبح أشد افزاعاً من جميع الأقسام الذين يزعمون ويصرخون في جنبات الغاب ؟

ومدينة ليا^١ التي لا تسكب دمة واحدة على مصائبها : ليس الانقباض الذي يعلو صفحتها صادراً فحسب عن تذكرها للزلازل التي دكت كاتدرائيتها ، ولا عن ضروب الذعر التي أثارها بحارها المحتاجة ، ولا عن مرأى ذلك الحقل المديد من المآذن والمنارات المائلة وأحجار الزوايا المتناثرة والصلبان المنحنية (كأنها السواري المائلة في اسطول راس) ، وشوارع ضواحيها قد كدست فيها الجدران تكديساً كأنها رزمة من البطائق مطروحة . لا ليست هذه الامور وحدها هي التي تجعل ليا أغرب المدن وأشدّها تعاسة وانما لبست ليا القناع الابيض ، وفي بياض مصابها رعب أشد هولاً . وهذا البياض يجعل خرائبها كأنها حدثت أمس وان كانت هي قديمة مثل بزارو ، ولا يسمح بنمو الخضرة على دمنها ومطارح بلاها ، وانما ينشر فوق حصونها المتهاوية صفرة السكّنة الصارمة فتخلد ما فيها من تشويه .

وأنا أعلم ان المفهوم العام لدى الناس لا يعترف بأن ظاهرة البياض هي العامل الاول الذي يزيد في رعب ما هو مرعب وأن العقل ذا الخيال القاصر لا يرى شيئاً من الرعب في تلك المظاهر التي يراها عقل آخر حافلة بالرعب بسبب من هذه الظاهرة وحدها وبخاصة حين تبدو في اي شكل يشارف حدود الخرس او الشمول . ولعلمي أوضح ما أعنيه بهذين القولين في مثلين تالين :

أولاً : حين يقترّب الملاح من شواطئ بلاد أجنبية يهبّ الى الحراسة حين يسمع ليلاً هدير الموجات الكبير ويحسّ بقدر من الهلع يكفي ليشحذ ملكاته وحواسه . ولكن ادعه في مثل هذه الظروف نفسها من أرجوحته ليرى سفينته

١ أسسها فرانشسكو بيزارا عام ١٥٣٥ واتخذها عاصمة، وقد هدمت الزلازل عام ١٧٤٦ قسماً كبيراً منها، كذلك أحدث فيها زلزال آخر عام ١٨٢٨ خراباً بالغاً ، وقد زارها ملغل زورة قصيرة بين ٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٣ و ٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٤٤ .

مبحرة خلال منتصف الليل في بحر من البياض الذي يشبه اللبن — كأن ألسنة برّ تطيف به من كل جانب وقد أخذت تسبح من حوله حشود من الدببة البيض المقلنسة المتدافعة — حينئذٍ يشعر برعب صامت كالذي تبعثه الخرافات ؛ وإذا طيف المياه المبيضة الملففة بالاكفان يرعبه كأنه شبح حقيقي وعبثاً ما يحاول الحبل ان يقنعه بأنه ما يزال بعيداً عن ان يبلغ الأغوار سبراً . وانما يهبط قلبه وترتخي يده عن دفعة سفينته ، ولا يطمئن باله الا اذا أصبح فوق الماء الازرق . ولكن أين هو هذا الملاح الذي قد يقول لك : « سيدي لم يكن خوفي من الارتطام بصخور خبيثة وانما كان خوفاً من ذلك البياض المفزع هو الذي أقلقني » .

ثانياً : ان الهندي من أبناء بيرو لا تبعث في نفسه رؤية جبال الانديز التي يعلوها هودج من الثلوج اي شيء من الرعب ، اللهم الا ان يكون من تصور الوحشة والعزلة الصقيعية الابدية التي تهيم على تلك الاعالي الشاسعة وتخيل للمرء على نحو طبيعي ما قد يصيبه من خوف لو انه ضلّ طريقه في تلك العزلة الموحشة . ومثل ذلك حال قاطع الاخشاب في الغرب الامريكي فانه يلحظ السهوب المترامية بقسط ضئيل من الاكتراث وقد التحفت بالثلج وليس فيها ظل لشجرة او لغصن يوقظ الغيبوبة المصلوبة التي نشرها البياض . وليس كذلك حال البحار حين يرى مناظر البحار القطبية فانه يرتعش من البرد وتشرف سفينته على الفرق ، وكأنما قوى الصقيع والهواء تأخذه بحيلة جهنمية من حيل المشعوذين فبدلاً من ان تريحه قوس قزح متحدثا اليه بالرجاء وبالعزاء في محنته ، تخيل له انه يرى مقبرة كالحة كاشرة عن أنيابها له ، وفيها نصب ثلجية دقيقة وصلبان مشطّاة متفلقة .

ولكنكم قد تقولون : هذا الفصل الابيض الطويل عن البياض ليس إلا علماً أبيض ترفعه روح امرئ مستسلم جبان . لقد استسلمت يا اسماعيل للأوهام السوداوية .

خبروني : هذا المهر القويّ الأرنب الذي يفنئ في وادي آمن من فيرمونت بعيداً عن كل الضواري - اذا جئت في يوم مشمس وضاح وحركت خلف ظهره جلد ثور سلخ حديثاً دون ان يراه بل يشم شذا رائحته الحيوانية الغريبة - لماذا يفزع وينخر وتحتفظ عيناه ويدق الارض في نزوات مخبولة من الهلع ؟ ليست لديه ذكريات عن طعنات دامية سببتها مخلوقات متوحشة في موطنه الشمالي الأخضر حتى يقال ان الشذا الغريب الذي شمه ذكرته بشيء مرتبط بتجربته لأخطار سابقة . اذا ما الذي يعرفه هذا المهر ربيب نيوانجلند عن حيوان البيسون ساكن اوريجون البعيدة ؟

على رسلكم اذن . انكم لتشهدون هنا ان غريزة التعرف الى الشر الشيطاني في الكون موجودة حتى في الحيوان الأعجم فهو وان كان يبعد آلاف الأميال من اوريجون ما يزال اذ يشم ذلك الشذا الوحشي يتمثل قطعان البيسون النطّاحة الممزقة كما يتمثلها أخوه الذي لا يزال برياً سارحاً في السهوب ، وربما كانت قطعان البيسون تعفره في الثرى في هذه اللحظة .

كذلك اذن هي التدفعات المكتتمة في البحر ذي البياض كأنه اللبـن . والحفيف البارد الذي يحدّثه صقيع الجبال المزخرف والتحوّلات الكثيفة التي تأتيها ثلوج السهوب حين تذروها الرياح . كل هذه لدى اسماعيل هي هزة جلد الثور للمهر المرتاع .

نعم لا أحد يعرف اين تقع تلك الاشياء التي لا تسمى ، والتي تبعث علامات الغريبة مثل هذه اللمحات ولكني انا والمهر نعتقد بوجود تلك الاشياء ، ولا بدّ . واذا كان اكثر مظاهر الكون المرئي قد خلق من مادة الحب فان الافلاك غير المرئية انما صنعت من الرعب .

ولكن لم نفكّ لغز هذا البياض فقد عرفنا سحره وعلمنا كيف تستجيب له الروح بقوة وأغرب من هذا وأشدّ احتفالاً بالأسرار - حسباً تقدم - أنه من بين الرموز الروحية أكثرها مغزى لابل انه الحجاب الالهي ثم هو بعد كل ذلك، ورغم كل ذلك، هو العامل الذي يُغلي من حدة الخوف في أشدّ الأسياء اخافة للانسان .

أهو أن لا محدوديته تمثل ما في الكون من خلاء ساكن لا ينبض ومن انفساح لا يحدّ وبذلك تدعّنا من الخلف بخواطر العدم حين نرى الاعماق البيضاء في نهر المجرة ؟ أهو ان البياض في جوهره ليس لوناً بمقدار ما هو انعدام محسوس للالوان وفي الوقت نفسه تحقق محسوس لها ؛ ألهذا كان هناك بياض صامت أخرس حافلاً بالمعنى في بسيط مديد من المنظر الثلجي - جحود لا لون له ، جامع للالوان جميعاً تنفر منه نفوسنا ؟ للفلاسفة الطبيعيين نظرية تقول ان سائر الالوان الأرضية - أي كل زخارف فخمة او جميلة - مثل حواشي السماء والغابات العذبة لدى الغروب ، وأجنحة الفراشات المذهبة وخدود الفتيات اللواتي تشبه الفراشة ، كل هذه ليست إلا خدعاً مأكرة، ليست في جوهر المادة بطبيعتها وانما ركبت فيها من خارج حتى ان الطبيعة المؤلهة نفسها إنما تتبرج كأنها عاهرة لا يستر مغرياتها سوى قبر . فاذا تأملنا هذه النظرية وتقدمنا خطوة اخرى ووقفنا عند الزينة الغريبة التي تبرز كل لون من ألوان الطبيعة أعني مبدأ الضوء العظيم وانه يبقى أبداً أبيض او غير ذي لون في ذاته واذا وقع على المادة دون وسيط مسّ الأشياء جميعاً حتى ازهار الخزامى والورود بخضابه الذي لا لون له - أقول اذا تأملنا كل ذلك بدا الكون المفلوج ممدداً أمام أعيننا

كأنه أبرص ؛ وكما يرفض المسافرون ذوو الارادة الحازمة في لابلاند
ان يضعوا على عيونهم نظارات ملوَّنة ملوَّنة كذلك الكافر التعيس
قعشى عيناه وهو ينظر الى الكفن الابيض المنشور على كل منظر من
حوله . كل هذا مجتمعا يرمز اليه الحوت الابيض . أتعجبون بعد ذلك
من الصيد الناري ؟

أصغ !

— صه ! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو ؟

كانت النوبة الوسطى في الحراسة ، وضوء القمر ساجٍ جميل ، والملاحون قد وقفوا في طابور يمتد من عند احد براميل الماء العذب في منتصف السفينة حتى البرميل عند الناروزة قرب أعلى الكوثة وعلى هذه الحال كانوا يمرّون الدلاء ليملأوا برميل الناروزة . وبما أنهم في معظم الوقت كانوا يقفون قريبين من مشارف الربعة وراء الدقل — وهي موضع مقدّس — لذلك حرصوا على ان لا يتكلموا او يصدروا حفيفاً بأقدامهم . ومضت الدلاء تنتقل من يد الى يد في صمت عميق لا يتخلله إلا خفقة عابرة من شرّاع والا المهمة الدائمة التي تحدثها أريئة السفينة اثناء تقدمها الدائب .

في وسط هذه السكينة همس آرشي أحد رجال الطابور وكان يقف قريباً من العنابر الخلفية في أذن جار له شولوي بتلك الكلمات :

— صه ! هل سمعت تلك الضجة يا كباكو ؟

— « خذ السّجل . تسمح يا آرشي ، أي ضجة تعني ؟ »

— « ها هي مرة اخرى — تحت العنابر — ألا تسمعها؟ سعال . إنها تبدو كأنها سعال » .

- « الله يلعن السعال ! مرّر هذا السّجل العائد » .

- « مرة أخرى - هي عينها - كأنها الآن صوت اثنين او ثلاثة نائمين يتقلبون » .

- « قرنبى ^١ ! كفالك يا رفيق ، بالله ! هذه هي البقساطات الثلاث المنقوعة التي أكلتها في العشاء تتقلب في جوفك - لا غير . انتبه للدلو ! »

- « قل ما تريد يا رفيق . ان سمعي حاد » .

- « نعم . أنت الذي سمع وهو في البحر على بعد خمسين ميلاً من نانتوكت صوت إبر العجوز الكويكرية وهي تخطط . أنت هو أليس كذلك ؟ »

- « اسخر كما تريد . سئرى النتيجة . أصخ يا كباكو ! في العنبر الخلفي شخص لم يظهر بعد على ظهر السفينة وأنا أظن ريتسنا العجوز يعرف شيئاً عنه ايضاً . سمعت اسطب يخبر فلاسك في احدى النوبات الصباحية ان في الجو شيئاً من ذلك » .

- « اش ! هالك الدلو ! »

١ كلمة اسبانية تدل على الشعور بالمفاجأة او الاشتزاز .

الخريطة

لو انك ذهبت في أعقاب آخاب القبطان الى قمرته بعد العاصفة التي حدثت في الليلة التالية لليلة التي نال فيها التأييد من البحارة في بلوغ غايته لرأيته يعمد الى درج في الطرنسوم ويستخرج منه طوماراً كبيراً مجمداً من الخرائط البحرية الصفراء وينشرها امامه على طاولته المثبتة . ثم لرأيته بعد ان يجلس اليها قد اخذ يدرس متفحصاً ما فيها من خطوط وظلال متنوعة تواجه عينيه ثم يخطط عليها في بطاء حازم خطوطاً أخرى بقلمه في مواضع كانت خالية من كل رسم وتخطيط . وبين الحين والحين يرجع الى اكداس من سجلات الرحلات البحرية الى جانبه حيث دونت فيها الفصول والمواقع التي اصطيدت فيها حيتان العنبر او رؤيت في سفرات سابقة قامت بها مختلف السفن .

وبينا كان مشغولاً كذلك كان المصباح الصفحي الثقيل المعلق بالسلاسل فوق رأسه يتأرجح تأرجحاً مستمراً مع حركة السفينة ويلقي ابدأ ومضات وظلال خطوط متنقلة فوق جبينه المتغضض حتى لكأنه - وهو يرسم خطوطاً واتجاهات على الخرائط المتجمدة - كان هناك قلم خفي يمد خطوطاً واتجاهات على خريطة جبهته ذات الأخاديد العميقة .

ولم تكن هذه هي الليلة الوحيدة التي يجلس فيها آخاب منفرداً في قمرته متأملاً خرائطه . وأكاد أقول انه كان يستخرجها كل ليلة ، ويمحو منها كل ليلة بعض العلامات ، ويضع مكانها علامات أخرى . ذلك ان آخاب ، وخرائط

المحيطات الاربعة منشورة أمامه، كان يلف بقلمه في تيه من التيارات والدوامات رجاء ان يستيقن من انجاز الحاطرة المجنونة التي كانت تملأ روحه .

وكل من لم يكن على معرفة تامة بطرائق الحيتان قد يرى ان البحث عن مخلوق واحد في محيطات هذا الكوكب الارضي التي لا تحد مهمة سخيفة لا رجاء فيها . ولكن الامر لم يكن يبدو كذلك لدى آخاب الذي كان يعرف جميع أوقات المدّ والتيارات وبذلك يحسب تنقلات حوت العنبر طلباً للطعام ويستطيع ان يبلغ الى استنتاجات معقولة تكاد تشارف اليقين حول اليوم المناسب الذي يكون فيه الحوت هنا او هنالك باحثاً عن فريسته، وحسبه ليبلغ ذلك ان يتذكر المواسم المنظمة اليقينية التي يخرج فيها الصيادون لصيد الحوت في عروض ومواقع بأعيانها .

ان تعين الفترات التي يلجأ فيها الحوت الى هذه المياه او الى تلك قد أصبح شيئاً يقينياً حتى ان كثيراً من الصيادين يعتقدون انه اذا استطاع أحد ان يرقبه ويدرسه خلال العالم عن كسب، وانه لو أجرى مقارنة بين سجلات السفينة لرحلة واحدة يقوم بها أسطول كامل للتحويت اذن لوجد ان هجرات حوت العنبر تطابق في الزمان رحلات قطعان الرنجة وأسراب السنونو - دون اختلاف . وعلى أساس من هذا التقدير بذلت محاولات لرسم خريطة محكمة مفصلة تنبئ بهجرات حوت العنبر * .

* منذ ان كتبت هذا جاء لحسن الحظ ما يؤيده في نشرة رسمية أصدرها البوزياشي موري من المرصد القومي بواشنطن في ١٦ نيسان (ابريل) ١٨٥١ ويبدو من تلك النشرة ان تلك الخريطة في طريقها الى النجاز وقد وردت اقسام منها في النشرة: «هذه الخريطة تقسم المحيطات في خمس مناطق ذات خمس درجات عرضية وخمس درجات طولية، وفي الاتجاه العمودي تحوي كل منطقة ١٢ عموداً بعدد الاشهر، وفي الافقي تحوي ثلاثة احدها يدل على عدد الايام التي قضيت في كل شهر في كل منطقة والاثنان الآخران يدلان على عدد الايام التي رثيت فيها الحيتان - سواء أكانت من جنس العنبر او من الحوت الاثين » .

ثم ان حيتان العنبر حين تلتقل من منطقة غذائية الى اخرى بهداية غريزة لا تخطيء أو قل بوساطة ذكاء خفي وهبها الله اياه - فانها في الاكثر تسبح في مسارب - veins - آخذة في طريقها على طول خط بحري في دقة لا أمت فيها ولا عوج حتى انك لا تجد سفينة ابداً جرت مجراها حسب أية خريطة بعشر تلك الدقة العجيبة . ومع ان الاتجاه الذي يذهب فيه اي واحد من تلك الحيتان في هذه الاحوال مستقيم كأنه خطوط المساح على خريطته ومع ان خط تقدمه مطابق تماماً لخط منحرة المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ان المسرب المحدد الذي يقال انه يسرب فيه في تلك الاوقات يتسع بحيث يشمل بضعة أميال عرضاً (تزيد او تنقص حسب امتداد المسرب او انكماشه) الا أنه لا يتجاوز مدى النظر من قمم الصواري في الحوانات حين تناسب متنبهة يقظة على طول تلك المنطقة السحرية . وخلاصة هذا كله انك تستطيع في مواسم معينة وفي نطاق ذلك العرض وعلى طول ذلك المسرب ان تفتش عن الحيتان المهاجرة وأنت على مثل اليقين بأنك ستراها .

اذن فان آخاب لم يكن يرجو ان يلتقي بفريسته في أوقات موثوقة عند مواقع تغذية مشهورة متباعدة، فحسب، وانما كان اذا اجتاز ما بين تلك المواقع يستطيع بما أوتي من براعة فنية ان يحدد الزمان والمكان في طريقه بحيث لا يكون بعيداً عن استشراف الرجاء في لقائه .

وحدثت حادثة بدت لأول وهلة وكأنها تعقد خطته الفارقة في البحران المنظمة في آن معاً . ولعلها لم تكن كذلك في حقيقة الامر . ان قطعان حوت العنبر تتخذ مواسمها المنظمة في مواقع معينة ولكنك من وجه عام لا تستطيع ان تستنتج بأن القطعان التي أمت خط العرض الفلاني او خط الطول العلائي في هذا العام مثلاً هي نفسها التي أمت به في الموسم السابق ، وان كانت هناك أمثلة واقعية خاصة أثبتت ان نقيض هذا صحيح . وهذه الملاحظة نفسها تصدق بعامه

وفي حدود أضيق على المنعزلين والمترهبين بين الحيتان الناضجة المسنّة . فموبي ديك - مثلاً - رئي في سنة سابقة عند ما يسمى منطقة سيدشل^١ في المحيط الهندي او خليج فولكانو عند ساحل اليابان ولكن هذا لا يستتبع ان لو انت الباقوطة زارت احدى هاتين البقعتين في موسم مطابق تالٍ لالتقت به حتماً . وقل مثل ذلك في مواقع أخرى أمّا موبي ديك للغذاء واستبان فيها للناظرين في بعض الأحيان . ولكن هذه المواقع كانت فيما يبدو مواقف عارضة وفنادق راحة يعرج عليها ولم تكن مواقع استيطان طويل . وحيث تحدثنا عن فرص آخاب في انجاز غايته حتى هذا الحين فانما ألحنا فحسب الى ما كان أمامه من فرص جانبية او اضافية او قائمة على معرفة بالسوابق قبل ان يحرز زماناً خاصاً او مكاناً خاصاً حين تصبح كل الامكانات جميعاً احتمالات ، وكل امكان في نظر آخاب فانما كان ثانياً ليقين . وهذا الزمان المعين والمكان المعين يجتمعان معاً في تعبير فني واحد هو : « موسم الصيد على خط الاستواء » The Season-on-the-Line . فقد مضت عدة سنوات وموبي ديك يرى في ذلك المكان المعين في الزمان المعين يتلبث في تلك المياه فترة والشمس في دورتها السنوية تتمهل مدة مقدرة في اي برج من أبراج الفلك ، وهناك جرت معظم اللقاءات المميّنة بين الصيادين والحوت الابيض ، هناك اختزنت الأمواج قصص بطولاته ، وهناك ايضاً كان المسرح المأساوي^٢ حيث وجد الشيخ المجنون دافعه الرهيب للنار والانتقام . غير ان آخاب حين ألقى روحه المتأمل في هذا الصيد الذي لا يريد له الاخفاق لم يسمح لنفسه ، وهو ذو ادراك حذر ويقتطع نفاذة ، ان يرسى آماله جميعاً عند تلك الحقيقة الختامية التي قدمناها مهز زينت له من تلك الآمال ولا

١ تقع جزائر سيدشل الى الشمال الشرقي من مدغشقر .

٢ في الفصل : ٢٨ ذكر الهندي الجايبيدي ان آخاب « نزع صاريه » عند اليابان ، وها هو ملفل يغير المكان هنا ، فيجعله عند خط الاستواء ، حيث غرقت الباقوطة في نهاية الامر .

كان في نذره الساهد ليقرّ عيناً ويفرخ روعاً بحيث يرجىء كل بحث عاجل حتى يبلغ ذلك المكان .

أبحرت الباقوطة من نانتوكت عند بداية « الموسم » . فلو ان قائدها بذل كل جهد ممكن ليقوم بالسفرة الطويلة نحو الجنوب ويدور حول رأس هورن ثم يجري ستين درجة من درجات العرض لما استطاع ان يصل المنطقة الاستوائية في المحيط الهادي في الوقت المناسب ليقوم هنالك بالطواف . ولذلك كان لا بد له من ان ينتظر الموسم من قابل . ولعلّ آخاب قد أصاب اذ اختار ان يبكر في الابحار بالباقوطة بسبب هذا التعقيد في الامور فقد كانت أمامه فترة تبلغ ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وليلة، وهي فترة يمكنه ان يقضيها في صيد متنوع بدلاً من ان يقضيها على البرّ فارغ الصبر فلعلّ الحوت الابيض أن يمضي اجازته في بحار بعيدة عن مواقع غذائه الموسمية ولعلّ جبهته المغضنة ان تظهر على مبعدة من خليج فارس أو في خليج البنغال او بحار الصين او أية مياه اخرى يغشاها بنو جنسه . فكل ربح سواء أكانت الرياح الموسمية او الهابة من سهول الارجنتين او كانت شمالية غربية او حرامية او تجارية — كل ربح عدا الشرقية او الخماسين قد تسوق موبى ديك نحو الدائرة العالمية المتعرجة التي ترسمها الباقوطة بخط نحرها المباحر .

ولو سلمنا بكل هذا فانك اذا تأملت الفكرة في تمنع وهدوء قلت انها ليست سوى فكرة حمقاء : في المحيط الواسع المترامي الاطراف هل يمكن للصيد الذي يبحث عن حوت واحد حتى لو واجهه ان يقول انه هو حقاً كما لو كان يبحث عن المفقى الاعظم ذي اللحية البيضاء في أسواق استانبول المكتظة الحاشدة . أجل لأن جبهة موبى ديك المتفردة ذات البياض الناصع وحردبته البيضاء كأنها الثلج لا يمكن ان تخطئهما العين . وقد يتمم آخاب لنفسه بعد ان انكب على خرائطه طويلاً حتى الهزيع الاخير من الليل واستلقى غارقاً في أحلامه وهو اجسه — قد يتمم قائلاً: ألم أجعل الحوت معلماً بعلامات فأنسى له ان ينبجو؟

أليست زعائفه العريضة مخروقة مقطوشة كأنها أذن خروف قد قطعت ؟ وهنا يذهب عقله المجنون في شوط يبهر الانفاس حتى يستولي عليه الانهاك ويتناهب الاعياء من كثرة التفكير فيذهب الى الهواء الطلق فوق ظهر السفينة ليستعيد قوته . رباه ! أي غشية من عذاب يقاسيها ذلك الرجل الذي استغرقته رغبة موتورة لم تتحقق ؟ انسه لينام ويداه مقبوضتان ويستيقظ وأظافره الدامية غارزة في راحتيه .

فاذا اضطرتة احلامه الليلية المضنية التي لا يطاق الحاحها الى الخروج من سريره، وهي احلام تستأنف ما كان يحول في خواطره من افكار حادة اثناء النهار، اذا حمل أحلامه بين سورات من الغضب متلاطمة ودار بها في ذهنه المتلهب حتى أصبح نبض مركز الحياة عنده عذاباً لا يطاق، حين يحدث في بعض الحالات ان تهز هذه الآلام المبرحة كيانه من أساسه ويبدو كأنما تنفتح في داخله هوة تنطلق منها شعَب اللهب والبرق وتومئ له العفاريت اللعينة ان يقفز بينها، حين تتشاءب هذه الجحيم في داخل نفسه - عندئذ تسمع صرخة شاذة خلال السفينة ويندفع آخاب من قمرة وعيناه تتوقدان كأنه يفر من سرير جعلت النار تأكله . وبدلاً من ان تكون هذه الامور اعراض ضعف كمين لم يستطع قهرها واخفائها او أعراض خوف مما يزمع ان يحققه فانها لم تكن سوى أمارات واضحة لحدة عزمه . ففي مثل هذه الاوقات لا يكون آخاب المجنون المكب على التخطيط صياد الحوت الابيض الذي لا يلين جانبه ولا يهدد غضبه، الذي ذهب الى سريره، هو نفس آخاب الذي انطلق من سريره مرة أخرى مرتاعاً . أما الثاني منها فهو المبدأ الخالد الحيّ أو هو الروح فيه، وبما انه في النوم انفصل عن العقل المميز الذي استخدمه في اوقات أخرى ليكون يده الفعالة في الظاهر فانه حاول الهرب تلقائياً من مجاورته لذلك الشيء المهتاج - وهي مجاورة لافحة لاذعة - ، ولم يعد - عندئذٍ - جزءاً مكملًا له . ولكن بما ان العقل لا يوجد إلا اذا تحالف مع الروح، لذا يبدو في حالة آخاب أنه سلم أفكاره وأوهامه

جميعاً الى يد غايته العليا ، ووقفت غايته تلك بمحض ما في ارادتها من رسوخ و صمود في وجه الآلهة والشياطين واتخذت لنفسها كياناً مستقلاً . بل استطاعت ان تحيا وتتلهب في جهامة وعبوس بينا الحيوية العامة التي كانت ترتبط بها هربت مرتاعة من مولد تلك الارادة التي ليس لها أب شرعي . لذلك فان الروح المعذبة التي كانت تشع من عيون الجسد حين كان يندفع من الغرفة من يحسبه الناس آخاب إنما كانت شيئاً منسوخاً، ذاتاً لا شكل لها تمشي في نومها، شعاعاً حياً من نور، لكنها لا تقع على شيء لتضوئه ومن ثم كانت بياضاً في ذاتها . أعانك الله ايها الشيخ فقد خلقت افكارك فيك مخلوقاً، ومن جعلت أفكاره الحادة منه بروميثيوس فان النسر يفتدي من قلبه الى الابد، وذلك النسر هو المخلوق الذي خلقه .

القرار بيمين

من أجل ما سردناه في هذا الكتاب ولمسنا به - على نحو غير مباشر - خصيصة او اثنتين ممتعتين غريبتين من عادات حوت العنبر يعتبر الفصل السابق في أجزائه الاولى ذا أهمية كأي فصل آخر هام في هذا الكتاب . غير ان مادته الحملة التي جعلناها فاتحة ، تتطلب شيئاً من التوسيع والاسهاب لكي يصح فهمها فهماً كفاءً بقيمتها ولكي نزيل عدم التصديق الذي قد يبثه في بعض العقول ما لدى أصحابها من جهل مطبق بالموضوع كله وخاصة عدم تصديقهم لليقين السليم في الأمور الرئيسية من هذا الموضوع .

ولست حريصاً على أن أؤدي هذا الجزء من مهمتي بطريقة منهجية منظمة ، وانما اكتفي بأن أحقق غاياتي المرجوة بإيراد مقتبسات متفرقة عن شئون خبرتها وأنا حوات ، او اعتمدت فيها على شهادة الثقات ؛ وأعتقد ان النتيجة التي أرمي اليها ستتحقق من ذاتها على نحو طبيعي بعد سرد هذه المقتبسات .

أولاً : عرفت أنا نفسي ثلاثة أمثلة ذهب فيها الحوت ناجياً بعد ان تلقى ربحاً . وبعد فترة (وكانت في احدى المرات ثلاث سنوات) ضربه الصياد نفسه مرة ثانية وذبحه ، واستخرج الحديدتين من جسمه وكتلتاهما معاملة بعلامة خاصة . أما في حال الحوت الذي عاش بين الضربتتين ثلاث سنوات ، او لعل الفترة كانت تزيد على ثلاث ، فان الرجل الذي قذف بالربحين سافر أثناء الفترة الواقعة بينهما في سفينة تجارية في رحلة الى افريقية ، ونزل على السبر وانضم الى جماعة من

المستكشفين ، وتوغل بعيداً في الداخل حيث قضى في سفره فترة تبلغ حوالي سنتين ، وعرض نفسه لخطر الحيات والمتوحشين والنمور والميازم السامة وسائر الاخطار العامة التي قد تعرض لمن يتجول في قلب مناطق مجهولة . وفي الوقت نفسه كان الحوت المضروب يقوم ايضاً برحلاته ، ولا بدّ ؛ ولا ريب في أنه طوّف الكرة الارضية ثلاث مرات ، ومعكّ جوانبه على جميع شواطئ افريقية دوغما غاية . ثم التقى هذا الصياد وذلك الحوت مرة أخرى وقهر الاول منها الثاني . أقول : انا نفسي عرفت ثلاثة أمثلة من هذا القبيل رأيت في حالتين منها الحوتين مضروبين ؛ وفي الهجمة الثانية رأيت السنانين اللذين حفرت فيهما علامتان متماثلتان وقد استخرجا بعد من الحوت الميت . وقد اتفق لي في الحادثين اللذين تخللتهما فترة سنوات ثلاث ان كنت في القارب في المرتين واستبنت بوضوح في المرة الثانية منها نوعاً فذاً من خال كبير تحت عين الحوت كنت قد لحظته في المرة الاولى قبل ثلاث سنوات . أقول ثلاث سنوات وأنا على مثل اليقين انها كانت اكثر من ذلك . هذه اذن ثلاثة أمثلة أعرف صدقها بنفسي غير أني سمعت أمثلة كثيرة أخرى من أشخاص لا وجه للطعن في عدالتهم .

ثانياً : من المتعارف المشهور في سماكة حوت العنبر ، مها يجهل الناس على البر أمرها ، أنه حدثت أمثلة تاريخية عديدة لا تنسى حيث رأى الصيادون حوتاً بعينه في أزمنة وأمكنة متباعدة . أما لماذا أصبح ذلك الحوت معلماً مشهوراً فأمر لا يعزى في الأصل الى صفات جسدية فيه تميزه عن سائر الحيتان ، اذ مها يكن تفرد الحوت في تلك الصفات ، فانهم يقضون على ذلك التفرد بقتله وغليه لاستخراج زيتة الثمين . لا . إنما السبب في ذلك هو ان التجارب المميّنة في السماكة أفادت ان الخطورة التي يمثلها ذلك الحوت تتخذ لها في النفوس مكانة مريعة كمكانة رينالدو رينالديني ، حتى ان معظم الصيادين ليكتفون حين يميزونه بأن يمسوا قبعاتهم التربولينية اذ يتبينون انه يتسكع قريباً منهم في البحر دون أن يحاولوا توثيق المعرفة به . وهم في ذلك يشبهون بعض شياطين الفقراء على البر

الذين اتفق لهم ان عرفوا رجلاً عظيماً سريع الغضب فهم يحيمونه في الشارع من بعيد تحيات فضولية لثلاثناهم لطمة عاجلة لتوقحهم اذا هم توغلوا في اظهار الدالة والالفة .

ولا يتمتع كل حوت من تلك الحيتان المشهورة بصيت فردي عظيم فحسب — وتستطيع ان تسميه ايضاً صيتاً مديداً لأنه يمتد على مدى المحيطات ؛ ولم ينل كل حوت منها شهرته وحسب في الحياة ثم أصبح خالداً في مستودعات المنارة بعد الموت ، لا بل أحرز كل ما يستطيع الاسم العظيم ان يمنحه من حقوق وامتيازات وميزات ، حتى أصبح حظه من الشهرة حظاً أصحاب الاسماء العظيمة مثل قبيز وقيصر . أليس كذلك يا تيمور توم ايها الحوت المشهور الذي كان ذا ندوب وتواليع كجبل الجليد ، وأطال اللبث في المضائق المشرقية التي سميت باسمه ، وكانت نفائته ترى من شاطئ أو مي ذي النخلات^١ ؟ أليس كذلك يا جاك زيلنده الجديدة يا من روّع كل الطوائف الذين نخرت سفنهم بجوار بلاد تاتو ؟ أليس ذلك كذلك يا مرقان يا ملك اليابان ، يا من تتخذ نفائته السامقة في الفضاء — فيما يقولون — صورة صليب ناصع البياض ؟ أليس ذلك كذلك يا دون ميخائيل أيها الحوت التشيلي المعلم بخطوط غامضة على ظهره كأنه سلحفاة عجوز ؟ بعبارة بسيطة : هذه حيتان أربعة مشهورة لدى طلاب علم الحيتان ، شهرة ماريوس وسلا^٢ لدى طلاب تاريخ الرومان .

وليس هذا هو كل ما هنالك : وانما بعد ان أنزل كل من توم زيلنده الجديدة والدون ميخائيل نكبات بليغة في قوارب تنتمي الى مختلف السفن ، بعد ذلك كله ذهبوا في النهاية ، اصطادها بعد ان طاردها وقتلها قباطنة التحويت الشجعان

١ أومي جزيرة من مجموعة الجزر التي تسمى Little Sundas في اندونيسيا الشرقية .

الذين رفعوا مراسيهم من موانئها وغايتهم هي قتلها ، مثلما ان القائد بطار في القديم اتجه متغلغلاً في غابة نرجانست وقد انتوى ان يأسر أنتاون المتوحش المشنوع القتال ، رأس المحاربين عند الملك فيليب الهندي ١ .

لست أرى موضعاً خيراً من هذا الموضع لذكر شيئاً او شيئين آخرين يبدو ان لي ذوي أهمية ، فاذا دوناً أكدا من جميع النواحي صفة المعقولية في قصة الحوت الأبيض ، وبخاصة جانب الكارثة منها . اذ ان هذه القصة من الأمثلة المؤيسة المثبطة التي يحتاج فيها الصدق ما يحتاجه الكذب من ركائز ودعامات . ومعظم الناس على البر يجهلون أبسط عجائب الكون واكثرها واقعية ، فاذا لم تزودهم بمعلومات وتعليقات تمس الحقائق البسيطة من تاريخية وغيرها في مهنة التحويت ، فقد يسخرون هازئين من مويي ديك ويرون قصته أسطورة مرعبة ، وربما عدوها أمثلة قصصية خفيفة لا تطاق ، وهذا أمر أسوأ من الاول وأدعى للمقت .

أولاً : لدى معظم الناس بعض أفكار غامضة عابرة عن المخاطر العامة في السماكة الكبرى ؛ إلا أنه ليس لديهم تصوّر ثابت حيوي عن تلك المخاطر وعن مدى تكرار حدوثها . وربما كان أحد الاسباب في ذلك ان تلك الكوارث والمهلك الواقعية التي تحدث عرضاً في السماكة لا يدون منها واحدة من كل خمسين في مدوّن عام ، أياً كان ذلك المدوّن موقت القيمة ينسى على التو . هل تظن ان ذلك المسكين الذي ربما علق به الحوت القامس في هذه اللحظة عند ساحل غينيا الجديدة وحمله الى الاعماق البحرية — هل تظن ان اسم ذلك المسكين

١ أناون مقاتل هندي أسره القائد بنجامين تشرتش سنة ١٦٧٦ في رود آيلاند ، وقد نسب ملفل أمر أسره الى القائد بطار وهذا الثاني ذهب في حملة سنة ١٧٧٨ للقبض على قائد هندي آخر اسمه جوزف برانت .

سيظهر في صفحة الوفيات بالجريدة التي تقرؤها غداً عند الفطور ؟ كلا . لان البريد غير منظم بيننا وبين غينيا الجديدة ؛ بل هل سمعت أبداً ما قد يسمى أخباراً منتظمة تجيء مباشرة او بالواسطة من غينيا الجديدة ؟ ومع ذلك فاني أخبرك عن احدى الرحلات التي قمت بها الى المحيط الهادي وقد ألقينا التحية من سفينتنا على ثلاثين سفينة أخرى بين عديد من السفن ، وفي كل واحد منها قتل صرعه حوت وفي بعضها غير قتل واحد ، وفقدت ثلاث منها جميع ملاحى القارب . بالله عليكم اقتصدوا بزيت قناديلكم وشموعكم ؛ ان كل جالون تحرقونه فقد هريق في سبيله على الاقل نقطة من دم انسان .

ثانياً : لدى الناس على البر حقاً فكرة غير محددة عن الحوت وأنه مخلوق هائل ذو قوة هائلة . ولكني وجدت دائماً وأنا أسرد عليهم مثلاً معيناً يصور هذا الهول المزدوج انهم كانوا يهنئونني على ما لديّ من ميل للدعابة والظرف بينما انا أقسم أني لا أنوي ان أتفوق في روح الدعابة على موسى حين كتب تاريخ الطوايعين بمصر .

ومن حسن الحظ ان المسألة التي أريد ان أقرها في هذا المقام يمكن ان تؤيد بشواهد مستمدة من غيري . وهذه هي المسألة : يبلغ حوت العنبر في بعض الأحوال من القوة والمعرفة وإحكام الضغينة وكأنما هو يدبر الأمور قبل عملها ، مبلغاً يستطيع به ان يخرق سفينة كبرى وان يحطمها تحطيماً وأن يفرقها . وقد فعل كل ذلك .

أولاً : في عام ١٨٢٠ كانت السفينة اسكس من نانتوكت – وقبطانها بولارد – تطوّف في المحيط الهادي . فرأت ذات يوماً نفاثات فأنزلت قواربها وطاردت قطعياً من حوت العنبر ؛ وبعد وقت غير طويل جرح عدد كثير من الحيتان ، واذا بحوت ضخم جسم ينجو من القوارب وينطلق من القطيع وينقض

هاجماً على السفينة، ويسدد جبهته نحو هيكلها فيشقها شقاً حتى انها في أقل من «عشر دقائق» أخذت تهوي منقلبة . ومنذ تلك اللحظة لم يَرَ أحد لوحاً من ألواحها ؛ وبعد أشد ضروب الهتك وصل بعض الملاحين البر في قواربهم؛ ثم لما استقر القبطان بولارد بعض الوقت في وطنه أبحر مرة أخرى نحو المحيط الهادي يقود سفينة أخرى ولكن الآلهة حطمت سفينته مرة أخرى فوق صخور وأمواج مجهولة . ومرة ثانية فقد سفينته تماماً فألى على نفسه ان لا يعود للبحر ولم يحاول العودة منذ يومئذٍ . ولا يزال بولارد القبطان قاطناً في نانوتوك حتى اليوم، وقد رأيت أنا أوين شيس رئيس ضباط السفينة اسكس حين حدثت تلك المأساة وقرأت الحكاية الصريحة الصادقة التي دوّنها وتحدثت الى ابنه وكان ذلك على بعد بضعة اميال من موقع الكارثة * .

* اليك مقتطفات مما حكاه شيس : «كانت كل واقعة تؤكد لي مستتجاً ان لا دخل للحظ والمصادفة في توجيه أعماله فقد قام بهجومين على السفينة بينها فترة قصيرة وكلتاهما حسب وجهتها كانت محكمة لتوقع بنا أشد الأذى اذ كانت رأسية وبذلك تجمع سرعة الجسمين المتصادمين لدى احداث الصدمة وكي يحقق ذلك كانت التحفزات والتهيؤات التي قام بها ضرورية . كان منظره خيفاً، وكان يعبر عن الاستياء والهياج، جاء رأساً من القطيع الذي تغلغلنا بينه قبلاً وضربنا ثلاثة منه فكأننا اشتمل بنار الانتقام من اجل آلام اصحابه». ويقول : «وفي جميع الظروف ارى ان الاحداث اذا أخذت مجتمعة، وكلها حدثت بعيني وانتجت حينئذ انطباعات في ذهني، بأن الحوت يعزم على ايقاع الاذى ويقدر ويحسب (وكثير من هذه الانطباعات قد نسيتها فلا أذكره) اقول: أرى ان الاحداث تغريني بأن اقنع ان رأيي كان صواباً .

وهذه هي تأملاته بعد وقت من مغادرته للسفينة اثناء ليلة مظلمة في قارب مكشوف وهو يكاد يئأس من بلوغ مرفأ امين : «لم يكن المحيط المظلم والمياه المتدافعة شيئاً مذكوراً . كذلك الخوف من ان تبتلعني عاصفة خفيفة او تقذف بي على صخور خفية وغير ذلك من الموضوعات التي تعرض لخاطر الخائف - كل ذلك لم يعلق بذهني لحظة وانما الذي ظل يخاليل افكاري ويمتصرها هو التحطم الكئيب ومنظر الحوت الرهيب وثأره حتى انبلج الفجر» .

وفي موضع آخر ص : هـ ٤ يتحدث عن « تلك الهجمة العجيبة المهلكة التي شنها ذلك الحيوان » .

ثانياً : يونيون اسم سفينة أخرى من نانتوكت فقدت عام ١٨٠٧ بأزاء جزر
الآزور في هجمة مماثلة ولكني لم أصادف دقائق موثوقة عن هذه الكارثة ^١ وان
كنت سمعت من الحواتين اشارات عارضة اليها بين الحين والحين .

ثالثاً : منذ ثمانية عشر عاماً او عشرين كان الكومودور ج ^٢ ... يقود
شانية حربية امريكية من طراز رفيع وكان يتناول طعام الغداء مع جماعة من
قباطنة التحويت على ظهر سفينة نانتوكتية في ميناء واهو بجزائر ساندويتش ،
ودار الحديث عن الحيتان ، والكومودور مرتاح النفس الى التشكك فيما يرويه
السادة العارفون بالحواتة من حوله عن القوة المدهشة التي تعزى للحيتان فانكر
جازماً مثلاً أن يستطيع الحوت ضرب شانيته الحربية الحصينة بحيث يجعلها
ترشح من الماء بما يملأ قمع الحياطة . هذه ثقة جيدة ، ولكن في زوايا الغيب
خبايا . بعد بضعة أسابيع أبحر الكومودور في تلك السفينة الحصينة الى
فالباريزو لكن حوت عنبر فخمأ جسيماً استوقفه في الطريق ورجاه ان يمنحه
بعض لحظات من المسارّة بينهما لتسوية بعض الشئون . وكانت نتيجة تلك المناجاة
لطمه سدّها الحوت الى السفينة فتعطلت كل مضخاتها وذهب الكومودور
عامداً الى أقرب ميناء لتسحب فيه السفينة ويصلح ما تعطل منها . لست ممن
يؤمنون بالخرافات ولكني أعتقد ان ما جرى بين الكومودور والحوت كان
تدبيراً الهياً . ألم يتنصر شاول الطرسوسي بسبب ما ألمّ به من خوف مماثل ؟
تريدون الحق ؟ ان حوت العنبر لا يطيق الفشر والهراء .

١ عجيب ان يقول ملفل هذا وهو الذي ينقل كثيراً عن عبيد ماسي مؤرخ نانتوكت ، فقد
أورد في تاريخه خبراً مفصلاً عن كارثة هذه السفينة .

٢ اكبر الظن انه الكومودور توماس أبو كاتسي جونز الذي كان يقود «البيكوك» ، في
رحلة الى جزائر هواي عام ١٨٢٥ .

وأحيلكم ها هنا على « رحلات لانجزدورف » من أجل حادثة صغيرة ذات علاقة بما نحن بصدهه وهي من نحو خاص تهم كاتب هذه السطور ولا بد ان تعلموا بهذه المناسبة أن لانجزدورف كان مع الاميرال الروسي كروزنشترن في البعثة الكشفية المشهورة في أوائل هذا القرن . يبدأ القبطان لانجزدورف الفصل السابع عشر من كتابه بقوله :

« في الثالث عشر من ايار (مايو) كانت سفينتنا على أهبة الابحار وفي اليوم التالي كنا في عرض البحر ، في طريقنا الى أوختش . كان الجو صافياً جميلاً إلا ان البرد لا يطاق حتى اضطررنا لشدته ان نحفظ بما نرتديه من فرو . ومرت بضعة أيام والرياح ضعيفة حتى اذا كان اليوم التاسع عشر انطلقت هبة ربيع لعوب من الشمال الغربي ؛ واذا حوت جسم ضخم يفوق في ضخامته السفينة نفسها يكاد يكون على سطح الماء ، لكن احداً منا لم يره ونحن على ظهر السفينة إلا حين كادت السفينة وهي مطلقة الاشرعة ان تصادمه حتى كان من المستحيل ان نحول بينها وبين الارتطام به . ووقعنا في خطر داهم حين نصب هذا المارد الجبار ظهره ورفع السفينة مسافة ثلاثة أقدام فوق الماء فترنحت الصواري وهوت الاشرعة جميعاً ووثبنا نحن الذين كنا في العنابر حالاً الى الظهر غممين اننا اصطدمنا بصخرة الا انا رأينا - بدلاً من ذلك - ذلك الوحش مبحراً مبعداً في كل وقار وركانة . فأعمل القبطان ديولف المضخات على التو ليختبر ان كانت السفينة قد أصيبت بأي ضرر من تلك الصدمة ولكننا وجدنا لحسن حظنا أنها نجت سالمة .

هذا القبطان ديولف المذكور الذي كان يقود السفينة المذكورة من أبناء نيو انجلند وهو اليوم يقطن قرية دورشستر على مقربة من بوسطن بعد حياة طويلة من المغامرات الفذة كان فيها قبطاناً بحرياً . ولي الشرف أن أكون أنا

ابن أخيه^١ وقد سألته بخاصة عن هذه العبارة في رحلة لانجزدورف فأمن على كل كلمة وردت فيها وقال ان السفينة لم تكن ابداً كبيرة — كانت سفينة روسية بنيت على ساحل سيبيريا واشتراها عمي بعد ان باع السفينة التي أبحر فيها من الوطن .

وقد وجدت مادة أخرى مدونة في أحد تلك الكتب الرجولية التي تنقص أخبار المغامرات العتيقة وما كان فيها من صعود وهبوط — اعني رحلة ليونل ويفر احد الأغبياء البلقاء من رفقاء الملاح القديم دامبير ؛ وتلك المادة تشبه ما اقتبسته من رحلة لانجزدورف حتى اني أجديني لا أملك إلا نقلها هنا لتكون مثلاً مؤيداً إن احتاج الخبر السابق الى توثيق .

ويبدو ان ليونل كان في طريقه الى جون فرناندو — وهو الاسم الذي يطلقه على ما يعرف اليوم باسم جوان فرناندز — فيقول : « في طريقنا الى ذاك المكان وكانت الساعة تقارب الرابعة صباحاً ونحن على بعد مائة وخمسين فرسخاً من الارض الامريكية أحست سفينتنا بصدمة مخيفة ألقت الرجال في حيرة حتى لا يكادون يعرفون أين هم او فيم يفكرون الا أن كل واحد منهم بدأ يستعد للقاء الموت ؛ وكانت الصدمة في الواقع مفاجئة بالغة العنف حتى اننا قلنا دون تردد لقد ارتطمت السفينة بالصخور ولكن حين انحسر عنا بعض الدهشة ألقينا المسبار لنسبر الغور فلم يلامس أرضاً ... والمفاجأة في الصدمة جعلت المدافع تثب فوق عرباتها وانطرح كثير من الرجال أرضاً من أسرتهم أما ديفر القبطان الذي كان مضطجعاً ورأسه مستند على مدفع فقد طرح خارج قمرته . » ثم يضي

١. القبطان ديولف الثاني ترك الخدمة في البحر وهو في الثامنة والاربعين عام ١٨٢٧ وهو زوج عمة ملفل الكبرى واسمها ماري . قضى ملفل في ضيافته صيف عام ١٨٢٨ في منزله بمدينة برستول في رود آيلاند . وقد عمل مع لانجزدورف من ١٨٠٥ - ١٨٠٧ .

ليونل فيعزو الصدمة الى هزة أرضية ويبدو انه أراد ان يؤيد هذه الدعوى
بالدليل فذكر ان زلزلة حدثت في مكان ما حينئذ وأصابت البلاد الاسبانية
بأذى كبير . ولكني لا استغرب ان تكون الصدمة في غبش تلك الساعة
المبكرة قد سببها حوت لم يره البحارة أخذ يدفع هيكल السفينة من أسفلها في
اتجاه قائم .

وقد أتقدم بأمثلة أخرى عديدة عرفتھا من غير طريق عن قوة حوت العنبر
وشدة ضعفه . وقد عرف منه في غير مثل واحد انه لا يقنع بمطاردة القوارب
المهاجمة حتى يردھا الى سفنها وانما يلاحق السفينة نفسها ويقاوم الحراب
المقذوفة نحوه من على ظهرھا طويلاً وتستطيع السفينة الانجليزية بوسي هول ان
تحكي في هذا الشأن حكاية ^١ . وأما عن قوة حوت العنبر فدعوني أذكر لكم أنه
حدثت أمثلة كانت فيها الحبال المربوطة به وهو هارب تنقل الى السفينة في هدوء
وتحفظ فيها ، والحوت يسحب هيكلھا الضخم خلال الماء مثلما يسحب الحصان
عربة . وكثيراً ما لوحظ ان الحوت اذا ضرب وكانت لديه ندحة للهجوم فانه لا
يتصرف تماماً في غضب أعمى وانما يتدبر كيف يقضي على مطارديه بخطط ارادية
محكمة . ولعلّ مما يفصح عن طبيعته أنه اذا هوجم فانه كثيراً ما يفتح فمه
ويبقى مفتوحاً في ذلك الامتداد الخفيف دقائق عديدة متوالية . ولكني اكتفي
بصورة أخيرة واحدة أختتم بها هذا كله ، وهي فذة متميزة ولن تعجزوا اذا
تدبرتموها عن أن تروا انها أشد الاعاجيب المذكورة في هذا الكتاب ، ليست
فحسب مؤيدة بوقائع صريحة راهنة وانما هذه الاعاجيب (كسائر الاعاجيب)
ليست الا تكراراً لما حدث في سالف العصور حتى اننا لنؤمن للمرة المليون على
قول سليمان : « ما كان فهو يكون » ، والذي صنع فهو الذي يصنع ، فليس تحت
الشمس جديد » .

١ صادفها حوت عام ١٨٣٥ ، وحكى قصتها بنيت في المجلد الثاني من : ٢١٨ .

في القرن السادس الميلادي عاش بروكوبيوس وهو حاكم مسيحي بالقسطنطينية أيام كان جستنيان امبراطوراً وبلزاريوس قائداً . وكثيرون يعرفون انه كتب تاريخ عصره فجاء مؤلفاً ذا قيمة غير عادية من كل وجه فطالما عدّه الثقات مؤرخاً موثقاً لا ينحون نحو الغلوّ إلا في أمر او أمرين لا يؤثران في المسألة التي أود ذكرها :

يذكر بروكوبيوس في تاريخه أنه في أثناء حكمه في القسطنطينية اصطيد وحش بحري جسيم في البحر الاسود او بحر مرمرة بعد ان حطم سفناً في تلك المياه على فترات خلال ما يزيد على خمسين عاماً . ومثل هذه الواقعة المدونة في تاريخ موثق لا يستطيع تكذيبها بسهولة ولا من سبب يدعو لذلك . ولم يذكر لنا المؤرخ من أي فصيلة كان ذلك الوحش ، ولكن بما انه كان يحطم السفن ، ولأسباب أخرى ، فقد كان حوتاً ولا بد ، وأنا أرجح بقوة أنه كان حوت عنبر وسأنبئكم عن السبب . طالما توهمت ان حوت العنبر لم يعيش ابداً في البحر المتوسط والمياه العميقة المتصلة به . وأنا اليوم واثق من ان هذه البحار ليست وربما لن تكون ، والأمور على هذا الوضع ، مكاناً يقيم فيه مستوطناً . غير أن البحوث المستقصاة حديثاً قد برهنت لي أنه وجدت أمثلة متفرقة تشير الى وجود حوت العنبر في البحر المتوسط ؛ وقد أخبرني الثقة ان كومودوراً اسمه ديفز من البحرية البريطانية وجد على ساحل افريقيا الشمالية هيكل حوت عنبر واذا كانت السفينة الحربية تستطيع المرور خلال الدردنيل فحوت العنبر يستطيع ان يمر بنفس الطريق من البحر المتوسط الى البحر الاسود .

وليس في البحر الأسود - حسب علمي - تلك المادة الهامة التي تسمى « القشريات » brit وهي غذاء الحوت الاثين . ولكن لديّ كل ما يسوغ الاعتقاد بأن غذاء حوت العنبر - وهو السبيدج او الحبّار - يكمن في قاع ذلك البحر

اذ وجدت مخلوقات كبيرة من ذلك النوع وان لم تكن اكبر الأنواع على سطحه .
فاذا وضعت هذه الحقائق معاً وضعاً ملائماً ونظّرت فيها قليلاً لحظت بوضوح ان
الوحش البحري الذي ذكره بروكوبيوس وذكر انه ظلّ خمسين عاماً يخرق
سفن امبراطور روماني كان ولا بد ، حسباً تقضي بذلك كل طرائق التفسير
والتعليل ، حوتاً من حيتان العنبر .

وجه آخاب كل أفكاره وأعماله نحو غاية واحدة كانت حرارة نارها تقتص أطراف نفسه وتأكل حشاشته ، تلك هي القضاء المبرم على موبى ديك . وكأنه كان على استعداد ليضحى بكل رغائب النفس البشرية في سبيل تلك الغاية، لولا ان الجبلية الطبيعية والتمرس الدائب غرسا في نفسه عادات الحوات المتهم الصارم فمنعاه بذلك من ان يتخلى كل التخلي عن تحقيق تلك الغايات الجانبية الاخرى في الرحلة . واذا لم يكن ذلك كذلك فلأقل انه لم تكن تموزه دوافع أخرى حافزة . وربما كان إسرافاً في التنوّق ان أقول - وأنا أتمثل تشبّه الجنون بغايته - : لعل حقه على الحوت الأبيض قد بسط ظله بعض البسط على حيتان الغنبر جميعاً ، فكلما استكثر من ذبح تلك الوحوش تعددت لديه الفرص في أن يكون الحوت الذي يلقاه من بعد هو ذلك الحوت البغيض الذي خرج في طلبه . غير أنا اذا استبعدنا مثل هذا التقدير حقاً بقيت لدينا اعتبارات أخرى لا أراها توازي ضراوة شهوته المستحكمة ، غير انها على ذلك لم تكن عاجزة أيضاً عن الاستبداد به .

كان على آخاب ان يستعمل أدوات ان هو شاء تحقيق غايته ؛ والرجال من بين تلك الادوات التي تستعمل في ظلال القمر هم أشدها خروجاً على النظام . كان يعلم مثلاً ان ترؤسه على استاربك ، مها يكن مغناطيسي التأثير من بعض النواحي ، فان ذلك التروؤس لم يستطع ان يبسط ظله على ذلك الانسان ذي النزعة الروحية بأكثر مما يستطيع التفوق الجسدي ان يستغرق السمو العقلي في

حومته ، ذلك أن العلاقة بين العقلي والروحي المحض تكاد تكون نوعاً من العلاقة الجسدية . كان في مقدور آخاب ان يحتاز جسم استاربك وإرادته المقهورة ما دام يستطيع ان يبقي مغناطيسه مسلطاً على عقله ، ثم هو كان يعلم أيضاً ان رئيس الضباط يمقت في قرارة نفسه مأرب قبطانه ، وأنه لو استطاع لتحلل منه مغتبطاً ، بل لحاول ان يبطله ويحولّ دونه . وقد يطول الوقت قبل ان يظهر الحوت الابيض ، وقد تعتاد استاربك ، خلال ذلك الوقت الطويل ، نزعات للاستسلام الى حوافز الثورة المستعلنة ضد رئاسة قبطانه ، إلا اذا حدثت مؤثرات عادية لبيعة ظرفية وفعلت فعلها في نفسه . ولم يكن ذلك كلّ ما هنالك ، بل ان الجنون الماكر الذي استولى على آخاب بصدد موبى ديك لم يتجلىّ تماماً مثلاً تجلّسى في إحساسه الساطع ودهائه البارع حين نظّر مستبصراً فرأى ان الصيد عندئذٍ يجب ان يجرّد - مؤقتاً - من ثياب الضلال والجحود التي تلبّس بها بطبيعة الحال ، وأنّ الفزع المرعب الذي تنطوي عليه الرحلة يجب ان يظل منزوياً منجحراً - (فقليل هم الناس الذين تصمد شجاعتهم طويلاً أمام التفكير والترقب الطويل الذي لا يخرج توّاً الى حيز الفعل) - وأن ضباطه ورجاله يجب ان يشغلوا أفكارهم بأمور أقرب اليهم من موبى ديك في مواقفهم للحراسة والرقابة في الليالي الطوال . نعم ان البحارة الهمج قد هملوا له في تلهف وتهور حين أعلن لهم عن غايته ، ولكن البحارة جميعاً ، أياً كان منتاهم ، على حظ من النزوات ونكث العهود - قلّ او كثر - فهم يعيشون في جو متقلب ، ويجرعون في صدورهم أنفاس تقلّبه ، واذا ربطت نفوسهم الى غاية بعيدة خواء من الكسب ، مهما يكن ما تعد به من حياة ورضى عاطفيّ ، فمن الضروري قبل كل شيء أن تهيأ لهم فيما بين ذلك مصالح ومشاغل عاجلة وتبقى نفوسهم معلقة بالضربة النهائية ، لئلا يفسدها الفراغ .

ولم يكن آخاب غافلاً عن شيء آخر : في لحظات العواطف الشائنة الجياشة يحتقر البشر حقاً كلّ الأمور المهيينة ، ولكن مثل تلك اللحظات سريعة الزوال .

ولقد قال آخاب لنفسه : ان الحرص الحسيس هو الحال الملازمة التي لا ينفك عنها الانسان المخلوق لانها في صميم جبلته . إذن هب ان الحوت الابيض هو الذي يلهب قلوب بحارتي ، هؤلاء الهمج ، وان التحيل على همجيتهم ووحشيتهم يولد في نفوسهم نوعاً من الفروسية السخية المعطاء ، مع ذلك لا بد لهم ايضاً من غذاء آخر يشبع شهوتهم اليومية الدنيئة ، وان كان غرامهم بالصيد قد يحفزهم لصيد مويبي ديك . حتى الصليبيون الفرسان ذوو النخوة والشهامة في العصور الخوالي لم يقنعهم ان يقطعوا ألفي ميل في البر ليحاربوا من أجل الضريح المقدس ، دون أن يقتربوا صنوف السرقة والطرارة (النشل) وابتزوا أجور الأتقياء الآخرين في طريقهم . ولو أنهم تمسكوا تمسكاً دقيقاً بغايتهم القصوى الجذابة لانحرف منهم كثيرون عنها نافرين مشمئذين . ولذلك قال آخاب لنفسه : لن أجرد هؤلاء الرجال من رجائهم في ان ينالوا نقداً — نعم نقداً وعداً ؛ قد يزدرون النقد اليوم ولكن اذا لم يلح لأعينهم رجاء في النقد بعد مضي بضعة أشهر ، فان هذا النقد الهادئ سيمتدد دفعة واحدة ، هذا الصرف النقدي نفسه قد « يصرف » آخاب توتاً الى الاستيذاع .

ولم يغب عن بال آخاب دافع آخر داعٍ الى الحيلة متصل بشخصه ؛ لعل آخاب قد تملكه التسرع حين كشف عن الغاية الكبرى — غايته الخاصة — من سفرة الباقوطة ، ولعلّه أعلن عن ذلك قبل أوانه ، فأصبح على وعي تام بأنه حين فعل ذلك قد جعل نفسه عرضة — بطريق غير مباشر — لتهمة الغصب ، وهي تهمة ليس لديه ردّ عليها ، ومن ثم يستطيع بحارته ، ان شاءوا وكانوا كفاءً بذلك ، أن يرفضوا طاعته بل ان ينزعوا الإمرة منه عنوة ، تخلصاً مما قد يصيبهم من قصاص اذا هم شابعوه في الغصب ، وذلك حق لهم من الناحيتين الاخلاقية والقانونية . ولقد كان آخاب ، ولا بد ، أشد شيء رغبة في ان يحمي نفسه من محض الالماح الى تهمة الغصب ومن النتائج الممكنة التي قد تنجم لو أن هذه الفكرة المنزوية المكبوتة قد استعلنت واستحكمت ثمة . ولا تتأتى له هذه

الحماية الا اذا سخر دماغه المصروف وقلبه ويده ، وشفعها جميعاً باهتمام يقظ
مترصد حاسب ، يرقب كل أثر جوي دقيق صغير يمكن ان يتعرض له بجارته .

لهذه الاسباب جميعاً ، ولأسباب أخرى لعلها أدقّ من أن يفصح المرء
عنها، وجد آخاب في وضوح ان لا بد له من أن يظل مخلصاً اخلاصاً كفاءً بالغاية
الطبيعية الاسمية التي تهدف اليها رحلة الباقوطة ، وان يرعى العرف المتبع ،
وهذا أيضاً غير كافٍ اذ كان عليه ايضاً ان يقسر نفسه على ان تعلن عن حميته
المعروفة المتضمنة في تأديته لمهمته العامة .

ومها يكن أمر هذا كله فكثيراً ما كان يسمع صوت آخاب ينادي الواقفين
على رؤوس الصواري الثلاثة وينبهم الى انعام النظر الحديد ، والى ان لا يغفلوا
عن الاخبار بما يلوح لأعينهم ولو كان بربرزاً . وبعد وقت غير طويل وجدت
هذه الرقابة اليقظة جزاءها وفاقاً .

النساج

يومئذٍ كان الاصيل الأول غائماً حاراً ؛ والبحارة يتسكعون على ظهر السفينة خاملين ، او يحسدون ساهين في الأمواه التي لبست لونا رصاصياً ، وكنت أنا وكويكوج ننسج في دعة ما يسمى « حمالة السيف » لكي نضيف الى قاربنا حبلاً . وكان المشهد كله ساكناً مكمداً وان كان استهلاًاً لشيء يعقبه على نحو ما ، وقد انبث في الهواء سحر من الاستبحار حتى كأن كل بحار صامت قد غار في زوايا نفسه الخبيثة .

كنت رفيق كويكوج او وصيفه بينما كان هو منهمكاً في صنع الحبل . وحين كنت أسدي وألحم الخيوط بين وشائع النول متخذاً من يدي « مكوكاً » ، وحين كان كويكوج - وهو في وقفته الجانبية يمرر سيفه السندياني دون توقف بين الخيطان وينظر متكاسلاً نحو الماء ، وهو يضع كل وشيعة موضعها الصحيح في غير اكتراث او تفكير ، أقول : حينئذٍ رانت على السفينة وعلى البحر جميعاً حالة غريبة من الحلم لا يتخللها الا الصوت المتقطع البليد الذي يحدثه السيف ، حتى بدا لي وكأن هذا هو « نول الزمن » ، وكأنني انا نفسي « مكوك » ينسج وينسج آلياً ليعلق بالأقدار . هنالك طاقات السداة المثبتة في المنسج وهي عرضة للذبذبة وحيدة متكررة أبداً غير متغيرة أبداً ، وهذه الذبذبة لا تسمح الا بخيوط اللحمة كي تتشابك مع طاقات السداة المثبتة ؛ هذه السداة هي الضرورة ، وأنا - كما حدثتني نفسي - أدير بيدي مكوكي وأحيك قدرتي خلال هذه الطاقات

التي لا تتغير ولا تتبدل، وفي الوقت نفسه يجيء سيف كريكوج، ذلك الحافز السادر، فيضرب اللحمة ضرباً مائلاً أو معوجاً، قوياً أو ضعيفاً، كيفما اتفق، وبهذا الفرق في ضربة الختام يحدث مفارقة ماثلة في الطور النهائي من النسيج المستكمل؛ وقلت لنفسي: ان سيف هذا البربري الذي يمنح الشكل الختامي لكل من سداة النسيج ولحمته، هذا السيف الهين السادر لا بد ان يكون هو المصادفة — نعم المصادفة والارادة الحرة والضرورة، ثلاثة أضداد مجتمعة تعمل معاً متداخلة متضافرة: طاقات سداة الضرورة لا تحيد عن مسالكها المرسومة ولا تتم كل ذبذبة مراوغة فيها الا كي تعود الى مستقرها الثابت، والارادة الحرة تظل طليقة لكي توجه مكوكها بين الطاقات المقدرة، والمصادفة مقيدة في حركتها خلال خيوط الضرورة حين تتجه يئنة متحركة حركة جانبية بقوة الارادة الحرة، الا ان هذه المصادفة — وان كانت موجهة بقوة الاثنتين — تتحكم بدورها فيهما، وترسل الضربة التي ترسم الملامح النهائية للأحداث.

*
* * *

كنا ننسج مسترسلين حين أجفلتُ لدى سماع صوت بالغ الغرابة مديد وحشي الموسيقى مستنكر الوقع، حتى ان فلكة الارادة الحرة سقطت من يدي، ووقفت أشخص ببصري الى الغيوم من حيث سقط علينا ذلك الصوت كأنه حفيف أجنحة، فرأيت في الأعالي الشاهقة على مراقبة المرقب ذلك الجامهيدي الأحق طاشطيقو. كان قد دفع جسمه الى الامام في تهوّر المتحمس، ومدّ يده كأنها عصا الساحر، ومضى يرسل صرخاته اثر لحظات قصيرة من التوقف المفاجيء. وأنا على يقين ان مثل ذلك الصوت في تلك اللحظة ربما انبعث من مئات المراقب العلوية في سفن الحوامة، وتردد في أرجاء البحار جميعاً، ولكن قل ان تجد فيها صوتاً شبيهاً بالصوت الذي كان يرسله طاشطيقو الهندي فانه استمدّ من صدر صاحبه المتمرّس الحنك في هذه الشئون وقعاً عجيباً.

ولو انك رأيته معلقاً من فوقك، معلقاً نصفه في الفضاء، محدقاً نحو الأفق في وحشية واندفاع، لظننته كاهناً او عرافاً يشهد أشباح القدر ويعلن عن قدومها بصرخاته الغريبة .

— هناك ينفت ! هناك ! هناك ! هناك، ينفت ! ينفت !

— أين ! أين !

— قبالة مستعرض السفينة وفق المهبّ، على بعد ميلين ،

هناك قطيع منها .

وسرعان ما أصبح كل شيء في حركة واضطراب .

ان حوت العنبر ليرسل نفثاته كدقات الساعة في وقع منتظم لا يختل ولا يضطرب، وبهذه النفثات يميز الحواتون هذا الحوت من سائر الأسر التي تلتقي الى نوعه .

وصاح طاشطيقو عندئذٍ يقول : « ها هي الذبول تبدو » ، واختفت الحيتان .

وصرخ آخاب : « عجل يا سفرجي ؛ الوقت ! الوقت ! »

وأسرع الغلام العجّان نازلاً، ولمح الساعة، وأعلم آخاب بالوقت .

كانت السفينة حينئذٍ قد جعلت تجري بلطف أمام الريح، وقال طاشطيقو : ان الحيتان قد قمست في الماء وفق المهبّ، فأخذنا نتطلع اليها واثقين من قوله، فرأيناها بعيداً على سمت مقدمة السفينة . ولحوت العنبر حيلة فذة يستعملها

أحياناً ويعرفها كل من تمرس بالتحويت أعني أنك قد تراه مصمم الرأس في اتجاه ماء، ثم يسبر الماء ويختفي تحت سطحه ويدور دورة الطاحونة وهو ما يزال مخفياً ، ويسبح بخفة في اتجاه مضاد ، غير أنه لم يأت هذه الخدعة حينئذٍ ولم يكن ما يحمل على الظن بأن الحيتان التي رآها طاشطيقو قد أصيبت بالذعر أو عرفت حقاً بأننا على مصابقتها. وجاءت نوبة بديل للهندي في المرقب بأعلى الصاري الرئيسي، فنزل وحلّ محله أحد الذين يختارون عادة لحفظ السفينة — وهؤلاء الحفظة هم الذين لا ينزلون في قوارب الصيد . ونزل البحارة الذين كانوا عند الشراع الامامي او عند المظين ، وثبتت براميل الحبال في مواضعها، وجهزت الروافع، وقويت سنادة الشراع الرئيس وتدلّت القوارب الثلاثة متأرجحة فوق البحر كأنها ثلاث سلال من السمار تدلت من ريد الجبل . وعلى جوانب هيكل المركب تدلى ملاحوها المتحمسون وكل منهم يمسك طرف الحاجز الحديدي باحدى يديه ويرجو ان يحطّ احدى قدميه على حرف السفين . هل رأيت صفّاً طويلاً من جنود بارجة على أهبة ان يقذفوا بأنفسهم فوق سفينة العدو ؟

لكن في تلك اللحظة الحرجة سمعت صيحة مفاجئة حولت كل الابصار عن الحوت . وأجفل الجميع وهم يبصرون آخاب الأسود وقد أحاطت به خمسة أشباح قائمة كأنما تمخض عنها الفضاء لتوها .

القوارب تنزل أول مرة

كانت الأشباح - وماذا أدعوها وقد بدت كذلك ؟ - تترق على الجانب الآخر من ظهر السفينة وتفك علائق القارب وأربطته ، حيث تدلّى ، في سرعة لا حسّ فيها . وكان البحارة يظنون دائماً ان هذا القارب هو أحد القوارب الاحتياطية ، وان سموّه بالنظر الى موقعه باسم قارب القبطان ، اذ كان معلقاً بجانب أربعة الجانب الأيمن من السفينة ، وكان الزّول الواقف عند مقدمته طويلاً مكمد اللون ذاتاب واحد أبيض ناتئ نتوءاً مشثوماً من بين مشفريه الفولاذيتين ، وقد تسلب حول جذعه صدارة صينية «مكرمشة» من القطن الأسود وسروالاً أسود واسعاً من ذلك القماش الغامق نفسه . وكان هذا السواد الأبنوسي قد توج على نحو غريب بعمامة متلألئة بيضاء جمعدة هي شعره الأصيل وقد ضفره وجعله يلتف ويتلوّى عقاصاً حول رأسه . أما رفاق هذا الزول فكانوا أقل من صاحبهم كمدة وقتاما ، ذوي بشرة في صفرة النمر يتميز بها بعض السكان الأصليين من أهل جزر مانىلا ، وهو جنس مشنوع بنوع من الشيطانية في المكر والدهاء ، ويظنه بعض البحارة البيض الطيبين جواسيس لدى الشيطان ، سيدهم ومدبرهم ، وهم عملاؤه الموثوقون في السرّ يرسلهم على وجه الماء وهو يستخدمهم ويكمن - حسب ظنهم - في موضع آخر .

وبينا كان رجال السفينة يتطلعون في دهشة نحو أولئك الغرباء كان آخاب

يهيب برئيسهم الشيخ ذي العمامة البيضاء صائحاً : « أكلّ شيء على أتم استعداد
يا فيض الله ؟ »

فيجيبه هذا بصوت بعضه كالصغير : « أتم استعداد » .

فيصيح آخاب عبر ظهر السفينة : « أنزلوا قواربكم اذن . أسمعون ؟ أقول :
أنزلوا قواربكم » .

كذلك كان هزيمُ صوته الراعد حتى ان الرجال ، على ما تملكهم من دهشة ،
وثبوا فوق حurf السفينة ودارت البكرات في محاجئها ، وسقطت القوارب في
البحر فتفاجّ لها صدر الماء . ووثب البحارة وثبة المعزى من جانب السفينة
المتدحرج ، الى القوارب المتدفعة ، بجرأة رشيقة لا تعرف المبالاة ، ولا يحسنها
غيرهم في أية حرفة من الحرف .

وما كادوا يبتعدون عن جسم السفينة من الجانب البعيد عن الريح حتى
تبدى قارب رابع آت من الجهة المواجهة للمهب فاندفع حول المؤخرة ، وظهر
الغرباء الخمسة وهم يحذفون بآخاب وقد وقف منتصباً في مؤخرة القارب ودعا
استاربك واسطب وفلاسك لكي يوسعوا ضربات المجاذيف حتى يقطعوا مسافة

١ يمثل فيض الله الروح الشريرة التي تسلطت على آخاب ؛ وسيتضح ذلك في الفصول التالية
أثناء تصوير العلاقة بين الرجلين وقد ورد اسم «فضل الله» في قصة من الف ليلة تحكي ، حكايته
مع امرأة اسمها زمردة لخصت الى الانجليزية . وهو ملك الموصل ذو الفضائل العظيمة الذي سعد
زواجه من زمردة ، يخدعه درويش بفكرته عن تقمص الارواح فيحل في جسده ويملك ملكه
وزوجته ، اما روح فضل الله فتحل في وعل ثم في بلبل تربيه الملكة وترعاه ؛ ويبدو ان ملفل
منح اسم الامير الفاضل للدرويش المحتال ، وظن الحكاية فارسية فجعل «فضل الله» او «فيض
الله» محوسياً ، غير عارف ان هذا الاسم الاسلامي لا يطلق على شخص مجوسي .

أطول على الماء . ولكن بحارة القوارب الاخرى سمروا نظراتهم في فيض الله
الأسود ورفاقه فلم يمتثلوا للأمر استغراقاً .

وقال استاربك : « من ذا ؟ القبطان آخاب ؟ »

فصاح آخاب : « وسّعوا مدي التجذيف ، لا تتشددوا أنتم بحارة القوارب
الاربعة جميعاً وأنت يا فلاسك ، جذّف في مِيلٍ وفق المهب .

فصاح « الدعامة الكبرى » في جذل وهو يحوّل مجذافه الكبير الامامي :
« نعم . نعم . سيدي » ثم خاطب بحارته قائلاً : « ميلوا للخلف ! ها هو ! ها
هو . هناك مرة أخرى . أمامنا ينفت على خط مستقيم أيها الفتيان ، ميلوا
للخلف ! »

— « حوّل عينيك عن هؤلاء الفتيان الصفر يا آرشي » .

فقال آرشي : « سيدي . انا لا آبه لهم . لقد كنت أعرف كل هذا من قبل .
ألم أسمعهم وهم في العنبر ؟ ألم أخبر كاباكو بما سمعت ؟ ما رأيك يا كاباكو ؟ لقد
كانوا « مهربين » في خفية يا سيد فلاسك » .

— « جدفوا . جدفوا يا قلوب الشبان الفتية ، جدفوا أبنائي ، جدفوا يا
صفاري » — كذلك كان يتنهد اسطب وهو يحفز بحارته في هزيمة ومصانعة ،
اذ كان بعضهم ما يزال يبدي بعض امارات القلق والنفور : « لأي شيء توفرون
أصلاّبكم ، لم لا تكسرونها نشاطاً يا فتيتاني ؟ فيم تحذقون ؟ في هؤلاء الفتيان
أصحاب القارب الآخر ؟ هه ! ما هم إلا خمس أيدي أخرى جاءت لتساعدنا
— لا يهمنا من أين جاءوا — زيادة الخير خير . جدفوا هيا ، جدفوا ؛ لا تهتموا
بطلاء القار على وجوههم — فالشياطين رفاق طيبون . كذا . كذا ، أحسنتم .

تلك ضربة مجذاف تسوى ألف جنيه ، تلك ضربة تكسب الرهان وتكفل الفوز ، مرحى بكأس ذهبية من زيت العنبر يا أبطالي . مرحى ثلاثاً يا رجال يا ذوي القلوب القوية . على رسلكم ، على رسلكم . لا عجلة ، لا عجلة ؛ لم توفرون مجاذيفكم فلا تقصفونها حمية يا خبثاء يا أراذل ! عضوا على شيء ما يا كلاب ! كذا . كذا إذن ، على مهلكم ، على مهلكم ! هو ذاك ، أحسنتم ، باعدوا المسافة وادفعوا بقوة . أريحوا ، أريحوا هنالك ! ركبكم الشيطان يا أفاكين يا معدمين . كلكم نائمون . أبطلوا الشخير يا نوام وجدفوا . ادفعوا ، ألا تدفعون ؟ جدفوا ، ألا تستطيعون ؟ هيا اعملوا ، ألا تريدون ؟ جدفوا واكسروا شيئاً ما ، جدفوا واجعلوا أعينكم تندر من محاجرها شداً . انظروا . -- واستل مديته الحادة من نطاقه وقال : « ليسحب كل ابن انثى منكم مديته ويجدف وهو واضع شفرتها بين أسنانه . تماماً ! هكذا ! ها أنتم قد صنعتُم شيئاً يذكر ؛ مثل هذا كنت أريد ، يا شطايا الفولاذ ! اخرقوه عنفاً ! اكسروه تجديفاً ، يا معالق الفضة ، يا مخارز ! »

تسمحت بإيراد « ديباجة » اسطب هذه التي كان يلقيها على بحارته ، دون إيجاز ، لانه كان ذا طريقة فذة في التحدث اليهم بعامة ، وبخاصة حين يريد أن ينقش في أذهانهم أمثلة التجديف . ولكن اياك ان تظن اذا أنت طالعت هذا النموذج من أسلوبه الوعظي أنه كان يستشيط غضباً وهو يخاطب جماعته . لا شيء من ذلك أبداً ، وتلك هي ميزته الفريدة ، وربما وجهه لبحارته أشدّ ضروب البذاء والسباب في نغمة تجمع بين مزيج غريب من الفكاهة والهياج ، ويحيي الهياج مقدراً كأنه « بهار » للفكاهة ، حتى ان أي بحار يسمع هذه الدعوات الغريبة ليهبّ مجذفاً بكل ما أوتي من قوة ويجذف استطرافاً واستملاحاً . أما هو نفسه فقد كان يظل طوال الوقت هيناً ليناً ، يدير مجذافه المقدّم في دعة مسترخية وقد تئاءب او فغر فاه أحياناً حتى ان منظر ذلك الأمر المتناوب ، بقوة المفارقة المحض ، كان يفعل فعل السحر في ملاحيه . ثم ان

اسطب كان من نوع غريب من ذوي الفكاكة ، يحيي مرحهم أحياناً غامضاً على نحو غريب فيجعل مرءوسهم على رقبة وأهبة في شئون الطاعة والامتثال .

أما استاربك فقد كان يحذف مائلاً عبر مقدمة اسطب امتثالاً لاشارة أرسلها آخاب ؛ ولما تقارب القاربان مدة دقيقة او نحوها نادى اسطب رفيقه الضابط قائلاً :

« يا سيد استاربك . يا رئيس القارب الأيسر . كلمة واحدة يا سيدي انت أذنت ! »

— « هالو » ؛ ردّ عليه استاربك دون ان يلتفت قيد شعرة وهو يتكلم ومضى يحث بجارته في حماسة هامساً . وكان وجهه ازاء وجه اسطب شبيهاً بالصوّان .

— ماذا ترى في هؤلاء الغلمان الصفر يا سيدي ؟

— مهرّبون على السفينة ، على نحو ما ، قبل ان تغادر الميناء (جددوا بقوة ، بقوة يا فتيان !) « أمر مؤسف يا سيد اسطب » (احوا صدر القارب ، هيجوه يا شبان) « لكن لا بأس يا سيد اسطب ، نرجو الخير . قل لبجارتك جميعاً انت يجددوا بقوة وليكن ما يكون » (وثباً يا رجالي وثباً) « أمامنا براميل من زيت العنبر يا سيد اسطب وهذا ما أبحرنا من أجله » (جددوا يا أولادي) حوت العنبر هو بغيتنا . هذا هو الواجب في الاقل ، والواجب والربح متلازمان ! »

فقال اسطب وكأنه يناجي نفسه حين تباعد القاربان : « أجل ! أجل !

ذلك ما فكرت فيه حين وقعت عيناى عليهم ، ذلك ما ظننته ، أجل ؛ ومن أجل ذلك كان يكثر التردد على العنبر الخلفى حسبما زعم الغلام العجان منذ عهد بعيد . كانوا يختبئين هنالك . والحوت الابيض هو سرّ هذا التدبير كله ؛ حسناً ، حسناً ، ليكن ما يكون . لا يمكن تلافيه . طيب ! أريحوا قليلاً يا رجال ، ليس ما نطارده اليوم الحوت الابيض ! أريحوا قليلاً .

من عجيب ان قدوم هؤلاء الغرباء الغلاظ في مثل تلك اللحظة الحرجة ، لحظة انزال القوارب من على ظهر السفينة ، لم يثر في نفوس بعض ملاحي السفينة أي دهشة اسطورية ، وعلة ذلك ان استكشاف آرشي التخميني كان قد شاع بينهم قبل زمن ، فأعدّ نفوسهم لتقبل الحادثة بعض إعداد ، وثلّم حدة دهشتهم ، ولهذا برثوا من الاوهام الخرافية حينئذٍ ، وساعدتهم على ذلك ايضاً طريقة اسطب الواثقة حين ذهب يعلل لظهور أولئك الغرباء ؛ غير ان الحادثة تركت مجالاً واسعاً لجميع أنواع الظنون الغريبة — قول يد آخاب الأسود في الأمر منذ البداية . وتذكرت أنا — في صمت — تلك الاشباح الغريبة التي رأيتهما تزحف على ظهر الباقوطة خلال الفجر الاغشب في نانتوكت ، وعادت اليّ التلميحات المبهمة التي كان ينثرها ايليا السادر الغريب الشان .

وكان آخاب في الوقت نفسه قد أصبح بمنأى عما يقوله الضابطان ، وقد أبعد في الانسياق نحو وجهة المهيب وتقدّم بقية القوارب ، وكل ذلك كان ينبىء عن كفاية الملاحين الذين كانوا يدفعون بالتجذيف قاربه . لكأنما كان أولئك النمرور صفرةً من فولاذ او عظام حوت ، يقومون ويقعدون حسب ضربات من القوة منتظمة كأنهم المرازب الآلية ، فينطلق القارب في الماء كأنه مولد بخار أفقي يذهب منطلقاً من باخرة في نهر المسيسي . أما فيض الله الذي كان يُعمل مجذاف الزرّاق فكان قد ألقى عنه صدارته السوداء وكشف عن صدره العاري وعن كل ذلك الجانِب من جسمه الممتد فوق حرف السفين فأتضحت معالم بنيته إزاء

الانخفاضات المتراوحة في الأفق المائي . وأما آخاب فقد كان في الطرف الآخر من القارب وقد مدّ ذراعاً واحدة كأنه مبارز وتقاعس بظهره في الفضاء كأنما يوازن يجلسه أي ميل للسقوط . كان آخاب يسيطر في ثبات على المجاذيف المقدّم الموجّه ، كأنه هو نفسه آخاب في المرة الألف من انزال القوارب قبل ان يذهب الحوت الابيض بساقه . ورسمت الذراع الممتدة حركة خاصة — دفعة واحدة — ثم بقيت مثبتة حيث هي واذا المجاذيف الخمسة في وقت معاً قد أصبحت كالمناسر . ووقف القارب والملاحون على الماء بلا حراك . وعلى التوّ توقفت القوارب الثلاثة المتباعدة في المؤخرة . كانت الحيتان قد استقرت دون انتظام في القاع الاخضر من غير ان تحدث أية أمانة تدل من بعد على حركتها وان كان آخاب قد لحظها لاقتربه منها .

فصاح استاريك : « لينظر كل رجل منكم على المدى في اتجاه مجذافه ، قف ، انت يا كويكوج ! »

وثب ذلك البربري بخفة ورشاقة على الصندوق المثلث البارز في المقدمة ، ووقف هنالك منتصباً ، ونظر بعينين محددين لاهفتين نحو البقعة التي رثي فيها الصيد آخر مرة . وعلى مؤخرة القارب حيث سطح مستوٍ يصنع مع حرف القارب شكلاً مثلثاً وقف استاريك أيضاً ، وجعل يحاول ان يقف متزناً في برود وكياسة ، والماء يتلعب بتلك الخشبة التي تسمى قارباً ، وأخذ يرمق بعينه عين الأخضر الطامي في سكون .

ولم يكن قارب فلاسك نائياً وهو منطرح مبهور على صفحة الماء ، وقد وقف قائده بغير اكتراث على قمة « المثقّلة » ، وهي نوع من الدعامة مغروسة في بطن القارب ، وترتفع نحو قدمين فوق مستوى دكة المؤخرة ، وتستعمل ليلتف حولها حبل التحويت ، وقتها ليست أعرض من راحة كف الانسان ؛ وحين

وقف فلاسك على مثل تلك القاعدة بدا وكأنه قد حطّ على قمة صارٍ في سفينة غرقت جميعاً سوى دواليب روافعها . غير أن « الدعامة الكبرى » كان صغير الحجم قتيلاً ، وكان أيضاً مفعماً بطموح كبير طويل حتى ان قمة « المثقلة » التي اعتلاها لم تكن لترضيه أبداً .

— لا أستطيع ان أرى مدى ثلاث موجات . أقم لنا مجدافاً هناك ودعني أقف عليه .

فلما سمع دغة هذا انكأ بيديه الاثنتين على حرف السفين متثبثاً ، وانزلق بحفة نحو مؤخرة السفينة ، ثم انتصب واقفاً وتطوّع يجعل كتفيه مرقاة وقال :

— كمرب الصاري يا سيدي . ألا تصعد ؟

— ذلك أريد وشكراً جزيلاً يا رفيقي المذهب . كم كنت أتمنى ان تكون أطول مما أنت بمقدار خمسين قدماً .

وعلى الأثر غرس الزنجي العملاق قدميه ضدّ لوحين متقابلين في القارب ، وطأ طأ قليلاً ، وقدّم راحته مبسوطة ليضع عليها فلاسك قدمه ثم وضع يد فلاسك على رأسه الذي يشبه التابوت المعلم بالريش وأمره ان يثب اذا هو انتفض ، وفي همزة رشقة واحدة أرسى الرجل الصغير عالياً في الفضاء فوق كتفيه ، وفيما هو واقف هنالك كان دغة يرفّعه له ذراعه ليتخذها حزاماً يشدّ بها صدره ويتثبت في موقفه .

ومن كان مبتدئاً في شؤون البحر أدهشه في كل وقت ان يرى كيف يحتفظ الحوات بقامته منتصبه في القارب ، وكأن دربته العجيبة قد جعلت مهارته عفو الحاطر حتى حين يتأرجح به القارب في أشد المياہ طغياناً وعناداً . وأغرب من

هذا كله ان يراه وقد وقف مترنحاً فوق « المثقلة » نفسها في مثل تلك الظروف .
غير ان مرأى فلاسك الصغير وقد علا فوق كتفي دغة العملاق كانت أغرب
المنظر جميعاً ، فقد استطاع ذلك الزنجي الفارع ان يدع جسمه الجميل يتدحرج
في انسجام مع تدحرج الامواج ، وقد نصب نفسه في عظمة هادئة يسرة عفوية
سمحة بربرية ؛ وكان فلاسك فوق عاتقه العريض المغطى بشعر كأنه الكتان يبدو
كندفة الثلج . كانت المطية أنجد من راكبها . وكان فلاسك حقاً مرحاً صخاباً
محباً للتباهي ، الا أنه كان بين الحين والحين يدق بأخصه في جزع وفروغ صبر
فلا يحرك في صدر الزنجي الشامخ مزيداً من زفرة واحدة . كذلك رأيت
الشهوة والغرور تدقان بأقدامها وجه الارض الحية الكريمة ، فلم أر الارض
تغير أزمانها وفصولها بذلك .

وفي الوقت نفسه لم يبدِ اسطب الضابط الثالث اي شوق لابعاد مدى
الرؤية . قد تكون الحيتان قامت باحدى قسماتها المنتظمة ، ولم تغص غوصاً
مؤقتاً بداعي الفزع المحض ؛ واذا كان الامر كذلك فان اسطب يصبر ، حسبها
تعود في مثل هذه الاحوال ، ان يبدد جهامة الزمن المتراخي بدخان غليونه ،
ولذا استخرجه من شريط قبعته حيث كان يضعه دائماً مائلاً كأنه الريشة ،
وحشاه بالتبغ وسوى سطحه بطرف ايهامه ، وما كاد يمرّ عود الثقاب على
سطح يده الحشن الذي يشبه « ورق الصنفرة » حتى انقض فجأة طاشطيقو
مساعدته الرمّاح الذي كان قد ثبتت عينيه وجهة نشوء الريح كأنها نجمان ثابتان ،
انقض كأنه الصاعقة من وقفته المنتصبة في مقدمه وهو يصرخ صرخات متلاحقة
وكأنما أصابه مسّ من عجلة :

« هيا ، هيا جميعاً ، ووسعوا مدى التجديف ، فهي هناك ! »

لو ان الناظر كان رجلاً من أهل البر لما لاح لعينيه في تلك اللحظة اي حوت

او أية أمارة من سمك الرنجة ، واذن لما رأى إلاً قطعة مضطربة من الماء الابيض الضارب الى الخضرة ، ونفثات متفرقة من البخار تحوم من فوق الماء ، وتنتشر سحباً مع مهبّ الريح كأنها اندفاع مضطرب تحدّثه الامواج البيض المتدحرجة . واهتز الهواء من حولها فجأة وتدافع مقشعراً كأنه الهواء الذي يكون فوق صحاف من الحديد أحميت بشدة . ومن خلال هذا التموج والتجعد الجوّي ومن خلال طبقة رقيقة من الماء كانت الحيتان تسبح ، وكانت نفثات البخار التي أرسلتها تتقدم جميع الدلائل الاخرى على وجودها ، كأنها رسلها المقدمون أمامها او طلائعها الراكضة التي انحاشت عنها بعيداً .

وكانت القوارب الأربعة حينئذٍ تقوم بمطاردة جاهدة نحو تلك البقعة التي يضطرب فيها الماء والهواء . ولكنها كانت تنأى فتفوتها ، كانت تتباعد وتمعن في التباعد كأنها مجموعة من الحبيب المختلط يحملها جدول سريع منحدر من التلال .

— « جدّفوا ، جدّفوا يا أولادي الطيبين » ، كذلك قال استاربك لرجالها في همسة هي أشد شيء خفوئاً وأبعده تهماً واعمالاً ؛ بينما كانت عيناه تطلقان نظرتين مثبتتين حادثين من عند مقدم القارب في اتجاه عامد مستقيم ، وكأنها ابرتان مرئيتان في بوصلتين دقيقتين قد أودعتا في صندوقيهما . ومع ذلك فانه لم يكثر التحدث الى ملاحيه ولم يقل له ملاحوه شيئاً ، الا ان الصمت الذي يلف القارب كانت تتخلله بين الحين والحين همسة من همساته الخاصة ، على نحو يستثير الفزع ، فتكون حيناً همسة تملؤها فظاظة الامر وحيناً نعومة الرجاء .

شتان بين استاربك وبين « الدعامة الكبرى » الصخّاب الجمعّاج الذي لم يكن يكف عن الكلام : — « غنّوا وقولوا شيئاً يا أعزائي . ازأروا وجدّفوا أيها الصواعق . جرّوا بي ، جرّوا بي فوق ظهورها السود أيها الغلمان . افعلوا هذا فحسب اكراماً لي وسأتنازل لكم عن مزرعتي في مرثا فنيارد يا أولاد ، بما

في ذلك زوجتي وأولادي ، يا أولاد . اضجعوني هنالك ، اضجعوني ، رباه ،
رباه ! سأجن وأنا أحرق : انظروا ! انظروا ذلك الماء الابيض ، وما ان أرسل
تلك الصيحة حتى نزع قبعته عن رأسه وأخذ يدوسها وينطّ فوقها ، ثم التقطها
وطوّح بها بعيداً على الماء ، واخيراً أخذ ينهض ويغوص في مؤخرة القارب كأنه
مهر مجنون من مهارى السهوب .

وكان الغليون القصير بين شفتي اسطب حينئذٍ قد انطفأ ، فظل يضغط عليه
بأسنانه ، ويتابع الاجحار على مسافة قصيرة من قارب فلاسك ؛ فقال وهو يهذرم
منتحلاً حكمة الفيلسوف : « تأملوا ذلك الفتى . أصابته نوبة . لا ريب ان
فلاسك يصاب بها . النوبات . نعم امنحوه نوبات - تلك هي الكلمة الدقيقة
لتصوير حاله - اغرسوا النوبات فيه . جدفوا بمرح ، بمرح ايتها القلوب الحية ،
سيكون عشائكم بودنج ، وأنتم تعلمون ذلك . المرح تلك هي الكلمة المناسبة .
جدفوا أيها الاطفال ، جدفوا ايها الرضع ، جدفوا جميعاً ؛ ولكن بحق الشيطان
لم تستعجلوا ؟ هونا هونا وثباتاً يا رجالي ، جدفوا فحسب ، وامضوا مجدفين ؛
لا شيء سوى ذلك . اكسروا أصلابكم جهداً ، وعضوا على مدياتكم حتى
تقصموها وحسبنا هذا . يسروا ولا تعسروا ، لم لا تيسرون - أقول ، لم لا
تيسرون وتفجّرون اكبادكم وراثكم شديداً !

لكن ما الذي قاله آخاب الغامض لبحارته الذين هم كالنمور صفرة ؟ خير
لنا ان لا ندرج تلك الكلمات في هذا المقام لانكم - ايها القراء - تعيشون تحت
النور المبارك الذي يشع على هذه البلاد ذات المذهب الانجيلي . ولا يصغي لمثل
تلك الكلمات الا حيتان القرش الكافرة في البحار الجبّارة ، حين وثب آخاب
خلف فريسته ، وجبينه كأنه الزوبعة ، وعيناه تقدحان بشرر الموت الاحمر ،
وشفتاه تتدبقان بنثار الزبد .

وحينئذٍ كانت القوارب جميعاً تشدّ شدّها الجاهد . وكان فلاسك يكرر

التلميح الى الوحش الاسطوري باسم : « ذلك الحوت » ، ويقول ان ذنبه ما يزال يعايب صدر قاربه بالشوق المبرح الى ادراكه ؛ وكانت تلميحاته تلك تجيء أحياناً حيوية واقعية ، حتى كانت تجعل واحداً او اثنين من بحارته يسترقان نظرة خائفة الى الوراء ؛ وهذا العمل مخالف لكل قانون ، ذلك ان المجذفين لا بد لهم ان يغرسوا أعينهم أماماً دون التفات ، ويدسوا في أعناقهم سفايفد تصلبها عن الحركة ، فقد جرى العرف على أنه ليس لهم من جوارح الا الاذان وليس لهم من أطراف الا الاذرع في مثل تلك اللحظات الحرجة .

وكان منظراً حافلاً بالعجب والرهبة السريعين ! كل شيء فيه يحدث هزة وانتفاضاً . فهناك الامواج الهائلة في البحر الجبار ؛ والهدير الطاغي الأجوف الذي تحدثه وهي تصدم حوافي القوارب الثاني ، كأن القوارب كرات ضخمة في ملعب أخضر مترامي الأطراف ؛ والعذاب الوحي المتقطع الذي يقاسيه القارب حين ينقلب لحظة على حافة الامواج المحددة كأنها موسى ، وكأنها لحدتها توشك ان تشقه نصفين ؛ والغوص المفاجيء العميق في أخوار البحر وأخاديه ؛ والحث والهمز اللاهف لبلوغ قمة الموجة المقابلة ، والجرف القائم الزلقي في صفحتها الاخرى . أضف الى هذا كله صرخات القادة والرماحين ولهاث المجذفين المرتعد ، والمنظر العجيب - منظر الباقوطة العاجية وهي تكاد تنقض على قواربها بأشعة منشرة كأنها دجاجة مفزعة تلحق كتناكيتها المصنصنة - كل ذلك كان مصدر هزة ومثار ارتعاش . فلا المتطوع الفج الذي انتزع نفسه من صدر زوجته وذهب في غمرة حمى المعركة الاولى ، ولا شبح الميت وهو يواجه اول طيف مجهول يلقاه في الدار الآخرة ، لا هذا ولا ذاك يحسان بمشاعر أغرب وأقوى من مشاعر ذلك الرجل الذي وجد نفسه لأول مرة يحذف في الدائرة المسحورة المضطربة ، دائرة صيد حوت العنبر .

وأخذ الماء الابيض المتراقص الذي أثارته المطاردة يتضح للأعين رويداً

رويداً ، وذلك لازدياد العتمة في ظلال السحب الداكنة التي تنطرح على وجه الماء . ولم تعد نفثات البخار تشتبك وتختلط وانما تعرجت يمينا وشمالاً ، وبدأ كأنما الحيتان قد تمايزت آثار مخرها ، فازداد التباعد بين القوارب ، ولحق استاربك ثلاثة من الحيتان كانت تجري مستميتة وفق المهب . ففشرنا عندئذٍ شراعنا ، ومع الريح التي ما تزال هابة اندفعنا ومضى القارب في الماء يحنون حتى ان المجاذيف اليسرى لم تكد تثبت في مواقعها حين شاء البحارة ان يعملوها في سرعة كافية .

وسرعان ما وجدنا أنفسنا نجري خلال غشاوة واسعة منشورة من الضباب فلا نرى سفينة او قارباً .

وهمس استاربك وهو ما يزال يسحب قماش شراعه نحو اليسار : « قدّموا يا رجال ، ما يزال لدينا وقت لنقتل حوتاً قبل حلول العاصف . ها هو الماء الابيض يعود ! قربوا ! اقفزوا » .

وبعيد ذلك سمعنا صرختين متلاحقتين على جانبينا دلّتا على ان القوارب الاخرى قد قطعت شوطاً في سرعتها وما كدنا نسمع الصراخ حتى قال استاربك في همسة كالبرق عاجلة : « قف ! » واذا كويكوج يثب واقفاً ورعنه في يده .

ومع أنه لم يكن أحد من المجذفين يواجه خطر الحياة والموت الكائب وهو من أمام ، فان أعينهم كانت مسلطة على وجه الضابط الجاهم في مؤخرة القارب وبذلك عرفوا ان اللحظة الحاسمة قد حلت ، وسمعوا أيضاً صوتاً هائلاً متدفعاً كأن خمسين فيلاً كانت تتملل في مضاجعها . وفي الوقت نفسه كان القارب ما يزال عاثراً بين الضباب ؛ والامواج تتجدد وتصرصر من حولنا كأنها حيات مغضبة قد نفشت قنازعها .

وهمس استاربك : « تلك هي حردبته . أيوه . أيوه اغرز الحديدية فيها ! »

ومن القارب وثب صوت قصير مندفع ؛ تلك هي حديدية كويكوج المزروقة . ثم جاءت دفعة خفية من خلف السفينة في اضطراب مجتمع متلاحم الجنبات بينما كان القارب في الامام كأنه يصدم افريزاً ، فانهار الشراع وتشقق ، وانطلقت على مقربة منا دفقة من البخار اللذّاع ، وتدحرج من تحتنا شيء وانقلب كأنه الزلزلة ، وكاد البحارة يختنقون حين نفضهم القارب شذر مذر في جوف العاصف المنعقد الخائر . واختلط العاصف والحوت والرمح معاً ونجا الحوت بنفسه اذ أشوت الحديدية ولم تصب منه مقتلاً .

ومع ان القارب استنقع في الماء فانه لم يكدي يصيبه أذى . فسبحنا من حوله ، ولمنا المجاذيف العائمة ، وربطناها عبر حرف القارب ثم انكفأنا الى مواقعنا ، وهناك جلسنا والماء يغمرنا حتى الركب ، وقد غطى كل دعامة ولوح ، حتى بدا القارب المعلق أمام نظراتنا المصوّبة قارباً مرجانياً نما بارزاً من قاع المحيط .

وأصبح صوت الريح جواراً ، وجمعت الامواج دروعها معاً ، وغدا العاصف كله يزأر وينشعب ويفرقع من حولنا كأنه نار بيضاء في السهوب ونحن نحترق في جوفها دون ان تحيلنا رماداً ؛ كنا خالدين بين فكبي الموت ؛ وناديننا القوارب الاخرى فضاعت أصواتنا ، كأننا كنا ونحن ننادينا في العاصفة كمن يهيب بالفحم الذي لم يكدي يعلق به الشرر من خلال مدخنة أتون لاهب . وفي الوقت نفسه زادت ظلمة البخار والطخا والضباب ، تلك الثلاثة التي ترجبها الريح لحلول أشباح الليل ، فيما نرى للسفينة عيناً ولا أثراً . وحال الموج المتوثب دون أية محاولة لنزع الماء من القارب ، ولم تكن المجاذيف لتجدي لو اتخذناها مرواحات للدفع ، اذ كنا قد جعلنا منها وسائل للنجاة . وبعد محاولات عديدة مخفقة قطع

استاربك الرباط الذي يشدّ برميل الثقاب - وهو برميل لا ينفذ منه الماء -
ودبر اشعال المصباح في المنور ، ثم علقه على عود وجده لقيّ ، ومدّ به الى
كويكوج حامل راية ذلك الفريق المنبت ، فجلس هنالك وقد رفع ذلك الضوء
الواهي في قلب ذلك الضياع الجبار ؛ هنالك جلس وهو رمز انسان دون
ايمان يرفع يائساً رجاءً في حومة يأسٍ محيط .

أما نحن فقد شملنا البلل وانتقعنا وأخذنا ننتفض من البرد يائسين من رؤية
سفينة او قارب ، أما نحن فقد رفعنا أعيننا لنواجه الفجر لدن طلوعه . كان
ثوب الضباب ما يزال منشوراً على الماء ، والمصباح الناضب ملقى في قاع القارب
محطماً ؛ وفجأة نهض كويكوج واقفاً وقد جوّف راحته وراء أذنه متسمعاً ،
وسمعنا جميعاً صريراً خافقاً كأنه صرير حبال وسوارٍ ما تزال العاصفة تكتمه ؛
وأخذ الصوت يقترب ويقترب وانشق الضباب الكثيف من حول جسم ضخم
مبهم ، وتملكنا الفرع ، غير أننا قفزنا جميعاً في الماء حين لاحظنا السفينة بمرأى
منا وهي تنقض نحونا في مدى لا يزيد كثيراً عن طولها .

وحين كنا على الشبح رأينا القارب المهجور يعوم فوق الامواج وبدا لنا في
لحظة وهو يلتفض ويفتح تحت مقدم السفينة كأنه شظية في قاع شلال ؛ ثم
تدحرج الهيكل الضخم من فوقه واحتجب عن انظارنا حتى ظهر يتقلب في
المؤخرة . فسبحنا لنبلغه مرة أخرى واندفعنا نحوه بقوة الموج ثم ادركنا
السفينة ونزلنا حماها آمنين . أما القوارب الاخرى فانها قبل ان يقترب منها
العاصف كانت قد تخلت عن الصيد وعادت الى السفينة في الوقت المناسب . وأما
السفينة فكانت قد يئست من العثور علينا ولكنها كانت ما تزال تطوف لعلها
تقع على أمانة تدل على مصيرنا المحتوم ، كأن تعثر على مجذاف عائم او قناة
رمح طافية .

الضبع

في هذه الزحمة المختلطة الغريبة التي نسميها « الحياة » أوقات ومناسبات عجيبة يرى المرء فيها الكون كله نكتة عملية ضخمة ، وإن كان لا يستبين فيها براعة التندر إلا استبانة باهتة ، ولعله أن يكون على مثل اليقين بأنه هو نفسه محور النادرة . ومع ذلك فإنه لا يرى فيها ما يثبط همته ، ولا يجد ما فيها جديراً بالتنازع . فهو يزدرد كل الأحداث والنحل والمعتقدات والحجج وكل الأمور العسيرة مرئية كانت أو خفية ، لا يهمه أن تكون عقداً شاجرة ، كأنه نعام ذات قدرة قادرة على الهضم فهي تزدرد الرصاص وشظايا الصوان . أما العقبات والهموم الصغيرة وما قد يحلّ به من مصائب مفاجئة تعرض حياته وأعضائه للخطر ، أما هذه جميعاً وأما الموت نفسه فإنه لا يرى فيها إلا دعايات ماكرة وإلا جشاشات مرحة في الجنب يمنحه إياها الساخر الأعظم السادر المحجوب عن الأبصار . هذا اللون الغريب من المزاج المصابر العنيد ، وهو ما أتحدث عنه ، لا يستولي على المرء إلا في أشد المصائب والحن ، فيتلبس به وهو في غمرة تفانيه حتى أن كل ما سبق له أن رآه شيئاً هاماً ذا بال ليغدو في نظره حينئذٍ جزءاً من تلك النكتة الشاملة . وليس في الأخطار ما يولد مثل هذا اللون الطليق الهين من هذه الفلسفة الرحبة الرعناء كأخطار صيد الحيتان . وبمثل هذه الفلسفة تأملت رحلة الباقوطة وتأملت غايتها الكبرى وهي صيد الحوت الأبيض .

وعندما سحبتني ، وبذلك سحبوا آخر رجل ، إلى ظهر السفينة وكنت ما أزال انفص صداتي ليتناثر منها الماء - عندئذٍ قلت لكويكوج : « كويكوج ،

يا صديقي الطريف، هل يحدث مثل هذا الذي حدث كثيراً ؟ « فأفهمني دون ان يحشو كلامه بانفعال، وان كان ما يزال مثلي ناقع الجسم والثياب بالماء، ان مثل هذا الذي حدث يحدث كثيراً .

فتحولت الى السيد اسطب ذلك الرجل البسارع الجليل الذي كان يدخن غليونيه في هدوء تحت المطر وقد زرّ عليه صدارته المشمعة وقلت : « سيد اسطب، أظنني سمعتك تقول ان السيد استاربك رأس الضباط أشد من لاقيته بين جميع الحواتين حيطه وزكاته، اذن فأنا أظن ان الحمل على حوت هارب، دفعة واحدة، والشرع منشور، في عاصف كثيف الضباب، هو ذروة التبصر والتروي لدى الحوات ؟ »

— « يقيناً، فقد حدث ان أنزلت القوارب لمطاردة الحيتان من سفينة مشقوقة يتسرب اليها الماء أثناء ربح هوجاء هبت على مسافة من رأس هورن .

ثم تحولت الى « الدعامة الكبرى » وكان يقف على مقربة منا وقلت له : « سيد فلاسك ! أنت ذو دربة ومراس في هذه الأمور، ولست أنا كذلك، فهل لك ان تجربني يا سيد فلاسك : أهو قانون لا يتبدل ولا يتحول في حرفة الصيد أن يدقّ المجدف صلب نفسه وهو يجذف كي يلقي نفسه ويحشر ظهره بين فككي الموت ؟ » فقال فلاسك : « ألا تستطيع ان توجز ؟ — أجل ذلك هو القانون . انني لأحب أن أرى ملاحي القارب يجذفون حتى تكاد ظهورهم تلامس وجه الحوت . ها . ها . ان الحوت عندئذٍ ليرد على كل غمزة من أعينهم بغمزة من عينه، لا تنسَ هذا ! »

تحصل لدي من مشافهة هؤلاء الثقات الثلاثة العدول صورة واضحة للأمر كله . فاذا اعتبرت ان العواصف الجائحة والانقلاب في الماء، وما يتلو ذلك من بيات دون ملجأ أو وقاية على الماء، هي أمور كثيرة الحدوث في هذا النوع من المعيشة ، واذا اعتبرت انني في اللحظة البالغة الحرج — لحظة هجومي على

الحوت - أجعل حياتي وديعة في يدي ذلك الذي يوجه القارب - وكثيراً ما يكون في تلك اللحظة نفسها امرءاً بالغ التهوّر والاحتدام حتى ليكاد بذلك ان ينقلب القارب بوطئه الهائج المهنق - واذا اعتبرت ان الحنة التي أصابت قاربنا ستعزى في المقام الاول الى اندفاع استاربك في هجومه على الحوت بحيث ألقى بنا أو كاد بين نواجذ العاصف المهنون ؛ واذا اعتبرت أن استاربك على ذلك كله كان مشهوراً بحيطته البالغة في شئون التحويت ؛ واذا اعتبرت انني كنت انتمي الى قارب استاربك ذلك القائد المعروف بحسن التدبر والزكاة ، واذا اعتبرت اخيراً أي شيطان أقحمت نفسي في مطاردته ، أعني الحوت الابيض ؛ أقول اذا اعتبرت كل هذه الشئون مجتمعة وجددتني أنزل الى غرفتي واكتب مسودة من وصيتي . وقلت لكويكوج : « تعال معي ، ستكون انت القاضي والمنفذ والوارث » .

وقد يبدو من الغريب أن يكون البحارة بين الناس جميعاً هم الذين يحرصون على تسطير وصاياهم وشهاداتهم الاخيرة ولكن ليس في العالم كله من هو مثلهم غراماً بتلك الأهمية . وتلك كانت رابع مرة في حياتي أخط فيها وصيتي ، فأحسست ، بعد ان انتهت المراسم في المرة الرابعة بأني اكثر راحة وطمأنينة ، كأنما انزاح عن صدري حجر كان ثقیل الوطأة فوقه . ثم ان الايام الباقية من عمري ستكون جميعاً طيبة كالأيام التي عاشها لعازر بعد ان بعث من بين الموتى ، وذلك ربح اضافي نظيف لعله يبلغ شهوراً أو أسابيع ، كيفما كانت الحال . لقد مددت في اجلي وأقفلت خزانة صدري على موتي ودفني ؛ وتلفت حولي في سكينه ورضى كأنني شبح هادىء ذو ضمير سليم يجلس وراء القضبان في قبو عائلي وادع مريح .

وقلت لنفسي ، وأنا أطوي لاشعورياً أكام صدارتي : ها أنا على أهبة أن أقوم بغوصة نحو الموت والفناء وأنا رابط الجأش هادىء النفس ، حقق الشيطان الختام .

قارب أخاب وملاهوه - فيض الله

صاح اسطب قائلاً : « من كان يتصور ذلك يا فلاسك ! لو كانت لدي رجل واحدة لما وجدتني في قارب الا ان أكون فيه لكي أسد احد الثقوب بطرف قدمي الخشبية . اوه ! انه لشيخ عجيب ! »

فقال فلاسك : « لا أراه امرأ غريباً بعد كل هذا من أجل ما تقول ، فلو كانت رجله مقطوعة من جانب الورك لكان الأمر مختلفاً ، فذلك يعجزه ويقعده ، ولكن لديه ركبة وجزءاً صالحاً من ركبة اخرى كما تعلم . »

— « لست أعرف ذلك ، يا رفيقي فأنا لم أره ابدأ يركع . »

* * *

كثيراً ما كان موضوع حياة القبطان في التحويت موضع جدل بين الناس المعنيين بتلك الحرفة ، فحياته بالغة الأهمية في إنجاح السفرة ، واذن : فهل من حقه ان يجازف بها في أخطار المطاردة والصيد ؟ كذلك كثيراً ما تجادل جنود تيمورلنك والدموع تترقرق في مآقيهم : هل من حق قائدهم ان يزج بحياته الغالية في حومة القتال ؟

غير ان المسألة اتخذت وجهاً محوَّراً في حال أخاب : ما دام المرء وهو ذو رجلين صحيحتين لا يعدو ان يكون مخلوقاً أقزل في أوقات الخطر ، وما دامت

مطاردة الحيتان تتم تحت صعاب كبيرة فريدة على الدوام، وما دامت كل لحظة على حدة تنضح بالخطر حقاً، فهل من الحكمة في شيء تحت مثل هذه الاعتبارات أن ينزل امرؤ معطل في قارب تحويت أثناء الصيد ؟ ان الشركاء الذين يملكون الباقوطة لم يروا ذلك الأمر — على وجهه العام — من الحكمة في شيء .

لقد كان أصدقاء آخاب في الوطن لا يستاءون من أن ينزل آخاب في أحد القوارب اثناء مرحلة من المطاردة غير خطيرة نسبياً لكي يكون من مشهود العمل على كثب، ويلقي أوامره شخصياً، أما أن يكون لآخاب قارب مخصوص ويكون هو القائد الأعلى في الصيد، أو أن يزود آخاب بخمسة رجال آخرين ليتخذهم ملاحين في قاربه، أما ذلك فقد كان آخاب يعرف حق المعرفة انه نوع من الخيال السخي الذي لا يمكن ان يتغلغل في رؤوس أصحاب الباقوطة . ولذلك لم يسألهم ان يزودوه بملاحين لأحد القوارب ولا ألمح الى رغباته في ذلك الأمر . الا أنه اتخذ تدابير خاصة من لدنه بشأن تلك المسألة ؛ وما كان للبحارة ان يتكهنوا بما دبّر حتى ذاع ما اكتشفه كاباكو، وان كانت الأيدي جميعاً قد أنجزت حقاً تهيئة قوارب التحويت للعمل، وذلك عمل مألوف يتم بعد الابتعاد عن الميناء . وبعد وقت قصير كانوا يرون آخاب بين الحين والحين يشغل نفسه ويدق يديه المسامير التي يرتكز بينها المجذاف في قارب كانوا يحسبونه أحدهم القوارب الاحتياطية ، بل كان ينجر — في رقبة الحذر — السفافيد الخشبية الصغيرة التي تدق فوق الميزاب في مقدم السفينة حين يرسل حبل الصيد في الماء . حين رأوا ذلك منه ورأوا بخاصة لهفته لينغلف قاع القارب بطاق آخر كأنه يريد ان يتحمل وطأة رجله العاجية المدببة، وعندما شهدوا القلق الذي أبداه وسو يصمم بدقة سناد الفخذ أو القليط الأرعن، كما يسمونه أحياناً، وهو قطعة أفقية في مقدم السفينة تشد اليها الركبة عند زرق الحوت أو طعنه ؛ وعندما لحظوا كيف يقف كثيراً في ذلك القارب وقد أثبت ركبته السليمة في التجويف النصف الدائري في القليط وقوّره بازميل النجار قليلاً هنا وسواء مستقيماً ،

قليلًا هنالك ، أقول حين شهدوا هذه الأمور جميعاً ايقظت لديهم رغبةً واستطلاعاً حينئذٍ ، ولكن كاد كل امرئ منهم ان يظن بأن هذه العناية الاستعدادية الخاصة لدى آخاب انما هي رجاء صيد موبي ديك في النهاية ، اذ كان قد أنبأهم انه ينوي هو بنفسه صيد ذلك الوحش ، الذي كُتِب عليه الموت . ولكن مثل هذا الظن لم يشمل بأي حال أيّ توهم بعيب حول وجود ملاحين معيّنين لذلك القارب .

وتلاشى ما تبقى من عجب حين ظهر الأشباح التوابع ، لان الأعاجيب تتلاشى سريعاً في قوارب التحويت . ثم ان مثل هذه النفائات التي تأتي من أمم غريبة والتي لا تجد لها تعليلًا تجريء بين الحين والحين من الزوايا المجهولة وحفر النفائات في الارض لتزيد الى الشذاذ الخارجين لصيد الحيتان ، وكثيراً ما تلتقط السفن مثل هذه المخلوقات الغريبة المنبوذة التي تجدها يتلعب بها الموج فوق ألواح أو شظايا من حطام أو مجاذيف أو قوارب تحويت أو زوارق أو ينكات يابانية تصرفها الريح أو أي شيء من هذا القبيل ؛ وان « بعل ذباب »^١ نفسه قد يتسلق أحد جوانب السفينة ويتقدم الى القمررة ويحدث القبطان فلا يثير ذلك في منارة السفينة دهشة مستبدة مستحكمة .

ولكن مهما يكن أمر هذا كله ، فانه لمن المؤكد ان هؤلاء الاشباح التوابع وجدوا مواضعهم بين الملاحين وان ظلوا متميزين منهم على نحو ما ، الا فيض الله الذي تتوج رأسه عمامة من شعر فانه ظلّ لغزاً ملففاً حتى النهاية . من أين جاء الى عالم كذلك العالم ؟ بأي نوع من رابطة لا تعليل لها وجد نفسه على التـوّ مرتبطاً بمقدرات آخاب ، منتحلاً نوعاً من نفوذ ملموح ؛ علم ذلك عند الله بل لقد

١ يحيى بعد الشيطان في المرتبة ، في « الفردوس المفقود » وفي سفر الملوك الثاني ١ : ٢ يرد بعل زبوب اسماً لاحد اهل الفلسطينيين في عقرن .

كان فيض الله ذا سيطرة عليه ؛ تلك أمور لا يعلمها أحد. غير ان المرء لا يستطيع ان يقف من أمر فيض الله منتحلاً عدم المبالاة ؛ فقد كان مخلوقاً كالذي يراه أهل المنطقة المعتدلة المتمدنون الآلفون في مناماتهم ، ويكاد الشبه ان يكون باهتاً ، ولكن أمثاله ينسابون آونة وآونة بين المجتمعات الآسيوية غير المتغيرة وبخاصة الجزائر الشرقية الواقعة الى الشرق من القارة — تلك البلدان الجزرية الأزلية التي لا يتبدل وجهها، التي لا تزال تحتفظ حتى في هذه العصور الحديثة بكثير من الأصالة الشعبية كما تمثلها اجيال الارض البدائية حين كانت ذاكرة الانسان الأول لا تعرف النسيان، وكان كل الناس نسلاً له لا يعرفون من أين أتى، ويرمق أحدهم الآخر كأنهم أشباح حقيقية، ويسألون الشمس والقمر لم يخلقوا ولأية غاية وحين كان الملائكة أنفسهم — كما يقول سفر التكوين^١ — يتخذون لهم زوجات من بنات الناس ؛ وزعم الحاخامون المتزبدون ان الشياطين أيضاً انغمسوا في ضروب من العشق الارضي .

١ في سفر التكوين ٦ : ٢ وحدث لما ابتدأ الناس يكثرُونَ على الارض وولد لهم بنات من ابناء الله رأوا بنات الناس انهن حسنات فاتخذوا لانهنفسهم نساء من كل ما اختاروا .

النفثة الشبح^١

مرّت أيام وأسابيع والباقوطة العاجية تنساب في ببطء وريح ليّنة رخاء، فقطعت بذلك أربعة مجالات من مواقع التطواف : الموقع المقابل لجزر الآزور والثاني عند رأس فرد والثالث على «البلاط» - سميّ كذلك لانه على مسافة من مصب نهر ريودي لبلاطه - وموقع كارول وهو مجال مائي مهول الى الجنوب من سنت هيلانة .

وفي احدى الليالي المقمرة كانت الامواج تتدحرج متلاحقة كأنها أدراج من الفضة، وتنتشر باهتزازاتها الناعمة ثوباً من الصمت الفضي لا من العزلة الموحشة؛ وفيما السفينة تنساب خلال الموقع الرابع من مجالات التطواف في ليلة من تلك الليالي الصامتة تجلت للأعين نفثة فضية أمام الحجب المتكورّ قدّام السفينة، وتبدت وقد ضوّأها القمر سماويةً كأنها إله متلألئ ينهض من البحر وعلى رأسه ريشة بيضاء . وكان فيض الله اول من تبينها اذ كانت عادته في هذه الليالي الأضحيانة ان يملأ المرقاة العليا في الصاري الرئيس ويقف في رقبة هنالك، وهو يحدّق بمعنا كأنه يتولى الرقابة في النهار . ولربما رأى الحواتون في الليل زرافات

١ النفثة الشبح صورة اخرى من القدر الذي ينتظر امرأاً موعلاً في ثقته بنفسه ؛ لقد كان آخاب ينتظر الدم الاسود يتدفق من الحوت فأصبح فريسة للوم يظن النفثة الشبح نافورة مويديك، فهي رمز للتغوير، رمز للأمل الرواغ، وليس من قبيل المصادفة ان يراها «فيض الله» ويوجه انتباه آخاب اليها .

من الحيتان غير انه لم يكن فيهم من كان يحدث نفسه بمغامرة النزول لها في قارب . ولعلك تقدر اية مشاعر كانت تستولي على البحارة وهم يرون هذا الشرقي العجوز قد وقف رصداً في الأعالي في مثل تلك الساعات الشاذة ، وقد أصبحت عمامته والقمر رفيقين مصطحبين في سماء واحدة . وقضى فيض الله فترة مكرورة من الترقب خلال عدة ليالٍ متوالية دون أن يتفوه بصوت واحد، ولكن حين انبعث صوته الوحشي بعد هذا الصمت كله، وسمعه البحارة يعلن عن وجود نفثة فضية يضيئها القمر، هبَّ كلُّ بحار مضطجع واقفاً على قدميه كأنما حلت روح مجنحة في حبال السفينة وأهابت بالملاحين للقاء أجلهم . « هنالك ينفتح ! » — لو ان الصور نفخ لما عراهم من الرعشة ما عراهم ، ولم تكن رعشة فزع وانما كانت هزة ارتياح وسرور . نعم انهم لم يتعودوا الهبوب في تلك الساعة غير ان الصيحة كانت بالغة الاثارة، مشحونة بالبحران حتى كادت كل نفس على السفينة ان تتمنى انزال القوارب بدافع الغريزة .

ومشى آخاب على ظهر السفينة بخطوات سريعة حنفاء، وأمر ان تعدَّ الأشرعة العليا النبيلة والموكية وان تنشر الأشرعة الخفيفة الجانبية وان يتولى الدفة خير رجل في السفينة ؛ وتدحرجت السفينة المحملة امام الريح وقد استعد الرجال في المراقي العليا فوق الصواري، وعبأت النسمات الغربية المنعشة الرافعة تجاويف كثير من الأشرعة فجعلت ظهر السفينة الممراح المدوّم يحسّ وكأن الريح تريد ان تسموبه ؛ ومضت السفينة مندفعة قدماً كأن عاملين متضادين يتصارعان فيها : واحد يريد ان يتوجه بها نحو السماء وثانٍ يسوقها متثابرة الى هدف على الأفق ؛ ولو انك عاينت وجه آخاب تلك الليلة لخلت ان لديه ايضاً شيئين متباينين يعتركان، فبينما كانت رجله السليمة تبعث أصداء حية سليمة على ظهر السفينة، كانت كل دقة برجله الميتة كأنها دقة على تابوت . كان الرجل العجوز يمشي على رجلين من حياة وموت . ومع ان السفينة ذهبت منطلقة عجلي ومن كل عين كانت النظرات اللاهفة تنطلق كأنها سهام الا ان النفثة الفضية

اختفت فلم تلح تلك الليلة للانظار، وكان كل بحار يقسم انه رآها مرة واحدة ولم يرها مرة ثانية .

وكادت تلك النفثة التي تبلج في منتصف الليل تصبح نسياً منسياً حين نادى المنادي بأنها هناك ! بعد بضعة ايام في نفس تلك الساعة الصامتة ؛ ومرة أخرى رآها جميع البحارة، وحين أبحروا لادراكها اختفت عنهم مرة أخرى كأنها لم تكن ابداً . وهكذا ظلت تخيلنا ليلة اثر ليلة حتى لم يعد احد فينا يتنبه لها إلا ليعجب من أمرها، فقد كانت تبلج في ضوء القمر التيمّ او في ضوء النجوم، حسبما كانت الحال، ثم تختفي طوال يوم كامل او يومين او ثلاثة، وكانت في كل مرة تبدو وكأنها تتقدم معنة أمامنا، وكأن تلك النفثة المتوحدة كانت تغرينا بالضيّ قدماً .

وبعض البحارة يؤمنون بالأساطير منذ الازل ، وللباقوة نفسها — فيما يبدو — رواء من الخوارق انتحلته في أمور عديدة ، وعلى ذلك لم نعدم بعض البحارة الذين كانوا يقسمون ان تلك النفثة التي أعيانا للحاق بها، متى شهدت وحيثما شهدت، مهما تكن الازمان والمسافات في موطن ظهورها متباعدة، فانها هي نفثة حوت واحد لا غير ، وذلك الحوت هو مويي ديك . وهيمن على النفوس، وقتاً ما، احساس برعب فريد من ذلك الشبح السابح قدّامنا كأنه كان يرمىء الينا مخادعاً لنمضي وراءه كي يتحول في النهاية نحونا ويمزقنا في أشد البحار نأياً واستيحاشاً .

واستمدت هذه المخاوف العارضة، الغامضة الرهيبة في آن معاً ، من سكيننة الجوّ طاقةً عجيبة ، اذ ظن بعضهم ان سحراً شيطانياً يكمن تحت هذه الوداعة الزرقاء حين أبحرنا أياماً وأياماً خلال بحار ساكنة لطيفة توحى بالاعياء والوحشة،

حتى كأن المسافات كانت تتخلى عما يعمرها من نائمة الحياة أمام مقدمة سفينتنا التي تشبه الزهرية ، رداً منها على مهمتنا الانتقامية الموثورة .

ولكن حين تحولنا أخيراً وجهة المشرق أخذت رياح « الرأس » تجأر من حولنا ، وأخذنا نعلو ونهبط فوق المياه الهائجة هنالك ؛ وحين انحنى الباقوطة ذات الخرطوم العاجي للرياح انحناءً شديداً وطعنت قلب الأمواج السود في جنوبها حتى أخذ نثار الزبد يتطاير فوق هيكلها كأنه صوب من شذرات الفضة ، حينئذ زال ذلك الفراغ الموحش الذي لا تعمره حياة وحلت محله مناظر أشد كآبة من ذي قبل .

على مقربة من قيدوم السفينة كانت تنطلق أشكال غريبة في الماء هنا وهناك أمام أعيننا ، وتطير في المؤخرة أسراب كثيفة من غربان الماء ، أمرها محير لا يدرك . وفي كل صباح كنا نجد صفوفاً من هذه الطيور قد حطت على الحواجز والدعائم . وكنا نصفر بها لننفرها فلا تزداد الا تشبهاً بالجبال ، وتظل كذلك مدة طويلة كأنها كانت تظن ان سفينتنا مركب غارق لا أنيس فيه ، وأنه مثابة للوحشة المتأبدة ، فهو من ثم يليق ان يكون مجثمًا لها تأوي اليه ما دامت بلا مأوى . هذا وصدر البحر المظلم يعلو ويعلو ويظل يزفر دون ارتياح ، كأن أمواجه الشاسعة ضمير حي ، والروح الارضية الكبرى تتعذب نادمة على الخطيئة والعذاب اللذين ولدتها .

أيسمونك أيها الرأس : « رأس الرجاء الصالح » ؟ ما أجدر ان تسمى « رأس العذاب » كما كنت تدعى في غابر الازمان ؛ ذلك انا بعد ان خلبتنا طويلاً تلك السكينة الغدّارة التي واكبت إبحارنا من قبل وجدنا أنفسنا مطروحين في هذا البحر المعذب حيث مسخت الكائنات الآثمة الى طيور وأسماك ، وكأنما كتب عليها ان تسبح الى الابد دون ان تأمل في مرفأ أمين ، وان تضرب الهواء القاتم

بأجنحتها دون ان ترى أفقاً . الا ان النفثة المتوحدة كانت تلوح أحياناً هادئة بيضاء كالثلج ، لا تتبدل ، موجهة يذبوع رشاشها نحو الفضاء ، وقومىء الينا ان نضي في أثرها ، مثلما كانت تفعل من قبل .

واذ كان قتام العناصر جميعاً يرين على كل شيء أخذ آخاب على عاتقه — بعض الوقت — دور الأمر الوحيد على ظهر السفينة الخطر المبلول ، غير أنه مع ذلك كان في أعنى حال من الانحياس المكتئب ونادراً ما وجه الخطاب الى ضباطه . في مثل هذه الاوقات العصبية العاصفة ، بعد ان يؤمن القائد كل شيء على السفينة وفي أعاليها ، لا يتبقى شيء يمكن عمله الا التوقع السليبي لهبوب النسمات . عندئذ يصبح القبطان والبحارة جبريين من الناحية العملية ؛ ولذلك كان آخاب يقضي ساعات وساعات يحدق في لهفة المستميت نحو المهب ، وقد أدخل قدمه العاجية في الثقب المعهود وأمسك قباض الشراع باحدى يديه إمساك المتشدد ، فلا يوافيه في وقفته تلك الا عاصف او مطر مشوب بالبرد او ثلج يعقد أهداب عينيه برداً . وفي الوقت نفسه يلوذ البحارة هارين من صدر السفينة بسبب المياه الخطرة التي تثور منفجرة وتترامى فوق المقدمة ، ويقفون صفاً على طول الهيكل عند وسطها ، ويدس كل امرئ منهم نفسه في نوع من الانشطة حبل مربوط بالحاجز ، يتأرجح فيها كأنه يلف حوله حزاماً غير مشدود ، كي يحتمي من الأمواج الواثبة . ولا حديث يجري بينهم الا ان يكون بضع كلمات ، وتشق السفينة الجاهدة الصامته طريقها قدماً خلال جنون الأمواج الشيطانية ومرحها المتوثب وكأنها لم تزود برجال وإنما بتماثيل منصوبة من شمع . ويسيطر هذا الخرس الانساني نفسه في الليل على السفينة في مواجهة زعيق البحر ، ويظل الرجال يتأرجحون في أنشطاتهم صامتين ، ويظل آخاب الأبكم واقفاً في وجه العصفات ، حتى انه لا يسعى للراحة في سريره حين تبدو الطبيعة المعيبة وكأنها تتطلب الارتياح وتستدعيه . وان ينس استاربك فلا ينس منظر ذلك الشيخ ، وقد هبط استاربك الى القمرة ليقرأ مقياس الضغط الجوي فراه ، وقد أغلق

عيفيه ، يجلس منتصباً في كرسيه المثبت بالأرض ، وما تزال حبات المطر وبعض
البرد الذائب التي علقت به حين خلّف العاصفة قبل قليل تتساقط في بطنه عن
قبعته ومعطفه ، وعلى الطاولة الى جانبه خريطة منشورة من تلك الخرائط التي
تحدثنا عنها من قبل وقلنا انها تبين المدّ والتيارات ، ومصباحه يتأرجح في
قبضته المحكمة المقفلة ؛ وعلى أن جسمه كان منتصباً فقد أمال رأسه الى الوراء
حتى ان عيفيه المغمضتين كانتا موجهتين نحو ابرة البوصلة التي تتأرجح من عمود
مثبت في السقف .

وقال استاربك لنفسه وقد عرته قشعريرة : يا لك من شيخ رهيب ، انك
لتنام في هذه العاصفة وأنت ما تزال ترمق غايتك منعماً معتزماً .

الفطرس

الى جهة الجنوب الشرقي من «الرأس» عند جزائر كروزيت حيث مجال صالح للتطواف من اجل صيد الحوت الأثين ، لاحت أمامنا سفينة تسمى الغوني او الفطرس. وكنت أقف عالياً عند رأس الصاري الأمامي فرأيتها وهي تقترب في ببطء ، وقيض لي ان أشهد عياناً منظرأ فذاً لدى الحوآت المبتدئ الضارب في المصايد المائية البعيدة — منظر سفينة حوافة على الماء طال غيابها عن شواطئ الوطن .

وكانما الامواج كانت قصارين اذ كانت هذه السفينة مفسولة كأنها هيكल فظّ قدفته الامواج الى البر ، وكان هذا المنظر الشبحي مخططاً على جوانبه بقنوات طويلة من الصداً المحمرّ ، أما جميع سواربها وجبالها فكانت كأنها فروع كثيفة من شجرات كسيت بصقيع أشمط . ولم تنشر من أشرعتها الا الاشعة الدنيا ، وكان منظرأ غريباً ان يرى المرء الحراس الطويلي اللحي عند رموس الصواري الثلاثة ، فقد بدوا وكأنهم يرتدون جلود الوحوش ، وقد تمزقت ورقعت تلك الاكسية التي صارت ما يقارب أربعة أعوام من التطواف . وكانوا يقفون في أطواق حديدية مسمّرة الى الصاري فيتأيلون ويتأرجحون فوق بحر لا قرار له ؛ وحين انسابت السفينة مقتربة من مؤخرة سفينتنا اقتربنا نحن الرجال الستة المعلقين في الفضاء بعضنا من بعض ، حتى لكنا — لو شئنا — أن نقفز من رموس صواري سفينة الى رموس صواري الاخرى ، غير ان أولئك الصيادين البائسين الذين طال عليهم الابسد رمقونا حين مروا عنا بلطف ولم

يتفوهوا بكلمة واحدة الى رقباء سفينتنا بينا تأدى الينا من أسفل نداء ينطلق
من الربعة :

« يا بحارة السفينة ! هل رأيتم الحوت الابيض ؟ »

ولكن حين همّ القبطان الغريب المستند على الهيكل الشاحب ان يضع النفير
في فمه سقط من يده في الماء ، وكانت الريح تهب معاكسة فجاهد عبثاً ليلبغنا
صوته . وفي الوقت نفسه كانت المسافة بين السفينتين تتسع . وبينما كان بحارة
الباقوطة يرقبون في ضروب مختلفة من الصمت تلك الحادثة المشؤمة تقع لسفينة
أخرى لدى محض التلفظ باسم الحوت الابيض توقف آخاب لحظة وبدا كأنه
يكاد ان ينزل قارباً ليلحق بالرجل الغريب لولا ان الريح الهائجة حالت دون
ذلك ، غير انه استغل وجهة الريح فتناول نفيره مرة أخرى ، واذا كان يعرف
من مظهر السفينة الغربية انها نانتوكتية وانها مزمعة في وقت قصير الى الوطن ،
نادى بأعلى صوته : « أنتم هناك ! هذه هي الباقوطة ، مزمعة في رحلة حول
العالم . قولوا لهم ان يعنونوا جميع رسائلهم في المستقبل الى المحيط الهادي !
واذا مرت على هذه اللحظة ثلاث سنوات ولم أعد الى الوطن فقولوا لهم ان
يوجهوها الى ... » .

في تلك اللحظة تقاطع مخرا السفينتين وعلى التواء انطلقت أسراب من السمك
الصغار التي لا أذى منها وكانت حسباً جرت بها عاداتها الفريدة قد سبحت على
مدى بضعة أيام في اطمئنان الى جانب سفينتنا ، انطلقت مبعدة وزعانفها كأنها
ترتمش ، واصطففت في طليعة ومؤخرة على جانبي السفينة الغربية . وقد يكون
آخاب خلال سفراته العديدة قد شهد مثل هذا المشهد كثيراً ولكن أيسر
الهنات تحمل في طياتها معاني لاي رجل مجنون ، مستبد النزوات .

وتتم آخاب وهو يحرق في الماء قائلاً : « تسبحين مبعدة عني ؟ أليس

كذلك ؟ » وكأن هذه الكلمات لا تحمل الا معنى يسيراً ولكن النعمة نقلت
أسى عميقاً لا رجاء فيه لم يعبر عنه الشيخ المجنون كذلك من قبل . غير أنه تحول
الى القوائم عند الدفة وكان قد كبج السفينة في الريح ليقلل من انطلاقها العامد ،
وزأر بصوت أسد هرم قائلاً : « الدفة الى أعلى ! دعها تذهب حول العالم ! »

« حول العالم ! » في هذا الصوت قسط وافر مما يوحى بالمشاعر المستكبرة
ولكن الى أين يؤدي كل ذلك التطواف ؟ ليس الا خلال ما لا يحصى من المخاطر
حتى نبلغ النقطة التي منها انطلقنا حيث أولئك الذين خلفناهم مطمئنين آمنين
كانوا في كل حال قد آمنوا .

لو كان هذا العالم سهلاً لا نهاية له وكنا اذا أبجرنا شرقاً نستطيع ان نبلغ الى
الابد مسافات جديدة ونستكشف مناظر أحلى وأغرب من أي جزر تسمى
ككلادس او جزر الملك سليمان ، اذن لكان في رحلتنا بشائر خير ؛ ولكن ما
دمنا نلاحق مغيبات بعيدة فحلم بها او نطارده في عذاب ذلك الشبح الشيطاني
الذي يلوح سابحاً بين الحين والحين ، أمام جميع القلوب البشرية ، أقول مسا
دمنا كذلك نسعى فوق هذه الكرة فان ما نطارده سيقودنا الى تيه يباب او
يقف بنا في منتصف الطريق منبتين هالكين .

لَمْ يذهب آخاب الى ظهر الحوَّاة التي تحدثنا عنها ؟ السبب الظاهري في ذلك ان الريح والبحر كانا يندران بالعواصف ، ولعله لو لم تكن الحال كذلك لما ذهب اليها على اية حال ، ونحن نحكم في هذا الامر على ضوء تصرفاته التالية في مناسبات مشابهة ، ان كان في سياق النداء قد تلقى على سؤاله جواباً بالنفي . فقد تبين لنا في النهاية انه لم يكن يحرص على ان ينفق خمس دقائق في محادثة اي قبطان غريب إلا ان كان ذلك القبطان يستطيع ان يفضي اليه بخبر عما يشغل ذهنه ويسعى لمعرفته . وقد كان في مقدورنا ان لا نغير هذا الأمر اهتماماً لولا أننا نريد ان نقول شيئاً في العادات الخاصة التي تجري عليها الحوَّات حين تلقى احداها الأخرى في البحار النائية وبخاصة اذا تلاقتا في مجال مشترك من التطواف .

لو ان غريبين يقطعان يهء «باين» في ولاية نيويورك او يقطعان سهل سالزبري الذي يشبهها وحشة بالجلترا ، لو انها التقيا مصادفة في مثل تلك البراري الجاهمة الشحيحة لما ضنَّ أحدهما على الآخر بالتحية المتبادلة ، من اجل التشبث بالحياة ، واذن لتوقفا لحظة وتبادلا الاخبار ولربما جلسا هنيهة واستراحا في وئام . ما

١ The Gam ، وقد استعملت لفظة «الجمعة» في مقابلها للمشابهة ولان اللفظة العربية تحمل معاني التجمع والارتياح، وهي أيضاً من ألفاظ البحريين فجمة المركب البحري هي الموضع الذي يجتمع فيه الماء الراشح من حوزة، عربية فصيحة، كذا جاء في اللسان .

أحرى ان تفعل ذلك سفينتان حواتتان أبصرت احدهما الاخرى عند حوافي المعمورة والتقتا في يهء « باين » البحرية وفي سهل سالزبري البحري الذي لا تعرف له حدود - التقتا مثلاً عند جزيرة فاننج المتأبدة او عند «طواحين الملك» وهي أشد تأبداً، أقول ما أحرى هاتين السفينتين في مثل تلك الظروف ان تتبادلا النداءات لا بل ان تتقاربا في وئام ودي وثيق . ولا بد ان يبدو هذا امرأ طبيعياً اذا كانت السفينتان تنتميان الى ميناء واحد يعرف قبطاناهما وضباطهما وبعض بحارتهما احدهما الآخر ولديهم لهذا كل نوع من امور الوطنية العزيزة ليتحدثوا عنها .

وقد يكون في السفينة المنطلقة في رحلتها رسائل للسفينة التي طالت غيابتها ؛ وهي على اية حال واثقة من انها تحصل منها على صحف أحدث من آخر صحيفة مهترئة مطموسة المعالم ، بمقدار سنة او سنتين . وتتلقى السفينة المنطلقة في رحلتها لقاء تلك الحفاوة آخر اخبار عن التحويت من أرض التطواف التي تجمع نحوها ، وذلك أمر بالغ الاهمية لها . ويصدق هذا كله ، الى حد ما ، على سفن التحويت التي تعبر الواحدة منها أثر الاخرى في منطقة التطواف نفسها . وان كانت مدتا غيابها عن ارض الوطن متساويتين . إذ قد تكون احدهما تسلمت رسائل منقولة من سفينة ثالثة أصبحت حينئذ بعيدة نائية ، وقد تكون بعض تلك الرسائل لناس في السفينة التي تلاقىها . هذا الى انها قد تتبادلان اخبار التحويت ، وتشتركان في أحاديث مناسبة فانها لا تلتقيان فحسب بكل ما بين البحارة من تعاطف وانما تتقابلان ايضاً بكل ضروب اللطف الناشئة عن وحدة الغاية وضروب الحرمان والاططار المشتركة .

ثم ان اختلاف البلدان لا يصنع فرقاً جوهرياً أي ما دامت الفئتان تتكلمان لغة واحدة مثلاً هي حال الامريكيين والانجليز ، وان كان من الامور اليقينية ان مثل هذه اللقاءات لا تحدث كثيراً نظراً لقلّة عدد الحواتات الانجليزية ، فاذا

حدثت حقاً سيطر الحياء على الفئتين لان الانجليزي متحفظ مثما ان اليانكي يظن ان ليس في الناس متحفظ إلاه . ثم ان الحواتات الانجليزية تلتحل احياناً نوعاً من الاستعلاء الذي يمارسه اهل الحاضرة على الحواتات الامريكية ، فالانجليزي يعدّ ابن نانتوكت الطويل النحيل ومنحاه الاقليمي الذي لا يوصف نوعاً من ريفي البحار ولكن على أي اساس نشأت هذه الاستعلائية في الحواتين الانجليز ؟ ذلك امر يصعب تقريره اذا تذكرنا ان اليانكيين مجتمعين يقتلون من الحيتان في يوم واحد اكثر مما يقتله الانجليز مجتمعين في عشرة أعوام . ولكن هذه هنة يسيرة من عيب في الحواتين الانجليز لا يابه النانتوكتي بها كثيراً لانه يعرف ان لديه ايضاً هنات يسيرات .

من ثم نرى ان الحواتات بين سائر السفن المبحرة متفرقة في البحر اشدها حاجة الى التآلف والمؤانسة - وكذلك هي . بينا تجد بعض السفن التجارية تجتاز فوق مخر سفينة اخرى في وسط الاطلسي ، وكثيراً ما تعبر ماضية دون كلمة واحدة من تعرف ، واحداها تكاد تقارن الاخرى في العبور في البحار النائية وتتقاطع طريقهما كأنهما غرنوقان في برودواي ، ولعلمها ان تنهما كل الوقت في نقد متحلق توجهه كل منهما لما زودت به الاخرى من أدقال وأشرعة وحبال . اما البوارج الحربية فانها اذا اتفق ان تلاقى في البحر أوغلت اولاً في سلسلة من الانخفاض والانحناء البليد اعني تبادل التحايا بخفض الاعلام حتى انه لا يبدو ان لديها نية صافية وحباً اخوياً ابداً؛ وأما فيما يتصل باللقاء بين سفن الرقيق فانها تكون جدّ معجلة حتى ان احداها لتهرب من وجه الاخرى بأسرع ما تستطيع . وأما سفن القراصنة فاذا صادف ان تشاجرت ظلها كان أول نداء يسمع منها : « كم رأساً لديكم ؟ » مثما ان الحواتين يصيحون سائلين عند اللقاء : « كم برميلاً جمعتم ؟ » فاذا أجابت الفئة الاخرى على السؤال افترقت فئتا القراصنة اذ انهم أوغاد جهنميون في كلتا الفئتين ولا يحب أحدهم ان يعن في رؤيته لصورة وغديته مجسمة في وجه أخيه .

ولكن تأمل الحوَّاة المتألهة الشريفة المتواضعة المضياف المؤانسة الطليقة
الهيئة اللينة ! ماذا تصنع عندما تلاقى حوَّاة اخرى في جوٍّ رحيم ؟ تصنع
« جَمَّة » - شيئاً لا تعرفه اطلاقاً السفن الاخرى بل انها لم تسمع باسمه ، واذا
سمعت به اتفاقاً سخرت منه وكررت أقوالاً عابثة عن « النفاثات » وعن
« مراجل الشحم » وغيرها من التعبيرات الجميلة . لمَ كان كل بحارة السفن التجارية
وكل القراصنة ورجال البوارج الحربية وملاحى سفن الرقيق ينطوون على
مشاعر الاحتقار نحو سفن التحويت ؟ هذا سؤال تعمس الاجابة عنه . ولكني
أقول : أود ان اعرف ان كانت حرفة القراصنة ذات مجد خاص بها مقصور
عليها . نعم انها تنتهي بصاحبها أحياناً الى علوٍّ رفيع ، إلا أنه غلوٌّ في حبل
المشقة وحين يرفع المرء بتلك الطريقة الغريبة لا يكون لارتفاعه أساس صحيح
اذن فأنا أرى ان القرصان حين يتبجح بأنه اعلى مقاماً من الحوات فليس لديه
موطئ صلب لهذه الدعوى يقف عليه .

لكن ما « الجَمَّة » ؟ قد تبلي ابهامك وأنت تعلو به وتهبط في أعمدة المعاجم
دون ان تعثر على هذه الكلمة . فالدكتور جونسون لم يبلغ به علمه اللغوي تلك
اللوزعية ، وسفينة نوح وبستر لم تحمل مثلها ، ومع ذلك فان هذه اللفظة المعبرة
قد أصبحت دارجة في الاستعمال منذ سنوات كثيرة بين خمسة عشر ألفاً او
نحوهم من اليانكيين الخللص . ولا ريب في أنها تحتاج تعريفاً ولا بدّ من ان
تدرج في المعجم ، ومن اجل هذه الغاية احاول ان أعرفها تعريفاً علمياً دقيقاً
فأقول :

الجَمَّة : اسم ، ومعناها اجتماع ودِّي بين حواتتين (او اكثر) ، وغالباً ما
يكون ذلك في مجالات التطواف . وبعد ان تتبادل السفينتان النداءات يقوم
ملاحو القوارب بتبادل الزيارات ، فيبقى القبطانان بعض الوقت على ظهر احدى
السفينتين ويبقى الضابطان الرئيسان على ظهر الاخرى .

وهناك نبذة صغيرة أخرى عن الجمّة يجب ان لا ننساها في هذا المقام : لكل حرفة خصائصها الدقيقة التفصيلية وكذلك الشأن في صيد الحيتان . فحين ينزل قبطان سفينة القراصنة او البارجة الحربية او مركب الرقيق في قارب ويجذف به الملاحون الى مكان ما، يجلس دائماً عند الأشرعة الخلفية على مقعد مريح قد تكسوه حشية احياناً، وكثيراً ما يأمر ان يزود السكان برافعة لطيفة ميلانية مزينة بأشرطة وحبال زاهية الالوان ؛ أما قارب الحوامة فليس فيه مقعد في المؤخرة ولا حشية من ذلك النوع ولا رافعة أبداً . ومن النادر حقاً ان تجد قباطنة التحويت يؤخذون في القوارب على « حمار خشبي » كما يحمل الشيوخ المنقرسون في محفّات . وأما الرافعة فانها مظهر نخث تأباه قوارب التحويت ؛ ولذلك يغادر السفينة طقمٌ كامل من الملاحين، كما يحدث في الجمّة، وبما ان القائم على الدفة او الرماح يعد واحداً منهم فان هذا المرموس هو سيد الموقف في تلك المناسبة . وأما القبطان فانه يؤخذ الى الزيارة واقفاً كشجرة الصنوبر اذ ليس له مكان للجلوس . وكثيراً ما تلاحظ ان هذا القبطان الواقف يدرك ان أعين العالم المنظور جميعاً تتجه نحوه من جانبي السفينتين، فهو لذلك يعي أهمية احتفاظه بعزته فيظلّ مثبتاً رجله، وليس هذا بالأمر السهل اذ ان وراءه مجذاف التوجيه البارز الضخم ، يدعته بين الحين والحين في أم ظهره، ويحييه المجذاف الخلفي فيقرع ركبتيه من أمام ، فهو « مكبوس » تماماً من خلف وقدّام، ولا يستطيع ان يمد نفسه إلا الى الجانبين وذلك بأن يحط على رجله الممدودتين؛ إلا ان أية وثبة مفاجئة عنيفة يقوم بها القارب ، كثيراً ما يبلغ بها ان تقلبه ، لان طول الأساس لا ينفع دوت عرض مماثل ؛ فانك لو وسعت الزاوية بين عمودين لما استطعت ايقافها ثابتين ؛ ثم ان هذا القبطان الذي تفاجت رجلاه لا يليق به ان يبدو أمام أعين الكون المحدقة وقد تماسك ادنى تماسك بالقبض على شيء ما بيديه ، بل انه ليضع يديه - على وجه العموم - في جيبي سرواله اشارة الى تثبته الذاتي السجيح التام، ولكن ربما كانت يده على وجه العموم كبيرتين ثقيلتين فهو يضعهما في جيبيه جاعلاً منها مشقلاً . ومع ذلك وقعت حوادث

أيضاً، شهد الثقات بصحتها، حيث صادف القبطان لحظة حرجة او اثنتين، كأن يتعرض لحاصب مثلاً ، واذا به يقبض على شعر أقرب المجدفين اليه ، ويظل متشبثاً به كأنه الموت العبوس .

قصة تاو نهو

(حسباً رويت في الحانة الذهبية)

رأس الرجاء الصالح وكل المنطقة المائية من حوله كأنها « جهارسوج^١ » او مربعة. تلتقي عندها طرق سلطانية وهناك تلقى من الرحالة اكثر مما تلقى في أي مكان آخر .

ولم يمض وقت طويل على محادثة « الفطرس » حتى التقينا بجوارة أخرى مزمنة نحو الوطن اسمها « تاو نهو » * وكان جلّ تجارتها من البولونيزيين . وقد اخبرتنا في « الجمّة » القصيرة التي ألقناها أخباراً ذات شأن عن مويي ديك، وكان ما جاء في قصة تاو نهو سبباً في ان يزداد الاهتمام لدى بعض الناس بالحوت الابيض على نحو غريب ، فقد شملت القصة على نحو غامض حديثاً عن إلمامة عجيبة معكوسة كان الزائر فيها واحداً مما نسميه عادة « الاحكام الربانية » وذلك هي التي تلم - فيما يقولون - ببعض الناس أحياناً . وهذه الحادثة الاخيرة مع صاحبها من ملابس خاصة، وهي تمثل ما قد يسمى الجانب السري من المأساة التي أهمّ بروايتها، لم تبلغ أذن القبطان آخاب او مسامع ضباطه، ذلك ان هذا

١ من الفارسية « جهار سو » ومعناها مربع . وملتقى الطرق الأربع يسمونه « جهار سواره ».

* سميت باسم الصيحة القديمة Town-ho عند رؤية الحوت اول مرة من رأس الصاري ولا يزال الحواتون الذين يصيدون السلحفاة النهرية المشهورة (Gallipagos Terrapin) يستعملونها . قلت : ولا احد يعرف معنى هذه الصيحة او اصلها اللغوي .

الجانب السريّ من القصة كان مجهولاً لقبطان تاونهو نفسه وانما كان يعلمه ثلاثة متعاهدون متآلفون من البحارة البيض في تلك السفينة، فأبلغه احدهم، فيما يبدو، الى طاشطيقو وأخذ عليه الايمان الغليظة بالكتمان، ولكن طاشطيقو اخذ يهذي في الليلة التالية في منامه، ونثّ من سرّه كثيرأ على ذلك النحو، فلما استيقظ لم يستطع ان يتشبث بكتمان ما تبقى . ومع ذلك فقد كان لهذا الأمر تأثير بالغ في من عرفه من بحارة الباقوطة معرفة جليلة كاملة حتى لقد هينمت على نفوسهم تلك الطرفة العجيبة - ان صحّ ان نسميها كذلك - فاحتفظوا من جراء ذلك بالسرّ فيما بينهم بحيث لم يبلغ في ذبوعه وراء الصاري الرئيس في الباقوطة . ولما كنت قد نسجت هذا الخيط القاتم بالقصة كما سردت علناً على السفينة في الموضع المناسب فأنا اتقدم هامنا لأخلّد هذه الحادثة الغريبة جميعاً بالتدوين .

وسأحتفظ - ارضاء لمزاجي - بالأسلوب الذي سردتها فيه ذات مرة في ليا على مسامع عصابة متسكعة من اصدقائي الاسبان، في أمسية عيد من اعياد احد القديسين ، ونحن ندخن على باحة الحانة الذهبية، ذات الارض المفروشة ببلاط منذهب سميك . وكانت السيدان الشابان بطره وسبسطيان من بين أولئك الفرسان الظرفاء أوثقهم بي علاقة، ومن ثم جاءت الاسئلة المعترضة التي يطرحانها فأجيب عليها بما تستحقه في الحين :

« قبل حوالي سنتين من معرفتي أول مرة للأحداث التي أهمّ بقصتها عليكم ايها السادة كانت تاونهو - وهي حوامة نانتوكتية لصيد حوت العنبر - تطوف في مياه محيطكم هذا الهادي، على ليالي غير عديدة الى الغرب^١ من شرفات هذه الحانة الذهبية الكريمة . وكانت في مكان ما الى الشمال من خط الصيد . وذات

١ في الاصل : الى الشرق، وهو خطأ بيّن .

صباح أعملت المضخات حسب العادة اليومية فلاحظ الملاحون ان مقدار ما تسرب من الماء الى عنبرها قد تجاوز المعبود . فظنوا - ايها السادة - ان حوت الكبيع المستف قد أوهنها، إلا ان القبطان لم ير الصدع خطراً، وكان لديه ما يقنعه بأن الحظ سيحالفه في تلك المواقع، فكان ينفر من مفارقتها، ثم ان البحارة لم يجدوا أثراً للصدع حين نزلوا في العنبر الى اقصى ما يستطيعون في مثل ذلك الجو العنيف؛ ولكل هذه الاسباب مضى الملاحون يعملون المضخات في فترات متباعدة وحماسة فاترة . إلا ان الحظ لم يوات القبطان، ومضت الايام والصدع يتسع وان ظل موضعه مجهولاً؛ عندئذ خاف القبطان وتوجه مبحراً يؤم اقرب ميناء بين تلك الجزر لكي ينزع هيكل السفينة ويؤخذ للترميم .

« ولم تكن المسافة التي ستقطعها السفينة قصيرة ولكن إن واثاها الحظ فان القبطان لم يكن يخشى عليها ان تفرق اذ كانت المضخات سليمة، وكان البحارة يتناوبونها، وعدتهم ستة وثلاثون، ولهذا يستطيعون ان يضمّنوا لها النجاة دون عناء كبير، ولا ضير عليها لو اتسع الصدع فأصبح ضعفي ما كان . والحق ان النسبات المسعفة واكبتها في اكثر رحلاتها وكان في مقدورها ان تصل في سلامة تامة الى مينائها دون ان يعرض لها ما يردى في أقل ضروب الخطر لولا عجز رادني الوحشية - ورادني هذا هو ضابط فيناردي الاصل - ولولا حب الانتقام الذي استثير بمسيرة لدى استيلكلت وهو بحيري من بقلو متمرس بالخروج والعصيان » .

« فقال الدون سبسطيان وهو ينهض من حشيته المتأرجحة المعبأة بالحشيش :
بحيري ! بقلو ! ما البحيري وأين تقع بقلو ؟ »

« تقع على الشاطئ الشرقي من بحيرة إيري ايها الدون؛ ولكني أقول - وأنا استميتك عذراً - : لعلك ان تسمع بعيد قليل عن هذا كله . هذا البحيري

- ايها السادة - قد تربى في قلب امريكتنا المغلف باليابسة على تذوق تلك الانطباعات الريفية القرصانية النهابة التي يعتقدها الناس متصلة بالبحر الفسيح، حين مارس العمل في سفن مربعة الاشرعة واخرى ثلاثية الصواري تقارب في ضخامتها اي سفينة أبحرت من مينائكم القديمة كلاً و حتى مانىلا النائية ؛ لان بحيراتنا العذبة العظيمة - إيرى وانتاريو وهورن وسوبيريور ومتشجن - اذ يتحد ماؤها جميعاً تكون في سعتها مشبهة سعة البحر المحيط، حائزة على كثير من خصائصه الرفيعة، وعلى ما يتمتع به من أجناس ومناخات متنوعة . فهي تحتوي على اربخيلات ذات جزر سحرية كالأمواه البولونيزية؛ وهي في جزء كبير منها - كالمحيط الاطلسي - يعيش على ساحلها شعبان عظيمان متباينان، وهي تصلح ان تكون طرقاً بحرية طويلة تؤدي من جهة الشرق الى مدننا العديدة التي أنشئت على ضفافها وتطل عليها عابسة من هنا وهناك بطاريات ومدافع ناتئة كأنها الماعز من ماكيناو الشاهق^١ وقد سمعت هذه البحيرات هدير الانتصارات البحرية وأحياناً تفتح صدرها لبرابرة همجين تلتهم أوجهم المغفرة من اكواخهم المغطاة بالأهب . وعلى مدى فراسخ وفراسخ تقوم على حوافها غابات عادية كثيفة لا يجرؤ على دخولها أحد، وفيها تقف اشجار الصنوبر الضامرة كأنها سلاسل متراصة من اسماء الملوك في أنساب قوطية . وهذه الغابات نفسها مأوى الوحوش المفترسة الافريقية ومأوى مخلوقات حريرية الممس يصنع من فرائها المصدّر طيلسانات لابطرة التتار، وعلى صفحاتها تنعكس عاصمتا بفلو وكلفلند المرصوفة شوارعها مثلما ترسم فيها قرى ونباغو، وعلى سطحها تعوم السفينة التجارية المشحونة، وطرادة الدولة والباخرة والزورق المصنوع من

١ مضايق ماكانك (وهذا هو النطق الصحيح للكلمة) فصل بين بحيرة هورن ومتشجن، وفي المضايق جزيرة بنى عليها الفرنسيون قلعة عام ١٧١٢ واستولى عليها الانجليز سنة ١٧٦١ واتخذوها مقراً لحماية مراكزهم التجارية حتى ١٧٩٦ عندما تسلمها الامريكيون بموجب معاهدة باريس .

خشب الزان، على السواء، وتهب عليها العواصف البورية التي تحطم الصواري، شديدة مهولة كأبي عاصفة تجلد أثباج الموج في البحر الملح، وهي تعرف ما معنى تحطم السفن اذ انها كثيراً ما اغرقت في منتصف الليل سفينة كاملة بكل من عليها من ملاحين يصيحون مستغيثين، حين تتوسطها السفينة فتغيب عن الانظار وان كانت البحيرات محفوفة بالبر من جميع النواحي . اذن فان استيلكلت — ايها السادة — وان كان ابن البر يعد من ابناء البحر الهياج: فيه ولد وفيه ترعرع فأصبح بحاراً مقدماً جسوراً شأنه في ذلك شأن أي بحار . وأما رادني فقد نشأ في طفولته على شاطئ نانتوكت المنعزل، ومنحته مياه البحر صدر الأم، ولما كبر أطال التجواب في أطلسيكم الجاهم وفي محيطنا الهادي المتأمل، إلا أنه مع ذلك كله كان في تسرعه للثأر وحبه للشجار كأنه ربيب الأجمات المهجورة جاء لتوّه من تلك المناطق التي ما يزال اهلها يستعملون قرون الغزلان نصائباً لمداهم . غير ان هذا النانتوكتي كان امرأ ذا خلال طيبة، وأما ذاك البحيري — فانه وان كان حقاً بحاراً من جنس الشياطين — فقد أخذ بالحزم المشوب بذلك التقدير لانسانيته، — والتقدير لانسانية المرء هو أدنى حقوق العبد — أقول : حين لقي استيلكلت مثل هذه المعاملة تقلمت أظفار أذاه وغدا مطواعاً لينا، وظل على ذلك ردحاً طويلاً، في عدة احداث وشئون . غير ان القدر كان يدفع رادني الى مصيره وأخرجه الحق عن طوره، وأما استيلكلت...، لا بأس سأقص عليكم ايها السادة نبأها .

« توجهت قانونه وجهه مينائها الجزري الامين، ولم يكد يمضي على ذلك يوم او يومان حتى بدا وكأن صدعها قد اتسع، إلا ان ذلك كان يتطلب زيادة العمل في المضخات ساعة او غير ساعة يومياً . لا بد لكم ان تعلموا بأن بعض القباطنة لا يرون استعمال المضخات دائماً وهم يجتازون مياهاً هادئة مستكينة كمياه محيطنا هذا الاطلسي مثلاً . غير انه لو مرت بضابط الدكة ليلة ساكنة نعوس واتفق له ان نسي واجبه في هذا الصدد، لكان من المحتمل ان لا يتذكر ابداً هو ورفاقه

البحارة ما كانت أنسيه من قبل لان جميعهم سيخلدون وادعين الى السكينة الابدية في قرارة البحر . وليس من الشاذ ان يظل الملاحون - ايها السادة - في البحار النائية المتوحشة البعيدة عنكم الى جهة الغرب يتناوبون « العزف » على مقابض المضخات في جوقة كاملة حتى حين تكون الرحلة ذات طول معقول ، أي حين تكون على موازاة ساحل ميسور بلوغه او ان كان قد تمهياً للبحارة ان يلوذوا الى مرفأ أمين . ولا يبدأ قبطان السفينة يستشعر بعض القلق إلا ان كانت سفينته المصدوعة قد ضربت في عرض البحر وأصبح البرّ منها مناط الثريا » .

« وذلك هو عينه ما ألمّ بتاونهو . فعندما تبين البحارة ان صدعها قد استشرى أبدى عديدون منهم في الحق بعض اهتمام يسير وبخاصة الضابط رادني فأمر ان ترفع الاشرعة العليا جيداً وان يبالغ البحارة في نشرها من جديد ، وأن توجه بكل سبيل لتلاقح النسيم . وأنا أظن ان رادني هذا - أيها السادة - كان ينطوي على شيء من الجبن وأنه لم يكن بارئاً تماماً من أي نوع من المخاوف العصبية التي قد تلم بشخصه ، كأبي مخلوق جريء متهور على البر او البحر في مقدور أخيلتكم أن تتصوره على هيئتها . لذا فانه . حين أبدى جزع المتوجس حول سلامة السفينة قال بعض البحارة انه انما يفعل ذلك لانه شريك في ملكيتها . وحين كانوا في ذلك المساء يعملون المضخات جرى بينهم تندر ماكر حول ذلك الموضوع اذ كانوا يقفون والماء الصافي المتعرج يتدفق فوق أقدامهم دوماً ، صافياً كأنه ماء نبس في جبل - يا سادة - ويجري عبر ظهر السفينة وقد اندفع والحبب يعلوه من أفواه المضخات ، وينصب في دفقات متلاحقة من ثقوب المصارف في الجانب الأيسر » .

« وأنتم تعلمون علم اليقين انه ان جعل أحد الناس أمراً متسلطاً على بعض اخوانه من بني الانسان ووجد هذا الأمر أحد مأموريه يتفوق عليه فيما تبعته

الرجولة الحق من زهو واستعلاء ، فليس من الشاذ النادر في عالمنا هذا المعروف — مائياً كان او غير ذلك — ان يضطغن الأمر نحو ذلك المأمور كراهية ومرارة لا تكبحان ، واذا أمكنته فرصة طأطأ من شموخ ذلك الملازم المرءوس وأنحى عليه دقاً وسحقاً ، وجعل مما كان حصناً سامقاً ، كومة محقورة من تراب . ومهما يكن أمر هذا التشبيه الذي أوردته — أيها السادة — فلا مشاحة في ان استيلكلت كان في كل حال حيواناً طوالاً فارعاً ذا رأس كأنه روماني ، ولحية مسترسلة ذهبية كأنها خصل الجلال الذي اتخذه واليكم الماضي زينة لجواده الكريم ، وهو ذو قلب وذهن ونفس — أيها السادة — تجعل منه شرماناً آخر لو كان والد شرمان له أباً . أما الضابط رادني فكان بشع الخلقة كالبعغل ، إلا انه مقدم مثله هو عنيد حقود . ولم يكن يحب استيلكلت وذلك شيء كان يعرفه هذا فيه .

واذ رأى البحيريُّ الضابطَ يقترب منه حين كان يعمل جاهداً عند المضخة مع سائر الرفاق ، تظاهر بأنه لا يراه واستمر يرسل دعاياته المرححة دون وجل ، ويقول :

« بلى . بلى . أيها الفتيان المرحون . هذا صدعٌ حيوي نشيط . ليعبىء أحدكم صفيحة من الماء كي نذوقه . والله انه ليستحق الحفظ في زجاجات . أقول لكم يا رجال ان المال الذي يستثمره رادني الشيخ في هذه السفينة سيدفع لقاء هذا المال . خير له ان يفصل ما يخصه من هيكل السفينة ويسجبه عائداً الى بلده . الحق يا فتیان أن سمك الكبع المسیف هو الذي ابتداء هذه الدعابة . وها هو قد عاد ومعه عصابة من نجاري السفن ، من سمك المنشار وسمك المبرد ، وهلم جرا . وها هي الزمرة الحاشدة مكبة على العمل تقطع وتشق في القعر ، وأظنها تقوم بالترميمات والتحسينات . لو كان « راد » الشيخ هنا لأشرت عليه ان يقفز في الماء كي يشنت شملها ، ولقلت له : انها تعيث في أملاكه فساداً

كالشياطين لكن « راد » شيخ ساذج طيب القلب - وهو أيضاً جميل الطلعة .
يقال - يا فتيان - انه يستثمر بقيمة ماله في التجارة بالمرايا ؛ لعلي لو طلبت منه
أنموذجاً عن أنفه وأنا البشع المسكين لم يكذب بمنحني ذلك » .

« فهدر رادني متظاهراً بأنه لم يسمع حديث البحارة : عفى في عينيكم !
لم توقفت تلك المضخة عن العمل ؟ فجثروا منها أصواتاً كالرعد » .

« فقال استيلكلت وهو جذلان كأنه الصرّار : « سمعاً . سمعاً . سيدي -
هيا انشطوا ، انشطوا يا فتيان ! » وما ان أتمّ قوله حتى أخذت المضخة تجلجل
كأنها خمسون آلة من آلات الحريق . واشتد الرجال وهم ينصبون في أعمالها ولم
يمضِ وقت طويل حتى أخذ يسمع لهاث الصدر ، ذلك الذي يدل على ان
أقصى طاقات الحياة قد بلغت حدّ التوتر الكامل » .

« ثم ان البحيري غادر المضخة أخيراً هو وسائر عصبته ، وذهب الى الامام
وقد استبد به اللهاث ، وجلس على الدولاب الرافع ، وقد احتقن وجهه بحمرة
قانية نارية ، وعينه تـقـدحان شرراً ، وهو يسمح العرق الغزير المتصبب عن
جبهته . لست أدري اي شيطان ماكر - يا سادتي - تملك رادني حتى دفعه الى
ان يتطفل على ذلك الرجل وهو في مثل حالته الجسمانية المنهوكة . ولكن ذلك
هو ما حدث . فان الضابط جاء يذرع ظهر السفينة محتدّاً فارغ الصبر وأمره
ان يحضر مكنسة ينظف بها الألواح ، ومجرفة يزيل بها أوساخاً ألقى بها خنزير
طليقي » .

« وكنس ظهر السفينة في عرض البحر - يا سادة - عمل مألوف يتم دائماً كل
مساء بانتظام الا في أوقات العواصف الهوج . ومن المعروف انه يتم في حال
السفن التي تنخرق حقاً . كذلك هي المرونة في عرف البحر وعادات الملاحة

— يا سادة ، وكذلك هو حب النظافة السليقي في رجال البحر . فبعضهم يأبى ان يستسلم للفرق قبل ان يغسل وجهه أولاً . ولكن أمر الكنس هذا في كل سفينة موكول الى الغلمان وبه يؤمرون ، ان كان على ظهر السفينة غلمان ؛ ثم ان الذين كانوا يتناوبون العمل على المضخات مقسمين الى فئات هم أقوى الرجال في ثأونهم وبما ان استيلكلت كان أقدرهم ساعداً وأقواهم جسماً فانه طالما جعل رئيساً لاحدى تلك الفئات . ومن ثم كان لازماً على الضابط ان يعفيه من مثل ذلك العمل التافه الذي لا صلة بينه وبين الواجبات الملاحية الصحيحة ، ما دام رفاقه يعفون من ذلك . انني أذكر كل هذه التفصيلات لكي تفهموا تماماً كيف كان الموقف بين الرجلين » .

« وفي هذا الامر ما هو أدهى وأمرّ . فان العمل بالمجرفة كان يعني بصراحة تحقير استيلكلت وازدراءه كأن رادني بصق في وجهه . وهذا شيء يفهمه كل من عمل بحاراً في حوَّاة ، وقد أدرك البحيري كل هذا وعرف ما هو اكثر منه عندما ألقى اليه الضابط بالأمر . وتلبث لحظة وحدد النظر في عيني الضابط الحاقدين ورأى فيها اكدياساً مكدسة من البارود ، والكبريت البطيء يقترب منها في صمت ؛ ولما رأى ما رآه بغريزته ، فان ذلك الحلم والتمنع عن اثاره الحدة الكامنة في شخص غضوب — وهو نفور يحسه الشجعان حقاً اذا اتفق ان تسرب الى نفوسهم أبداً — أقول : ان ذلك الاحساس الطيفي الذي لا يسمى تسلل — ايها السادة — الى نفس استيلكلت » .

« ولذلك أجابه في نغمة صوتية معتادة لا أثر فيها لتغيير الا ما يتخللها من اضطراب بسبب الانهاك الجسماني المؤقت الذي ألم به قائلاً ان كنس السفينة ليس من شأنه وانه لن يقوم به . ومن غير ان يلح الى العمل بالمجرفة أشار الى ثلاثة فتيان قال انهم هم الذين يقومون بالكنس عادة وبما انهم لم يؤدوا اي دور في المضخات فان ما عملوه طوال اليوم قليل او كالمعدوم . فكان ردّ رادني

على هذا ان أطلق سبأاً مقذعاً في أشد صور الغطرسة والسخط مكرراً أمره دون تحفظ . كل هذا وهو يتقدم نحو البحيري الذي ما يزال جالساً ، وقد رفع في يده مطرقة أحد صناع البراميل ، اختطفها من برميل كان منه قريباً .

« وعلى الرغم من الشعور المتصل بالحلم والتمنع ، ذلك الشعور الذي لا نجد له اسماً ، فان استيلكلت الذي كان يتصبب عرقاً وقد حمي وهاجه الكد المضني الذي تأبضت به عروقه ، لم يستطع ان يتقبل هياج الضابط الا على مضض ؛ غير انه ظلّ يخمد لهيب النار المتصاعدة في نفسه فبقي دون ان يتكلم متشبهاً تشبث العنيد بمجلسه ، حتى اقترب رادني المهتاج وهزّ المطرقة على بعد بضعة بوصات من وجهه ، وأمره والسخط يملكه ان يطيع ما أمر به . »

« فنهض استيلكلت ، وتراجع ببطء حول الدولاب الرافع والضابط يتعقب خطاه ثابتاً ومطرقة التهديد في يده ، وقال للضابط بصوت العامد الواثق انه لن يطيع أوامره . ولما وجد ان ضبطه لأعصابه لم يكن له أدنى ثمرة أخذ يلح الماحأ رهيباً لا تعبر عنه الكلمات بقبضة يده ويحذر الرجل الأخرق المتهور ، ولكن دون جدوى . وعلى هذا النحو مضى الرجلان ببطء حول الدولاب الرافع ؛ وحين حزم البحيري أمره على ان لا يتراجع خطوة واحدة أخرى اذ قدّر لنفسه أنه قد أبدى من الصبر كل ما يطيقه مزاجه ، توقف عند مدخل العنبر ، وخاطب الضابط قائلاً :

لن أطيع أوامرك يا سيد رادني . أبعد تلك المطرقة اوخذ حذرك . ولكن الضابط الذي أعماه القدر ظل يقترّب منه ، والبحيري ثابت في موقفه ، وهزّ المطرقة الثقيلة على مدى بوصة واحدة من أسنانه ، وهو في الوقت نفسه يرسل سيلاً لا يطاق من السباب واللعن . غير ان استيلكلت لم يطرف له جفن ولم يتزحزح في موقفه بما قد يبلغ واحداً في الالف من البوصة ، وسدّ الى عين

الضابط . نظرة شزراء كأنها خنجر لا يهتز ، ثم جمع قبضته اليمنى وراء ظهره ومدّها الى الوراء منقبضة وأعلم هذا الذي يطارده ان المطرقة ان خدشت خده فانه (أي استيلكلت) سيدبجه . ولكن قوى الشياطين أيها السادة كانت قد ندبت ذلك الاحق ليقدّم على مجزرة . فقد مست المطرقة الحدّ ثوّاً وفي اللحظة التالية كان فك الضابط الاسفل قد انكسر ووقع على مدخل العنبر وهو يبصق دمًا كأنه حوت .

« وقبل ان تبلغ الصيحة مؤخرة السفينة كان استيلكلت يهز احدى السنادات الخلفية التي تؤدي الى اعلى حيث اثنان من رفاقه يقف كل منها على أعلى الصاري . كان كلاهما قنالياً » .

« فصاح الدون بطره : قنالياً ؟ رأينا كثيراً من سفن التحويت في موانينا ولكننا لم نسمع شيئاً عن القناليين ؛ عفواً : من هما وما هما ؟ »

« القناليون ايها السيد هم ملاحو القوارب التي تنتمي الى القنال العظيمة قنال إيرى^١ . لا بد ان تكون سمعت بها » .

« لا . ايها السيد في هذه البلاد البليدة الساخنة المتكاسلة التليدة لا نعرف الا القليل عن شمالكم الحبيّ العتيد » .

« أكذا هو ؟ لا بأس ايها السيد ، املاً لي كأسي من جديد فان هذه « الشيشة » التي تشرّبونها اللذيذة ، وقبل أن أمضي في حديثي قدماً سأحدثكم عن هؤلاء القناليين لان مثل هذا الحديث قد يلقي أضواء جانبية على قصتي » .

١ انتهى العمل في هذه القنال عام ١٨٢٠ وكان موضع دهشة وفخر لمعظم الامريكيين .

« خلال ثلاثمائة وستين ميلاً هي عرض ولاية نيويورك ، خلال مدن عديدة مأهولة وقرى نامية ناجحة ، خلال مستنقعات واسعة كثيبة ليس فيها سكان ، خلال حقول خصيبة مستثمرة لا يضارعها شيء في خصبها ، في غرفة للعب البلياردو واخرى لتناول الشراب ، خلال « قدس اقداس » الغابات العظيمة ، على القناطر الرومانية فوق الانهر الهندية ، خلال الشمس والظل ، في قلوب سعيدة او تاعسة ، خلال المناظر الشاسعة المتفاوتة في مقاطعات موهوك وبخاصة في صفوف المعابد البيض كأنها الثلوج ، و« جرسياتها » سامقة كأنها الصوى المنصوبة : يجري جدولٌ مستمر الجريان من حياة فاسدة كأنها تنتمي الى البندقية ، حياة كثيراً ما تكون خارجة على القانون . هنالك هم الأشانتي الخلّص^١ الذين تعرفون ؛ هنالك يعوي الوثنيون الذين تعلمون ، اذا فتحت ابوابكم وجدتموهم قابعين وراءها في الافياء الوارفة وتحت كنف الكنيسة المريحة التي ترعاهم . اذ ان القدر العجيب هو الذي يجعل المذنبين ايها السادة يكثرّون في حى المعابد المقدسة مثلاً ان النهايين والحاربين في المدن يتجمعون حول قاعات المحاكم . »

« أذاك احد الرهبان ؟ قال ذلك الدون بطره وهو ينظر الى اسفل نحو الرحبة المكتظة بالناس ويبيدي اهتماماً مرححاً » .

« فضحك الدون سبسطيان وهو يقول : ان محاكم التفتيش التي أقامتها السيدة ايزابيلا لا تطول^٢ - في ليا - صاحبنا الشمالي . خذ في حديثك ايها السيد » .

« فصاح واحد من الرفقة : معذرة وعلى رسلك ! باسمنا نحن جميعاً - ابناء ليا - أحب ان أنبئك يا سيدي البحار انه لم تفتنا لباقتك في انك لم تذكر ليا حيث

١ افريقيون يقطنون الى الشمال من ساحل الذهب ، معروفون بالشجاعة والجرأة وحذقهم في الزراعة والصناعة والتجارة .

ذكرت البندقية في تلك المقارنة التي ذكرتها حول الفساد . لا تطأ طيء رأسك وتبدي اندهاشاً ؛ انت تعرف المثل السائر على طول هذا الشاطئ ، « فاسد مثل ليا » ؛ وقولك عن البندقية ينطبق عليها . الكنائس فيها اكثر عدداً من طاوولات البليارد وهي مفتوحة ابدأ - والمثل يقول : « فاسد مثل ليا » ؛ كذلك هي البندقية ، لقد زرتها ؛ هي مدينة الانجيلي ذي البركات القديس مرقس ! طهرها من أدرانها يا سنت دومينيك ! كأسك ! وشكراً ، ها أنا املاً كأسى مرة اخرى ، وانت فصبّ لنفسك كأساً اخرى .

« اذا اردت ان أصور لكم القنالي في حرفته - ايها السادة - في صراحة وطلاقة - قلت انه قد يتمثل في صورة بطل مسرحي ظريف ، فان ما فيه من لؤم ومكر يبدو وفيراً جذاباً . انه مثل مارك انطوني قد يبجر فوق مياه نيله الاخضر المزهر اياماً واياماً في كسل واسترخاء ، وهو يداعب علناً حبيبته كليوباترة ذات الحدين الموردين ، وينضح فخذه المشمشية تحت سفعات الشمس على ظهر السفينة ، فاذا نزل الى الشاطئ نحتى عنه هذا التخث . والقنالي يتنكر في زهو وخيلاء بقناع قطاع الطرق اذ ان قبعته المنكفئة الحوافي المحاطة بشريط زاهي اللون تليق بملامحه الفخمة ؛ يفرق منه اهل القرى ذوو البسات البريئة حين يمر بهم في قاربه ، ويتجافى عن وجهه القاتم ومشيته المتبختره أهل المدن . ولقد كنت ذات يوم متأفقاً في منطقة القنال ، فتلقيت من أحد أولئك القناليين خدمات جليلة ، اشكره عليها من صميم الفؤاد ولعلني ألا اكون ناكراً للجميل . ولكن من أبرز الصفات التي تكفّر عما سواها في رجل العنف انه احياناً يستعمل ساعده القوي ليعين غريباً في مأزق مثلاً ينهب به غنياً . وعلى الجملة فان شِرة حياة القنال هذه - ايها السادة - تتجلى لكم في ان حرفة الحوالة العنيفة لدينا تحتوي كثيراً من تخرجوا في هذه المدرسة التي سميتها القنال وانه قلما تجدون جنساً من الناس لا يوليهم قباطنة الحوالة ثقتهم مثلهم ، باستثناء أهالي سدني . وليس يقلل من غرابة هذا الامر ان تكون الحياة التجريبية في القنال

العظمى لدى آلاف عديدة من غلماننا وشبابنا الريفيين الذين يولدون على ضفتها هي التي تمدهم بالنقطة الوحيدة بين الحصاد الهادئ في حقول قمح مسيحي والحرب العابت في مياه البحار الهمجية النائية .

« فقال الدون بطره في احتدام المندفع وقد دلق شراب «الشيشة» على غضونه القضية : كذا اذن ! كذا اذن ! لا حاجة بالمرء ليرحل كي يرى الدنيا، كل العالم هو ليما ؛ لقد كنت أظن ان الاجيال في شمالكم المعتدل هادئة مبروكة ركيئة كأنها الربي . هات القصة » .

« توقفت — ايها السادة — حيث كان البحيري يهز السنادة الخلفية . وما كاد يفعل ذلك حتى أحاط به الضباط الصغار الثلاثة والرماحون الاربعة وتجمهروا من حوله واضطروه للذهاب الى ظهر السفينة . غير ان القناليين انزلقا هابطين على الحبال كأنها شهابا رجم واندفعا الى حيث الضجة ، وسعيا لينشلا صاحبها من حومتها نحو منارة السفينة . وشاركها بحارة آخرون في هذه المحاولة ونجم على الاثر شغب مختلط ؛ كل هذا والقبطان المقدام بمنجاة من الاذى يثب ويهبط وفي يده حربة من حراب الصيد ويدعوضباطه ان يغفلوا بأيديهم ذلك الوغد المتوقع الاثيم ، وان يقودوه سريعا الى الربرة التي خلف الدقل الاعظم ؛ وبين الحين والحين كان يقترب من الحدّ الدائري المحيط بالشعب ويحاول النفاذ الى غمرة الفتنة بحريته لكي يطعن بها خصمه الذي كان هدفاً لنقمته . ولكن استيلكلت والبواسل المستئسسين من حوله لم يكونوا لقمة فاستطاعوا ان يبلغوا الربرة عند منارة السفينة حيث عجلوا فصفوا ثلاثة براميل او اربعة كباراً معاً عند الدولااب الرافع واتخذ باريزيو البحر من هذا الحاجز «متراساً» يحتمون به .

« فصاح القبطان هادراً وهو يهددهم بمسدسين في يديه الاثنتين : ابرزوا من حيث انتم، ايها القرصان ؛ ابرزوا من حيث انتم يا سفّاحين ! »

« فقفز استيلكلت فوق المتراس واخذ يذرعه صاعداً هابطاً، متحدياً شراً ما قد يفعله المسدسان ، ولكنه جعل القبطان يفهم بوضوح ان موته (اي موت استيلكلت) سيكون نذير تمرد دموي يتداعى اليه البحارة جميعاً ؛ وخشي القبطان في قرارة نفسه ان يصحّ هذا القول فأحجم بعض إحجام إلا انه ظلّ يأمر العصاة ان يعودوا توّأ الى واجباتهم . »

« فقال رأس العصيان : « هل تعد بأن لا تمسنا بسوء ان نحن فعلنا ؟ » — « عودوا ! عودوا ! — لا وعد لديّ — الى واجباتكم ! هل تريدون ان تغرقوا السفينة بتوقفكم عن العمل في مثل هذا الوقت ؟ عودوا ! » ورفع مسدساً مرة اخرى . »

« فصاح استيلكلت : « نغرق السفينة ؟ نعم ، لتغرق ! لن يعود واحد منا الا حتى تقسم بأنك لن ترفع علينا طاقة من حبل . ما قولكم يا رجال ؟ » -- موجهاً الخطاب الى رفاقه — فكان جوابهم هتافاً عالياً . »

« وكان البحيري حينئذٍ يحرس المتراس متطلعاً ، وعينه طوال الوقت على القبطان وهو يطلق بعض العبارات مثل قوله : « هذه ليست غلطتنا . لم نكن نريد ذلك . قلت له أبعد المطرقة . هذا تصرف صبيان . كان عليه ان يعرف من أنا قبل هذا . قلت له : الفتنة نائمة فلا توقظها . أعتقد أنني كسرت اصبعي اذ لطمت فكته اللعين . أليست سكاكين « الفرغ » في المنارة ، يا رجال ؟ امحسوا عن العتلات يا أحبائي . ايها القبطان بالله عليك خذ حذرك . تفوه بالوعد . لا تكن أحمق . انس كل ما حدث . نحن على استعداد لنعود . عاملنا بالحسنى ونحن رجالك . ولكننا نأبى ان نجلد . »

— « عودوا ، لا وعود لديّ ؟ أقول : عودوا ! »

« فصاح البحيري وقد بسط ذراعيه نحو القبطان : تأمل ! ها هنا عدد من البحارة (وأنا منهم) أبحروا من أجل التطواف فقط ؛ أليس كذلك ؟ وأنت تعلم يا سيدي أننا نستطيع ان نستعفي من العمل حالما نلقي المرساة ، لذا فنحن لا نريد نزاعاً ، نحن نسعى للمساواة ، نحن على استعداد لنستأنف العمل ولكننا نأبى ان نجلد » .

« فهدر القبطان قائلاً : عودوا ! »

« فتلفت استيلكلت لحظة من حوله ثم قال : ها انا أخبرك ايها القبطان اننا لن نقتلك لانا لا نريد ان نشق مقابل وغد خسيس فلن نبسط عليك يداً الا اذا هاجمتنا . ولكن لن نترشح من هذا الموقف الا اذا سمعنا وعدك بأنك لن تجلدنا » .

« اهبطوا في المنارة اذن ، عليكم اللعنة ، سأبقىكم فيها حتى تتمرر عيشتكم . اهبطوا ! »

« فصاح رأس المتمردين مخاطباً رفاقه : « هل نهبط » ؟ ولكن اكثرهم عارض ذلك ، ومن بعد تقدموا استيلكلت ، امتثالاً لأمره ، ونزلوا في المكدع المظلم ، واختفوا وهم يهيمون كأنهم دبة في مغارة » .

« وما كاد رأس البحيري يصبح على مستوى الألواح حتى قفز القبطان وزمرته من فوق المتراس ، وسحبوا بسرعة رتاج الناروزة ، ودعموها بأيديهم مجتمعة ونادوا قيّم التموين بصوت جهوري ليحضر القفل النحاسي الثقيل الذي يعلق على سلم الهبوط ، ثم ان القبطان وارب الرتاج قليلاً وهمس شيئاً من خلال

الفتحة ثم أغلقه ثانية وأدار فيه المفتاح فحصر وراءه عشرة ولم يبقَ على السفينة الا نحو عشرين او يزيدون ظلوا طوال الوقت لا يتدخلون في النزاع .

« وقام جميع الضباط بحراسة ساهرة طوال الليل في مقدمة السفينة ومؤخرتها وبخاصة حول ناروزة المنارة وحول المدخل الامامي ، اذ كانوا يخشون ان يتخذ المتمردون ذلك الباب طريقاً للانفلات ، بعد ان يشقوا طريقهم من خلال البدنة الواقية في الأسفل . غير ان ساعات الظلام مرت في أمان ، وظلّ الرجال الطلقاء يعملون جاهدين على المضخات ، وظلت صلصلتها وجلجلتها تتردد بين الحين والحين في جنبات السفينة خلال الليل الموحش في كآبة .

« وعند شروق الشمس تقدم القبطان فدقّ على ظهر السفينة داعياً السجناء الى العمل ، الا انهم ردّوا عليه في صوت واحد بأنهم يرفضون . فأُتزل لهم الماء وألقيت اليهم حفتان من البسكويت بعده ، ثم أدير المفتاح الذي يقفل عليهم غيابة سجنهم وعاد القبطان الى الربرة خلف الدقل الأعظم . وقد تكرر هذا مرتين يومياً في مدى ثلاثة ايام ، حتى اذا كان صباح اليوم الرابع تأدى الى الاسماع نزاع مختلط تلاه عراك ، عندما دعي القوم للعودة حسبما جرت بذلك العادة ، وفجأة انطلق من المنارة اربعة رجال وهم يقولون انهم راضون بالعودة ، ذلك ان نتن الهواء الحبيس ونزورة الطعام ثم ما اجتمع اليها من خشية القصاص في النهاية ، كل هذه العوامل اضطرتهم للاستسلام من تلقاء أنفسهم ، فاستقوى قلب القبطان اذ رأى ذلك وكرر أمره الى البقية الا ان استيلكلت صرخ فيه متوعداً منذراً بأن يكف عن هذيانه وان يرعى شئون نفسه . وفي اليوم الخامس انطلق ثلاثة آخرون من المتمردين الى الهواء الطلق ناجين من الايدي المستيئسة التي كانت تحاول ردعهم ، فلم يتبق الا ثلاثة .

« فقال القبطان في سخرية جوفاء : « الآن ! أليس من الخير ان تعودوا ؟ »

فصاح استيلكلت : « أفقل علينا الباب اذا تفضلت ! » فقال القبطان والمفتاح يدور مقرقعا : آه ، يقينا ! » .

« عند هذا الحد أيها السادة كان السخط قد بلغ مداه لدى استيلكلت بسبب الخذلان الذي ارتكبه سبعة من رفقائه ، وقد شكّ صدره الصوت الساخر الذي سمعه آخر مرة وجن جنونه بسبب دفنه الطويل في مكان يشبه أحشاء اليأس حلكة ؛ وعندئذ اقترح على رفيقيه القناليين ، وكنا حتى ذلك الحين يوافقانه الرأي فيما يبدو ، بأن ينطلقوا جميعاً من ذلك المخدع عندما يستدعيهم الحراس للعودة في اليوم التالي وهم قد تسلحوا بسكاكين «الفرم» الحادة (وهي أدوات طويلة هلالية الشكل ثقيلة ذات مقبضين) وان يثيروا الهياج من الدقل المائل حتى أعلى الكوثل ، وان يستولوا على السفينة اذا نجحوا في مغامرة مستئسفة شيطانية . وقال لهم انه هو نفسه سيفعل ذلك سواء رافقاه او تخليا عنه ، فتلك آخر ليلة يقضيها في ذلك المخدع ؛ ولم يبدِ الرجلان أية معارضة لهذه الخطة وأقسما أنها على استعداد لأداء ذلك او لأداء أي شيء جنوني آخر ، اي للقيام بأي شيء سوى الاستسلام . بل وألحّ كل منهما ان يتقدم رفيقه في الخروج الى ظهر السفينة حين يجيء موعد الانطلاق ، الا ان قائدهم عارض هذا بشدة محتفظاً بحق سبق لنفسه لانه كان يعلم ان أحد الرفيقيين لن يتنازل للآخر في هذا الامر ، ولا يمكن ان يتقدم كلاهما معاً لان السلم لا يتسع الا لواحد . وهنا أيها السادة بدأت اللعبة الخبيثة التي أضمرها كل من هذين الخدّاعين ، وكان لا بد من ان تنكشف » .

« ذلك ان كلا منهما حين سمع الخطة المتهورّة التي وضعها القائد ، انقدحت في نفسيهما فجأة - فيما يبدو - شرارتان متماثلتان من شرر الخيانة ، فحزم كل منهما أمره على ان يكون هو اول من ينطلق ليكون اول الثلاثة استسلاماً وان كان الثلاثة هم آخر العشرة ، وبذلك يضمن أي نصيب يسير من العفو تكسبه

له هذه المبادرة . ولكن حين عرّفها استيلكلت أنه مصمم على ان يكون هو القائد حتى النهاية ، فانها على نحو ما ، استخدمت كيمياء الحسة الماكرة في مزج ما زورّاه في نفسها من خيانة مكتومة ، فلما ذهب قائدهما في تهوية كشف كل منها لأخيه عن طويته في ثلاث جل ، فقيدا الرجل النائم وكماه بالحبال وصاحا يستدعيان القبطان في منتصف الليل .

« واذ ظن ان القتل ميسر له ، وأن رائحة الدم تسطع في الظلام ، اندفع هو وضباطه ورمّاحوه المسلحون نحو منارة السفينة ، ففتحو الناروزة في بضع دقائق ، وأخرجوا زعيم العصيان - وكان ما يزال يريغ فكاكاً من القيد الذي جمع بين رجله ويده - الى الهواء الطلق يحمله حليفاه الغادران ، وادعيا شرف تكبيل امرئ حائن قد أينع رأسه وحان قطافه . غير أن الثلاثة جميعاً طوّقوا وسحبوا على ظهر السفينة كالغنم الميته ، وحشروا معاً معلقين بحبال المظنين كأن كل واحد طرف من ذبيحة وبقوا هنالك معلقين حتى الصباح والقبطان يصيح بهم وهو يخطر أمامهم جيئة وذهوباً : عليكم اللعنة ، ان الجوارح لتستنكف ان تمسّكم أيها الأراذل ! »

« وعند طلوع الشمس استدعى القبطان جميع الرجال ، وفصل الذين ترمدوا عن الذين لم يشاركوا في التمرد ، وقال للأولين انه يستحسن ان يجلدهم جميعاً وأنه يظن على وجه الجملة أنه قد يفعل ذلك - بل يجب عليه ان يفعل ذلك ، فذلك أمر تقتضيه العدالة . ولكن نظراً لأنهم استسلموا في الوقت المناسب فانه في الوقت الراهن سيخلي سبيلهم بعد ان يسمعهم تقريراً ؛ وعلى أثر ذلك أسمعهم اياه باللهجة الدارجة . »

« ثم التفت الى الرجال الثلاثة المعلقين في الحبال وقال لهم : « أما أنتم أيها الرمم الحسيسة ، اما أنتم فأنا أنوي ان أفرم لحكم وأوزعه على المراجل » ؛ ثم

تناول حبلاً وصبّه بكل ما أوتيّه من قوة على ظهري الرجلين الخائفين حتى كفّا عن الصراخ ضعفاً ، وتدلّى رأساهما كأن لا حياة فيها ، كرأسي اللصين اللذين صلبا ، حسبما يظهران في الرسوم .

« وصاح أخيراً : لقد أوهن رسغي ضربك ! ولكن ما يزال هناك حبل مخصص لك ، يا كتكوتي الظريف ، وهو حبل لا يصيبه الوهي . انزعوا تلك الكمامة عن فمه ولنسمع ما قد يقوله دفاعاً عن نفسه . »

« وظل المتهم المعبى لحظة وهو يحرك فكليه المتشنجين حركة مختلجة ، ثم لوى رأسه في ألم ، وقال بصوت كأنه الفحيح : هذا هو ما أقوله - وتنبه له جيداً - : اذا جلدتني ذبحتك . »

« أهكذا اذن ؟ اذن لقد أفرعتني ! - وجرّ القبطان الحبل ليضرب . »

« فعماد البحيري يفحّ قائلاً : خير لك أن لا تفعل . »

« ولكن لا بد - ومدّ ذراعه بالحبل ليهوي به . »

« وعندئذ قال استيكلت شيئاً في صوت كالفحيح لم يسمعه أحد سوى القبطان ، وما كان أشد دهشة الواقفين جميعاً حين أجفل القبطان متراجعاً وذرع الدكة في سرعة مرتين أو ثلاثاً ، وفجأة ألقى الحبل من يده وقال : لن أجده - أطلقوه - اقطعوا قيوده - أسمعون ؟ »

« وعندما أسرع الضباط الصفار لينفذوا الامر حال بينهم وبين ما انتووه رجل شاحب اللون معصوب الرأس - ذلك هو رادني رأس الضباط ؛ كان

رادني منذ ان اصابته تلك اللكمة قد استلقى في سريره ولكنه لما سمع في ذلك الصباح ضجيجاً على الدكة زحف خارجاً وشهد المشهد كله، وكان فمه قد تاذى باللكمة حتى كان كأنما يعجز عن النطق، إلا انه غمغم بكلام مفاده انه مستعد وقادر على ان يعمل ما لم يجرؤ عليه القبطان واختطف الجبل وتقدم نحو خصمه المكبل بالأصفاد.

« فهمس البحيري في فحيح : انت جبان ! »

— « نعم انا كذلك، ولكن اليك هذه مني . وكان على اهبة ان يضرب حين ارسل البحيري فحيحاً آخر، تصلبت بسببه ذراعه المرفوعة، فتوقف ثم اضرب عن التوقف، ولم يشأ ان يتخلى عن كلمته رغم تهديد استيلكلت مهما تكن النتائج . ثم حلت اصفاد الرجال الثلاثة وأنزلوا ، واتجه جميع البحارة ذوو الامزجة المتقلبة نحو المضخات الحديدية يعملونها في عناد واصرار . »

« وما كاد الظلام يحل وتنتهي اول نوبة في الحراسة حتى سمع صراخ في المنارة ؛ واذا الخائن المرتعشان يجريان ويحاصران باب القمرة وهما يقولان انها لا يجرؤان على البقاء مع البحارة . ولم ينجع الرجاء واللكم والركل في ارجاعهما، وآثرا ان يودعا في المؤخرة التحتية في السفينة طلباً للسلامة ؛ ولم تبد اية بادرة من تمرد بين سائر الرجال بل انهم على النقيض من ذلك صمموا بايعاز من استيلكلت نفسه في الاكثر، ان يلتزموا بأشد حالات الهدوء، وان يطيعوا جميع الأوامر حتى النهاية، حتى اذا بلغت السفينة الميناء هجروها جماعة . ولكنهم اتفقوا جميعاً على شيء آخر رجاء ان يكفلوا تحقيق اسرع نهاية لتلك الرحلة — اتفقوا على ان لا يرفعوا اصواتهم منبهين الى وجود الحيتان ان تبينوها . ذلك ان تاووهو، رغم صدعها ورغم جميع مخاطرهما الاخرى، ظلت تقيم الرقباء على اعالي صواريخها، وكان قبطانها على استعداد لانزال القوارب اذا رأى حوتاً في تلك

اللحظة مثلما كان في اليوم الذي حلت فيه سفينته مجال التطواف ، وكان رادني على استعداد ليستبدل بسريره قاربًا ويسعى ، وفه مكوم بالاربطة ، لكي يكعم فكّ اي حوت حيّ بكعام الموت .

« غير ان البحيري الذي حث البحارة على ان يختاروا ذلك النوع من السلبية في تصرفاتهم ظلّ يدير الرأي في نفسه (حتى انتهى كل شيء على الاقل) حول انتقامه المناسب المحكم من الرجل الذي لدغه في صميم قلبه . وكان هو ينتمي الى نوبة رادني الضابط الاعلى ، في المراقبة ، وكأنما كان الرجل المخبول يسعى ليقطع ما يزيد على نصف المسافة في لقاء مصيره بعد ذلك المشهد عند الحبال حين اصرّ مخالفًا نصيحة صريحة من القبطان على ان يستأنف رئاسة المراقبة ليلاً . وعلى هذا الأمر وعلى حادثة او اثنتين اخريين بنى استيلكلت خطته للثأر في إحكام . »

« تعود رادني اثناء الليل — على غير عادة البحارة — ان يجلس على حاجز الربعة خلف الدقل ويتكلم بمرفقه على حرف القارب المشبوح هنالك ، على ارتفاع يسير فوق جانب السفينة ؛ وبين القارب والسفينة فراغ من دونه ماء البحر ، فقد استيلكلت الوقت فوجد ان نوبته التالية عند الدفة ستكون حوالي الساعة الثانية في صباح اليوم الثالث اذا عدّ اليوم الذي خذل فيه اول يوم . فاستغلّ فترات الرقابة في الاسفل في جدل شيء ما باتقان وعلى هينة . »

« وقال له أحد الرفاق : ماذا تصنع هناك ؟ »

— « اي شيء تظن ؟ اي شيء يشبه ؟ »

« كأنه مرساة تتخذها لربط كيسك ولكنها تبدو لي غريبة . فقال البحيري وهو يمد بها ذراعه الى الامام على امتداده : نعم انها قد توصف بالغرابة . »

ولكني أظنها ستفي بالعرض . ايها الضابط ليس لدي قدر كافٍ من المصيص -
هل لديك ؟ »

« لكن ليس في المنارة اي مصيص » .

« اذن لأذهب فأطلب شيئاً من راد . ونهض لينذهب الى المؤخرة » .

« فقال احد البحارة : لا اظنك تذهب لتستجدي منه ! »

« ولمَ لا ؟ أظن انه يبخل عليّ بها وهو حين يعطيني فانما يعين نفسه في النهاية
ايها الرفيق ؟ وذهب الى الضابط ونظر اليه في هدوء وسأله مصيصاً يصلح به
ارجوحته ، فأعطي ما سأل ، ولكن لم يرَ احد المصيص او المرساة مرة اخرى .
غير انه في الليلة التالية كادت كرة حديدية قد غلفت تغليفاً محكمًا ان تتدحرج
من جيب « صدارة السعدان » التي يلبسها البحيري ، اذ كان يطوي المعطف في
ارجوحته ليتخذها وسادة له . وبعد اربع وعشرين ساعة حل موعد نوبته عند
الدفة الخرساء - قريباً من الرجل الذي كان مقدراً له ان يهوى فوق حافة القبر
الذي حفرت له الطبيعة لاستقبال البحارة على الدوام - وكان لا بد للأجل ان
يحين ، وكان الضابط في خيال استيلكلت الذي قدّر وصوّر قد غدا جثة يابسة
مسحاة وقد انخسفت جبهته اذ تحطمت » .

« ولكن أحد الحمقى ، ايها السادة ، نجى المدبر الذي كان سيفقد قاتلاً
من ارتكاب الثأر الدموي الذي كان يزعمه ، فحقق انتقامه كاملاً دون ان
يثأّر لنفسه بنفسه . وبفعل لون من القدر غريب تدخلت السماء نفسها فانزعجت
بيديها من يديه ذلك الأمر اللعين الذي كان يزعم اقترافه » .

« في صباح اليوم التالي بين انبلاج الفجر وشروق الشمس حين كان البحارة ينضحون ظهر السفينة بالماء صاح فجأة تناريقي^١ غبي وهو يصب الماء على السلاسل الكبرى : ها هو يتدحرج هنالك ، ها هو ! يا للمسيح ! اي حوت هو ! هو موبي ديك » .

« فصاح الدون سبسطيان : موبي ديك ! بحق القديس دومينيك يا سيدي البحار هل للحيتان اسماء ؟ من الذي تسميه موبي ديك ؟ »

— « هو حوت أبيض مشهور ، وحش خفيف مربع قد عتا على الموت ايها الدون — ولكن لو أخذنا في هذا لكان ايضاً قصة طويلة » .

« فاحتشد الاسبانيون الفتيان من حولي وصاحوا قائلين : « كيف ؟ كيف بالله عليك ؟ » — لا . لا . ايها السادة ، لا يا سادتي ، ابدأ ، ابدأ ، لا يستطيع ان اسرد هذه القصة الآن ، افسحوا قليلاً حتى يبلغني الهواء يا سادتي » .

« فصاح الدون بطره : الشيشة ! الشيشة ! ان صديقنا القوي يكاد يغمى عليه — املأوا له كأسه الفارغة ! »

— « لا حاجة بي الى ذلك يا سادة ، لحظة^٢ واستأنف حديثي ... : عندما أبصر التناريقي ، يا سادة ، الحوت الناصع فجأة في مدى خمسين ياردة من السفينة ، رفع عقيرته عفواً وبقوة الغريزة يعلن عن وجود الوحش ، وقد نسي ما تعاهد

١ نسبة الى تناريقي احدى جزر الكناري حيث خاض نلسون معركة بحرية عام ١٧٩٧ فقد فيها ذراعه .

عليه البحارة ، واستبد به الهياج المبادر ، هذا مع ان المراقبين على الصواري
النكدة رأوه بوضوح؛ عندئذ استولى النزق على كل شيء فصاح القبطان والضباط
والحواتون : « الحوت الابيض ! الحوت الابيض ! » ولم تمنعهم الاشاعات الخفيفة
من ان يتوقوا الى القبض على ذلك الحوت الشهير الغالي ، بينما وقف البحارة
العاندون يلحظون ، بالعيون الشذراء واللغات المصبوبة ، ذلك الجمال الخلاب
الذي كان يمثله الجرم الضخم الناصع في بياض اللبن وقد سقطت عليه اشعة
الشمس الافقية المتلاممة فأخذ يتحرك ويتلألأ كأنه « أبال » حي في مياه البحر
الازرق الصباحي . لا ريب ايها السادة في ان قدراً غريباً يتخلل سياق هذه
الاحداث جميعاً كأنها رسمت قبل ان يسوّى الكون نفسه ، فقد كان المتمرد
هو موجه القارب الذي سيركبه الضابط ، فاذا طارد بقاربه حوتاً فعليه ان
يجلس الى جانبه ، بينما يقف رادني عند المقدمة وحريته في يده ، وهو يجذب ثني
الحبل او يرخيه بحسب الاوامر . فاذا انزلت القوارب الاربعة كان من حق
قارب الضابط ان يتقدمها جميعاً . ولم ينطلق احد بأصوات من الجدل جارة
مثلاً فعل استيلكلت وهو ينصب مجذافه ، وبعد تجديفة مجهدة أسرع القارب بهم
وقفز رادني الى المقدمة ورمحه في يده ، وكان كلما ركب قارباً هاجت نفسه
— فيما يبدو — فصاح من وراء الكعاب الذي يغلفه ان يقربوه بحيث ينزل على
اقصى حردبة الحوت ، ودون ان يبدي موجه القارب تكرهًا او نفوراً اخذ
يوجهه ويرتفع به خلال زبد يعشي الابصار ، قد اختلط بياضه ببياض الحوت ،
حتى ارتطم القارب فجأة كأنما صادم طنفاً غارقاً ، ثم انكفأ فقذف بالضابط
الواقف ؛ وعندما سقط في تلك اللحظة على ظهر الحوت الزلق استقام القارب
ودفعته الغمرة المنقضة الى جانب ، بينما كان رادني يعلو به الماء ويهبط على الجانب
الآخر من الحوت ، فسعى جاهدًا خلال الطش المتناثر ، ولحه رفاقه لحظة خلال
تلك الغلالة وهو يحاول يجنون لكي يبعد نفسه عن عين مويي ديك . إلا ان
الحوت اندفع دائراً في « شقلبة » فجائية ، وأطبق فكيه على الرجل السباح ،
وانتصب به صعداً ثم انحدر صعباً وهو يقمس عامودياً وغاص في الاعماق .

« وفي الوقت نفسه ارخى البحيري من طرف الثني عندما أحس اول دقة على قعر القارب كي يتجافى متأخراً عن الدوامة الحادثة ؛ ونظر في هدوء مروياً، فخطر له ما خطر . ولكن هزة مفاجئة مرعبة من تحت القارب جعلته يستل سكينه ويضعها فوق الجبل ؛ فجذبه وذهب الحوت طليقاً، غير ان مويي ديك ظهر على مسافة ما مرة ثانية وقد علقت مزق من قميص رادني الصوفي المخضب بأنيابه التي قضت عليه . ثم هبت القوارب الاربعة تطارده إلا انه فاتها جميعاً واختفى عنها من بعد اختفاء تاماً . »

« ووصلت تاونهو ميناءها في الوقت المناسب - وكان مكاناً موحشاً متوحداً - لا يسكن فيه اي مخلوق متمدن وهناك دبر الفرار خمسة او ستة من رجال الصاري الرئيس عامدين يقودهم البحيري وأووا الى حائط فخيل . وقد تبين في النهاية انهم اختطفوا زورقاً حريباً كبيراً مزدوجاً من الهمج المتوحشين هنالك وأبحروا الى ميناء آخر . »

« وحين اصبح بحارة السفينة لا يجاوزون اصابع اليدين أهاب القبطان بأهل الجزيرة ليعينوه في العمل الشاق اعني ترميم السفينة ورأب صدعها . ولكن تلك العصبة الصغيرة بحاجة الى السهر المضني اتقاء لعدوان أولئك الاعوان الخطرين، ليلاً ونهاراً ، وكان العمل الشاق الذي قاموا به منهكاً مضنياً حتى انهم حين اصبح المركب صالحاً للابحار كانوا في اشد حالات الضعف والاعياء بحيث ان القبطان لم يجرؤ على ان يقلع بهم وحدهم في ذلك المركب الثقيل . وبعد ان استشار ضباطه أرسى السفينة بعيداً عن الشاطئ قدر المستطاع فعبأ مدفعين وصوبهما من مقدمة السفينة ؛ وكوّم البنادق على مؤخرة السفينة واصطحب معه احد الرجال ونشر شراع خير قارب تحويت لديه ، وتوجه به عامداً مع المهبّ نحو تاهيتي ، على بعد خمسمائة ميل ، لكي يأتي بمدد من الرجال يضيفه الى ملاحيه . »

« ورأى الرجلان في اليوم الرابع من ابحارهما زورقاً ضخماً قد انتبذ ناحية

عند جزيرة مرجانية منخفضة ، فوجه القبطان قاربه بعيداً منه ولكن الزورق
الهمجي انقض عليه ، وسرعان ما تأدى اليه صوت استيلكلت يدعو ان يتوجه
نحوه والا فانه سيطوح به تحت الماء . فشهّر القبطان مسدساً ، إلا ان البحيري
سخر منه مزديراً ، وقد وضع قدميه على قادمتي الزورق الحربي الموثقتين ؛ مؤكداً
له انه لو عبث عبثاً بزناد المسدس لدفنه بين الفقايع والزبد .

« فصاح القبطان : ماذا تريد مني ؟ »

« فقال استيلكلت : قل لي الى اين انت متجه ، ولأي شيء تتجه ، وإياك
ان تكذب . »

— « أنا متجه الى تاهيتي رجاء الحصول على مدد من رجال . »

— « حسناً . دعني أجيء الى قاربك ، وثق انني مسالم . وما ان نطق بهذه
العبارة حتى قفز من الزورق وسبح الى القارب ، وصعد الحافة ووقف وجهاً لوجه
أمام القبطان . »

« ضع ذراعيك متقاطعتين يا سيدي ؛ ردّ رأسك الى الخلف . وردد بعدي :
حالمالما يغادرني استيلكلت فأنا أقسم ان أرسى هذا القارب عند تلك الجزيرة
وأبقى هنالك ستة أيام فاذا لم افعل اذن فلا أخطأتني الصواعق . »

« وضحك البحيري وهو يقول : « أحسنت ! ما أفصحك ! في رعاية الله
يا سيد ، ثم وثب في الماء وسبح عائداً الى رفاقه . »

« ووقف استيلكلت يرقب القارب حتى ساحل وجرّ الى جذور شجرات
جوز الهند هنالك ، وعندئذ استأنف ابجاره ووصل في الوقت المناسب الى
تاهيتي ، وكانت هي المكان الذي يؤم ، وهناك حالفه الحظ اذ كانت سفينتان

على أهبة الاقلاع الى فرنسا وكانتا لحسن البخت بحاجة الى ذلك العدد من الرجال الذين يرأسهم ذلك البحار، فأقلعوا فيها وبذلك أخذوا زمام المبادرة من قبطانهم ان كان يرى ابدأ ان ينزل بهم القصاص المشروع .

« وبعد ان مضت عشرة أيام على اقلاع السفينتين الفرنسيتين وصل قارب التحويت واضطر القبطان الى ان يدون أسماء تاهيتين اكثر تمدناً وقد تعودوا بعض الشيء ركوب البحر ، واستأجر من هنالك شانية تاهيتية ، وعاد الى مركبه فوجد كل شيء فيه بخير ومن ثم استأنف تطوافه . »

« اين هو استيلكلت اليوم يا سادة ؟ لا أحد يدري لكن أرملة رادني في جزيرة نانتوكت لا تزال توجه عينيهما الى البحر الذي يأبى ان يعيد الميت ، ولا تزال ترى في أحلامها الحوت الابيض الرهيب الذي قضى عليه . »

* * *

« فقال الدون سبسطيان في هدوء : أترك انتهيت ؟ »

— « نعم أيها الدون . »

— « اذن فأنا أتوسل اليك ان تخبرني : أهذه القصة في جوهرها حقيقية ، حسب تقديرك وتخمينك ؟ انها عجيبة ، فهل استقيتها من مصدر موثوق ؟ لا تؤاخذني ان كنت ملحقاً . وصاحت الجماعة كلها وقد استبد بها الاهتمام البالغ : ولا تؤاخذنا ايضاً يا سيدنا البحار لأننا نشارك الدون سبسطيان مطلبه . »

— « هل في الحانة الذهبية ايها السادة نسخة من الاناجيل المقدسة ؟ »

« فقال الدون سبسطيان : لا ولكنني أعرف قسيساً قريب الدار يستطيع

ان يحصل لي على نسخة . وانا ذاهب لاحضارها . لكن هل أنت مطمئن الى ما ستفعله فان ذلك قد يكون خطير النتائج ؟ »

— « هل تعمل معروفا فتحضر القسيس بصحبتك ايها الدون ؟ »

« فقال بعض الجماعة لآخر : مع ان حرق الاحياء في ليا قد بطل في هذه الايام فأنا أخشى ان يكون صديقنا البحار في خطر التصدي لرئاسة الأسقفية . لنسحب من ضوء القمر فلست أرى حاجة لذلك » .

— « معذرة للجري في أثرك يا دون سبسطيان . هل لي ان أرجوك بأن تتحرى اكبر نسخة من الاناجيل فتحضرها لنا ؟ »

*
* * *

« قال الدون سبسطيان في رقار وقد عاد بصحبة شخص طويل وقور : هذا هو القسيس وقد جاءك بالاناجيل » .

— « اذن لأخلع قبعتي . تعال قليلا في النور ايها القسيس المبجل وأمسك الكتاب المقدس أمامي كي أستطيع ان ألمسه » .

— « عونك يا رب . إني أقسم بشرفي ان القصة التي قصصتها عليكم ايها السادة هي في جوهرها وبنودها الكبرى صحيحة وأنا أعلم انها صحيحة . لقد وقعت على هذه الكرة ، فقد وطئت قدماي السفينة ، وعرفت الملاحين ورأيت استيلكلت وتحذثت اليه منذ ان مات رادني » .

صور مشوهة ترسم للجنتان

سأرسم لكم عما قريب ، بقدر ما يسفح به التصوير الكلامي دون لوحة ، شيئاً يشبه ان يكون الشكل الصحيح للحوت حسبما يتبدى لعيني الحوات حقاً ، حين 'تجَنَّبُ' جثته على ضخامتها الى سفينة التحويت حتى ليستطيع المرء ان يطأ على الجثة مطمئناً وهو يصعد الى السفينة . ولكن قد يكون من الجدير قبل ذلك ان ألمح الى تلك الصور الخيالية الغريبة التي ترسم له والتي ما تزال حتى اليوم تتحدى ايمان اهل البر . لقد آن الاوان كي تصحح معتقدات الناس في هذا الامر ، وذلك بأن أبْرهن لهم ان مثل هذه الصور للحوت كلها خاطيء .

وقد يكون المصدر الاول لهذه الاضاليل التصويرية موجوداً بين اقدم التماثيل الهندية والمصرية واليونانية فمنذ تلك العصور التي عرفت بالاختلاق والرخصة في التدقيق ، حين كان الدلفين يرسم على الافاريز الرخامية في الهياكل وعلى قواعد التماثيل وعلى الدروع والمداليات والكؤوس والنقود ، وتجعل له حراشف كزرد الدرع الذي كان يلبسه صلاح الدين ، ورأس مقنع بالخوذة كأنه رأس مار جرجس ، منذ ذلك الحين اتسع مجال الرخصة والتساهل لا في أشد صور الحوت انتشاراً بين الناس بل في كثير من الصور العلمية التي ترسم له .

ومن العجب العجائب أن أقدم صورة بقيت ، وقد قصد منها ان تكون

صورة حوت، موجودة في كهف معبد الافيال بالهند^١ . ويعتقد البرهميون ان التماثيل المنحوتة في ذلك المعبد القديم — وهي تكاد تعز على الحصر — انما وضعت لتمثل جميع الحرف والاتجاهات وكل مهنة يمكن ان تخطر في خيال الانسان وان تلك التماثيل كانت قبل ان تكون الحرف والمهن في الكون بعصور طويلة، فلا عجب اذن ان كانت مهنتنا — مهنة التحويت النبيلة — من تلك الحرف التي جرى الامناع اليها والتكهن بها قبل ان تكون . ويقع الحوت الهندي المشار اليه في جانب منعزل من الجدار حيث الصورة تمثل تجسد فشنو في شكل لويائاثن يسميه الغلماء ماتسي آفتار. غير ان ذلك التمثال الذي جعل نصفه انساناً ونصفه حوتاً ليس فيه من الحوت الا ذنبه، بل ان ذلك الجزء اليسير منه خطأ كله، فهو يبدو وكأنه ذنب مستدق لشعبان الانكونه باكثر مما يمثل شطيرتين عريضتين من ذنب ضخيم في حوت حقيقي .

لكن اذهب الى صالات الرسوم القديمة وتأمل صور الرسام المسيحي الكبير لهذا الحوت تجد انه لا يمتاز على الرسام الهندي الذي عاش قبل الطوفان ؛ هنالك ترى صورة رسمها جويدو^٢ لبرسيوس وهو يخلص اندروميذا من وحش البحر او الحوت . من اين حصل جويدو على أنموذج كهذا يمثل مثل هذا الحيوان الغريب ؟ وليست صورة هوجارث^٣ الذي رسم المنظر نفسه في لوحة له تسمى « برسيوس هابطاً » خيراً من صورة جويدو ولا بقدر قلامة ظفر، فان الجسامة

١ هذا خطأ من ملفل، اذ ليس في مغارة الفيلة صورة تمثل تجسد فشنو على شكل ماتسي آفتار.

٢ جويدو ريني (١٥٧٥-١٦٤٢) وكانت الصورة في المتحف الوطني بلندن ولعل ملفل رأها في ١٧ كانون الاول ١٨٤٩ .

٣ وليم هوجارث (١٦٩٧-١٧٦٤) .

الهائلة في ذلك الوحش الذي رسمه هوجارث لتترجرج على السطح وتكاد لا تهزّ مدى بوصة من ماء . ولذلك الوحش شيء كالهودج على ظهره ولو نظرت الى فمه المبطون ذي الناب، والامواج تتدحرج فيه، لحسبته « بوابة الخونة » التي تؤدي من نهر التيمس الى برج لندن في طريق مائي . وهناك حيتان برودرومس التي رسمها سيبالد الاسكتلندي^١ في القديم، وحوت يونان كما تصوره النسخ القديمة من التوراة وكتب المبادئ الدينية القديمة . ماذا نقول في هذه الصور ؟ اما الحوت الذي رسمه مجلد الكتب متعرجاً يلتف كأنه عساليج الكرمة حول عمود مرصاة آخذة بالانحدار - كما يبدو مطبوعاً مذهباً على وجه الورقة الاولى او ظهرها في كثير من الكتب القديمة والجديدة - فانه بالغ الجمال، الا انه مخلوق خرافي محض، قد اقتبس فيما اعتقد عن شبيه له يرسم على الزهريات القديمة . وقد سماه الناس عموماً الدلفين ومع ذلك فاني اعدّ هذه السمكة التي وضعها مجلد الكتب محاولة لتصوير حوت، اذ كانت تلك هي النية عندما وضع الشكل اول مرة، وكان الذي وضعه ناشر ايطالي قديم في القرن الخامس عشر خلال « النهضة العلمية » ، وفي تلك الايام وحتى فترة متأخرة نسبياً كان الناس يظنون الدلفين من فصيلة اللويثان .

وفي رسوم العساليج وغيرها من الزينات التي كانت تزخرف بها الكتب القديمة تلتقي أحياناً بالسمات غريبة جداً تكاد تنقل رسم الحوت ، حيث ترى كل ضروب النفثات وفوارات الماء والحمات والينابيع الباردة ونبعة ساراتوجا ونوافير بادن بادن كلها تتدفق من رأسه الذي لا يعتريه الاعياء . وعلى صفحة العنوان في الم نسخة الأصلية من كتاب « تقدم العلم » تجدد بعض الحيتان العجيبة .

ولكن لتتجاوز هذه المحاولات التي قام بها ناس غير محترفين ، ولننظر الى

١ السير روبرت سيبالد (١٦٤١-١٧٢٢)، تحدث عن الحيتان ولكنه لم يرسم لها صوراً .

صور اللويحات التي قصد منها ان تكون رسوماً رزينة علمية رسمها أناس عارفون. ففي المجموعة القديمة من الرحلات لهاريس بعض لوحات لحياتان انتزعت من كتاب هولندي في الرحلات بتاريخ ١٦٧١ وعنوانه : « رحلة تحويت الى سبتزبرجن » في سفينة اسمها « يونان في جوف الحوت » ، ورسمها هو بيتر بيترسون الفريزلاندي . وتتمثل الحيتان في احدى تلك اللوحات كرمث من الاخشاب مستلقية بين جزر الجليد وعلى ظهورها الحية تجري دببة بيض . وفي لوحة أخرى غلطة كهري هي جعل الحوت ذا ذنب عمودي الشطرين .

وهناك كتاب من قطع الربع فاخر جليل كتبه قبطان اسمه كولنيت ، وكان قبطاناً من بعد في الاسطول الانجليزي ، وعنوان الكتاب : « رحلة حول رأس هورن في البحار الجنوبية من أجل توسيع نطاق مصايد حوت العنبر » وفي هذا الكتاب رسم قصد به ان يكون « صورة للفايستر او حوت العنبر رسم بمقياس رسم عن حوت قتل على ساحل المكسيك ، في شهر آب (أغسطس ١٧٩٣) ورفع الى ظهر السفينة » . ولا ريب عندي في ان القبطان قد أخذ هذه الصورة الحقيقية من أجل ان يفيد بها جنود البحرية ولا أريد ان أذكر عنها الا شيئاً واحداً فأقول : ان فيها عيناً اذا جعلتها - حسب مقياس الرسم المرفق - عيناً لحوت عنبر جسيم ، فكأنما جعلت عين ذلك الحوت نافذة بارزة طولها حوالي خمسة أقدام . آه يا قبطاني الشهم لماذا لم ترسم يونان وهو يطل من تلك العين ؟

وأشد مصنفات التاريخ الطبيعي تحرزاً وتحققاً مما يكتب لفائدة الشباب واليافعين ليست بارئة من تلك الشناعة في الخطأ . انظر ذلك المؤلف المشهور : « الطبيعة الحية لجولدسمث » ففي النسخة اللندنية الموجزة منه التي طبعت عام ١٨٠٧ لوحات من « حوت » مزعوم و « نرول » مزعوم . ولست أحب ان أبدو للناس جافياً ولكن هذا الحوت الكريه المنظر يبدو مثل خنزيرة مبتورة

الاطراف وأما النزول فان المرء اذا التمحه لمحا أدهشه ان يرى الناس في هذا الحيوان الخرافي في هذا القرن التاسع عشر صورة حقيقية يدلّس بها على عقول اي جمهور ذكي من تلامذة المدارس .

وفي عام ١٨٢٥ نشر برنارد جرمين الملقب بكونت دي لاسبيد ، وهو عالم طبيعي عظيم ، كتاباً علمياً منظماً عن الحوت ، وأدرج فيه عدة صور لأنواع مختلفة من اللويثان . وليست هذه الصور جميعاً خاطئة فحسب بل ان صورة السبلحوت او حوت جرينلاند (اي الحوت الاثين) قد قال فيها اسكورسي وهو رجل ذو دربة طويلة في شئون هذا النوع من الحيتان : انها لا يوجد لها نظير في الطبيعة .

ولكن هناك خطأ يقف من هذه الأخطاء كلها موقف التاج المشهر ، وذلك هو ما تورط فيه العالم فردريك كوفيه أخو البارون المشهور ، ففي عام ١٨٣٦ نشر كتاباً في التاريخ الطبيعي للحيتان ، وفيه يعطي ما يسميه صورة لحوت العنبر ؛ ولكن عليك قبل ان تعرض هذه الصورة على احد أبناء نانتوكت ان تتجهز للاختفاء العاجل عن أعين الناس في ذلك البلد . وأنا أقول في ايجاز ان حوت العنبر الذي رسمه فردريك كوفيه ليس حوت عنبر وانما هو صرصر . طبعاً لم يتح له ان يستمد تصوره من رحلة تحويت (وقلما يتاح ذلك لمثل هؤلاء الرجال) ولكن من أين استفاد تلك الصورة ؟ من يدري ! لعله حصل عليها من حيث حصل سلفه دزمارست^١ العالم العامل في هذا المجال العلمي نفسه على احدى مجهضاته الأصلية أعني حصل عليه من رسم صيني ، واذا انت تأملت كثيراً من الفناجين والصحون الشاذة استطعت ان تدرك اي فتیان نشطاء الخيال هم أولئك الصينيون حين يرسمون بالقلم .

١ انسلم جيتان دزمارست (١٧٨٤ - ١٨٣٨) أضاف ملاحظات على كتاب لاسبيد .

وأما الحيتان التي يرسمها رسامو الاعلانات وترى في الشوارع مدلاة فوق أبواب حوانيت الزيّاتين فماذا يقال فيها ؟ تستطيع ان تسميها بعامة حيتان رتشارد الثالث ، فهي ذات حرادب منتحلة ، وهي ايضاً شديدة التوحش ، تفتطر على ثلاث او أربع من « طرطة » البحارة أعني على ثلاثة او أربعة من قوارب التحويت مزودة بملاحيا ؛ وهذه الحيتان المشوهة تكافح مناضلة في بحار من الدم والصبغ الأزرق .

ولكن هذه الاخطاء المتعددة الجوانب في تصوير الحوت ليست غريبة بعد هذا كله . تأمل ! فمعظم الرسوم العلمية نقلت عن أسماك طرحها البحر ، وما وجه الصواب فيها باكثر من وجه الصواب في رسم سفينة محطمة وهي مكسورة الصلب ، فمثل هذا الرسم لا يمكن ان يمثل هذا الجسم النبيل في خيلائه حين يكون هيكله وصواريه سالمة غير محطمة . لقد أمكن رسم الفيلة بكامل خلقتها لانها تلتصّب مائلة أمام الرسام ، فأما الحوت الحيّ فانه لا يعوم مدة تكفي لنقل صورته ، اذ الحوت الحيّ في عظمته الكاملة وجلاله لا يرى في البحر الا في مياه بعيدة الغور فاذا عام كان حجمه الجسم مخفياً عن الانظار كأنه سفينة حربية يغمر الماء اكثر جسمها وبسبب تلك الضخامة استحال على الانسان الى الأبد ان يرفع جسمه في الفضاء بحيث يحتفظ بكل ضروب انتفاخاته الجبارة وتموجاته . ولن أقول شيئاً في البون الشاسع في السعة بين الحوت الصغير الراضع والحوت المكتمل القارح ، ولكن هب أنك رفعت أحد تلك الحيتان الصغيرة الراضعة الى ظهر السفينة ، فانك واجد حينئذ ان شكله غريب كالانكليس لدن متقلب لا يستقر على حال حتى ان الشيطان نفسه لا يستطيع ان يتمثل له صورة دقيقة .

وقد يتوهم بعض الناس ان الهيكل المعروق لحوت طرحه البحر قد يمدنا بلمحات دقيقة عن شكله الحقيقي . وهذا غير صحيح لان من أحد الامور

العجيبة المتصلة بهذا اللويثان ان هيكله لا يعطي عن شكله العام الافكرة
 ضئيلة . انك اذا نظرت هيكل جرمي بنتام^١ معلقاً بدلاً من « الثريا » في مكتبة
 أحد الذين صفوا تركته ، وجدته ينقل بدقة فكرة شيخ مؤمن بالمذهب النفعي
 ضخمة الجبهة ويمثل جميع الصفات الذاتية البارزة الاخرى لدى بنتام ، ولكن لا
 شيء من هذا القليل يمكن استخلاصه من النظر الى عظام حوت بيته المفاصل .
 والحق ان هيكل الحوت مجرداً — كما يقول هنتر العظيم^٢ — يحمل من العلاقة
 بالحيوان اللحم البدن ما تحمله الحشرة من علاقة باليفة التي تغلفها . وتتجلى
 هذه الميزة على نحو لافت في الرأس وذلك ما سأوضحه عرضاً في بعض أجزاء
 هذا الكتاب ؛ وهي تتجلى ايضاً على نحو غريب في الزعنفة الجانبية ، وعظامها
 تكاد تناظر عظام يد الانسان تماماً ، الا ان الابهام فيها غير موجود . فلهذه
 الزعنفة أربع أصابع عظمية منتظمة تقوم فيها كالسبابة والوسطى والخنصر
 والبنصر ، ولكنها جميعاً تظل مكنونة في غطاء اللحمي كأنها أصابع الانسان
 حين تدس في غطاء صناعي . قال اسطوب الفكه ذات يوم : « مهما قدم الحوت
 لنا من خدمات دونما اكتراث فلا يصح ان نقول فيه انه يعالجنا من دون
 قفازات » .

وأياً ما كانت الوجهة التي تنظر منها ، فانك لا بد ان تستخلص لهذه الاسباب
 جميعاً ان اللويثان العظيم هو المخلوق الوحيد في العالم الذي لا بد من ان يظل
 دون ان يرسم الى الابد . حقاً قد تجيء صورة أقرب الى الواقع من صورة اخرى
 ولكن لن تكون هناك صورة تحكي الواقع نفسه بقسط كبير جداً من الدقة .

١ جرمي بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) خلف هيكله لجامعة لندن وكان هو مؤسسها .

٢ هو الدكتور جون هنتر (١٧٢٨ - ١٧٩٣) وقد كتب مقالة عن تركيب الحوت
 . (١٧٨٧) .

ليست هناك طريقة على الارض تسعفك على ان تجد بدقة كيف يكون شكل الحوت ولعلّ الطريقة الوحيدة التي بها تستمد فكرة مقبولة عن سعته واستفاضته هي ان تذهب انت نفسك محوّا . غير أنك ان فعلت ذلك لم تكن مجازفتك ميسورة لانها قد تؤدي بك الى ان يمزقك ويفرقك ومن ثمّ كان عليك فيما يخيل اليّ ان لا تكون متعنّتا في تطلعك وتشوفك الى هذا اللويثان .

صور للحيتان اقل اخطاء وصور صحيحة لمشاهد التحوير

أحسن باغراء قوي - كلما خطرت لي الصور المغلوطة للحيتان - الى ان اخوض غمار الحكايات المشوهة الخاطئة التي تروى عن الحيتان في بعض الكتب قديمها وحديثها، وخاصة ما أورده بلييني وبرخاس وهكلويت وهاريس وكوفيه ومن لف لفهم . لكنني لن انقاد لهذا الاغراء .

لا اعرف إلا اربعة كتب موجزة منشورة تتحدث عن حوت العنبر العظيم هي : كتاب كولنت وكتاب هجنز وكتاب فردريك كوفيه وكتاب بيل ؛ وقد أشرت في الفصل السابق الى كولنت وكوفيه ؛ وها هنا أقول ان كتاب هجنز خير من كتابيهما، غير ان كتاب بيل هو خيرا جميعا، وكل رسومه للحوث جيدة الا الشكل الاوسط في صورة الحيتان الثلاثة في مواقف متنوعة، وهذا الشكل يقع في رأس الفصل الثاني . ثم ان الصورة التي وضعها على الصفحة الاولى وهي تمثل القوارب في هجومها على حيتان العنبر، صحيحة ذات شبه بالواقع في تأثيرها العام ، وان قدرت كذلك دون ريب لتثير الريبة المهذبة في بعض رجال الصالات . وبعض صور حوت العنبر في كتاب ج. روس براون جيدة الدقة في محيطها وسعتها إلا انها قد أثبتت في وضع كئيب ولا يعد براون نفسه مسئولاً عن هذا الخطأ .

وخير الصور الاجمالية للحوت، الاثني موجودة في كتاب اسكورسي، الا ان مقياس الرسم فيها صغير جداً بحيث تعجز عن ان تترك انطباعاً مرغوباً، وليس لديه من مشاهد التحويت الا صورة واحدة وهي مثال للعجز والنقصان اذ من هذه المناظر وحدها، اذا أجيد تصويرها، يستطيع المرء ان يستمد شيئاً يشبه الفكرة الصحيحة عن الحوت الحي كما يراه صيادوه الاحياء .

واجمل الرسوم التي نجدتها للحيتان ولمشاهد التحويت، اذا نحن اعتبرناها جملة واحدة، وان لم تكن في بعض دقائقها أدق من سواها، نقشان فرنسيان كبيران جيدان في الاخراج، منقولان عن رسمين وضعهما شخص اسمه جارنري، والاول منها يمثل هجوماً على حوت العنبر والثاني هجوماً على الحوت الاثني . ويظهر في النقش الاول حوت عنبر جليل قد صور في كامل فخامته وجبروته وقد ارتفع تحت القارب من اعماق المحيط، واعتلى يحمل في الفضاء فوق ظهره حطام الالواح المهشمة . وقد ظلت مقدمة القارب في بعض اجزاها سليمة لم تحطم، ورسمت وهي تحط على صلب الوحش ؛ ويقف في المقدمة اثناء تلك اللحظة الحاطفة العابرة احد المجدفين وقد تغلف نصفه بالنفثات الساخنة الهابطة التي يطلقها الحوت وهو على أهبة ان يثب كأنه على شفا الهاوية . وقد نقلت الحركة في هذا المنظر كله نقلاً جيداً صحيحاً يملك العجب . أما برميل الحبل الذي اصبح نصفه فارغاً فانه رسم عائماً فوق المياه المبيضة، واما القنوات الخشبية التي كانت الحراب الناصلة مغروزة فيها فانها تغزل مواربة في الصورة . وأما رموس الملاحين الساجين فانها مبعثرة حول الحوت وعليها تعبيرات من الفرع عجيبة المفارقات ، بينا السفينة في تلك المسافة السوداء العاصفة قادمة لتدخل المشهد . وقد تجدد خطأ فادحاً في الدقائق التشريرية لهذا الحوت ولكن تجاوز عن هذا فاني أقرّ بانني لعمرى عاجز عن ان ارسم صورة جيدة مثل هذه الصورة .

وأما في النقش الثاني فإن القارب ذاهب ليقترّب من الجانب الحلزوني لحوت
اثنين ضخّم منزع في جريه ، وهو يدحرج ضخامته المكسوة بالأعشاب في الماء
كأنه صخرة مكسوة بالطحلب تتدحرج عن سفوح بتاغونيا . ونفثاته قائمة
مكتنزة سوداء كأنها السناج ، حتى أنك لتظن وانت تنظر دفعات الدخان
صاعدة من المدخنة ان هناك عشاءً كبيراً يطبخ في تلك الاحشاء . وقد حطت
طيور البحر تنقر بمناقيرها السرطانات الصغيرة والمحارات وغيرها مما يقدمه البحر
من حلويات ومعكرونة ، ويحملة الحوت الاثني احياناً على ظهره الموبوء . واثناء
ذلك كله ترى اللويثان الشنفري يندفع خلال الماء ، تاركاً اطناناً من الزبد الابيض
المتلاطم المتخثر في مخره ، فيجعل القارب الصغير الحقيير يتأرجح بين التمعجات
كأنه « اسكفة » علقت عند الدواليب البدالية في باخرة محيطية . وهكذا ترى
ان القسم الامامي من المشهد حافل بالاضطراب الهائج . ومن المفارقات الفنية
المعجبة ان القسم الخلفي سطح مائي هادئ مستوٍ كأنه لوح زجاجي ، ترى فيه
السفينة الخائزة وقد تهدلت اشروعها المسترخية ، وترى كتلة هامة من حوت
ميت ، قلعة استسلمت ، وراية الاستسلام ترفرف مخذولة فوق عصاها التي اثبتت
في وقب النفثة .

لست أدري من كان جازنري الرسام او من يكون ولكنني اشهد بأنه كان
على معرفة الخبير بالموضوع فان لم يكن كذلك فقد علمه واحسن تعليمه حوات
خبير . للفرنسيين حظ التفوق في الرسم . اذهب وتأمل جميع الرسوم في اوروبة
فإن تجد مثل تلك الصالة من الحياة النابضة المتحركة على اللوحات إلا ان تكون
تلك الصالة الباهرة في فرساي ؟ هنالك يشق المتفرج طريقه مبهوراً لاهثاً بين
معارك فرنسا العجاسة حيث كل سيف يبدو ومضة من الاضواء الشمالية ، والملك
والاباطرة الدارعون يتوالون منقضين كأنهم ثلة مندفعة من حيوانات القنطورس
المتوجة . وفي تلك الصالة تستحق المعارك التي رسمها جازنري ان تجد لها مكاناً .

ان كفاية الفرنسيين في استشفاف جمال الاشياء وروعيتها لتتجلى على وجه الخصوص في الرسوم والنقوش التي مثلوا فيها مشاهد التحويت، هذا مع انه ليس لديهم عشر خبرة الانجليز في صيد الحيتان، ولا واحد في الالف من دربة الامريكيين؛ ومع ذلك فانهم زودوا هذين الشعبين بالرسوم الوحيدة التي تستحق ان توصف بنقل الروح الصحيحة لمناظر الحيتان . أما رسامو الحوت من الانجليز وامريكيين فانهم في معظم الامر يكتفون اكتفاء تاماً فيما يبدو بنقل الحدود الآلية للأشياء كأن يرسموا المنظر الجانبي للحوت فارغاً . وهذا امر يبلغ ان يشبه، اذا أنت اعتبرت روعة التأثير، رسم منظر جانبي للهرم . حتى اسكورسي وهو الخبير المشهور عن جدارية في شئون الحوت الاثني بعد ان قدم لنا صورة جاسية كاملة لحوت جرينلاند ، وثلاث صور او اربعاً مصغرة مرهفة للنزول والهبوز عاد يعرض علينا سلسلة من الرسوم الكلاسيكية تمثل صنارات القوارب وسكاكين الفرم والكلايب، ثم وضع تحت انظار عالم يرتعش من البرد ستة وتسعين أنموذجاً طبق الاصل من بلورات ثلج المنطقة القطبية في وضع مكبر مستعيناً في ذلك بدقة المجهري؛ ولست أقصد الى ان أستخف بهذا الرحالة الفذ (فأنا احترمه لحنكته وخبرته) ولكنه في مثل هذا الامر المهم سها عن ان يحصل لكل بلورة ثلجية على شهادة موثقة بيمين معتمدة أمام محكمة السلام في جرينلاند .

وهناك نقشان فرنسيان آخران يستحقان التنويه، سوى ذينك اللذين رسمهما جارنري، وقد صنعها شخص وقّع تحتها باسم «ه. ديران». وأحد هذين النقشين لا ينضوي تحت غايتنا في هذا المقام، إلا أنه يذكر لاسباب اخرى، فهو صورة مشهد هادىء في الظهيرة بين جزر المحيط الهادي، وقد أرست حوالة فرنسية على الشاطئ، في جو ساكن وأخذت تتزود بالماء في تراخٍ وكسل واشرعتها مرخاة، ووراءها نخسلات تهدلت اوراقها الطويلة، فالسفينة والنخلات جميعاً منعنية مسترخية في الجوى الساكن . والمنظر اثر جميل اذا اعتبرناه يوحى بتمثيل حال الصيادين الاشداء في أحد مشاهد الاستجمام الشرقي، وهو شيء نادر في

حرفتهم . اما النقش الثاني فيمثل شيئاً مختلفاً : يمثل السفينة في حال توقفها في صميم الحياة التحويلية وقد جنببت اليها حوتاً أثيناً، وبدت السفينة (في حال استئناف السير) وهي تتناول مشرفة على الوحش المجنب كأنها تشرف على ميناء . وفي الصورة قارب يندفع مسرعاً مبعداً عن هذا المنظر الحيّ على أهبة ان يطارد حيتاناً اخرى بعيدة ، وقد سددت الرماح والحراپ وجعلت معدة للاستعمال ، وأخذ ثلاثة من المجذفين يركزون الصاري في الثقب ، وتدحرجت فجأة امواج لطمت القارب فجعلته يقف منتصباً بعض انتصاب على الماء كأنه حصان حرون يرفع يديه في الهواء . ومن السفينة يتصاعد دخان العذاب الذي يقاسيه الحوت الفائر ، كأنه دخان قرية من مصانع الحديد ؛ وقبالة المهب تنشأ سحابة سوداء تحمل نذر الحاصب والمطر ، فتزيد - فيما يبدو - في حيوية الملاحين الهائجين .

الحيتان كما تتمثل في الألوان وفي الاسنان وفي الخشب وفي صفائح الحديد وفي الجهر وفي الجبال وفي النجوم

لملك حين تنحدر نحو دور الصناعة بلندن قد رأيت على تلة البرج شحاذاً مقعداً (او كاجاراً كما يقول البحارة) ، يمسك امامه لوحة مرسومة تمثل المنظر المؤسّي الذي فقد فيه رجله . وفي الصورة ثلاثة حيتان وثلاثة قوارب ، وأحد القوارب (ويفترض انه يحتوي الرجل المفقودة كاملة) قد وضعه العض من فكي الحوت الامامي . وقد خبّرت ان هذا الرجل دأب على ان ينصب تلك اللوحة كل حين على مدى عشر سنوات ويعرض ذلك الجذم على عالم قليل التصديق . ولكن آن أو ان انصافه وتصديقه فان الحيتان الثلاثة جيدة الرسم كأني حيتان رسمت ونشرت في وبنج ، على أي تقدير . وجذمه كأني جذم آخر يقيني تراه من الجذوع المقتلعات في الغرب ، ومع ان الحوات المسكين يعتلي أبد الدهر ذلك « الجذم » فانه لا يتخذ منهبراً للخطابة ابداً وانما يقف حزيناً أسيان بعينين خفيضتين يتأمل ما أصابه من بتر .

وقد تمر خلال الباسيفيكي ونايتوكت ايضاً ونيوبدفورد وميناء ساج على رسوم حية تمثل الحيتان ومناظر صيدها حفرها الصيادون انفسهم على انياب حوت العنبر او على « مشدات » السيدات المصنوعة من عظام الحوت الاثين وامثالها من تلك الطرف الصغيرة العديدة التي ينحتها البحارة بعناية من المسادة الخام وهم في ساعات الراحة في عرض المحيط ويسمونها Skrimshander .

ولدى بعضهم صناديق صغيرة فيها أدوات تشبه أدوات اطباء الاسنان، خاصة بهذا النوع من التلهي . ولكنهم على وجه العموم يكبدون مستعملين مداهم وحدها، وهم بهذه الاداة التي تكاد تكون قادرة على كل شيء يشكّلون لك ما تريد ويخرجونه على النحو الذي يتصوره خيال البحّار .

ان طول البعاد عن دنيا المسيحية وعالم الحضارة يرد المرء حتماً الى الحال التي أوجده الله فيها أعني ما يسمى حالة البداوة الهمجية . فالحوات الحق لا يتميز في همجيته عن البدائي الايروقوي . وأنا نفسي همجي لا أدين بالولاء إلا لسلطان آكلي لحوم البشر، مستعد في كل لحظة لان أثور على ذلك السلطان .

ومن أخص خصائص الهمجي اثناء وجوده في منزله صبره العجيب على الصناعة . فهراوة الحرب الهواوية القديمة او كعوب الرماح فيما يضاف اليها من نقوش وحفر كثير متشعب محكم يعد كل منها نصباً يخلّد فضيلة الصبر الانساني، كما يخلّدُها معجم لاتيني . اذ ان تلك المنعرجات الدقيقة المتشابكة المتشاجرة من الحفر على الخشب قد تمت بشظية من محارة بحرية مكسرة او بسنّ سمكة القرش، وكلّفت سنوات من الدأب الدائب والانحاء المستمر .

والهمجي الابيض - أعني البحار - شبيه بالهمجي من أبناء هواي فهو يتمتع مثله بالصبر العجيب ، وبصبره هذا وبناب قرش واحد ، وباستعماله مديته البائسة الوحيدة تراه يحفر لك قطعة من تمثال عظمي ، مفعمة بالتعرجات المتشابكة في رسمها كأنها درع ذلك الهمجي الاغريقي ، أخيل ، وان لم تكن مثله اتقاناً ، وتجيء حافلة بالروح والايحاءات البربرية كأنها رسوم ذلك الهمجي الهولندي الظريف البرت دورر .

وكثيراً ما يصادف المرء في منارات الحوات الامريكية حيتاناً خشبية او

حيثاناً شكّل منظرها الجاني من لوحات صغيرة قائمة تؤخذ من خشب حربي متين يوجد في البحار الجنوبية . وبعضها ذو حظ غير قليل من الدقة .

وقد ترى في بعض البيوت الريفية ذات السقوف المسنمة حيثاناً من نحاس معلقة من أذناها تتخذ مقرعة للابواب الشارعة على الطريق . فاذا كان البواب نائماً كان ذلك خيراً للحوت ذي الرأس السندانى . غير ان حيثان المقارع هذه قلما تكون صوراً أمينة للأصل . وقد ترى على منائر بعض الكنائس ذات الطراز القديم حيثاناً من صفائح الحديد موضوعة هنالك لتدل على وجهة الريح ، ولكنها بعيدة في ارتفاعها وكأنا قد كتب عليها ايضاً تحاشياً لكل غاية او غرض : « اللس ممنوع » ولذلك فانك لا تستطيع ان تتفحصها عن كثب وتحكم بمدى دقتها .

وفي مفاصل الحزان المضلعة حيث تلتثر عند قواعد الهضاب العالية المشققة كتل من الصخر وتكوّن على السهل رجعات جميلة خلافة ، كثيراً ما تقع العين على صور تشبه أشكال اللويثان المخططة وقد غاب بعضها بين العشب ، فاذا كان يوم عاصف تكسر العشب من حولها أمواجاً من الزبد الاخضر .

وفي البلاد الجبلية حيث ما يزال المسافر يتمنطق بمرتفعات تستدير من حوله كأنها مسرح روماني تستطيع ان تلمح العين هنا وهناك اذا وقعت في صعيد مناسب لمحات عابرة تمثل مناظر جانبية من حيثان شاخصة على طول السلاسل الجبلية المتموجة . ولكنك لا بد ان تكون حواتاً أصيلاً كي تتمكن من تحقيق هذه المناظر ، بل لا بد لك ايضاً اذا شئت ان تعود الى ذلك المنظر ثانية من ان تتخذ الوقفة نفسها في الموقع الاول نفسه لان هذه الملاحظ عبر التلال عابرة خاطفة حتى ان وقفتك الاولى لتتطلب عناءً بالغاً لاستكشافها والتثبت منها ،

كأنها جزائر سولومه التي ما تزال غير مستتبثة وان وطئتها ذات مرة قدما
مندانا ذي الجيد الأتلع وسجلها قلم فجويرا الشيخ في القديم .

فاذا حلت بك موضوع الحيتان في أجواز الفضاء لم تعجز عن ان تسبين
حيتانا عظيمة في السماء ذات الحبك ، والقوارب تتبعها مطاردة مثلما ان
الاقوام الشرقية لطول ما امتلأت نفوسها بالتفكير في الحروب كانت ترى
جيوشا مشتبكة في ميدان القتال بين السحب ؛ وقد رأيت انا في الجهة الشمالية من
الافق حوتا وطاردته حول القطب ورأيت دورات النقاط اللامعة التي صورته
لعيني اول مرة . وتحت سماء القطب الجنوبي المتلألئ دنوت من كوكب « السفينة »
وشاركت في مطاردة « كوكبة القاطوس » المتلألئة بالنجوم وراء أقصى ما يمكن
ان تمتد اليه « حية البحر » و « السمكة الطائرة » - سمكة الخطاف .

وليتني اتخذ من مراسي الفرقاطة حركاتٍ لجامي ، وأجعل مهازي حزمة
من حراب وأمتطي ذلك الحوت وأثب به نحو كبد السماء لأرى ان كانت
السموات التي يحكون لنا عنها وعن طباقاتها العديدة تقع حقيقة وراء ما يدركه
بصري البشري الكليل .

القشريات

بعد ان أبحرنا الى الشمال الشرقي من جزائر كروزيت وقعنا في مروج مترامية تقطنها القشريات ، وهي تلك المادة الدقيقة الصفراء التي يفتذي بها الحوت الاثين في الاكثر . وكانت تتموج من حولنا على مدى فراسخ و فراسخ حتى كأننا كنا نبحر خلال حقول مديدة من السنابل الذهبية الصفراء .

ورأينا في اليوم الثاني أعداداً من الحوت الاثين ، تسبح فاعرة الأفواه في استرخاء خلال القشريات ، اذ كانت بمأمن من هجوم حوالة كالباقوطة هدفها صيد حوت العنبر دون سواء ؛ ولما كانت القشريات تلتصق بالألياف المهدبة في تلك « الستارة البندقية » العجيبة في أفواه الحيتان فان الماء وهو يمر عند الشفتين لم يكن يلامسها .

وكانت تلك الوحوش الأثينية تعوم محدثة أصواتاً غريبة كأصوات المناجل في الحشيش مخلفة وراءها شمالات لا نهاية لها من الزرقة على سطح البحر الاصفر . حتى كأنها حصادون بكروا للحصاد ووقفوا جنباً الى جنب وأخذوا في تؤدة وإصرار يدفعون مناجلهم خلال الحشيش الطويل البليل في مروج رطبة نشاشة* .

* ان ذلك الجزء من البحر ويعرف بين الحواتين باسم « ضفاف البرازيل » لم يسم كذلك كما سميت « ضفاف نيوفوندلاند » بهذا الاسم لوجود مواقع ضحضاحة ، وأعماق غير بعيدة هنالك . وانما دعي بذلك لهذا المظهر الذي يشبه المرج وهو ناشئ عن منجرفات هائلة من القشريات تظل تعوم في تلك العروض حيث الصيادون كثيراً ما يطاردون الحوت الاثين .

ولم يكن فيها ما يذكر المرء بالحصادين سوى ذلك الصوت الذي كانت تحدّثه وهي تشق مروج القشريات . أما اذا رآها المرء من قمم الصواري وبخاصة وهي متلبّثة ساكنة لفترة من الزمن فانه يحسب أشكّالها السوداء المستفيضة كتلاً من الصخور الجامدة ، لا أي شيء آخر . ومن رأى فصائل هذا اللويثان في البحر اول مرة ، كان كالغريب الذي يحبب مناطق الصيد العظيمة في الهند فانه احياناً قد يمر عن بعد بالفيلة مستلقية دون ان يميزها بل يحسب انها أكوام شاخصة مسودة من التراب . واذا أدرك المرء حقيقتها في النهاية لم يكذب يصدق وهو يراها في هذه الجسامة الهائلة ان عنصر الحياة في جميع أعضائها هو نفس عنصر الحياة التي فطر عليها الكلب او الحصان .

ثم انك من بعض النواحي الأخرى لا تستطيع ان تواجه أية مخلوقات بحرية بالمشاعر عينها التي تواجه بها مخلوقات البر . نعم ذهب بعض علماء التاريخ الطبيعي القدماء الى ان لكل مخلوق على البر صنواً في البحر ، والحق أيضاً انك اذا شملت بنظرك المخلوقات في العالمين البرّي والبحري وجدت هذا الرأي صحيحاً في مجمله ، ولكنك اذا أخذت تتأمل التفصيلات ألفت الامر مختلفاً . هل يستطيع البحر ان يدعي بأن لديه سمكة صنواً في وداعتها الواثقة للكلب ؟ ان القرش وحده هو الذي يشبّه بالكلب في الخلقة ، ولكن اي شيطان مريد هو !

وابن البرّ بعامة يلحظ قطّان البحر بعين ملؤها التكره والنفور . ونحن نعلم كذلك ان البحر « ارض غفل أزلية مجهولة الهوية » ، حتى ان كولومبس لم يعنَ باكتشافها بل تجاوز في ابحاره عوالم مجهولة منها لا تحصى عدداً من اجل ان يكتشف البرّ الغربي التافه الذي كان مجهولاً . ثم ان أشد الكوارث المفزعة التي وقعت للانسان منذ أقدم الازمان ، وكأنما كانت خبط عشواء ، قد أصابت من يركبون البحر عشرات الالوف او مئات الالوف . وكفى بلحظة من التأمل لتدلنا على ان هذا الانسان الصغير ، مهما يتبجح بعلمه ومهارته ، ومهما يزدد

حظه منها في مستقبل مرجو ، سيظل الى الابد ودهر الداهرين مهيناً ضعيفاً يهينه البحر ويقتله ويسحق أفخم فرقاطة وأصلبها من صنع يديه . ومع ذلك كله فان تكرار هذه الامور باستمرار جعل الانسان يفقد إحساسه برهبة البحر الكاملة ، تلك الرهبة التي تقترن باسم البحر منذ بدء البدء .

وأول سفينة قرأنا عنها إنما عامت على صدر طوفان - بحرٍ محيطٍ - أغرق عالماً كاملاً - كأنما يفتقم انتقاماً برتغالياً - دون أن يبقي على أرملة واحدة ، وما زال ذلك المحيط يهدر حتى اليوم ، وهو هو الذي حطم سفن العام المنصرم . أجل ايها الأحياء المحقى ان طوفان نوح لم يغض ؛ فما يزال يغطي ثلثي هذا العالم الجميل .

بأي شيء يفترق البحر عن البر حتى ان المعجزة على احدهما لا تعد معجزة في الآخر ؟ : ضروب الرعب الخارق حلست بالعبريين حين فتحت الارض فاها تحت قدمي قورح وصحبه وابتلعتهن الى الابد^١ . وها هي الشمس لا تغرب اليوم دون ان يبتلع البحر سفائن وملاحيهما على النحو نفسه ، ثم لا يقال : هذه معجزة !

لا عجب ان يكون البحر عدواً للانسان فان الانسان أجني عنه ولكن ماذا تقول اذا عرفت انه شيطان مريد في معاملته لنسله وأبناء صلبه : هو أسوأ من المضيف الفارسي الذي ذبح ضيوفه أنفسهم^٢ ؛ فهو لا يوفر الخلوقات التي تنتج فيه . البحر كأنثى النمر الضارية ، هي تدوس أبناءها وتكفأهم اذ تتقلب في الغاب ؛ وهو يدفع بأقوى الحيتان نحو الصخور ويتركها لقي إلى

١ انظر سفر العدد : ١٦ .

٢ الإشارة غير واضحة الدلالة ، فلا نعرف من هو هذا المضيف الذي يتحدث عنه ،

جانب حطام السفن المتناثرة . لا رحمة لديه ولا قوة تضبطه الاقوته ؛ البحر الشامس يغمر الارض لاهثاً ناخراً كأنه جوادٌ حَرْبٍ هائجٌ مجنون قد تجندل عنه فارسه .

ثم تأمل مكر البحر ودهاءه : معظم مخلوقاته المخوفة تنساب تحت الماء ، غير ظاهرة في اكثر الاحوال ، مستخفية استخفاء الماكر الرواغ تحت أجمل صبغٍ من اللون اللازوردي . وتأمل ايضاً اللألاء والجمال الشيطاني لدى كثير من فصائله التي تعدت أشدها قسوة ، شأن كثير من فصائل القرش ذات الاشكال الانيقة المبرقشة . ثم تأمل كرة أخرى القرم العام في البحر لأكل اللحوم فكل مخلوقاته يتفارسن ويخضن فيما بينهن معركة أزلية منذ بدء الخليقة .

تأمل كل هذا ثم اعطف البصر نحو هذه الارض الخضراء الوديعه الطيبة اللينة . تأملها كليها أعني البحر والبر ، ألا ترى فيها شيئاً غريباً لشيء مستقرٍ في نفسك ؟ اذ مثلما ان هذا المحيط المهول يحفّ بهذا البرّ الأخضر كذلك فان في روح الانسان جزيرة حافلة بالسلام والبهجة - كأنها تاهيتي - ومحفوفة بمربعات هذه الحياة التي لم تكد تنجلي لنا . رعاك الله ! لا تغادر تلك الجزيرة فانك ان غادرتها فلن تعود اليها ابداً !

١ السبيرج

خاضت الباقوطة مروج القشريات في أناة وتؤدة، جاعلة طريقها في اتجاه شمالي شرقي نحو جزيرة جاوة ؛ والنسيم العليل يحتثها ، فتهايل صواربها الثلاثة السامقة في تلك السكينة الشاملة، في لطف ودعة تحت لمسات النسيم الواهن، كأنها ثلاث فخلات وديعات في بسيط من الارض . وخلال فترات متباعدة في الليالي المقمرة كانت النفائة المتوحدة الغرارة ما تزال تستبين .

ولكن ذات صباح أزرق شفاف وقد غشى البحر سكون يكاد يتجاوز المهود دون ان يكون مصحوباً بركود فاتر، وومض الشمس اللامع في الامواه كأنه اصبع ذهبية ممدودة تتلمس المتعة في تحسس خبايا الماء، والامواج المنتعلة تتهامس فيما بينها وهي تمشي في رقة ونعومة ، في تلك الهدأة العميقة التي رانت على الكون المنظور لاح لعيني دغّة وهو في قمة الصاري الاكبر صولجان عجيب الشان .

برزت على البعد في استرخاء كتلة ضخمة بيضاء، وارتفعت واشتد ارتفاعها، وتخلصت مما أحاط بها من لون لازوردي، والتمعت أخيراً أمام سفينةنا كأنها واجهة ثلجية انزلقت لتوها من المرتفعات . وتوهجت لحظة ثم انكمشت في بطاء

وغطست في الماء. ثم برزت مرة أخرى ولمعت في سكون، وبدأت كأنها ليست حوتاً إلا أن دغة قال في نفسه : أهذا هو مويي ديك ؟ وغاص ذلك الشبح مرة أخرى ، غير أنه حين تبدى ثانية صاح الزنجي صيحة كأنها الخنجر المستطيل أفزعت كل امرئ من غفوته وهو يقول : « هناك ! هناك أيضاً ! هناك يتبدى ! أمامنا تماماً ! الحوت الابيض ! الحوت الابيض ! »

وحين سمعها البحارة اندفعوا نحو سواعد الدعامات ساندات الأشعة مثلاً تندفع النحل في موسم الاشتيار نحو الأغصان . ووقف آخاب تحت وهج الشمس اللاذعة مكشوف الرأس عند الدقل الامامي المائل وقد دفع إحدى يديه الى الوراء على أهبة تحريكها بالأوامر لقيم الدفة، وحدث بنظرته اللاهفة في الاتجاه الذي عيّنه دغة في الاعالي بذراعه الممدودة الثابتة .

أترى بروز تلك النفثة الوحيدة المتوحدة تبعاً قد فعل فعله في نفس آخاب تدريجياً حتى لم يستغرب اللطف والدعة في منظر ذلك الحوت الذي كان يطارده حين لاح لعينيه ؟ أترى خائنته لهفته ؟ أياً كان الامر فإنه ما كاد يستبين تلك الكتلة البيضاء حتى ذهب في حماسة عجيلى يلقي أوامره بانزال القوارب تراً .

وسرعان ما كانت القوارب الاربعة فوق الماء، وآخاب في المقدمة، والجميع يجذفون مسرعين لادراك الطريدة . وسرعان ما غطست الطريدة في الماء، فتوقفت مجاذيفنا هنيهة ونحن نرقب عودتها ؛ مه ! في نفس البقعة التي غطست فيها برزت مرة أخرى في بطاء. ومرت بنا لحظة كدنا نذسى فيها كل الخواطر عن مويي ديك ، وحدقنا في أغرب ظاهرة جلاها البحر الخفي لعين بشر حتى ساعثنى . على الماء كانت تعوم كتلة مديدة هلائية تبلغ عشرات الیاردات طولاً وعرضاً، ذات لون ذي تبريق كأنه الزبدة، وقد تفرعت من وسطها أذرع طويلة لا تحصى، وهي تتمعج وتتولى كأنها عش فيه شعابين الانكونه، وكأنها تحبب

خبط عشواء لتمسك بأي شيء يصادف ان يكون في متناولها . وليس لها وجه واضح الملامح او مقدم ، ولا فيها أمانة محسوسة تدل على ان لها احساساً او غريزة ، وانما هي تتموج فوق اللجج كأنها طيف من شيء حي ، لا شكل له ، شيء لا ينتمي الى احياء هذه البسيطة وانما وقع بينها وقوع المصادفة العارضة .

واختفت مرة اخرى ببطء في صوت كأمتهلك الضرع ، وكان استاربك ما يزال يحرق في الامواه المهتزة حيث غاصت ، فصاح بصوت غريب : « أكاد أوثر أنني رأيت موبي ديك وحاربتة على ان اكون رأيتك ايها الشبح الابيض ! »

فقال فلاسك : « أي شيء هو هذا يا سيدي ؟ »

— « هذا هو السيدج الحي الهائل الذي يقولون فيه : ما اقل السفن التي شاهدته وكتب لها ان تعود الى مواسمها لتحدث عنه » .

أما آخاب فلم يقل شيئاً ، وأدار قاربه وعاد الى السفينة وتبعه الآخرون في صمت كصممه .

مهما يكن شأن الاساطير التي يقرنها صيادو حوت العنبر عموماً بمنظر هذا المخلوق فمن المستيقن ان ما يلحونه لحماً من شذوذ في تكوينه قد أثر في نفوسهم تأثيراً بعيداً حتى نسبوا اليه الارهاص بالويل والشؤم . وهو قلما يبدو للعيان حتى انك قلما تجد بينهم من لديه سوى أشد التصورات غموضاً حول طبيعته وشكله ، وان كانوا — وحداناً ومحتمعين — يصرون بأنهم أضخم ذي نسمة في قطآن المحيطات . وعلى رغم ذلك تجدهم يعتقدون انه الغذاء الوحيد الذي يقتات به حوت العنبر . الحيتان الأخرى تجد غذاءها فوق سطح الماء فيراها الناس وهي تتناول طعامها ؛ إلا حوت العنبر من بينها فانه يصيب

طعامه في مناطق مجهزة تحت سطح الماء ، ولا أحد يستطيع ان ينسب من اي شيء يتألف غذاؤه الاستنتاج ، واذا اشتدت عليه وطأة المطاردة أحياناً تقيأ ما يظن انه أشلاء من أذرع السبيدج ، وبعضها يبلغ طوله ما يزيد على عشرين قدماً وعلى ثلاثين . وهم يتوهمون ان الوحش الذي له مثل هذه الأذرع يتشبث بها ممسكاً قاع البحر وان حوت العنبر على خلاف الانواع الاخرى مزود بأنياب تمكنه من مهاجمة ذلك الوحش وتمزيقه .

ولا بأس على من تصوّر ان الكراكن الضخم الذي ذكره الاسقف بونتوبودان^١ قد يكون هو السبيدج . فالاسقف يقول في وصفه له انه يراوح بين البروز والغوص ؛ وهذا الذي قاله مع دقائق أخرى أوردها ايضاً تجعل وجه الشبه بين الاثنين كاملاً ؛ غير ان من الضروري ان تخفف من غلوه في تقدير حجمه الموهول فان ما ذكره يجاوز حد التصوّر والتصديق .

وقد سمع بعض علماء التاريخ الطبيعي على نحو مبهم شائعات عن هذا المخلوق العجيب الذي تحدث عنه ها هنا فأدرجوه في صنف سمك الحبّار ، وهو حقاً ينتمي الى هذا الصنف فيما يبدو اذا اعتبرنا بعض المناحي الظاهرية فيه ، ولكننا ان عددناه في تلك القبيلة وجب علينا ان نعدّه وحده « جبارها » العملاق .

١ لهذا الاسقف كتاب عنوانه « تاريخ النرويج الطبيعي » (١٧٥٢ - ١٧٥٣) يصف فيه الكراكن فيقول ان ظهر هذا الحيوان او الجزء العلوي منه يبدو وكأن يحيطه ميل ونصف ميل (وبعض الناس يؤكدون انه اكثر من ذلك) فاذا لاح لك لاول وهلة حسبته مجموعة من جزر صغيرة محفوفة بشيء عائم كأنه اعشاب بحرية ... الخ .

حبل الصيد

بعد قليل أصف مشهداً من مشاهد التحويت، ومن أجل ان يحسن القارىء فهم هذا المشهد وما اشبهه من مشاهد، سأحدث عنها في مواضع اخرى من هذا الكتاب، أرى ان احدث في هذا المقام عن هذا الحبل السحري، حبل التحويت الذي يكون احياناً مفزعاً .

كان الحبل الذي يستعمل في السماكة اصلاً يصنع من خير أصناف القنب، وقد غُبِرَ ببخار القار دون ان ينقع فيه مثلما تعالج الحبال العادية . حقاً ان القار اذا استعمل استعمالاً عادياً يجعل القنب ألين مراساً لدى الحبال، ويجعل الحبل نفسه أصحح لدى البحار في شئون الملاحة العامة ، ولكن غمس الحبل في القار يلبس حبل التحويت فيتعسر لفه لفاً دقيقاً، وهو ما لا بد للحبل ان يؤديه . وقد يمنح القار للحبل لمعاناً وإحكاماً في الجدل، ولكن معظم البحريين اخذوا يدركون انه بعامه لا يزيد شيئاً في قوة الحبل او في طاقته على البقاء ابدأ .

وفي السنوات الاخيرة كاد حبل مانىلا ان يحلّ في السماكة الامريكية محلّ القنب في صنع حبال التحويت . وحبل مانىلا أقوى وأشد نعومة ومرونة من القنب وان لم يكن مثله في طول العمر . وأحب ان ازيد على هذا بأنه اجمل وألئق بالقارب من القنب (ولا بدع في قولي «أجمل» ففي كل شيء عنصر جماليّ) . فالقنب قاتم معتم يشبه ان يكون هندياً أما « المانىلا » فانه اشقر الخصلات كأنه قفقاسي .

ويبلغ حبل التحويت في سمكه ثلثي بوصة ، وقد لا تظنه لاول وهلة قويا
حسبا هو حقا ، فاذا اختبرته وجدت كل طاقة من طاقاته الاحدى والخسين
تحمل وزنا يبلغ مائة وعشرين رطلا ؛ فالحبل المبروم يتحمل شدا يوازي ما
يقرب من ثلاثة أطنان . أما طول الحبل العادي من حبال صيد حوت العنبر
فانه يزيد على مائتي باع . وعند كوثة السفينة يلف حلزونيا في البرميل لا كما
يلتف انبوب التقطير لولبيا متعرجا ، بل بحيث يصنع لفافة واحدة في شكل
كتلة دائرية من الجبن ذات طبقات مبسوطة او حلزونية متراكبة متحدة في
المركز ، ليس فيها تجويف الا في « قلبها » ، او يكون في محور رحاها انبوب
دقيق عامودي . وأقل تشويش او التواء في اللف قد يذهب عند ارسال الحبل
بذراع هذا او رجل ذاك او جسمه كله لا بحالة ، ولذلك تبذل اقصى الحيلة في
ايداع الحبل في البرميل حتى ان بعض الرماحين ينفقون غداة كاملة في هذا
الشأن ، فيحملون الحبل الى اعلى ثم يشدون الى اسفل من خلال بكرة نحو
البرميل كي ينفوا عنه عند لفه اي التواءات او تعقصات ممكنة .

وتستعمل القوارب الانجليزية برميلين لا واحدا بحيث يلف الحبل دائما في
البرميلين كليهما ؛ وفي هذا فائدة ما ، اذ ان هذين البرميلين صغيران ومن ثم
يقعان موقعا ملائما في القارب فلا يبهظانه كثيرا اما البرميل الواحد في القارب
الامريكي فان نصف قطره يبلغ ثلاثة اقدام وله من العمق ما يناسب ذلك ،
وبذلك يكون ثقيل على قارب لا يتجاوز سمك لوح الخشب فيه نصف بوصة .
اذ ان قعر قارب التحويت يشبه الجليد المتاسك في مقاومته ، اي يتحمل قسطا
غير قليل من الوزن ان جعلته موزعا ولكنه لا يتحمل كثيرا اذا جعلت الوزن
كله في موقع واحد . فاذا غطي برميل الحبل في القارب الامريكي بالخيش
المقوى المطلي بدا القارب وكأنه يحمر « كمكة » عرس كبيرة ليهديها الى
الضيوف .

وكلا طرفي الحبل مستبان ظاهران : فأما الطرف الأدنى فإنه ينتهي
بأنشطة او عروة صاعدة من القاع بمحاذاة جانب البرميل ، وتتدلى على حافته
طليقة دون ان تكون عالقة بأي شيء . وهذا النوع من التدبير في الطرف
الأدنى يعد ضرورياً لسببين ، أولهما : ان يسهل اضافة حبل آخر من قارب
مجاور يربط بذلك الطرف ان كان الحوت الجريح قد نأى بعيداً في الاعماق
بحيث يخشى ان يستنفد طول الحبل الاصلي المربوط بالرمح . وفي هذه الاحوال
ينقل الحوت من قارب الى آخر كأنه طاس من الجعة غير ان القارب الاول
يظل دائماً يدوم عن كذب ليعين قرينه . وثانيهما : ان هذا التدبير لا غنى عنه
من اجل السلامة اذ لو ان الطرف الأدنى من الحبل ربط بالقارب وجرى
الحوت فاستنفد طول الحبل كله حتى نهايته في لحظة خاطفة مثلاً يفعل
أحياناً فإنه لن يتموقف ثمة ، واذن لجّر القارب البائس حتماً الى الاعماق في أثره ،
وفي هذه الحال لا يستطيع من ينشد الضوال ان ينفعه نشدانه .

وقبل انزال القارب للمطاردة يستخرج الطرف الاعلى من البرميل نحو
المؤخرة ويمرر حول المثقلة ، ثم يسحب الى الامام بطول القارب بحيث يقع
مستعرضاً على يد كل مجذاف حتى انه يمسّ رسغ المجذف حين يحرك بمجذافه ويمر
بين المجذفين ، وهم متراوحدون في جلساتهم عند الحافتين ، ذاهباً الى المعقفات
الخطافية المغلفة بالرصاص في أقصى طرف الجؤجؤ « المروس » حيث يقوم
وتدخشي أو سفود بحجم القلم العاديّ يحول دون انفصاله . ويتدلى من
المعقفات في تقويس خفيف فوق مقدمة القارب ثم يمرر داخل القارب ثانية ،
وتلف منه عشرة باعات او عشرون حول الصندوق في المقدمة (وتسمى هذه
حبل الصندوق) ثم يمضي الى الحافة مقترباً من المؤخرة ، ثم يوصل بالسداة
القصيرة اعني الحبل الذي يرتبط مباشرة بالرمح ، وقبل ان يتم هذا الوصل
تكون السداة القصيرة قد ذهبت في مسارب ومعميات عديدة ووصف ذلك كله
في اسهاب يبعث على الملل .

كذا يطوّق حبل الصيد القارب كله بين لفائفه العويصة متثنيًا متممجا في كل وجهه ، وقد طوى جميع رجال التجذيف بين حناياه الخطرة ، فلو رآهم أحد أبناء البرّ الخوّارين لتمثلهم حواة من مشعبي الهنود ، والحيات الناكزة تتلعب وتحتوي حول أذرعهم . وليس يستطيع ابن انثى من البشر اول مرة ان يضع نفسه بين هذه الاحابيل الممرّسة وان يتصوّر وهو يشدّ صلبه متوترا عند المجذاف ان الرمح قد يزرقه زرقاه في أية لحظة مجهولة ، وان هذه الاحابيل المريعة ستدور دورتها كأنها ومضات برق دائري . لن يقع هذا الموقع دون ان تعتريه هزة تجعل النخاع نفسه في عظامه يرتعش كأنه هلام يترجرج . ولكن العادة مألوفة ؛ يا للغرابة ! أي شيء تعجز العادة دونه ! انك لا تسمع وأنت على أريكة في ديوانك ملجأ مستطرفة ومرحاً عابثاً ونكتاً حارة أو أجوبة مفحمة بأكثر مما تسمعه فوق قارب التحويت الذي لا يبلغ سمك جداره الشريبي الأبيض اكثر من نصف بوصة وهو مشنق في أنشودة المنية ، وكأن الملاحين الستة فيه هم الستة المواطنون من كاليه يقفون أمام الملك ادوارد^١ ، وأولئك الملاحون يحذفون عامدين الى فككي الموت وربما قلت : وحول كل عنق من اعناقهم يلتف حبل المشنقة .

ولعلك لو وقفت تتأمل الامر على نحو خاطف لاستطعت ان تعلق لتلك الكوارث المكرورة في التحويت - وقليل منها هو الذي دوّن عرضاً واتفاقاً - أعني الكوارث التي تسمع فيها ان هذا المرء او ذاك قد سحبه الحبل من القارب ومضى فقيداً . اذ ان المرء اذا جلس في القارب والحبل ينطلق كان كمن يجلس وسط الأتريز المتنوع الذي ترسله الآلة البخارية وهي تعمل حيث كل ذراع طائر

١ بعد معركة كريسي عام ١٣٤٦ حاصر ادوارد الثالث مدينة كاليه مدة تربو على سنة ، ولما اضطرت المدينة للتسليم تقدم اليه ستة من ابنائها وفي رقابهم الحبال لينقذوا المدينة من مذبحه كان يزعمها ادوارد بهذا الفداء .

أو اسطوانة دائرة أو عجل دوّار كأنما ينتهب منه ويشتلي مزعماً . بل لعلّ الأمر في القارب أسوأ من ذلك لأن المرء لا يستطيع ان يتلبث ساكناً دون حراك وهو في جوف تلك المخاطر ما دام القارب يتأرجح كالسرير ويميل به الى هنا وإلى هناك دون ان يأخذ حذره، ولولا قدر من رباطة الجأش ومن التوافق الآني بين الحزامة والدأب لما استطاع ان ينجو من ان يغدو « مازفاً »^١ ويتطوح الى حيث لا تستطيع عين الشمس النفاذة ان تحقه .

وأقول : مثلاً ان السكون العميق الذي يسبق العاصفة ويرهص بها ربما كان أحفل بالرهبة من العاصفة نفسها، لأن السكون في الحق ليس إلا غلافًا وسجلاً يطوي العاصفة ويحتويها في سريرة ذاته كما تحتوي البندقية المكفوفة الاذى في ظاهرها ما فيها من بارود قاتل ورصاصة وانفجار، كذلك الحبل ابان استقراره الهاجع الظريف وهو يسترسل متعرجاً حول رجال المجاذيف قبل ان ينشط الى الحركة فان فيه وهو في هذه الحال من الرعب الاكيد اكثر من أي مظهر آخر في هذه المهنة الخطرة . ولم أسترسل ؟ كل الناس يعيشون وحبال التحويث تلتف من حولهم ، كلهم ولدوا وأواخي المشانق معقودة حول أعناقهم، ولكنهم لا يتبينون مخاطر الحياة المتلبدة الماكرة التي لا تغفل ولا تغيب ابداً الا حين يوهقهم الموت المفاجيء الوحيّ ويجذب الانشوطة . وان كنت فيلسوفاً وجلست في قارب تحويث لم تحسّ في قلبك قدر قلامة ظفر من الرعب اكثر مما تحسّ به وأنت جالس في المساء أمام الموقد وإلى جانبك سفود تقلب به النيران، لا رمح تصيد به الحيتان .

١ Mazeppa : صورته بيرون في احدى قصائده وقد ربط الى حصان شמוש، وانتهره الزوج الغائر ليجري به شداً .

اطب بصير هو نأ

إذا كان استاربك قد رأى في طيف السبيدج نذيراً بالشؤم فإن الامر فيه لدى كويكوج كان غير ذلك .

قال ذلك الهمجي وهو يشحن ربحه على صدر قاربه الرابي : « عندما هو تراه البيدج ، انت هو في أثره ترى حوتة أنبر » .

وكان اليوم التالي مسرفاً في السكون والقيظ ، ولم يكن ملاحو الباقوطة منهمكين في أي شيء ولذلك كاد يغلبهم سحر النوم الذي كان يغريهم به هناك البحر الفضاء . ذلك ان هذا الجزء من المحيط الهندي الذي كنا مبحرين فيه ليس هو ما يسميه الحواتون : « المجال الحافل » أي ان ما فيه من البربوز والدلفين والسمك الطيثار وغير ذلك من القطبان المرحين في بحار اخرى أشدّ ثوباً واضطراباً ، يُعدّ أقل بكثير من تلك الاصناف الموجودة على موازاة ريو دي لبلاطه او في المجال الساحل عند بيرو .

جاء دوري لاقف على مرقب الصاري الامامي فاستندت بكتفي على الاشرعة الملوكية المسترخية وأخذت أتأرجح متكاسلاً فيما حسبته جواً مسحوراً . أي حزم لا يتلاشى أمام هذا السحر ! في تلك الوقفة الحاملة فقدت كل صدو واع ، وبارحت روحي مسكنها الطيني في النهاية ، وان ظلّ جسدي يتأرجح مدة طويلة كأنه الرقاص بعد ان انسحبت منه القوة التي حركته أولاً .

وقبل ان تلفني غشاوة النسيان لحظت ان الرقيبين الواقفين على مرقب المظين ومرقب الصاري الرئيس قد أدركتهما سنة من نعاس، حتى كنا ثلاثتنا في النهاية نتأرجح على السواري وقد بارحتنا الحياة، وازاء كل خطرة نقوم بها خفقة يخفقها رأس الرجل القيم على الدفة وهو مستغرق في نومه، وكانت الامواج ايضاً قد تركت ذوائبها المسترخية تخفق وتنوس . وعلى مدى الماء الذي ذهب في غيبوبة مديدة كان الشرق يهز رأسه الناعس نحو الغرب، وعين الشمس تومض في الاعالي .

وفجأة أحسست الحبيب يثور دون عينيّ المغلقتين، ويديا تتشبثان بالاشرعة كأنها كلابتان . وقتني عناية خفية مباركة . عدت الى الحياة مذعوراً . شِم ! على كشب من يسارنا، على بعد لا يجاوز اربعين باعاً، يتدحرج حوت عنبر ضخيم في الماء ، كأنه هيكل فرقاطة منكسّ، وظهره العريض الأملس ذو اللون الحبشي يتلألأ تحت اشعة الشمس كأنه صفحة مرآة . وخيّل اليّ ان هذا الحوت وهو يتموج في ذلك الحوض المائي ويطلق في هدوء نفائثه البخارية على نحو متواصل انما يشبه مواطناً مهيباً جسيماً يدخن غليونيه في عصر يوم دافئ^١ . ولكن هذا الغليون ايها الحوت المسكين كان آخر واحد تستمتع به . لكأن السفينة الناعسة وكل ناعس ينوض فيها مسّتهم^٢ جميعاً عصا ساحر فأجفلوا مستيقظين وانطلقت عشرون حنجرة أو تزيد، من جميع جوانب السفينة هي وحناجر الرقباء الثلاثة في الاعالي، في وقت معاً، وكلها تبعث الصيحة المعهودة حين كان الحوت الجسم ينفت، في أناة وانتظام، الماء الأجاج الوهاج في الفضاء .

١ كان ملفل وهو هولندي الدماء من ناحية الام مغرماً بهذه الصورة التي تدلّ على الدعة البرجوازية .

فصاح آخاب : « انزلوا القوارب ! صوبَ الريح ! » وأطاع أوامر نفسه
فأنزل الدفة قبل ان يستطيع قيّمها ان يدير الدواليب .

الصيحات المفاجئة التي أرسلها الملاحون أفزعّت الحوت ، ولا يد ، فقبل ان
تنزل القوارب استدار في خيلاء ، وسبح مبعداً في اتجاه الريح في سكينّة واثقة ،
محدثاً بعض التغضّضات في سبّحه ، فقدر آخاب ان الفزع لم يدركه بعد ، وأمر ان
تتوقف المجاذيف وان لا يتكلّم احد الا همساً ، وجلسنا على حوافي القوارب كأننا
هنود أونتااريو ، وسرينا في اليم مسرعين صامتين اذ كان الهدوء الخيم لا يسمح
بنشر الاشارة وان كان نشرها لا يحدث صخباً ؛ وفيما نحن ننساب في هذه
المطاردة رفع الوحش ذنبه عامودياً في الهواء على مدى أربعين قدماً وغاص
محتجباً عن الانظار كأنه قلعة خسفت بها الارض .

وارتفعت الصيحة : « ها هما شطرا الذنب » وما ان سمعها اسطب حتى
استخرج علبة الثقاب وأشعل غليونه اذ أصبح التمهّل محمّداً . وبعد ان قضى
الحوت دورة القمس كاملة برز ثانية وهو متقدم امام قارب الرجل ذي الغليون
وان كان أقرب اليه من سائر القوارب ، فعلم اسطب نفسه بشرف الفوز وبدا
واضحاً حينئذ ان الحوت أدرك انه مطارد ، ومن ثم غدا كل صمت طلباً للحيلة
قليل الجدوى فتركنا التجذيف الهين وأخذنا نعمل المجاذيف الكبيرة جهرة
وأخذ اسطب يشجع ملاحيه على الهجوم وهو ما يزال ينفث دخان غليونه .

نعم حلّ بالحوت تغير خطير الشأن ، فقد كان على وعي بأنه يعرض نفسه
للتهلكة اذ كان يجري « بارز الرأس » وقد نتأ بانحراف ذلك الجزء منه من خلال
الزبد المجنون الذي كان يمحضه * .

* سبرى القارىء في موضع آخر من اية مادة خفيفة يتألف القسم الداخلي من رأس حوت =

وكان اسطب يقول وهو ينفث الدخان بصوت مسموع اذ يتكلم: « ادركوه ، لاحقوه يا رجال ! لا تتسرعوا ، لديكم وقت كافٍ ولكن ادركوه ، اتبعوه كأنكم هزمت رعد ، وذلك حسبكم . ها الآن ادركوه ، نريد ضربة مديدة سديدة يا طاشطيقو . دراك يا طاش يا بني - دراك جميعاً . كونوا هادئي الاعصاب ، ظلّوا هادئين - في برود كثمر الخيار . هوناً ، هوناً ، لكن ادركوه كأنكم الموت العبوس والشياطين المكشرة وابعثوا الموتى واقفين على أرجلهم من قبورهم يا أبنائي . هذا ما نريد . أدركوه ! »

وردّ الجاهيدي صائحاً : « وو - هو - وا - هي » مرسلًا الى عنان السماء احدى صرخات الحرب المعروفة ، وعندها وثب كل مجذف عفواً الى الامام في القارب المجهد مع الضربة الاولى الهائلة التي أرسلها الهندي اللهيف .

وأجاب آخرون على صيحاته الوحشية بصيحات مثلها فزعق دغة : « كي - هي ا كي - هي ا » وهو منتصب يميل أماماً وخلفاً في مقعده كأنه نمر يتخطر في قفصه .

وصاح كويكوج : « كا - لا ! كو - لو » كأنه يتمطق بعد ان حشاه فمه بشريحة لحم . وهكذا شقت القوارب وجه الماء بالمحاذيف والصرخات بينا كان اسطب ما يزال في موقفه في الطليعة يذمر رجاله ويحفزهم على الهجوم ، وهو طوال ذلك

= العنبر الضخم ، فهو في ظاهره اكبر اجزائه حجماً ، ولكنه أشدها مرونة حتى انه ليرفعه في الفضاء بيسر ، وكثيراً ما يفعل ذلك وهو ماضٍ بأقصى سرعة . ثم ان الجزء العلوي من جبهته واسع كثيراً ، وتكون الجزء السفلي الذي يشق به الماء مستدق كثيراً حتى انه اذا رفع رأسه موارباً منحرفاً فقد يقال فيه انه حول نفسه من جليوت منتفخ الجؤجؤ مترهل الى قارب نيويوركي مستدق حاد الجؤجؤ .

كله ينفث الدخان من فمه . كانوا كالمجرمين المستيئين يكدون ويجهدون حتى سمعوا صيحة الاستبشار : « قف طاشطيقو . عليك به » وطار المزراق . « تجانفوا نحو المؤخرة ! » وانحاز المجدفون للخلف وفي اللحظة نفسها ذهب شيء ساخن ذو حسيس ماراً عن معاصمهم . ذلك هو الحبل السحري ، وكان اسطب قبل لحظة قد استبقى منه في سرعة دورتين إضافيتين حول المثقلة ، ولذلك انبعث منه وقد اشتد تسارعه عند نشره ، دخانٌ قنبي أزرق اختلط بنفثات الدخان الصاعدة من الغليون . وحين مضى الحبل دائراً حول المثقلة وقبل ان يصل ذلك الحد ، مضى خلال يدي اسطب يجردهما ويخددهما بالجرّاح اذ كانت قطعنا الخيش المحشوتان اللتان تلبسان في مثل هذه الظروف لوقاية الايدي قد سقطتا مصادفة . وكان شأنه في هذا كمن يمسك سيف عدوه ذا الحدين من شفرته ، وعدوه يحاول طوال الوقت ان ينتزعه من قبضته .

« بلّ الحبل ! بلّ الحبل » — كذلك صاح اسطب للقائم عند البرميل من رجال التجديف فنزع هذا قبعته وغرف بها من ماء البحر وصبه على الحبل * ، وأرخوا الحبل دورات أخرى حتى استقر في موضعه وعندئذ طار القارب في الماء السامط كأنه قرش مغطى بالزعانف فحل اسطب محل طاشطيقو ، اي ذهب الى المقدمة ، ورجع طاشطيقو الى المؤخرة وليس يتم ذلك دون ترنج وتأرجح في تلك الهيعة المتأيلة .

لو انك رأيت الحبل المتذبذب ممتداً على طول الجانب العلويّ من القارب ورأيتَه وقد غدا مشدوداً موترأ أكثر من وتر القيثارة لظننت ان القارب له

* قد أقول هنا لادل على ان هذا أمر لا غنى عنه بأنهم كانوا يستعملون في السباكة الهولندية قديماً مسحة يعصرون منها الماء على الحبل المسترسل كما كانت سفن كثيرة أخرى تزود بأبريق او منشل لهذه الغاية . أما القبة فهي أصلح الادوات جميعاً .

أرينتان : واحدة يشق بها الماء وثانية يشق بها الهواء وهو يتخض ماضياً بين العنصرين اللذين يقاومانه معاً . وأخذ شلال دافق من الماء يلعب عند صدر القارب ودوامة تدور في الخرج دون توقف ؛ وعند أية حركة خفيفة من داخل القارب ولو كانت تحريك البنصر كان القارب المتذبذب المقعقع يميل على حافته المتشنجة في الماء . كذلك اندفعوا وكل امرئ منهم تشبث بمقعده بكل ما أوتيته من قوة لكيلا ينطرح بين الزبد ، وقد تطوى جسم طاشطيقو الفارع على المجداف الموجّه مقررصاً كأنه مثنى كي ينزل مستوى مركز الثقل ؛ وخيل اليهم أنهم اجتازوا محيطات اثر محيطات وهم منطلقون في مسيرهم حتى خفف الحوت قليلاً من سرعة هروبه .

وصاح اسطب بالرجل القائم في المقدمة : « شدّ ! شدّ ! » ثم استداروا بوجوههم نحو الحوت وأخذت كل الايدي تسحب القارب نحوه ، بينما كان القارب ما يزال ينجرّ قدماً بقوة اندفاع الحوت فلما أصبح القارب على موازاة جانبه أثبت اسطب ركبته في القليط الأرعن وزرق الحوت الطائر بحربة اثر أخرى . ثم ألقى أمره فانحاش القارب متقاعساً عن طريق متمرّع الحوت الرهيب ثم استدار ليحاذيه من أجل القيام بهجمة أخرى .

حينئذٍ كان الدفق الاحمر ينصب منهمراً من جميع جوانب الحوت كأنه جداول تتدفق منحدره من التلال . ولم يكن جسمه المثخن يتقلب في زبد بل في دم يعبّ ويطفح بالنفاحات مسافة باعات كثيرة في مخر القارب ، وتموجت أشعة الشمس المائلة على هذا الحوض القرمزي في البحر فانعكست في كل وجه ، حتى ان كل من نظر منهم في وجه صاحبه حسبه أحمر اللون . وطوال ذلك كله كانت تنطلق بألم مبرح من متنفس الحوت نفثة اثر نفثة من الدخان الابيض ، ونفثة اثر نفثة من فم الراس الشائر وهو يزرقه بالحراب ؛ وكلما جذب حربة

معووجة منها (بجبل موصول بها) قوّمها مرة بعد مرة بضربها ضربات متلاحقة على الحافة ثم قذف بها في جسم الحوت واستعادها وهلم جرّاً .

فصاح اسطب عندها بالرجل القائم عند المقدمة وقد أخذ غضب الحوت الذاوي يبرد : « قرّب منه ! قرّب » فحاذى القارب جانب الحوت ، فلما بلغ اسطب المقدمة أخذ يدس ببطء حربته الطويلة النافذة في الحوت ويبقيها هنالك ويوسعه مخضاً وإنهاراً في أناة ورفق كأنه يحيطه هذه يحاول ان يتحسس ساعة ذهبية كان الحوت قد ابتلعها ، ويخشى هو ان يكسرها قبل ان تعلق بها صنارته . الا ان تلك الساعة الذهبية كانت هي الحياة الدخيلة في الحوت ، وها هي قد طعنت فقد أجفل الحوت من غيبوبته وذهب في حال لا يستطيع وصفها تسمى « حلاوة الروح » فأخذ يتمرغ تمرغاً مفرغاً في دمه ، وتلفع برشاش مجنون لاذع لا يستطيع اختراقه ، حتى ان القارب الناشب في الاخطار انحاز على التوّ متأخراً وبذل جهداً جاهداً وهو يتخبط ليخرج من ذلك الغبش الهائج المجنون الى وضح الفضاء والهواء .

وقرّ الحوت بعد تنفض ، وانقلب برأى من الملاحين ، من جنب الى جنب ، وهو يبسط فوهة نفائثه ويقبضها على نحو متقطع بشهقات وزفرات حادة مصلصلة مبرحة . وأخيراً انطلقت في الهواء المفزع دفقة اثر دفقة من الدم العبيط القاني المتخثر كأنه الدرديّ الأرجواني المترسب من الحمرة الحمراء ، وسقط مرة أخرى وهوى يقطر جانبيه الهامدين في الأمواه . ذلك قلبه قد انفجر !

قال دغة : « مات يا سيدي ! »

فقال اسطب : « نعم فان غليونيه الاثنين قد خمدوا » . وسحب هو غليونيه من فمه ، ونفض الرماد الهامد فوق الماء ، ووقف لحظة يتأمل الجثة الجسيمة .

لا بد من كلمة تقال في شيء عرضنا له في الفصل السابق .

جرت العادة المستديمة في السماكة ان يفصل قارب التحويت مبتعداً عن السفينة والرائس فيه او قاتل الحوت هو الموجه المؤقت ، والزراق او مقيّد الحوت هو الذي يقوم على المجذاف الأمامي ، ويسمى هذا المجذاف باسم مجذاف الزراق . وتتطلب اول حربة يقذف بها الحوت ساعداً أيداً ومتمناً وثيقاً ، اذ كثيراً ما تكون المسافة التي يقذف فيها المزراق الطويل - وهو راجح ثقيل - عشرين او ثلاثين قدماً . ومهما تكن المطاردة طويلة مضمية فالمتوقع من الزراق ان يجذف أثناء ذلك بأقصى طاقة ، بل المتوقع منه ان يضرب للآخرين مثلاً على الحيوية الحارقة بالتجذيف الفذ ، وبالصيححات الجهيرة المكرورة الجسورة . ماذا يعني ان يظل المرء يصرخ بأعلى صوته بينما جميع عضلاته الاخرى متوترة ناشزة ؟ ذلك شيء لا يدركه الا من جرّبه . ولو سألتني عن حالي لقلت لك : انني لا أستطيع ان أجأر في ارتياح وان أعمل في غير اكتراث ، في آن معاً . في مثل هذه الحال من التوتر والصراخ يسمع الزراق المنهوك ، دفعة واحدة ، وظهره الى الحوت ، صوتاً مستثيراً يهيب به قائلاً : « قف . اقذفه بها » . وعليه حينئذٍ ان يقلت مجذافه دون ان يضيعه وان يدور نصف دورة حول مركزه ويخطف المزراق من شعبته ، ويتأتى بما فضل لديه من قوة لغرسه في جسم الحوت . لا عجب اذن اذا نحن اعتبرنا الحواتين مجتمعين ان يجيء المزراق صائباً خمس مرات في كل خمسين مرة مواتية . ولا عجب ان رأينا كثيراً من الزراقين التعساء تنصب

عليهم اللعنات الوبيلة وتبخس حظوظهم ؛ ولا عجب ان يعتمد بعضهم الى تفجير شرايينه في القارب ؛ ولا عجب ان غابت حوَّات العنبر أربع سنوات وعادت بأربعة براميل ، ولا عجب ان رأى كثير من أصحاب السفن ان التحويت صفقة خاسرة ، اذ الزراق هو الذي ينجح الرحلة واذا تسرب النفس من جسمه فكيف يجده حين يصبح في مسيس الحاجة اليه !

ثم اذا كان المزراق صائباً عمد رائس القارب والزراق في اللحظة الحرجة التالية ، اي حين يبدأ الحوت في جريه ، الى ان يتبادلا موضعيهما ، هذا يعدو نحو المقدمة وذاك نحو المؤخرة ، معرضين نفسيهما وكل من في القارب للتهلكة . فاذا تمّ التبادل وقف الرئس او رأس الضباط على القارب الصغير في موضعه الصحيح في مقدمة القارب .

وأنا أرى هذا كله حمقاً لا ضرورة له ، مها يكن رأي غيري فيه . ان على الرئس ان يقف في المقدمة من البداية حتى النهاية وعليه ان يقذف بالرمح وبالحرية ، وليس له ان يقوم بشيء من التجذيف الا في أحوال يعرفها كل من عمل في التحويت . وانا أعلم ان هذا قد يتضمن أحياناً بعض الخسارة في جانب السرعة أثناء المطاردة ولكن التجربة الطويلة في حوَّات مختلفة تنتمي الى غير شعب واحد قد أقنعتني ان معظم ضروب الاخفاق في التحويت لم تتأت من سرعة الحوت في انطلاقه بقدر ما كانت ناجمة عما يعاينه الزراق من انهاك ، تحدثت عنه آنفاً .

واذا شاء الصيادون ان يوفروا الكفاية المطلوبة للصيد كان على الزراقين في هذا العالم ان يهبوا واقفين على أقدامهم من أحضان الراحة لا من بين قيود الإعياء .

الشعبة

من الجذع تنمو الاغصان ، ومن الاغصان تتفرع شعبها . كذاك فصول الكتاب تنمو وتتشعب في الموضوعات الحفيلة .

وتستحق « الشعبة » التي ألمعت اليها في الفصل السابق تنويعاً . فهي قناة منشعبة من رأسها ، ذات شكل فريد ، طولها نحو قدمين ، تغرز قائمة في الحافة اليمنى من القارب قريباً من الصدر لكي تتخذ مستنداً للطرف الخشبي من الرمح ، اما طرفه الآخر المشحوذ العاري فانه ينتأ في انحدار من مقدم القارب . وبهذا الوضع يكون الرمح في متناول الرماح الذي يقذفه ، فينتزعه من مستقره حين يحتاجه كما يتناول الصياد بندقيته عن الحائط ، وقد جرت العادة ان يركز في الشعبة رحمان يدعيان الشفرة الاولى والشفرة الثانية ولاءً .

ولكل واحد من هذين الرمحين خيط يصله بحبل التحويت ، والغرض من ذلك قذف الاثنين - ان أمكن - في جسم الحوت ، دون تمهل بين الضربتين حتى اذا سحبا فقد يطاوع احدهما ويستعصي الآخر . ذلك نوع من مضاعفة الفرص . ولكن بما ان الحوت يجري جرياً خاطفاً عنيفاً مضطرباً حين يتلقى الشفرة الاولى يغدو من المستحيل على الزرّاق في الغالب ان يغرس الشفرة الثانية فيه ، ولو كانت حركاته خاطفة كالبرق . ومع ذلك : فان الشفرة الثانية لما كانت موصولة بالحبل ، والحبل ينساب ، كان لا بد لها في جميع الاحوال من ان تقذف خارج القارب على نحو ما ، صوب شيء ما ، والا أصبحت جميع الايدي عرضة لأشد

خطر . وفي مثل هذه الاحوال تلقى في الماء . وما يضمن تحقيق هذا الأمر على وجه سليم وجود اللفائف الاحتياطية حول الصندوق (وقد ذكرتها في فصل سابق) . ولكن ما كل مرة تسلم الجرة . فقد يجيء هذا التدبير الدقيق مصحوباً بكل عارض مؤسف يميت .

ثم اعلم ان الشفرة الثانية حين تقذف خارج القارب تصبح من ثم رعباً متديلاً مرهف الحدّ، وتتوئب متقلبة هنا وهناك حول القارب والحوت فتشوش الحبال او تقطعها وتثير هياجاً هائلاً حينما اتجهت . وليس في الامكان ضبطها إلا حتى يقتل الحوت ويصبح جثة هامدة .

تأمل اذن كيف يكون الحال حين تنازل القوارب الاربعة حوتاً فذاً في قوته ونشاطه ودرايته، حين تتدلى من حوله ثمانى او عشر شفرات ثانية، في وقت معاً، لانه يحوز تلك الصفات ولان آلافاً من الملمات قد تعرض في تلك الوقعة الباسلة . ذلك ان كل قارب مزود حقاً بعدد كثير من المزاريق تربط الى الحبل ان طاش الاول ولم يمكن استرداده . لقد راعيت وجه الامانة فيما اوردته من أمر هذه الدقائق لانها تعين على ان تجلو كثيراً من الفقرات الهامة مها تبلغ دقتها، في مشاهد أنوي رسمها فيما يلي من فصول .

عشاء اسطب

ذلك الحوت الذي صاده اسطب تمّ قتله بعيداً بعض الشيء عن السفينة . وكان الجو في هدأة ، فجعلنا من القوارب الثلاثة قواطر مردفة ، وأخذنا نسحب « حصيلة فوزنا » الى الباقوطة . كنا ثمانية عشر رجلاً ذوي ست وثلاثين ذراعاً ، ومائة وثمانين إصبعاً ، نجهد ساعة اثني ساعة في جرّ تلك الجثة الهامدة المترهلة ، وكأنها تكاد لا تترجح أبداً الا بعد فترات طويلة . ذلك شاهد قويّ على جسامته تلك الكتلة التي كنا نجريها . ذلك لان أربعة عمال او خمسة على قنال هانج - هو العظيمة - أو أيّا كان اسمها ١ - في الصين يستطيعون وهم على مسرب المشاة ان يجروا ينكاً مشحوناً مدى ميل كل ساعة ، أما تلك « البارجة » التي كنا نجريها فقد كانت تدلف ببطء كأنها معبأة كلها بالرصاص الخام .

حل الظلام ، غير ان ثلاثة أضواء مثبتة في مواضع مختلفة من الاشرعة الرئيسية في الباقوطة أرشدتنا رغم خفوتها اي طريق نسلكه ؛ حتى اذا اقتربنا منها رأينا آخاب قد أنزل واحداً من القناديل العديدة على هيكل السفينة ، وحجج الحوت المسحوب لحظة بنظرة خاوية ، وأصدر أوامره المعتادة التي تقضي بالمحافظة عليه ليلاً ، وسلم القنديل لاحد البحارة ثم مضى الى قمرته ولم يغادرها حتى الصباح .

١ تسمى القنال العظمى أو شا - هو أو ين - هو في ولاية شانتونج .

لقد أبدى آخاب أثناء الاشراف على مطاردة الحوت حيويته المعهودة - ان صحّ ان اسمها كذلك ، فلما أصبح ذلك المخلوق جثة ميتة ، بدا وكأن استياءً غامضاً او جزعاً او يأساً قد أخذ يعمل في نفسه ، حتى كأنما كان منظر تلك الجثة يذكره بأن موبى ديك لم يقع بعد ، وأنه لو جرّ الى سفينة ألف حوت آخر فلن يخدم ذلك غايته الكبرى المجنونة قطميراً . ولو أنك سمعت الصوت على ظهر الباقوطة لقلت في الحال ان الايدي كانت تنهيا لالقاء المرساة في الاعماق اذ كانت السلاسل الثقيلة تسحب على ظهر السفينة ، وتدفع فتجبلجل وهي تنفذ من المجازات في الجوانب . غير ان هذه الحلقات المججلة انما كانت لارساء الجثة الجسيمة نفسها لا لارساء السفينة ؛ وقد ربط رأس الحوت الى مؤخرة السفينة ، وذنبه الى مقدمتها فاضطجع هيكله الأسود الى جانب هيكل السفينة ، فلورأيته خلال ظلام الليل الذي كان يحجب الصواري والاشعة والحبال لحسبت الاثنين : الحوت والسفينة وكأنما ربطا معاً تحت نير واحد ثورين هائلين ، بينا اضطجع أحدهما وظل الآخر قائماً * .

ولئن كان آخاب ذو المزاج المتقلب قد غدا هادئاً صامتاً - او على الاقل ذلك هو مبلغ ما تأدى الينا من حاله ونحن على ظهر السفينة - ، فان الضابط الثاني

* قد أورد هنا نبذة يسيرة فأقول : حين يرسى الحوت الى جانب السفينة فان أقوى مقبض تمسكه منه السفينة وأوثقه اذا يقع في الجنين او الذنب ، ربما ان هذا الجزء منه اكثف من سواه فانه يكون اثقل ايضاً (الا اذا استثنيت الزعانف الجانبية) ولذلك فان مرونته حتى في حال الموت تجعله يفتس كثيراً تحت مستوى السطح حتى ان المرء لا يستطيع ان يبلغه بيده من القارب ليضع السلسلة حوله . غير أنهم يتغلبون على هذه العقبة بلباقة وحنكة اذ يعدون حبلاً صغيراً قوياً وله في طرفه البعيد عوامة خشبية وثقل في الوسط بينا الطرف القريب مربوط الى السفينة . وحسب تدبير حاذق تجعل العوامة الخشبية بحيث ترتفع على الجانب الآخر من الكتلة بحيث أنها حين تطوق الحوت ، تشفع بها السلسلة ، فاذا انزلت على طول الجسم ربطت ربطاً محكمًا حول الجزء الادق من الذنب اي عند نقطة التقائه بالجانبين او الشطرين العريضين فيه .

اسطب زهاه النصر فأبدى من الزعل الحيوي ما لم يعهد منه، وان ظلّ زعله جميلاً طيباً . فقد تملكه انهاك غير معهود حتى ان رئيسه استاريك الهادىء الرصين وكل اليه حينئذٍ أمر التفرد بالاشراف على شئون الحوت . وسرعان ما استبان سبب صغير كأن يستثير كل تلك الحيوية لدى اسطب . كان هذا الرجل ذا تفرّد في مطعمه شديد القرم الى لحم الحوت يتلذذ به ويستمرئه طعاماً .

« شريحة » ، شريحة » ، قبل أن أنام . دغة ، اذهب واقتطع لي قطعة من العصص » .

وليعلم ان هؤلاء الصيادين البواسل ، حسباً تقضي القاعدة الحربية العظمى ، لا يجعلون العدو يقوم بالنفقات الجارية التي تتطلبها الحرب (على الأقل قبل ان يتحققوا من تبشير الرحلة) الا انك مع ذلك تجد بعض هؤلاء النابتوكيتين — بين الحين والحين — يستطيعون ذلك الجزء الذي يؤثره اسطب من لحم حوت العنبر بحيث يشمل ايضاً جميع الطرف المستدق من عجب الذنب .

قطعت تلك الشريحة حوالى منتصف الليل وأعدت ، ووقف اسطب راسخاً تحت ضوء قنديلين مزودين بزيت حوت العنبر يتناول عشاءه العنبري عند رأس المسحاب كأن ذلك المسحاب مائدة طعام . ولم يكن اسطب وحده هو الآدب الوحيد الذي يحتفل بأكل لحم الحوت تلك الليلة ، فقد تجمعت حول جشّة اللويثان آلاف على آلاف من أسماك القرش تمزج تلماتها بأصوات المضع المنبعثة من بين فككي اسطب ، وتقيم وليمتها الدسمة فوق ترارقه وسمنته . وكثيراً ما كان القلة النائمون في « شقادفهم » يستيقظون فزعين حين تلطم بأذناها هيكل السفينة لطّماً حادة على بعد بضعة بوصات من قلوب أولئك النوّام . واذا انت حملقت من فوق الحافة رأيتها (مثلاً من قبل سمعتها) تتمرغ في الامواه المعتمة المتبلدة ، ثم تنكفىء على ظهورها حين تمزق قطعاً كروية ضخمة من الحوت تبلغ الواحدة

في حجمها قدر رأس الانسان . ويبدو هذا العمل الفذ الذي تقوم به القرشان معجزاً . كيف يتأتى لها، فوق مثل هذا السطح الذي يبدو في الظاهر ممتنعاً على الهجوم ، ان تقوّر هذه اللقم المتساوية في حجومها ؟ ذلك أمر يظل جزءاً من مشكلة كلية كبرى بين المشكلات . أما الاثر الذي تتركه في جسم الحوت فيمكن ان يشبّه بالتجويف الذي يحدثه النجار وهو يدوّر ثقباً يثبت فيه « البرغي » .

وسط جميع الرعب الصارخ والشيطانية الهاجّة في معركة بحرية ترى القرشان تحرق بشغف نحو ظهر السفينة كأنها كلاب جائعة حول مائدة يعرق عليها اللحم الاحمر عن العظم، وهي على أهبة ان تنقض على أي رجل قتيل يرمى لها . وبيننا الجزارون البواسل فوق المائدة الكبرى - اعني السفينة - في نهم المستلحم القرم يسعى احدهم ليتخذ من لحم أخيه الحيّ جزراً يعرقه بسكين حادة مذهبة مزخرفة، تكون القرشان ذات الافواه المنصّلة بالجواهر تحت المائدة، تتشارك متنازعة على الجئة الملقاة . واذا قلبت الوضع كله رأساً على عقب، فان الحال لا تتغير، أعني ان ما فوق المائدة وما تحتها عمل قرشاني مروّع يرتكبه الفريقان . وحيثان القرش ايضاً هي الرفقة الدائمة لكل سفن الرقيق التي تجتاز الاطلسي، لا تنفك تحب الى جانب السفن، لتكون في الخدمة اذا كانت هناك صرة يراد نقلها الى اي مكان او عبد ميت يراد دفنه دفناً لائقاً . وقد أستطيع ان أورد هنا مثلاً او مثلين من هذا القبيل يتناولان الشروط المقررة والاماكن والمناسبات التي يجتمع فيها شمل حيثان القرش وتولم ولائها البهيجة ؛ ومع ذلك كله الذي قلته في حيثان القرش فان المرء لا يتصور زماناً او مناسبة تكون فيها في أعداد لا تحصر وعلى اشد ما تكون مرحاً في أمزجتها وسرورها، مثل تجمهرها حول حوت عنبر قتيل قد رفء ليلاً الى حوامة في البحر . فاذا لم ترَ ذلك المنظر ابداً فاحبسْ عليك رأيك الذي اتخذه حول صلاحية عبادة الشيطان ، وكفّ عن أمنياتك لاسمائه واسترضائه .

ولكن اسطب ، مع ذلك ، لم يتنبه الى تمتات الحفل الذي كان قائماً دونه مثلما ان اسماك القرش لم تبال بالتمطى الذي كانت ترسله شفتاه الشهويتان .

« طباخ يا طباخ ! — أين هو فليس العجوز ؟ » — صاح اسطب بعد فترة وقد زاد المسافة ما بين رجله تباعداً كأنما يحاول ان يجعل لعشائه قاعدة مأمونة ، وفي الوقت نفسه غرز شوكته في الصحن كأنه يطعن بحربته ، وصاح : « طباخ يا طباخ ! — أبجر! الينا ، يا طباخ ! »

لم يكن الاسود العجوز في حال ابتهاج اذ كان من قبل قد أزعج من سريره الدافئ في غير إبان الدعاء الملائم ، فعاد يقزل من مطبخ السفين ، اذ كان شأنه شأن كثير من السود الهرمين قد أصابه شيء في « ماعوني » ركبتيه لانه لم يكن يعتني بنظافتها عنايته بغيرهما من المواعين . جاء هذا العجوز فليس — كما كانوا يسمونه — يتناقل ظالماً مؤيداً خطوته بملقطه ، وكان مصنوعاً من طوق حديدي مطرّق ، صناعة جاسية . ذلك الآبنوسي العتيق أتى يغالب الاعياء فلما امتثل الأمر وقف وقفة متبسة مقابل مائدة اسطب ، وحنى ظهره المقوّس دانياً ، وقد شبك يديه قدّامه وأراح جسمه فوق الملقط المشوب ، ومال برأسه في الوقت نفسه ناحية لعله يسمع ما يقال بأذنه السليمة .

فقال اسطب وهو يرفع بسرعة لقمة محمّرة الى فمه : « طباخ ، ألا تعتقد ان هذه الشرائح المشوية قد بولغ في انضاجها ؟ لقد أيدستها كثيراً بالتقليب يا طباخ انها شديدة الرقة . ألم تسمعي أقول دائماً ان الشرائح المشوية من لحم الحوت لا بد ان تكون سميكة كي يحسن شواؤها . هذه أسماك القرش هناك عند جانب السفينة ألا ترى أنها تفضل ان تكون الشرائح سميكة نيئة ؟ اي ضجة ترسلها الينا ! اذهب وتحدث اليها ايها الطباخ . قل لها اننا نرحب بضيافتها اذا هي كانت مهيبة معتدلة ولكن عليها ان تظل هادئة . هيلتني أمي ان كنت أستطيع

ان أسمع صوتي بسين ضجيجها . اذهب اليها يا طبّاخ وبلغها رسالتي . هاك القنديل » . - وناولهُ قنديلاً كان على مائدته - « اذهب وألقِ عليها موعظة منك » .

تناول فليس العجوز ذلك القنديل المدود اليه متبرماً ، وذهب يطلع عبر ظهر السفينة نحو حافتها، ثم مدّ إحدى يديه بالقنديل ودلالة فوق الماء ليضوء له المنظر فيستبين جمهوره ، ومدّ يده الأخرى بالملقط وجعل يلوحه في رزانة وجدّ ، وانحنى الخنءة طويلة فوق جانب السفينة ، وبدأ يخاطب أسماك القرش متمتماً بينا كان اسطب ، وقد تسلسل من ورائه ، يسمع كل ما يقول :

« اكواني المكلوقات : انا مأمور ان أقول إنه توقفوا ديك الدوشة المثلثون هناك . سمثتوا ؟ اوقفوا ديك طق طق المثلثون من الشفتين . سي اسطب يقول انكوا تقدرؤا تملؤوا كروش ملثونة بتاء كوا حتى فم الكروش . لكن وربينا لازم توقفوا ديك الدوشة المثلثون » .

فقاطعه اسطب وهو يشفع خطابه بخبطة مفاجئة على كتفه : « طبّاخ يا طبّاخ ! أعمى الله عينيكَ ، لا تشتم وأنت تلقى موعظة . ليست هذه طريقة صالحة لترد المذنبين الى التوبة والندم ، ايها الطبّاخ » .

فاستدار الطبّاخ متبرماً بهم بالذهاب وقال : « من دا ؟ ما دام كده ، انت تقول وأظلة بنفسك » .

- « لا يا طبّاخ ، بل امضِ انت في وعظك ، امضِ » .

- « جميل . ايتها المكلوقات ، الإكوان المهبوبين ... » .

فصاح اسطوب مستحسنًا : « أحسنت ! تملقها بمثل هذا ، جرّب هذه الطريقة » فمضى فليس يكلمها :

« انتو هيوانات قرش وهو بطبشه شره كتسير ، لكن برده أقول لكم يا إكواني انه الشره داك — امنأوا اللطم بالدنب ! كيف ممكن تسمأوا ان كان بقيتوا مستمرين في اللطم والأض الملتون هناك ؟ »

فصاح اسطوب وهو يشدّ على رقبته : « أيها الطباخ لا أحب ان أسمع تلك الشتائم . تحدث اليها حسب الاصول » .

واستأنف الموعدة مرة أخرى :

« ان الشره بتأكم يا إكواني لا ألومكم كثير من أجله . دا طبيشة ، والواهد منا أسير الطبيشة ، لكن لازم هو يتهمكم في داك الطبأ الشرير . دا هي المسألة . انتو هيوانات قرش — مؤكد ؛ لكن اذا انتو تهكمتمو في القرش اللي فيكو بقيتو ملايكة ، لان الملاك هو قرش تهكمه الارادة القوية . إكواني : هاولوا انكم تكونوا مهذبين وانتو بتاكلوا من الهوت داك . أقول : لا تمزقوا الشهم من قم جار كو . مش كل قرش له حق متل القرش الثاني في الهوت ؟ لكن والله ما واهد فيكم له حق في الهوت . داك الهوت من حق زول غير كو . أنا آرف انه في منكو ناس الكشم بتأؤهم كبير ، اكبر من الكشم بتأ تانيين لكن اهيأنا اللي كشمه كبير بكون كرشه زغير . وهذا مأناه انو كبر الكشم مش أشان انه الواهد يبلأ لقمة كبير ، لكن أشان يقطأ شهم ويطأم القرش الزغير اللي ما يقدر يزاهم السمكات الكبار » .

فقال اسطوب : « أحسنت يا فليس ، تلك روح مسيحية . امض في وعظك » .

— « مفيش فايذة . أولاد كلب ملثونين راه يبقوا يتزاهوا ويتلاطموا يا سي

اسطب. ما يبسمثوا ولا كلمة واحدة. ما في فايذة من الوأط للهيوانات السفاهين
دول - زي انت ما سميتوهم -- هتى كروشهم تبقى مليانة ، لكن كروشهم
ما ليها حدود ، بدون قرار . لكن اذا ملوهم كان ما فيهم يبسمثوا نصيصة ، لأنهم
بيروهو يغطسوا في المويه وبينوموا فوق المرجان نوم شديد وما يبسمثوا اى شي
أبدأ أبدأ » .

— « لعمرى اننى لأكاد أكون من رأيك في هذه المسألة . لذلك أختم انت
بنثر البركات يا فليس ثم أذهب انا لتناول العشاء » .

ولما سمع فليس هذا شبك يديه أمامه فوق رؤوس جمهوره السمكي ورفع
صوته الأجش صائحاً :

— « اكواني المثلثون . اثلثوا دوشة ملثونة كثير قد ما انتو تريدوا . ملوا
كروشكم المثلثونة هتى تنفجر ثم تموتوا » .

فقال اسطب وهو يستأنف عشاءه عند المسحاب : « والآن أيها الطباخ قف
حيث كنت تقف قبلاً ، هنالك ، قبالي وكن على انتباه » .

— « كلي انتباه » — ذلك ما قاله فليس وانحنى ثانية فوق ملقطه في وضع
كالذي أمر به سيده .

وانطلقت يد اسطب في الطعام وهو يقول : « سأعود الى موضوع هذه
الشرائع مرة أخرى . أولاً : كم عمرك ، أيها الطباخ ؟ »

فقال الاسود العجوز في برم : « شنو دخل الأمر في مسألة الشرايين ؟ »

— « اخرس ! كم عمرك ؟ »

فتمتم مكتئباً : « تسئين تقريباً — كذا بيقولوا » .

— « أعمّرت هذا العمر كله حتى ناهزت المائة ، أيها الطباخ ، ثم لا تعرف كيف تشوي شرائح حوت ؟ » ثم ملأ فيه بلقمة أخرى بعد ان لفظ آخر كلمة ، حتى كانت اللقمة كأنها تكملة للسؤال . « أين ولدت يا طباخ ؟ »

— « وراء باب الأنبر في مئديّة ثؤوم في روانوك » .

— « ولدت في معدية ؟ هذا غريب ايضاً . أريد ان أعرف اي بلد ولدت فيه يا طباخ ؟ »

فصاح بجدة : « مش قلت لك في منطقة روانوك ؟ »

— « لا ، لم تقل ذلك ايها الطباخ . ولكنني سأخبرك بما استخلصته يا طباخ . عليك ان تعود الى وطنك لتولد من جديد . انك لا تزال تجهل كيف تسوّي شرائح الحوت » .

فجرد واستدار لينذهب وهو يقول مبربراً : « أليّ لأنة ان سوّيت واهدة تانية » .

— « ارجع يا طباخ — هات الملقط ، خذ هذه الشريحة وقل لي هل تظن أنها مسوّاة كما يجب ؟ خذها ، أقول — » ومدّ اليه بالملقط — « خذها وذقها » .

فوضع الزنجبي المعجوز قطعة اللحم بين شفثيه لحظة وتلمسها ثم تتم :

« أهسن شريحة دقتها في هياقي . طرية ، رخصة جداً » .

واعتدل اسطب متوازناً مرة أخرى وقال : « هل تنتمي الى الكنيسة يا طباخ ؟ » فقال المعجوز متبرماً : « مريت بكنيسة مرة في كيب تاون » .

« اذن مررت مرة في حياتك بكنيسة مقدسة في كيب تاون ولا ريب أنك سمعت الراعي الصالح فيها يخاطب مستمعيه بقوله : اخواني المحبوبين أليس

كذلك يا طبّاح ؟ ومع ذلك فأنت تأتي هنا وتكذب عليّ هذه الكذبة الشنعاء ،
أليس كذلك ؟ » وأردف قائلاً : « أين تراك تتوقع ان تذهب ؟ »

فتمتم وقد استدار نصف دورة قائلاً : « اذهب الى السرير هالاً » .

— « قف ! — ارس ! — أعني حين تموت يا طبّاح . سؤال رهيب فما
جوابك عليه ؟ »

فقال الزنجي في بطء وقد غيّر هيأته وسجنته : « لما الأسود الأجوز دا
بيموت هو نفسه ما داير يروه مكان لكن فيه واحد ملاك مبروك بيحي
ياكده » .

— « يأخذه ؟ كيف ؟ في عجلة تجرها أربعة خيول كما أخذوا ايليا ؟
ويأخذونه الى أين ؟ »

— « فوق » قال فليس ، ورفع ملقطه مستقيماً فوق رأسه ، وأبقاه هنالك
في خشوع شديد .

— « كذا اذن تتوقع ان تذهب الى قمة الصاري الرئيس ، اكذلك هو يا طبّاح
حين تموت ؟ لكن ألا تعلم انك كلما أبعدت في الارتفاع زادت شدة البرد —
قمة الصاري الرئيس ، أكذلك ؟ »

فقال فليس وقد عاد اليه تبرمه : « داك أنا ما قلته أبداً » .

— « قلت : فوق ، أليس كذلك ؟ والآن انظر انت نفسك الى اين يشير
ملقطك . ولكن لعلك تتوقع ان تصل الى السماء زحفاً من خلال « الثقب
الأعلى » يا طبّاح . لا . لا يا طبّاح ان تبلغ هناك الا بالطريق المستقيم اي ان
تدور وتذهب من ناحية الاشرعة والحبال . عمل مخفوف بالمجازفة ولكن لا
بد من ادائه والا فلا ذهاب . لكن لم يذهب أحد منا الى السماء بعد . أنزل

ملقطك يا طبّاح واستمع الى أوامري . أتسمع ؟ أمسك قبعتك باحدى يديك ، وضع الأخرى على قمة قلبك حين ألقى اليك أوامري يا طبّاح . ماذا ! أهذا موضع قلبك هناك ؟ - ذلك هو حوصلتك . ارفع . الى أعلى - أي نعم - ها قد وجدته ؛ ضع يدك هنالك وانتبه . »

« كلي انتباه » - ذلك ما قاله الاسود العجوز وقد لبّى ما أمره به سيده ، وهو يلوي رأسه الاشمط كأنه يريد ان يضع أذنيه الاثنتين أمامه معاً في آن واحد .

« أنت ترى أيها الطبّاح ان هذه الشرائح التي صنعتها كانت غاية في الرداءة ، ولذلك غيبتها انا عن الانظار بأسرع ما أستطيع ، أنت ترى ذلك ، أليس كذلك ؟ لذا اذا سوّيت لي شرائح من لحم الحوت في المستقبل لتقدمها الى مائدتني هذه الخاصة - أعني المسحّاب - فاني أخبرك ما يجب عليك ان تصنعه كي لا تزيد في إنضاجها . ارفع الشرائح في يد وضع فحمة حمية في يدك الأخرى فاذا فعلت ذلك فاشوها . فهمت ؟ وغداً يا طبّاح حين نأخذ في تقطيع الحوت كن على مقربة مني لكي أعطيك رءوس زعانفه ، فتضعها في الخلّ أما أطراف شطري الذنب فعليك ان تتبّلها ، يا طبّاح . هذا كل ما هنالك . تستطيع ان تذهب . »

وما كاد فليس يبعد ثلاث خطوات حتى استدعاه اليه وقال : « أريد كستلاتة في عشائي غداً مساءً في النوبة الوسطى . سامع ؟ أبحر عني اذن . هالو ! قف ! نحن قبل ان تذهب . كف عن الحركة مرة أخرى . بيض الحوت لفظوري - لا تنسَ » .

فتمتم الرجل العجوز وهو يظلع مدبراً : « والله كنت أهب ان الهوت ياكله بدل هو ما ياكل الهوت . ملئون أنا ان لم يكن هو قرش اكثر من سيد القرشان كلها » - قال هذه القولة الحكيمة ومضى الى مضجعه .

الحوت بين الوان الطعام

قد يكون من المستغرب المستهجن ان يغتذي المرء بالحيوان الذي يغذي بشحمه قنديله، وان يأكله - كما فعل اسطب - على ضوء شحمه المحترق ؛ ولما كان هذا الامر غريباً فلا بد لي من ان أسهب في تبيان شيء من تاريخه ومن الفلسفة الكامنة وراءه .

في الروايات ان لسان الحوت الاثني كان يعد في فرنسا منذ ثلاثة قرون طريقةً لذيذة، ويكلف طاعمه غالياً . وان طاهياً في بلاط هنري الثامن حصل على مكافأة لطيفة لانه ابتكر مرقاً شهياً يؤخذ مع البربوز المشوي ، وانتم تذكرون ان البربوز من فصيلة الحيتان . ولا يزال حوت البربوز حتى اليوم يعد حقاً أكلة لذيذة اذ يكتب لحمه في كرات بحجم كرات البليارد، وتقبل وتمزج بالبهارات حتى ليحسبها من رآها كرات لحم السلحفاة او لحم العجل . وكان الرهبان القدامى في دنفرملاين مغرمين بها، وكان الملك يمنحهم منحة كبيرة من اجل الحصول على البربوز .

والحق ان جميع صيادي الحوت - على الاقل - يعدون لحمه لوناً رفيعاً من الطعام لو لم يكن مبدولاً لهم بكثرة . ولكن المرء يفقد شهوته الى الاكل حين يجلس ازاء سنبوسكة من اللحم تكاد تبلغ مائة قدم طولاً . ولذلك لا يقبل على اكل لحم الحوت في ايامنا إلا من كان بعيداً عن التنوق المسرف مثل اسطب ؛ أما الأسكيمو فليسوا على حظ من التنوق ونحن جميعاً نعلم انهم يعيشون على أكل

لحم الحيتان، ولديهم غلة عتيقة نادرة من زيت القطارات المعتقد الفاخر . ويصف زغرندا - وهو من اشهر اطبايهم - قطعاً من الشحم للأطفال لانها رخصة مغذية^١ . وهذا يذكرني ببعض الانجليز الذين اتفق ان خلفتهم حوامة في جزيرة جرينلاند منذ عهد بعيد فقد عاش هؤلاء حقاً على كسر وفضلات مفرغة من حيتان القيت على الشاطئ بعد انتزاع الشحم، وظلوا على ذلك اشهر عديدة . وهذه الفضلات يسميها الهولنديون « الفراطر » - الفاكمة المقلية بالدهن - وهي حقاً تشبها كثيراً لانها دهماء هشة ورأحتها كرائحة الجوز المعجونات او الكعك الهش المبسوس بالدهن، وهي طازجة لدى ربات البيوت بامستردام منذ عهد . ولها منظر مطمع بالأكل حتى ان اشد المتعيفين ممن لا يعرفونها يكادون لا يستطيعون ان يكفوا ايديهم عنها .

ولكن بما يبغض حظ الحوت فيحرمه من ان يكون لونا ثني عليه الحضارة هو تزارته وسمنته الفائقة . فهو في البحر كالثور الذي يسمّن لينال صاحبه الجائزة، تحول شحومته دون الاستمتاع به . تأمل حردبته، فلعلها كانت طيبة للأكل كحردبة الجاموس (وهي تعد لونا نادر المثل) لو لم تكن هراماً شائخاً من الشحم . أما زيت الحوت نفسه فما أشد عذوبته وزبديته، كأنه لب جوز الهند الابيض الشفاف الذي انعقد بعضه هلاماً في الشهر الثالث من عمره، الا انه بالغ الدسم فلا يصلح بديلاً من الزبدة . ومع ذلك فان كثيراً من الحواتين لديهم طريقة من خلطه بمادة اخرى ثم الافادة منه . فالبحارة في نوبات الرقابة الطويلة ليلاً كثيراً ما يغمسون البسكويت في مراحل الزيت الضخمة ويقولونها فيه زمناً؛ وكم من عشاء لذيذ صنعت له نفسي كذلك .

أما اذا كان حوت العنبر صغيراً فان نحته يعد لونا لذيذاً من الطعام، اذ يكسر

١ هذه المعلومات عن الاسكيمو استمدتها ملفل من اسكورسي، اما اسم الطبيب فلعله واحد من الاسماء التي وضعها للسخرية من اسكورسي نفسه مثل « القبطان سليميت » وغيره .

قحفه بفأس، ويسقط شطرا المنخ، وتسحب الفلقتان اللتان يغلب عليهما البياض (وكأنهما صحنان كبيران من المهلبية) ثم يخلط بهما الدقيق، وتسوى منها أشهى أكلة، تشبه في طعمها طعم رءوس العجول، وهي لون محبب الى نفوس اهل اللذاذ البوهيميين، وكلنا يعلم ان بعض الفتيان الفارحين من البوهيميين يكثرون من تناول مخ العجول وبذلك يصبح للواحد منهم تدريجاً نخه الصغير الخاص به، فيمكنه حينئذ ان يميز بين رأس العجل ورأس نفسه، وهو أمر يتطلب قدرة فائقة على التمييز دون ريب. وهذا هو السر في أن الفتى العجل الفاره الذي نال قسطاً من الذكاء يمثل — اذ يوضع رأس العجل قدامه — منظرأ باعثاً على الحزن لا مثيل له. ذلك ان الرأس كأنما ينظر نحوه ويقول له بلسان الحال : « حتى انت يا بروتس ! »

وأبناء البرّ ينظرون الى أكل الحوت في تقزز ونفور، ولعل هذا غير ناجم من ان الحوت كله دهني. وانما ينشأ فيما يبدو من اعتبار سبق ذكره وهو ان المرء يحب ان يأكل شيئاً من صيد البحر طازجاً وان يأكله على ضوء مستمد منه. لكن لا ريب في ان اول رجل ذبح ثوراً عدّ قاتلاً ولعله شنعاً، واذا كان الذين حاكموه ثيراناً فمن المؤكد انهم حكموا عليه بالموت شنعاً، وهو يستأهل ذلك المصير دون ريب ان كان القاتل يستأهل الاعدام. اذهب الى سوق اللحم مساء السبت وانظر الحيوانات التي تمشي على رجلين تحديق في صفوف الحيوانات الميتة ذوات الارجل الاربع. أليس هذا المنظر ينتزع ضرساً من فك امرئ قرم الى أكل لحوم البشر؟ أكلة لحوم البشر؟ أي امرئ ليس كذلك؟ لو ان امرءاً همجياً من فيجي ملّح مبشراً نحيفاً وحفظه في بيته ليكون زاداً في مجاعة متوقعة، لو ان هذا الهمججي الحريص فعل ذلك لكان فعله مقبولاً محتملاً يوم يقوم الناس للحساب اكثر من عملك انت ايها النهم العفج المتحضر المستنير، انت يا من تطرح الاوز ارضاً وتولم على أكبادها المنتفخة حين تتناول : مكيباً من اكباد الاوز السمينة وقد طبق بالشحم والكمأة.

غير ان اسطب يأكل الحوت على ضوء زيتة؛ أليس كذلك؟ فهو يضيفي اهانة على الأذى، أليس كذلك؟ انظر الى مقبض مديتك يا عزيزي النهم المتحضر المستنير وأنت تأكل لحم البقر المحمر، من أي شيء صنع ذلك المقبض؟ — ألم يصنع من عظام شقيق الثور الذي تأكله؟ وبأي شيء تحلل اسنانك بعد ان تلتهم إوزة سمينة؟ بريشة من ذلك الطائر نفسه. وبأي قلم يخط سكرتير جماعة مكافحة الظلم والتعذيب الواقع على الاوز منشوراته الرسمية؟ ان الجمعية لم تقرر استعمال قلم الصلب (استيليو) وحده دون سواه إلا منذ الشهر الماضي او الشهرين الماضيين.

مذبحة بين اسماك القرش

حين يصاد حوت العنبر بعد العناء الطويل المضني ، في رحلة صيد بالبحار الجنوبية ، فانه يجنب الى السفينة في ساعة متأخرة من الليل ، واذن فليس في المعتاد - بعامه - ان يبدأ البحارة بتقطيعه وتجزئته . لان هذا عمل شاق لا يتم في سرعة ويتطلب تعاون الايدي جميعاً . ولذلك جرت العادة ان تطلق الاشرعة جميعاً وان تثبت الدفة متجهة نحو اليسار ، وأن يؤمر كل فرد بالتوجه الى مضجعه حتى ينبلج الصبح مع تحفظ واحد : هو ان تبقى حراسة المرساة مستمرة حتى يحين ذلك الوقت اي ان البحارة يظلون مثنى مثنى دورياً يصعدون الى ظهر السفينة ليروا ان كل شيء يجري على ما يرام .

ولكن هذه الخطة لا تفلح أحياناً وبخاصة على خط الصيد في المحيط الهادي ، لان جيوش القرش التي لا تحصى تجتمع حول الجثة المرفأة ، فلو تركت كذلك نحو ست ساعات مثلاً متمدة لما بقي حتى الصباح شيء سوى هيكلها . أما في اكثر الجهات الاخرى من المحيط نفسه حيث لا تتكاثر هذه الحيوانات الى هذا الحد فان وحشيتها العجيبة يمكن تجنبها والتقليل منها وذلك بالتهويب عليها بمجارف التحويت الحادة ، وهو عمل قد لا ينتج عنه سوى اغرائها ببذل مزيد من النشاط ولكن الحال لم يكن كذلك في حال أسماك القرش التي احتشدت حول الباقوطة ، مع ان اي امرئ لم يتعود مثل هذه المناظر لو أشرف على جانبها تلك الليلة لأدركه الظن بأن البحر المحيط بها كله انما هو قطعة كبيرة من الجبن وان القرشان هي ديدان متولدة فيها .

ومع ذلك فان الهياج بين هذه القرشان لم يكن ضئيلاً حين تقدم اسطبط الى

حراسة المرسى بعد ان انتهى من عشائه ، وحين ظهر كويكوج وبجار من القائمين في المقدمة على ظهر السفينة ؛ ذلك ان هذين البحارين حالما أوقفا مراحل القطع من فوق جانب السفينة ودليا ثلاثة قناديل حتى تلقي أشعة طويلة المدى على البحر العكر ، أخذا يزرقان مجارف التحويت الطويلة ويقتلان القرشان قتلاً ذريعاً متواصلًا * وذلك بأن يضربا الفولاذ الحادّ ضرباً نافذاً في جاحها ، وهي الجزء الحيوي الوحيد منها فيما يبدو . ولكن في ذلك المضطرب المزبد الذي تتقلب فيه جيوش مختلطة متدافعة لم يستطع الراميان ان يصيبا الرمي دائماً . وهذا ما أوحى لهما بإحماء جديدة عن مدى الوحشية البالغة في خصمها اللدود . فقد كانت تنهس بمكر وخبث لا لتنزع أمعاء بعضها البعض فحسب وانما كانت كأنها توجه الضربات المرنة وتدور منحنية كأنها تريد ان تعض أمعاء نفسها ، حتى بدت تلك الاحشاء وكأنها ابتلعت مرة اثر مرة ، والفم الذي يبتلعها واحد لا يتغيّر ، ثم هو يفرغ ما ابتلع عن طريق الجرح المقابل المفتوح . ولم يقف الامر عند هذا ، بل ان معالجة جثثها وأشباحها لم تكن شيئاً مأموناً ، فقد كانت تعتلج في صميم مفاصلها وعظامها ، فيما يبدو ، قوة شاملة كبرى بعد ان تكون الحياة الجزئية قد بارحتها . فان واحداً من أسماك القرش بعد ان قتل ورفع الى ظهر السفينة لأجل أخذ جلده ، كاد ينتزع يد كويكوج حين حاول ان يطبق مغلق فكاه القاتل .

فقال ذلك الهمجي وهو يرفع يده وينزلها متألماً : « كويكوج لا يهتم اي إله صنعه قرشاً سواء أكان رباً من فيجي او من نانتوكت . لكن الرب الذي صنع قرشاً لا بد ان يكون آلة ملعونة » .

* مجرفة التحويت التي تستعمل للتحويش مصنوعة من اجود الفولاذ . حجمها حجم يدي رجل مبسوطتين . وشكلها العام يشبه المجرفة المستعملة في الجنائن الا ان جانبيها مسطحان ونهايتها العليا أضيق من السفلى . وتظل هذه الاداة على غاية من الحدة والمضاء فاذا استعملت عرضاً فانها تشحذ كموسى الخلاقة . اما مقبضها فانه عمود صلب يابس يفرس في نقرتها وطوله يتراوح بين عشرين وثلاثين قدماً .

تقطيع لحم الحوت

ليلة الاحد ؛ وأية راحة أعقبته ! ان العلماء الأعلام الذين يعتدون في الاحد بحكم الوظيفة هم الحواتون جميعاً. تحولت الباقوطة العاجية الى ما يشبه «السلكانة» وأصبح كل بحار فيها جزاراً، ولو رأيتنا لحسبتنا نقدم عشرة آلاف ثور ذبيح الى آلهة البحار .

أما اولاً فقد عاليننا مرفاعي الجزارة الضخمين وغيرهما من الاشياء الثقيلة، أعني مجموعة من البكرات مطلية باللون الاخضر، لا يستطيع رجل واحد ان يرفعها — عالينا ذلك العنقود العنبي الضخم الى قسة الصاري الرئيس وربطناه ربطاً محكماً الى رأس الصاري القصير، وهو أقوى نقطة فوق ظهر السفينة ؛ ثم أوصلنا نهاية الحبل الذي يشبه الماصر بعد ان ذهب متعرجاً خلال تلك المسارب الدقيقة المعقدة الى الدولاب الرافع ، وجعلنا المحالة الضخمة الدنيا في المرفاع تتأرجح فوق الحوت ، ووصلنا كلبوب التشحيم الضخم وهو يزن ما يقرب من مائة رطل بتلك المحالة الضخمة، وتعلق كل من استاربك واسطب فوق درجتين متفاوتتين على جانب السفينة وقد حملا مجرفتيها الطويلتين وأخذنا يحوفان حفرة في جسم الحوت ليغرزنا فيها الكلبوب عند أقرب نقطة من الزعانف الجانبية . ولما انجزنا ذلك حملاً حول الحفرة حملاً نصف دائري ، ثم أعلقا الكلبوب، وأخذت عصبة البحارة تصدح أناشيدها الغريبة وهي تأخذ في الرفع يداً واحدة

١ هذا فذ بين فصول القصة لانه لا يرمز لشيء وانما هو محض وصف ظاهري .

عند الدولاب الرافع . وسرعان ما مالت السفينة كلها على جنبها وأخذ كل دسار فيها يفتأ كأنه مِسْكٌ المسمار في بيت قديم تعرض لجوٍّ صقيعي . فهي ترتجف وتتقصض، وتنوض رموس صواربها المفزعة نحو السماء . وما تزال تميل نحو الحوت بينما كل خفقة لاهثة من الدولاب الرافع تجيب عليها الامواج بخفقة مسعفة . وأخيراً سمع صوت فرقة سريعة مثيرة، حيلُذٍ تدحرجت السفينة الى أعلى وإلى الخلف في اندفاق صاحب مبتعدة عن الحوت وأخذ المرفاع المنتصر يعلو أمام الانظار وهو يسحب وراءه الطرف النصف الدائري لأول قديدة شحم نزعته وسلخت عن الحوت . وبما ان الشحم يغلف الحوت كما يغلف البرتقالة لحاؤها ، كذلك فانه يسلخ عن جسمه مثلما يقشر لحاء البرتقالة عنها على نحو حازوني . لان قوة الشد التي يمارسها الدولاب الرافع باستمرار تجعل الحوت يتقلب في الماء فينسلخ عنه الشحم بذلك على طول الحزّ الذي يسمونه «الوشاح» وهو الذي يحزّه في الوقت نفسه الضابطان استاربك واسطب بجرفتيهما . وبنفس السرعة التي يتم بها السلخ ، وبالسلخ نفسه ، يظلّ الحوت طوال الوقت يرفع ويرفع الى اعلى حتى يلامس طرفه العلوي قمة الصاري الرئيس ، وعندئذ يتوقف الرجال عند الدولاب الرافع عن السحب ، وتظل الكتلة الضخمة التي تقطر بالدم مدة دقيقة او دقيقتين تتأرجح جيئةً وذهاباً كأنها مدلاة من الفضاء ، وعلى كل امرئ حاضر ذلك المشهد ان يحرص على ان يتفادى تأرجحها والا صكت صدغه وقذفت به رأسياً من فوق ظهر السفينة .

وعندئذ يتقدم احد الزّراّقين الحاضرين ثمة بسلاح طويل حادّ يسمى «سيف التخزين» ، ويفتetz الفرصة المواتية فيحدث برشاقة تجويفاً ذا سعة في الجزء السفلي من الكتلة المتأرجحة ، ثم يدخل في هذا التجويف طرف المرفاع الثاني البديل ويعلقه به بحيث يستبقي الشحم استعداداً لما سيلبي، وعلى الاثر يحذر هذا السيّاف جميع الرجال بأن يبعدوا، ثم يندفع اندفاعاً محكمة نحو الكتلة ويضربها بضع ضربات جانبية مستبسة نافذة، فيقطعها نصفين ؛ وبينما الجزء السفلي القصير ما

يزال مثبتاً فان القطعة العليا الطويلة وتسمى « قطعة البطانية » تتأرجح حرة على أهبة استنزائها، فيستأنف الرافعون في الامام اناشيدهم، وبينما يمضي احد المرفاعين في سلخ قطعة ثانية من الحوت ورفعها، يرتخي المرفاع الثاني ببطء، وتسقط القديدة الأولى من باب العنبر الكبير الى فضاء خالي لا أثاث فيه يدعى غرفة الشحم، وتظل الايدي العديدة الرشيقة في غبش تلك الغرفة تطوي « قطعة البطانية » هذه كأنها كتلة « حية » من الحيات المتلوية . هكذا يمضي العمل : المرفاعان يرتفعان ويهبطان بالتناوب، والحوت والدولاب الرافع كلاهما يتحركان صاعدين، والساحبون ينشدون، والرجال في غرفة الشحم يطوون، والضباط يحززون وشاحاً ، والسفينة تتوتر مشدودة ، وكل البحارة يشتمون بين الحين والحين كأنهم يخففون بلزوجة شتائمهم مقدار الاحتكاك العام .

البطانية

ليس قليلاً هو ذلك الاهتمام الذي تناولت به مسألة جلد الحوت، وهي مسألة كانت محط جدل، فقد جادلت في شأنها حواتين من ذوي الدربة ونحن في البحر، وناظرت حولها علماء طبيعيين مرموقين ونحن على البر، وظل رأيي الاصيل فيها ثابتاً لم يتبدل، الا انه رأيي وحسب .

ما هو جلد الحوت وأين هو؟ تلك هي المسألة؛ فقد تقدم الحديث عن شحمه وبذلك أصبحت ماهيته معروفة؛ ذلك الشحم يشبه ان يكون لحم بقرة متين وثيق الالياف، إلا انه أصلب من لحم البقرة واشد مرونة واكتنازاً، ويتراوح سمكه بين ثماني او عشر بوصات الى اثنتي عشرة او خمس عشرة بوصة .

قد يبدو من المحال لاول وهلة ان يتحدث المرء عن جلد حيوان ما، ثم يقول فيه انه يمثل هذا التركيب وذلك السمك، ولكن هذا في الواقع ليس حجة ناقضة تنفي كونه جلدأ، ذلك ان طبقة الشحم اذا نزعنا عن الحوت لم تبقى هناك أي طبقة كثيفة اخرى تلفته ويمكن نزعها عن جسده، واذا كان الحيوان ملفوفاً بطبقة خارجية — مهما تكن كثافتها — فأى شيء تسمى هذه الطبقة ان لم تسم جلدأ؟ نعم انك لتستطيع ان تكشف بيدك عن جثة الحوت السليمة التي لم يصبها تشويه مادة غاية في الرقة والشفافية، تشبه من نحو ما أسخف مزقة من غراء السمك، إلا انها تكاد تشبه في نعومتها ومرونتها «الساتان» — اعني قبل ان تجف — فاذا جفت صلبت وأصبحت هشة فضلاً عن انها تنكمش ويشد سمكها،

ولدي عدد كثير من هذه الجذاذات الجافة أستخدامها فواصل في كتيبي التي تتناول الحيتان . وهي شفافة كما قلت قبلاً، فكنت اذا وضعتها على الصفحة المطبوعة، أمتع نفسي اذ أتوهم انها ذات قدرة على التكبير . على أي حال، من اللاذ ان يطالع المرء ما كتب عن الحيتان بنظارات حوتية، ان صحّ التعبير . ولكن ما أرمي اليه في هذا المقام هو ان هذه المادة الغروية السخيفة التي أقرّ انها تتلبس جسم الحوت كله لا تصلح ان تعدّ جلداً له، وانما قد نعدها جلد الجلد، ان جاز ان اقول ذلك ، اذ من المضحك ان يقال ان جلد هذا الحيوان الهائل أوهى وأرق من بشرة طفل حديث الولادة . وحسبنا هذا .

فاذا سلمنا ان هذا الشحم هو جلد الحوت، واذا كان هذا الجلد في حال حوت عنبر ضخّم ينتج من الزيت ما يملأ مائة برميل، واذا اعتبرنا ان هذه الكمية او وزن ذلك الزيت الذي ذكرناه لم يؤخذ إلا من ثلاثة أرباع الجلد كله، عندئذ نستطيع ان نكوّن لنا فكرة عن ضخامة تلك الكتلة الحية، التي يمنحنا محض جزء من إهابها مثل هذه البحيرة من الزيت . فاذا قدرنا ان كل عشرة براميل تساوي طنّاً واحداً كان لدينا عشرة اطنان صافية تؤخذ من ثلاثة ارباع المادة التي منها يتكون الجلد كله .

والسطح الظاهر من حوت العنبر لا يعد بين العجائب أقلّها، — على كثرة ما لديه من عجائب — ؛ فيكاد هذا السطح كله ان يكون معاماً بعلامات مستقيمة لا تحصى تذهب في جُودٍ عريضة ، وتنحرف فتتقاطع وتتقاطع متشاجرة، كأنها أجمل خطوط النقش الايطالية . إلا ان هذه العلامات لا تبدو وكأنها طبعت على القشرة الغروية التي ذكرتها آنفاً وانما تبدو وكأنها ترى من خلالها أي كأنها منقوشة على الجسم نفسه . وليس هذا فحسب بل ان العين التي تبصر الامور بسرعة خاطفة قد لا ترى في هذه العلامات الخططة سوى مرسوم صالح لتنطبع عليه صور اخرى، كما هي الحال في فنون النقش الواقعي . تلك رموز

هيروغليفية إعني انك ان دعوت تلك النقوش العجيبة على جدران الاهرام
خطوطاً هيروغليفية، فهذه هي الكلمة التي تصلح ان تستعمل في هذا الصدد
ايضاً . لقد علقت بهذا كرتي الواعية صورة هذه النقوش الهيروغليفية على احد
حيتان العنبر، ولشد ما أثر فيّ ولفت انتباهي صحن يمثل الشخصوس الهندية
القديمة التي نقشت على الحسائك الهيروغليفية المشهورة على ضفاف المسيبي
الاعلى . وما من احد استطاع ان يفك طلاسم تلك الصخور وكذلك حال هذه
العلامات الغريبة على الحوت فانها ظلت مغلقة لا تجد من يحلّ معيّها . وهذه
الاشارة الى الصخور الهندية. تذكرني بشيء آخر . فالسطح الظاهري من حوت
العنبر يمثل للعين عدة ظواهر منها : ان ظهره، وبخاصة حوافي الظهر، تبدو في
كثير من الاحيان وقد طمس ما عليها من جدد وخطوط منتظمة او طمس
معظمها ، وذلك من أثر الكدمات العديدة العنيفة ، فيجيء منظرها شاذاً نادر
المثال . وأقول ان تلك الصخور الساحلية في نيوانجلند تلك التي تصوّر أجاسيز
انها تحمل علامات من الكشط العنيف بسبب احتكاكها بجبال عائمة من الجليد،
أقول : ان هذه الصخور غير ضعيفة الشبه بحوت العنبر في هذا المضمار . ويبدو
لي ايضاً ان مثل هذه الكدمات في الحوت ربما كانت بسبب احتكاكها بحيتان
اخرى معادية، لاني وجدت اكثر شيء ظهوراً في الحيتان الضخمة القارحة لا في
صغار الحيتان .

لا بد من كلمة او اثنتين حول مسألة جلد الحوت او شحمه . لقد قدمت
القول بأنه ينزع عنه في قداثد طويلة تسمى الواحدة « قطعة البطانية » . وهذه
تسمية موفقة جيدة الدلالة مثل معظم المصطلحات البحرية ، اذ ان الحوت
ملفوف حقاً بشحمه كما لو أنه ملفوف ببطانية حقيقية او عباءة . او قل : انه
قد لبس على رأسه وشاحاً هندياً وأرسله حتى غطى سائر جسده ، وبسبب
هذه الشملة المريحة التي غطت جسمه استطاع ان يظل مرتاح البال في كل الاجواء
والبحار والازمنة والتيارات . ماذا كان يحصل لحوت جرينلاند في بحار الشمال

الجليدية الزمهريرية لو لم يكن له تلك العبادة النافعة ؟ نعم ان أسماكاً أخرى تكون بالغة الحيوية والرشاقة في مياه الشمال الأقصى ، ولكن علينا ان نذكر بأنها أسماك باردة الدم لا رئات لها ، تتخذ من معدها أدوات تبريد ؛ هي مخلوقات تدفئ نفسها في ظل جبل من جبال الجليد مثلما يجلس الرحالة في الشتاء ليصطلي أمام موقد في فندق . أما الحوت فانه كالانسان ذو رئتين ودم حار ، فلو جمد دمه لمات . ما أعجب ان يألف هذا الحيوان الكبير الذي لا غنى له كالانسان عن دفء الجسد ، ما أعجب ان يألف المياه القطبية ويظل فيها مغموساً حتى مشفريه . مع ان البحارة اذا سقطوا عن ظهور سفنهم وجدوا احياناً بعد أشهر وقد تجمدوا قائمين في صميم حقول الجليد ، كأن احدهم ذبابة علق في كتلة دبق . ولكن اذا عرف السبب زال العجب ؛ على ان الأعجب من ذلك هو ان نعلم — حسبما شهدت به التجربة — ان دم الحوت القطبي اكثر حرارة من دم زنجي بورنوي في إبان القيظ .

يبدو لي أننا في هذا نرى فضيلة الحيوية المتفردة، وفضيلة الجدران السميكّة، وفضيلة السعة الداخلية ، وكلها فضائل فذة نادرة . يا ابن آدم ، امتلئ اعجاباً بالحوت واجعله لك مثلاً ، كن أنت أيضاً حار الدم وسط الجليد ، عش في هذا العالم وكأنك غريب عنه . على خط الاستواء ابق مبتدأ ناعماً ، وفي القطب احفظ دماءك سيالة في عروقك غير متجمدة ؛ احتفظ أيها الانسان في جميع الفصول بدرجة حرارية واحدة كأنك قبة كنيسة القديس بطرس العظمى او كأنك الحوت العظيم !

ما أسهل أن تلقي هذه النصيحة الجميلة وما أضرّ الرجاء في الإفادة منها ؛ فما أقل المباني التي أثّلت على مثال قبة القديس بطرس ! وما أندر المخلوقات التي تشبه الحوت ضخامة واتساعاً !

الجنّازة

«جروا السلاسل ! دعوا الجثة تتجه نحو الحلف»

لقد أنجز المرفاعان الكبيران مهمتهما ، وأخذ الجسد الابيض المسلوخ المقطوع الرأس يلتصق كأنه ضريح رخامي ؛ تغير لونه الا أنه لم يفقد شيئاً في تقدير البصر من حجمه ، ما يزال جبّار الجسامة يعوم ببطء مبتعداً نائياً ، وحيثان القرش الجائعة تشق الماء وترششه من حوله ، والطيور النائعة تحوّم تحويماتها الضارية المستلحمة فتكدر الهواء من فوقه ، وتندسّ مناقيرها في جنبه كأنها خناجر إهانة متوالية ، والشبح الضخم الابيض الذي احتز رأسه يعوم متنائياً متباعداً عن السفينة ، وكلما ابتعد عنها ذراعاً طويلاً ، كانت حيثان القرش من حوله كأنها عشرات الاذرع المربعة ، والطيور كأنها عشرات الاذرع المكعبة تزيد من طنين الهلاك ، وظلّ هذا المنظر الخفيف يلوح لأعين من في السفينة التي كانت كأنها ثابتة لا تجري ، مدى ساعات وساعات ؛ وتحت سماء صافية لازوردية وادعة ، وعلى وجه البحر الساجي الوديعة ، تلامسه الفسحات الجذلى ، ظلت هذه الكتلة الضخمة من الموت تعوم حتى اختفت في أحضان المدى اللانهائي .

تلك جنازة محزنة ساخرة موعلة في ما تبعثه من أسمى وسخر ! نسور البحر في كآبة سوداء خاشعة ، وقرشان الجوّ في سلاهما او ثياهما البقاء كما يستدعي الحداد . لقلما هرعت لعون الحوت - فيما أخن - وهو على قيد الحياة لو انه احتاج منها عوناً ، ولكنها جميعاً اندفعت تشهد في خشوع مأدبة جنازته ؛ يا للضراوة المفزعة فيك أيتها الارض ، حتى أقوى الحيتان لا ينجو منها سالماً .

وليست هذه هي النهاية . فما دامت حرمة الجسد قد انتهكت ، فان شبحاً منتقماً يبقى فوقه محلقاً يثير الفزع . فاذا رأتة من بعيد بارجة منحوبة أو سفينة كاشفة واهمة ، وقد أبهم البعد رؤية الطيور المحتشدة ، وظلت الكتلة البيضاء ترى عائمة تحت الشمس ، والرشاش الابيض يتعالى ازاءها ، عندئذ يفزع المسجل توأ الى سجل الرحلة ، فيقيد انه رأى - وما رأى سوى جثة الحوت المستسلمة - بأصابع مرتعشة : « شعاباً ، وصخوراً وموجات كباراً في تلك النواحي - حذار ! » ولعل السفن على مدى سنوات بعد ذلك تظل تجانب ذلك الموقع ، فتقفز عنه مثلما تقفز الاغنام الغبية فوق الفراغ لان راعيها قفز أصلاً وهو يحمل عصا في يده . ذلك هو قانون السوابق ، ذلك هو استغلال التقاليد ، تلك هي قصة البقاء المتشبث العنيد الذي تتمسك به المعتقدات القديمة ، تلك التي لا جذور لها في الارض ، بل وليست ساجحة في الفضاء ! تلك هي السنن !

كذا اذن : جسم الحوت العظيم في حال الحياة : قد يكون مصدر رعب حقيقي لأعدائه ، وشبحه في حال الموت يصبح رعباً وهمياً لكونه كامل .

أأنت ممن يؤمنون بالشباح يا صديقي ؟ في الكون أشباح أخرى سوى شبح كوك - لين ورجال أبعد فكراً من الدكتور جونسون يؤمنون بها ^١ .

١ حكي بوزول كيف ان جونسون غضب من اشاعة نسبت اليه أنه رأى شبحاً في كوك - لين ، وكتب مقالة في دحضها .

أبو الهول

ما كان يجوز لي ان أتجاوز عن ذكر قطع رأس اللويثان قبل ان يتم سلخه كاملاً . وقطع رأسه عمل علمي تشريحي يزهبه جرّاحو الحيتان المدربون كثيراً ، ومن حقهم ان يفعلوا .

اعلم أنه ليس للحوت ما قد يسمى رقبة ، بل ان أغلظ جزء فيه انما هو ذلك الموضع الذي يلتقي فيه رأسه بجسمه ، وتذكر ان الجراح لا بد ان يأتيه من على ، فيكون بينه وبين الجثة ثمانية أقدام او عشرة ، وهذه الجثة تكاد تكون مخفية في ماء عكر متضرب ، كثيراً ما يكون صخاباً خبيط الامواج . ولا تنس ايضاً ان عليه تحت هذه الظروف المنحوسة ان يبلغ حزّه عدة أقدام عمقاً في لحم الحوت ، وفي حالة هذا الاندفاع الغائر لا يستطيع ان ينال نظرة واحدة من الجرح الرغيب المتشجج الذي أحدثه ، ومع ذلك فان عليه ان يتحاشى بمهارة الأجزاء الجانبية المجاورة للمحز ، التي يحرم عليه ضربها ، وأن يسدد الضربة بحيث يشق النخاع في النقطة المتباعدة عند بداية دخوله في الجمجمة ، دون طيش او خلل . اذا عرفت كل ذلك ووعيته أفليس من حقه ان تعجب وأنت تسمع اسطب يتبجح قائلاً انه لا يحتاج الا الى عشر دقائق كي يحتز رأس حوت العنبر ؟

ما إن يقطع الرأس حتى يدحرج نحو الكوثة ويظل هنالك متمسكاً بمجبل الى ان يتم سلخ الجلد ، فاذا تمّ ذلك وكان الرأس رأس حوت صغير رفع على

ظهر السفينة حتى يجري تدبيره في تبصر وأناة ، غير أن هذا أمر مستحيل ان كان اللويثان قارحاً كبيراً لأن رأس حوت العنبر يبلغ ما يقرب من ثلث حجمه كله ، ومن العبث ان يحاول أحد تعليق مثل هذا الوزن ، حتى ولو كانت العلائق هي المرفاعين الضخمين في حوالة ، فمثل هذا يشبه من يحاول أن يزن هُرياً هولندياً بميزان الجوهري .

أما حوت الباقوطة فان رأسه ، بعد ان فصل عنه وسلخ جلده ، رفع ازاء جانب السفينة - فظهر نحو نصفه فوق الماء بحيث يظل محمولاً في معظمه على المادة التي ألفها . وهناك يظل الرأس الذي يقطر دمًا معلقاً على خصر الباقوطة كأنه رأس المارد هولوفرنس يتبدل من نطاق يوديت ^١ ، بينا الباقوطة مشدودة منحنية بانحدار فوقه بسبب الانحناء العنيف الذي مال فيه الصاري الادنى وقد نتأت كل دعامة سائدة فيها على ذلك الجانب كأنها « ونش » مشرف على الامواج .

كان الوقت ظهرأ حين نجزت هذه المهمة الاخيرة ونزل البحارة لتناول الغداء ، وخيم الصمت على ظهر السفينة الذي كان من قبل صاخباً فأصبح خلاء مهجوراً - ؛ رهو نحاسي راسخ كأنه نيلوفر أصفر غامر ، كان ما يزال يفتح أوراقه الخرساء الفضفاضة المترامية فوق وجه البحر .

ومرّت فترة قصيرة واذا بأخاب وحده يصعد من قته الى أحضان هذا

١ سفر يوديت من الاسفار الابوكريفية ، وهو يقص قصة غزو الملك الاشوري هولوفرنس وحصاره لمدينة بيتولية ، وكيف ذهبت الارملة يوديت وخادمتها لاغرائه ولما سكر في مأدبة أقيمت في اليوم الرابع قطعت رأسه وحملته في جراب الطعام الى المدينة ، فتشجع العبرانيون وطرّدوا الاشوريين .

الصمت العميق . فدار بضع دورات على الربة خلف الدقل الاعظم ، ثم توقف
يحدق عند جانب السفينة ، ثم تخطى ببطء الى السلاسل الكبرى وتناول بحرفة
اسطب الطويلة - وكانت ما تزال هنالك بعد ان فصل رأس الحوت عن جسده -
وغرزها في الجزء الادنى من الكتلة المعلقة نصف تعليق ، ثم وضع طرفها
الآخر مثلما يوضع العكاز تحت أحد ذراعيه ووقف متكئاً وعيناه مسلطتان في
تنبه شديد على ذلك الرأس .

كان رأساً أسود مقلّساً ، معلقاً في وسط تلك الهدأة العميقة فبدا وكأنه
رأس أبي الهول في الصحراء ؛ فتمتم آخاب قائلاً : « تكلم أيها الرأس الرؤاسي
الوقور ، فان لم يكن لك حلية تزينك فانك تبدو هنا وهناك أشيب بما علقك
من طحلب ، تحدث ايها الجبار وخبرنا عن السرّ فيك . انت بين القامسين أبعدهم
قسماً . ذلك الرأس الذي تتلألأ الآن فوقه الشمس العلوية قد جاب قرارة الكون
حيث اسماء غفل وأساطيل مجهولة يعلوها الصدا ، حيث آمال حبيسة ومراسٍ
كثيرة يدركها البلى ، حيث هذه الارض الفرقاطة قد تطرّمت في وقفها المهلكة
بعظام الملايين الذين غرقوا ؛ هنالك في دنيا الماء الرهيبة هنالك كان موطنك
خير موطن تألفه . لقد كنت حيث لا يبلغ صوت جرس او جسم غاطس ،
كنت تنام الى جانب كثير من البحارة ، بينا الأمهات مسعدات يمنحن حياتهن
رجاء ان يلحدن جثثهم . ولقد رأيت الحبيبين الحبيسين يقفزان من السفينة
المحرقة ، غرقا والقلب على القلب بين الامواج المصطفقة ، صدقا العهد حين تبدت
السماء لهما كاذبة ؛ رأيت الضابط القليل يقذف به القرصان في منتصف الليل عن
ظهر السفينة ؛ ساعات قضائها وهو ينحدر في ظلمة الفك الناهم وما يزال قتلته
يبحرون سالمين - بينا البروق الخاطفة تهز السفينة المجاورة التي كان في مقدورها
ان تحمل الزوج الامين الى ذراعين مبسوطتين مشتاقتين . آه أيها الرأس لقد
رأيت ما يكفي ليشق الكواكب ويجعل من ابراهيم الحنيف جانفاً ولم تنبس
بجرف « واحد » .

وصاح صوت مزهو من أعلى الصاري الرئيس : « هذاك شرع ! » فصاح
آخاب وقد انتصب فجأة : « صحيح ؟ هذا شيء مفرح » وأخذت تنزاح الغمام
الراعدة عن جبهته جانباً وأضاف : « هذه الصيحة الناعشة في هذا السكون
الراكد قد تحول رجلاً خيراً مني عن معتقده — كم تبعد ؟ »

— « ثلاث درجات عن يمين المقدمة يا سيدي وهي ترافق النسائم نحونا » .

— « خير وأبقى يا رجل . ليت القديس بولس جاء معها وجاءني بالنسائم
لتنعش ركودي . آه أيتها الطبيعة ، وأنت يا روح الانسان ما أبعد وفاقاك
المترابطة عن ان يحقها تعبير ؛ ليس في الكون ذرة تتحرك وتعيش على هذه
الكرة إلا ولها صنو ذكي يعيش في العقل » .

قصة السفينة يربعام

انطلقت السفينة والنسمات يدأب يد مصطحبتين، إلا ان النسمات جاءت أسرع من السفينة، فأخذت الباقوطة تتأيل .

ومن خلل المنظار تبين لنا - تدريجياً - ان قارب اولئك الغرباء ومراقب الصواري المزودة بحراسها في سفينتهم تدلّ على انها سفينة تحويت، ولكن حيث انها كانت مبعدة نحو مهبّ الريح، منطلقة، غادية فيما يبدو الى مجال صيد آخر، فان الباقوطة لم تكن ترجو ان تبلغها، ولذلك رفعت شارتها لتعرف اي جواب تتلقاه .

لا بد من ان أقول في هذا المقام ان لكل سفينة من سفن اسطول التحويت الامريكى شارتها الخاصة ، شأنها في ذلك شأن السفن الحربية ، وكل الشارات مدونة في كتاب ، وإزاء كل واحدة اسم السفينة التي تحملها، وقد زوّد كل قبطان بنسخة منه ، ومن ثم كان في مقدور قباطنة التحويت ان يميزوا السفن وهي في البحر، على مسافة غير قصيرة، بقدر غير قليل من اليسر .

أجابت السفينة الغربية اخيراً على شارة الباقوطة حين رفعت شارتها، فاذا بها سفينة اسمها « يربعام » من ناتتوكت . وبعد ان بسطت سواربها المصوبة نحو الخلف ، تحرّفت قليلاً وجعلت وجهتها على زاوية قائمة ضد المهب من الباقوطة وأنزلت قارباً ثم اقتربت، فأمر استاربك ان يهيا السلم الجانبي ليكفل صعود

القبطان الزائر، وعندئذ لوح هذا الغريب بيده من مؤخرة قاربه بما يفهم منه ان هذا الاجراء غير ضروري أبداً، وتبين ان مرضاً معدياً قد انتشر في يربعام وان قبطانها مايمويخشى ان تنتقل العدوى الى عصابة الباقوطة . نعم انه هو وملاحو قاربه ظلوا سالمين ، وكانت سفينته على بعد نصف طلقة من الباقوطة والبحر والهواء الواقيان يتدحرجان ويحريان فيما بين الفريقين ، الا انه امثل بوحى ضميره لاجراءات الحجر الصحي على البر فأبى اباءً مطلقاً ان يقارب الباقوطة مقارنة المتصافحين .

ولكن هذا لم يحل ابداً دون الاتصال ، فقد ظلت مسافة بضع ياردات تفصل بين قارب يربعام والباقوطة، وظلّ ملاحو القارب باستخدامهم للمجاذيف حيناً بعد حين، يدبرون بقاء القارب موازياً للباقوطة، فيما هي تتحرك متساكلة في الماء (وكانت النسب قد هبت حينئذ منعشة)، وشرع قبة الصاري الرئيس متقاعس للخلف . هذا وان كان القارب احياناً ينساق بعيداً امامها اذا فاجأته موجة كبيرة مندفعة ، إلا ان ملاحيه الماهرين كانوا يعيدونـه توّأ الى وضعه الصحيح . وجرت بين الفريقين محادثة كانت عرضة لمثل هذا وغيره من اسباب الانقطاع . و احياناً اخرى كان توقف هذه المحادثة ناشئاً عن اسباب اخرى جدّ مباينة للأولى :

فقد كان احد الملاحين في قارب يربعام رجلاً ذا مظهر فريد، يتجلى تفردّه حتى في حياة التحويت نفسها حيث التفرد هو محمل كل شيء . كان صغيراً قصيراً أميل الى الشباب ، منقّط الوجه بالكلف ، يلبس شعراً اصفر سابغاً كشيفاً . ويلتف حوله معطف طويل مفصل تفصيلاً غريباً شاذاً، ذو لون كلون الجوز باهت، وقد طوى كميّه الفائضين فأنحسرا عن معصميه، وفي عينيه سهوم عميق مستقر حادّ .

وما كاد اسطب يبصر هذا الرجل حتى هتف : « ها هو ! ها هو ! المهرج

ذو المطف الطويل الذي أنبأنا عنه بحارة تاونهو ! » وكان اسطب يشير بذلك الى قصة غريبة رويت عن «يربعام» وعن احد الرجال بين ملاحيها، في وقت مضى حين جرى الحديث بين الباقوطة وتاونهو. وحسب هذه القصة، ثم ما عرف من بعد، بدا ان هذا المهرج المذكور قد احرز سلطاناً بعيداً عجيباً على كل امرىء في يربعام . وهذه هي قصته :

تربى في الاصل في مجتمع ملتاث مؤلف من الدراويش الرقاصين (Shakers) في نسكيونا^١، فكان بينهم متنبئاً كبيراً، وكثيراً ما هبط عليهم من السماء في اجتماعاتهم السرية الهاذية من طاقة في السقف، معلناً أنه يفتح على التو الجام السابع^٢ الذي يحمله في جيب صدارته ، إلا انه من المفروض ان يحتوي على الافيون بدلاً من مسحوق البارود ؛ وقد تملكته نزوة رسالة فغادر نسكيونا الى ناتتوكت، حيث انتحل بقوة الحُبث الذي يمتاز به الجنون مظهرأ عاقلأ ركينأ، وتقدم في هيئة بحار غرّ ليكون احد الذاهبين في رحلة يربعام للتحويت، فقبلوه؛ ولكن ما كادت السفينة تغيب عن البرّ حتى انفجر جنونه فياضاً فادعى انه جبريل رأس الملائكة وأمر القبطان ان يقفز من فوق ظهر السفينة، وأذاع بياناً نصب به نفسه منقذاً لجزائر البحر، وكاهناً عاماً على كل الاوقيانوسات . وقد اعلن هذا كله في رصانة راسخة لا تهن، واتحدت هذه الرصانة مع اطوار خياله

١ نسكيونا على نحو ثمانية اميال الى الشمال من ألباني (نيويورك) ؛ هنالك أسست آن لي واتباعها اول جمعية شيكرية سنة ١٧٧٦، وكان الاتباع يرون فيها تجسداً ثانياً للمسيح في صورة امرأة، وقد جعلوا الملكية مشاعاً بينهم ونذروا التبتل، وقال بعض من كتبوا عنهم بروح عدائية: انهم يشبهون الماوية ويرقصون عراة ويخلدون بعضهم بعضاً عراة كذلك .

٢ انظر رؤيا يوحنا ١٦ : ١٧ «ثم سكب الملاك السابع جامه على الهواء فخرج صوت عظيم من هيكل السماء من العرش، قائلاً : قد تم» . ويرى بعض الشراح ان هذا يرمز الى الاعلام بسقوط رومة .

القائم الجسور المسهد الثائر، ومع كل المفزعات الحارقة التي يولدها البحران الهاذي فأكسبت « جبريل » هذا في عقل الاغلبية من الملاحين الجهلاء جواً من القداسة. أضف الى ذلك انهم كانوا يخشونه ؛ ولما كان مثل هذا الرجل غير ذي نفع عملي على السفينة، وبخاصة انه كان يأبى ان يعمل الا حين يشاء، فقد كان القبطان الذي لا يؤخذ بمثل شعوزته على استعداد لان يتخلص منه، وحين أبلغ رأس الملائكة ان هدف القبطان هو ان ينزله في اول مرفأ ملائم فتح كل محتوماته وجاماته، ودعا على السفينة وكل من فيها بالهلاك المطلق اذا نفذ ذلك الهدف . وكان اثره على حواريه بين الملاحين بالغاً حتى انهم ذهبوا اخيراً مجتمعين الى القبطان وأخبروه انه لن يبقى في السفينة منهم احد اذا هو أبعد جبريل عنها . لذلك اضطر الى ان يتخلى عن خطته . ثم انهم آلوا ألا يسمحوا بان يتعرض جبريل لمعاملة سيئة أياً كان ما يفعله او يقوله، حتى اتفق ان احرز جبريل حرية كاملة في السفينة؛ وكانت نتيجة ذلك كله ان رئيس الملائكة قلما احتفل بشأن القبطان والضباط، ومنذ ان انتشر المرض المعدي زادت سطوته اكثر من ذي قبل معلناً ان الطاعون - وهو الذي سمّاه كذلك - تحت أمره ونهيه، وانه لن يتدخل في إيقافه إلا حين يروق له ذلك . فكان البحارة، أولئك البؤساء المساكين، يتملقونه متذللين وبعضهم يداهنه اذا حضر . وأحياناً كانوا يؤدون له فروض الولاء امتثالاً لتعاليمه كأنهم في حضرة اله . مثل هذه الامور قد تبدو غير قابلة للتصديق ولكنها صحيحة مها تكن عجيبة . وتاريخ المشعوذين لا يبلغ في اثارته من حيث ما يمارسه المشعوذ نفسه من خداع ذاتي لا يحصر، إلا مبلغاً يسيراً اذا قيس بقدرته التي لا تحد على مخادعة الآخرين وخبيلهم . لكن حان الوقت لنعود الى الباقوطة .

قال القبطان آخاب من حافة السفينة يخاطب القبطان مايهو الذي كان يقف في مؤخرة القارب « أنا لا أخشى هذا المرض المعدي ايها الرجل، تعال، اصعد الى السفينة » .

فهب جبريل واقفاً على قدميه، وقال :

« اذكر الحمى، الصفراء منها والصفراوية، واحذر الطاعون الخفيف » .

فصاح القبطان مايهيو : « جبريل ! جبريل ! عليك إمّا ... » .

وفي تلك اللحظة دفعت موجة عامدة القارب بعيداً الى الامام وأغرقت وشوشتها كل حديث .

فقال أخاب حين عاد القارب الى موضعه : « هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

— « اذكر كيف ينشق قارب التحويت ويغرق . احذر الذنب المرعب » .

— « أقول لك يا جبريل مرة أخرى ... » واندفع القارب مرة ثانية الى الامام كأنما تجره الأبالسة ، ولم يقل أحد شيئاً خلال لحظات، بينما كانت تتوالى موجات صاخبة في تدحرجها ، لا ترفع القارب وانما تحاول ان تقلبه ، حسبما تجيء أحياناً بعض نزوات البحر العارضة . وفي الوقت نفسه كان رأس الحوت المرفوع يتأرجح بعنف ، وكان جبريل يلحظه بوعي لا تبسحه كثيراً طبيعته الملائكية .

ولما ان انتهت هذه الفاصلة بدأ القبطان مايهيو يقص قصة قائمة عن مويي ديك ، ولم يمض حديثه مسترسلاً دون مقاطعة من جبريل، حين كان اسمه يذكر ، ومن البحر المجنون الذي كان كأنه متحالف معه .

وتبدى ان « يربعام » لم تكن قد غادرت الوطن منذ مدة طويلة وأنها تحدثت الى حوآنة أخرى ، فعلم ناسها علماً يقينياً بوجود مويي ديك والدمار الذي أوقعه . وتشرب جبريل هذه الاخبار في جشع فأخذ يحذر القبطان في

جد رصين من مهاجمة الحوت الابيض، اذا ما ظهر ذلك الوحش ذات يوم، معلناً في جنونه الهاذي ان الحوت الابيض ليس سوى تجسد يمثل الرب الذي يؤمن به الدراويش الرقاصون ، والدراويش يتلقون التوراة . ولكن بعد سنة او سنتين رؤي مويي ديك من مراقب الصواري وأخذ ماسي رأس الضباط يتحرق شوقاً وحماسة للقائه ، وكان القبطان نفسه يرغب في ان لا يجرمه من تلك الفرصة ؛ ورغم شكاوى رأس الملائكة ونذره ، فقد استطاع ماسي ان يقنع خمسة من الملاحين بمرافقته في قاربه ، فاندفع معهم ، ووفق أخيراً - بعد تجذيف كثير مضى وهجمات عديدة خطيرة مخففة - في ان يحقق ضربة صائبة واحدة . وفي الوقت نفسه كان جبريل قد صعد الى قمة الصاري الملوكي وأخذ يقلب ذراعه في حركات مخنقة ويقذف بالتنبؤات عن المصير العاجل للمهاجرين الجزارين الذين يتعقبون ما زعمه رباً . وبينما كان ماسي الضابط يقف في مقدمة قاربه وهو ينفث هتافاته الوحشية ضد الحوت ، بكل ما أوتيته من طاقة سادرة عرفت بها قبيلته ، ويتأتى لعله يصادف سائحة يقذف فيها حربته المسددة ، عندئذ يا للهول ! ارتفع من الماء شبح ابيض عريض ، استل الانفاس من أجسام المجذفين مؤقتاً بحركته السريعة الخطّارة ؛ وفي اللحظة التالية طار الضابط المنكود وهو ممتلىء حياة متوقدة ، في الفضاء ، ثم هوى في الخناءة طويلة القوس وسقط في البحر على مسافة تبعد حوالى خمسين ياردة عن القارب ؛ لم تمس شذرة من القارب ولا شعرة في رأس اي مجذف بأذى وانما غطس الضابط وغاب الى الابد .

ولا بأس ان استطرّد في هذا المقام على سبيل التوضيح فأقول ان هذا النوع من الحوادث المهلكة في صيد حوت العنبر ربما كان مثل غيره من الحوادث الاخرى من حيث تكرره ، فأحياناً لا يصيب الأذى إلا الرجل الذي حاق به الهلاك ، وأحياناً أخرى يفصل مقدم القارب عن جسمه او ينفصل النوح الذي يقف عليه رائس القارب من موضعه ويذهب مرافقاً جثة الراس، ولكن أغرب

شيء في الأمر في غير حادثة أنه حين تسترد الجثة لا يرى فيها أي أثر لعنف وإنما كل ما هنالك أن الرجل مات متخشباً .

رأى من في السفينة ذلك المصاب كله وشهدوا كيف هوى ماسي بوضوح . وصاح جبريل بالملاحين الذين ضرب الخوف على قلوبهم يحذرهم من التادي في صيد الحوت هاتفاً ، « الجام ! الجام ! » وهذه الحادثة المفزعة وشحت رأس الملائكة بمزيد من نفوذ لأن حواريه السذج اعتقدوا أنه تكهن بالحادث عينه بدلاً من أن يعتقدوا أنه أرسل نبوءة عامة يستطيع أن يرسل مثلها أي إنسان ، واتفق له أن أصاب علامة من بين العلامات الكثيرة التي تقع في مجال الرماية . ومن ثم أصبح رعباً راعباً على السفينة .

وما أن ختم ما يهيو قصته حتى طرح آخاب عليه اسئلة لم يملك القبطان الغريب معها إلا أن يتساءل : أيهدف آخاب إلى صيد الحوت الأبيض أن سنحت لذلك فرصة ؟ فأجابه آخاب : « أجل » ، فانتصب جبريل على التو واقفاً مرة أخرى وحدق في الرجل المعجوز وصاح بصوت حاد وإصبعه تشير إلى الماء : « اذكر ، اذكر الكافر الجاحد - مات ، وغيبته الأعماق ! احذر سوء خاتمة كخاتمة الكافر الجاحد ! »

فاستدار آخاب جانباً ببلادة ، ثم قال لما يهيو : « أيها القبطان ، ها لقد خطررت ببالي الآن حقيبة الرسائل ، ففيها رسالة لأحد ضباطك أن لم أكن مخطئاً . استاربك هاتما من الحقيبة » .

كل حوالة تحتقب عدداً غير قليل من الرسائل لناس على سفن مختلفة ويعتمد تسليمها لأصحابها على المصادفة التي قد تيسر اللقاء بين السفينتين في عرض المحيطات الأربعة ، ولذا فإن معظم الرسائل لا تصل إلى حيث وجهت ، وكثير منها لا يتسلمه أصحابه إلا بعد أن يبلغ من العمر سنتين أو ثلاث سنوات أو أكثر .

عاد استاربك توأ وفي يده رسالة ؛ كانت مثناة مكسرة الحواشي رطبة، مغطاة بطبقة من العفونة الكابية البقعاء المخضوضرة لأنها أودعت في قمطر مظلم في القمرة . رسالة، يصلح ان يكون ساعي البريد الذي يحمل مثلها هو الموت نفسه .

فقال آخاب : « ألا تستطيع ان تقرأ العنوان ؟ هاتها يا رجل . نعم، نعم، انه خطّ باهت — ما هذا ؟ » وبينما كان يمعن فيها النظر تناول استاربك عصا بجرفة الجزارة الطويلة، ومشق بسكينه طرفها ليدخله في طرف الغلاف وبذلك يسلمها للقارب، دون ان يقترب دانياً من السفينة .

وفي الوقت نفسه كان آخاب يتمم وهو يرفع الرسالة بيده : « مستر هار، نعم، هاري (هذا خط دقيق كتبته امرأة — اراهن انها زوجته) نعم : مستر هاري ماسي، السفينة يربعم — لكن هذه باسم ماسي، وماسي قد مات ! »

فتنهذ مايهيو قائلاً : « مسكين ! مسكين ! ومن زوجه أيضاً، لكن لا بأس هاتها . »

فنهف جبريل بآخاب : « لا . احتفظ بها لنفسك فانك سائر في الأثر عما قريب . »

فصرخ آخاب : « خنقتك اللعنات ! — قف يا قبطان مايهيو ازائي حتى تتناولوها »، وأخذ الرسالة المشثومة من يد استاربك، ودس طرف العصا فيها، ثم مدّها بها الى القارب . وحين فعل ذلك توقف الجذفون شاخصين عن التجذيف فانساق القارب قليلاً نحو مؤخرة السفينة حتى اصبحت الرسالة فجأة ، وكان ذلك تم بفعل السحر، قريبة من يد جبريل المتلهفة ، فأطبق عليها يده توأ،

وتناول سكّين القارب، وغرزها في الرسالة، ثم أرسلها معاً الى السفينة، فوقعتا عند قدمي آخاب، ثم زعق جبريل في رفاقه ان يباعدوا التجذيف، وعلى هذا النحو جرى القارب المتمرد مندفعاً نائياً عن الباقوطة .

وحين استأنف البحارة - بعد هذه الوقفة - عملهم في جلد الحوت ألحوا الى كثير من الاشياء الغريبة وهم يومثون الى هذا الحادث العجيب .

جبل الفرد

يكثر الملاحون من الجري راثنين غادين أثناء العمل الصاحب في تقطيع الحوت وحراسته . فقد يتطلب العمل وجود عمال هنا ، ثم يعود فيتطلب وجودهم هنالك ، ولذلك لا يقر قرارهم في موضع واحد ، اذ لا بد من انجاز كل شيء أينما كان في وقت معاً . وهذا هو نفسه ما يلزم من يحاول ان يصف ذلك المشهد ، ولذا كان علينا ان نعاود الخطى قليلاً ، فقد ذكرنا ان كلبوب التشحيم يوثق في التجويف الأصلي الذي أحدثته مجارف الضباط حين جوفت ظهر الحوت اول مرة . لكن كيف يمكن لكتلة ثقيلة راجحة كذلك الكلوب ان تعلق في ذلك التجويف ؟ لقد أدخلها فيه صديقي الحميم كويكوج وكانت وظيفته من حيث هو زراق ان يهبط على ظهر الوحش من أجل تحقيق تلك الغاية المشار إليها ، وتتطلب الظروف — في حالات متعددة — أن يبقى الزراق فوق الحوت حتى تتم عملية تأريب الحوت او سلخه كاملة . ولنعلم ان الحوت يستلقي وهو يكاد يكون مغموراً كله بالماء الا الاجزاء المواجهة التي تجري فيها عملية السلخ او التأريب . وبذا يجهد الحوات المسكين جهده وهو في الاسفل على بعد نحو عشرة أقدام تحت مستوى ظهر السفينة ونصفه على الحوت ونصفه في الماء كلما دارت الكتلة الجسيمة من تحته كأنها الطاحونة . أما في هذه المناسبة التي نحن بصددھا فان كويكوج تزيأ بزي أهل المرتفعات ، اي لبس قميصاً وجرباناً ، وبدا لعيني — ان لم يكن في عيون الآخرين — وقد أفاد كثيراً من زيه الجديد ، ولم يتح لأحد مثلي ان يرى ذلك كما رأيته ، وذلك ما سأبينه بعد قليل .

ولما كنت أنا الملاح المقدّم في قارب هذا الهمجي ، اي الشخص الذي يحرك
المجذاف الواقع عند مقدمة قاربه (وهو الثاني من أمام) ، كانت مهمتي البهيجة
ان أرعاه وهو يقوم بزحفه العسير المتشبث الكدّام على ظهر جثة الحوت . لعلك
رأيت غلماناً إيطاليين يعزفون وهم يرقصون قرداً مربوطاً بجبل طويل . كذلك
ايضاً وأنا عند شفا جانب السفينة المنحدر ، أرسلت كويكوج أسفل مني في
البحر مربوطاً بجبل يسمونه في حرفة التحويت « جبل القرد » ، وهو موثق
بقطعة قوية من الخيش تنطق كويكوج بها حول خصره .

وكان العمل خطراً لكلينا على نحو ساخر عابث ، اذ عليّ ان أقول قبل
المضيّ قدماً إن جبل القرد كان معقوداً من كلا طرفيه : معقوداً حول نطاق
كويكوج الخيشي العريض ومعقوداً بنطاق الجلدي الدقيق . ولخيرٍ او لشرٍ
أصبحنا موقتاً مقترنين معقوداً فيما بيننا ، فلو ان كويكوج المسكين غطس فلم
يبرز أبداً لتطلبت العهود الوثيقة والعادة العريقة ان انجرّ في أثره لا ان أبت
جبل الوصل بيننا ، كان يربط بيننا - اذن - رباط سيامي مديد . وكان
كويكوج أخاً توأماً لي لا ينفصل مني ، وأنا عاجزٌ عن ان أتخلص من المحتملات
الخطرة التي تترتب على ذلك الوثاق القنبيّ .

وتأملت في حالي حينئذٍ تأملاً قوياً فلسفياً وانا أرقب حركاته في اهتمام ،
فكأنني أدركت بوضوح ان فرديتي انغمرت في شركة متضامنة قوامها اثنان ،
وان ارادتي الحرة قد أصيبت بطعنة نجلاء مميتة ، وان خطأ امرئ آخر او
سوء طالعه قد يغمس ذاتي البريئة في غمرة هلكة وموت دون جنائية أجنبيها .
لذلك رأيت في هذا الموقف « فترة خلاء » او توقف في العناية الالهية ، لان يد
المساواة السوية لديها لا يمكن ان تجيز مثل هذا الظلم الصراح . ومضيت في التأمل
وأنا أنتشلته حيناً بعد حين ، من بين الحوت والسفين ، حيث قد يعتصر حشراً ،
أقول : مضيت في التأمل فرأيت موقفني هذا هو موقف كل حيّ ذي نسمة تماماً ،

الا ان هذا الحيّ ، في أغلب الأحوال ، يكون مربوطاً بالوثاق السيامي ذاك الى كثرة كاثرة من الاحياء لا الى واحد فقط . فاذا أفلس البنك الذي يعامله أصيب هو بالانهيار ، واذا أرسل له الصيدلاني السمّ خطأ في حبات الدواء قضى نحبه . حقاً قد تقول لي ان المرء قد ينجو بالحيلة البالغة من مثل هذه المصادفات السيئة في الحياة ومن كثير غيرها . لكن لو أنه أمسك حبل القرد الذي يرتبط به كويكوج في حيلة وتنبه مثلما فعلت أنا ، فهل تراه ناجياً ؟ لقد كان كويكوج يشده أحياناً حتى أكاد أنزلق من فوق ظهر السفينة ؛ ولم يبارح خاطري قط ، مهما تناسيت الامر ، أنني لم أكن أملك التصرف الا بطرف واحد من ذلك الحبل * .

ألمعت الى انني كثيراً ما كنت أنتشل كويكوج المسكين ، من بين الحوت والسفين ، حيث كان يهوي حيناً بعد حين ، بسبب تدرج الاثنين وتأرجحهما . ولكن لم يكن الهلاك عصراً وضغطاً هو كل ما يتعرض له . ذلك ان القرشان لم تفزعها المجزرة التي جرت لها أثناء الليل فعادت تحفزها وتغري لهفتها من جديد رؤية الدم الذي بدأ يتدفق من الجثة بعد ان كان فيها حبيساً ، فاحتشدت تلك الحيوانات المسعورة حولها كأنها النحل في الخلية .

وكان كويكوج واقعاً في حومة ذلك الحشد الحاشد من القرشان ، وكثيراً ما كان يصدها عن نفسه بقدميه الجاهدين . ذلك شيء يكاد يعز على التصديق لولا ان القرشان المستكلبة التي تنهس اي لحم كانت في سائر الاحوال اذا هي أقبلت على فريسة مثل جثة حوت — تلك القرشان قلما تمس انساناً .

* كل الحيوانات مزودة بحبل القرد هذا ، ولكن الباقوطة انفردت دون الحيوانات بربط « القرد والقراد » في قرن ، ومثل هذا التحسين على العادة المتبعة انما ابتكره شخص في مثل كفاية اسطب ، لكي يهيء للزراق المحفوف بالخطر أقوى ما يمكن من فرص السلامة ، وذلك عن طريق الرقابة الامينة التي يقوم بها ممسك حبل القرد من الطرف الآخر .

على اي حال ما دام لها في كل عرس قرص فمن الحكمة ان يأخذ المرء حذره منها ويتوقاها بعين يقظة . ولم يكن حبل القرد وحده وسيلة وقاية للمحافظة على كويكوج ، نعم كنت أنتشل به ذلك الرفيق المسكين من جوار فكّ قرش أحسبه قرشاً ضارياً بالغ الضراوة ، ولكنه كان ايضاً مزوداً بوسيلة أخرى من وسائل الحماية ، فقد تعلق كل من طاشطيقو ودغة على درجة من درجات جانب السفينة وظلا يلوحان فوق رأسه بمجرفتين ماضيتين من مجارف التحويت ، فيذبجان بذلك كل ما قد يقع في متناول أيديهما من القرشان . وكان هذا الذي يقومان به عملاً كريماً خلواً من الغرض ، وأنا أقر أنها كنا يهدفان الى صالح كويكوج وسعادته ، ولكن مجرفتيهما الرعناوين ، وهما في حماستهما المتهورة لحمايته والذنب عنه ، ربما أطاحتا خبط عشواء برجل إنسان لا بذنب قرش خصوصاً وان كويكوج كان يختفي هو والقرشان احياناً تحت الماء الكدر المختلط بالدماء . غير أنني أقدر ان كويكوج المسكين ، فيما هو يتشدد ويلهث ومعه الكلّوب الحديدي الضخم — كويكوج المسكين ، فيما أقدر ، لم يصنع شيئاً سوى انه كان يصلي لإلهه بوجوده وقد ترك حياته وديعة في أيدي آلهته .

وكنْتُ أقول في نفسي اذ اسحب الجبل ثم أرخيه كلما أخبّ البحر : طيب طيب يا رفيقي وأخي التوأم . ما همك بعد كل ذلك ؟ ألسنت أنت الصورة الغالية لكل واحد فينا ولنا مجتمعين نحن الرجال في دنيا التحويت ؟ ذلك الاوقيانوس الذي لا قرار له وأنت تلهث فيه هو الحياة ، وهذه القرشان هي أعداؤك ، وهذه المجارف هي أصدقاؤك ، وبين القرشان والمجارف تقف انت ايها الفتى المسكين بين الحرج والخطر المؤسفين .

لكن ثبات ! فما يزال أمامك تهلل غبوء من أجلك يا كويكوج ؛ ذلك ان هذا الهمجي المضى تسلق السلاسل اخيراً ، وشفتاه زرقاوان وعيناه محمرتان ، ووقف وهو يقطر ماء والرعدة تهزه عند جنب السفينة ؛ ويتقدم

أمين المؤن منه وهو يلحظه بنظرات الطيبة والتهوين ويسلمه — ماذا يا ترى ؟
أيسلمه بعض جرع من كونياك لاذع ؟ كلا ! بل يسلمه أيها الارباب ، يسلمه
كأساً من الزنجبيل الفاتر المدوف في الماء !

وقرب اسطب وتسامل في ريبة : « زنجبيل ؟ أتراني أشم رائحة زنجبيل ؟ »
وحدث في الكأس التي لم تلمسها شفتا كويكوج بعد . ثم وقف كأنه لا يصدق
عينيه ، ثم مشى هادئاً نحو النادل المذعور وقال في بطء : « زنجبيل ؟ زنجبيل ؟
هل تتكرم فتخبرني أيها السيد العجّان ما هي ميزة الزنجبيل ؟ زنجبيل ! أهو
نوع من الوقود الذي تستعمله أيها الغلام العجّان لتشعل النار في هذا الهمجي الذي
ترعشه البرداء ؟ زنجبيل ؟ بحق الشيطان ما الزنجبيل ؟ فحم البحار ؟ خشب
النار ؟ كبريت الشيطان ؟ حرقاق ؟ بارود ؟ أقول بحق الشيطان ما الزنجبيل
هذا الذي تقدمه في كأس لكويكوج المسكين هنا ؟ »

ثم أضاف فجأة : « في تقديم الزنجبيل ما يشعر بدسياسة تحيكها جمعية
الدعوة الى تحريم الكحول » ، ثم تقدم من استاربك وكان قد عاد لتوّه من أمام
وقال : « ألا تنظر في هذا العقار يا سيدي ؟ شمه من فضلك » ثم أضاف وهو
يراقب وجه الضابط : « ان امين المؤن يا سيد استاربك قد بلغ من القحة بحيث
يقدم هذا الكالوميل والجلاب لكويكوج ، وقد عاد لتوّه من عند الحوت .
هل امين المؤن صيدلاني يا سيدي ؟ وهل لي ان أسأل ان كان هذا النوع من
المشروب هو الذي تُبعث به الحياة في جسم رجل نصف ميت غرقاً ؟ »

فقال استاربك : « لا أظن ذلك . فهذا شراب بائس جداً » . فصاح
اسطب : « أجل أجل أيها العجّان سنعلمك كيف تداوي زراقاً . دعنا من
أدويتك وطبك ها هنا . تريد ان تسممنا أليس كذلك ؟ لديك وثائق تأميناتنا
على الحياة ولذلك تريد ان تقتلنا جميعاً ، وتحصل على التعويضات . مش كده ؟ »

فصاح الغلام العجان : « لست انا الذي جلبت الزنجبيل . العمة إحسان هي التي جاءت به الى ظهر السفينة ، وأمرتني ألا أعطي الزرايين اي قطرة من الكحول ، وانما أعطيهم جرأة زنجبيل (يريد جرعة) » .

« جرأة زنجبيل . يا وغد بشدة امثالك لأمرها ، خذه ، وعُدْ به حالاً الى الحزانة وجيء بما هو خير منه . أرجو ألا أكون مخطئاً بهذا التصرف يا سيد استاربك . انها أوامر القبطان : ان يعطى الزراق جروكا^١ .

فأجاب استاربك : « حسبك . لكن لا تصفعه مرة أخرى وانما ... »

— « أوه انا لا أسبب الألم حين أضرب الا اذا ضربت حوتاً او شيئاً من نوعه ، وانما هذا الغلام ابن عرس . ماذا كنت تريد ان تقول يا سيدي ؟ »
« كنت أقول : اذهب معه وأحضر ما تريده انت نفسك » .

فلما عاد اسطب كان يحمل في احدى يديه قنينة سوداء وفي الاخرى نوعاً من علب الشاي ، اما الاولى فتحتوي كحولاً قوياً وقد سلمها الى كويكوج ، وأما الثانية فكانت التحفة التي جاءت بها العمة احسان وقد أهديت عن طيب خاطر للامواج .

١ grog : مشروب روحي قوي .

اسطب وفورك بصيدان واحداً من الحيتان الاثينة ثم يشركان عنده فى هديت

لا بد للقارىء من ان يتذكر بأنه كان لدينا طوال هذا الوقت كله رأس ضخمة لحوت عنبر، معلق على جنب الباقوطة . ولا بد لنا من ان نبقية مدلساً هنالك فترة من الزمن حتى تسنح لنا الفرصة فنوليه اهتماماً . أما في الحال الراهنة فان اموراً اخرى تلح علينا، وخير ما نصنعه الآن من اجل الرأس ان ندعو الله بان يظل المرفاعان يتحملان وطأة ثقله .

كانت الباقوطة قد انسابت تدريجاً في الماء خلال الليلة الماضية والغداة التي أعقبتها، وكانت تلوح على الماء بقع متناثرة من القشريات الصفراء فتدل دلالة غير مألوفة في ذلك الموسم بأن الحيتان الاثينة موجودة عن كشب، وهي فصيلة من اللويثان قلما يظن أحد انها تتربص في هذا الموسم في أي مكان قريب . وكانت البحارة جميعاً يأنفون من صيد هذه الحيوانات الوضيعة احتقاراً لشأنها، ولم تكن الباقوطة مفوضة لتجوب مناطق الصيد طلباً لها أبداً، وقد مرت بأعداد كبيرة منها قرب جزائر كروزيت دون ان تنزل لصيدها قارباً واحداً، ومع ذلك كله فمذ أصبح حوت العنبر مجنباً الى السفينة مفصول الرأس فقد صدر الاعلان الذي أدهش الجميع بأن صيد حوت اثنى في ذلك اليوم أمر لا بد منه إن سنحت فرصة لذلك .

وسرعان ما سنحت الفرصة ، فقد رؤيت نفاثات طويلة في اتجاه الريح ، ونزل قارباً اسطب وفلاسك لمطاردها ، وظل الملاحون يحذفون مبعدين حتى كادت رؤية القاربين تعز على الحراس القائمين فوق المراقب ؛ وفجأة رأوا على بعد عرمة عالية من الماء الابيض المختبط ، وجاء الثبأ بعد ذلك من الاعالي يقول ان احد القاربين او كليهما قد علق بالحوت ؛ ومرت فترة والقاربان واضحان للأنظار وكأن الحوت يسحبهما على استقامة نحو السفينة ؛ واقترب الوحش من هيكل السفينة كثيراً حتى خيل للناظرين انه يدبر مكيدة ، ولكنه انقض فجأة في دردور مائي على مسافة ثلاثة أذرع من الألواح واختفى عن الأنظار تماماً كأنه قس تحت قاع السفينة ، فانبعثت صيحة من السفينة تقول للقاربين : « اقطعوا الحبل ، اقطعوا » وكان القاربان في لحظة على وشك ان يصطدما بحجب السفينة اصطدامة قاضية ولكن كان ما يزال لدى القاربين فضل من حبليلهما في البرميلين ، ولم يكن قس الحوت بالغ السرعة ، فحلاً ما فضل من الحبلين ، وجذفا في الوقت نفسه ، بكل ما لديهما من قوة ليسبقا السفينة ، وكان هذا الجهاد في مدى بضع دقائق حرجاً بالغ الحرج اذ لما كان الحبلان المشدودان يرخيان في اتجاه واحد ، والمجازيف تعمل في اتجاه آخر ، فقد كان الشد المعاكس يهددهما بالانزلاق تحت السفينة ولكن كل ما كانا يريدان كسبه هو بضعة أقدام يفوتات بها السفينة ، فظلاً متشبثين بذلك حتى احرزاه . وعلى التو أحست السفينة برجفة سريعة تسري كالبرق على طول قاعها حين كان الحبل المشدود يحث من تحتها ، ثم فجأة ظهر للأنظار تحت مقدمتها وهو يكدم ويهتز ، ثم اخذت القطرات ترفض عنه حتى كانت كأنها كسر من زجاج تتساقط على الماء ، بينما ظهر الحوت للأنظار ايضاً بعيداً عنها . ومرة اخرى اصبح القاربان طليقين قادرين على اللحاق . إلا ان الحوت المعبي خفف من سرعته ، وغير وجهته على غير هدى وذهب حول مؤخرة السفينة وهو يجر القاربين خلفه حتى انها جميعاً كونت دائرة كاملة .

وزاد الملاحون في الوقت نفسه من جسر^٢ الجبلين حتى جانبها الحوت من ناحيتيه وأغمد فيه كل من اسطب وفلاسك حربتيهما بالتناوب، وظلت المعركة تدور حول الباقوطة، بينما اندفعت جموع القرشان التي كانت تحتشد من قبيل حول جثة حوت العنبر نحو الدم العبيط المهرق ثمة، وهي تجمع جرعات الظامىء من كل دفقة جديدة، مثما فعل الاسرائيليون العطاش عندما انبجست لهم اثنتا عشرة عينا من الحجر الذي ضربه موسى بعصاه .

وأخيراً تكاثف نفثه وتقلب وتقيأ على نحو غيف، واستقر على ظهره جثة هامدة .

وبينا كان رائسا القاربين منهمكين في إعداد جبال لربط ذنبه، وهما يحاولان بوسائل اخرى ان يضعوا الجثة وضعاً يمكن من جرّها، جرى بينهما حديث ذو شجون :

قال اسطب دون ان يبارحه بعض الاشتمزاز اذ تصور انه صاد حوتاً وضيعاً: «عجباً ما الذي يريده الرجل العجوز من هذه الكتلة من الشحم الخنزيري القدر» .

فأجابه فلاسك وهو يلف حبلاً احتياطياً في مقدم القارب : « ماذا يريد به؟ ألم تسمع ابدأ ان السفينة التي ترفع رأس حوت عنبر على جانبها الأيمن ورأس حوت أثين في الوقت نفسه على جانبها الأيسر، ألم تسمع ابدأ يا اسطب انها من بعد لا تنقلب ابدأ؟ »

— « ولم لا ؟ »

-- « لا أدري ولكني سمعت ذلك الشبح الصمغي الأمغر فيض الله يقول

ذلك ، ويبدو انه يعرف كل شيء عن سحر السفن وتعاويذها ، ولكني احيانا أحسب انه سيسحر السفينة الى ما لا تحمد عقباه . أنا لا أميل الى ذلك الفتى يا اسطب . هل لحظت أن عمامة شعره مضمفورة في صورة رأس ثعبان يا اسطب؟»

— « داهية تفرقه ! انا لا انظر اليه أبداً ، ولكن ان أتيت لي ليلة مظلمة وكان هو عند الحافة ولم يكن ثمة أحد انظر الى اسفل يا فلاسك » — وأشار الى الماء وهو يحرك يديه كلتيهما حركة غريبة « أيوه ! أفعل ذلك يا فلاسك ؟ أنا أرى فيض الله هذا شيطاناً متذكراً . هل تصدق تلك الحكاية الخرافية التي شاعت عن انه أخفي مهرباً على السفينة ؟ انا اقول انه الشيطان . أما لماذا لا ترى ذنبه فذلك لانه يخفيه عن الانظار وأظن انه يحمل ذنبه ملفوفاً في جيبه ؛ عليه اللعنة ! خطري الآن وأنا اتصور حاله انسه يحتاج دائماً دسراً ليحشوها في «بوز» حذائه . »

— « انه ينام في حذائه ، أليس كذلك ، اذ ليس لديه ارجوحة ولكني رأيته الليالي يضطجع في كبة حبل ملفوف » .

— « لا ريب في ذلك ، وكله بسبب ذيله اللعين ، فهو يلفه في نقرة الكبة الملفوفة » .

— « ترى اي شيء يفيد منه الرجل المعجوز ؟ »

— « لعله ينبغي مقايضة او مساومة فيما أظن » .

— « مساومة ؟ في أي شيء ؟ »

— « انك لتعلم ان الرجل المعجوز متوجه الهمة نحو ذلك الحوت الابيض ،

والشيطان يحاول ان يلعب بعقله ويجعله يقايض بساعته الفضية او بروحه او بأي شيء من هذا القبيل وعندئذ يسلمه مويي ديك » .

— « أف يا اسطب انك لتوغل بعيداً في تفكيرك؟ كيف يستطيع فيض الله ان يفعل ذلك؟ »

— « لست أدري يا فلاسك ولكن أقول لك ان الشيطان فتى غريب، شرير كذلك، انهم ليخبرون كيف ذهب يتجول في سفينة العلم القديمة ذات مرة وهو يبصبص ذنبه بطريقة شيطانية يسرة كأنه احد السادة وسأل ان كان الحاكم المعجوز في البيت، وكان حقاً في البيت، فسأل الشيطان ماذا تريد؟ فتقدم الشيطان وهو يتلعب بحوافره وقال له: « أريد جون ». فقال الحاكم المعجوز: « لأي غرض؟ » فقال الشيطان وقد تنمر غضباً: « وما شأنك انت؟ أريد ان استخدمه ». فقال الحاكم: « خذه ». وحق الاله يا فلاسك، لأن كان الشيطان لم يعطِ جون الكوليرا الأسيوية قبل ان يستطيع استمالته فاني رهن بأكل هذا الحوت في لقمة واحدة. لكن حدد البصر — ألم تستعدوا أنتم بعد؟ حسن، اذن فلنتقدم مجدفين وليبقى الحوت على موازاتنا » .

فقال فلاسك حين اخذ القارب ان يتقدمان ببطء ومعها حملها نحو السفينة: « أظنني سمعت مثل هذه القصة التي حكيتها ولكن لا اذكر اين سمعتها » .

— « في الاسبانيين الثلاثة؟ في مغامرات الجنود المحقى الثلاثة؟ هل قرأتها هنالك يا فلاسك؟ أظنك هناك قرأتها » .

— « لا، لم أرَ هذا الكتاب أبداً، غير اني سمعت به . لكن خبرني يا اسطب هل الشيطان الذي كنت تتحدث عنه آنفاً هو نفس الشيطان الموجود على الباقوطة؟ »

« هل انا نفس الرجل الذي أعان على قتل هذا الحوت ؟ أليس الشيطان يعيش الى الابد ؟ من سمع ابداً ان الشيطان مات ؟ هل رأيت قسيساً تسلب ثياب الحداد من اجل الشيطان ؟ واذا كان لدى الشيطان مفتاح يدخل به الى قمرة امير البحر أفلاتظن انه يستطيع ان يتسلل من ثغرة في سفينة ؟ ما قولك في هذا يا سيد فلاسك ؟ »

« كم تقدر عمر فيض الله يا اسطب ؟ »

فأشار الى السفينة وقال : « هل ترى الصاري الرئيس هناك ؟ حسن . هذا هو العدد واحد . خذ كل الاطواق الموجودة في عنبر الباقوطة ثم اقرنها معاً في صف مع ذلك الصاري لتعد أصفاراً ، فان هذا لا يمثل رقم البداية في عمر فيض الله ؛ ولو حشدت الحدادين جميعاً ليصنعوا أطواقاً كل طوق منها بمثابة صفر ، لما كانت الاطواق في الكون كافية لتمثل المطلوب من الاصفار . »

— « لكن افهم يا اسطب ، أظني قبل قليل سمعتك تتبجح بأنك تريد ان تقذف بفيض الله الى البحر ، ان سنحت لك فرصة مواتية . فان كان هو معمرأ بقدر هذه الاطواق التي تحكي عنها ، وان كان سيعيش الى الابد فما جدوى ان تلقيه عن ظهر السفينة ؟ خبرني . »

— « أغمسه غمسة ممتازة على اية حال . »

— « لكنه سيزحف ثانية . »

— « اغمسه مرة اخرى ، وأظل اغمسه كلما ظهر . »

— « هب انه خطر في رأسه ان يغمسك انت ، نعم وان يفرقك ، فماذا لديك ؟ »

— « كم أود ان أراه يجرب ذلك، اذن لخلقت فيه بعينين حمراوين حتى انه لن يجرؤ على ان يبرز وجهه في قمره امير سفينتنا مرة اخرى لفترة طويلة، واذن لظل وحيداً في اسفل عنبر^١ هناك حيث يقطن، فلا يظهر على الربعات العليا هنا حيث يتسلل كثيراً . لعن الله الشيطان يا فلاسك . أتظنني أخشى الشيطان ؟ من ذا الذي يخافه سوى الحاكم المعجوز الذي لا يجرؤ ان يقبض عليه ويغلّ يديه باصفاذ مضاعفة، وذلك هو ما يستأمله، وانما يخلية طليقاً يخطف الناس، أجل بل وعقد عهداً معه يقضي بأن كل من اختطفه الشيطان شواه هو له ؟ اي حاكم هو ! »

— « هل تظن ان فيض الله سيخطف القبطان آخاب ؟ »

— « هل أظن ؟ عما قليل ستعلم ذلك يا فلاسك، لكني الآن ذاهب لأسلط عليه عيناً يقظة، واذا رأيت شيئاً مريباً يجري أمسكت به من مخنقه وقلت : اسمع يا « بعل ذباب » اياك ان تفعل ذلك، واذا أتى بأي لغط، فوالله لأدسن^٢ خطافاً في جيبه بجحاً عن ذنبه ثم آخذها الى المسحاب، وهناك ألويه لياً عنيفاً وأدفعه دفعا حتى ينقطع ذنبه من معقده، سامع ؟ وأنا اقدر انه حين يجد نفسه أبتز به هذه الطريقة الملتوية فانه سينسل^٣ هارباً دون ان يحس^٤ بلذة الرضى عن وجود ذنبه بين رجليه .

— « وماذا ستصنع بالذنب يا اسطب ؟ »

— « اصنع به ؟ أبيعه سوطاً وأقول انه سوط بقري^٥ حين نعود للوطن، وماذا غير ذلك ؟ »

١ orlop وهو اوطى ربة في السفينة .

« هل تعني ما تقول وما كنت تقوله طوال هذه العودة يا اسطب ؟ »

— « أعني او لا اعني ، ها نحن وصلنا السفينة » .

نودي على القاربين ان يسجبا الحوت الى الجانب الأيسر من السفينة حيث سلاسل الكلايب وغيرها من الضروريات كانت قد أعدت لتأمين ربطه .

فقال فلاسك : « ألم أقول لك ذلك ؟ نعم سترى رأس هذا الحوت الاثنى قد رفع تواء إزاء رأس حوت العنبر » .

وقد صدق قول فلاسك في الوقت المناسب . وبعد ان كانت الباقوطة تميل بانحدار شديد نحو رأس حوت العنبر استعادت استواءها كما كانت قبلاً حين توازن الرأسان ، وان كانت تئن تحت هذا العبء الثقيل . انك اذا علقت على احد جانبيك . رأس الفيلسوف لوك ملت الى ذلك الجانب وعندئذ ما عليك الا ان ترفع رأس الفيلسوف كانت ، على الجانب الآخر فيتم التوازن ، ولكنك تقع في ورطة بائسة . بعض العقول تظل الى الابد وهي تراعي هذا التوازن في محاولتها ؛ يا لكم من حمقى ! ألقوا هذه الرؤوس التي تشبه الغيم المتلبد من فوق ظهر السفينة وعندئذ تعومون بخفة ولا تضلتون .

ان ما اتبع من اجراءات تمهيدية في التخلص من جثة حوت العنبر ، يجري ايضاً في حال جثة الحوت الاثنى حين يجنب الى السفينة . الا ان رأس حوت العنبر يقطع جملة واحدة ، اما رأس الحوت الاثنى فيؤخذ منه المشفران واللسان ، وترفع جميعاً الى ظهر السفينة مع تلك العظمة السوداء المعروفة المتصلة بما يسمى « التاج » . ولكن البحارة لم يعملوا أي شيء من هذا القبيل حينئذ وانما علقت الجثتان كليهما وتدلنا عند الكوئلة ، فأصبحت السفينة المحملة بالرأسين تشبه بغلاً يحمل عدلين باهظين .

وطوال ذلك كله كان فيض الله يلحظ رأس الحوت الاثين في سكون،
وينقل نظراته دائماً وابدأ من التفضينات العميقة هنالك الى الخطوط في رأسه ؛
واقف ان وقف آخاب بحيث انطبق ذلك البارسي على خياله، واذا كان للبارسي
خيال اي خيال فانه اشتبك مع خيال آخاب وزاد في طوله . وحين مضى
الملاحون يجهدون كانوا يتطارحون الحديث في تأملات لابية^١ حول الامور التي
مرت جميعاً .

١ نسبة الى (اللاب) سكان لابلاند، واللاب كلمة سويدية تعني (البدر) وهم في الاصل قبيلة
مغولية ، ألباتهم الهجمات المتوالية الى أقاصي الشمال من اسكندنافيا وروسيا ؛ وقد جعلهم تجواهرهم
ومناخ بلادهم والحرف التي يحترفون يؤمنون بالسحرة والسواحر والتائم والرق .

رأس هوت العنبر - موضع مفارقة

ثمة حوتان كبيران تجاور رأسهما فلنربطهما معاً ولنقرن اليهما رأساً من رءوسنا . وحوت العنبر والحوت الاثني حسب الجسامة هما أبرز الحيتان ، وهما الحوتان الوحيدان اللذان يصيدهما الانسان بانتظام ، ويمثلان لدى الحوات النانتوكتي طرفي الانواع المعروفة من الحيتان جميعاً . وبما ان الاختلاف الظاهري بينهما ملحوظ على أشده في الرأسين ، وبما ان كلا الرأسين متدل من جانب الباقوطة في هذه اللحظة ، وبما أننا نستطيع ان نتنقل بحرية بين الواحد والثاني وذلك بأن نعبّر ظهر السفينة وحسب ، فاني أحب ان أعرف أين يمكنك ان تنال فرصة خيراً من هذه لتدرس علم الحيتان دراسة عملية ؟

وأول ما يلفتك هو المفارقة العامة القائمة بين هذين الرأسين : كلاهما جسيم دون ريب الا ان في رأس حوت العنبر اتساقاً رياضياً ، يفتقر اليه رأس الاثني افتقاراً مؤسفاً . وفي رأس حوت العنبر حظ أوفر من قوة الشخصية فاذا رأيته حكمت له لا ارادياً بالتفوق الهائل في أمر الرفعة الشاملة ؛ وبما يزيد من هذه الرفعة في الظرف الراهن لون رأسه الهجان عند قمته فهو يشبه مزيجاً من الفلفل والملح ، وتلك شارة السنّ العالية والتجربة الواسعة . فهو — بايجاز — ما يسميه الصيادون في مصطلحهم « حوت أشيب » .

ثم لنلاحظ أقلّ أوجه التباين بين الرأسين أعني أهمّ جارحتين وهما العين والأذن : في مكان قصي على جانبي الرأس ، وفي موضع نازل قرب الزاويتين عند

فكفي الحوت اذا فقتشت بدقة وجدت آخر الأمر عينيّن لا أهداب لهما ولقد تحسبها عيني مهر صغير ، وهما لا يتناسبان في صغرهما أبداً مع ضخامة الرأس .

وبما ان عيني الحوت قد ركبتا في جانبي رأسه فمن الواضح أنه لا يستطيع ان يرى شيئاً واقعاً أمامه تماماً ، مثلما أنه لا يستطيع ايضاً ان يرى ما خلفه ، أعني أن موضع عينيّه حيث تقع أذنا الانسان ؛ وتستطيع أن تتخيل كيف تكون حالتك وأنت تتملى الاشياء الجانبية بأذنيك ، وستجد أنك لا تقدر ان تحرز سيطرة بصرية الا على نحو ثلاثين درجة من الرؤية أمام الخط الجانبي المستقيم للنظر ، وثلاثين درجة الى الوراء ، واذا كان عدوك يتجه نحوك عامودياً من أمامك ، وقد رفع خنجره في وضح النهار ، لم تستطع أن تراه ، بأكثر مما تراه لو كان يتسلل إليك من ورائك ؛ واذن لكان لك وراء ان ، ان صح التعبير ، إلا أن لك في الوقت نفسه أمامين (جانبيين) اذا ما الذي يجعل الأمام أماماً بالنسبة للانسان ، ماذا سوى عينيّه حقاً ؟

ثم إن أكثر الحيوانات الأخرى التي تخطر على بالي قد ركبت العينان فيها بحيث تمتاز فيهما قوة النظر حتى تتكون لدى الدماغ فيها صورة واحدة لا صورتان ، أما الموقع الفذ لعيني الحوت ، وقد فصلت بينها عدة أقدام من رأس مصمت ناتئ بينها كأنه جبل كبير يفصل بين بحيرتين في واديين ، فانه يفصل تماماً الانطباعين اللذين تتلقاهما الجارحتان كل على حدة . ولذلك فلا بد للحوت من ان يرى صورة واضحة من هذا الجانب وأخرى واضحة من ذلك الجانب بينما يكون ما بينهما ظلام عميق أو خلاء مديد ؛ واذن فقد نقول : ان الانسان ينظر الى الكون من مرقب كالصندوق فيه نافذة واحدة ذات فروازين . أما الفروازان عند الحوت فقد وضعا منفصلين فخلقاً بذلك نافذتين متمايزتين ، وشوها المنظر على نحو مؤسف . وهذه الميزة في عيني الحوت شيء لا بد من تذكره في التحويت ، ولا بد للقارئ من ان يتذكره في بعض المناظر التالية .

وقد نأخذ هنا في ذكر مسألة غريبة محيرة كثيراً تتعلق بهذا الأمر البصري المتصل باللويانان ، غير أنني سأقنع في هذا المقام بلمحة يسيرة فأقول : ما دامت عينا الانسان مفتوحتين في الضوء فالرؤية عمل غير اختياري ، اي أنه لا يملك إلا أن يرى آلياً ما قد يقع أمامه من أشياء . ومع هذا فان تجربة أي امرء تدله بأنه يستحيل عليه ان يتفحص شيئين تفحصاً دقيقاً كاملاً — كبيرين كانا او صغيرين — في لحظة واحدة ولو كان الشيطان متجاورين متلامسين ، وان كان يستطيع في لحظة واحدة ان يشمل جميع ما يقع تحت عينيه . ولكن اذا فصل الشيطان أحدهما عن الآخر، ورسم دائرة عميقة السواد حول كل منهما، فانه ان شاء ان يرى أحدهما بحيث لا ينساه أبداً كان عليه ان ينفي الشيء الآخر من وعيه نفسياً تماماً . فكيف يكون الأمر اذن في حال الحوت ؟ حقاً ان عينيه كليهما لا بد أن تعمل في وقت معاً ولكن هل يكون دماغه يا ترى أشد إحاطة وجمعاً ولباقة من دماغ الانسان حتى انه ليستطيع في نفس اللحظة من الزمن أن يتفحص في دقة منظورين متمايزين يقع أحدهما على أحد جانبيه ويقع الآخر على الجانب المضاد ؟ فان كان يستطيع ذلك فذلك فيه شيء عجيب ، كالرجل الذي يقدر ان يتغلغل في مسألتين رياضيتين متمايزتين من مسائل اقليدس ، في وقت معاً . واذا أنت تدبرت هذه المقارنة بدقة لم تجد لها نافية مفتعلة .

وبعض الحيتان اذا هاجمتها ثلاثة قوارب او اربعة أخذت تتقلب وتتذبذب في حركتها على نحو شاذ غريب، وأدركها الهلع واستبدت بها المخاوف المستغربة كثيراً ، وأنا أظن أن هذا ينجم بطريقة غير مباشرة من الحيرة المحيرة الجازعة التي تعترى ارادتها ، وهي حيرة يوقعها فيها انقسام قوة الابصار في اتجاهين متضادين ؛ ولعل هذا الرأي خاطرة من خطرات الوهم ، إلا أنها كثيراً ما كانت تبدو لي تفسيراً لما يصيب بعض الحيتان من هلع .

ولا تقل أذن الحوت في غرابتها عن عينه ؛ واذا لم يكن لك معرفة وثيقة

يجنس الحيتان فانك قد تجوب بنظرك جميع نواحي هذين الرأسين مدة ساعات ثم لا يقع نظرك على أذنه . فليس للأذن أي صوان خارجي ، وقناتها صغيرة دقيقة حتى لا يكاد القلم يدخل فيها ، وموقعها على مسافة قليلة خلف العين ، وبين الحوتين ، العنبر والأثين ، فرق في الأذن لا بد من مراعاته : فأذن حوت العنبر ذات فتحة خارجية ظاهرة أما أذن الثاني فانها مخفية وراء غشاء حتى لا ترى من خارج .

أليس عجباً ان لا يبصر الكون مخلوق "جسيم" كالخوت إلا بعين كعينه صفراً ، ولا يسمع الرعد إلا بأذن أصغر من أذن الأرنب ؟ ولكن لو كانت عيناه واسعتين كعدستي تلسكوب هرشل الضخم^١ ، وكانت أذناه رحبتين كدهاليز الكاتدرائيات ، أكان ذلك يجعل نظره أبعد مدى وسمعه أحداً ؟ أبداً . إذن فلم تسعى أن «توسع» عقلك ؟ خير لك أن تجعله دقيقاً نحيلاً .

ثم تعال بنا نستعمل كل ما لدينا من عتلات وآلات بخارية كي نقلب رأس حوت العنبر حتى يصبح عاليه سافله ، ثم لنصعد الى قمته على سلم ونحدق النظر في فمه ؛ - ولولا أن الجسم قد فصل منه لاستطعنا على ضوء قنديل ان نهبط الى معدته التي تشبه كهف الماموث بكونتيكي^٢ ، وهو كهف وسيع . ولكن دعنا نستمسك بهذا الباب ونلقي النظر حيث نحن على ما حولنا . ما أجمل هذا الفم الطاهر البريء ! انه مخطط من أذناه الى أعلاه ، او قل مغلف بغشاء أبيض وضأء أملس مصقول كأنه ثوب الزفاف .

١ هو السير وليم هرشل (١٧٣٨ - ١٨٢٢) صنع تلسكوباً كبيراً عام ١٧٨٩ وبه اكتشف الفلك السابع للكوكب زحل .

٢ اكتشف هذا الكهف ادمند لي عام ١٨٣٤ - ١٨٣٥ .

ولكن هيا اخرج من موضعك وانظر الى هذا الفك السفلي المشوم الذي يبدو كأنه غطاء طويل ضيق فوق صندوق سعوط ضخم ، ذو عضادة عند احدى نهايتيه بدلاً من جانب واحد . فاذا رفعته حتى جعلته فوق مستوى رأسك وعرضت أمامك صفي أنيابه بدلاً لك وكأنه متراس فظيع ، وهو كذلك -- ويا للأسف -- لدى كثير من الآدميين المساكين في حرفة التحويت حين تطبق عليهم هذه « الرزّات » بقوة نفاذة . ولكنه أشد فظاعة ، حين تبصره حوتاً ضجراً وأنت على بعد قامات تحت الماء ، وقد عام هنالك معلقاً ، وفكه الهائل الذي يبلغ طوله خمسة عشر قدماً معلق مدلى على زاوية قائمة مع جسده كأنه صاري البوم في السفينة . هذا الحوت ليس ميتاً وانما هو فاتر العزم وحسب ، أو لعله منحرف المزاج ، سوداوي . وهو متراخ منبطح حتى ان عضادتي فكيه قد استرختا ، وجعلتاه يبدو في ذلك اللون من الورطة القبيحة عاراً على بني جنسه ، وهم دون ريب يستنزلون عليه داء الكزاز ، ولا بدّ .

واذا حضر فنان في شئون الحيتان فانه يستطيع ان يفكّ عضادتي هذا الفك بسهولة ، وبذلك يُفصل هذا الفك السفلي في معظم الأحوال ويرفع الى ظهر السفينة لانتزاع الانياب العاجية وللحصول على تلك العظمة الحوتية الصلبة التي يبدع بها الصيادون جميع أنواع الأدوات العجيبة ومنها : القنوات وقوائم المظلات ومقابض سياط الحيتالة .

ويجر الفكّ صعداً على نحو طويل شاق كأنه الأنجر . وحين يحل الوقت المناسب ، أي بعد بضعة أيام تنقضي على الأعمال الأخرى ، يبدأ أطباء الأسنان المتمرسون وهم كويكوج ودغة وطاشطيقو بسحب أنيابه ، فيحسر كويكوج

اللثة بمجرقة جزارة حادة ، ثم يربطون الفك الى حلقات في الدسر ، ثم يسلطون عليه مرفاعاً موثقاً من الأعلى ويسحبون بقوته الأسنان مثلما تسحب ثيران متشجن جذم السنديانات الهرمة من الغابات البرية . وتبلغ الأسنان اثنتين وأربعين وتكون في الحيتان الهرمة نخرة دون ان تتعفن ، غير ان الحيتان لا تحشوها حسبما يفعل الآدميون . ثم ينشر الفك بعد ذلك في صفائح ويكُدّس كما تكُدّس الدعامات لبناء الدور .

رأس الحوت الاثني - موضع مفارقة

لنلقِ نظرة طويلة كاشفة ونحن نعبّر ظهر السفينة على رأس الحوت الاثني .
مثلاً ان رأس حوت العنبر النبيل قد يقارن في شكله العام بعربة الحرب
الرومانية (وخاصة المقدمة حيث يستدير في سعة واستفاضة) فكذلك رأس
الحوت الاثني لدى النظرة الشاملة يحمل شبيهاً جافياً بحذاء ضخّم ذي «بوز» كأنه
مقدّم الجليوت . ومنذ مائتي سنة شبه شكله رحالة هولندي بقلب الحذاء،
وفي هذا القلب او الحذاء تستطيع تلك المرأة العجوز التي تذكر في حكايات
الاطفال ان تسكن آمنة مطمئنة هي وجميع ذريتها .

وما ان تقترب من هذا الرأس الكبير حتى يتخذ له جوانب مختلفة حسب
موقفك وأنت تنظر اليه، فاذا وقفت عند ذروته وتطلعت الى وقي نفثه اللذين
شقا على شكل f حسبت الرأس كله كأننا ضخمًا جهيراً، وحسبت الوقيين ثقبيين
في الصندوق الذي يخرج منه الرنين . ثم اذا أثبت عينيك في ذلك التطعيم
الغريب المقنزع الذي يشبه المشط، على قمة الرأس - ذلك الشيء الاخضر المحازن
الذي يسميه أهل جرينلاند: «تاج» الحوت الاثني ويسميه صيادو البحار الجنوبية
«قلنسوة» ذلك الحوت - اذا أثبت بصرك على هذا الشيء وحده حسبت
الرأس جذع سديانة ضخمة في مقعرها عش طائر . وأنت على اي حال اذا
رقت هذه السرطانات الحية التي تعشش في قلنسوته فلا بد من ان يخطر لك مثل
ذلك الخاطر إلا ان كان خيالك قد قيدته لفظة «تاج» التي تطلق عليه ايضاً، وفي
مثل هذه الحال سيلذك ان تفكر كيف ان هذا الحيوان الجبار ملك متوج من

ملوك البحار وقد عصّب باكليله على هذا النحو العجيب . ولكن ان يكن هذا الحوت ملكاً فانه امرؤ متبرم عبوس لا يشرّفُ تاجاً او اكليلاً . تأمل هذه الجحفة المدلاة : أي عبوس وتجهم مستفيض هنالك ! عبوس وتجهم لو قاس النجار مداها لجاء حوالي عشرين قدماً في الطول وخمسة أقدام في السمك، عبوس وتجهم تبلغ غلّته خمسمائة جالون من الزيت او تزيد .

ومن المؤسف ان يكون هذا الحوت المنكود أعلم الشفة، ويبلغ علّمهُ قدماً واحداً في سعته، ولعلّ أمّهُ ذات يوم من أيام الحمل كانت تبجر عند ساحل بيرو، حين شقت الزلازل الشاطيء فانفحق . ومن فوق هذه الشفة العلاء نزلق في داخل فمه كما نفعل فوق عتبة زلقة، ولعمري لو كنت في ما كناو لحسبت هذا الفم فضاءً كوخٍ هندي . رباه ! أهذه هي الطريق التي سلكها يونان ؟ سقفه يبلغ حوالي اثني عشر قدماً وينتهي بزاوية حادة كأن هنالك رافدة رئيسة ؛ أما الجوانب المضلعة المقوّسة الشّعراء فانها تقدم لنا تلك الألواح التي تشبه السيف العريض من عظم الحوت وهي نصف رأسية، ومنهما على كل جانب ثلاثمائة، أصولها في الجزء العلوي من الرأس او عظمة التاج او ما سمّيته «الستارة البندقية» وذكرته عابراً من قبل . وقد هدّبت أطراف هذه العظام بألياف شعرية يصفي الحوت الاثني الماء من خلالها، وبين مشابكها يحتفظ بالسمك الصغار حين يتجه مفتوح الفم خلال حقول من القشريات في موسم الغذاء . وفي الستائر العظمية الوسطى، حسبها هو ترتيبها الطبيعي، علامات وانحناءات وتجويفات وقنن كلها غريبة ومنها جميعاً يحسب بعض البحارة عمر ذلك الحيوان، كما يقدر عمر السنديانة من رؤية الحلقات الدائرية في جذعها . وهذا التقدير غير موثوق كثيراً ولكن فيه رائحة من الاحتمال القياسي ؛ واذا سلمنا به — على أية حال — فعلياً ان نقدر للحوت الاثني عمراً كبيراً لا توحى به النظرة الاولى ولا تجده معقولاً .

ويبدو ان الناس حين فكروا في هذه «الستائر» ، في الايام الغابرة ، ذهبوا

ففيها مذاهب من الوهم غريبة بمعنة في الغرابة فقد دعاها رحالة في مجموعة بركاس «المجاس» العجيبة داخل فم الحوت، ودعاها آخر «شعرات الخنازير» وقال ثالث في بعض رحلات هكليات مستخدماً لفظة أنيقة: «على كل جانب من جانبي هذه المعلمة العليا ما يقرب من مائتي زعنفة وخمسين، وتتنقوس فوق لسانه على جانبي فمه» .

هذه «الزعانف» او «شعرات الخنازير» او «المجاس» او «الستائر» او أياً ما دعوتها هي — كما يعلم الناس جميعاً — تزود السيدات بالمشاد، وغيرها من وسائل «التخصير والتكوير» . إلا ان الطلب على هذا النوع بخاصة آخذ منذ عهد بعيد بالتناقص، وقد بلغت عظام الحوت ذروة مجدها في عصر الملكة آن ، اذ كان لبس الفرنقل حينئذ شائعاً . وكانت السيدات في تلك الايام يتخطرن برشاقة بين فككي حوت — ان جاز القول — ونحن اليوم بمثل انسيابهن السادر نظير عند سقوط المطر متخذين فككي الحوت أداة وقاية اذ ما المظلة الاخيمة مدشورة على عمود من تلك العظام .

لكن انس لحظة كل ما قيل عن «الستائر» والمجسات، وانظر وأنت واقف في فم الحوت الاثنى حولك مستأنفاً : فاذا رأيت هذه الاعمدة ذات الاقواس من العظم مرتبة على نسق ألا تظن انك داخل أرغن هارلم^١ وأنت تحديق في الالوف من أنابيبه ؟ اما البساط الذي يفترشه الارغن فانه سجادة من أنعم ريش الدندي — هو اللسان الذي يلتصق بباطن الفم . فهو سمين رخص قابل لأن يتمزق قطعاً اذا رفعته الى ظهر السفينة . هذا هو اللسان نفسه أمام أعيننا أشمله بالحة وأقول انه «غلاّل ستة» أعني انه يعطي من الزيت ما يملأ ستة براميل .

١ أقيم هذا الارغن ١٧٣٤ - ١٧٣٨ وفيه ٥٠٠٠ أنبوبة، قطر الغليظة منها ١٥ انشا وأطولها تبلغ ٣٢ قدماً .

وكان عليك قبل ذلك ان تستوضح لنفسك صدق ما بدأت به - اعني حين قلت ان رأسي حوت العنبر والحوت الاثين يكادان يكونان مختلفين تماماً. وأجل ما فصلته فأقول : ليس في رأس الحوت الاثين نبع غزير من الزيت ولا أنياب عاجية وليس فكّه الاسفل على صورة ضبة طويلة نحيلة . وليس في حوت العنبر ستائر من العظم ولا جحفة ضخمة ويكاد ان يكون دون لسان ثم ان للحوت الاثين وقين للنفث ، وليس لحوت العنبر إلا وقب واحد .

ألق آخر نظرة على هذين الرأسين الوقورين المقلسين ما داما هنا معاً لأن أحدهما سيغطس في الماء بعد قليل لينسى أبداً ولن يتأخر الثاني بعده طويلاً .

هل تستطيع ان تتصور التعبير على وجه حوت العنبر ؟ انه التعبير الذي مات وهو يحمله ، إلا بعض التجميعات المستطيلة في جبهته فانها قد انبسطت ؛ وأنا أظن ان جبهته العريضة مليئة بالاطمئنان كأنها سهب من السهوب ، وأنها تولدت عن لامبالاته التأملية نحو الموت ؛ لكن الحظّ التعبير على رأس الحوت الآخر : انظر تلك الشفة السفلى المدهشة وقد لزّت عرضاً الى جانب المركب حتى أصبحت تعانق الفك بقوة أسر ، ألا يحدثك هذا الرأس كله عن تصميم عملي هائل في مواجهة الموت ؟ أنا أرى ان هذا الحوت الاثين كان رواقياً وان حوت العنبر كان افلاطونياً يمكن ان يعتنق مذهب اسبنوزا في السنوات الاخيرة من عمره .

قبل ان نغادر في هذا المجال رأس حوت العنبر أودّ لك ، وأنت الفسيولوجي العاقل ، أن تنبّه بخاصة الى جانبه الأمامي في اكتنازه وتحشده ، وأرى أنت تستطلعه رجاء ان تكون لنفسك تقديراً معتدلاً لبيقا عن اي قوة منجنيق مستقرة فيه . ها هنا مسألة حيوية فاما أن تسوي هذا الأمر بنفسك او تظل كافراً بحدث قد يكون من أشد الاحداث رعباً في التاريخ المدوّن وإن لم يكن أقلها حظاً من الصحة .

انك لتلاحظ أن مقدم رأس حوت العنبر وهو سابح في وضعه العاديّ يمثل خطأ يكاد يكون رأسياً على الماء ، وأنت تلاحظ أن الجزء السفلي من ذلك المقدم ينحدر متقاعساً بعض الشيء نحو الخلف كي يهييء مدخلا يندس فيه الثقب الذي يتلقى الفك السفلي الشبيه بالسارية ، وأنت تلاحظ أن الفم واقع تماماً تحت الرأس ، كما لو كان فمك تحت ذقنك ، ثم انت ترى فوق ذلك كله أنت ليس للحوت أنف ظاهر ، وأن ما لديه من أنف - وهو وقب النفط - واقع في قمة رأسه ، وترى أن عينيه وأذنيه على جانبي الرأس على بعد يساوي ثلث طوله من أمام ، ومن ثم تجد ان مقدم رأس حوت العنبر حائط مصمت جامد ليس فيه جارحة ما أو نتوء حساس من اي نوع كان . زد على ذلك أنك لا بد لك من أن تقدر أنت ليس ثمة اي أثر طفيف للعظم إلا في الطرف السفلي المنحدر المتجه نحو الخلف من مقدم رأس الحوت ، وأنت لا تبلغ التطوّر الحقيفي الكامل الا بعد ان تقطع ما يقرب من عشرين قدماً من الجبهة ، فهذه الكتلة الضخمة

اللاعظمية تشبه حزمة واحدة . وسنتحدث عما قليل في أنها تحتوي ألطف أنواع الزيت ، ولكن لنحدثك ها هنا عن طبيعة المادة التي تغلف هذا التآنت الظاهري بغلاف منيع لا ينفذ فيه شيء . وصفت لك في موضع سابق كيف ان الشحم يتلبس جسم الحوت مثلما يغلف اللحم البرتقالة ، وكذلك هو الحال في الرأس مع فرق واحد ، وهو أن هذا الغلاف حول الرأس غير كثيف ولا يعتمد في جساوته على عظم ، وذلك شيء لا يستطيع ان يقدره حق قدره من لم يتمرس به . فلو قذف بأمضى شاة سنان وبأنفذ حربة ، وكان الزراق أقوى الناس ذراعاً ، لندت عنه طائشة عاجزة حتى كأن جبهة الحوت قد رصفت بحوافر الخيل ، ولست أظن أن فيها إحساساً ما .

ثم تصور لنفسك شيئاً آخر : عندما يصادف ان تندفع سفينتان من سفن شركة الهند الشرقية ضخمتان مشحونتان احدهما نحو الأخرى في أحواض السفن فماذا يصنع البحارة ؟ انهم لا يضعون بينهما عند وشك الاحتكاك المرتقب أية مادة صلبة كالحديد او الخشب ، لا . وانما يسكون حزمة ضخمة مستديرة من الحبال والفلين ملفوفة في أكثف نوع وأمتنه من جلد الثور ، فتلك الحزمة تمتص — بشجاعة ودون ان يصيبها أذى — كل ارتطام لو حدث لكسر ما فيها من أنخال سنديانية وعتلات حديدية ، وهذا في ذاته يكفي ليوضح هذه الحقيقة الناصعة التي أرمي اليها ، ولكني أضيف شيئاً آخر : لقد خطر لي افتراضاً شيء استنتجته من ان في السمك العادي ما قد يسمى مثانة العوم وهي قابلة لارت تنبسط وتنبض حين تشاء ، وليس للحوت مثل هذه الأداة فيما أعلم ؛ غير أنني أعلم أنه ينزل رأسه كله تحت سطح الماء ثم يرفعه توأ ويسبح وهو قد أخرجه عالياً من الماء وذلك شيء لا يفسر ان لم تكن مثانة العوم فيه ؛ وحين قدرت هذا وقدرت المرونة الطليقة في غلافه وقدرت الداخل الفذ من رأسه ، أقول : حين قدرت هذه الأمور خطر لي افتراضاً أن تلك الخلايا الرؤوية الغريبة قد تكون ذات صلة بالهواء الخارجي ، صلة لا ريب فيها وإن ظلت حتى اليوم

بمجهولة ، فذلك هو الذي يجعلها قابلة للانبساط والانقباض الهوائي . وإذا كانت
ذلك كذلك فتخيل لنفسك صمود تلك القوة التي يسهم فيها أشد العناصر لطافة
وقدرة على التخريب .

تأمل ما هنالك : من خارج جدار جامد عاتٍ لا يخترقه شيء ولا يصيبه
أذى ، ومن داخل شيء بالغ الحفة والطفو ، وكونهما معاً كذلك أمر مشير
يقيناً ، ووراء ذلك كله تعوم كتلة من الحياة الهائلة ، لا تحتاج في تقدير الانسان
من التقدير إلا الى ما تحتاجه حزمة الحطب ، لا تحتاج إلا حبلاً يطوقها ، وكل
هذه الكتلة الهائلة تخضع لحركة واحدة كأنها أصغر حشرة . فإذا فصلت لك
من بعد كل مميزات القدرة الحالية في هذا الحيوان المديد وكل المراكز التي تتجمع
فيها عندما اريك بعض منجزاته الفكرية التي لا يعيرها الناس اهتماماً فاني
واثق من أنك حينئذ تكون قد نفضت عنك كل تسرع الى التكذيب الجاهل
وأخذت تركز الى ما أقول : فان قلت لك إن حوت العنبر قد شق طريقاً
خلال برزخ بنما ومزج الأطلسي بالهادي فانك لن تطرف لك جفن استغراباً .
ذلك أنك ان لم تملك الحوت فانك في جانب الحقيقة ما تزال غراً ريفياً او فتى
عاطفياً ، ولكن الحقيقة الناصعة شيء لا يواجهه إلا مرادة السمندل فما أقل
نصيب الأغرار منها ! ما الذي حدث للشاب المضعوف الذي رفع الحجاب
الخوف عن وجه الالهة في سيس^١ ؟

١ في الاصل : ليس ، وهو خطأ ؛ والقصة من قصيدة لشر تحكي حكاية شاب ساذج ذهب الى
سيس بمصر ليدرس أسرار الكهان . وقد حذره من تمثال « الحقيقة » الملغع بحجاب لها أصاح
لهم ؛ وفي اليوم التالي وجده الكهنة ممدداً غائباً عن الوعي أمام تمثال ايزيس .

دن هيدلبرج الكبير

آن لنا أن نصف كيف تفرغ « دنية » الحوت ولكن عليك أن تعلم شيئاً عن التركيب الداخلي لهذا الذي يجري فيه التفريغ حتى يحيط به فهمك . فإذا اعتبرت رأس الحوت مستطيلاً صلباً فقد تستطيع أن تقسمه على سطح مائل في إسفيني* زاوية quoin * يمثل الأدنى منها التركيب العظمي وهو يؤلف الحقف والفكين ، ويمثل الأعلى كتلة دهنية لا عظام فيها أبداً ، ونهايتها العريضة تشكل جبهة الحوت المديدة الرأسية في ظاهرها . وعند منتصف الجبهة ينقسم اسفين الزاوية الأعلى أفقياً في قسمين متساويين أو يكادان ، وهما من قبل ينقسمان قسمة طبيعية يجدار داخلي من مادة وتريه كثيفة .

والجزء السفلي من هذين القسمين يسمى « القرص » وهو خلصية كبيرة من الزيت تتكون من التعارض والتشابك الذي يتم بين عشرة آلاف من خلايا مرشحة ، ومادتها في جميع أجزائها نسائج بيض مرنة متينة ، ويسمى القسم العلوي منها « الدنية » وقد تعد بمثابة دن هيدلبرج الكبير في حوت العنبر . وبما أن هذا الصهريج الكبير المشهور واقع في تجويف الرأس الأمامي فان جبهة

* ان هذا المصطلح quoin ليس بما وضعه اقليدس . وانما ينتمي الى الرياضيات البحرية ، ولا أعرف أحداً عرفه من قبل ، وهو جسم صلب يختلف عن الاسفين العادي في ان حده الحاد يميل ميلاً منحدرأ من جانب بدلاً من أن يكون الاستدقاق من جانبيه ، وهو شيء يستعمله أصحاب المطابع .

الحوت الواسعة المتفضنة تمثل وسائل غريبة لا تحصى لتزيين هذا الدن العجيب بزينة تعد شعاراً عليه . ومثلما ان دن هيدلبرج^١ كان دائماً طافحاً بأجود خمور وديان الراين ، فكذلك دن الحوت يحوي أثمن غلة زيتية فيه ، أعني ما يسمى « زيت الحوت » الذي يغالي الناس فيه ، في حالته الصافية الخالصة العطرة . ولا توجد هذه المادة الثمينة بهذا الصفاء في أي جزء آخر من أجزاء الحوت . وما دام الحيوان حياً فانها تظل سيالة تماماً فاذا عرضت للهواء بعد الموت فسرعان ما تأخذ في التصلب مرسلّة فروعاً بلورية كالتي يكونّها الثلج الرقيق اللطيف على الماء أول ما يأخذ في التجمد . واذا كان الحوت كبيراً غلّت « دنيته » ما يقرب من خمسمائة جالون من الزيت وان كان قسط منها يندلق او ينز او يتقطر او يضيع دون ان يمكن استرجاعه أثناء العمل المحفوف بالحرص على استنزافه دون تضييع كثير ، لأسباب وظروف لا يستطيع توقّيها .

بأي مادة رقيقة ثينة كانوا يبطنون دن هيدلبرج من داخل ؟ لست أدري ولكن تلك البطانة في نعومتها وفراحتها لا يمكن ان توازي بذلك الغشاء البلوري الحريري الذي يكونّ الطبقة الداخلية في « دنية » حوت العنبر كأنه بطانة من « البليس » المرهف الرقيق .

واذا تأملنا تلك الدنية في حوت العنبر وجدناها تحتضن قمة الرأس كله على طولها ، ورأس الحوت - كما ذكرنا من قبل - يمثل ثلث طول الحيوان كله ، فاذا قدرنا طول حوت ذي حجم معقول بثمانين قدماً كان عمق دنيته يزيد على ستة وعشرين قدماً حين يرفع طولاً عند جنب السفينة .

١ وصف هذا الدن Tun بأن طوله ٣١ قدماً وارتفاعه ٢١ قدماً .

وعند فصل رأس الحوت عن جسده يقرّب الجزار أدواته من الموضع الذي تحرق فيه من بعد فوهة لحزان الزيت ، ولذلك كان عليه ان يكون شديد الحيلة لئلا تنقض ضربة من ضرباته المعجزة الطائشة فتهاجم ذلك المعبد وتدلق ما فيه من محتويات بالغة القيمة ، وهذا الطرف المفصول هو الذي يرفع أخيراً من الماء ويظل كذلك بقوة مرفاعي الجزارة اللذين تمثل أربطتها القنبية على جانب منه غابة من الجبال في تلك الجهة .

وحسبنا ما قلنا ، ولذا أرجو أن تتنبه الى تلك العملية العجيبة ، التي تكاد تكون ضربة قاضية ، أعني حين يُبْزَل ذلك الدن الهيدلبرجي الكبير .

هوض ودلاء

يصعد طاشطيقو الى أعلى رشيماً كأنه قطة، ويجري مستقيماً على نهاية ساعد الباحة الكبرى المشرفة، الى الجزء النائم منها فوق الدن المرفوع، دون أن يحني قامته المنتصبه، ومعه مرفاع خفيف يسمونه «السوط» يتركب من جزءين فقط ويمر من خلال كتلة فيها بكرة واحدة، ويدلي هذه الكتلة بحيث تتعلق من نهاية الباحة، ويرأوح أحد طرفي الحبل حتى يعلق مستمسكاً بيد تلتقطه على ظهر السفينة، ثم يهوي الهندي في الفضاء وقد وضع يداً على يد نازلاً الى الجزء الآخر حتى يحط في رشاقة على قمة الرأس، وهناك يظل عالياً ومن دونه سائر أفراد عصبته وهو يصرخ نحوهم طروباً مرحاً، كأنه مؤذن يدعو الصالحين للصلاة من قمة مثذنة. وترسل اليه مجرفة حادة قصيرة المقبض، فيفتش مجتهداً عن المكان الملائم الذي يبدأ عنده فتح ثغرة في الدن. ويأخذ في هذا العمل بأشد حيلة كأنه باحث عن ركاز في بيت قديم فهو يدق على الجدران ليعلم أين أودع الذهب. وحين ينتهي هذا البحث الحذر يُرَبِّطُ دلو قوي مطوق بالحديد، يشبه دلو الآبار تماماً، الى أحد طرفي «السوط»، ويمد الطرف الثاني عبر ظهر السفينة، وتمسكه هنالك يدان او ثلاث أيدي لبيقة، فترفع الدلو بحيث يصبح في متناول الهندي الذي قد أوصل اليه رجل آخر سارية طويلة، فيدخل طاشطيقو السارية في الدلو، وينزله الى داخل الدن حتى يختفي فيه تماماً ثم يلقي أمره الى البحارة الواقفين عند السوط فيرتفع الدلو ثانية وقد طفح كأنه سجل ملأته الخادام الحلابة بالحليب الطازج. وينزل الدلو المفعم من هذا الارتفاع بحرص فتمسك به يد متأهبة لتلقيه وتفرغه في برميل كبير، ثم يعود مرتفعاً صاعداً

ويقوم بالدورة نفسها حتى لا يبقى في الحوض العميق شيء ؛ وقبل النهاية يدس طاشطيقو السارية الطويلة ويدفعها بشدة ويمتق السّبر في الدن حتى يغيب منها فيه نحو عشرين قدماً .

أمضى أفراد عصابة الباقوطة بعض الوقت في التفرغ والتعبئة على هذا النحو حتى ملأوا عدداً كبيراً من البراميل بالزيت الشدي ، وعندئذ حدثت حادثة غريبة : أكان طاشطيقو ذلك الهندي المتوحش ساهياً قليل الاكتراث فجعل قبضته ترتجى أو تنزلق عن المرفاعين الكبيرين المربوطين بالحبال اللذين يشدان الرأس ؟ أكان الموضع الذي يقف فيه خوّاناً موحلاً ؟ هل أراد الشيطان الشرير ان يقع ما وقع دون ان يبدي أسباباً لذلك ؟ كيف حدث ما حدث ؟ لا أحد يدري ، ولكن فجأة فيما كان الدلو الثامن او التسعون يصعد فاهقاً - رباه ! يا لطاشطيقو المسكين ! لقد هوى على أم رأسه في الدن الهيدلبرجي ، واختفى عن الانظار في بقبة زيتية مفزعة ، كأنه الدلو الثاني الهابط في بئر حقيقية .

وكان دغة اول من فاء الى نفسه من ذلك الموقف المنهل الذي ملك الانظار جميعاً فصاح : « أنت في الأعلى ، راوح الدلو تلك الوجهة » ووضع احدى قدميه فيه ، كي يثبت قبضة يده اللزجة على « السوط » نفسه ، وجرت الروافع به صاعداً الى قمة الرأس قبيل ان يبلغ طاشطيقو قعره الادنى . وفي الوقت نفسه جرى هياط ومياط ، فقد تطلع البحارة من فوق حافة السفينة فرأوا الرأس الذي كان ميتاً جامداً ينبض ويتحرك تحت مستوى السطح المائي بقليل ، كأنه قد تملكته في تلك اللحظة فكرة خطيرة ؛ مع ان كل ما حدث هو ان طاشطيقو المسكين كان دون وعي يكشف بذلك الكفاح الذي يبذله عن مدى خطورة العمق الذي انحدر اليه .

وفي تلك اللحظة ، بينما كان دغة على قمة الرأس ينظف السوط الذي علق به

بعض الأثر من مرفاعي الجزيرة، سمعت صرخة تصدع حادة، ويا للفرع الشامل الذي لا يحده وصف ! إنفلت أحد الكلويين الكبيرين اللذين يسكان الرأس، فأخذت الكتلة الضخمة تتأرجح متراوحة في اهتزازات عنيفة، حتى ترنحت السفينة السكرى واضطربت، كأنما صدمها جبل من جليد، وبدا الكلوب العالق الذي يعتمد عليه الشد كله على وشك ان ينفلت ، وذلك أمر غير بعيد لشدة حركة الرأس .

فهتف البحارة بدغة : « انزل، انزل » . ولكن دغة جعل احدى يديه تمسك أحد المرفاعين الثقيلين فاذا سقط الرأس ظلّ هو معلقاً، وبعد ان نظف الرجل الزنجي الحبل الملوث، قذف الدلو في البئر التي تهاوت، وهدفه ان يمسك الزرقاق الدفين بالدلو ثم يلتشله .

فصاح اسطب : « بحق السماء ايها الرجل أنت تقذف « خرطوشة » لتصيب هدفاً؟ كف ! كيف يمكن لك ان تعينه وانت تحشر هذا الدلو المطوق بالحديد على قمة رأسه، حسبك يا هذا ! »

فانبعث صوت كأنه انفجار صاروخ يقول : « ابعد عن المرفاع » .

في تلك اللحظة نفسها هوت الكتلة الضخمة في الماء بصوت كهزيم الرعد كما لو ان الصخرة الافقية في نياجرا انحدرت في دوامة^١، وذهب الهيكل المنفلت منها فجأة مبعداً حتى غمر الماء طوقه النحاسي المتلألئ، وحبس جميع البحارة أنفاسهم ودغة يتأرجح فتارة هو فوق رؤوسهم وتارة هو فوق الماء، وهم يرونه

١ سقطت قطعة من هذه الصخرة في الشلالات، في ٢٥ حزيران ١٨٥٠ .

خلال ضباب الرذاذ الكثيف رؤية خافتة متشبهاً بالمرفاع الخطّار بينا كانت طاشطيقو المرزأ الموءود يغطس في القرارة السحيقة . وما كاد الضباب المعشي ينجلي حتى رأى البحارة زولاً عارياً يحمل في يده سيف التخزين ، وهو محلق لحظة فوق الحافة . وفي اللحظة التالية اصطفّق الجسم بالماء فدلّ الاصطفاق على ان صديقي كويكوج الجريء المقدام قد غاص لينتشل الغريق ، فاندفع البحارة جملة الى جانب السفينة وأحصت كل عين كل حركة تمعج ، حين ولت اللحظة في أثر اختها ، دون ان يبدو للغارق او للغاطس أدنى أثر . ووثب بعض الرجال عندئذ في قارب وجذّقوا به مبعدين قليلاً عن السفينة .

فصاح دغة دفعة واحدة من محطّته الهادىء المترجح فوق الرءوس : « ها ! ها ! » ونظرنا بعيداً من عند جنب السفينة فرأينا ذراعاً تشقّ الامواج الزرق ؛ منظر غريب ان يراه المرء كأن ذراعاً برزت من بين الحشيش النامي فوق بعض القبور .

فصرخ دغة صراخاً مرحاً مستبشراً وهو يقول : « هما معاً ! الاثنان ، الاثنان ! » وبعد هنيهة رأينا كويكوج يكافح جريئاً مقدماً بيد واحدة وهو يمسك شعر الهندي الطويل باليد الاخرى ، وسحب الرجلان الى القارب ونقلتا توأ الى ظهر السفينة أما طاشطيقو فأبطأ في الافاقة ، وأما كويكوج فكأنما بارحت الحفة الرشيقة جسمه .

كيف تمّ هذا الانقاذ السامي النبيل ؟ بعد ان غطس كويكوج ورأى الرأس الهابط في بطن ، أحدث بسيفه الماضي طعنات جانبية قريباً من القعر كي يشق فوهة كبيرة هنالك ، ثم اغمد سيفه وأخذ يطعن بذراعه الطويلة ، في قرار ذلك التجويف ونحو سقفه ، وبذلك استخرج منه طاش البائس جرّاً برأسه ، وقد أقر انه حين مدّ ذراعه يبحث عنه أول مرة ، علقّت يده برجل طاش وكان

يعلم ان سحبه برجله عمل غير صحيح وأنه ذو عواقب وخيمة، فردّ الرجل وأخذ يدفع الهندي ويميله حتى قلب وضعه، فلما جرّب إخراجه مرة أخرى ولد ولادة طبيعية، اي خرج رأسه أولاً ولم يولد يتناً . أما الرأس الكبير نفسه فانه وفي بما يتوقع منه .

وبفضل شجاعة كويكوج ومهارته العظيمة في فن التوليد تم خلاص طاشطيقو أو استخلاصه بنجاح في وجه أشد العقبات شكاسة وأبعثها على اليأس، وذلك درس يجب ألا ينسى بحال ؛ ولا بد من أن يدرس التوليد حيث تدرس فنون النزال والملاكمة وركوب الخيل والتجديف .

إني لأعلم ان بعض الناس من أهل البرّ لا يصدقون هذه المغامرة الغربية التي قام بها الجايبندي، وان كانوا هم أنفسهم قد رأوا او سمعوا بسقوط أحد الناس في صهريج او بئر، فتلك حادثة غير نادرة الوقوع، وفيها من أسباب الانزلاق أقلّ مما في قصة هذا الرجل الهندي، اذا نحن قدرنا الزلق البالغ في حافة البئر العنبري .

ولعلّ قارئاً أريباً يقول، كيف كان ذلك ؟ لقد كنا نظن ان رأس حوت العنبر - وهو الجزء المصفّى المحكم الألياف - هو أخف اجزاء الحوت، وأشدّها قابلية للطفو كالفلين ، فكيف جعلته يغطس في عنصر أشدّ منه كثافة نوعية ؟ هذه واحدة نأخذها عليك ! فأقول : كلا بل هذه « قفشة » في صالحني ضدّكم . لأن طاش المسكين حين وقع، كانت دنية الحوت قد أفرغت تقريباً بما فيها من مادة خفيفة ولم يبق فيها إلا شيء يسير سوى جدار البشر الكثيف العضلي - وهي مادة مزدوجة اللحم مطرّقة - كما ذكرت قبلاً - أثقل كثيراً من ماء البحر، وقطعة منها تهوي فيه غائصة كأنها الرصاص . ولكن نزوع هذه المادة للغوص السريع في الحادثة الراهنة كان يعوقه مادياً اجزاء أخرى من الرأس بقيت دون

ان تنزع منه ولذلك غاصت في بطن شديد وأناة بالغة، فنحت كويكوج فرصة
صالحة لكي يؤدي عملية التوليد الرشيق « على الحارك » - إن صح القول -
فالحق انها كانت ولادة سريعة .

ولو ان طاشطيقو هلك في ذلك الرأس لكان هلاكه ثميناً نفيساً اذ يكون
قد ضمخ بأشد زيت عنبر شديّ بياضاً وألقاً، ويكون قد كفن وألحد ودفن في
الغرفة السرية الداخلية في قدس أقداس الحوت ، ولا تفوق هذه الخاتمة في
عذوبتها الا خاتمة اخرى - هي ذلك الموت اللذيذ الذي واجهه مشتار عسل في
أوهايو، فقد كان يبحث عن العسل في شجرة جوفاء فوجد منه كمية وفيرة،
حتى انه حين مال عليها وبالغ في الميل تشبثت به وامتصته في جوفها فمات
محنطاً مطيباً ؛ كم من الناس فيما تظنون سقطوا بالمثل في رأس افلاطون العسليّ
وهلكوا هذا الهلاك المستعذب ؟

جبهة كالسروب انساعاً

لم يبق حتى اليوم عالم بالقوى العقلية او عارف بالفراصة بقراءة الخطوط على وجه الحوت والنتوءات في رأسه ، ومثل هذا العمل ذو ثمرات مرجوة كأن يتفهم لافاتر الغضون في جبل طارق او كأن يصعد جول سلماً ويمارس النظر في قبة البانثيون . ثم ان لافاتر لم يهتم فحسب بمختلف وجوه الأدميين في مؤلفه المشهور بل درس بامعان وجوه الخيول والطيور والافاعي والأسماك . وأسهب في تبيان صور التعبير التي استبانها ثمة . وكذلك جول وتلميذه سبورترهايم^١ فانهما لم يمجزا عن إلقاء بعض المحاضرات حول الخصائص العقلية في كائنات أخرى عدا الانسان . ولذا سأبذل جهدي لتطبيق هذين الفرعين الشبه العلميين على الحوت ، وان لم يكن لديّ من القدرة ما يجعلني طليعة الباحثين في هذا الباب ، لكنني أجرب كل شيء وأنجز من ذلك قدر الطاقة .

اذا تأملت الحوت من زاوية الفراصة وجدته مخلوقاً شاذاً غريباً اذ ليس له أنف متحيز ، والأنف ملتقى الملامح وأبرزها وضوحاً ، وربما كان هو الذي يعدّل فيما توحى به الملامح مجتمعة من تعبير ويسيطر في النهاية عليه ، فاذا لم يكن له وجود ، أي اذا لم يصبح بارزاً ظاهراً فان ذلك يؤثر في قسمات الحوت

١ لافاتر (١٧٤١ - ١٨٠١) وجول (١٧٥٨ - ١٨٢٨) وسبورترهايم (١٧٧٦ - ١٨٢٨) والأول ألف في الفراصة والاثنان الآخران كانا طبيبين في فينا يعلان دراسات على وظائف الدماغ .

تأثيراً كبيراً . ولا يتسقى اي وجه من الناحية الفراسية دون عرنيين أشمّ مثلما أن المنظر الطبيعي لا يكتمل دون مسلّة او قبة او نصب . اجدع أنف زيوس من التمثال الرخامي الذي صنعه فيدياس ، فأية بقية جدعاء محزنة تبقى منه !! ومع ذلك فإن اللويثان ذو جسامه جبارة وتناسب متنسق جليل حتى ان النقص الذي يبدو بشعاً كريهاً في تمثال زيوس لا يعد وصماً في الحوت أبداً . بل انه يضيف عليه عظمة وجلالاً ، ولو كان له أنف لكان حشواً منفراً . واذا قمت برحلة فراسية حول رأسه الضخم في «فلوكتك» فان تصوراتك الرفيعة عنه لن تلحقها زراية أبداً إذا خطر لك أنه ذو أنف راغم . ذلك تصوّر وبيل ولكنه قد يكون ملحقاً في طفله على خاطرك حتى وأنت تبصر أعظم الأمرين جبروتاً فوق عرشه .

ولعلّ أبلغ منظر أثاراً في النفس من ناحية الفراسة ومن بعض وجوهه الخاصة في حوت العنبر هو المنظر الكامل لمقدّم رأسه ، فذلك شيء رائع جليل .

إذا شئت أن تتصور جبهة الآدمي حين تكون جميلة وجدتها تشبه المشرق حين يوقظه الصباح؛ ولجبهة الثور المجمدة وهو في هدأة المرعى مسحة من جلال؛ وجبهة الفيل ذات فخامة وهو يدفع مدفعاً ثقيلاً بين شعاف الجبال . وسواء أكانت الجبهة العجيبة لآدمي او لحيوان فانها تشبه الطرة الذهبية الضخمة التي كان أباطرة الرومان يثبتونها على «فرماناتهم» ، ومغزاها : «الله — صنعته اليوم يدي» . ولكن الجبهة في اكثر المخلوقات وفي الانسان نفسه كثيراً ما تكون شريطاً من بروز جبلي ممتد على طول خط الجليد ، وقلماً ترتفع الجباه سامقة ارتفاع جبهة شيكسبير او ملانكثون^١ ، ثم تهبط هبوطاً دانياً حتى

١ فيليب ملانكثون أحد المصلحين ، وقد عرضت صورة رأسه في أحد كتب الفراسة (في القرن التاسع عشر) والى جانبها صورة رأس أحد المجرمين .

تكون العينان مثل بحيرتين جبليتين صافيتين خالدين لا تموج فيهما ، وكأنك تقتفي في تجاعيد الجبهة فوقهما أثر الافكار الوعلية التي نزلت هناك لتشرب كما يقتفي صيادو المرتفعات آثار أقدام الوعول في الثلوج . ولكن هذه العزة المستعلية المتألهة المستقرة في جبهة حوت العنبر الكبير قد امتدت واتسعت ، حتى انك اذا حدقت فيها وأنت تواجه الرأس من أمام شعرت بالإله والقوى الجبارة هنالك بأكثر مما تشعر بها وأنت تنظر الى أي شيء آخر في الطبيعة الحية . ذلك لأن نظرك لا يقع على شيء واحد اذ لا ينكشف له أي ملمح على حدة ، فلست ترى أنفأ أو عينين أو أذنين أو فماً ، لست ترى وجهاً ، اذ ليس للحوت وجه محدد السمات ، ليس له إلا جلدٌ عريض واحد يسمى جبهة ، وقد غضنته الألغاز ، وكتبت في أحاديده الصامتة مصاير القوارب والسفن والناس . واذا أخذته بنظرك من جانبه لم يختفِ عنك شيء من هذه الجبهة العجيبة ، وان كانت أجهته ، ان أنت نظرت اليه من جانب ، أقل أثراً في نفسك ، اذ أن النظر من جانب يجعلك ترى بوضوح ذلك الانخساف الأفقي الشبه الهلالي في منتصف الجبهة ، وهو ما يعده لافاتر في الانسان سمة على العبقرية .

أنسى ذلك ؟ عبقرية في حوت العنبر ؟ هل حدث ان ألفت حوت العنبر كتاباً او ألقى خطاباً ؟ كلا بل ان عبقريته العظيمة لتتجلى في امتناعه عن أداء ما يثبت وجودها فيه . وأشد ما يعلن عنها صمته الهرمي ؛ وهذا يذكرني بأهل الشرق القديم في مطلع التاريخ ، فلو أنهم عرفوا حوت العنبر لأهته أفكارهم الطفولية الوثنية ، فقد ألهوا التمساح في النيل لأنه لا لسان له ، وحوت العنبر دون لسان أو ذو لسان موغل في الدقة والصغر حتى انه لا يستطيع ان يبرزه ؛ فلو أن شعباً عظيم الثقافة خيالي النزعة انجذب بعد اليوم الى عهد طفولته وعاد إلى آلهته وعصرها الذهبي الجميل ، وبعثها من رقدتها وأمطاها العرش في هذه السماء التي غدت اليوم أنانية ، في هذا الريد الذي لم تعد تسكنه الأرواح والأشباح ، فكن على يقين من ان حوت العنبر سيجرز بينها قصب السبق ويستوي على عرش زيوس نفسه .

لقد فكّ شموليون^١ معميات التجاعيد الهيروغليفية فوق جباه الغرائيت ،
ولكن أنتى لنا بشموليون آخر كي يفكّ الأحرف الهيروغليفية في وجهه كل
انسان وكل مخلوق . ما الفراسة إلا خرافة عابرة ، كسائر علوم الانسان . فاذا
عجز السير وليم جوتز^٢ الذي كان يقرأ في ثلاثين لغة عن قراءة أبسط وجه
لرئفي ساذج في معانيه العميقة المتوارية فكم رجل من مثل اسماعيل الأمّي
يرجو ان يقرأ الخطوط المسمارية الرهيبة على جبهة الحوت ! انني لأضع هذه
الجبهة تحت أعينكم فاقرأوها ان قدرتم .

١ جان فرانسوا شموليون (١٧٩٠ - ١٨٣٢) قرأ حجر رشيد .

٢ مستشرق انجليزي (١٧٤٦ - ١٧٩٤) ترجم كثيراً من الادب العربي والفارسي
والهندي الى الانجليزية .

ب الجوزة

إن كان حوت العنبر من الناحية الفراسية أبا هول فان دماغه في رأي عالم القوى العقلية ل يبدو انه الدائرة التي يستحيل تربيعها .

في الحوت الذي اكتمل نموه يبلغ طول الجمجمة عشرين قدماً على الأقل .
افصل الفك الأسفل يصبح المنظر الجانبي لهذه الجمجمة كالمنظر الجانبي لسطح مائل ميلاً معتدلاً ، مستند كله الى قاعدة مستوية ، وقد رأينا فيما سبق ان هذا السطح المائل أثناء الحياة مملوء حتى أقصى ميله وأنه يكاد يكون مربعاً بكتلة هائلة متراكبة من اللحم والزيت . وعند النهاية العليا تكون الجمجمة وعاء يفتشره ذلك الجزء من تلك الكتلة ؛ وتحت قاعدة هذا الوعاء ، حيث يوجد تجويف آخر نادرأ ما يزيد على عشر بوصات طولاً ومثلها عمقاً ، يستقر دماغ هذا الحيوان وهو لا يتجاوز الحفنة في حجمه . ويقع الدماغ على بعد عشرين قدماً على الأقل من جبهته الظاهرة فقد اختبأ وراء استحكامات واسعة كأنه القلعة الجوانية في حصون كوبيك المترامية الأطراف . فكأنه علبة جواهر نفيسة قد أودعت في صوانها حتى اني عرفت بعض الحواتين ينكرون جازمين ان يكون لحوت العنبر اي دماغ سوى ذلك الشبيه الملموس الذي يمثله خزان الزيت ومساحته بضع ياردات مكعبة ، وبما ان هذا الجزء العجيب منه يقع في مكان ومسارب وتلافيف غريبة فانه يبدو لهم مركزاً لذكائه فذلك أنسب لما يتصورونه عن مبلغ جبروته وقوته .

من الواضح اذن ان رأس هذا اللويثان من ناحية علم القوى العقلية ، وهو في حال الحياة السليمة ، انما هو خداع محض فأنت لا تستطيع ان ترى أية أمارات على دماغه الحقيقي ولا تستطيع ان تحس بها ، فالحوت ككل الاشياء التي تتميز بالقوة يلبس للعالم وجهاً خادعاً .

ولو أفرغت جمجمته من حوائثها الزيتية وألقيت نظرة من خلف على الطرف الخلفي ، وهو الطرف الاعلى ، لراعتك الشبه بين هذه الجمجمة والجمجمة الآدمية اذا نظرت اليها من ناحية القذال ومن زاوية مشابهة . حقاً إنك لو وضعت هذه الجمجمة المعكوسة (بعد ان تجعل لها مقياساً قريباً من حجم الجمجمة الآدمية) بين صف من جماجم الآدميين لما استطعت - رغماً عنك - ان تميزها منها واذا رأيت الانخسافات على أحد أجزاء قحفه فأنك تقول في صيغة فراسية : هذا الانسان ليس لديه تقدير واحترام ذاتي . واذا نفيت عنه هاتين الصفتين وتدبرت معها الصفة الايجابية فيه من جسامة وقوة استطعت أن تكون لنفسك - على خير ما تستطيع - أصدق تصور عما تعنيه القوة أسمى القوة وان لم يكن ذلك أشد التصورات اثارة للسرور والابتهاج .

ولكن ان كنت تظن ان الحوت لا يمكن وضعه في صنف لائق به بسبب من الابعاد النسبية في دماغه نفسه ، فاني اقترح عليك فكرة أخرى : اذا تأملت في امعان السلسلة الفقرية في جلّ ذوات الاربع هالك الشبه بين الفقرات وبين عقد منظوم من جماجم قميئة ممسوخة ، وكلها تشبه الجمجمة الحق شبيهاً عارضاً ، وقد تصوّر الالمان ان الفقرات جماجم توقف تطوّرهما ولكن الشبه العجيب الظاهري الذي أقول به لم يكن الالمان اول من لاحظوه . بل نبهني اليه ذات مرة صديق أجنبي في هيكل عدوّ له كان قد قتله وكان يرصع بفقراته مقدّم زورقه الاشغى كأنه يتخذ منها نقشاً بارزاً . وأنا أقدر أن علماء القوى العقلية قد أغفلوا شيئاً هاماً حين لم يدفعوا بحجّتهم قدماً من الخيخ نحو القناة الشوكية ، لاني

أعتقد ان جانباً كبيراً من طبع المرء إنما يدلّ عليه عظم فقاره ؛ ولو خبرت لتفحصت صلب المرء بدلاً من جمجمته أياً كان هو ، وأنا أرى ان خيطاً دقيقاً من سلسلة الظهر لا يمكن ان يحمل روحاً مكتملة سامية . واني لاشعر بالابتهاج من سلسلة ظهري مثماً أبتهج بالعصا الجريئة التي أرفع عليها ذلك العلم كي يراه العالم .

طبّق هذا الفرع الفقري من علم القوى العقلية على حوت العنبر : أما تجويفه القحفي فانه مستمر مع الفقرة العنقية الاولى ، وتمتد قاعدة القناة الشوكية في تلك الفقرة على عرض يبلغ عشر بوصات ، وارتفاعها ثنائي ، وهي تؤلف مع القاعدة شكلاً مثلثاً ، فاذا مرت القناة الشوكية خلال سائر الفقرات أخذت تستدق حجباً إلا أنها تظل على مدى مسافة غير قليلة ذات سعة كبيرة . ولا ريب في أن هذه القناة ممتلئة بتلك المادة الغريبة نفسها ذات الالياف - أي النخاع الشوكي - شأنها في ذلك شأن الدماغ ، ولها بالدماغ صلة مباشرة؛ ثم ان النخاع الشوكي يظل ، على مدى عدة أقدام بعد انبثاقه من تجويف الدماغ ، ذا محيط متسق لا يتناقص ويكاد يكون محيطه مساوياً لمحيط الدماغ ؛ وفي مثل هذه الظروف أيكون من غير المعقول ان نتعرف الى صلب الحوت من زاوية علم القوى العقلية ونرسم له صورة ؟ اننا اذا نظرنا اليه من هذه الزاوية وجدنا الجسمامة النسبية في نخاعه الشوكي تعوّض عن الصغر النسبي في دماغه نفسه .

غير اني أترك هذه اللوحة لتفعل فعلها كيف شاءت لدى علماء القوى العقلية ، واتخذ هذه النظرية التي تدور حول النخاع الشوكي لحظة لاطبّقها على حردبة حوت العنبر ، فاذا لم أكن مخطئاً قلت : ان هذه الحردبة الجليلة تقوم فوق احدى الفقرات الضخمة واذن فهي من وجه ما التحجب الخارجي لتلك الفقرة ، وبسبب موقع تلك الفقرة العالية سوف أدعوها عضو الثبات ، عضو رباطة الجأش في حوت العنبر ، وسوف يأتيك النبأ اليقين عن ركانة الحوت العظيم ورباطة جأشه .

الباقوطة تلقي بالسفينة « العذراء »

حلّ اليوم الموعود والتقينا السفينة « العذراء » - يونجفراو - ، ورائسها اسمه دريك دي دير من مدينة برمن . لقد كان الالمان والهولنديون ذات يوم هم سادة مهنة التحويت ، أما اليوم فقد أصبحوا من أقل الناس فيها شأنًا ، إلا أنك ما تزال ترى عَرَضًا هنا وهناك على عروض وأطوال متباعدة علماء ألمانيًا أو هولنديًا في المحيط الهادي .

وكانت « العذراء » لسبب ما ، تواقّة لكي تلتقي بنا وتسلم علينا ، وقد كانت على مسافة من الباقوطة حين دارت وأنزل مجارتها قاربًا ، وعمد قبطانها نحونا واقفًا في جزع ولهفة عند مقدمة القارب بدل ان يقف في مؤخرته .

فصاح استاربك وهو يشير الى شيء كان يتأرجح في يد الالمانى : « ماذا في يده ؟ مستحيل ! جهاز التزيت ! »

فقال اسطب : « لا . ليس هو . هذه غلاية قهوة يا سيد استاربك ؛ لقد جاء ليقدم لنا قهوتنا ، ذلك اليرمان . ألسنت ترى تلك الصفيحة الكبيرة التي يحملها على جنبه ، هذا وعاء الماء المغلي لقد أصاب اليرمان وعرف ما نحتاج » .

فصاح فلاسك : « دع ترهائك ؛ هذا جهاز تزيت وتلك صفيحة للزيت ، لقد نفد الزيت لديهم وجاء يستجدينا منه شيئًا » .

قد يبدو غريباً أن تستمدّ سفينة زيت زيتاً في مجال من مجالات التحويت، ومهما يناقض هذا الوضع المثل القديم القائل : « كناقل التمر الى هجر - والفحم الى نيوكاسل »، فانه أمر يحدث أحياناً ؛ وكان القبطان دريك دي دير في تلك الحال يحمل دون جدال جهاز تزيت كما قال فلاسك .

فلما اعتلى ظهر السفينة حيّاه آخاب تحية مقتضبة دون ان يتنبه الى ما يحمله في يده، ولكن الرجل الالماني سرعان ما دلّ في لهجته المكسرة على جهله التام بشأن الحوت الابيض، وأدار دفعة الحديث نحو جهاز التزيت وصفيحة الزيت، وألمع الى أنه أحياناً يذهب الى سريره ليلاً في ظلام دامس - فقد نفدت آخر قطرة لديه من زيت برمن، ولم يصيدوا أية سمكة عابرة تزودهم بما يعوزهم، وختم كلامه بأن ألمح الى ان السفينة هي حقاً ما يسمونه في حرفة السماكة باسم «السفينة النظيفة» (أي الحالية) وأنها لذلك تستحق ان تسمى العذراء او يونجفراو .

وغادر السفينة بعد ان زوّد بما يحتاجه، ولكنه لم يكن قد بلغ جانب سفينته حتى ارتفعت النداءات من قم صواري السفينتين في وقت معاً بأن الحيتان هناك، وكان دريك جسدّ تواق للمطاردة، حتى انه لم يتوقف ليودع صفيحة الزيت والمزيتة على ظهر السفينة، بل استدار بقاربه ولحق بالحيتان وهي اجهزة التزيت الحقيقي .

وبما ان الطرائد شوهدت في الجانب الايسر وفق المهب فقد استطاع قاربه والقوارب الالمانية الثلاثة الاخرى التي لحقت به توأ أن تحوز السبق أمام قوارب الباوقطة . وكانت الحيتان ثمانية عدداً، وهو سرب معتدل لا هو كبير ولا هو صغير ؛ واذا أحست بالخطر تقدمت معاً بسرعة فائقة أمام الريح وجوانبها تحتك متقاربة كأنها أزواج من الخيول في وثاق . وخلفت وراءها نحرأً واسعاً كبيراً كأنها كانت تفرش على وجه الماء رقماً كبيراً واسعاً .

وعلى بعد عدة قامات في المؤخرة، في حومة ذلك المخر السريع، كان يسبح حوت ضخم محدّب مسن، وبدأ لبطنه النسبي في تقدمه وللرصعات الصفراء الشاذة التي تعلوه كأنما هو مصاب باليرقان أو بمرض آخر. وربما لم يكن هذا الحوت ينتمي الى الرعيل المتقدم، اذ ليس في طباع هذه الحيتان الوقورة ان تفتحل مظاهر التبجيل والاحترام. ومع ذلك فقد لزم مخرها لا يبرحه وان كان الماء الذي تدفعه تلك الحيتان كان يعيقه اذ كانت العظمة البيضاء، وهي البروز النادّ عند خطمه العريض، قد تفرطحت كأنها البروز الذي يتكون حين يلتقي تياران متضادان. وكانت نفثته قصيرة بطيئة مجهدة، تنبعث كأنها دفقة محتنقة، وتصير الى مزق متناثرة، تتلوها اضطرابات شيطانية غريبة فيه، فتؤثر على طرفه الآخر المغموس في الماء، فتجعل الماء من خلفه ينعقد حبباً.

وقال اسطبط: «من لديه دواء مسكّن؟ هذا الحوت تؤلمه معدته؛ رباه! تصوروا ان يشمل الالم معدة حجمها نصف فدان. الرياح الوبيلة تقيم في جوفه عيداً جنونياً ايها القتيان. هذه اول ريح رديئة أعرفها تهب من خلف. تأملوا رأيتم حوتاً ضلّ ضلاله من قبل؟ يقيناً لقد فقد سكانه الذي يهديه سواء السبيل».

ومضى هذا الحوت الهرم ينهض مثاقلاً بعبء السنين كأنه بارجة تطرّمت بالمشحونات ذاهبة في ساحل هندوستان، وقد حملت على ظهرها ملئه من خيول مُفزّعة، فهي تميل وتنغمس وتتدحرج وتترنح في طريقها؛ وبين الحين والحين كان ذلك الحوت يدور دورة جزئية على أطراف أضلاعه المعوّقة، فيبديّن أن سبب الانحراف في مخره إنما تأتّى عن أن زعنفته اليمنى لم يبقَ منها إلا جذم شاذ. هل فقد تلك الزعنفة في احدى المعارك، او ولد دون زعنفة؟ من العسير ان يحزم المرء في ذلك.

فقال فلاسك القاسي القلب وهو يشير الى حبل التحويت الموضوع الى جانبه : « انتظر قليلاً أيها الفتى الفاني وسأعوضك عن ذراعك المهبط مقلعاً » .

فصاح استاربك : « احذر ان يقلعك به . هيتاً هيتاً والا أدركه الالماني دونك » .

قصدت القوارب المتنافسة مجتمعة محتشدة العزيمة قصد ذلك الحوت ، اذ كان هو اكبر الحيتان ومن ثم أغزرها غلةً وقيمةً ، ثم كان هو أدناها من القوارب ، بينما كانت الحيتان الاخرى تجري بأقصى سرعة ، حتى كانت تكاد تتحدى في تلك الولهة كل رجاء بادراكها ؛ وعند تلك النقطة مرقت قوارب الباقوطة مخلقة وراءها القوارب الالمانية الثلاثة التي أنزلت متأخرة ، إلا أن الانطلاقة الاولى التي ذهب فيها قارب دريك ، جعلته يبقى في الطليعة ، وان كانت كل لحظة تدني منافسيه الاجانب منه ، وكان كل ما يخشونه ، لشدة اقترابه من هدفه ، أن يقذف بمجديده قبل ان يدركوه ويتقدموه ؛ فأما دريك نفسه فيبدو أنه كان واثقاً من ان الامر في صالحه ، ولذا كان بين الحين والحين يهز المزيطة في وجه القوارب الاخرى في إيماة ساخرة .

فصاح استاربك : « يا للكلب الفظ المنكر للجميل ! انه ليسخر مني ويهاجمني بالمزيطة البائسة نفسها التي ملأها له قبل دقائق » — ثم عاد الى همساته الجادة القديمة يقول : « باعدوا التجديف يا كلاب الصيد ! هيا استكلبوا ! » .

فقال اسطب يخاطب ملاحيه : « سأخبركم بحقيقة الامر يا رجال . حقيقة الامر أن الهياج الاحق ليس من مبدئي ، غير اني لا أمانع في أن ألتهم ذلك الوغد اليرمان — ادفعوا — ألا تريدون ؟ هل تسمحون لهذا الخبيث أن يسبقكم ؟ أتحبون شرب البراندي ؟ اذن فان المتميزين فيكم سيحصلون على برميل منه . هيا

لم لا يفجر بعضكم شرايينه حمية؟ من ذا الذي منكم قد ألقى مرساة في الماء فنحن كأئنا قد رسونا ، لا نتحرك قيد أنملة ، لقد سكنت قواربنا . هيا ! هذا حشيش قد نما في قعر القارب لطول لبثه ، وحق الربّ لقد أخذ الصاري لطول انغراسه الساكن يرسل براعم . لا يا فتيان هذا لا يحقق شيئا ، انظروا الى ذلك اليرمان ! المسألة برمتها يا رجال هي : هل تنفثون النار شداً وحاسة او لا تنفثون ؟ »

فصاح فلاسك وهو ينطّ صاعداً هابطاً : « آه انظروا الزبد الذي يكونه — يا لها من حردبة كأنها قرمة ضخمة من خشب . احتشدوا حول اللحم الحنيذ ، هيا . آه يا فتياي ! اقفزوا ! سيكون عشائكم من كعك الجردك والخلزون ، أنتم تعلمون يا فتياي ، الخلزون المشويّ وفطير المفين . بربكم اقفزوا ثبوا ، هذا الحوت من ذوات المائة برميل ، اياكم ان يفلتكم ، بالله لا تدعوه يفلتكم ! انظروا الى ذلك اليرمان ! آه ، ألا تجدفون من أجل نصيبكم من العصيدة يا فتياي ! يا له من نقيع ! يا له من منتقع ! ألا تحبون زيت العنبر ، ها هي ثلاثة آلاف دولار من الزيت يا رجال ! أمامكم بنك ، بنك كامل ، بنك المجلّترا هيا ! هيا ! هيا ، لأي شيء يتأهب اليرمان الآن ؟ »

في تلك اللحظة كان دريك يهمّ ان يطرح المزيّنة على القوارب المتقدمة ، ويلقي عليها بصفيحة الزيت ، ولعلّ غايته كانت مزدوجة أي أن يعوّق منافسيه وأن يزيد من سرعة قاربه بما تحدّثه الرجة الخلفية فيه من زخم للاندفاع قدماً .

فصاح اسطب : « يا له من قارب هولندي لا خلاق له ! جدفوا يا رجال كأنكم خمسون ألف صف من شواني حربية بحارتها شياطين حمر الشعور . ما قولك يا طاشطيقو ؟ أنت المرء يكسر عموده الفقري اثنتين وعشرين قطعة من أجل اسم بلدك العريق ؟ ما قولك ؟ »

فصرخ الهندي : « أقول : جدفوا كأن لعنة الله حلت بكم ! »

بدأت قوارب الباقوطة الثلاثة وقد هاجها زجر الالماني تصطف جنباً لجنب حتى تكاد تسدنو منه صفاً واحداً ، وهي على ذلك النسق ، وقف الضباط الثلاثة في خيلاء ، وقفة رائس القارب حين يكون في موقف جميل طليق بطولي وهو يدنو من فريسته ، وهم بين الحين والحين يسندون صاحب المجداف من ورائه بصيحة جذلى قائلين : « هنالك ينزلق الحوت ، مرعى للنسبات التي تعين المجاديف ! ليسقط اليرمان ، ادفعوا قواربكم من فوقه ! »

لكن دريك ذهب في انطلاقة أصيلة مصممة حتى كاد يكون رغم كل ما أبداه منافسوه من بطولة هو الفائز في السباق ، لولا أن القدر العادل نزل عليه في صورة سرطان علق صاحب المجداف الاوسط . وبينما كان هذا الملاح «العبيط» يحاول ان يخلص مجذافه ويكاد قارب دريك ينقلب من تلك المحاولة وهو يرعد نحو رجاله في غضب هائج ، كان ذلك كله فرصة طيبة يفتنمها كل من استاربك واسطب وفلاسك ، فانقضوا الى الامام انقضاضة مستبعدة - دون صخب - واصطفوا أمام موقع الالماني في صف مؤارب وبعد لحظة كانت القوارب الاربعة في المخر القريب من ذنب الحوت معاً في اتجاه كأنه قطر المربع ، بينما كانت تتناثر على الجانبين منها نفاخات الزبد الذي يثيره اندفاعه .

كان منظراً مفزعاً هائجاً داعياً للاشفاق والرتاء ، اذ كان الحوت عندئذ يشتد وقد أخرج رأسه ، وأخذت نفائثه تبعث أمامه بنفثات متكررة متأللة ، بينما كانت زعنفته الوحيدة البائسة ترف على جانبه في عذاب الفزع . وكان هو في هربه المتلجلج المضطرب يهيم متلداً تارة لليمين وتارة لليसार ، وكلما هدت موجة مخبئة غاص في البحر متشنجاً او قلب على أحد جانبيه زعنفته الوحيدة الرفافة نحو الفضاء . لقد رأيت طيراً مقصوص الجناح يدوم في الفضاء تدوياً

مفزعاً متردداً محاولاً دون جدوى ان ينجو من مخالف الشواهد القناصة . غير ان للطائر صوتاً فهو يعبر بصيحاته الحزينة عن خوفه ، أما خوف هذا الوحش البحري الاخرس الجسيم ، فانه كان محبوساً مسحوراً فيه اذ لم يكن له صوت إلا الشهقات المحتنقة من خلال فوهة التنفس ، وهذا ما جعل منظره مثيراً للرثاء الى حد يعجز عنه التعبير ، ومع ذلك فقد كان في جسامته المدهشة وفكه الملتراسي وذنبه الهائل ما يفزع أقوى امرئ مشفق .

ولما رأى دريك أنه لم يبقَ إلا بضع لحظات حتى تكسب قوارب الباقوطة الجولة دونه وبذلك ينهزم خائباً دون طريدته أثر أن يجازف بإلقاء ما قد يبدو له رمية بعيدة قبل ان تفوته آخر فرصة الى الابد .

وما كاد زرّاقه يقف لتسديد الضربة حتى قفز النمرور الثلاثة كويكوج وطاشطيقو ودغة ، بدافع الغريزة ، على أقدامهم ووقفوا صفّاً موارباً ، وسددوا حراهم في الوقت نفسه ، وقذفوا من فوق رأس الزرّاق الالماني بحراهم النانتوكتية الثلاث فانغرزت في جسم الحوت ؛ وارتفعت أبخرة الزبد والنار البيضاء تعشي العيون ! وارتطمت القوارب الثلاثة لدى هياج الحوت عند أول انطلاقة رأسية يأتيناها بالقارب الالماني ارتطاماً قوياً حتى ان دريك وزرّاقه المغلوب على أمره اندلقا منه ، ومرت من فوقهما القوارب الثلاثة الطائفة .

واذ ألقى عليها اسطب نظرة عابرة. وهو منطلق صاح بها : « لا تخافا أيها العزيزان ، يا عليقي الزبد ، ستجدان من يلتقطكما توأ ، تمهلاً ، فقد رأيت بعض القرشان في المؤخرة - تلك الكلاب التي نذرت نفسها لخدمة القديس برنارد كما تعلمان - وهي تنقذ المسافرين التعساء ! مرحى ، فهذا هو السبيل الذي نسلكه الآن ، كل قارب فانما هو شعاع من أشعة الشمس يهديننا سواء السبيل ، مرحى ! - ها هنا نحن نجري كأننا ثلاث « غلايات » من القصدير

معلقة في ذيل كوجر (أسد جبلي) مجنون . هذا يذكرني كيف يربط المرء الى الفيل في التلبار على أحد السهول؛ هذا يجعل برامق العجلات تطير، أيها الشبان، حين يكون الربط على هذا النحو . وقد ينتثر المرء من عربة التلبار حين تصطدم بتلة . مرحى ! هذا ما يشعر به المرء وهو ذاهب الى دافي جونز - وهو منطلق على سطح مائل لا آخر له . مرحى ! فهذا الحوت يحمل البريد السرمدى ! »

إلا ان منطلق ذلك الحيوان كان قصيراً فقد شقق فجأة وقمس في هرج وضجيج وطارت الحبال الثلاثة في اندفاع ذات صرير حول المثلثات بقوة كأنها تريد ان تفرز فيها محزاً ، وبلغ الخوف من الزراقين مبلغاً اذ خشوا أن يستنفد هذا القمس السريع بقية الحبال ، فاستخدموا كل قوتهم اللبقة فأمسكوا بالثنايات المطوية التي تبعث الدخان كي يعوقوا استرسال الحبل ، وأخيراً أصبحت حوافي المقادم مستوية والماء أو تكاد ، وارتفعت كوئلاتها في الفضاء عالية ، وذلك بسبب الشد العامودي الذي تحدثه الخطاطيف المروسة بالرصاص في القوارب من حيث تسترسل الحبال الثلاثة على استقامة في الماء .

وبقي الملاحون بعض الوقت على تلك الحال حين كف الحوت عن الغوص وهم يخشون ان يرخوا مزيداً من الثنايات، وان كان الموقف حرجاً بعض الشيء . ومع ان القوارب قد كان يمكن ان تهوي ويذهب أثرها بهذه الطريقة فان هذه « الوقفة » كما يسمونها ، ان هذا الجذب الى أعلى بقوة الحراب الحادة التي نفذت في لحمه الحي من خلف ، هو ما يعذب اللويثان في الغالب ويضطره الى البروز من الماء كي يتلقى الحربة النفاذة من أيدي أعدائه . ولا حاجة بنا الى الحديث عن ما في هذا الامر من أخطار ولكن هناك من يرتاب في ان تكون هذه الطريقة خير الطرق جميعاً ، اذ من المعقول ان يفترض المفترضون أنه كلما طال بقاء الحوت الجريح تحت الماء زاد حظه من الانهاك ؛ لان امتداد سطحه - وسطحه اذا كان حوت عنبر كبيراً مكتمل النمو لا يقل عن ألفي قدم

مربع - يجعل ضغط الماء عليه كبيراً . ونحن نعلم أي ضغط جوي مدهش نقع تحته ونحن هنا فوق الارض لا في الماء ، فأى عبء كبير يتحملة حوت ، وقد احتقب فوق ظهره امتداداً يبلغ مائتي قامة من الماء ، انه ولا شك ضغط يساوي وزن خمسين ضغطاً جوياً، وقد قدر أحد الحواتين أنه يبلغ وزن عشرين سفينة حربية بكل ما فيها من مدافع ومخازن ورجال .

واضطجعت القوارب الثلاثة هنالك في رفق على سطح الماء المتدحرج وهي تتحرك في الظهيرة الابدية الزرقاء، ولم تنبعث من أعماق الزرقة أنة او صيحة ما، لا ولم تنطلق اهتزازة او نفاخة ماء ؛ فلو ان احد ابناء البر شهد هذا المشهد أكان يخطر له أن أشد الحيوانات البحرية وحشية يتلوّى ويتعقص بالعذاب المبرح تحت ظاهر ذلك الصمت وتلك السكينة المطمئنة؟ كان الحبل كله عند مقدم القوارب قد غاص تحت الماء فلا يرى منه عامودياً فوق السطح اكثر من ثماني بوصات . من يصدق ان تلك الخيوط الثلاثة السحيلة كانت تعلق ذلك اللويثان الجسم كما يعلق وزن كبير الى ساعة... يعلق ؟ وبأي شيء يعلق ؟ بثلاث قطع من الخشب . أهذا هو الحيوان الذي قيل فيه ذات مرة بلهجة مزهوّة : « أتملأ جلده حراباً ورأسه باللال السمك ؟ (ايوب ٤١ : ٧) - سيف الذي يلحقه لا يقوم ، ولا رمح ولا زراق ولا درع . يحسب الحديد كالتبين والنحاس كالعود النخر ، لا يستغزّه نبل القوس ، حجارة المقلاع ترجع عنه كالقش ، يحسب المقمعة كقش ، ويضحك على اهتزاز الرمح » (ايوب ٤١ : ٢٦ - ٢٩) . أهذا هو ذلك الحيوان ؟ أحقاً أنه هو ؟ ما أعسر ان تخيب نبوءة الانبياء ، ذلك ان هذا اللويثان الذي تبلغ قوة ذنبه قوة ألف فخذ مجتمعة قد وارى رأسه تحت جبال من الماء ليحتمي من حراب السماكة في الباقوطة !

في تلك الساعة من الأصيل، وقد أخذت أشعة الشمس تنحدر، كانت الاخيلة التي ترسلها القوارب الثلاثة تحت الماء طويلة عريضة بحيث تظلّل نصف الخنيس

الذي كان يقوده أحشوريش . من يدري كم كانت تلك الاشباح الضخمة مفزعة للحوت الجريح وهي ترق فوق رأسه !

« تأهبوا يا رجال ، فانه يتحرك » - ذلك ما قاله استاربك عندما أخذت الحبال الثلاثة تتذبذب فجأة في الماء ، وهي تنقل الى السطح بوضوح - كأنها أسلاك مغناطيسية - نبضات الحياة والموت في الحوت ، حتى لأحس بها كل مجذّف في مقعده . وفي اللحظة التالية ، ارتاحت القوارب الثلاثة بعض الشيء من قوة الشد عند مقدماتها الى أسفل ، فانتفضت في وثبة مفاجئة ، مثلما ينهال كثيب من جليد حين يفزع منه قطيع كثيف من الدببة البيض منطلقاً نحو البحر .

فصاح استاربك مرة اخرى : « اسحبوا ، اجذبوا فهو يصعد » . قبل لحظة لم يكن يسحب من الحبال ما يزيد على شبر ، ولكن سرعان ما تطوّت في لفافات سريعة طويلة وألقيت وهي تقطر ماء في القوارب ، وسرعان ما شق الحوت سطح الماء على بعد من الصيادين يساوي طول سفينتين معاً .

وقد دلت حركاته بوضوح على ما أصابه من اعياء بالغ . في اكثر حيوانات البر صمامات في كثير من عروقها ، فاذا جرحت حصر الدم مؤقتاً في بعض الاتجاهات فلم ينزف جملة ، وليس كذلك الحوت ، فان من خصائصه ان عروق الدماء فيه ليس لها صمامات ، فلو نفذ فيه حد صغير كرأس الرمح ، أصيب حالاً بنزيف قاتل يأتي على كل ما في شرايينه وأوردته ، فاذا تذكرت شدة وطأة الماء فوقه وهو على عمق بعيد تحت السطح قلت ان حياته تنسكب منه في جداول مسترسلة . ولكن كمية الدم فيه كبيرة ومنابعها الداخلية فيه عديدة بعيدة الغور حتى ليظل ينزف وينزف مدة غير قصيرة ، كالنهر في اليباب القاحل يظل يجري ومنابعه من آبار نائية غامضة في التلال . حتى حين جذبته القوارب وغامرت بالاقتراب من شطري ذنبه المتناوحين ، وقذف الزرقاؤون حراهم فيه ،

حتى حينئذ أخذت تنطلق في الاثر نفثات دموية دائبة تخرج من الجرح الجديد، وظلّ النزيف مستمراً، اما نفائثه الطبيعية في رأسه فانها كانت ترسل بين فترات متتابة بخارها الممزع في الفضاء، ولم يخرج من تلك الفوهة الفوهاء اي دم حتى ذلك الحين، ومعنى ذلك ان كل الضربات لم تصب جانباً حيويّاً فيه، اي ان الضربات لم تمسّ «حياته» — كما يقولون بحق .

وعندما أحاطت به القوارب مقتربة انكشف كل الجزء العلوي من جثته، وكان اكثره يبقى في العادة منغمساً في الماء . وبدت للناظر عيناه او المكانان اللذان كانت فيها عيناه . حين تنطرح على الارض اعتى اشجار الزان يتجمع في ثقوب عقدها كتل غريبة سيئة النشأة . كذلك من المحجرين اللذين كانت تحتلها عينا الحوت جحظت نفاختان ضريرتان، من رأهما قدّر ان الحوت يستحق الرثاء على نحو فظيع . ولكن لا رثاء ولا شفقة . رغم شيخوخته وأنه أقطع ذو ذراع واحدة، أعمى سملت عيناه، لا بد ان يعانق الموت وان يذبح لكي ينور ليالي الاعراس ، وغيرها من افراح الناس ، ولكي يبعث الضياء في الكنائس المقدسة التي تبشر بالتسامح والتراحم المطلق بين المخلوقات جميعاً . ما زال يتقلب في دمائه . واخيراً كشف — بعض الكشف — عن هنة بارزة او نتوء غريب غير ذي لون في أسفل جنبه بقدر حجم «البوشل» .

فصاح فلاسك : « هدف جميل، خلوني أنخسه فيه مرة واحدة » .

وصاح استاربك : « كفى ! لا حاجة لذلك ! »

لكن استاربك ذا القلب الرحيم كان قد أبطأ متوانياً ، وانطلق مزراق فلاسك فأنهرَ جرحاً رغيباً فيها وأخذ الدم المتقيح يشعب منها كأنه نفائثة ، فأصاب الحوت من الحد النافذ ألم لا يطاق، وانقض على غير هدى وقد تملكه غضب جامح ، والدم الكثيف المتخثر ما يزال يتدفق منه، انقض على القوارب

وهو يلطخها وملاحيا المنتشين بوابل من الدم العبيط ، وقلب قارب فلاسك وهشم مقدمته . كانت ضربة الموت . ذلك ان الاعياء حينئذ كان قد استنزف قواه لكثرة ما فقد من دماء، فتدحرج بعيداً عن الحطام الذي أحدثه خائراً مكدوداً، واستلقى على جنبه لاهثاً وهو يرف يحزم زعنفته في عجزه، ثم تدحرج وتقلب كأنه دنيا آفلة، وبرزت أحشاؤه البيضاء للعيان، وتمدد كالحشية وقضى نحبه . تلك الشهقة الاخيرة تثير الرحمة والرثاء . كانت نفثة الموت الطويلة الاخيرة التي أسلم بها الروح كأنها نافورة قوية تحركها أيدٍ خفية لتستخرج منها الماء تدريجاً ، فاذا بالرشاش فيها يهبط ويهبط حتى الارض مرسلًا غرغرات حزينة شبه مختنقة .

وبينا كان البحارة يرقبون وصول السفينة، أبدت جثة الحوت أمارات تدلّ على انها تغوص وذخائرها جميعاً مودعة فيها . وفي الحال أمر استاربك ان يحاط بالحبال في مواضع مختلفة، وبذلك اصبح كل قارب معّلم عوم، وأصبح الحوت الغاطس معلقاً بالحبال على مدى بضع بوصات دون مستوى القوارب . وعندما اقتربت السفينة نقل الحوت الى جانبها بمنتهى الحكمة والأناة، وربط اليها ربطاً محكماً باقوى السلاسل الجانبية وأصلبها اذ كان من الواضح ان الجثة اذا لم تربط ربطاً مصطنعاً فانها ستغوص الى الاعماق .

واتفق انه حين بدأ التقطيع فيه بالمحرفة ، وجد رمح مريش مهترىء بطوله الكامل متغلغلاً في لحمه في الجزء الاسفل من تلك الهنة الناتئة التي تقدم ذكرها . ان بقايا الرماح كثيراً ما توجد في جثث الحيتان المصيدة وقد التأم اللحم من حولها تماماً ، ولا يحدث نتوء من اي نوع يدل عليها ؛ لذا كان لا بد من وجود سبب مجهول في الحالة الراهنة يفسّر التقيح الذي مرت الاشارة اليه . وأغرب من ذلك ان وجد سن حربة من الصخر فيه غير بعيد عن الحديد المدفونة،

واللحم من حولها صلب سليم . من قذف بتلك الحربة الحجرية ؟ ومتى كان ذلك ؟ قد يكون الذي قذفها هندياً شمالياً غربياً قبل ان تستكشف امريكا .

من يدري اي أعاجيب أخرى كان يمكن ان تستخرج من ذلك المخدع الوحشي ؟ لكن العمل في الاستكشاف والتنقيب توقف فجأة اذ جرت السفينة - وهو أمر لا سابقة له - الى عرض البحر جرّاً جانبياً، وذلك لان ثقل الجثة جعلها تتجه بشدة نحو الغرق . غير ان استاربك الذي كان يوجه الامور التزامها حتى النهاية، التزم بها بعزم واصرار حقاً، حتى ان السفينة حين أصبحت في النهاية على وشك ان تنقلب اذا ظلت مرتبطة السواعد الى جثة الحوت، وحين صدر الامر بالابتعاد عنها، كانت قوة الشد على رموس الخشب التي ترتبط بها سلاسل الجنب والجهال كبيرة، حتى كان من المحال طرحها ؛ وفي الوقت نفسه اصبح كل شيء في الباقوطة مائلاً . وكان الاجتياز الى الجانب الآخر من ظهر السفينة يشبه المشي صعوداً على سقف بيت هرمي . وأنت السفينة وتقطع أنفاسها متحشجة . ونفس كثير من زينتها العاجية المرصعة في هيكلها وفي غرفها ، من مواضعها، بسبب وضعها الشاذ . وجلبت الأبخار والعتلات لتعمل في سلاسل الجانب التي لا تتحرك ، لكي تتحرك فيعتدل جنوحها من رموس الاخشاب ، فذهبت المحاولة سدى . وكان مستوى الحوت قد انخفض حتى ان الاقتراب من طرفيه المغمورين لم يكن ممكناً، بينما كان يبدو في كل لحظة ان أطناناً كاملة من الوزن كانت تضاف الى الثقل الغائص، وبدت السفينة وكأنها تهم ان تنقلب .

فصاح اسطب مخاطباً الجثة : « توقف ! توقف ! بحبك لا تملكك سرعة شيطانية للغرق ! وحق الرعد يا رجال لا بد ان نعمل شيئاً وإلا رحنا في داهية ؛ دعوا التحريك بالأبخار هنالك . كفى ، توقفوا عن العمل بالعتلات ، وليذهب أحدكم مسرعاً ويحضر كتاب الصلوات، وسكيناً صغيرة يقطع بها السلاسل » .

« سكين ؟ ايوه ايوه » كذلك صرخ كويكوج ثم أمسك بلطة النجار الثقيلة ثم مدّ جسمه من احد المجازات الجانبية وأعمل الفولاذ في الحديد وبدأ يقطع اكبر السلاسل الجانبية وبعد ضربات قليلة يقدح منها الشرر أثر الشدّ الزائد في بقية السلاسل، وعام كل رباط على الماء في انفصام نحيف واعتدلت السفينة وغاصت الجثة في الأعماق .

ان الغوص العارض المحتوم الذي تعرض له هذا الحوت العنبري المصيد حديثاً شيء غريب حقاً، ولم يستطع أي صياد ان يجد له تعليلاً مقبولاً، ذلك ان حوت العنبر يعوم في العادة بخفة كبيرة، وقد ارتفع جانبه أو كرشه فوق سطح الماء . فاذا كانت الحيتان الوحيدة التي تغوص هي المعمرة الهرمة الهزيلة الكسيرة القلب لان دثارها من الشحم قد تناقص وثقلت عظامها وأصبحت منقرسة فانك تستطيع ان تؤكد بأن غوصها ناجم عن كثافة نوعية غير عادية نتيجة لفقدانها المادة المخففة فيها ؛ لكن الأمر ليس كذلك، فان الحيتان الفتيان — هؤلاء الابطال الأنجاد الرشيقون — وهم في خير أحوال الصحة، وضروب الطموح تملأ نفوسهم — يغوصون ايضاً حين يقتتلون في ربان العمر وزهرة الحياة والشحم يكتفهم طبقة فوق طبق .

وقد يقال ان حوت العنبر أقل تعرضاً لمثل هذا الحادث من حيتان الفصائل الاخرى ، فاذا غاص حوت عنبر واحد، غاصَ في مقابله عشرون من الحوت الاثني، وهذا الفرق في الانواع يعود دون ريب ولحد كبير الى كبر حجم العظم في الحوت الاثني، فان « ستائره » وحدها تزن احياناً ما يزيد على طن، وهذا عائق قد برى منه حوت العنبر تماماً . غير ان هناك أمثلة يرتفع فيها الحوت الغائص مرة اخرى بعد مضي عدة ساعات او عدة ايام، وهو اكثر خفة مما كان حين كان على قيد الحياة، وسبب هذا واضح جلي، اذ تتولد فيه الغازات فينتفخ ويتمدد حجمه كثيراً ويصبح كأنه منطاد حيواني، ولو سلطت عليه مجموعة من

سفن الحرب لعجزت عن ان تبقى تحت الماء . واذا ابدى الحوت الاثني اشارة على انه اخذ يغوص ، في التحويث الساحلي او في مواطن السبر بين خلجان نيوزيلندة ، فانهم يربطون به معومات وكثيراً من الجبال حتى اذا غاب الجسم في الاعماق عرفوا أين يبحثون عنه اذا هو ارتفع مرة اخرى .

ولم يمض وقت طويل على غرق تلك الجثة حتى ارتفعت صيحة من قسم صواري الباقوطة معلنة ان السفينة يونجفراو قد اخذت تنزل قواربها من جديد . وان كانت النفثة الوحيدة التي لاحت برأى من البحارة لم تكن سوى نفثة الحوت المسمم ، وهو ينتمي الى نوع من الحيتان لا يصاد لقدرته الخارقة على السباحة ؛ ومع ذلك فان نفثة الحوت المسمم شبيهة بنفثة حوت العنبر حتى ليخلط بينهما الصيادون الأغرار ؛ ومن ثم أصبح دريك وكل جماعته في طراد جريء لذلك الوحش الجسور المقدام ، وحشدت « العذراء » كل أشرعها التي صنعت بحيث تناسب أرنياتها الأربع واختفى الكل في وجهة الريح بعيداً في مطاردة جريئة مدفعة بالآمال .

واهاً يا صديق ! ما اكثر الحيتان المسممة وما اكثر القباطنة من أمثال دريك !

ما في التحويت من شرف ومجد^١

بعض الاشياء تكون فيها الفوضى العامدة هي المنهج الصحيح .

كلما غصت في أمر التحويت ودفعت أبحاثي قدماً الى « رأس النبع » ازدادت اعجاباً بمبلغ ما فيه من شرف عظيم تليد ؛ وحين أجد بخاصة أرباباً وأبطالاً وأنبياء من جميع الانواع قد سكبوا عليه تمجيداً وتمييزاً يطير بي الخاطر الى أنني أنتمي الى تلك الاخوة المزخرفة بالامجاد وان لم أكن من أرومتها في الصميم .

كان برسيوس الشهم ابن جوبتر أول حوات ، ومن دواعي الشرف الازلي في حرفتنا ان أول حوت هاجمه إخواننا الاسلاف لم يقتل بدافع خسيس . تلك الايام كانت أيام فروسية في حرفتنا حين كنا لا نحمل السلاح إلا لنغيث الملهوف والمكروب لا لنملأ المزايت للناس . وكل امرئ يعرف تلك القصة الجميلة ، قصة برسيوس وأندروميده ، وكيف ان أندروميده الجميلة ابنة أحد الملوك ربطت الى صخرة على ساحل البحر ، وبينما كان اللويثان يهم بأخذها تقدم برسيوس أمير الحواتين بجأش رابط ، وزرق الوحش برمحه ، وخلّص الفتاة منه وتزوجها . ذلك عمل فني مثير للاعجاب قل ان يؤديه خير الزراقين في أيامنا هذه ، أعني ان يذبح أحدهم الحوت بمزراق واحد ضربة واحدة . وليس لاحد ان يرتاب في هذه

١ عدّ ملفل في الفصل : ٢٤ من كتبوا عن الحيتان وفي الفصل : ٥ : أشهر الحيتان ، وها هو في هذا الفصل يتحدث عن أشهر الحواتين .

القصة التي تنتمي الى عهد نوح . اذ ظلّ الهيكل الجسيم من أحد الحيتان شاهداً على مدى أجيال عديدة في أحد المعابد الوثنية بمدينة يوبا ، وهي يافا الحديثة على الساحل الشامي ، وكانت أساطير تلك المدينة وجميع سكانها يؤكّدون ان ذلك الهيكل هو عظام الوحش الذي قتله برسيوس . وعندما استولى الرومان على يافا حملوا ذلك الهيكل العظيم معهم في موكب النصر . أما ما يبدو فريداً هاماً - على نحوٍ لافت - في القصة فهو هذا : من يوبا نفسها أبحر يونان .

وتشبه مغامرة برسيوس واندروميده قصة أخرى شهيرة يظنها بعض الناس في الحق مستمدة منها على نحو غير مباشر ، تلك هي قصة القديس جورج والتنين ؛ وأنا أزعّم أن ذلك التنين كان حوتاً ، اذ أن التواريخ القديمة تخلط بين الحوت والتنين على نحو غريب ، وكثيراً ما يكون الواحد منهما بديلاً للآخر . يقول حزقيال : « أنت تشبه أسد الامواه وتنين البحر » ، وهو يعني الحوت - صراحة - . وفي الحق ان بعض نسخ التوراة ترد فيها لفظة « حوت » نفسها . ثم انه لما ينقص من مجد العمل الخطير الذي قام به القديس جورج ان يتصدى لزاحف من زواحف البر بدلاً من أن ينازل وحش الاعماق الكبير ، فان أي امرئ قد يقتل أفعى ولكن ليس في صدر أحد قلب يمشي مشية باسلة الى حوت الا ان يكون امرئاً من قبيل برسيوس او القديس جورج او كوفن .

وليس للرسوم الحديثة التي تمثل هذا المنظر ان تضللنا ، اذ ان المخلوق الذي واجهه ذلك الحوات الجسور في غابر الايام يرسم على صورة مبهمّة تشبه العنقاء ، وتمثل المعركة في البرّ والقديس على ظهر جواد ، بل علينا أن نعتبر الجهل الكبير الذي كان يسود تلك الايام حين كان الفنانون يجهلون الشكل الصحيح للحوت ،

١ في حزقيال ٣٢ : ٢ « أشبهت شبل الامم وأنت نظير تمساح في البحار » .

وأن نتصور أن حوث القديس جورج قد يكون زحف من البحر الى الشاطئ ،
وأن نقدر ان الحيوان الذي كان القديس يمتطيه قد يكون صيلاً ضخماً أو حصان
بحر ، فاذا تذكرنا كل هذه التقديرات كان من حقنا ان نعتقد بأن ما يسمى التنين
لم يكن سوى اللويثان العظيم نفسه ، وان اعتقادنا هذا لا يبدو متنافراً وتلك
القصة المقدسة ، معارضاً لا قدم رسوم ذلك المشهد . بل الحق لو أنك وضعت
القصة كلها أمام الحقيقة الصارمة النافذة لجاءت مثل ذلك الصنم الذي كان
يمثل السمكة والانسان والطير ، صنم الفلسطينيين الذي كانوا يسمونه داجون^١ ،
وقد نصب أمام تابوت العهد الاسرائيلي ، وقد سقط منه رأس حصانه وراحته
يديه ولم يبقَ إلا جذمه او ذلك الجزء السمكي منه . فمن أرومتنا النبيلة حوات
يعد حامياً قيماً على انجلترا ونحن - حواتي نانتوكت - يجب ان ندرج أسماءنا في
جمعية القديس جورج النبيلة المحتد . ولذا وجب على الفرسان المنتمين الى تلك
الجماعة الشريفة (وأجروا ان أقول : ليس لاحد منهم اي شأن بالحوث كما كان
حال راعيهم) ان لا يرمقوا نانتوكتياً باحتقار ، اذ أننا حتى في ستراتنا الصوفية
وسراويلنا المقيرة أحق بشعار القديس جورج منهم .

وأنا في حيرة من أمري هل أسمح لهرقل ان يعد واحداً منا او لا يعد . نعم
ان الاساطير اليونانية تقول ان هذا البطل القديم الذي يشبه كروكت وكت
كارسون من أبطالنا^٢ ، ذلك المقتول الساعد الذي اضطلع بتحقيق الاعمال
البيهجة المجيدة قد ابتلعه الحوث ثم قذف به ؛ ولكن ترى اذا دققنا في الامر

١ انظر سفر القضاة ١٦ : ٢٣ وصموئيل الاول ٥ : ٢ - ٥ .

٢ دافيد كروكت (١٧٨٦ - ١٨٣٦) وكت كارسون (١٨٠٩ - ١٨٦٨) الاول
سياد دبة انتخب في الكونجرس رغم أنه أمي ، اما كارسون فذهب في رحلات استكشافية
عديدة الى كاليفورنيا وشارك في الحرب المكسيكية .

فهل هذا يجعل منه حواتاً ؟ ذلك شيء يظل محطاً للجدل . إذ ليس فيما بلغنا أنه زرق الحوت برمحه إلا ان يكون فعل ذلك وهو في جوفه ، ومع ذلك فقد نعهه حواتاً على نحو لا ارادي ، وعلى أية حال فان الحوت أمسك به ، وان لم يمك هو بالحوت ، وأنا أميل الى أن أدعيه واحداً من بني عشيرتنا .

غير أن الثقات - على تضارب في الرأي فيما بينهم - فريقان : فريق يرى ان هذه القصة الاغريقية عن هرقل والحوت مستمدة من قصة عبرية أقدم منها عن يونان والحوت ، وفريق يقول بل القصة العبرية مقتبسة عن اليونانية ، وكلا القولين متشابهان وما دمنا ندعي البطل الذي يشبه الآلهة فلم لا ندعي النبي ؟

ليس الأبطال والقديسون وأشباه الأرباب والأنبياء هم وحدهم الذين يشتمل عليهم سجل عائلتنا ، ولا بد ان نذكر اسم سيدنا العظيم ذلك ان نبع اخوتنا لا يتقاعس عن منزلة الأرباب العظام كما كان الملوك في غابر الأيام . تلك القصة الشرقية العجيبة يجب ان تتلى على الاسماع نقلاً عن الشاستر الذي يمنحنا فشنو المخوف أحد ثلاثة أشخاص يتجسدها ربّ الهندوس ، وفشنو هذا الآلهي هو سيدنا ، فشنو هو الذي فصل الحوت وميزه وجعله مقدساً الى الأبد في التجسد الأول من تجسّداته الارضية العشرة . ويقول الشاستر : عندما قرّر براهما رب الأرباب أن يعيد خلق العالم بعد أحد انحلالاته الدورية ، ولد فشنو ليهيمن على هذا العمل ؛ ولكن الفيدا او أسفار الحكمة الغيبية التي كانت قراءتها أمراً لازماً على فشنو قبل ان يبدأ الخلق ، والتي كانت تحتوي ولا بسد أشياء في صورة تلميحات عملية للمهندسين المعماريين الشبان ، أقول : هذه الكتب كانت في قاع البحر فتجسد فشنو حوتاً وقمس فيه الى قرارة الأعماق السحيقة وخلص تلك الكتب المقدسة . ألم يكن فشنو هذا حواتاً ، إذن ، مثلما يسمى راكب الفرس فارساً ؟

برسيوس ، القديس جورج ، هرقل ، يونان ، فشنو ! هذا سجل العضوية لك أيها الحوات . أي نادٍ إلا ويستطيع نادي الحواتين ان يبنّده ؟

النظر في يونان من زاوية تاريخية

في الفصل السابق جرت الإشارة الى القصة التاريخية ، قصة يونان والحوت . غير أن بعض أهالي نانتوكت لا يثقون في تلك القصة . لكن كان في الاغريق والرومان أيضاً شكيون برزوا من بين الوثنيين المستقيمين أبناء زمانهم ، وشكوا في قصة هرقل والحوت وفي آريون والدلفين ^١ ، ورغم ذلك فان شكهم لم يحوّل تلك الموروثات قيد شعرة عن كونها حقائق واقعة .

وأبدى حوات عجوز من ميناء ساج سبباً كبيراً استدعى منه التشكك في القصة العبرية وذلك هو : كان لديه نسخة أنيقة من هذا الطراز القديم الذي كانت تكتب به نسخ التوراة مزينة بلوحات عجيبة غير علمية ، تمثل احداها حوت يونان وفي رأسه نفثتان — وهي خاصية لا تصدق إلا على نوع اللويثان (أي الحوت الأثين وأنواع فصيلته) وقال الصيادون فيما يتصل به : « لو دحرجت في حلقه قطعة نقود لاختنق » إذ أن بلعومه بالغ الصغر . إلا أن الاسقف جب كان لديه جواب قسبي جاهز يردّ به على هذا الاعتراض . يقول الاسقف : ليس من الضروري أن نقول ان يونان قبر في جوف الحوت وانما ركن مؤقتاً في جانب من فمه . وهذا شيء جد معقول من الأسقف الطيب ، اذ الحق أن فم الحوت الأثين

١ تقول الاسطورة ان آريون الشاعر قذف بنفسه في البحر هرباً من الملاحين الذين حاولوا ان يبتزوه ما معه ، لكن قبل أن يقفز عزف على عوده فاجتمع عدد من الدلافن حول السفينة ، فامتطى ظهر أحدها ونجا به سالماً الى البر .

يتسع لزوج من مائتي الورق يجلس حولهما اللاعبون مرتاحين . ومن الممكن أيضاً ان يونان المنحجر في تجويف ضرس ، ولكن حين نتدبر الامر ونخلص الظنون نرى ان الحوت الاثني ليس له أضراس .

وسبب آخر قدمه ذلك الساجي (اي المنتمي الى ميناء ساج) يعمل به قلة ايمانه بأمر هذا النبي ، شيء يشير في غموض الى جسده المحتبس المخنوق والعصارات المعدية التي يفرزها الحوت ، إلا أن هذا الاعتراض يتهاوى على الارض لان أحد المفسرين الألمان يظن ان يونان لجأ ولا بد الى جسم حوت ميت عائم ، مثلما أن الجنود الفرنسيين في حملتهم على روسيا جعلوا من جثث خيولهم خياماً وقبعوا تحتها . ثم ان بعض الشرّاح المفسرين في القارة الأوروبية قد حدسوا بأن يونان حين ألقى عن ظهر السفينة المقلعة من يافا دبر الهرب تَوّاً الى سفينة أخرى قريبة ، سفينة لها رأس في شكل الحوت ، وأنا أضيف أنها ربما كانت تسمى «الحوت» مثلما ان بعض السفن اليوم تسمى «القرش» او «النورس» او «النسر» . ولم تعدم القصة مؤولين علماء ارتأوا ان الحوت المذكور في سفر يونان انما يعني «حافظ الحياة» — أي كيس منتفخ بالهواء سبح اليه النبي حين أحاطت به الاخطار فنجاً من الموت بالماء . مسكين هو ذلك الساجي ، فقد هزم في كل مجال إلا أن لديه سبباً آخر يسوغ به عدم ايمانه وهذا هو ان لم تخني الذاكرة : ان الحوت ابتلع يونان في البحر المتوسط وبعد ثلاثة أيام قذف به الحوت على بعد ثلاثة أيام من نينوى — وهي مدينة على نهر دجلة — وهي تبعد عن أول ميناء على ساحل البحر المتوسط بأكثر من ثلاثة أيام . فكيف كان ذلك ؟

لكن ألم يكن لدى الحوت من طريقة أخرى يقذف بها النبي الى البر في مدى تلك المسافة القصيرة من نينوى ؟ نعم لعله حمله ودار به عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكن هب أننا تجاوزنا عن رحلته قاطعاً المتوسط ثم رحلته في البحر الأحمر والخليج الفارسي ، فمثل هذا الظن يشمل ابجراً كاملاً حول

افريقية في ثلاثة أيام هذا اذا أغضينا أيضاً عن ان مياه دجلة عند موقع نينوى ضحلة جداً لا تسمح لحوت اي حوت بالعم فيها . ثم ان القول بأن يونان دار حول رأس الرجاء الصالح في مثل ذلك التاريخ المبكر ينتزع شرف استكشافه من بارتوليميو دياز مكتشفه المشهور ويجعل من التاريخ الحديث زوراً كاذباً .

إلا أن جميع هذه الحجج المحقاء التي قدمها ذلك الساجي المعجوز انما تشهد بالخلاء الجوفاء في عقله ، وهو أمر لا يزال يستدعي الشجب والتقريع اذ لم يكن لديه من العلم إلا القليل الذي التقطه من يد الشمس والبحر . أقول إنه انما يبدي كبرياءه المحقاء المارقة ، وثورته الكريهة الشيطانية ضد رجال الدين المبجلين ، اذ أن قسيساً برتغالياً كاثوليكياً قدّم الفكرة التي تقول : بأن يونان ذهب الى نينوى عن طريق رأس الرجاء الصالح مثبتاً بذلك حصول المعجزة على نحو ضخم . وكذلك كان . ثم ان المسلمين الاتراك المتدينين من ذوي البصيرة المستنيرة لا يزالون حتى اليوم يؤمنون بقصة يونان التاريخية . ومنذ حوالي ثلاثة قرون ذكر رحالة انجليزي وردت رحلته في « رحلات هاريس » أن مسجداً بني باسم يونان وكان فيه قنديل معجز يضيء دون زيت ^١ .

١ ليس في الرحلة المشار اليها اي شيء عن قنديل معجز ، وانما كل ما ورد فيها أن المسجد فيه شمعانات كبيرة في زواياه الاربع وفيه قناديل عديدة ؛ المكان الذي يتحدث عنه الرحالة يقع على مقربة من نينوى .

قذف الحربة

إذا أريد لدواليب العربات أن تجري في يسر وسرعة دهنت بالشحم ، ولثل هذه الغاية نفسها يقوم بعض الحواتين بعمل مشابه لقواربهم اذ يشحمون قواعدها . وهو عمل لا ضرر منه ولعله يكون ذا فائدة لا يستهان بها ، دون ريب ، اذا تذكرنا أن الزيت والماء خصمان لا يتمازجان ، وأن الزيت سهل الانزلاق ، وأن الغاية من التزييت هي جعل القارب ينساب منزلقاً في إقدام . وقد كان كويكوج شديد الايمان بتشحيم قاربه ، وذات صباح أنفق جهداً غير عادي في هذا السبيل بعيد ان اختفت السفينة الالمانية «العدراء» عن الانظار ، فزحف من تحت قاعدته حيث كان مدلتى من جانب السفينة ، ودهنه باعتناء كأنه كان يبحث جاهداً ليحصل على خصلة من شعر في سطحه الأصلع ، وبدا كأنه يعمل امتثالاً 'لنُذُرٍ ما' ، وهذا ما صدقته الاحداث من بعد .

ظهرت الحيتان قرب الظهيرة ؛ وحالما اتجهت السفينة مبصرة نحوها دارت وهربت في سرعة بالغة ، هربت في اضطراب كأنها سفن كليبوترة هاربة من اكتبوم .

ومع ذلك استمرت القوارب في ملاحقتها ، وفي مقدمتها قارب اسطب ؛ وبعد نصب ناصب استطاع طاشطيقو ان يغرس في أحد الحيتان رمحاً . لكن الحوت المصاب لم يقمس غائصاً وانما مضى في هربه الأفقي ، وقد زاد من سرعته . واذا استمر الضغط متوالياً على الشفرة المفروسة فيه كان من المحتوم ، إن عاجلاً

أو أجلاً ، أن تنقل من جسمه ، وأصبح لزاماً زرق الحوت الهارب بالحراب أو الرضى بتضييعه ، ولكن دفع القارب نحو جنبه أمر مستحيل إذ كان يسبح بشدة وهياج . فإذا بقي ؟

لدى الحوات المدرب شئون عجيبة وأفانين من المهارة والحداع وخفة اليد وما لا يحصى من الحيل ، يضطر لاستغلالها عند الحاجة ، ولكن لا شيء فيها يفوق تلك الحركة البارة بالحربة ، ويسمونها « قذف الحربة » pitchpoling . وليس يدانيها في هذا سيف صغير أو سيف عريض في كل ما يمكن ان يؤديه من فنون . وليست هي لازمة إلا في حال حوت عامد هارب ؛ وأعظم ما فيها أنها تقذف مسددة فلا تطيش ، على مسافة عجيبة ، من قارب يترجج ويضطرب في عنف ، في أقصى حالات المخر شداً . وإذا حسبت النصل الفولاذي والقناة فيها وجدت طولها معاً بين عشرة أقدام واثنى عشر ، والقناة فيها أشد دقة من قناة الرمح ، وتصنع من خشب خفيف هو الصنوبر ، ويربط بها حبل صغير يسمونه : « السداة » ، ذو طول غير قليل يمكن قاذفها من جرّها الى يده بعد أن تصيب هدفها .

وقبل أن نخفي خطوة أخرى ، من الهام أن نذكر في هذا المقام أن الرمح يمكن غرسه بالطريقة نفسها مع الحربة ولكن ذلك قلما يحدث ، فإذا حدث كان النجاح فيه نادراً ، وذلك لثقل الرمح وقصره إذا قورن بالحربة ، والثقل والقصر يصبحان نقصين خطيرين عندئذ . ولذا كان من المسلّم به ان يسرع الصيادون للحاق بالحوت قبل أن يحاولوا « قذف الحربة » .

تأمل اسطب . ذلك رجل ، في بروده الساخر العامد وفي اتزانه لدى أعنى الأخطار ، كان يعد متميز المهارة في قذف الحربة . انظر اليه ، انه يقف منتصباً في المقدمة المترججة من القارب الطائر ، وعلى بعد أربعين قدماً أمامه يمضي

الحوت ساحباً ما وراءه وقد غاب في بياض الزبد . يروز اسطب الحربة الطويلة في خفة ، ويرمق طولها مرة او مرتين ليرى ان كانت مستقيمة ، ثم يلف السداة في يد وهو يصفر ، لكي يبقى طرفها الآخر في قبضته تاركاً بقيتها دون ان يعوقها عائق ، ثم يمسك بالحربة أمام وسط حزامه تماماً ويصوبها نحو الحوت ، فاذا وثق أنه بمرمى منه ، خفض طرفها الحشبي في يده وبذلك يرفع حدها حتى تقف متزنة على راحته ، على ارتفاع خمسة عشر قدماً في الفضاء . وهو يذكرك بالحاوي الذي يوقف عصا طويلة فوق ذقنه . وفي اللحظة التالية تقطع الشفرة اللامعة المسافة المزیدة في دفعة سريعة لا توصف ، وفي حركة قوسية رفيعة ، وتهتز متأطرة في بؤرة الحياة من جسم الحوت ، فينفث الدم القاني بدلاً من الماء الناصع .

وصاح اسطب : « تلك الضربة قد أطارت السداة عن فوهته . هذا هو اليوم الرابع من تموز ، اليوم الخالد ، وكل الينابيع تتحول خمرًا اليوم ! يا ليت هذا الدفق كان ويسكي أورليانز المعتقد او ويسكي أوهايو او ذلك الويسكي العتيق الذي يعجز الوصاف في موننجاهايلا^١ . اذن طاشطيقو ، أيها الفتى لجعلتك تمسك صفحة تتلقى فيها دفق النفائة ، ودارت علينا جميعاً الراح . أجل أيتها القلوب الحيوية اذن لقطرنا البنش المختار في رحي الوقب من نفائته ، وجعلنا منها كأساً حياً وعبيننا منها الشراب الحي عباً » .

وفيا يمضي هذا الحديث اللاهي يعاد قذف الحربة مرة اثر مرة ، وتعود الى صاحبها عودة كلب الصيد حين يكون مربوطاً في وثاق . ويخبو هياج الحوت المعضب ، ويرتخي حبل الجر ، ويعتزل قاذف الحربة نحو المؤخرة ، ويطوي يديه ويرقب الحوت في صمت وهو يلفظ أنفاسه .

١ في بنسلفانيا الغربية .

النافورة

على مدى ستة آلاف عام - ولا أحد يدري كم مليوناً من الاجيال قبل ذلك - ظلت الحيتان العظيمة تبعث نفثاتها في عروض البحار جميعاً ، وترسل الرذاذ والسحب فوق حدائق الاعماق بما لديها من أوعية تطلق السحاب ورشاشات تنثر القطرات . وعلى مدى بضعة قرون ماضية ظل آلاف الصيادين يشهدون عن كذب نافورة الحوت ، ويرون الى ما تقوم به من طش ورش ؛ وذلك ما كانت وما هو كائن حتى هذه اللحظة المباركة (الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة عشرة والرابع من بعد ظهر السادس عشر من شهر كانون الاول - ديسمبر - عام ١٨٥١ بعد الميلاد) ومع ذلك فلا يزال السؤال قائماً : أهذه النفثات ماء حقاً - بعد كل ذلك - أم ليست إلا بخاراً ؟ ذلك امر يستحق التنويه يقيناً .

لننظر الى هذه المسألة مع بعض أمور اخرى هامة ، تصحبها اتفاقاً . كل امرئ يعلم ان الفصائل المزعنفة تتنفس عامة - حسب تكوين الاكياس الرئوية فيها - الهواء الذائب في المادة التي تسبح فيها ، ومن ثم فان سمكة الرنجة او الكد قد تعيش قرناً من الزمان دون ان ترفع رأسها مرة واحدة فوق سطح الماء ؛ أما الحوت فان بنيته الداخلية الفريدة قد جعلت له رئة عادية تشبه رئة الانسان ، ولذلك فانه لا يحيا إلا اذا استنشق الهواء الطليق من الجو ، ولذا يضطر الى ان يزور العالم العلويّ زورات دورية ، ولكنه لا يستطيع ان يستنشق الهواء ابداً عن طريق فمه ، لانه ان كان حوت العنبر في حال طبيعية كان فمه دفيناً على

بعد ثمانية أقدام من سطح الماء ؛ كذلك فان قصبته الهوائية غير متصلة بفعه ولذا فانه لا يتنفس إلا من خلال فوهة التنفس وحدها، وتقع هذه في قمة رأسه .

فاذا قلت ان التنفس لدى أي مخلوق انما هو وظيفة لا غنى عنها للحياة بمقدار ما يستطيع ان يستخلص من الهواء عنصراً معيناً، يصبح في التالي على صلة بالدم، فيعطي الدم مبدأ الحياة، فلست أظنني بجانباً للصواب، وان كان في مقدوري ان استعمل حشواً من الالفاظ العلمية . فاذا صدقت ذلك، استتبع هذا انه لو كان دم الانسان كله يمكن «تهويته» بنفس واحد لاستطاع ان يختم على خيشومه، فلا يستدعي نفساً آخر الا بعد قسط كبير من الزمن . أي لاستطاع ان يعيش دون تنفس . قد يبدو هذا شيئاً غريباً ولكنه على وجه الدقة هو حال الحوت ، فانه يبقى — بين فترات التنفس — على وجه منظم ساعة كاملة او اكثر (في قعر المحيط) دون ان يسحب نفساً واحداً او يستنشق ذرة من هواء ؛ ولا تنس انه ليست لديه اكياس رئوية . فكيف كان ذلك ؟ بين اضلاعه وعلى كل جانب من جانبي عموده الفقري تجده مزوداً بشبكة فذة معقدة من الاوعية الشعرية، وهذه الاوعية تتنفخ تماماً — عندما يغادر سطح الماء — بدم مشبع بالاكسجين، وبذلك يحمل مخزوناً فائضاً من الحياة فيه لمدة ساعة او اكثر تحت آلاف القامات من الماء ، مثلاً ان الجمل الذي يحتاز اليباب القفر يحمل مخزوناً من الماء في معدة الاربع الزائدة كي يستعمله عند الحاجة . ان هذه الشبكة المعقدة أمر يقيني لا مشاحة فيه ، وأما ان الفرض المبني عليها يبدو معقولاً صحيحاً فيبدو لي اكثر شيء اقناعاً حين اتأمل اصرار ذلك الحوت على ان « يبرز نفائاته » كما يقول البحارة ، وهو اصرار لا أجده وجهاً آخر من تفسير . وهذا هو ما أعنيه : اذا صعد حوت العنبر الى السطح دون ان يدفعه تحرش او ازعاج ، فانه يبقى هناك فترة من الوقت تضاهي تماماً فترات بقاءه الاخرى حين يصعد مطمئناً دون تحرش او ازعاج . افرض انه يقف احدى عشرة دقيقة ، وينفث سبعين مرة، أي يستنشق سبعين نفساً، فاذا صعد الى السطح مرة اخرى فهو على يقين

من انه لا بد ان يسحب سبعين نفساً دون نقص او زيادة ؛ فاذا أفرغته بعد ان تزود بمبعة أنفاس واضطرته الى الغوص فانه يتسلل دائماً الى اعلى ليستوفي نصيبه الكامل من الهواء، ولن يعود في النهاية ليقضي الدورة التي يقضيها تحت الماء إلا اذا استكمل الانفاس السبعين . ثم لاحظ ان هذه النسب تختلف من فرد لفرد ، ولكن الفرد الواحد يحتفظ بنسبة لا تتغير . لم يصر الحوت على ان « يبرز نفثاته » إلا ان يكون هدفه هو ان يملأ مستودع الهواء لديه قبل ان يذهب الى الاعماق للمكث الطويل ؟ من الجلي أيضاً ان اضطراره الى الصعود يعرضه لكل المخاطر المميتة التي يتمخض عنها الصيد، اذ لا يمكن لهذا اللويثان الجسم المديد ان يصاد بالصنارة او بالشبكة حين يبحر على عمق ألف قامة بعيداً عن ضوء الشمس ؛ ليست مهارتك اذن - ايها الصياد - هي التي تكفل لك النصر، وانما هي الضرورات الكبيرة .

والتنفس في الانسان مستمر، وكل نفس يدوم ضربتين او ثلاثاً من ضربات القلب، فمهما وجه الانسان اهتمامه الى عمل آخر، مستيقظاً او نائماً، كان لا بد له من ان يتنفس والا قضى نحبه ؛ أما حوت العنبر فانه لا ينفق في التنفس إلا سُبْعَ عمره .

لقد قلنا ان الحوت لا يتنفس إلا من خلال فوهة النفث، فاذا صح ان نقول ان نفثاته ممتزجة بالماء فاني ارتأي اننا هنا نقع على السبب الذي جعل حاسة الشم عنده معطلة ، اذ ليس فيه عضو يوازي الانف إلا فوهة النفث، وما دام يسدّ منفذها عنصران فلا يتوقع لها ان تكون فيها القدرة على الشم . ولكن بما ان النفث لغز - أهو ماء او بخار - فليس هناك يقين مطلق يمكن ان نبغله حول هذه القضية، ومع ذلك فمن المتيقن ان ليس للحوت أدوات للشم متميزة، ولكن ما حاجته اليها وليس في البحر ورد او بنفسج او عطر الكولونيا ؟

ثم ليس للحوت صوت . وذلك لان قصبته الهوائية لا تفتح إلا على انبوب

القناة النفثة ، وتلك القناة الطويلة — مثل قناة إيرى العظمى — مزودة بنوع من الهويسات (تنفتح وتنغلق) لتحتفظ بالهواء في الاسفل وتطرد الماء صعوداً ؛ لهذا لم يكن له صوت ، ألا ان تهينه فتقول حين تسمعه يدمدم على نحو غريب ؛ انه أخف يتحدث من أنفه . ولكن — مرة أخرى — ما شأن الحوت بالكلام ؟ لقلنا عرفت كائناً عميقاً لديه ما يقوله لهذا العالم إلا ان اضطر ليتم شيئاً يعنيه ليحصل على وسيلة عيش . آه : ما اسعد ان يكون العالم ذا أذن صاغية واعية !

وقناة النفث في حوت العنبر انما غايتها الكبرى هي نقل الهواء ، فهي تمتد على مدى عدة أقدام امتداداً افقياً تحت السطح الاعلى من رأسه مباشرة ، منحرفة بعض الشيء الى احد الجانبين ؛ وهذه القناة الغريبة تشبه أنبوب الغاز الذي يمد في احد جانبي شارع من شوارع مدينة من المدن . ثم يعود السؤال : هل أنبوب الغاز هذا أنبوب للماء ايضاً ؟ اي بعبارة أخرى : هل نفثة حوت العنبر انما هي الزفير المطرود او ان هذا الزفير يخلط بالماء عند الفم ويطرد من خلال الفوهة ؟ من المؤكد الثابت ان الفم يتصل — على نحو غير مباشر — بقناة النفث ، ولكن لا يمكن ان نثبت ان هذه الصلة انما هي للتخلص من الماء من خلال الفوهة . ذلك لان اقصى الضرورات التي تضطر الحوت ان يفعل ذلك انما تتم حين يتغذى فيأخذ قسطاً من الماء عرضاً ، غير ان طعام حوت العنبر بعيد جداً عن سطح الماء ، وهناك لا يستطيع ان ينفث حتى لو شاء ان يفعل . ثم انك اذا تأملت عن كذب ، وعينت الوقت بساعتك حين لا يكون عرضة للتحرش والازعاج ، وجدت تناوباً لا يختل بين فترات نفثه والفترات العادية من تنفسه .

ولكن لم تُعْنِتْ الناسَ بكل هذا التفلسف حول الموضوع ؟ أفصح ! لقد رأيته ينفث ، اذن فقل جهرأ ما هو نفثه ، ألا تستطيع ان تميز الماء من الهواء ؟ سيدي العزيز ليس من السهل في هذا العالم ان تقطع بقول فصل في هذه الشؤون

الواضحة . لطالما وجدت ان الشئون الواضحة أعقد الشئون، أما نفائسة الحوت فقد تقف فيها ثم تظل حائراً في أمرها وماهيتها .

جسمها الاوسط مخنّف في الضباب الثلجي اللامع الذي يغلفها . وكيف تستيقن ان كان الذي ينبعث منها ماء ، وأنت حين تقارب الحوت لترى نفائسته بدقة فانه يكون دائماً في هياج هائل ، والماء يعبّ حوله من كل جانب كأنه شلال . واذا ظننت في مثل هذه الاحوال انك قد لحظت حقاً قطرات من الرطوبة في النفائسة، فكيف تعلم انها لم تتكشف من بخاره، او كيف تعلم انها ليست القطرات المائلة التي تندسّ من خارج في نسيج فوهة النفث، وهي مندسة في القمة من رأس الحوت ؟ فهو دائماً يحمل حوضاً صغيراً من الماء فوق رأسه مثلما ترى تحت الشمس المتوهجة احياناً قلناً في صخر يملأه ماء المطر، وهو يحمل ذلك الحوض الصغير حتى وهو يسبح مطمئناً في صفاء الظهيرة وهدأة الكون ، وحرديته سامقة قد جففتها الشمس كأنها سنام الجمل في الصحراء .

وليس من باب الكياسة في الصياد ان يزداد فضوله حول الطبيعة الحق لنفائسة الحوت . اذ ليس مما يغني عنه ان يحملق فيها او ان يدس فيها أنفه . انك لا تستطيع ان تذهب بجرّتك الى هذه النافورة وتلأها وتعود بها . اذ انك حتى حين تقارب اقتراباً غير كبير من المزق الخارجية ذات الابخرة في النفائسة، وهذا أمر يحدث كثيراً، فان جلدك يؤلمك ألماً مبرحاً من لدغ الشيء الذي لامسه . وأنا أعرف شخصاً اقترب من النفائسة كثيراً — ولا أدري هل كانت غايته علمية او غير علمية — فتسلخ جلده عن خده وساعده . ومن ثم ذهب الحواتون الى ان نفائسة الحوت سامة فهم يحارلون ان يتجنبوها ما استطاعوا . وشيء آخر: سمعته يقولون ولا أشك فيما قالوه : اذا أرسلت النفائسة نفثها في العينين اصابتها بالعمى . يبدو لي اذن ان احكم ما يمكن ان يصنعه الباحث هو ان يترك هذه النفائسة القاتلة في حال سبيلها .

واذا عجزنا عن البرهان والتأكيد فانا لن نعجز عن الفرض . وهذا هو الفرض الذي اطرحه : ان النفط ليس إلا ضباباً ، وقد توصلت الى هذا الاستنتاج عن طريق تأملات تمسّ الرفعة العظيمة والروعة البالغة لدى حوت العنبر طبعاً وسليقة ؛ هذا الى اسباب اخرى . فأنا لا أعد هذا الحوت كائناً عادياً ضحلاً مستيقناً من ذلك بمثل يقيني الذي لا ينازعني فيه مجادل انه لا يوجد عند الشواطئ او على مقربة من البر ؛ اما سائر الحيتان فانها قد تفعل ذلك احياناً فهو اذن يجمع بين الثقل والعمق وأنا مقتنع ان رموس الكائنات الثقيلة العميقة ، مثل افلاطون وبيرون^١ والشيطان وجوبتر ودانتي ، يخرج منها دائماً بخار شبه منظور حين تأخذ في التفكير العميق . وحين كنت أكتب مقالاً في الخلود دفعني الفضول الى ان أنصب مراة امامي وقبل وقت طويل رأيت في المراة تلوياً متعقداً غريباً وتوجاً في الجو من فوق رأسي ؛ كان ذلك هو رطوبة شعري التي لا تتبدل وأنا مستغرق في الفكر العميق بعد ستة اكواب من الشاي الساخن في المقصورة العلوية المسقوفة بالخشب في بيتي . هذه - فيما يبدو - حجة تؤيد الفرض الذي وضعته آنفاً .

وما أشد ما يسمو بخيالنا عن الوحش القوي ذي النفط الضبابي ان نراه يسبح في جلال خلال هدأة البحار الاستوائية ، وقد تظلل رأسه الجريم اللطيف بظلمة من بخار ولدته أفكاره التي لا يمكنه ابلاغها لغيره ، وان ذلك البخار يرى احياناً وقد وشحه قوس قزح ، حتى كأن السماء نفسها أمنت على افكاره ووقعت بالقبول ؛ ولعلك تعلم ان قوس قزح لا يلم بالفضاء الصافي وانما يبعث الألق في البخار ، وكذلك اذا تكاثف ضباب الشكوك القائمة في عقلي تخللته

١ Pyrrho فيلسوف يوناني (حوالي ٣٦٠ - ٢٧٠ ق. م.) كان يقول من الحال معرفة الاشياء في ماهياتها .

انوار الحدس الالهية منورة ذلك الضباب بشعاع سماوي . شكراً لله على هذا
لان الناس جميعاً تعترفهم الشكوك ، وكثير منهم يعترفهم الجحود، ولكن قلّ
ان تحمد في الناس من ينالون الحدس مع الشك او الجحود . الشكوك في
الامور الارضية، والحدس في الامور السماوية . هذا المزيج لا يصنع مؤمناً خالصاً
ولا كافراً خالصاً وانما يصنع انساناً يرى الحالتين دون تفرقة او تمييز .

الذنب

غيري من الشعراء قد نظموا قصائد غزل يتغنون فيها بعين الغزال الساجية ، وبريش الطير الجميل الذي يظل أبداً مخلقاً ، أما أنا فاني سأتغنّى بذنب ، وهو نصيب أقلّ مجدداً .

إذا قدرت ان اكبر ذنب حجماً في حوت عنبر ، يبدأ من حيث يصبح جذعه يستدق بحيث يغدو في مثل محيط الجسم الانساني ، فانه يضم على سطحه وحده مساحة تبلغ خمسين قدماً مربعاً على الأقل . وعند العجب ينشطر الجسم المستدير المكتنز في شطرين او راحتين عريضتين ثابتتين مسطحتين ، يستدقان تدريجاً حتى يصبح سمكها أقل من بوصة واحدة ، وعند موضع الانشعاب تتداخل هاتان الشطيرتان قليلاً ثم تتجافيان احدهما عن الاخرى كالجناحين ، مخلقتين فيما بينهما فضاء واسعاً ؛ ولن تجد في أي شيء حي خطوط جمال محددة المعالم في حسن بديع كما تراها في الحوا في الهلالية من هاتين الشطيرتين ؛ ويزيد الذنب في أقصى ما يبلغه من عرض في حوت مكتمل النمو على أربعين قدماً .

ويبدو هذا العضو كله طبقة كثيفة منسوجة من عضلات متلاحمة ، ولكن اقطع فيها قطعاً تجد أنها تتألف من ثلاث طبقات : عليا ووسطى ودنيا . أما الأنسجة في الطبقتين العليا والدنيا فانها طويلة أفقية ، وأما التي في الطبقة الوسطى فانها بالغة القصر متجهة اتجاهاً عرضياً بين الطبقتين المحيطتين بها . وهذا التركيب الثلاثي يمنح الذنب قوة ، شأنه شأن أي تركيب آخر . ومن كان يعرف الاسوار

الرومانية القديمة وجد ان الطبقة الوسطى توازي على نحو غريب الصف الرفيع من البلاط الذي يتناوب دائماً مع الحجر في تلك الآثار العجيبة من مخلفات القدماء، وهو ولا ريب ذو أثر كبير في القوة العظيمة التي تتمتع بها تلك الأسوار.

ولكن كأنما هذه القوة المحلية الكبيرة في الذنب الوتري غير كافية ولذلك كان جسم اللويثان كله مزوداً بسدىّ ولحم من الانسجة والالياف العضلية تمر من كل جانب من جانبي أحشائه، وغضي حتى شطيرتي الذنب، وتمتزج في أنسجتهما وتسهم في منحهما القوة كثيراً، حتى يبدو ان قوة الحوت كله، المترافدة التي لا يستطاع قياسها، كأنما تتجمع في الذنب عند بؤرة واحدة. ولو كانت المادة تصاب بالفناء فهذه المادة موضع ذلك.

وهذه القوة المدهشة لا تنحو أبداً لعرقة التثني الرشيق في حركاته، حيث اليسر الرشيق يتموج من خلال جبروت القوة. بل العكس هو الصحيح: فان تلك الحركات تستمد جمالها الباهر منها، فالقوة الحق لا تشوه الجمال او الانسجام وانما تمنحها للشيء القوي؛ وفي كل شيء جميل أسر الجمال تلعب القوة دوراً سحرياً. أزل الاوتار العضلية الملتفة التي يبدو وكأنها تريد ان تنفر من الرخام في تمثال هرقل فقد يضيع سحره بذلك. وعندما أزاح اكرمان التقيي المخلص الكفن الكتاني عن جثة جوته العارية هاله ان يرى صدره الضخم، وبدا له كأنه قوس نصر روماني^١. وعندما يرسم أنجلو صورة الإله في شكل إنساني فتأمل ما فيه من قوة وعنفوان. ومهما تبرز الصور الايطالية الخنثوية الناعمة المتموجة من حب إلهي في صورة المسيح، وهي الصور التي تجسدت فيها فكرة المسيح

١ يقول اكرمان: «سجى الجسم عارياً لا يلفه الا كفن أبيض... وأزاح فردريك الكفن عنه فالتني الروعة المتألهة في الاعضاء، كان الصدر قوياً راسعاً مقوّساً... أمامي إنسان كامل في جمال رائع».

تجسداً موفقاً ، فانها — لخلوها من كل عضل مفتول — لا توحى بشيء من القوة إلا القوة السالبة المؤنثة ، قوة الخضوع والصبر التي أجمع العارفون على أنها تمثل الفضائل العملية المتميزة في تعاليمه .

وهذا العضو الذي أتحدث عنه قد بلغ من المرونة اللبقة حداً بعيداً ، حتى لو تحرك في هو أو جد أو غضب أو في أي حال ، فإن ثنياته موسومة برشاقة بالغة لا تختل ، وفي هذه الرشاقة لا تفوقها حتى سواعد الجنّيات .

وتختص به خمس حركات كبيرات ، أولاهما : حين يستعمل زعنفة تعين على الحركة والتقدم ، وثانيتها : حين يتخذ كاسراً للدروع في الحرب ، والثالثة في الجرف والكسح ، والرابعة في استرخائه ، والخامسة في رفع الشطيرتين على اتجاه عامودي .

أولاً : بما أن ذنب اللويثان أفقي في وضعه فانه يتحرك على نحو يختلف عن أذئاب جميع الحيوانات البحرية الأخرى . فانه لا يتعقص ابداً فالتعقص في الانسان والسماك من أمارات النقص . أما الحوت فان ذنبه هو وسيلته الوحيدة للدفع ، وبما أنه يلتف كالدرج أماماً تحت الجسم ، ثم يقفز بسرعة الى الخلف فهو الذي يمكن الحوت من حركة الانطلاق الفريد الواثب حين يسبح بعنف وهياج . اما زعانفه الجانبية فانها تعينه على التحرر ليس إلا .

ثانياً : ربما كان أمراً ذا أهمية ما أن نعلم بأن حوت العنبر حين يقاتل حوت عنبر آخر فانه لا يستخدم إلا رأسه وفكيه ، ومع ذلك فانه في صراعه مع الانسان لا يستخدم إلا ذنبه — في الدرجة الاولى — في استهانة وازدراء . فاذا ضرب قارباً حتى شطري ذنبه بسرعة عنه ، ثم سدّد الضربة اليه عند التراجع فقط . فاذا تمت الضربة في الهواء الطلق وبخاصة اذا هوت على هدفها فانها ضربة

لا تصد ولا تقاوم، وتعجز عن ان تتحملها أضلاع الانسان وألواح القارب، ولا نجاة للمرء إلا بأن يتحاشاها، ولكن ان وقعت جانبيه خلال الماء الدافع فانت النتيجة الخطيرة التي تنجم عنها بعامه لحفة قارب التحويت من ناحية ولمرونة مادتها من ناحية اخرى انما هي كسر ضلع او خلع لوح او اثنين او احداث وخز في الجنب، وكثيراً ما تحدث هذه الضربات الجانبية خلال الماء في حرفة التحويت حتى انها لتعد عبث اطفال، فقد يخلع احدهم سترته ويسدّ الجرح او الثقب .

ثالثاً : يبدو لي، وان كان ما يبدو أمراً اعجز عن تأييده بالحجة، ان حاسة الشم في الحوت ترتكز في ذنبه، اذ فيه - من هذه الناحية - رهاقة لا يوازيها الا الفراة في خرطوم الفيل، وتتجلى هذه الرهاقة على نحو كبير في الجرف والكنس حين يحرك الحوت، بلطف العذارى وبأناة ناعمة، شطيرتي ذنبه الضخمتين من جانب الى جانب على سطح الماء؛ ولو انه أحس بشاربي بحار فويل لذلك البحار ولشاربيه ولكل ما لديه . ماذا في تلك اللمة التحسسية من رقة وارهاف ! لو كان في ذلك الذنب قوة ممسكة لأخطرت^١ توأ على بالي فيل درموندس الذي كان يتردد على سوق الازهار، وينحني محيياً العذارى ويقدم لهن طاقات من الزهر، ويداعب حجزاتهن^١ . وفي غير مناسبة واحدة يشعر المرء بالراء ان لا يكون ذلك الذنب ذا قوة على القبض والامساك، ذلك أني سمعت بفيل آخر كان اذا جرح في القتال، طوى خرطومه وانتزع به النصل من جسمه .

رابعاً : اذا تسالت خلصة نحو الحوت وهو يظن نفسه آمناً مطمئناً في وسط البحار النائية وجدته صليماً لا ينفك من الاستشمار بعزته وجسامتها الجسيمة، وهو يلعب على المحيط كأنه السنور وكان المحيط مصطلاه . ولكنك ترى قوته

١ مثل هذه القصة عن الفيل روى موفتين وكذلك تجدها عند بليبي وفلوطارخس، ولكن لم يذكر احد منهم هذا الاسم « درموندس » .

في لعبه ، فانه يرفع الراحتين العريضتين من ذنبه عاليتين في الفضاء، ثم يلطم وجه الماء فيتردد هزيم اللطمة على مدى اميال حتى لتظن ان مدفعا ضخماً قد انطلق ، واذا لحظت الاكلیل الخفيفة من البخار الصاعد من الفوهة في طرفه الآخر ظننت ان هذا هو الدخان المنبعث من الثقب حيث تدس النار في البارود.

خامساً : حين يكون الحوت في وضع عادي من العوم ، تكون الشطيرتان على بعد غير قليل تحت مستوى ظهره ، ولذلك تكونان محجوبتين تماماً عن الانظار تحت الماء ؛ فاذا هم ان يغوص في الاعماق نصب شطيرتي الذنب مع ثلاثين قدماً — على الاقل — من جسمه في الفضاء وبقي يتذبذب كذلك لحظة حتى يغوص سائره مختفياً عن النظر . واذا انت استثنيت قفزته الرائعة خارجاً من الماء — وذلك ما سوف أصفه في موضع آخر — فان رفعه لشطيرتي ذنبه منصوبتين في الفضاء ربما كان اعظم منظر يراه المرء في الطبيعة الحية . من الاعماق التي لا قرارة لها يبدو الذنب الضخم وكأنه يحاول ان يتشبث متشبثاً بالسما السابعة . كذلك رأيت الشيطان المهيّب في أحلامي يدفع بمخلبه المعذب الجسم من خلال بحار النار في السعير ، ولكن الحكم في مثل هذه الامور وانت ترمقها هو حالك النفسية عندئذ فان كنت في حالة داتنية خطرت لك الشياطين وان كنت في مثل مزاج اشعيا تذكرت الملائكة الابرار . ذات مرت كنت اقف على قمة الصاري في سفيني عند الشروق وقد صبغت الشمس الأفق والبحر بلون قرمزي ، فرأيت قطعاً كبيراً من الحيتان قبيل المشرق كلها عامدة في وجهتها نحو الشمس ، وظلت لحظة تتذبذب في انسجام وشتائر اذناها منتصبه ، وقد خطر لي حينئذ ان مثل هذا التجسد العظيم لعبادة الآلهة لم يشهد له مثيل ولا حتى في فارس موطن عباد النيران . ومثلما ان بطليموس محب الاب قد شهد للفيل الافريقي^١ فاني عندئذ شهدت للحوت بأنه أشد المخلوقات تقوى

١ يقول فلوطارخس ان بطليموس هذا شهد بأن الآلهة تحب هذا الحيوان — اي الفيل — وقال يوبا انه يعبدها ويفتسل متطهراً في البحر ويعبد الشمس الشارقة موجهاً نحوها خرطوم .

وورعاً . اذ يقول الملك يوبا ان الافيال الحربية في القديم كثيراً ما كانت تستقبل الصباح وخراطيمها مرفوعة وهي في اعلى سكون .

ان هذه السانحة للمقارنة بين الحوت والفيل في هذا الفصل ، من حيث بعض مظاهر الذنب في احدهما والخرطوم في الآخر ، يجب ألا تجعل هذين العضوين المتضادين موضع المساواة ، او تجعل صاحبها كذلك ، وشتان ما هما ، لان اقوى فيل لا يعدو ان يكون كلباً صغيراً لآزاء الحوت ، ولا يعدو خرطومه اذا قارنته بذنب الحوت ان يكون سويقة زنبقة . واذا قارنت ضربة الفيل بضربة الحوت ، وجدت اعلى ضربة للفيل بخرطومه لا تعدو ان تكون هشة عابثة بمروحة ، أما شطيرتا ذنب الحوت الثقيلتان فانها تحدثان دماراً وتحطيماً ، وكم من مرة أطارتا في الفضاء قوارب كاملة بكل ما فيها من مجاذيف وملاحين مثلما يقذف الحاوي الهندي الكرات * .

وكلما ازددت تأملاً في هذا الذنب الجبار زاد أسفي لعجزني عن وصفه . فله حركات في بعض الاحيان لو تلبست يد انسان لزانتها ومع ذلك تظل لغزاً لا يفسر . وهي حركات وايماءات صوفية يمارسها في القطيع الكبير احياناً على نحو فذ ، حتى لقد سمعت بعض الصيادين يقولون انها شبيهة بالاشارات والرموز التي يستعملها الماسونيون ، وان الحوت حقاً يتحدث بهذه الوسائل الى الكون في ذكاء وفطنة . وليست تعوز الحوت حركات اخرى في جسمه بعامة ، حافلة بالغرابة ولا يستطيع تعليلها امر مهاجميه ، فكيفما اخذته بالتحليل والتشريح لم أتجاوز في العمق سمك بشرته ، فأنا اجهله وسأظل اجهله ابداً واذا لم اعرف حتى

* كل مقارنة في الجسامة عامة بين الحوت والفيل منافية للطبيعة ، اذ الفيل انما يقف من الحوت مثلما يقف الكلب من الفيل ، ومع ذلك فان بعض اوجه الشبه العجيب متوفرة ثمة ، ومنها النفث فمن المعروف ان الفيل يأخذ الماء او الغبار بخرطومه ثم يرفعه رينفته مسترسلاً .

ذنبه فكيف افهم رأسه ؟ ثم - وهذا ابلغ - كيف أدرك وجهه حين لا يكون له وجه ؟ ويبدو لي انه يقول : سترى اجزائي الخلفية، سترى ذنبي اما وجهي فلن تراه^١، ولكنني لا استطيع ان أستبين اجزاءه الخلفية تمام الاستبانة ومهما يقل هو عن وجهه فاني اقول ثانية انه لا وجه له .

١ قارن هذا بما جاء في سفر الخروج ٣٣ : ٢٣ « وقال الرب هوذا عندي مكان، فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي ابي اضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى اجتاز، ثم ارفع يدي فتنظر ورائي، وأما وجهي فلا يرى » .

اسطول ضخم من الحيتان

تكوّن شبه جزيرة مالقة الطويلة الضيقة في امتدادها جنوباً شرقياً من مقاطعات برما آخر نقطة جنوبية في آسيا جميعاً ، ويمتد من شبه الجزيرة تلك على خط مسترسل ، جزائر سومطرة وجاوة وبالي وتيمور ، وهي تكوّن مع جزائر أخرى كثيرة سداً مديداً أو برزخاً يربط ربطاً طويلاً بين آسيا وأستراليا ، ويفصل بين المحيط الهندي المديد المسترسل والأرخبيلات المشرقية المرصعة ترصيعاً كثيفاً . وتتخلل هذا البرزخ موانئ خفية عديدة تفيد منها السفن والحيتان ، ومن أبرزها مضائق سنداء ومالقة ؛ فالسفن العائدة نحو الصين من الغرب تنفذ على وجه الخصوص من مضائق سنداء الى البحار الصينية .

ومضائق سنداء الضيقة هذه تفصل سومطرة عن جاوة ، وتتوسط البرزخ الجزري المديد ، ويرفدها نتوء بارز أخضر يعرفه البحارة باسم رأس جاوة ، وهي تمثل بوابة متوسطة شارة نحو امبراطورية شاسعة مسورة ، وإذا اعتبرنا الثروة الثرة التي تتمتع بها آلاف الجزر في ذلك البحر الشرقي من أفوايه وحرائر وذهب وجواهر وعاج فيبدو أن من عناية الطبيعة ذات المغزى ان تكون هذه الكنوز حسب طبيعة تكوين البلاد تحمل مظهراً على الاقل - وان كان قليل الغناء - يدل على أنها محروسة من جشع العالم الغربي . وليس على سواحل مضائق سنداء مثل تلك القلاع المسيطرة التي تحرس مداخل البحر المتوسط وبحر البلطيق والبحر الاسود . فهؤلاء الشرقيون على خلاف الدغركيين لا يتطلبون الولاء الخانع الذي تبديه مواكب السفن المسترسلة حين تخفض أشرعتها العليا أمام الريح ،

وهي السفن التي ظلت على مدى قرون في الماضي تمر ليلاً ونهاراً بين جزيرتي
سومطرة وجاوة ، محملة بأعلى بضائع الشرق . ولكن ان كان هؤلاء الشرقيون
يتنازلون راضين عن مثل هذه الشعائر فانهم لا يتنازلون أبداً عن استدعاء جزية
أبهظ .

فمنذ زمن غابر لا تحققه الذاكرة كانت زوارق القرصنة الملايوية تهجم وهي
كامنة بين الكهوف والمنافذ المظلمة من جزيرة سومطرة على المراكب المبحرة
خلال المضائق ، مطالبة في إلحاف وعنف بحجزية تحصلها على رؤوس الحراب ؛
وكم نال هؤلاء من عقوبات دموية متكررة على أيدي المراكب الأوروبية الجوابية ،
تضاءلت بها قفحة هؤلاء القراصنة في السنوات الاخيرة ، إلا أننا حتى اليوم ما
نزال نسمع ان مراكب انجليزية وأمريكية وقعت في تلك المياه فهوجمت ونهبت
دونما رحمة .

كانت السفينة الباقوطة تدنو من تلك المضائق في ربح طلقة رخاء ، وآخاب
يهدف الى أن ينفذ خلالها الى بحر جاوة ثم يذهب في التطواف شمالاً في مياه
يعرف البحارة أنها مثابة حوت العنبر هنا وهناك ، ثم يساحل موازياً جزائر
الفلبين ويقترب من شاطئ اليابان البعيد لكي يدرك موسم التحويت في إبانة .
وبذلك تكون الباقوطة الجوابية قد أملت يجلب مواقع التطواف المعروفة لصيد
حوت العنبر في العالم ، قبل ان تهبط على خط الصيد في المحيط الهادي حيث كان
آخاب يقدر في اصرار أنه سينازل موبى ديك ، وان أدركته الخيبة في مطاردته
له في سائر المواقع ، سينزله في البحر الذي شهر بأنه يعتاده وفي موسم يفترض
دون شطط أنه يلم به .

وأنى ذاك ؟ في هذا البحث الدائري ألا يريد آخاب ان يفنيء الى البر ؟
أيشرب بحارته هواء ؟ يقيناً لا بد له من أن يتوقف للحصول على الماء . كلا

ان الشمس التي تجري لمستقر لها ظلت طويلاً تجري في فللكها اللاهب ولا تريد زاداً إلا زادها الكامن في نفسها . وكذلك هو آخاب . تأملوا هذا الأمر في الحوانات ايضاً . بينا تحمل سائر السفن بمواد غريبة لكي تنقل الى أرصفة الموانئ الأجنبية فان سفينة التحويت التي تجوب العالم لا تحمل من المشحونات إلا نفسها وملاحيها ، وأسلحتهم وحاجاتهم ، وقد عبأت في عنبرها الوسيع ماء بحيرة كاملة . لقد تطرمت بالمواد النافعة ولكن لم تزود بما لا تحتاج اليه من صوابير الرصاص الحام والحديد المطاوع . انها تحمل زاد سنوات من الماء ، ماء فانتوكت الصافي الفاخر ، وهو ماء يؤثر النانتوكتي في المحيط الهادي بعد ان يبحر ثلاث سنوات ان يشربه دون السائل الأجاج الذي عبىء أمس فحسب في البراميل من جداول بيرو او الهند . ومن ثمّ فان السفن الاخرى قد تذهب من نيويورك الى الصين وتؤوب فتقف عند عشرين ميناء ، أما سفينة التحويت فانها طوال فترة تجوالها قد لا ترى ذرة واحدة من اليابسة ، وقد لا يرى بحارتها من الناس إلا من كان بحاراً مثلهم في عرض البحر ، حتى لو انك أخبرتهم ان طوفاناً جديداً قد طغى على الارض لأجابوك قائلين : « حسناً أيها الفتيان ها نحن لدينا سفينة نوح ! »

اصطيدت حيتان عنبر كثيرة بازاء الساحل الغربي من جاوة في الجـوار القريب من مضائق سندا ؛ وكانت معظم المواقع من حول ذلك الموقع لدى الصيادين محطاً ممتازاً للتطواف حقاً . ولذا فان الباقوطة كانت كلما اقتربت من رأس جاوة ذكر الرقباء مراراً وأنذروا بأن يظلوا على رقبة واعية . وأطلقت الهضاب الخضراء النخيلية من اليابسة عن ميمنة القيدوم ، وأخذ البحارة يتنسمون بأنوف جذلى أرواح القرفة دون ان تبدو للأعين نفثة واحدة . وكادوا ينفون من أذهانهم كل خاطرة بالانقضاض على صيد ما في تلك النواحي ، وقاربت السفينة ان تدخل المضائق ، حين ارتفعت الصيحة المعتادة المنعشة من قمم الصواري ، وقبل وقت طويل اكتحلت أبصارنا برأى ذي مغزى فريد .

ولأستهل الحديث هنا فأقول : بما أن هماً لا تنكل توجهت الى صيد حيتان في الايام الاخيرة ، هماً طاردها في عرض المحيطات الاربعة جميعاً فان تلك الحيتان لم تعد تحافظ على خطتها بالابحار في شرازم صغيرة متباعدة - كما كانت تفعل فيما مضى - وانما أصبح الصيادون يواجهونها كثيراً وهي سائرة في قطعان كبيرة تضم أحياناً أعداداً كثيرة ، حتى لتكاد توحى بأن شعوباً عديدة منها قد أقسمت بمحرجات الايمان وتعاهدت قاطعة على أنفسها أغلظ المواثيق على ان تتبادل فيما بينها العون والحماية . والى تجمع حوت العنبر في قوافل ضخمة يمكن ان يعزى عدم ظهورها في خير مواقع التطواف ، حتى انك قد تبجر أحياناً أسابيع وأشهرأ جملة دون ان تحيى نظرك نفثة واحدة ؛ وفجأة يحبيك أحياناً ما قد يبدو لعينيك آلافآ وآلافآ .

كانت سلسلة مسترسلة من نفاثات الحيتان مرتفعة تلتمع في فضاء الظهيرة ، مديدة على طول المقدمتين ، على مسافة نحو ميلين او ثلاثة ، مكونة نصف دائرة واسعة المحيط ، محتضنة نصف مستوى الافق . ونفثة حوت العنبر المفردة المائلة الى الامام تمثل غابة ملتفة كثيفة من الضباب الابيض ، وتظل ترتفع وتهبط في اتجاه الريح ، وهي بذلك لا تشبه نفثة الحوت الاثن المستقيمة العامودية المزدوجة التي تنشطر عند القمة ثم تهبط في فرعين كأنها غصنان ممشعبان ساقطان عن شجرة الصفصاف .

وعندما رأينا ذلك الحشد من النفاثات البخارية ، من على ظهر الباوقطة وهي تسمو فوق هضبة بحرية ، والنفاثات تتلوى كل على حدة في الفضاء ، وتتجلى من خلال جو مختلط من سديم مائل الى الزرقة ، رأيناها كأنها هي آلاف من المداخن الجذلى في عاصمة مكتظة بالسكان يرقبها امرؤ يركب جواده فوق الاعالي ، في صباح يوم عاطر من ايام الخريف .

ومثلما تتقدم الجيوش الزاحفة نحو مضيق محفوف بالخطر في الجبال ، فتزيد من سرعتها وكلها لهفة لكي تخلف ذلك الممر الخطر وراءها وتفضي الى الاطمئنان النسبي فوق السهل ، كذلك بدا ذلك الاسطول الضخم من الحيتان مسرعاً في تقدمه خلال المضائق ، مضيقاً جناحي الدائرة النصفية ساجماً قدماً حول مركز ثابت إلا انه هلاكي الشكل .

واذ حشدت الباقوطة كل أشرعتها شددت في آثارها ، وتناول الزراقون رماحهم وأخذوا يجيرون بالهتاف من عند رؤوس قواربهم التي ما تزال معلقة ، ولم يكن لديهم ريب في ان لو استمرت الريح ، فان ذلك الجيش اللجب الذي كان يطارد خلال مضائق سندا سينتشر في البحار الشرقية ليشهد فحسب القضاء على عدد غير قليل من أفرادهِ . ومن يدري ان مويي ديك نفسه قد يكون ساجماً سبجاً طويلاً في تلك القافلة المحتشدة ، كأنه الفيل الابيض المعبود في موكب التتويج عند السياميين ! وهكذا أبحرنا قدماً وقد كدسنا الاشرعة الخفيفة الجانبية أحدها فوق الآخر ، ونحن نسوق تلك الحيتان أمامنا ، وفجأة سمعنا صوت طاشطيقو ينبهنا جهراً بأن شيئاً يجري في أثرنا .

وتطلعنا الى الخلف فرأينا هلالاً آخر كالذي كان يتقدمنا ؛ وبدا كأنه مصنوع من أبحرة بيضاء متباعدة ، ترتفع وتهبط بما يشبه نفثات الحيتان ، إلا أنها لا تجيء تماماً وتذهب ، وانما تظل شاخصة دون ان تختفي في النهاية . وصوب آخاب منظاره نحو المنظر ، فأدار نفسه بعجلة حول رجله المندسة في محجأها وصاح : « هيا اصعدوا ، وهيئوا الارشية والدلاء لبلّ الاشرعة — هؤلاء من أبناء الملايو ، سيدي ، وهم في أعقابنا » .

كان أولئك الاسيويون الحبناء عندئذٍ في طراد متحمس ، كأنما كانوا قد أطالوا الكمون خلف ألسنة البرّ الى ان أتيح للباقوطة ان تلج المضائق ، فهم

بمحاسنتهم يعوضون عما فوّته عليهم الغلوّ في الحذر . ولكن عندما دخلت الباقوطة السريعة نفسها بعون من ريح مسعفة في طراد وشدّ ، فما كان الطف أولئك الصّحح المفعمين بالآخوة والحب لبني الانسان وهم يعينونها على الاسراع نحو هدفها المبتغى - وهم سباط ومهاميز تحشها وتسوطها . ووضع آخاب المنظار تحت إبطه وأخذ يذرع ظهر السفينة ذاهباً جائئاً ، فاذا أدار وجهه صوب المقدمة رأى الوحوش التي يطاردها ، واذا انفتل نحو المؤخرة رأى القرصات الظامئين للدماء يطاردونه؛ مثل هذه الخواطر مرت بباله . وعندما رمق بطرفه الاسوار الخضّر على جانبي الممر الذي كانت السفينة تبجر فيه ، وتصور لنفسه ان طريقه الى الانتقام تمتد خلال تلك البوابة وكيف أنه من كان خلاها يُطارِد ويطارِد الى مصيره المحتوم ، وأن الامر لم يقف عند هذا الحد ، بل ان قطيعاً من القراصنة المتوحشين الغلاظ والشياطين الدّهريين اللإنسانيين كانوا يهيجونه ويحمسونه بلعناتهم الجهنمية - أقول : عندما مرت هذه الاخيلة جميعاً خلال رأسه أصبح جبينه شاحباً عبوساً كأنه الشاطئ الرمليّ الاسود بعد مدّ طاغٍ كان يأكل من جوانبه ، دون ان يقدر ذلك المدّ على جرّه من مكانه لانه ثابت مكين .

إلا أن أفكاراً كهذه لم تزعج البحارة السادرين إلا قليلاً ؛ وعندما مضت الباقوطة في شوطها وسقطت القراصنة في مؤخرتها إعياءً وتحاذلاً ، وانطلقت أخيراً من جانب رأس كوكاتو الاخضر على ساحل سومطرة نافذة في النهاية على صدر المياه الرحيب من دونها ، عندئذٍ بدا أن الزراقين أسفوا لان الحيتان فانت السفينة بأكثر مما ابتهجوا لان السفينة قد كسبت الجولة من أبناء الملايو . ولكننا مضينا في آثار الحيتان وقد بدا لنا أنها عندئذٍ قد خففت من سرعتها ، فاقتربت السفينة منها تدريجاً ؛ وسكنت الريح ، فصدرت الاوامر بأن نقفز نحو القوارب ؛ وما كاد قطيع الحيتان - بغريزة عجيبة فيما أقدر - يحس بالقوارب الثلاثة تلاحقه ، وان كانت المسافة بينها وبينه تبلغ ميلاً ، حتى انتظمت صفوفه

من جديد وتشكلت في صفوف وطوابير متلاصقة ، وبدت نفائتها جميعاً وكأنها صفوف لامعة من « السنجات » المكسدة ومضت في شدّها مضاعفة من سرعتها.

وشمرنا عن سواعدنا وسيقاننا وقفزنا نحو القوارب الدردارية ، وبعد عدة ساعات من التجديف كدنا نمنح الى التخلي عن المطاردة ، حين حدثت حركة اضطراب عامة معوّقة بين الحيتان ، فجاءت أمارة شاحذة للهمم تحدثنا ان الحيتان قد أصبحت أخيراً تحت تأثير ذلك النوع من الحيرة الغريبة التي يملها التردد القاصر ، واذا لحظها الصيادون في الحوت قالوا إنه قد ثارت به الصفراء . واذا تلك الصفوف العسكرية المتراصة التي كانت تتقدم حتى ذلك الحين في سرعة وثبات قد اختلت فأصبحت كأنها فلّ منزهم شرّ انهزام ، وبدت كأنما قد جنت ذعراً وذهولاً ، كأنها أفيال الملك بورس في المعركة الهندية بينه وبين الاسكندر^١؛ وتشتّتت في جميع الجهات على شكل دوائر مضطربة تسبح هنا وهناك دون هدى ، وتنثف نفثات قصيرة كثيفة ، وتفضح بذلك كله ارتباكها الناجم عن الهلع . ولعل أغرب ما عايناه هو ان بعضها كأنما أصيب بالشلل ، فعام على الماء منطرحاً مخذولاً كأنه سفن على الماء محطمة معطلة . ولو كانت تلك الحيتان قطعاً من الضائنة المحقاء ، وقد طاردها في مرعاها ثلاثة من الذئاب الشرسة ، لما انفضح فيها هذا الهلع البالغ على هذا النحو ، ولكن هذا الخور العارض سمة تكاد تعم كل الكائنات التي تعيش في القطيع ، فالجواميس البرية في الغرب الامريكي ، ذات الاعراف كالبباد الاسود تحشد في اعداد تبلغ عشرات الالوف ، وتقر هاربة أمام خيال واحد . وتأمل أيضاً جميع بني البشر ، كيف يكونون محتشدين في حظيرة يسمونها قاعة المسرح فاذا أنذروا محض إنذار طفيف باشتعال النار اندفعوا في هياط ومياط نحو المنافذ ، متجهرين متكديسين

١ حدثت المعركة عند نهر Hydaspes عام ٣٢٧ ق. م.

يطأ بعضهم بعضاً ، ويدفع أحدهم الآخر الى الموت دون إشفاق . خير لك إذن ان تجلس دهشتك اذا رأيت منظر الحيتان الغريب وقد ثارت بها الصفراء ، اذ ليس في حيوانات الارض حقٌ إلا وطيشُ الانسان يبذره على قدر لا يحسد .

ومع ان كثيراً من الحيتان - حسبما تقدم القول - كانت تتحرك حركة عنيفة ، فعلينا ان نلاحظ ان القطيع من حيث هو لم يتقدم ولم يتأخر وانما بقي مجتمعاً في مكان واحد . فتفرقت القوارب حالاً ، كما يحدث في مثل هذه الاحوال ، وكل منها يعمد الى حوت منفرد في طرف من أطراف القطيع . وبعد حوالي ثلاث دقائق كان رمح كويكوج قد انطلق ، فنثر الحوت المصاب رذاذاً معشياً في وجوهنا ، ثم انطلق يجري بنا كأنه البرق عامداً نحو قلب القطيع ؛ ولم تكن تلك الحركة من الحوت المضروب في تلك الظروف أمراً غير مألوف بل انها شيء يتوقعه المرء حيناً بعد حين ، إلا أنها تمثل الجانب الاخطر من صروف حرفة الصيد ؛ اذ كلما جرت الحيتان المنطلق متوغلاً بك في أعماق القطيع الهائج فقد ودّعت حياة الحذر والحيلة ، ولم يعد لك وجود إلا في اختلاجة من البحران الهاذي .

وفي حالة من العمى والصمم انطلق الحوت غائصاً كأنما محض القدرة على الاسراع تخلصه من العلة الحديدية التي ألحت عليه ، أما نحن فشققنا في جسم البحر جرحاً أبيض ونحن في انطلاقنا مهددون ، من جميع الجوانب ، بالحيوانات المهاجرة المسوسة التي تندفع حولنا يمنة ويسرة ، وقاربنا المحصور كأنه سفينة تألبت عليها جزر الجليد في عاصفة ، فجهدت كي تمخر خلال القنوات والمضايق المعقدة ، وهي لا تدري في أية لحظة يطبق عليها الجليد ويحطمها .

ولكن كويكوج لم يعرف الخوف ابداً فمضى بنا في جسارة ورجولية ، آناً يزور عن هذا الوحش الذي اعترض طريقنا عامداً لدى تقدمنا ، وآناً يحيد

عن ذاك الذي جعل شطيرتيه الضخمتين مشبوحتين الى أعلى، بينما وقف استاربك طوال ذلك الوقت كله في مقدمة القارب ، والحربة في يده ، يبعد من طريقنا بالوخز والنخس اي حيتان يمكن ان تبلغها النصال القصيرة ، اذ لم يكن الوقت يسمح باستعمال الطويلة منها . هذا ولم يكن القائمون على المجاذيف متوائمين خاملين وان كانت مهمتهم المعتادة قد أصبحت غير لازمة ، فوجهوا مهمهم في الدرجة الاولى الى إرسال الصيحات : « ابعديا كومودور ! » - كذلك صاح أحدهم في « هجين » ضخّم ارتفع جسمه فجأة فوق سطح الماء ، وكاد في لحظة خاطفة يغطنا في البحر ؛ - « انزل ذنبك يا هذا » - ذلك ما قاله آخر مخاطباً هجيناً آخر كان على مقربة من الحافة يروح في هدوء عن نفسه بطرفه الآخر الذي يشبه المروحة .

كل قوارب التحويت مزودة بوسائل غريبة اخترعها في الاصل هنود نانتوكت وسمّوها : « الدرق » ، والدركة مربعان ثخينان من الخشب متساويان في الحجم يسمّران بقوة معاً حتى يتقاطعا عند جانبيهما في زاوية قائمة ، ثم يوصل بوسط هذه الدركة حبل ذو حظ من الطول، ويجعل الطرف الآخر من الحبل في صورة أنشودة حتى يمكن ان يوثق برمح في لحظة . وهذه الدركة تستعمل اكثر ما تستعمل بين الحيتان التي ثارت بها الصفراء ؛ اذ حينئذ تكون الحيتان القريبة من حول الصيادين مما لا يستطيعون مطاردته في آن واحد . ثم ان حيتان العنبر لا تصادف كل يوم فعليهم اذن ان يقتلوا منها ما يقدرّون على قتله، واذا لم يقتلواها حالاً كان عليهم ان يهضوا أجنتها حتى يقتلواها من بعد على هيفتهم . ومن ثم كانت الدرق في مثل هذه الاوقات شيئاً ضرورياً . وكان قاربنا مزوداً بثلاث درقات ، وفقنا في قذف الاولى والثانية منها ، ورأينا الحيتان تندّ مترنحة وقد قيدتها المقاومة الجانبية الهائلة من الدركة التي تشدّها . فشنجحت كأنها مجرمون ربطوا بالسلاسل والكلبشات ، ولكننا حين شئنا ان نطرح الثالثة علقنا ونحن نهم بقذف تلك القطعة الخشبية الحشناء ، تحت أحد مقاعد القارب فنزعته معها

وذهبت به ، وأسقطت المجدف في قاع القارب حين انزلق المقعد من تحته ،
وهجم البحر من الجانبين على الألواح الجريحية ولكننا حشونا في الثقب ثلاثة
من السراويل والقمصان وحلنا دون تسرب الماء آنئذ .

كان شيئاً يشبه المستحيل ان نلقي بتلك الرماح الموصولة بالدركات لولا اننا
حين تقدمنا خلال القطيع ضاقت الطريق بنا وبحوت . ثم اننا حين اوغلنا في
التقدم من محيط الاضطراب بدت لنا الفوضى المفزعة آخذة بالاضمحلال ، حتى
اننا حين نزعنا اخيراً الرمح المتأطر واختفى الحوت الذي يجرننا في اتجاه جانبي ،
انسابت بنا الطريق ، بتلاشي القوة من زخمه المتبدد ، بين حوتين في صميم القطيع
كأننا انحدروا فوق سيل جبلي الى بحيرة مطمئنة في سرارة الوادي . هنالك كنا
نسمع العواصف في الوهادت المزججة بين حيتان الظواهر والاطراف ولكن لا
نلمسها ؛ وكان البحر في هذه الرحبة المتوسطة قد لبس سطحاً ناعماً رقيقاً كأنه
الساتان ، وهو ما يسمونه « السطح المصقول » وهو ينجم عن الرطوبة الدقيقة التي
يقذفها الحوت في حالات هدوئه . أجل ، كنا في تلك الهدأة المسحورة التي
يقولون انها تكمن في وسط العاصفة والاضطراب . ومن تلك المسافة المذهولة
رأينا تضرّب الدوائر الخارجية المتحدة في مركزها ، وشاهدنا أصورة متتالية
من الحيتان ، في كل صوار ثمانية او عشرة ، تدور وتدور في سرعة كأنها ازواج
كثيرة من الخيول تدور في حلقة ، وتصاقت جنباً لجنب حتى ان اي فارس
ميدان جبار قد يستطيع في يسر ان ينحني فيمس الوسطى منها ويتنقل على
ظهورها ذاهباً جائياً . وتكاثفت جماهير الحيتان مطمئنة ، وزاد في الحال عدد
التي احاطت بمحور القطيع المحصور ، لذا لم تكن لتسنع لنا في الحال فرصة ممكنة
للهرب . وكان علينا ان نرقب ثغرة في ذلك الجدار الحي الذي يسدّ علينا
الطريق ، ذلك الجدار الذي أذن لنا بالدخول لينغلق من حولنا ويجعلنا سجناء .
واذ لبثنا في وسط البحيرة كانت تعتادنا بين الحين والحين بقرات وعجول أليفة
صغيرة ، اعني إناث القطيع المنهزم وأطفاله .

واذا اخذنا في حسابنا المسافات الواسعة التي تعرض بين الدوائر الخارجية الدوارة، والمسافات بين الأصورة المختلفة في كل دائرة من تلك الدوائر، كانت المساحة الكلية التي يشغلها كل ذلك الرعيل في تلك الآونة تضم ميلين مربعين او ثلاثة اميال مربعة، على الاقل . وعلى اني حال فقد كان يمكننا ان نستكشف، من قاربنا الواطي، نفاثات حيتان تتلاعب في الفضاء وتكاد تمس حافة الافق، غير ان مثل هذا في مثل ذلك الوقت قد يكون شيئاً خادعاً مضللاً . وأنا اذكر هذه الحادثة لان البقرات والعجول كانت كأنما وضعت عن قصد في وسط الحظيرة وصيئت فيها ، وكأنما الامتداد الشاسع الذي يشغله القطيع إنما منعها من ان تفهم وجه العلة في توقفه ، او لعلها لحدثة اسنانها وغرارتها وبراءتها وضعف تجاربهـا ، أو لأي سبب آخر، كانت تجيء من حوافي البحيرة لتزور قاربنا الذي اضطر للاستقرار، وتبدي جرأة وثقة عجيبتين او تبدي هلعاً مسحوراً ليس من الممكن ان لا يندهش له الرائي . كانت ككلاب المنازل تجيء لتلتشم من حولنا وتعتمد الى حوافي قواربنا فتمسها، حتى لكدت أظن ان ضرباً من السحر قد دجتها فجأة، وكان كويكوج يربت على جباهها، وكان استاربك يחדش بحربته ظهورها إلا انه تجنب ان يزرقها مؤقتاً تحسباً للنتائج .

غير ان عالماً آخر تحت هذا العالم العجيب الواقع على السطح ، عالماً اغرب وأعجب، واجه اعيننا ونحن نحدق فوق جانب القارب ؛ في تلك الاقبية المائية تعلقت عائمة اشكال من أمهات الحيتان المرضعات ، واخریات تدل استفادة خصوصهن على انهن سيصبحن امهات عن قريب . وكانت البحيرة كما ألحت ، شفاقة كثيراً على مدى عمق غير قليل ؛ ومثلما ان اطفال الآدميين يحدقون في هدوء وثبات بعيداً عن الثدي وهم يرضعون كأنما يحيون حياتين في آن معاً، وبينما هم يتمكّنون الغذاء الجسدي ما يزالون روحياً يستطيعون ذكريات غير ارضية، كذلك كان يفعل صغار أولئك الحيتان ؛ كانوا كأنما ينظرون نحونا الى اعلى ولكنهم لا ينظروننا كأننا كنا عشبـة من اعشاب الخليج في انظارهم الوليدة

الحديثة العهد بالنظر . اما الامهات فكن عائشات على جوانبهن وكن يبدون ايضاً وكأنهم ينظرون اليها نظراً ساجياً . وقد يبلغ احد اولئك الاطفال — وبعض الدلائل الغريبة توحي بأن عمره لا يتجاوز يوماً واحداً — اربعة عشر قدماً طولاً ونحو ستة اقدام عرضاً . كان مرحاً بعض المرح وان لم يكد جسمه ينفلت من ذلك الوضع المتعب الذي كان قد اعتاده وهو في المشيمة ، حيث الحوت الجنين يلتقي رأسه والذنب ويتحفر للانطلاق الاخيرة ، وهو مستلق كأنه قوس محارب قترى . اما زعانفه الجانبية الرقيقة وراحتا شطيرتيه فما تزال تحمل ذلك المظهر المتفرض المتكرمش الذي تحمله اذنا طفل حديث عهد بالبحر من تلك المناطق الخفية .

وصاح كويكوج وهو ينظر من فوق حافة القارب : « حبل ! حبل ! بسرعة ، بسرعة . من ربطه . من أثبته ؟ حوتان واحد كبير وواحد صغير ! »

فصاح استاربك : « ما يكربك ايها الرجل ؟ »

فقال كويكوج وهو يشير الى اسفل : « انظر — ه — هنا . »

مثلاً ان الحوت المصاب قد يحلّ من الحبل الملفوف في البرميل مثلاً القمامات ، ومثلاً انه بعد القمس العميق يعوم ثانية ويرجع الحبل الملتف مسترخياً مترفعاً في خفة متلوياً نحو الفضاء ، كذلك شاهد استاربك لفافات طويلة من حبل السرّة في « السيدة لويثان » ، لا يزال الوليد الرضيع يبدو موثقاً بها الى أمه . وليس يندر في الصروف العاجلة من حياة الصيد ان يصبح هذا الحبل الطبيعي ، وقد انفلت الطرف المتصل بالأم منه ، عالماً منشبكاً بحبل القنب ، وبهذا يقع الوليد في الاحبولة . لقد انكشفت لنا أدق أسرار البحر في تلك البركة

المسحورة ، ورأينا مناظر العشق والوصال في الماء بين الفتیان والفتيات من
الحيتان * .

هكذا كانت تلك الحيوانات الغامضة في المركز مقبلة على التمتع بشئون السلم
والطمأنينة في حرية ودون وجل بل تعربد جادة في التبذل والطرب، مع انها
محاطة بدائرة وراء دائرة من الهلع والخاوف . وحتى في هذا أراني انا نفسي
وسط هادر إعصاري من ذاتي، ما ازال الى الابد ألهو في سكونة مطمئنة، وبيننا
تدور من حولي أفلاك ثقيلة الجرم من ويل لا يأفل ، فاني ما ازال انقع نفسي
— هناك في الاعماق وفي قرارة الذات — في وداعة الجدل الخالد .

وبينا سبحنا كذلك في غيبوبة كانت المناظر المفاجئة العارضة الهائجة على
البعد تدلّ على نشاط القوارب الاخرى التي ما تزال منهمكة في قذف الحيتان
بالدرقات عند الحسد الذي تقف عنده جيوش الحوت . او لعلها ما تزال تشن
الغارة خلال الدائرة الاولى، حيث المكان واسع والتقهقر المناسب ميسور لها .
ولكن منظر الحيتان المغضبة المضروبة بالدرقات، وهي بين الحين والحين تنطلق
على غير هدى عبر الدوائر جيئة وذهوباً، لم يكن شيئاً بالنسبة لما علقته به ابصارنا
اخيراً . من العادة احياناً حين يصمم الصياد نحو حوت مسرف في القوة والحركة

* ليس للولادة لدى حوت العنبر، كما هي الحال لدى سائر فصائل الحيتان، موسم معين، وهو
بذلك يختلف عن معظم الاسماك، فبعد حمل لعله يبلغ تسعة اشهر تلد انثى الحوت واحداً ، وان
كانت هناك امثلة قليلة معروفة وضعت فيها توأمين — حدث تنهياً له من اجل الرضاع حملتان
تقعان في وضع غريب، كل واحدة منها على جانب من جانبي الامت ؛ اما الثديان نفسهما فيمتدان
الى اعلى من ذلك الموقع . فاذا اتفق ان قطعت هذه الاجزاء الحيوية في الموضع بضربة من حربة
الصياد فان لبن الام المنسكب ودمها يخضب الماء بالتناوب على مدى قصبات عديدة . واللبن حلو
بالغ الحلاوة دسم، وقد ذاقه الآدميون، وقد يحسن لو مزج بشراب الفريز . واذا فاض بالحيتان
التقدير المتبادل فيما بينها حيث بعضها قائلة : « الموت للانسان ! »

يقدر يزيد على المؤلف ان يسمى لان يعرقله - ان صح القول - وذلك بأن يقطع اطناب ذنبه الهائلة او يشوهها، وهذا يتم بقذف مجرفة قاطعة ذات نصاب قصير مربوط اليها حبل لتسحب ثانية . وقد علمنا من بعد ان حوتاً جرح في ذلك الجزء من جسمه جرحاً مُشوّياً غير بالغ - فيما يبدو - فندّ منطلقاً من وجه القارب حاملاً معه نصف حبل الرمح، واخذ يندفع بين الدوائر الدوارة بسبب الألم المبرح في جرحه كأنه آرنولد الارعن راكباً وحده في معركة سرتوغا حاملاً الوبال معه أنى توجه^١ .

لقد كان جرح ذلك الحوت مؤلماً وكان منظره خيفاً مفزعاً على اية حال، غير ان الرعب الذي يبدو انه بثه في سائر القطيع انما كان ناجماً عن سبب خفي علينا بادىء الامر، ونحن على بعدٍ يحول دون معرفته . ولكن بعد برهة لحظنا ان هذا الحوت ، بقوة مصادفة من اغرب المصادفات التي لا يبلغها الخيال في حرفة التحويت ، قد اصبح محتبلاً بحبل الرمح الذي كان يحره معه . وانه ايضاً هرب والمجرفة القاطعة قد غرزت فيه ، وبينما كان الطرف المنفلت من الحبل مربوط بذلك الرمح قد امتسك ثابتاً في لفائف حبل الرمح حول ذنبه، فان المجرفة القاطعة نفسها قد انفلتت من لحيه، حتى اذا خرج به الالم الى حد الجنون أصبح يتضرب خلال الماء داقاً بذنبه المرن دقاً عنيفاً، مؤرجحاً المجرفة الحادة من حوله، جارحاً وقاتلاً رفاقه انفسهم .

ويبدو ان هذا المنظر المرعب قد أيقظ جميع القطيع من فزعه الساكن، فبدأت اولاً الحيتان التي تمثل إطار بحيرتنا تتجمهر بعض تجمهر، ويرتطم احدها

١ هو بندكت آرنولد، وكانت المعركة المذكورة عام ١٧٧٧ وقد اتهم بأنه كان يومئذ مخموراً، فعرض نفسه بحماسة للكتيبة الالمانية .

بالآخر، كأنما ترفعها امواج شبه معيبة من بعيد؛ ثم بدأت البحيرة نفسها ترتفع وتتمعج في فتور، واختفت عن الانظار مخادع الاعراس وغرف الحضانة القائمة تحت الماء، وبدأت الحيتان في الدوائر المركزية تقصّر مداراتها وتسبح في جموع متكاثفة. اجل بدأت الهدأة الطويلة تزول وسمعت في الحال مهمة تأتي خافتة، وجاء جيش الحيتان كله يتهاوى على المركز الداخلي كأنما كانت الحيتان تريد ان تكسّس نفسها في جبل واحد، كأنها كتل صاخبة من جبال الثلج حين يجري بها نهر هدسن العظيم في الربيع. وعلى التو تبادل استاربك وكويكوج مكانيهما، فعلّ استاربك في المؤخرة.

ومس في حماسة وقد امسك بالدفة: « المجاذيف! المجاذيف! اقبضوا على مجاذيفكم وأمسكوا ارواحكم، الآن، يا لله يا رجال، تأهبوا! ردّه يا كويكوج! الحوت هناك! انخسه! اضربه! قف - قف وابق واقفاً - ثبوا يا رجال، جدفوا يا رجال ولا تخشوا ظهورها، اسحبوها، دقوها! »

اصبح القارب بين جرّمين أسودين جسيمين لو تقاربا لسحقاه، ولكن ظلّ بين طوليهما المديدين مضيق ضيق؛ غير أنا في محاولة مستمّسة انطلقنا اخيراً نحو منفذ فسيح مؤقت، ثم جذفنا بسرعة وتطلّعنا مجدّ في الوقت نفسه لبلوغ منفذ آخر، وبعد عدة مرات نجونا فيها ولم نكد، انساب بنا القارب بسرعة في النهاية الى دائرة كانت قبل قليل احدى الدوائر الخارجية، ولكن اخذت تجتازها آنشد الحيتان التائهة وهي تهدف جميعاً الى مركز واحد. وقد اشترينا هذه النجاة الموفقة بثمن نجس هو فقدان قبعة كويكوج، اذ بينا كان في مقدم القارب ينخس الحيتان الهاربة طارت قبعته عن رأسه في دوامة هوائية احدثتها شطيرتا ذنب عريضتان كانتا قريبتين منه حين تموجتا فجأة.

وعلى ما كان التقلقل العام يحمل من فوضى واضطراب فانه سرعان ما تمخض

عمّا بدا حركة منتظمة ؛ اذما ان احتشدت الحيتان اخيراً معاً ، في بنيان متراس حتى استعادت هربها قدماً بسرعة متزايدة ، واصبحت كل مطاردة دون جدوى ؛ ولكن القوارب ظلت تتلبث في آثارها لتلتقط الحيتان التي قد تسقط في المؤخرة من جراء الضرب بالدرق ولكي تؤمن الاستيلاء على حوت كان فلاسك قد قتله وأعلمه ؛ والعلم في هذا المقام عمود في رأسه خرقة ، يحمل منه كل قارب ثلاثة او اربعة ، فاذا كان هناك مزيد من الصيد غرس قائماً في الجسم العائم - جسم الحوت القليل - لكي يدل على مكانه في البحر ولكي يكون اشارة على السبق الى الاحتياز لو اقتربت منه قوارب اية سفينة اخرى .

كانت نتيجة هذه المطاردة تصور الى حد ما صدق تلك القولة الحكيمه في حرفة الصيد : « كلما كثرت الحيتان قلّ الصيد » ، فانه لم يقتل من الحيتان التي قذفت بالدرق إلا واحد ، اما سائرهما فدبرت النجاة عندئذ ، وسرى من بعد أنها كانت من نصيب مراكب آخر غير الباقوطة .

مدارس ونظارها

قدّم لنا الفصل السابق خبراً عن قطيع حيتان العنبر ، وهنالك أيضاً ورد ذكر السبب المحتمل الذي يغري الحيتان بهذه التجمعات الضخمة .

وقد يصادف البحارة مثل تلك الحشود الكبيرة أحياناً ولكن لعلّ القارىء قد عرف ان هناك عصابات صغيرة متباعدة لا تزال حتى اليوم ترى بين الحين والحين ، وتضم الواحدة منها من عشرين الى خمسين حوتاً . وهذه العصابات تسمى « مدارس » وهي بعامّة نوعان : نوع مؤلف كله من اناث الحوت ، ونوع لا يأوي اليه الا الفتيان الاشداء او « الثيران » حسبما تسمى في مألوف البحارة .

ولا بد لك من ان ترى في الاشراف الفروسي على مدرسة الاناث ذكراً ناضجاً غير مسنّ اذا ألمّ ما يفرّغ ابدى عن شهامته بالانحياز في المؤخرة ، وضمن هرب السيدات آمناً تحت حمايته . والحق ان هذا السيد تركي مترف يسبح خلال العالم المائي وقد أحاط به كل ما في « الحريم » من مسليات وتوددات . والفارق بين هذا التري وجواريه لافقت للنظر ذلك انه دائماً من ذوي الجسامة المفرطة اما السيدات فلا يبلغن اكثر من ثلث حجم حوت عاديّ وهن في أشدّ أحوالهنّ نضجاً . غير أنهن اذا قورن به رقيقات مرهفات وأستطيع ان أقول ان الخصر منهن لا يتجاوز ست ياردات ، ومع ذلك لا يستطيع احد ان ينكر ان هن الحق عن طريق الوراثة — على الجملة — بنيل تقدير جيد في باب السمنة .

ومن الامور العجيبة المثيرة ان يرقب المرء هذا الحريم وسيده وهم في تجوالاتهم

المسترخية ، وهم كعشاق البدع والازياء يتنقلون دائماً في بحث متمهل عن التنوع؛ تراه على خط الصيد في الوقت المناسب، طلباً لموسم الغذاء في المناطق الاستوائية وهو في رباته ، ولعلمهم ان يكونوا قد عادوا لتوهم من قضاء صيف في البحار الشمالية وبذا يتحاشون كل ما قد يجيء به الصيف من اعياء وحرارة مزعجة . فاذا قطعوا النزهة عند خط الاستواء وقتاً ما ، ذاهبين آيبين في تسكع ، عمدوا الى المياه الشرقية يستبقون فصل الابتعاد هنالك وبذلك يتجنبون ايضاً شدة الحرارة في ما تبقى من العام .

وفيما هم يتقدمون باطمئنان في احدى هذه الرحلات ترى « سيدي » الحوت اذا رأى اي مناظر غريبة مريبة يضع على أسرته الظرفية عين اليقظان الحذر ، فلو ان حوتاً شاباً متوقفاً لا يحسب حساب النتائج جاء في تلك الطريق وتجرأ فاقترب اقتراب السرار من احدى السيدات فأى غضب مريع ذاك الذي يلم بالباشا فيهاجه ويطرده بعيداً ! حقاً لم يثن الاوان بعد مثله من الفتيان الجامحين الخلعاء ان يؤذن لهم بالعدوان على قداسة السعادة المنزلية . ولكن مهما تكن غير الباشا فانه لا يستطيع ان يصد أشد الفتاك عن فراشه اذ ان فراش الحيتان وأأسفاه مشاع ! وكثيراً ما تكون السيدات سبباً في اشد انواع المبارزات وأهولها بين المعجبين المتنافسين ؛ وكما هي الحال على البر كذلك يحدث بين الحيتان فانهم كثيراً ما يقتتلون حتى الموت في سبيل الحب . فيتبارزون بالفك الأسفل الطويل وأحياناً يشبكون الفكين السفليين احدهما بالآخر ، ويكافحون من اجل السيادة كأنهم حيوانات العلك التي تعترك فتتشابك شعاب قرونها لدى اعتراكها . وغير قليلة هي الحيتان التي يحرزها الصيادون وفيها جراح عميقة من جراء هذه العراكات — من رموس مثلمة ، وأضراس مكسرة ، وزعانف مبتورة . وفي بعض الأحيان ، أفواه محرقة ملوثة عن مواضعها .

ولكن هب ان الذي يغزو السعادة المنزلية ولسى هارباً عند اول اندفاعه

قام بها سيد الحريم ، فان مراقبة ذلك السيد في تلك الحال امر سار ممتع . فهو يدس جثته الجسيمة بلطف بين حريمه وهناك يقضي وطره في عريضة ومرح ، وقتاً ما ، وهو ما يزال بمرأى من الشاب يعذبه بما لم ينل ، كأنه سليمان التقي يتعبد في خشوع بين جواريه الالف . فاذا كانت بعض الحيتان الاخرى بمرأى من الصيادين فانهم قلما يطاردون هذه الحيتان التي يشبه احدها التركي الجليل ، لان أمثال هذا التركي الجليل يسرفون في تبديد مُنتههم ولذلك يكون دهنهم قليلاً . اما الابناء والبنات الذين يرزقون بهم فعليهم ان يعنوا بأنفسهم ، او قل انهم لا ينالون الا عطف الامومة . اذ ان سيدي الحوت ، كبعض العشاق الجوابين من الحيوانات المنهومة الرمتامة الاخرى التي يمكن ان نسميها بأسمائها ، ليس لديه ميل لتربية الاطفال ، مها يكن ميله لخدع الحب كبيراً . وبما انه رحالة كبير فانه يخلف أبناءه المجهولين في جميع أنحاء العالم ، وكل طفل منهم غريب . ومع ذلك فانه في الوقت المناسب حين تخبوه فيه حمية الشباب وحين تزداد السنين والعثرات ، وحين يهجم التأمل بالسهرم والوجوم ، وباختصار : حين يستولي على التركي المتخيم الاسترخاء العام والحمول عندئذ فان حب الراحة والفضيلة يعقُب لديه حب العذارى ، ويدخل التركي في دور العفة والتوبة والندم ، من أدوار عمره ، فيطلق حريمه ويسرحهن ؛ واذ يغدو قدوة في سلوكه ، امرء عجوزاً متبرماً ، فانه يذهب وحيداً بين خطوط الزوال وخطوط العرض مردداً أدعيته وصلواته ، محذراً كل حوت شاب من أخطاء الحب وورطاته .

واذ يسمي الصيادون حريم الحوت باسم « المدرسة » فانهم يسمون سيد تلك المدرسة وراعيها باسم « ناظر المدرسة » . واذن فليس من الرعة والخلق النبيل ان ينطلق بعد ان كان هو نفسه في المدرسة ، ليفشي في الناس وجه الحماقة والجهل فيما تعلمه ، دون ان يبث ما تعلمه على وجهه ، مها يكن موقفه جذاباً في صورته النقدية اللاذعة . اما تلقيبه بلقب ناظر المدرسة فيبدو انه اكتسبه على نحو طبيعي من الاسم الذي أطلق على الحريم أنفسهم ولكن بعضهم استنتج ان

المرء الذي أضفى عليه هذا اللقب اول مرة قرأ ، ولا بد ، مذكرات فيدوك^١ وعلم اي نوع من نظار المدارس الريفية كان ذلك الفرنسي المشهور في شبابه ، وماذا كانت طبيعة تلك الدروس السحرية الغامضة التي كانت يبثها بين بعض تلامذته .

وهذه العزلة والوحدة التي يفيع اليها ناظر المدرسة في سن كبيرة تصدق على كل حيتان العنبر التي أدركها الهرم . فاذا وجدت حوتاً منفرداً — وهم يسمونه اللويثان الناسك — فقددر بوجه عام انه حوت عجوز وهو مثل دانيال بون^٢ المبجل ذو اللحية المطحلبة لا يطيق أحداً على مقربة منه سوى الطبيعة نفسها ، اما التي يتخذها له زوجاً في متأبد المياه الموحشة ، فهي خير الزوجات ، وان كانت تحتفظ بأسرار ونزوات متقلبة .

اما المدارس التي لا تضم سوى ذكور شباب اقوياء ، ممن تقدم ذكرهم ، فانها تمثل مفارقة بالغة لمدارس الحرير ، اذ بينا نجد اناث الحيتان خوارة هلوعة على نحو جلي متميز فان الحيتان الشبان — او الثيران ذوات الاربعين برميلاً كما يسميهم الصيادون — هم اشد الحيتان شراسة وعناداً واشدها خطراً عند اللقاء ، حتى كانت مضرب المثل في ذلك ، واذا استثنيت تلك الحيتان الغريبة ذات

١ فرنسوا يوجين فيدوك (١٧٧٥ - ١٨٥٧) قضى فترة عسكرياً مغامراً ثم انضم لبوليس باريس عام ١٨٠٩ وبعد استعفائه بقليل ظهر كتاب عنوانه « مذكرات فيدوك » (١٨٢٨) يقص كيف أصبح معلماً في مدرسة ريفية للبنات متنكراً في لبوس راهب ويقدم نصائح فاضحة .

٢ دانيال بون (١٧٣٤ - ١٨٢٠) معمر ، كان قد بلغ الثانية والتسعين من العمر عندما هاجر من كنتوكي الى مسوري لان الولاية الاولى اكتظت بالسكان فأصبح فيها عشرة لكل ميل مربع !!

الرءوس الشمطاء المجللة بالشيب التي قد تصادفها احياناً فان هذه الحيتان الفتية تقاتلك كأنها شياطين عابسة قد اسخطها نقرس نزل بها عقاباً .

ومدارس الشيران ذوات الاربعين برميلاً اكبر من مدارس الحريم ، وهم كجمهور من طلبة الكليات الشبان متترعون الى القتال والمرح والعبث ، يتعثرون حول العالم على مستوى بالغ من قلة المبالاة والعبث ، حتى ان اي صاحب شركة تأمين ذكيّ فطن لا يؤمن لهم على حياتهم باكثر مما يؤمن على حياة فتى خليع من طلبة ييل او هارفارد . وسرعان ما يكفون عن هذا الهياج الفائر فاذا كبروا بقدر ثلاثة ارباع النمو الكامل فان شملهم يتصدع ويذهبون فرادى بحثاً عن الاستقرار ، اعني بحثاً عن حريم .

وثمة مسألة اخرى من الفرق بين مدارس الذكور ومدارس الاناث تميز جنساً عن جنس . هب انك ضربت ثوراً ذا اربعين برميلاً - يا للشيطانات المسكين ! فان جميع رفاقه يتخلون عنه ، ولكن اضرب واحدة من افراد مدرسة الحريم تجد صواحبها يلتفن حولها بكل امارات الاهتمام ، وحياناً يتلبثن على مقربة منها ويبقين كذلك مدة طويلة حتى يقعن هن انفسهن فرائس للصيادين .

سكة موقفة وسكة مخددة

ان الاشارة التي تناولنا بها الاعلام وعصا العلم في الفصل الواقع قبل الفصل الاخير لتتطلب بعض بيان عن قوانين حرفة التحويت وأنظمتها، لان العلم فيها قد يحسب رمزاً كبيراً وشارة فخيمة .

كثيراً ما يحدث حين تكون عدة سفن آخذة في التطواف مجتمعة ان تصيب احداها حوتاً ما وينجو هارباً ، فتلقاه في النهاية سفينة اخرى ويقتله بجارتها ويجرونه اليها ، وهذا نفسه يتضمن على نحو غير مباشر عدة احداث وسوانح صغيرة تشترك جميعاً في هذا المظهر العظيم . فمثلاً - بعد مطاردة للحوت مضنية مخوفة بالخطر وبعد أسره - قد تنفلت جثته من السفينة بسبب عاصفة عنيفة فتنجرف بعيداً في اتجاه الريح ، فتستعيد حوالة اخرى تربطها الى جنبها في هدأة الريح بكل ارتياح دون ان تفامر بحياة امرىء او بقطعة جبل . وهكذا كان من الممكن ان تثور بين الصيادين أشد ضروب الكدر والمنازعات الحادة لولا ان هناك قوانين مكتوبة او غير مكتوبة ، قوانين عامة لا ينازع فيها احد ، تطبق على جميع القضايا والاحوال .

ولعل القانون الرسمي الوحيد للتحويت الذي سنته سلطة تشريعية هو القانون الهولندي ، فقد اصدره مجلس الطبقات عام ١٦٩٥ ب . م . وليس هناك شعب آخر قد كتب قانوناً للتحويت ابدأ ومع ذلك فان للصيادين الامريكيين مشرعين وقضاة في هذه المسألة . فقد اوجدوا نظاماً يفوق في شموله ومحكم عبارته

مجموعة قوانين جستنيان ، وقوانين الجمعية الصينية ، لقمع التدخل في شئون الآخرين ؛ اجل ان تلك القوانين يمكن ان تحفر على دائق من عملة الملكة آن او على كلاب رمح التحويت وقد تلبس حول العنق لشدة صغرها :

(١) السمكة الموثقة تنتمي الى الفريق الذي اوثقها .

(٢) السمكة المحلاة صيد حلال لمن اسرع الى صيدها .

ولكن مما يجلب الاذى في هذا القانون الطريف ذلك الايجاز المعجب فيه اذ يحتاج مجلداً ضخماً من التعليقات لشرحه وتفسيره .

أولاً : ما السمكة الموثقة ؟ تعد السمكة موثقة سواء أكانت حية او ميتة حين تكون موصولة بسفينة فيها ناس او قارب ، موصولة بأية وسيلة يمكن ان يسيطر عليها القائم في السفينة او القارب او القائمون فيها ، وقد تكون تلك الوسيلة صارياً او مجذافاً او حبلاً طوله تسع بوصات او سلك تلغراف او خيطاً من نسيج العنكبوت ، فذلك كله سواء . وكذلك فان السمكة موثقة حين تحمل علماً او اي رمز آخر معترف به يدل على التملك ما دام الفريق الذي أعلمها يبدي بصراحة قدرته في اي وقت على ان يأخذها فيجذبها الى سفينته كما يبدي نيته في ذلك .

هذه تعليقات علمية ، غير ان تعليقات الحواتين انفسهم تشمل احياناً كلمات نابية ولكمات ضارية يجمع اليدها . حقاً ان هناك تسامحاً في بعض الاحوال بين المستقيمين الشرفاء من الحواتين ، حيث يكون من الظلم الاخلاقي الصراح ان يدعي فريق امتلاك حوت كان طارده من قبل او اصطاده فريق آخر . ولكن بعضهم ليس حيّ الضمير بأية حال .

منذ حوالي خمسين سنة كانت هناك قضية غريبة حول حوت لُقطة، جرى الترافع فيها بالجلترة حيث عرض المدّعون انهم بعد مطاردة شاقة لأحد الحيتان في البحار الشمالية وعندما وفقوا - هم المدعين - حقاً في زرق الحوت برماحهم اضطروا أخيراً بسبب خوفهم من المجازفة بحياتهم ان يهجروا قاربهم نفسه فضلاً عن الحبال. وبعد وقت احضر المدّعى عليهم (وهم بحارة سفينة اخرى) الحوت مضروباً مقتولاً موثقاً وعرضوه آخر الامر امام أعين المدعين. وعندما ووجه المدعى عليهم بالاحتجاج قام قبطانهم يكايد المدعين، وأكد لهم، أنه قد يحتفظ بجبلهم ورماحهم وقاربهم وهي التي بقيت عالقة بالحوث وقت القبض عليه على نحو يشبه الترنيمة التمجيدية للعمل الذي قام به، وعلى ذلك طالب المدعون برد قيمة الحوت والحبل والرماح والقارب.

وكان السيد ارسكين محامياً للمدعى عليهم، وكان القاضي هو اللورد إلنبره، وفي سياق الدفاع ذهب ارسكين الفطن ليوضح موقفه بالإشارة الى قضية زنا، اخفق الزوج فيها عن ان يرد زوجته عن غيها، فتركها أخيراً على وجه بحر الحياة، ومرت السنون، فادركته الندامة على ما فعل، وشرع في اجراء يستعيد بموجبه ملكيتها، غير ان ارسكين كان في جانب الزوجة وقد أيد موقفه بقوله: صحيح ان الزوج «اصطاد» زوجته في البداية وانه قد «اوثقها» اليه برباط، وانه لم يهجرها أخيراً الا حين ازدادت وطأة خلعتها وانغماسها فيها، ولكنه هجرها ما في ذلك ريب حتى اصبحت سمكة مخلّاة مسرّحة، ولذا فحين اصطادها رجل آخر، اصبحت تلك السيدة ملكاً لذلك الرجل مع اي رمح وجد مغروساً فيها.

في هذه القضية الراهنة احتج ارسكين بان مثل الحوت والسيدة يوضح احدهما الآخر بالتبادل.

واذ استمع القاضي المتبحر الى هذه المرافعة والى المرافعة المعاكسة قرّر جازماً ما يلي : — اما القارب فانه يحكم به للمدّعين لانهم لم يغادروه الا طلباً للنجاة بأنفسهم ، وأما فيما يتصل بالحوث موضع التنازع وكذلك الرماح والجبل فانها من حق المدعى عليهم : الحوث لانه كان سمكة مخلّاة حين وقع عليه الاحتياز الاخير ، والرماح والجبل ، لان الحوث حين هرب بها فقد اوقع عليها حق التملك الذاتي ، وكل من استولى على الحوث من بعد كان له حق فيها . فالمدّعون استولوا من بعد على الحوث ، اذن فتلك الادوات المذكورة من حقهم .

لو ان امرأ عادياً نظر في هذا القرار الذي اصدره ذلك القاضي المتبحر فقد يعترض عليه ولكن اذا تعمق المرء المسألة حتى جذورها وجد ان المبدأين الكبيرين اللذين جملا مادتين في شريعة التحويت ، وسبق ايرادهما ، وهما اللذان طبقهما وبينهما اللورد النبره في القضية المذكورة اعلاه ، اقول هذان القانونان اللذان يتعلقان بالسمكة الموثقة والسمكة المخلّاة اذا تدبرهما المرء وجدهما اساسين في كل التشريعات الانسانية ، اذ ان هيكل التشريع ، على تعقيد الزخارف في مبناه ، يشبه هيكل الفلسطينيين في انه لا يقوم الا على دعامتين اثنتين .

أليس معنى هذا اننا نقول بكل لسان : التملك نصف القانون بغض النظر كيف حدث التملك ؟ ولكن كثيراً ما يكون التملك هو القانون كله . ما هي اعصاب الأرقاء الروسين والعبيد الجمهوريين ، وارواحهم ، سوى ان تعدّ سمكة موثقة ، والتملك فيها هو كل القانون ؟ وأي شيء هي تلك البناية الرخامية المعلمة على بابها بصفحة معدنية تحمل اسم الأفقي الذي يملكها دون ان يطاله قانون ، أليست هي سمكة موثقة ؟ وما هي تلك الفائدة الهدامة التي يتقاضاها «مردخاي» السمسار من «تعيس افندي» المفلس على قرض يريد به تعيس افندي ان ينقذ عائلته من الموت جوعاً ، اي شيء هي تلك الفائدة الهدامة الا ان تكون سمكة موثقة ؟ وما هو دخل رئيس اساقفة «خلاص النفوس» البالغ

مائة الف دولار الذي يبتزّه من الخبز العزيز والخبزة النادرة مما يتغذى به مئات
الالوف من العمال المهبطي الاجنحة (وكلهم واثق من بلوغ السماء دون عون من
« خلاص النفوس ») ما هي تلك المائة الألف المكورة الا ان تكون سمكة
موثقة ؟ والمدن والقرى التي ورثها دوق دندر أليست هي سمكة موثقة ؟ وماذا
يرى ذلك الحوات المشهور ، جون بل^١ ، في ارلندة ، سوى ان تكون سمكة
موثقة ؟ وأي شيء هي تكساس لدى ذلك الحرّاب الرسولي، الاخ يونانان^٢ ، الا
انها سمكة موثقة ؟ أليس التملك فيما يتعلق بهؤلاء جميعاً هو القانون كله ؟

واذا كان مبدأ السمكة الموثقة ينطبق على هذا النحو ، فان صنوه مبدأ
السمكة الخلاة اكثر انطباقاً اعني انه ينطبق انطباقاً عاماً شاملاً .

هل كانت امريكا عام ١٤٩٢ الا سمكة خلاة غرز فيها كولبوس العلم الاسباني
ليعلمها ويحتازها من اجل سيده وسيدته ؟ وماذا كانت بولندة لدى القيصر ؟
ويونان لدى تركيا ، والهند عند المجلّترا ؟ وماذا تكون مكسيكو في النهاية
لدى الولايات المتحدة ؟ كل هذه اسماك خلاة .

وهل حقوق الانسان وحرّيات العالم الا سمكة خلاة ؟ وهل عقول الناس
جميعاً وآراؤهم الا سمكة خلاة ؟ واي شيء هو مبدأ الايمان الديني فيهم الا ان
يكون سمكة خلاة ؟ وما هي افكار المفكرين في نظر ذوي الشقشقة اللاغية
الحادعين، أليست هي سمكة خلاة ؟ والكرة الارضية العظمى نفسها أليست
سمكة خلاة . وانت ايها القارئ، هل انت الا سمكة خلاة وسمكة موثقة
ايضاً ؟^٣

١ اسم يطلق على المجلّترا .

٢ اسم يطلق على الولايات المتحدة . وقد ضمت تكساس الى الاتحاد عام ١٨٤٥ .

٣ لو طبقنا هذا على آخاب واسماعيل، لكان آخاب سمكة موثقة قد غرس الكون فيه حربة
وأعلمه، ولكان اسماعيل سمكة خلاة .

«De balena vero sufficit, si rex habeat caput, et regina caudam»
Bracton I. 3. c. 3

الجملة اللاتينية المقتبسة من كتب القوانين الانجليزية اذا أخذت في قرائنها تعني ان البلينة (الحيتان) التي يصطادها اي صياد على ساحل تلك البلاد ، لا بد ان يكون الرأس منها للملك الحوات الاعظم ، ورئيس الشرف للحواتين ، أما الملكة فيقدم لها الذنب في احترام . وهي قسمة في الحوت تشبه قسمة التفاحة في نصفين ، لا تبقي على شيء بعد ذلك . وبما ان هذا القانون ، في صورة معدلة ، لا يزال ساري المفعول بالمجملترا حتى اليوم ، وبما أنه يمثل من جوانب مختلفة شذوذاً غريباً على القانون العام المتصل بالسمة الموثقة والحلاة ، فاني أرى ان أتصدى له في هذا المقام في فصل مستقل على نفس المبدأ الرقيق الذي يدفع السكك الحديدية الانجليزية لان تكون على حساب عربة منفصلة ، تجعل خصيصاً للعائلة المالكة . وكي أبرهن - وان كان برهاناً غريباً - على ان القانون المذكور ما يزال ساري المفعول أتقدم في المقام الاول لأضع بين أيديكم حادثة جرت خلال السنتين الاخيرتين :

يبدو ان بعض البحارة الشرفاء من دوفر او ساندوتش او لعلمهم من سانك بور (المواني الخمسة) وقفوا بعد مطاردة قاسية الى قتل حوت لطيف وجره الى الشاطئ بعد ان رأوه عن بعد وهم على البر . والمواني الخمسة تعد جزئياً او على نحو ما تحت حكم رجل شرطة او « قوّاص » اسمه لورد واردين . وبما أنه يتسلم

منصبه من التاج مباشرة ، فيما أعتقد ، فان جميع الارباح التي تدرّها مقاطعات
المواني الخمسة تصبح له بموجب التنازل . وهذه وظيفة يسميها بعض الكتاب
« السنقور » - وظيفة برتب دون عمل مكافئ - ولكنها ليست كذلك لان
لورد واردن ينشغل منهمكاً أحياناً في الاحتيال على احتياز العوائد والاجور
التي هي له بحكم احتياله على احتيازها .

هؤلاء الملاحون المساكين الحفاة الذين لوحتهم الشمس ، وشمروا سراويلهم
فوق سيقانهم النحيلة التي تشبه سمك الانكليس ، جرّوا السمكة السمينة حتى
طرحوها على البر ، وقد رجوا لانفسهم مبلغ ١٥٠ جنيهًا من زيتها وعظمها ،
وأخذوا وهم ساجحون في خيالاتهم يحتسون الشاي العزيز مع زوجاتهم ، والجنة
الطيبة مع ندمائهم ، بقوة ما يخص كلا منهم من نصيب ، وعندئذ تقدم منهم
سيد عالم مسيحي بمعن ، وله في الاحسان قدم ، يحمل تحت إبطه نسخة من قوانين
بلاكستون ووضعها على رأس الحوت وقال : « كفوا عنه ايديكم ! هذا الحوت يا
سادتي حوت موثق ، وأنا أحوزه باسم لورد واردن » . وعلى الاثر أخذ كل واحد
من هؤلاء البحارة المساكين وهم في حيرة مشوبة باحترام - فهم يمثلون الخلق
الانجليزي الاصيل - يحك رأسه بشدة دون ان يعرف ما يقول ، وينقل نظره في
الوقت نفسه كثيراً بين الحوت والرجل الغريب . ولكن هذا كله لم يحسن
الوضع بحال ولا رقت القلب القاسي بين أضلاع ذلك العالم الغريب الذي يحمل
نسخة من تشريعات بلاكستون ؛ وبعد هنيهة تجرأ أحدهم على الكلام بعد ان
حك رأسه طويلاً مستثيراً أفكاره :

— عفواً سيدي من هو اللورد واردن ؟

— هو الدوق .

— ولكن الدوق لا شأن له بأخذ هذه السمكة .

— انها له .

-- لقد تحملنا التعب الكبير والخطر والكلفة ، فهل يذهب هذا كله لمنفعة الدوق ولا نتقاضى شيئاً لقاء الألم والتعب الا الدمامل والقروح ؟

— انها له .

— هل الدوق من الفقر بحيث يضطر الى هذه الطريقة المستئسدة للحصول على الكفاف ؟

— انها له .

— لقد كنت أرجو ان أنقذ أُمي التي طال بها العهد وهي طريحة الفراش بما أناله من حصّة في هذا الحوت .

— انها له .

— ألا يقنع الدوق بربعها او بنصفها ؟

— انها له .

بإيجاز أخذ الحوت وبيع وتسلم النقود « جناب » دوق ولنجتون . وسمع بالقصة قسيس شريف بالمدينة فظن انه اذا نظر اليها تحت أضواء معينة فانها قد تبدو قضية تعسة تحت تلك الظروف ، ولو الى حد قليل ، فرفع باحترام خطاباً الى جناب الدوق يرجوه ان يولي قضية البحارين التعساء شيئاً من نظر ، فأجاب الدوق بما معناه (وكلتا الرسالتين نشرتا على الناس) انه قد فعل ما فعل ، وتسلم المال ، وهو يكون ممتناً للقسيس المبجل لو انه في المستقبل كفّ (اي القسيس المبجل) عن التدخل في شئون الآخرين . أهذا هو العسكري العجوز الذي يقف عند زوايا الممالك الثلاث يبتز الصدقات من الشحاذين في كل وجه ؟

لا بد ان يدرك القارئ ان الحق المزعوم للدوق في هذه القضية انما هو مستمد من حق الملك نفسه ، وعلينا ان نبحت بأي مبدأ منح الملك في الاصل

ذلك الحق . اما القانون فقد قدّمنا ذكره ، واما السبب فيه فقد قدمه بلودون حين قال : « الحوت المصيد حق للملك والمملكة » ، لامتيازهم وتفوقه في الجودة ، ويرى أعمق الشراح ان هذا التفسير كان هو الحجة المعتمدة في مثل هذه الشئون .

ولكن لم يختص الملك بالرأس والمملكة بالذنب ؟ هاتوا سبباً لذلك يا حضرات المشرعين !

هنالك مؤلف اسمه وليم برين ، وهو أحد المؤلفين في شئون القضاء الملكي ، كتب مقالاً في مال المملكة وفي حق النفقة للملكة ، وكان مما قاله : « الذنب من نصيب الملكة حتى تمتلئ خزانتها بعظم الحوت » . هذا شيء كتب يوم كانت العظم الاسود اللون في الحوت الاثني - او حوت جرينلاند - يتخذ كثيراً في صادرات السيدات . ولكن هذا العظم نفسه لا يوجد في الذنب وانما في الرأس وهو خطأ مؤسف لقانوني حكيم مثل برين . لكن هل الملكة حورية بحر يا ترى حتى تزوّد بذنب ؟ قد يكمن في هذا كله معنى رمزي .

هناك سمتان يسميهما كتاب القانون الانجليزي سمتين ملكيتين وهما : الحوت والحفش ، وكلتاها من الاملاك الملكية في ظروف معينة ، وهما اسمياً يبدآن دخول التاج العادي بالعدد العاشر ، ولا أعرف اي مؤلف آخر ألمح الى هذه المسألة ، ولكن يبدو لي استنتاجاً ان سمكة الحفش يجب ان تقسم كما يقسم الحوت ، فيأخذ الملك رأسها وهو شديد الكثافة مرن ، واذا اتخذنا ذلك رمزاً فقد نزع من زاوية فكها ان هناك تشابهاً وتناظراً بين الرأسين ، وهكذا يبدو ان لكل شيء سبباً حتى في القانون .

الباقوطة تلقي يرعم الورد

« كان من العبث ان نفقش عن العنبر في كرش ذلك الحوت،
وان كان النتن الخائق لا يحول دون التفتيش » ١ .
السيرت. براون V. E.

مضى اسبوع او اثنان على آخر منظر وصفته من مناظر التحويت وكنا
نبحر في بطء فوق بحر هامد كثير البخار في منتصف النهار، حتى برهنت
الانوف الكثيرة فوق ظهر الباقوطة على ان قدرتها على اليقظة والاستكشاف
اكبر من قدرة العيون الست في الاعالي فقد شممنا في البحر رائحة متميزة غير
ممتعة كثيراً .

فقال اسطب : « اراهن الآن ان من حولنا في مكان ما بعض الحيتان التي
اصبناها امس بالدرق، وقد كنت اقدر انها ستقلب قبل مضي وقت طويل » .

وفي الحال انقشعت الابخرة من امامنا الى جانب، ورأينا على بعد سفينة
دلّت اشرعتها المنشورة على انها قد أجنبّت اليها حوتاً. واذ اقتربنا منها منسابين
رأينا في قمتها عالماً فرنسياً، واتضح لنا من عصائب طيور البحر الرخمية المدومة
كأنها سحب، الملتفة المرنقة المنقضة من فوق الحوت المجنب، ان ذلك الحوت لا
بد من ان يكون ما يسميه الصيادون « الحوت المنفجر »، اي الحوت الذي مات
في البحر دون ان يصيبه اذى وعام جثة مشاعاً فوق الماء . وقد يدرك المرء اية

١ اخطأ ملفل هنا فادرج في هذه الاقتباسة كلمة « لا » .

رائحة كريهة كانت تفوح بها تلك الكتلة ، لعلها اسوأ من رائحة مدينة آشورية في ايام الطاعون حين يعجز الاحياء فيها عن دفن الموتى . وبعض الناس يرونها في الحق شيئاً لا يطاق حتى انه ليست ثمة شهوة تغريهم بان يرسوا سفينتهم الى جانبها، غير ان هناك من يرضون بذلك على الرغم من ان الزيت الذي يؤخذ من مثلها من صنف حقير القيمة ولا علاقة له ابدأ بعطر الورد في طبيعته .

وعندما اقتربنا منها على هبات النسيم المتلاشي رأينا تلك الحوافة الفرنسية قد أجنبت اليها حوتاً ثانياً، وبدأ لنا ان هذا الثاني اشد تنقاً من الاول، بل تجلى لنا في الحقيقة انه نوع من تلك الحيتان التي تستثير الريبة اذ يبدو انها تجف وتموت بسبب نوع مهول من سوء الهضم او عسره، فتظل اجسامها الميتة مفلسة تماماً او تكاد من اية قطرة زيت، ومع ذلك فسوف نعرف في موضع ملائم من هذا الكتاب كيف ان الصياد العارف لن يشيح بوجهه عن مثل هذا الحوت، مهما يتجنب الحيتان المنفجرة بعامة .

وقد كاثبت الباقوطة تلك السفينة الغريبة الى حد ان اسطب اقسام انه تعرف الى عصا مجرفته القاطعة مشتبكة في حبال كانت معقودة حول ذنب احد هذين الحوتين .

وضحك في تماجن وهو يقف في مقدم السفينة وقال : « ها ان فتى ظريفاً يعرض لكم ، ذلك ثعلب ماكر ! انا اعلم حق العلم ان هؤلاء «الضفادع» الذين نسميهم الفرنسيين قليلو الدربة في شئون الصيد ، احياناً ينزلون قواربهم وراء الموجات الكبيرة ظناً منهم انها نفاثات حيتان العنبر، نعم واحياناً يبحرون من مينائهم وعنبر سفينتهم مليء بصناديق من شمع الشحم وحقائب من مقاريض الذبالة اذ يتكهنون بان الزيت الذي يحصلون عليه لن يكفي ليغطي الذبالة التي يستعملها القبطان . اجل نحن جميعاً نعرف هذه الامور، ولكن انظروا ها هنا «ضفدع»

بائس قد قنع بما خلفناه اعني الحوت الذي ضربناه بالدرق، نعم وهو قانع بان يقشر العظام الجافة من تلك السمكة الثمينة التي حصل عليها هنالك . يا المسكين البائس، اقول ليات احدكم بقبعته ويمرها علينا ونقدم له فيها هدية من زيت قليل على سبيل الاحسان، اذ ان اي زيت سيحصل عليه من ذلك الحوت المضروب بالدرق لن يصلح للوقود في سجن، لا ولا في زنازة امرئ محكوم بالاعدام ، فأما الحوت الآخر فأنا ارى انني احصل على كمية من الزيت اكثر من التي يحصل عليها هو من تلك الرزمة من العظام اذا انا قطعت هذه الصواري الثلاثة من سفينتنا وعصرت ما فيها من زيت . ويخطر لي الآن انه قد يحوي شيئاً اثن من الزيت بكثير، أعني العنبر، ترى هل فكر صاحبنا الشيخ في هذا ؟ ذلك امر يستحق التجربة، اجل ، انا لها . وما ان اكمل حديثه حتى توجه نحو الربعة خلف الدقل الاعظم .

في هذا الوقت كان الهواء الفاتر الضعيف قد استحال الى سكون تام، حتى ان الباقوطة شاءت ام ابت وقعت ضمن ربة الرائحة المنتنة ، ولم يكن لها من امل في النجاة منها الا اذا انتعش هبوب النسيم . فخرج اسطب من القمرة ونادى ملاحي قاربه وجذفوا متجهين نحو السفينة الغربية ؛ واذا كان يعترض مقدمتها لحظ ان الجزء العلوي من رأس مقدمها (حسب ما يلميه الذوق الفرنسي الذي يحب البهرجة) محفور على شكل سويقة، ضخمة منكسة الرأس، مدهونة باللون الاخضر وتحمل في موضع الشوك ابراً من نحاس قد نتأت منها هنا وهناك، وتنتهي جميعاً ببصيلة منتظمة مطبقة ذات لون احمر لامع ، وعلى اللافتة القائمة عند رأسها قرأ بحروف كبيرة مذهبة « زرّ الورد » او برعم الورد، وقد كان هذا اسماً رومنطيقياً لتلك السفينة العطرة .

ومع ان اسطب لم يفهم الكلمة الفرنسية التي تعني « زرّ » في ذلك النقش فان كلمة « ورد » وصورة البرعم البصيلي في رأسها ، حين وضعها جنباً الى جنب ، وضحا له كل شيء توضيحاً كافياً .

فصاح وهو يزم انفه بيده : « برعم ورد خشبي ، أليس كذلك ؟ هذا احسن ولكن اية رائحة تلبعث من هذه الوردة ! ! »

ومن اجل ان يقيم اتصالاً مباشراً بينه وبين الناس على ظهر تلك السفينة كان عليه ان يحدّف حول صدر السفينة الى الجهة اليمنى منها ، وبذلك يقترب من الحوت المنفجر ويرسل الحديث من فوقه .

وحين بلغ هذا الموقع واحدى يديه ما تزال على انفه جأر قائلاً : « انتم يا زر الورد ! أفنكم يا زر الورد احد يتكلم الانجليزية ؟ »

— «نعم» أجابه من حافة السفينة رجل من اهالي جزر بحر المانش ، واستبان من بعد انه رأس الضباط .

— اذن فيا برعم زر الورد، هل رأيتم الحوت الابيض ؟

— اي حوت ؟

— الحوت الابيض، حوت عنبر، مويي ديك، هل رأيتموه ؟

— لم نسمع بمثل هذا الحوت ابدأ، القشلوط الابيض ! الحوت الابيض، كلا .

— حسناً، وداعاً الآن، وسأعود اليكم ثانية بعد قليل .

ثم جذف مسرعاً نحو الباقوطة ورأى آخاب منحنياً فوق افريز الربعة خلف الدقل منتظراً جوابه، فاتخذ من يديه بوقاً وصاح « كلا يا سيدي، كلا ! » وعلى الاثر انسحب آخاب وعاد اسطب الى السفينة الفرنسية .

وحينئذ لاحظ ان ذلك الرجل المانشي الذي كان قد تغلغل بين السلاسل واخذ يستعمل المجرفة القاطعة قد وضع انفه في ما يشبه الكيس .

فقال له اسطب : « ما بال انفك ؟ هل هشمته ؟ » فأجابه الرجل المانشي الذي لم يكن يستسيغ كثيراً المهمة الموكولة اليه قائلاً : « لتمنيت انه كان مهشماً او انه لم يكن لي انف ابداً ! ولكن ما بالك تمسك انفك انت ؟ »

— « آه ، لا شيء ، انه انف من شمع ولا بد لي ان اضع عليه يدي لئلا يسقط . يوم جميل ، أليس كذلك ؟ اقول ان الهواء كأنه مرّ على روضة حزن ، ألقيـ الينا ضميمة من الزهر بحقك يا زرّ الورد . »

فاستبد بالمانشي غضب مفاجيء وجأراً قائلاً : « بحق الشيطان ماذا تريد منا ؟ »

— « آه رُوقُ رُوقُ ، نعم ، هذه هي الكلمة ، لم لا تكدس هذين الحوتين في الثلج وانت تعمل فيها . دعنا من المزاح . هل تعلم يا برعم الورد ان من العبث ان تجرب الحصول على شيء من زيت من مثل هذين الحوتين ؟ اما ذلك الذي جفّ وتقدّد فليس في جثته كلها ملء محجم من زيت . »

— « أعرف ذلك جيداً ولكن من لي بالقبطان فانه لا يصدق ذلك ؛ هذه أولى سفراته وكان من قبلها يصنع عطر الكولونيا ، لكن اصعد الينا وواجهه فلعله يصدقك ان لم يصدقني ، وبذلك تخلصني من هذا السمج القذر . »

— « في خدمتك بكل معروف يرضيك يا صديقي العذب الظريف » ذلك ما قاله اسطب وصعد على الأثر الى ظهر السفينة وهناك عرض مشهد غريب . فقد كانت البحارة يلبسون قبعات مزخرفة بخيوط صوف حمراء على شكل خصل مزهرة ، وهم يأخذون المرافع استعداداً لرفع الحوتين الا انهم كانوا يعملون في ببطء ويتكلمون في عجلة ومهما قلت فيهم لم تعدم ان تراهم منحرفي المزاج ، قد

صعدوا انوفهم جميعاً من وجوههم الى اعلى كأنها صواري البوم وبين الحين والحين يكف كل اثنين منهم معاً عن العمل ويجريان نحو قمة الصاري لينتشقا الهواء الطلق ، وبعضهم يظنون انهم سيصابون بالطاعون، فهم يغمسون الدشر في قار الفحم ويرفعونها عند خياشيمهم بين فترة واخرى . وآخرون قد كسروا اعواد غلايينهم وجعلوها قصيرة جداً لا تتعدى احواض الغلايين الا ما يطبق عليه الفم وجعلوا ينفخون دخان التبغ بقوة حتى يظل يملأ انوفهم على الدوام .

انصب على رأس اسطب سيل من الصيحات واللغات صادرة من غرفة القبطان عند الكوئلة ، فتطلع في تلك الوجهة فرأى وجهاً محتقناً بالغضب يطل من خلف الباب وكان موارب الفتحة من داخل ؛ ذلك هو الجراح المعذب الذي احتج على تلك الاجراءات في ذلك اليوم ، وعبثاً ما فعل ، فانزوى في غرفة القبطان (وهو يسميها الكابينه cabinet) لكي يتجنب الوبأ الا انه لم يكف عن ان يحجر بتوسلاته وتسخطاته احياناً .

واذ رأى اسطب ذلك كله دبّر خطته في احكام ، والتفت الى المانشي وحادثه قليلاً ، وفي اثناء الحديث كشف الضابط الغريب عن مقته لقبطانه ، ونعته بأنه جاهل مغرور ، جرّهم جميعاً في تلك الحماة الردغة الممتنة التي لن تجدي عليهم شيئاً ، وسبر اسطب غوره بعناية فادرك ان هذا المانشي ليست لديه ادنى خاطرة عن شيء اسمه العنبر فطوى كل شيء عن هذا الموضوع في صدره ، اما فيما عدا ذلك فكان صريحاً معه يبادل الثقة التامة ، حتى دبّر الاثنان في سرعة خطة صغيرة لكي يخدعا القبطان ويعبثا به في آن معاً دون ان يعنّ له ابداً ان يتشكك في اخلاصهما . وتقضي هذه الخطة الصغيرة ان يقف المانشي فيقول للقبطان — تحت ستار الترجمة لما يقوله اسطب — كل ما ينبغي ان يقوله على انه كلام اسطب نفسه ، واما اسطب فينطق بأي هذر يسبق الى طرف لسانه خلال تلك المقابلة .

حينئذ برز ضحيتها المرتقب من قمرته ، فاذا به رجل اسمر قميء الا انه سمح
التقاطيع اذا قسته الى قباطنة البحر ، وله سبلة كبيرة وشاربان ويلبس رداء
مخملية احمر قطنية وعلى جنبه أختام تتدلى من سلسلة ساعته . فقام المانشي
بتعريف اسطوب الى هذا السيد في جو مهذب ، واتخذ المانشي صورة المترجم
بينها ظاهرياً وقال : « ماذا اقول له ؟ »

فقال اسطوب وهو يحجج الرداء المخملي والساعة والاختام : « لك ان تبدأ
القول بان تجربته ان منظره يبدو لي منظر طفل وان كنت لا ادعي اني اصلح
حكماً » .

فقال المانشي بالفرنسية وهو يحول نظره نحو قبطانه : « يقول لك انه
بالامس فقط تحدثت سفينته الى سفينة مات قبطانها ورأس ضباطها وستة من
ملاحها بسبب حمى علقت بهم من حوت منفجر أجنبوه الى سفينتهم » .

فأجفل القبطان لدى سماعه ذلك واستبد به التلهف لمعرفة المزيد . فقال
المانشي لاسطوب : « ثم ماذا ؟ »

— « ما دام يستسهل المسألة فأخبره انني حدثت فيه البصر باهتمام واصبحت
واثقاً انه لا يصلح لقيادة سفينة باكثر مما يصلح لذلك قرد من ستيباغو . بل
الحق أخبره على لساني انه قرد من نوع البابون » .

— « انه ليحلف غير آلي ايها السيد ان الحوت الثاني اي الذي جف وتقدد
اخطر كثيراً من المنفجر ، وباختصار انه — ايها السيد — ليستحلفنا اذا كان
لحياتنا من قيمة لدينا ان نسيب ذلك الحوت » .

وعلى التوّ جرى القبطان الى الامام وأمر ملاحيه بصوت جهير ان يتوقفوا
عن رفع المرافع وان يرخوا الحبال والسلاسل التي تربط الحوتين الى السفينة .

وعندما عاد القبطان اليها قال الرجل المائشي : « ثم ماذا ؟ »

— « دعني ارى ؛ اجل ، تستطيع ان تقول له الآن انني ، في الواقع ، اخبره
انني قد ضحكت عليه وانني (منتحياً جانباً متحدثاً لنفسه) ربما ضحكت
ايضاً على شخص آخر » .

— « يقول يا سيدي انه ليحس بالسعادة اذ استطاع ان يؤدي لنا معروفاً » .

فلما سمع القبطان ذلك أقسم انها هما الممتنان الشاكران (يعني نفسه
والضابط) وانهى كلامه بدعوة اسطب الى قمرته ليشرب زجاجة من نبيذ
بور دو .

قال المترجم : « يريدك ان تشرب معه زجاجة نبيذ » .

— « ابلغه شكري القلبي ولكن قل له انه ليس من مبدأي ان انا دم رجلاً
خدعته وضحكت عليه ، قل له في الواقع انني لا بد ان انصرف » .

— « يقول يا سيدي ان مبادئه لا تسمح له بأن يشرب ، ولكن ان كان
لا بد لسيدي ان يعيش يوماً آخر ليشرب فيه فمن الخير له ان ينزل القوارب
الاربعة لتسحب السفينة بعيداً عن هذين الحوتين ، لانها لن يبتعدا بسبب
سكون الهواء » .

في هذا الوقت كان اسطب قد اصبح فوق جانب السفينة ونزل في قاربه ،
ونادى الرجل المائشي يقول له — بما ان لديه حبلَ جرٍّ طويلاً في قاربه فانسه

سيبذل ما في وسعه لمساعدتهم يجرّ اخفّ الحوتين من جانب السفينة ، وبينما انهممكت القوارب الفرنسية في سحب السفينة بعيداً في وجهه ، كان اسطب بكرم نفس يجر الحوت في وجه آخر، وقد تظاهر بأنه يرخي حبلاً طويلاً مفرط الطول .

وسرعان ما انبعث النسيم ، وتظاهر اسطب بأنه قد نأى عن الحوت ، ورفعت القوارب الفرنسية الى السفينة فازدادت بعداً، بينما انسابت الباقوطة بين السفينة الفرنسية وقارب اسطب ؛ وعلى الاثر جدف اسطب بسرعة متجهاً نحو الجثة العائمة ونادى الباقوطة لينبئها بما انتواه ، وابتدأ توأاً يحصد ثمرة مكروه الملتوي . فأمسك بمجرفة قاربه الحادة وابتدأ التنقيب في الجثة في مكان يقع خلف الزعنفة الجانبية قليلاً، ولو رأيت له لكنت تتصوره يحفر خدعاً هنالك في الماء ؛ وعندما امضى وقتاً وهو يضرب بمجرفته على الاضلاع الضامرة كان كمن يستلّ بلاطاً وخزفاً رومانياً قديماً مدفوناً في طَقْلٍ انجليزي كثيف . وقد كان ملاحو قاربه في هياج شديد يعينون رئيسهم باحتدام ورغبة ، ويبدو عليهم القلق والترقب كأنهم باحثون عن الذهب .

وطوال ذلك كله كانت طيور لا تحصى تحوت وتتنفض وتصرخ وتزعق وتتقاتل من حولهم ، واخذت خيبة الامل تبدو على ملامح اسطب وبخاصة حين ازداد سطوع النتن الفظيع ، ولكن فجأة من جوف هذا الطاعون الوبيء انسلّ جدول دقيق من العطر جرى خلال مدّ الروائح الكريهة دون ان يختلط بها مثلاً ان نهراً يجري في آخر ويمحاذيه ويمضي وقتاً قبل ان يتمازج النهران ويتلاشى احدهما في الآخر .

فصاح اسطب في سرور وهو يتحسس شيئاً في المناطق الداخلية : « وجدته ، وجدته ، هيمان ! هيمان ! »

وألقى مجرفته ودس في الداخل كلتا يديه فعادتا بحفتين من شيء يبدو
منتفخاً كأنه صابون وندسور المكتنز او جينة قديمة دسمة رقصاء ، اذا اطلعت
عليه رأيتـه دهني القوام طيب الشذا ، وقد يثوخ فيه ابهامك في يسر ولونه بين
الصفرة ودكئة الرماد . هذا ايها الرفاق الطيبون هو العنبر ، وكل أوقية منه
تسوى لدى اي صيدلي جنيهاً ذهبياً . وقد استخلص اسطب منه حوالى ست
حفنات الا ان ما فقد منه في البحر — دون اجمال — كان اكثر ، وكان من
الممكن الحصول على ما هو اكثر من ذلك لولا أوامر آخاب الجمهورية الجازعة
الى اسطب بأن يكف ويعود الى ظهر السفينة وإلا قالت لهم السفينة : وداعاً .

العنبر الرمادي

هذا العنبر مادة غريبة باللغة الغرابة الا انها سلعة هامة في التجارة حتى ان قبطاناً من اسرة « التابوتين » في نانتوكت جرى استجوابه حولها عام ١٧٩١ في قفص الاتهام بمجلس العموم البريطاني. ذلك ان الاصل الصحيح للعنبر الرمادي كان في ذلك الحين وظل الى تاريخ متأخر نسبياً ، مشكلة لدى العلماء ، مثل العنبر نفسه ، والكلمة الدالة عليه هي ambergris وهي مركبة من كلمتين amber بمعنى العنبر ، و gris كلمة فرنسية تعني الرمادي . فالعنبر بعامة قد يوجد احياناً على ساحل البحر ، وقد يستخرج من الارض في البر ، اما العنبر الرمادي فلا يوجد الا في البحر ، ثم ان العنبر بعامة مادة صلبة شفافة هشة لا رائحة لها تتخذ منها انابيب الغلايين وانواع من الخرز والزينة ، واما العنبر الرمادي فانه ناعم شمعي ذو رائحة نفاذة وشذا طيب حتى انه يستعمل على الاكثر في العطور وكرات البخور والشموع الثمينة والمساحيق والادھنة المستعملة للشعر. ويستعمله الاتراك في الطبخ ويأخذونه معهم ايضاً الى مكة لنفس الغاية التي يحمل المسيحيون من اجلها البخور الى كنيسة القديس بطرس في روما ، وبعض تجار النبيذ يضعون منه في النبيذ حبات يسيرات لتطيب رائحته .

من كان يظن ان السيدات الجميلات والسادة المتأقنين يتلذذون بخلصة عطرية توجد في الاحشاء المهينة من حوت عليل ! ولكن ذلك هو واقع الامر . وبعض الناس يظنون ان العنبر هو سبب عسر الهضم في الحوت وبعضهم يظنونه نتيجة له . ومن العسير ان نقول كيف يمكن معالجة ذلك المرض ، الا اذا جرّعناه

ملء ثلاثة قوارب او اربعة من أقراص براندرث ، ثم هربنا من وجه الخطر كما يفعل العمال لدى تفجير الصخور .

وقد أنسيت ان اقول انه وجدت في هذا العنبر الرمادي اقراص صلبة مستديرة عظيمة ظننا اسطب بادىء الامر أضرار سراويل بعض البحارة ، ثم تبين بعد ذلك أنها ليست سوى قطع من عظام السبيدج الصغير حنطت على ذلك الوجه .

أقليل هذا ؟ أقليل ان يوجد عدم الفساد من هذا العنبر الرمادي العطر الشاذي في صميم ذلك الفساد ؟ تفكروا في قول القديس بولس في رسالته الى أهل كورنثوس حول الفساد وعدم الفساد (١ كورنثوس : ٤٢) وكيف أننا نزرع في هوان ونقام في مجد (٤٣) . وهو كذلك يذكرنا بقول براكيلسس حول ماهية الشيء الذي يستخرج منه أجود المسك^١ . كذلك لا تنسوا الحقيقة الغريبة وهي ان ماء الكولونيا بين جميع الاشياء ذات الرائحة الكريهة هو اردؤها جميعاً في مراحل صنعه الاولى .

قد كنت أرغب في ان أختم هذا الفصل بالاستشهاد المتقدم ولكني لا أستطيع نظراً لاني تواق لأنقض تهمة توجه كثيراً الى الحواتين وقد يعدها بعض أصحاب العقول القائمة على التحيز مؤيدة على نحو غير مباشر بما ذكرناه عن الحوتين اللذين كانا مجنبيين الى السفينة الفرنسية . في موضع آخر من هذا الكتاب أبطلنا الطعن العياب القائل ان مهنة التحويت عمل قذر دنس في مجمله ، غير ان هناك شيئاً آخر ننقضه بالبرهان ، فالناس يلحقون الى ان جميع الحيتان دائماً كريهة الرائحة فكيف نشأت هذه الوصمة البغيضة ؟

١ يشير الى قوله : من البراز والروث يستخرج أجود المسك .

أرى أنها تعود بصراحة الى أول مرة وصلت فيها سفن التحويت من جرينلاند الى لندن قبل ما يزيد على قرنين . ذلك ان هؤلاء الحواتين لم يكونوا يستخرجون الزيت - ولا هم يستخرجونه حتى اليوم - وهم في عرض البحر ، كما تفعل السفن في البحار الجنوبية دائماً ، وانما هم يقطعون الشحم الطازج في قطع صغيرة ويدسونه من خلال ثقب ممدمة في براميل كبيرة ويحملونه الى الوطن على هذه الحال . لان قصر الموسم في تلك البحار الجليدية وتعرض الحواتين لهبوب العواصف العنيفة فجأة يحول دون ايثار طريقة اخرى . وتكون النتيجة ان الملاحين اذا دخلوا المستودع وأنزلوا واحدة من تلك المقابر الحوتية في حوض جرينلاند انبعث رائحة تشبه بعض الشيء الرائحة التي تنطلق عند حفر مقبرة قديمة لتأسيس مستشفى للولادة .

وأنا أستخلص - من بعض النواحي - ان هذه التهمة الخبيثة ضد الحواتات قد تعزى بالمثل الى وجود قرية هولندية على ساحل جرينلاند في الايام المواضي ، تدعى شميرنبرج او سميرنبرج والاسم الثاني هو الذي يستعمله العلامة فوجوفون سلاك^١ في كتابه الضخم في الروائح ، وهو كتاب معتمد في ذلك الموضوع . واسمه يوحى (اذ ان كلمة سمير تعني الشحم وبرج تعني نزع) ان هذه القرية قد أنشئت هنالك لكي تكون موقعاً صالحاً لنزع شحم الحيتان واذابتها ، مما يصيده أسطول التحويت الهولندي ، دون الحاجة الى أخذها لهولنده لتحقيق تلك الغاية ، وكانت القرية بمجموعة من المواقد ومراحل غلي اللحم وعنابر الزيت ، وعندما كانت الاعمال فيها تقوم على قدم وساق فانها كانت تبث في الواقع رائحة غير مريحة او ممتعة . ولكن هذا كله يختلف تماماً عن سفينة التحويت التي تصيد حوت العنبر في البحار الجنوبية فهي اذا قامت برحلة مداها أربع سنوات ،

١ اسم من اسماء السخرية التي أطلقها ملفل على اسكورسي .

فانها بعد ان يطفح عنبرها بالزيت ربما لم تستنفذ خمسين يوماً في شئون الغليان ،
فاذا أصبح الزيت معبأ في البراميل فانه يصبح دون رائحة تقريباً . والحق ان
فصيلة الحيتان ، حية كانت او ميتة ، اذا عولجت معالجة نظيفة فانها ليست من
الكائنات ذوات الرائحة المستكرهة ولا الحواتون يميزون بقوة الشم مثلما كان
أهل القرون الوسطى يميزون اليهودي من سواء في الجمهور . ولا يمكن للحوت
ان يكون في الحق الا شدي الرائحة ما دام يتمتع بصحة جيدة ويأخذ نفسه
بالرياضة الكثيرة وهو يعيش طليقاً غير حبيس في بيت ، وان كان قلما يتاح له
حقاً ان يكون في الهواء الطلق ؛ وأنا أقول ان شطيرتي ذنب حوت العنبر حين
تنتصبان فوق الماء ترسلان رائحة كالتبعت من سيدة مضمخة بالمسك تجر
ذيولها في بهو دافىء . فاذا تمثلت ضخامة الحوت فبأي شيء أشبهه من حيث
شذاه العطر ؟ ألا أشبهه بذلك الفيل الشهير ذي النابيين المجوهرين المضمخ بالمر
الذي خرج به الهنود من إحدى مدنها ليستقبلوا به الاسكندر الكبير
مرحبين^١ ؟

١ بعد قهر بورس قدم كثير من أمراء الهند الطاعة لالاسكندر ، وأهدوه عدداً من الافيال .

طريع بين الامواج

لم يمضِ على لقائنا للحوارة الفرنسية الا بضعة أيام حين وقعت حادثة مشهورة هامة لأقل الملاحين على الباقوطة أهمية وشهرة . حادثة مؤسسة جد مؤسفة ، انتهت الى ان تزود السفينة ، التي خط القدر لها مصيرها المحتوم والتي كانت تغدو أحياناً طياشة في مرجحها وجبورها ، بنبوءة حية لا تنفك تصاحبها أنى اتجهت عن أية عاقبة محطمة قد تكون من نصيبها .

ليس كل امرئ في الحوارة يبلغ ان ينزل في القوارب وانما يبقى بعض العاملين الذين يسمون « قوَّام السفينة » ومجالهم ان يُعملوها حين تأخذ القوارب في مطاردة الحوت . وهؤلاء القوَّام بعامة من الاشداء كالذين تتألف منهم عصابة الملاحين في القوارب ؛ فاذا اتفق ان كان في السفينة امرؤ بالغ النحافة ، عويز رعديد ، فمن اليقيني ان يظل مثل هذا المرء مع القوَّام ، وهذا هو ما حدث في الباقوطة للزنجي القميء المسمى باسم بيبي ، فاذا رخم أصبح بيبي . مسكين هو بيبي ! لقد سمعتم به من قبل ، ولا بد أنكم تذكرون ظنبوره في تلك الليلة الصاخبة التي كانت مشبعة بالمرح والكآبة معاً .

واذا اطلعت على ظاهر الرجلين : بيبي والعجان وجدتهما « مهري رهان » أحدهما مهر سيسي أسود والآخر أبيض ، حجهان متشابهان وان اختلف اللونان ، وقد أطلقا في شوط دائري واحد . ولكن بينا كان الفتى العجان المنكود بليداً خامل الذكاء جبلة وطبعاً ، كان بيبي في أعماقه ذكياً أليماً - وان

ان مسرفاً في رقة القلب - وألمعيته من ذلك النوع الطريف الأصيل المرح الذي تتميز به قبيلته . وهي قبيلة تستمتع بجميع أيام الاجازات والاعياد استمتاعاً جميلاً طليقاً لا توازيها فيه أية قبيلة أخرى . اذ ان التقويم السنوي لدى السود يجب ألا يكون سوى ثلاثمائة وخمسة وستين نيروزاً وذكرى حرية . ولا تبتسموا ساخرين اذا قلت ان هذا الأسود كان ألعياً ذكياً لان للسواد نفسه لمعاناً : وشاهدي على ذلك الابنوس اللامع الذي تزين به غرف الملك . غير ان بيبي كان يحب الحياة وما تكفله الحياة من ضمانات مطمئنة ، حتى ان العمل المرعب الذي وجد نفسه في ربقته ، على نحو ما دون ان يجد لذلك تعليلاً ، قد شوّه لمعانه تشويهاً مؤسفاً ؛ هذا مع أنني سأبين بعد قليل ان ما أخذ فيه مؤقتاً قدر له في النهاية ان يضويء في شحوب بقوة نيران شاذة غريبة ، فاذا لمعانه يصبح ، على نحو لا يصدق ، عشرة أمثال ما كان له من لألاء طبيعي يوم كان يحبي ليالي الطرب الكثيرة على العشب الاخضر في مقاطعة تولاند من فانتوكت . وعلى المدّ المستوي النغم قد حوّل ، بهاأته المرحه ، جميع الاقنى المستدير الى طنبور واحد تدق فيه أجراس النجوم . في وضوح النهار تتألق النقطة الماسية الصافية بلألاء سليم اذا جعلتها معلقة ازاء عنق أزرق العروق . غير ان الجواهري الذكي يعرض عليك الماسة في أشد أحوالها لألاء أخاذاً حين يضعها ازاء جسم معتم ثم يسلط عليها ضوءاً من الغازات الصناعية لا ضوءاً من أشعة الشمس ، ثم ينبعث ذلك الاشراق الناري المتوهج ، الرائع على انه ابن الارض ، ثم تبدو الماسة التي تشع اشعاعاً شطانياً وكأنها جوهرة تاج سرقت من أحد ملوك الجحيم بعد أن كانت أقدس رمز للسموات البلورية . ولكن لنعد الى سياق القصة .

واتفق ان المخذف في المؤخرة من قارب اسطب في حادث استخلاص العنبر الرمادي أوهى يده ، وعجز عن العمل ، فعهد الى بيبي ان يخلفه مؤقتاً في القارب .

وأبدى بيب أول مرة نزل فيها في القارب بصحبة اسطب كثيراً من التوت العصي (الزفرزة) ولكنه لحسن حظه حينئذٍ نجح من احتكاك مباشر بالحوت ، ولذا انتهى دون ان يعلق به خزي كبير ، وان كان اسطب اهتم من بعد وقد لحظ حاله بان يشجعه كي يستثير شجاعته الى أقصاها اذ قد يجد نفسه بحاجة اليها .

وعند انزال القوارب كرة أخرى ، جذف الملاحون به نحو الحوت فلما تلقى هذا الحديد المزروقة ردّ عليها باللطة المعهودة منه واتفق ان وقعت تماماً حينئذٍ تحت مقعد بيب المسكين . فجعله الفزع اللا ارادي في تلك اللحظة يقفز من القارب والمجذاف في يده وبهذه الطريقة وقع ذلك الجزء من حبل التحويت المسترخي فوق صدره إذ جرّه على صدره وهو يهوي ، فاذا هو محتبل به حين ذهب يغوص في الماء . في تلك اللحظة أخذ الحوت المصاب يجري بشدة ، وأخذ الحبل يشد مستقيماً بسرعة . وعلى التوجاء بيب التعس مكللاً بالزبد عند معقفات القارب الخطافية وقد جره الحبل الى هنالك دون شفقة بعد ان لفّ عدة لفات حول صدره وعنقه .

كان طاشطيقو يقف في مقدمة القارب ، وكانت تملأ صدره حرارة الصيد ، وكان يمقت بيب اذ يرى فيه رعيدياً جباناً ، ولكنه استل مدية القارب من غمدها وسدّد شفرتها فوق الحبل والتفت الى اسطب وصاح متسائلاً : « أقطع ؟ » بينما كان وجه بيب المزرّق المختنق كأنما يقول له : « اقطع بالله عليك » . كل شيء مرّ لها . في أقل من نصف دقيقة حدث كل ذلك .

« لعين . اقطع ! » - بذلك زجر اسطب ، وبذلك ضاع الحوت ونجا بيب .

وما ان عاد الزنجي القميء المسكين الى وعيه حتى احتوشته صيحات الملاحين ولعناتهم ، وفي هدوء ترك اسطب هذه اللعنات المصبوبة على غير نظام تتبخر ، ثم تناول بيب بلعنة الرئيس للمرءوس ، على نحو واضح صريح مقيد بتقاليد المهنة ، وان كان مشوباً بشيء من الفكاهة ، ثم قدم اليه وقد انتهى من ذلك ما يقدمه الرفيق للرفيق من نصيحة نافعة . وخلاصة تلك النصيحة : لا تقفز من القارب يا بيب إلا - ثم كان ما ورد بعد « إلا » غير محدد شأن أعمق النصائح دائماً . حقاً ان الشعار الحق للملاح بعامة هو « الزم القارب » ولكن في بعض الحالات يصبح : « اقفز من القارب » خيراً منه . غير أن اسطب كأنما كان يدرك في النهاية أنه ان قدم لبيب نصيحة مركزة قائمة على وحي الضمير الحساس فانه يترك له ندحة ليقفز في المستقبل ولذا فانه تخلى فجأة عن النصيح وختم كلامه بأمر جازم : « الزم القارب يا بيب والا وحق الاله لا أنقذتك اذا قفزت . تذكر هذا . لسنا لنفقد الحيتان بسبب أمثالك ؛ الحوت يأتينا بثمن يبلغ ثلاثين مرة قدر ثمنك في ألباما يا بيب ! لا تنس ذلك واياك ان تقفز مرة أخرى » . ولعل اسطب كان يلح بطريق غير مباشر الى ان المرء قد يجب أخاه الانسان ، غير ان الانسان حيوان جماع مال ، وهذا الميل فيه يعترض ما فيه من حنو وطيبة .

لكن المقدّر كائن ، فقد قفز بيب مرة أخرى في ظروف شبيهة بظروف الحادث الأول إلا ان الحبل لم يصدّره في الثاني ، ومن ثم فان الحوت أخذ يجري شداً فخلف بيب على سطح الماء كأنه حقيبة مسافر منسية . وأأسفاه ! فقد كان اسطب وفيماً بما قال . كان يوماً جيلاً كريماً أزرق اللون ، والبحر اللامع الصقيل هادئ منعش ممتد على انبساط دائري حتى حواشي الأفق كأنه الغشاء الداخلي لأمعاء الثور وقد مدّ الى أقصاه . وبدا رأس بيب الأبنوسي وهو يصعد ويهبط في ذلك الماء كأنه رأس من القرنفل ، ولم ترتفع أية مدية حين سقط سريعاً نحو مؤخرة القارب ، وأدار له اسطب ظهره الجاني المتزمت ، أما الحوت ففقد

مهبط الجناح . وفي مدى دقائق ثلاث أصبح يفصل بين بيب واسطب ميل من محيط لا شاطئ له . ومن وسط البحر حوّل بيب المسكين رأسه الاسود الهش المعقوص نحو الشمس ، طريح موج آخر وحيداً ، وان كان أسمى الطريحين وأشدّها لمعاناً .

إذا كان الجو ساكناً كانت السباحة في المحيط الرحب سهلة على السباح الدرب ، كالركوب في عربة في الربيع على البر . إلا ان الشعور بالوحدة الموحشة لا يطاق ، يا لله ! من يدري كيف يكون الانطواء الذاتي الحادّ في قلب تلك الأبعاد القاسية التي لا قلب لها . تأملوا البحارة حين يستحمون في هدأة الجو في رحبة البحر ، تأملوا كيف يمشبون أيديهم في سفينتهم ولا يبارحون جوانبها .

أترى اسطب خلّى ذلك الزنجي الصغير المسكين يواجه مصيره حقاً ؟ كلا ، بل انه لم يقصد ذلك على الاقل . كان على أثره قاربان وظن دون ريب أنها سيسرعان الى بيب ويلتقطانه ، هذا مع ان تعريض المحذفين انفسهم للتهلكة بسبب من جبن او هلع أمر لا يظهره الصيادون دائماً في مثل هذه الاحوال ، ومثل هذه الاحوال تعرض على غير قلة . ويكاد الناس يجمعون في حرفة الصيد على ان من يسمى جباناً يقابل بالمقت الصارخ الذي يقابل به الجبان في الأساطيل الحربية والجيش .

ولكن اتفق ان هذين القاربين رأيا فجأة حيتاناً قريبة من أحد الجانبين فاستدارا دون ان يريا بيب ، وأخذا يطاردان الحيتان ، وأصبح قارب اسطب عندئذٍ نائياً ، وكان هو وملاحوه متهممين عامدين نحو الحوت ، فبدأ أفق بيب المستدير ينداح من حوله وينبسط على نحو تاعس . وبحض المصادفة أنقذته السفينة نفسها أخيراً . ومنذ ذلك الحين أصبح الزنجي الصغير أبله مروراً ، او هذا هو ما قالوه فيه على الاقل . لقد ردّ البحر جسده المحدود في سخرية ،

ولكنه أغرق اللامحدود من روحه وان لم يفرقه اغراقاً تاماً . بل أوتر ان أقول انه انساق حياً الى الاعماق العجيبة حيث أشكال غريبة من العالم الاولي العاري تنساب يمنة ويسرة أمام عينيه الشاخصتين . واذا الحكمة، ذلك الانسان البحري البخيل ، قد فتحت له كنوزها المكنوزة، وبين ابعاد الخلود الجذلة التي لا قلب لها ولا تشيخ أبداً رأى بيب الحشرات المرجانية الكثيرة التي حلت فيها الألوهية ، والتي تخرج من جسد الماء وتدفع الأفلاك الهائلة . رأى قدم الاله على دواسة الحياكة في المنسج وناجاها . ومن ثم دعاه رفاقه مجنوناً . وجنوت الانسان لدنيّة السماء . فاذا انخلع عن العقل وصل الى الكشف السماوي الذي يبدو في نظر العقل هذياناً وجنوناً ، وسواء أكان ذلك لخير او لشر فانه يشعر أنه كالإله لا يبالي ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

أما فيما تبقى فلا تعنفوا كثيراً في لوم اسطوب . فشل هذا أمر مألوف في حرفة الصيد ، وسوف أقص عليكم في سياق قصتي هذه ما أصابني انا من شعور بالضياح والخذلان .

عصر الذاكرة الشخصية

كلّف حوت اسطب غالباً ولذلك جرّ الى جانب الباقوطة وجرت عليه عمليات التقطيع والرفع التي وصفت من قبل حسب نظام لا يختل حتى لقد تم استخراج ما في دن هيدلبرج او « دنيا الحوت » .

وبينا كان بعض الرجال منهمكاً في هذه المهمة الاخيرة كان آخرون يعملون في جرّ البراميل الكبرى حالماً تملأ بالزيت ، وحين يحل الوقت الملائم فان هذا الزيت يدبر بعناية قبل ان يذهب الى مصانع التصفية وهي ما سنتحدث عنه عما قليل .

كان الزيت قد برد وتكورت فيه البلورات حتى انني حين جلست امام حوض كبير منه (كأنه حمام قسطنطين) انا وعدد من الآخرين ، وجدته قد تجسد كتلاً تتدحرج هنا وهناك في القسم السائل منه . وكانت مهمتنا ان نعصر تلك الكتل حتى تصبح سائلة ، مهمة عذبة دهنية ! لا عجب ان كان هذا الزيت في الايام الخوالي دهاناً للزينة اثراً . اي منظّف ! اي مزيّن ! اي ملطّف ! اي مهدى لذيد ! بعد ان وضعت يديّ فيه بضع دقائق احسست اصابعي كأنها سملك الانكليس فقد بدأت تتلوّى وتتمعج .

كنت اجلس على الدكة متقاطع الرجلين في ارتياح ، بعد الانتهاء المرير عند الدولا ب الرافع ، تحت سماء ناعمة زرقاء ، والسفينة تحت شراع مسترخٍ تنساب

في جلال ؛ كنت اغسل يدي بين تلك الكرات الناعمة اللطيفة من تلك الانسجة المنقّاة ، التي تحاك في خلال ساعة او تكاد ؛ كانت تتعلق تحت اصابعي وتمجّ كل خصبها كما تدفق الاعناب الناضجة خمرها ؛ كنت استنشي ذلك العطر الخالص الذي لم تشبه سائبة - حقاً وصدقاً - كأنه رائحة البنفسج في الربيع . أصدقكم القول انني عشت لحظة وكأني في حقل مسكيّ ؛ نسيت كل شيء عن قسمنا المفزع الذي اقسمناه ؛ في ذلك الزيت الذي لا يحده تعبير غسلت من القسم المعقود يديّ وقلبي معاً ؛ لكدت أو من بالاسطورة البراقليسية القديمة التي تقول ان زيت العنبر ذو فضل فذ في تخفيف حدة الغضب ؛ حين كنت أستحم في ذلك الحمام شعرت ، شعوراً سواوياً - بأني بارىء من كل نية سيئة او من كل نكد او حقد او اي شيء من ذلك .

عصراً ! عصراً ! عصراً ! طوال الصباح كله . عصرت ذلك الشحم حتى كدت أدوب فيه ؛ عصرت ذلك الشحم حتى استولى عليّ نوع فذ من الجنون ، ووجدتني اعتصر - دون ان ادري - ايدي زملائي العاملين معي في الحوض ، ظاناً ان ايديهم كرات لطيفة . ولتد هذا العمل فيّ شعوراً فياضاً ودياً حبيباً متحبباً حتى انني في النهاية اصبحت اشد على ايديهم وانظر في عيونهم في حنان كأنني اقول لهم : آه يارفاقي الاعزاء لم نظل بعد اليوم نستطعم اي صور الجفاء الاجتماعي او نتعرف الى اقل الحسد او نكد الطبع ! هيا بنا نشد على ايدي بعضنا بعضاً ، لا بل نعتصر انفسنا بعضها في بعض ، لنعتصر انفسنا جميعاً نحن الأكدميين في حليب اللطف الوديع وزيته .

ليتني استطعت ان اظل اعتصر ذلك الشحم الى الابد ! اذ دلتني التجارب الكثيرة الطويلة المكرورة ان المرء في كل الاحوال يجب ان يطمئن في آخر الامر من خياله الواهم الذي يزين له ان الغبطة امر ميسور ؛ او على الاقل ان ينقل هذا الخيال عنها الى مجال آخر ، عليه ان لا يطلب الغبطة في شئون الفكر او الخيال

وانما يطلبها في الزوجة والقلب والفراش والمائدة والشرح والموقد والريف؛ ومذ ادركت ذلك كله اصبحت على استعداد لحالة الاعتصار ابدأ . وفي تخيلاتني عن رؤى الليل رأيت صفاً طويلاً من الملائكة في الفردوس وفي يد كل ملك منهم جرة من زيت حوت العنبر .

* * *

يحسن بي ان أحدثكم، في معرض حديثي عن زيت حوت العنبر، عن اشياء ذات صلة وثيقة به، تعرض في اعداد حوت العنبر لاعمال الاذابة والتصفية .

يجيء اولاً ما يسمى « الردهة البيضاء » وتؤخذ من الجزء المستدق من الحوت ومن الاجزاء الاكثر سمكاً في شطيرتي ذنبه؛ وهي صلبة متينة ذات ألياف متعقدة — حزمة من العضل — ولكنها مع ذلك تحتوي بعض الزيت، وبعد ان تفصل هذه « الردهة البيضاء » عن الحوت تقطع في مستطيلات يمكن نقلها قبل ان تذهب الى المفرمة، وهذه المستطيلات تبدو كأنها قطع من رخام بر كشير .

اما « حلاوة البرقوق » فهو الاسم الذي يطلقونه على نوع من المزع من لحم الحوت، تظل عالقة هنا وهناك ببطانية الشحم وكثيراً ما تشاركها دهنيته الى حد غير قليل . وهذه « الحلاوة » شيء منعش بهيج جميل الناظر، وهي — حسبما يوحى اسمها — ذات صبغ بالغ الخصب والبقع، وقاعدتها ثلجية ذهبية مولعة، منقطة ببقع من اعتم لون قرمزي وارجواني، انها برقوق من اليواقيت في صور من البرتقال . وقد ينهك العقل عن اكلها فلا تكاد تملك نفسك دون ذلك، واني لاعترف اني تسالت خلف الصاري الامامي لاجرب طعمها، واذا ذقتها تصورت ان مذاقها يمكن ان يكون كمذاق شريحة لحم ملكي انتزعت من فخذ لويس السمين اذا افترضت انه قتل اول يوم بعد موسم صيد الغزلان، وان ذلك الموسم عينه كان معاصراً لقطاف جميل غير عادي من الكروم في مقاطعة شبنانيا .

وهناك مادة اخرى فريدة غاية في تفردھا، تبرز خلال هذا العمل ولكنني احس بالحرج من ان اصفھا وصفاً كفاء بتحديدھا ؛ يسمونها «الردغية» ، وهو اسم من وضع الحواتين وينطبق على طبيعة تلك المادة فهي ردغية نشاشة غروية يقصر عنها التعبير ، واكثر ما توجد في براميل الزيت بعد العصر الطويل وما يتلوه من تعبئة ، وانا اراها الاغشية الرقيقة المدهشة في رقتها، المتمزقة التي تكون في القحف، وقد تضاممت والتحمت .

«والغري» كلمة صالحة في حال الحوت الاثين ولكن يستعملها احياناً صيادو حوت العنبر، وهي تدل على مادة سوداء لزجة غروية تنزع عن ظهر حوت جرينلاند او الحوت الاثين ، وكثير منها يغطي قمم تلك النفوس المتدنية التي تذهب لصيد ذلك اللويثان المهيمن .

ثم النتاش : وهي لفظة ليست من صميم معجم التحويت ولكن اذا استعملها الحواتون اصبحت كذلك، والنتاش لدى الحوات شريحة قصيرة ركيئة من مادة ليفية تقطع من الجزء المستدق من ذنب الحوت ومعدل سمكها بوصة واحدة، اما سائرھا فيكون في حجم الجزء الحديدي من الفأس، فاذا حركت حداثھا على ظهر السفينة الزيتي عملت عمل المِكشَط الجلدي الذي تحت به بقايا الدهن والشحم واذا دلكت بها متلطفاً كشطت كل زهومة عالقة ، كأنھا تفعل ذلك بقوة السّحر .

ولكن خير طريقة تعلم بها جميع هذه المسائل الخفية هي ان تهبط حالاً الى غرفة الشحم وتتحدث حديثاً طويلاً الى نزلاتها . لقد قلنا من قبل ان هذا المكان هو الموضع الذي تتسلم فيه قطع «البطانية» حين تنزع وتسلخ عن الحوت، وحين يجيء الوقت الصالح لتقطيع محتوياتها تصبح هذه الغرفة مشهد رعب لدى كل مبتدىء وبخاصة في الليل، وقد تركت على احد الجوانب فسحة يضيئھا قنديل

باهت ، فارغة ليحتلها العمال ، وهم عادة يذهبون اثنين اثنين احدهما يحمل حربة وخطافاً والآخر يحمل مجرفة . وحربة التحويت تشبه سلاحاً للتخزين يستعملونه في الفرقاطة ويسمونه حربة ايضاً. اما الخطاف فيشبه صنارة القارب، وصاحب الخطاف يعلنى خطافه بقطعة من الشحم ، ويحاول ان يحول دون انزلاقها، بينما السفينة تتأرجح وتتأيل . وفي الوقت نفسه يقف صاحب المجرفة على القطعة نفسها فيجزئها عامودياً في قطع كبيرة يستطاع حملها . وهذه المجرفة حادة بقدر ما يستطيع المسنّ شحذها ويكون صاحب المجرفة حافي القدمين، وقد ينزلق الشيء الذي يقف عليه احياناً دون ان يستطيع تثبيته، فهل تستغرب كثيراً ان يقطع احد اصابع قدميه او اقدام مساعديه ؟ ان اصابع الرجلين قليلة لدى رجال غرفة الشحم المحربين .

الطرازك^١

لو أنك خطوت على ظهر الباقوطة في لحظة حرجة بعد صلاة الجنازة على ذلك الحوت ، ولو تمشيت حتى بلغت قريباً من الدولاب الرافع ، فأنا على مثل اليقين أنك كنت ترى ، بقسط غير قليل من الفضول ، شيئاً غريباً لغزياً بالغ الغرابة ، تراه هنالك وقد تمدد طولاً على المصارف اليمنى . ولو أنك شهدت النافورة العجيبة في رأس الحوت الضخم ، او ضخامة فكه السفلي الذي يتحرك على غير عقب ، او المعجزة الماثلة في ذنبه المنتظم ، لم يدهشك أحد هذه الامور كما تدهشك التاحة عابرة ترى فيها ذلك المخروط الذي لا تجد له تعليلاً ، أطول من أطول رجل كنتوكي ، قطره عند القاعدة يقارب القدم ، أسود حالك السواد مثل يوجو ذلك الصنم الابنوسي الذي كان يتعبد له كويكوج . والحق أنه صنم او قل كان يشبه الصنم في الايام القديمة كذلك الصنم الذي وجد في الحدائق السرية التي كانت تملكها الملكة معكة في يهوذا ، وبما انها كانت تعبدته فقد خلعها ابنها آسا من الملك وقطع معبودها وأحرقه لاطهار مقته له في وادي قدرون ، حسبما قص علينا ذلك سفر الملوك الاول في الاصحاح الخامس عشر ، على نحو مبهم .

تأمل البحار الذي يسمونه « الفرّام » ، يأتي عامداً ومعه اثنان يساعدانه ، ويحمل « المعظّم » كما يسميه الملاحون ، ويترنح تحته وظهره محني ويمضي متثاقلاً كأنه جندي يحمل رفيقاً له سقط ميتاً في الميدان . ثم يمدّه على ربعة المنارة ويأخذ بازالة اهابه الاسود عنه على نحو أسطواني مثلاً يسلخ الصياد الافريقي

١ Cassock وهو رداء القسيس .

جلد الحية الكبيرة . فاذا فعل ذلك قلب الجلد مثلما تقلب رجل السروال فطسها ما امتدت حتى يجعل قطرها ضعفي ما كان ، وأخيراً يعلقها بمدودة على الحبال كي تجف ، وبعد قليل ينزلها ويزيل منها نحو ثلاثة أقدام من جهة الطرف المستدق ، ثم يثقب فيها شقين لدخول الذراعين في الطرف الآخر ثم ينساب فيها طولاً . وعندئذ يقف « الفرّام » أمامك وقد ارتدى ما تتطلبه شعائر حرفته من زيّ كهنوتي . ولا أحد من أبناء مذهبه يعرف متى اتخذ هذا الزيّ ، إلا أنه الرداء الوحيد الذي يقيه وقاية كافية حين يذهب في اداء ما تتطلبه وظيفته من مهام .

وتشمل تلك الوظيفة فرم القطع الكبيرة من الشحم لتوضع في المراحل ، وهو عمل يقوم به « الفرّام » فوق وضمّ خشبي في شكل حصان قد غرس من آخره في هيكل السفينة ، وتحت برميل واسع تسقط فيه القطع المفرومة سريعاً كأنها صفحات تسقط عن منصة خطيب سابح في ملكوت الغيب . رجل يلبس الزيّ الاسود الوقور وقد وقف على منبر سام وأكب على صفحات التوراة ، ما أجدر هذا الفرّام ان يكون مرشحاً لرئاسة الاساقفة ، ما أحراه ان يكون فتى في حاشية البابا * !

* صحائف التوراة ! صحائف التوراة ! تلك هي الصيحة الراسخة التي يرسلها الضباط الى الفرّام ، وهي تحثه على ان يكون شديد العناية فتحي القطعة أرق ما تكون ، فبهذا يمكن الاسراع في غلي الشحم ، وزيادة الكمية المأخوذة منه زيادة ملحوظة وربما أعان ذلك على تحسين نوعه .

معامل التصفية

تتميز الحوالة الامريكية تميزاً ظاهراً بما فيها من معامل تصفية فضلاً عن ان قواربها تكون مرفوعة . فهي تقدم للناظر اغرب شذوذ تقع عليه عيناه في صورة مبنى مرصوص قوي مجاور للخشب والقنب ، ومنها جميعاً تتكون السفينة كاملة ؛ وكأنما نقل اليها من الحقل الفضاء أتون آجر وجعل فوق ألواحها .

وتقع معامل التصفية بين الصاري الامامي والصاري الرئيس وهو اوسع جزء في ظهر السفينة ، والاشباب تحتها ذات قوة متميزة صالحة لحمل ثقل من كتلة صلبة من الآجر والملاط تبلغ نحو عشرة أقدام طولاً في ثمانية عرضاً في خمسة ارتفاعاً . ولا ينفذ الاساس في ألواح الظهر غير ان المبنى مؤمن الثبات على السطح بزوايا ثقيلة من الحديد تطوقها من جميع جوانبها وتثبتها بالدرر الراسخة في الخشب . اما حوافها فانها محفوفة بخشب وعند القمة تغطيها تماماً فوهة واسعة منحدرية مسدودة ، فاذا رفع سدادها ظهر مرجلان من مراحل التصفية ، وكل واحد منها يتسع لعدة براميل . فاذا لم يكونا في حال استعمال ظللاً نظيفين على نحو فذ . واحياناً يجليان بحجر الصابون والرمل حتى يلتمع داخلها كأنها قدحاً فضة يتخذان للشراب . ويندس فيها في نوبات الحراسة الليلية بعض شيوخ الملاحين الأوغاد ويتطوون طلباً لسنة من نوم . وحين يستخدم الرجال في « تببيض » المرجلين وفي كل مرجل رجل ، تجري بينها وهما متصاقبان مناجيات بأسرار كثيرة فوق الحوافي الحديدية ؛ وهذا ايضاً مكان صالح للتأمل الرياضي العميق ، ففي مرجل التصفية الايسر بالباقوطة وحجر الصابون يلتف دائراً من حولي

بنشاط، خطرت لي اول مرة بطريقة غير مباشرة حقيقة فذة في الهندسة وهي ان جميع الاجسام التي تنساب على قوس، كحجر الصابون الذي استعمله مثلاً، ستسقط من اية نقطة في الوقت نفسه بالضبط .

فاذا أزيل لوح النار من امام معامل التصفية، انكشف المبنى العاري من ذلك الجانب وقد نفذت فيه فوهتان حديديتان للتناير تحت المراجل مباشرة، وقد نصب على هاتين الفوهتين بابان ثقلان من حديد، ويحال بين حرارة النار الشديدة وبين الوصول الى ظهر السفينة بواسطة حوض ضحل يمتد تحت جميع السطح الذي يحدق بالمعامل، ويظل هذا الحوض يد بالماء بسرعة كسرعة تبخره عن طريق نفق نافذ من الخلف، وليس هناك مداخن نافذة الى الخارج، وانما تنفتح مباشرة من الجدار الخلفي؛ وهنا لنعد لحظة .

حوالي الساعة التاسعة ليلاً بدأت معامل التصفية في الباقوطة عملها، اول مرة في هذه الرحلة الراهنة، وكان قد عهد الى اسطب ان يشرف على العمل .

« أنتم جميعاً مستعدون هناك ؟ انزعوا سداد الكوّة، وابدأوا ؛ وانتم ايها الطباخ، أشعل النار » . وكان ذلك أمراً سهلاً لان النجار كان يلقي النشارة طوال الرحلة في الأتون؛ ولنقل في هذا المقام ان اول نار توقد في معامل التصفية في سفرة التحويت لا بد ان تمدّ بالخشب بعض الوقت، ثم لا يستعمل الخشب ابداً الا ان يكون وسيلة لاشعال الوقود الرئيسي في سرعة . وفي ايجاز اقول ان الشحم الهش المتكشمش الذي اصبح يسمى المزّع او الأرب ما يزال فيه قسط وفير من خصائصه الدهنية، وهذه المزّع تتخذ وقوداً للنيران ، وهكذا يد الحوت النيران بوقوده ويحترق بلهيب جسمه كأنه شهيد ألقى في النار فهو يغذيها بدمه، او كأنه كاره للبشر فهو يستهلك ذاته في أتون كرهه . ليت الحوت يستهلك دخان ذاته، لان دخانه مرعب اذا استنشحي، ولا بد للمرء من ان يملأ به صدره، وليس هذا فحسب بل عليه ان يعيش فيه بعض الوقت؛ وله

رائحة هندية غريبة لا توصف كالرائحة التي تكمن في جوار محارق الجثث .
رائحته كرائحة الجانب الايسر من يوم الحساب ، وهي حجة تشهد بهول جهنم .

وعند منتصف الليل كانت المعامل في أقصى نشاطها، فقد تخلصنا من جثة الحوت، وأبحرنا، والرياح رخاء وظلام المحيط الموحش متراكم حالك، ولكن ألسنة اللهب الحادة لعقت ذلك الظلام، وكانت بين الحين والحين تمتد متطاولة من الوقود السناجي وتضوىء كل حبل عالٍ من حبال السفينة كأنها النار اليونانية المشهورة . ومضت السفينة اللاهبة في طريقها كأنما قد فوض اليها القيام بعمل انتقامي؛ كذلك السفن الصغيرة المحملة بالقار والكبريت، سفن كاناريس الهيدري الجسور وقد انطلقت في منتصف الليل من موانئها جاعلة صفحات اللهب عوضاً عن الاشرعة، انقضت على الفرقاطات التركية وطوتها في احشاء النيران^١ .

وحين أزيل السداد عن فوهة المعامل، أصبح امامها موقد واسع ، يقف عنده الزرقون الوثنيون الذين يشبهون التتر في صورهم، وهم دائماً الوقادون في سفن التحويت، وفي أيديهم سفايد ضخمة مشعبة بها يلقون في المراحل السامطة كتلاً من الشحم ذات أطيط او يؤرثون بها النيران تحت المراحل حتى تنطلق أفاعي اللهب متلوية متحوّية من الابواب وتنهس اقدامهم . والدخان يتحشد منطلقاً دفعاً دفعاً في لون كدري^٢ ، وكلما مالت السفينة ميلاً مال معها الزيت المغلي^٣، وبدا كأنه ذو لهفة ليثب في وجوههم، وفي مقابل فوهة المعامل على الجانب الآخر من الموقد الخشبي الوسيع يقوم الدولااب الرافع، ويتخذ مرتفعاً او مضطجماً؛ هنالك يحوم الحراس حين لا يكون لديهم عمل آخر وهم يحقدون في

١ قسطنطين كاناريس (١٧٩٠ - ١٨٧٧) هاجم في ١٨-١٩ حزيران ١٨٢٢ السفن التركية، والهيدري نسبة الى Hydra التي اتخذها الثوار اليونان مركزاً لهم .

حمره النار اللاهبة حتى تحس أعينهم أنها تلذعت في محاجرها . وعلى ضوء اللهب المتقلب المتموج في المعامل ظهرت - ظهوراً غريباً - ملامح أولئك البحارة الصحم وقد سودها الدخان والعرق، وتبدت لحاهم المتلبدة، على مفارقة ساطعة ازاء المعان الوحشي في أسنانهم ؛ وقص احدهم على الآخر قصة مغامراته المستهزئة، وحكوا حكايات الرعب في كلمات ضاحكة، وتموج ضحكهم الوحشي صعوداً من افواههم كأنه ألسنة اللهب في الأتون، وفي الطليعة وقف الزراقون يحركون اجسامهم وفق تحريكهم للاشواك الضخمة المشعبة والمغارف ؛ كل هذا والرياح تجأر والبحر يتوثب والسفينة تئن وتغوص، ثم رغم ذلك تطلق جهنم التي في جوفها بعيداً بعيداً في حلقة البحر والليل، وتعلك اللجام العظمي الابيض في فمها ، باستخفاف، وتبصق من حولها في جميع الجهات ، باستهتار : هذه الباقوطة المشحونة بالمتوحشين ، الحملة بالنار وبجثة تحترق، الغائصة في حلقة الظلمات بدت وكأنها الصنو الماديّ لروح آمرها المجنون المتشبث في جنونه بغاية لا يحيد عنها .

كذلك تبدت لي حين وقفت عند دفتها وظللت الساعات الطوال أوجه في صمت تلك السفينة النارية في طريقها على الماء وكان الظلام حينئذٍ يلغني انا أيضاً بردائه ، فاستطعت ان أستبين من موقعي ما يسمح فيه الآخرون من حمرة وجنون وصفرة كالحة . واسترسل أمامي منظر الاشكال الشيطانية ، وهي تثب ونصفها في الدخان ، ونصفها الآخر في النيران ، فولدت رؤيتها في روعي رؤى مماثلة حالما بدأت استسلم لذلك النعاس الذي لا أجد له تعميلاً ، النعاس الذي يعقد أجفاني كلما كنت عند الدفة في منتصف الليل .

لكن في تلك الليلة بخاصة حدث لي شيء غريب (ومنذ ذلك الحين ظل لغزاً لا أستطيع تفسيره) ، أجفلات من نومة غراري وانا واقف فاستيقظ شعوري على شيء خاطيء فادح خطؤه، كنت أستند بجنبي على الحبل الذي يدير السكان، وهو

من عظم فك الحوت، فأفقت على لطمة منه، وعلى طنين الأشرعة المهمهم في أذني وقد بدأت الريح تهزها؛ ظننت عيني مفتوحتين، وفي شيء بين الوعي والنام وضعت أصابعي على الاجفان وباعدت ما بين الجفنين لأفتحهما، ورغم ذلك كله لم أستطع ان أرى أمامي بوصلة أتوجه بحسبها، وان بدا لي أنني كنت أنظر الى اللوحة قبيل دقيقة واحدة، على ضوء مصباح صندوق البوصلة الدائم الذي يلقي عليها نوره؛ لم يبد أمامي شيء سوى ظلمة سوداء لامعة تزداد ويلاً بومضات من الاحمرار، وفي أم رأسي وجدتني أتصور أنه مهما يكن الشيء الذي أقف عليه سريعاً مندفعاً فإنه غير عامد الى ميناء أمين أمامه، بمقدار ما هو هارب من كل الموانئ الامينة من خلفه. وتلكني شعورٌ حيران متببس كأنه الشعور بالموت. قَبَضْتُ يداي في تشنج على الخلل الذي يوجه السكان وأنا أتحيل تخيل الملمات ان ذلك الخلل قد قلب، بطريقة سحرية؛ رباه! ما بالي ماذا جرى لي؟ مه! ها أنا في تلك الذومة القصيرة حوّلت وجهي فأصبحت أواجه مؤخرة السفينة وأصبح ظهري نحو مقدمها يواجه البوصلة، واستدرت في لحظة في الوقت المناسب لكي أمتنع السفينة من ان تطير في قلب الريح، ولو فعلت فربما انقلبت؛ ما اكبر سروري وما أشد امتناني للخلاص من الهلاس المرور في ذلك الليل، والنجاة من تلك السانحة القاتلة التي كانت ستجعلنا تحت رحمة الريح!

يا ابن آدم! لا تحرق طويلاً في صفحة النار، وإياك ان تحلم ويدك على الدفة، لا تدر ظهرك للبوصلة، تقبل أول غزوة يغمزك بها الخلل الجاذب، لا تصدق النار المصطنعة حين تجعل حررتها كل شيء يبدو شاحباً خيفاً؛ غداً تحت ضوء الشمس الاصيلية تصبح السماوات صافية، ومن كانوا يتألقون كالشياطين في ضوء اللهب المتعرج سيبرزهم الصباح في وضع آخر، أحبّ وألطف. القنديل الحق - الفجر الصادق - هو تلك الشمس المجيدة الذهبية الجذلى، وما عداها فإنه فجر كاذب.

ومع ذلك فان الشمس لا تخفي المستنقع المشثوم في فرجينيا ، وكامبانيا الملعونة في روما ، والصحارى المترامية وملايين الاميال من الجذب والحزن الواقعين تحت ضوء القمر . الشمس لا تخفي المحيط ، ذلك الجانب المظلم من الارض وهو يبلغ ثلثي مساحتها ؛ ولذلك فان الانسان الذي كتب عليه الفناء ، الانسان الذي يستطعم السرور اكثر من الـأسى ، ذلك الفاني ، لا يمكن ان يكون صادقاً مع ذاته - انه غير صادق غير راقٍ في التطوّر . والامر في الكتب كذلك . أصدق الرجال « رجل الاحزان » ، وأصدق الكتب سفر سليمان ، وفولاذ الحزن الرقيق المطرق هو سفر الجامعة : « كل ذلك باطل » - كله أجمع ؛ ان هذا العالم العنيد لم يقع بعد على حكمة سليمان ، وهي حكمة غير مسيحية . ولكن من يتفادى المستشفيات والسجون ويسرع وهو يعبر المقابر ويؤثر ان يتحدث عن الاوبرا لا عن جهنم ويدعو كوبر ويونج وبسكال وروسو مساكين تعساء من المرضى وفي أنشاء لهو يحلف برأباليه انه من العقلاء وانه لذلك مفراح جذل - فمثل ذلك المرء ليس هو الذي يصلح ان يجلس على أحجار القبور ويشق ذلك القالب الرطب المحضوضر بعمق كعمق حكمة سليمان المتأملّة التي لا يسبر غورها .

ولكن سليمان نفسه يقول (أمثال ٢١ ، ١٦) : « الرجل الضال عن طريق المعرفة يسكن (اي وهو ما يزال حياً) بين جماعة الأخيلة (يعني مجتمع الموتى) . لا تسلم نفسك الى النار لئلا تقلبك وتميتك مثاماً فعلت بي مؤقتاً . ثمة حكمة هي ويل ولكن ثمة ويلاً هو جنون ؛ وفي بعض الارواح نسر (كنسر كاتسكل) يستطيع ان يخوت في أشد المنهقات ظلاماً وأبّ يخلق صاعداً منها حتى لا يحقه البصر في مجال الشمس ؛ ولو أنه ظل في المنهق مدوماً الى الابد ، فان ذلك المنهق ، انما يقوم بين الجبال ، فالنسر الجبلي في أدنى هويّه أعلى من سائر الطيور التي على السهل وان ارتفعت في الافق محلقة .

لو أنك هبطت من معامل التصفية في الباقوطة الى منارتها حيث ينام الحراس الذين أدّوا نوبتهم لظننت لحظة ، او كدت تظن ، أنك تقف في ضريح منور دفن فيه ملوك شرعيون ومستشارون. هنالك يستلقي الملاحون في أقيبتهم الخشبية المثلثة الاشكال ، وكل واحد منهم كأنه صمت محفور في موضعه ، وعلى رأسه المقلّس يلتمع عشرون مصباحاً .

الزيت في السفن التجارية نادر لا يناله البحّار وكأنه أندر من حليب الملكات ، وقد كتب على ذلك البحار ان يلبس في الظلام ويأكل في الظلام ، ويتعاشر في الظلام نحو فراشه ، أما الحوات فانه يعيش في الضوء لانه يفتش عن غذاء القناديل ، فهو يجعل من سريره مصباح علاء الدين ويلقي بنفسه فيه حتى ان هيكمل السفينة لا يزال يؤوي ضوءاً في أشد الليالي سواداً كأنها القار .

تأمل بأية حرية يأخذ الحوّات ملء يده من المصابيح — وعادة لا تكون إلا زجاجات وقوارير قديمة — الى المبرد النحاسي في معامل التصفية ويلؤها هنالك مثلما تملأ أباريق الجعة من الدن ، وهو يوقد أنقى زيت في حالته الخام اي قبل ان يفسد ، وذلك الزيت سائل لا تعرفه المبتكرات الشمسية او القمرية او النجومية على البر ، عذب كأنه زبدة الريف التي تجيء في بواكير الربيع . انه ليذهب متمسكاً زيتته لكي يكون على ثقة من أنه أصيل طازج مثلما يتلمس المسافر في السهوب صيداً يتخذه عشاء .

التعبئة والتفريغ

قد قصصنا عليك كيف 'يرى' اللويثان العظيم من رأس الصاري عن بعد سحيق ، وكيف يطارد فوق المروج المائية ويذبح في وديان البحر ، وكيف يجر ، ويجتز رأسه وكيف (قياساً على المبدأ الذي يخول الجلاد في العصور القديمة ان يأخذ ملابس القتل الذي قطع رأسه) تصبح عباءته المحشوة ملكاً لجلاده ، وكيف يحكم عليه بالنزول في المراحل ، في الوقت المناسب ، وكيف يمر زيته وعظمه مثل شدرخ وميشخ وعبدنفو الى النار دون ان يصيبه أذى^١ ، ويتبقى عليّ ان أجيء بالفصل الاخير لهذا الجزء من الوصف بأن أرتل - او ان استطعت ان أغني - تلك العملية الرومنطيقية من تعبئة زيته في البراميل ، وحشدها في العنبر حيث يرجع الحوت مرة اخرى الى الاعماق المألوفة ، منزلقاً دون مستوى السطح كما كان يفعل من قبل ، ولكنه وأسفاه لن يبرز مرة أخرى ويرسل نفثاته أبداً !

ويؤخذ الزيت وهو ساخن كشراب البنش الساخن ويعبأ في الخزانات التي يتسع الواحد منها لستة براميل ، وبينما تتطوح السفينة وتأرجح يمنة ويسرة في البحر عند منتصف الليل تتثنى الخزانات الضخمة وتنقلب رأساً على عقب

١ اشارة الى ما ورد في سفر دانيال عن هؤلاء الثلاثة وكيف رفضوا السجود لتمثال الذهب الذي نصبه نبوخذنصر ، فأمر بهم الى الأتون فألقوا فيه فخرجوا من النار دون ان تصيبهم بأذى (انظر الاصحاح الرابع من سفر دانيال) .

وأحياناً تهرب متزحقة — في خطر الانفجار على ظهر السفينة اللزج ككثير من الأجسام المتدحرجة على السطوح المائلة في البر حتى يتلقاها أحد الرجال ويوقفها عن تدحرجها ؛ ومن حول الاطواق تضي المطارق دقاً دقاً مها يكن عددها اذ كل بحار بحكم الوضع الراهن يصبح صانع براميل .

وعندما تعبأ آخر قطرة من الزيت ، بسعد وقت ، ويفتر كل شيء ، تفتح المنافذ الواسعة ، وتكشف أحشاء السفينة وتلقى الخزانات لتستقر في القاع — مستقرها الاخير — فاذا تم ذلك سدّت المنافذ وأغلقت كأنها صومعة قد بنيت من حولها الأسوار .

ربما كانت هذه الحادثة في صيد الحيتان من أبرز الحوادث في مهنة التحويت جميعاً: في أحد الايام تعج الألواح يجداول من الدم والزيت الناضرين ، وعلى الربعة المقدسة تكوّم كتل ضخمة من رموس الحوت دون احترام ؛ وتستلقي هنا وهناك خزانات ضخمة صدئة كأنها في ساحة مصنع للخمور ، ويصبغ الدخان المتصاعد من معامل التصفية هيككل السفينة بالسناج ، ويتنقل البحارة وهم قد تحضّبوا بالدهن والوضر ، وتبدو السفينة وكأنها اللويثان العظيم نفسه ، بينا العمال يصدرون في عملهم طنيناً يصمّ الآذان .

ولكنك تتلفت حولك بعد يوم او يومين وترهف سمعك في السفينة نفسها ، ولولا القوارب ومعامل التصفية التي قد تنبئك بما كان لحلفت جهد يمينك انك انما وقعت في سفينة تجارية وفيها رائس نظيف البزة ، مشهّر النظافة . ان زيت الحوت الخام ذو قدرة فذة على التنظيف ولهذا السبب لا يبدو ظهر السفينة ناصعاً مثلما يبدو بعيد ما يسمونه أعمال استخراج الزيت . ثم انهم يصنعون على التوّ من رماد الفضلات الحوتية المحترقة ماء رمادٍ قلوياً قوياً ، فاذا بقيت اية لزوجة من ظهر الحوت عالقة بالجانب فان ذلك الماء يستأصلها . وتضي الايدي نشيطة على جوانب

السفينة وهيكلها وتدلّ على أسجال الماء وتعمل فيها الماسح فتعيدها الى سابق نظافتها، ويزال السناج بالفرشة عن الحبائل الدنيا؛ وكل الادوات العديدة التي استعملت تنظف كذلك تنظيفاً دقيقاً وتودع في مواضعها، ويفرك غطاء الفوهة الكبرى ثم يوضع فوق معامل التصفية وبذلك يستر المراحل تماماً، ويودع كل خزان بعيداً عن الانظار، وكل الروافع تلف في زوايا خفية، وحين تحتتم هذه المهمة الحساسة بعون من جميع عصابة السفينة مجتمعين وفي وقت واحد، يتوجه البحارة الى الاغتسال ويغيرون ملابسهم من قمة الرأس حتى أخمص القدم وأخيراً يتوجهون الى الدكة الطهور ناضرين متألقين كأنهم عرسان برزوا لتوهم في أبهى زيّ وأجمل حلّة .

ثم يذرعون الألواح في خيلاء مثنى مثنى وثلاث ثلاث ويتحدثون في مرح عن القاعات والطنافس والسجاد والقماش الابيض الناعم، ويقترحون ان يفرشوا ظهر السفينة بالبسط، ويرون ان القمة لا بد ان يكون فيها مشاجب، ويقولون لا بأس بشرب الشاي في ضوء القمر على باحة المنارة . من القحة العارمة ان تلمح الى هؤلاء البحارة الذين يعبق بهم المسك عن الزيت والعظم والشحم، انهم لا يعرفون شيئاً عما تلمح اليه . هيا اذهب وهات لنا الفوط والمناشف !

لكن تأمل . في الأعالي هنالك ، عند رموس الصواري الثلاثة يقف ثلاثة رجال محلقين في حدة لعلمهم يرون مزيداً من الحيتان ، ولو أنهم أمسكوها للوثت هذا الاثاث الخشبي العتيق مرة أخرى ، وألقت على الاقل بقعة واحدة من الشحم في مكان ما ، أجل . بعد أعمال قاسية لا تفتر ولا يعرف فيها سبات وتستمر كذلك ستاً وتسعين ساعة دون انقطاع ، ما اكثر ما يخطو هؤلاء الملاحون ، من القارب حيث انتفخت أرساعهم من التجذيف على خط الصيد طوال اليوم ، منتقلين الى ظهر السفينة ليحملوا السلاسل الضخمة ويرفعوا الدولا ب الرافع الثقيل ، ويقطعوا ويؤربوا، أجل والعرق ينضح منهم، والدخان

يلفهم والنيران تلسمهم ، نيران شمس الاستواء وأتون معامسل التصفية ، ثم يذهبون في أعقاب ذلك كله وينهضون بأنفسهم أخيراً لتنظيف السفينة فيجعلون منها غرفة ناصعة لا بقعة فيها ؛ وما أكثر ما تفزع هؤلاء المساكين - وهم يزررون بنائق صداثرهم النظيفة - صيحة تقول : « ذاك هو ينفث » فيهبون سراعاً للقاء حوت آخر ويستأنفون العمل الماضي ويمضون فيه مرة أخرى . أو اه يا أصدقائي هذا شيء قاتل ! ولكن هذه هي الحياة ، اذ ما نكاد ، نحن الفنانين ، نستخلص بعد الكد والجهد من هذا العالم الجسم زيتة الثمين ثم ننظف أنفسنا من أوضاره في صبر مضنٍ ونتعلم كيف نعيش هنا في هياكل الروح النظيفة ، ما نكاد نفعل ذلك حتى يصيح بنا المنادي : « ذاك هو ينفث ! » - لقد انبثقت نفثات الشبح ، فاليه نبجر كي نكافح عالماً آخر ، ونتغلغل في الروتين القديم الذي تستدعيه حياة الشباب مرة أخرى .

آه يا للتناسخ ! أو اه يا فيثاغورس ! يا من مت منذ ألفي سنة في يونان المتألقة ، مت فاضلاً حكيماً وديعاً . لقد أبحرت معك الرحلة الأخيرة على طول ساحل بيرو ، وعلمتك انا الأحق ، انا الغلام الساذج الفج ، كيف تقتل حبلاً !

الدبلون او الدينار الاسباني

قبل هذا قصصت عليك كيف تعود آخاب ان يذرع الربعة خلف الدقل الاعظم ، مستديراً استدارة منتظمة عند كل طرف من الطرفين : عند صندوق الابرّة المغناطيسية والصاري الرئيس ، ولكن في غمار الاشياء الاخرى التي تستدعي ان اسردها لم أقل لك كيف تعود في بعض تلك التمشيات ، حين يكون اشد شيء استغراقاً في حاله ، ان يتوقف عند كل موقع من الموقعين بدوره ، ويشخص هنالك محققاً في ما يعرض لعينه تحديقاً غريباً ؛ وحين كان يقف امام صندوق الابرّة ، وقد حدّد طرفه في الابرّة ذات الرأس الدقيق في البوصلة ، كانت نظرتة تنطلق كالسهم مع الحدة الحادة التي ينطوي عليها هدفه . فاذا استأنف سيره توقف ثانية امام الصاري الرئيس ، وركز النظرة المحكمة على القطعة الذهبية المثبتة هناك ، وهو ما يزال يحمل مظهر التصميم النافذ الا انه يسوطه توقان وحشي ان لم نقل رجاء آمل .

و حين تحول ذات صباح ليمرّ بالدبلون « الدينار الاسباني » بدا وكأنه مجذوب المجذاباً طارئاً الى الاشكال والنقوش الغريبة المطبوعة عليه كأنما هو قد بدأ لأول مرة يؤول لنفسه ، على نحو ملثات مجنون ، المغزى الذي قد يكمن فيها . وفي الاشياء كلها مغزى كمين والا لكانت جميع الاشياء ذات قيمة هينة ، ولكان العالم المستدير نفسه لا يعدو ان يكون صفراً اجوف ، لا ينفع الا لبيع بالجملة ، كما تباع التلال حول بوسطن ، ليملاً ارضاً بوراً في نهر الهجرة .

كان هذا الدينار الاسباني من الذهب البكر الخالص اقتطع من جوف التلال الضخمة حيث تجري مياه كثير من الانهار - كنهر بقطولس^١ - شرقاً وغرباً على رمال حافلة بالتبر ، وقد ستر وسط كل ضرب من صدا المسامير الحديدية وزنجارة البراغي النحاسية ، الا انه ظل يحتفظ بلألائه الكيتوي لانه كان نائياً عن ان يس او ان يدنس بأي قدر او نجاسة . وقد وضع بين اشد الملاحين فظاظلة ، وكانت تمر به كل ساعة اخشن الايدي ، وخلال الليالي الطوال كانت تغلفه الظلمات الكثيفة التي قد تحجب كل تسلل وتلصص ، ومع ذلك فان كل شروق كان يشهده حيث تركته شمس الامس عند الغروب . ذلك انه ميز من اجل غاية محددة تبعث الرهبة ، ومن اجلها « كرس » وجوده . ومهما يكن البجارة زرافات ووحداً مستهترين في نظرتهم فانهم أولوه القداسة والاحترام اذ رأوا فيه طلسم الحوت الابيض ، وكانوا احياناً يتحدثون عنه في ليالي الحراسة المضنية ويتساءلون في دهشة من نصيب مَنْ سيكون في آخر الامر وهل يعيش من يناله لينفقه ابداً ؟

هذه العملة الذهبية الرفيعة من عملة امريكا الجنوبية انما هي كالمدايات التي تمثل تدوير الشمس ، والقطع الاستوائية التي تتخذ للذكريات الهامة ، فيها اشجار الكاكو وحيوانات الالباك والبراكين ، قد طبعت عليها في وفرة مترفة اقراص الشمس والنجوم ، فيها مناظر الكسوف والقرون رمز الوفرة ، واعلام كثيرة الالوان متموجة^٢ ،

١ هذا النهر ذكره هيرودوت وقال انه يحمل معه التبر في ولاية ليديا ويصب في نهر هرمس . واصبح النهر ذهباً خالصاً - في زعم الاسطورة - حين استحم فيه ميداس ، وقيل ان ثروة قارون جاءت منه .

٢ كل رمز يشير الى بلد : اشجار الكاكو (بوليفيا) ، الالباك (بوليفيا وبيرو) ، البراكين (جنوب بيرو وتشيلي) ، اقراص الشمس (الارجنتين) ، النجوم (بوليفيا والاكوادور) ، الكسوف (البرازيل) ، القرون (بوليفيا وبيرو) ، الاعلام (بيرو) .

حتى كأنما الذهب الغالي يكاد يستمد قيمة زائدة وألقاً اضافياً بمروره خلال دار السكة العجيبة، التي تحمل شاعرية اسبانية .

واتفق ان كان الدينار الاسباني مثلاً على وفرة هذه الامور فيه فعلى حافته المستديرة كتبت هذه الكلمات «جمهورية اكوادور : كيتو» اذن فهذا الدينار المتلألئ قد جاء من بلد مغروس في نصف العالم دون خط الاستواء، وباسمه سمي [لان اكوادور تعني الاستواء]، وسك في المنطقة الوسطى فوق جبال الانديز في ذلك المناخ السرمدي الذي لا يعرف خريفاً، وفي داخل هذه الجملة الدائرية ترى شبهاً بثلاث قمم الانديز، احداها يتصاعد منها لهب، وعلى الاخرى برج، وعلى الثالثة ديك يصيح . ويستدير فوق الجميع قوس يمثل قطاعاً من منطقة البروج مجزأة الاقسام، وقد أعلم كل برج برموزه، والشمس - وهي حجب الزاوية في المنظر - تهم ان تحل النقطة الاستوائية في برج الميزان .

كان آخاب يقف امام هذه القطعة النقدية الاستوائية، دون ان تمضي وقفته غير ملحوظة من الآخرين :

« هناك دائماً شيء عجرفي في قمم الجبال والابرار وفي سائر الاشياء الفخيمة الرفيعة، تأمل هذا . هذه ثلاث قمم مستكبرة كأنها الشيطان ؛ ذلك البرج الراسخ، ذلك هو آخاب، وذلك البركان الثائر، وهو آخاب، وذلك الديك الفائر الشجاع الجسور، ذلك هو آخاب ايضاً ؛ كل الثلاثة آخاب، وهذه القطعة الذهبية المستديرة انما هي صورة الكرة التي هي اكثر استدارة منها تلك الكرة التي تشبه مرآة الساحر في انها تحكي لكل امرئ على حدة صورة نفسه العجيبة ؛ ان من سألوا العالم ان يحلّ لهم سرّ الآلام الكبرى خرجوا بقليل من جدوى، فالعالم يعجز عن ان يفسر نفسه ؛ تصور هذه الشمس المحفورة على قطعة نقد تلبس وجهاً أحمر، تأملها، أجل، انها تدخل برج العواصف، تدخل المنطقة

الاستوائية، وقبل ستة اشهر كانت تدور خارجة من منطقة اخرى استوائية في برج الحمل . من عاصفة الى عاصفة ! ليكون الحال كذلك . من اللائق ان يعيش الانسان في الآلام ويعاني عند الموت سكراته ما دام يولد من بين آلام المخاض ! ليكون الامر كذلك ! هذه مادة قوية يفعل فيها الحزن والاسى فعلة ؛ ليكون الامر - اذن - كذلك ! »

وتم استاربك لنفسه وهو يستند الى حافة السفينة، « لا اظن أصابع حورية قد ضغطت على هذه القطعة الذهبية ، وانما يخالب الشيطان قد تركت عليها طوابعها منذ أمس . يبدو ان الرجل العجوز يقرأ كتابة بيلشاصر الرهيبة ^١ ، لم تأمل هذه القطعة النقدية معانينا ، ها هو قد هبط الى اسفل فلأقرأ ما عليها : وادي معتم بين ثلاث قمم جبارة تحتضن السماء كأنها الاقانيم الثلاثة متمثلة في رمز ارضي واه ؛ في وادي الموت هذا يطوقنا الله من كل ناحية ، وعلى جميع احزانتنا ما تزال شمس الحق تشرق هادياً ورجاء . فاذا أرخينا أبصارنا الى اسفل رأينا الوادي المعتم يبرز لنا ترابه المتعفن، فاذا رفعناها الى اعلى واجهت الشمس نظراتنا في منتصف المسافة، لتشجعنا وتهز أريحيتنا، لكن واهاً للشمس العظمى فانها غير ثابتة في مستقرها ولو اننا في منتصف الليل خطر لنا ان نسترق عزاء عذبا من لديها لطال ترقبنا دون جدوى ! هذه القطعة النقدية تتحدث بحكمة ولطف وصدق ولكنها تحدثني في أسى ؛ سأغادرها لثلاث تهزني الحقيقة فتكشف زيفي » .

وناجى اسطب نفسه عند معامل التصفية قائلاً : « ذلك هو المغولي العجوز ؛

١ هي : « منا منا ثقيل وفرسين » وهذا تفسير الكلام : منا : احصى الله ملكوتك وانهاه .
ثيل : وزنت بالموازين فوجدت ناقصاً ؛ فرسين : قسمت مملكتك واعطيت لمادي وفارس (دانيال
٥ : ٢٥ - ٢٨) .

كان يتأمل القطعة الذهبية، وها هو استاربك ينصرف ايضاً عنها وكلاهما يحمل وجهاً أستطيع ان أقول فيه انه قد يكون ممطوط «البوز» مطاً لا يتعدى تسع قامات . وكل ذلك من النظر الى قطعة من ذهب، لو كانت لديّ وأنا في «تلة الزوج» او في «ثنية كورلير» لما نظرت اليها طويلاً قبل ان انفقها . أف ! في رأي العاجز الضعيف اعتبر هذا شيئاً شاذاً ؛ لقد رأيت في رحلاقي دنانير ذهبية من قبل : دنانير اسبانيا القديمة ، ودنانير بيرو ، ودنانير شيلى ، ودنانير بوليفيا ودنانير بوبايان^١ ورأيت عدداً وفيراً من العملة البرتغالية الذهبية والعملة الاسبانية القديمة والعملة البرتغالية الذهبية التي تسمى «جو» وانصاف «الجو» وارباعه . فماذا في هذا الدبلون الاستوائي، ماذا فيه مما يعجب الرائي الى درجة ان يسلب ألباهم؟ ذلك الشيء هو الذي يسميه بودتش^٢ في «موجزه» باسم منطقة البروج ، والتقويم في القمرة يسميه كذلك ايضاً، سأجيء بالتقويم وسأعمل فيه يدي لاستخرج معنى من هذه الالتواءات الغريبة ها هنا مع «أجندة» مساشوست، مثلما سمعته يقولون ان الشياطين قد تستخرج بحساب دابل^٣. هيا نتبصر ما هنالك ! اشارات وعجائب، والشمس، الشمس بينها دائماً. ها . ها . ها هي هنا - ها هي جميعاً، جميعاً قائمة : الحمل والثور والجوزاء، هذه هي الجوزاء نفسها. حسنًا . والشمس تدور بينها، أجل ها هي على القطعة النقدية تعبر او تم عبور العتبة القائمة بين منزلتين من اثني عشرة منزلة قائمة في حلقة واحدة ؛ ايها الكتاب ! انك لتكذب ؛ الحق ايها الكتب انه يجب عليك ان تعرفي حدك، انت تعطينا الكلمات والحقائق العارية ولكننا نحن نملؤها بالافكار . الى هنا تبلغ تجربتي المتواضعة فيما يتصل بأجندة مساشوست وزيج

١ بوبايان : مدينة في كوليبيا .

٢ هو الرياضي الامريكي ثافنيل بودتش (١٧٧٣ - ١٨٣٨) نشر موجزاً في الملاحنة عام ١٨٠٢ .

بودتش وحساب دابل . اشارات وعجائب ، أليس كذلك ؟ ما اتعس ان لا يكون في الاشارات شيء عجيب ، وفي العجائب سرّ هام ! لا بد من مفتاح للسرقايم في مكان ما . مهلاً ، صه ! وحق جوبتر لقد وجدته ، انظر ايها الدينار الاسباني ان منطقة بروجك هي حياة الانسان في فصل واحد مستدير وسأقرأ هذا الفصل من الكتاب توّ . تعال ايها التقويم اليّ ، لنبدأ . ها هو الحمل ، كلب داعر يلدنا . ثم الثور ، يلزنا بقرنيه اول ما ينطح ، ثم الجوزاء ، التوأمان من فضيلة ورذيلة ، نحاول ان نبلغ الفضيلة فاذا السرطان يعترض ويجرنا الى الخلف ، وهنا — وقد تحوّل عن الفضيلة — أسد يزأر مستلقيًا في الطريق — يعض عضات منكرة ويلطم ، ماكرًا ، بمخلبه ، فننجو من شره وننادي السنبلة البكر العذراء اي اول حبّ لنا ، وتزوج ونظن اننا سنسعد وأيّ سعادة ! وفجأة يبرز الميزان ، فيزن السعادة ، فيجدها خفيفة ناقصة ، فنستشعر الاسف لذلك ، وحين يبلغ بنا الاسف الغاية ، رباه ! نطّ فجأة عندما تلدغنا عقرب في القفا ، فنأخذ في معالجة الجرح ، واذا السهام من كل صوب تمطرنا ؛ ربّ « القوس » يتسلّى ، وننزع السهام ، ونلتحي جانبًا فاذا بالجدي يبدو ، محدداً روقيه وينقض علينا نطحًا وطعنًا حتى ينكسنا رأسًا على عقب ، واذا الدلو يسكب طوفانه الغامر ويفرقنا ، فننام كي نتمكن من التدحرج مع « الحوت » . في السماء العليا موعظة مكتوبة ، تخرقها الشمس كل عام وتخرج منها حية مستبشرة ؛ في الاعالي هناك تدور مرحلة طروبًا خلال الجهد والاضطراب ، وفي الأداني يفعل اسطب مثلها ؛ « طروب » تلك هي الكلمة المعبرة ؛ وداعًا ايها الدينار ! لكن مهلاً ها هو « الدعامة الكبرى » يجيء ، لأتسلّل حول معامل التصفية وأتسمع ما يقول . ها هو امامه ، سيتفوه بشيء على التوّ . كذا ، كذا ، ها هو يبدأ :

— « لا أرى ها هنا الا شيئًا مدورًا من ذهب ، ومن اصطاد حوتًا معينًا أصبح هذا الشيء المدور من نصيبه ، فلمّ قام مَنْ قبلي بكل هذا التأمل

والتحديق ؟ نعم انه دينار قيمته ستة عشر دولاراً، هذا صحيح، والسيجار يكلف سنتين اثنتين، اي انه يكفي لشراء تسعمائة وستين سيجاراً، أنا لا احب الغلايين القذرة التي يحبها اسطب وانما احب السيجار وها لديّ منه تسعمائة وستون ؟ وها هو فلاسك يصعد الى اعلى ليرصدها .

« هل ادعو هذا حكمة او حماقة . ان كانت حكمة فان لها سمة من حماقة وان كانت حماقة حقاً فان لها بعض سمة من حكمة . لكن على رسلك ؟ ها هو الشيخ ابن جزيرة مان يظهر — ذلك الذي كان سائقاً لعربات الجنائز اعني انه لا بد كان كذلك قبل ان يحتذبه البحر . ها هو يتوجه نحو الدينار الذهبي . هالو ! وها هو يدور حول الجهة الثانية من الصاري، ففي ذلك الجانب قد سمرت حدوة حصان وها هو يعود ثانية . ماذا يعني ذلك ؟ صه ! انه يتمم — صوت كأنه منبعث من طاحونة قهوة عتيقة بالية . حدد اذنك وتسمع ! »

— « ان كان الحوت الابيض سيظهر للعيان فلا بد ان يكون ذلك في شهر ويوم حين تحل الشمس في احد هذه الابراج . لقد درست الابراج وعرفت دلالاتها، لقد علّمتها قبل اربعين عاماً مضت، علّمتنيها الساحرة العجوز في كوبنهاجن . في اي برج ستحل الشمس يا ترى ؟ في ما يشبه حذاء الحصان لانها هنالك في مقابل الدينار الذهبي ؟ وما هي علامة حذاء الحصان ؟ الأسد هو برج حدوة الحصان — الاسد الفراس ذو الزئير . سفيني يا سفيني العتيقة ! ان رأسي العجوز لهتز حين يفكر فيك » .

« ها هنا الآن تفسير جديد لنصّ واحد لا يتغير . عالم واحد يحتوي اصنافاً متنوعة من الناس، أليس كذلك ؟ حسّ مشي ! ها هو كويكوج . موشوم كله، كأنما هو نفسه أبراج الفلك . ترى ماذا سيقول هذا المتوحش ؟ انه لعمرى يقارن ما هو مكتوب على جسمه بما هو مكتوب على العملة ؛ انه ينظر الى عظم

فخذ، يظن ان الشمس في الفخذ او في عضلة الساق او في الاحشاء ، فيما اظن كما تتحدث العجائز عن علم الفلك في الريف النائي . وحق جوبتر لقد وجد شيئاً لصق فخذ أظنه برج القوس، كلا! انه لا يدري كيف يفهم ذلك الدينار، يحسبه زراً قديماً سقط من سروال بعض الملوك . ولكن تنحّ مرة اخرى ها هو فيض الله ذلك الشبح الشيطان يتقدم، ذنبه مطويّ مخفيّ عن الانظار كالعادة، والدّسر في أصابع نعله كالعادة، ترى ماذا تعبّر نظرتك تلك؟ آه انه يشير للبرج وينحني له . على قطعة النقد شمس صدقني يا عابد النار ! أف ! زاد العدد، ها هو يبس يحضر — يا للغلام المسكين ليت مات أو مت أنا ؛ منظره لذي لا يخلو من رعب، لقد راقب ايضاً جميع الذين حاولوا قراءة هذا النقد — وأنا منهم — فانظر اليه، فقد جاء يقرأ بوجهه الابله الذي لا ينتمي الى الارض ، تنحّ جانباً مرة اخرى وتسمع ما يقول . أصح ! »

— « أنظر، تنظر، ينظر، تنظر، تنظرون، ينظرون » .

— « وحق روعي انه كان يدرس كتاب الصرف^١ ! كان يحسّن ذهنه، المسكين ! صه . ترى ماذا يقول الآن ! »

— « أنظر — تنظر — ينظر — تنظر — تنظرون ، ينظرون » .

— « أحسنت والله فانك حفظتها غيباً . صه، وأصح له مرة اخرى » .

— « أنظر — تنظر — ينظر — تنظر — تنظرون ، ينظرون » .

١ في الاصل: Murray's Grammar وهو لندي مري (١٧٤٥-١٨٢٦) كويكري من بنسلفانيا ومؤلف «قواعد اللغة الانجليزية» وكان شائع الاستعمال في المدارس الامريكية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر .

« هذا شيء مضحك ! »

— « وأنا وانت وهو ونحن وانتم وهم جميعاً خفافيش ؛ وأنا غراب وخصوصاً عند ما أقف فوق هذا الجذع السندياني هنالك ؛ غاق ! غاق ! غاق ! غاق ! غاق ! غاق ! أأست غراباً ؟ وأين « الزوال »^١ ؟ ذلك هو عظمتان قد حشرتا في رجلي سروال قديم وعظمتان اخريان قد دستا في كمي صدارة عتيقة ».

— « أترأه يعني ؟ هذا إطراء ! يا للفتى المسكين ! لقد استطيع أشنق نفسي على اي حال ، سأبعد من جوار بييب في اللحظة الراهنة واستطيع ان أحمل بقية المعلقين لان لديهم ذكاء مألوفاً اما هو فان ذكاه من النوع الذي لا يبلفه عقلي . كذا كذا، اتركه وهو يتمتم » .

— « ها هي سرة السفينة ، أعني هذا الدينار ، وكلهم متحمسون لكي ينزعوه ، ولكنك اذا نزعْتَ سرتك فماذا تكون العاقبة^٢ ؟ غير انه ان بقي هنالك كان ايضاً منظراً بشعاً لانك حين تسمّر بالصاري شيئاً فقد جعلت الامور تبدو مستثيرة ها ! ها ! يا آخاب العجوز ! الحوت الابيض ! سيسمرك ! فهذه شجرة سرو . والذي في بلاد تولاند قطع ذات مرة شجرة سرو ووجد فيها خاتماً فضياً ، لعله خاتم زواج احد الزوج ، ولكن كيف بلغ الخاتم ذلك المكان ؟ وكذلك سيقولون يوم الحشر حين يحيئون ليأخذوا هذا الصاري العتيق ويجدون ديناراً ذهبياً قد عشنش فيه وحواليه محار قد اندس في اللحم المشعث ؛ آه يا للذهب ! الذهب الغالي الثمين ! البخيل الغرّ سيضيفك توأ الى مكنوزاته . صمتاً ! صمتاً ان الله يتخلل العوالم ناهباً سالباً ، طباخ يا طباخ ، اطبخنا يا جنبي هاي هاي هاي جنبي جنبي ! وأسرع بصنع كعكة ! »

١ scare-crow : شبح ينصب في المزارع لتخويف الطير من غراب وغيره .

٢ قارن هذا بما جاء في سفر ايوب ٤٠ : ١٦ « هوذا بهيموث . . . ها هي قوته في متنيه ، وشدته في عضل بطنه » .

ساق وذراع . الباقوطة النانتوكتية

تلتقي بصومويل اندربي اللندنية

— « أنت إيتها السفينة هناك ! هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

كذلك صرخ آخاب وهو يهتف مرة اخرى بسفينة ترفع علماً انجليزياً ؛ كان الرجل المعجوز يقف ، وقد جعل البوق في فمه ، عند قاربه المرفوع وقد انكشفت رجله العاجية للقبطان الاجنبي الذي كان متكئاً بغير مبالاة عند مقدم قاربه ؛ كان رجلاً غامق البشرة بديناً دمث الاخلاق جميل الطلعة يبلغ الستين او يناهزها ، وقد ارتدى جاكته واسعة تدلت عليه وقد وشحت بزخارف من قماش البحارة الازرق وأحد أكامها خالٍ يتدلى وراءه كأنه كم فضفاض مزخرف من عباءة يلبسها .

— « هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

— « أترى هذه ؟ » وسحبها من بين الثنايا التي تخفيها واذا بذراع بيضاء من عظم حوت العنبر ينتهي طرفها برأس خشبي يشبه الدمق .

— فصاح آخاب ، وقد استبد به الحرص اللهيف ، وقذف بالمحاذيف القريبة منه : « أعدوا قاربي ! قربوا لانزاله ! »

وفي أقلّ من دقيقة — ودون ان يترك قاربه الصغير — كان هو وبجارته قد نزلوا الى الماء واصبحوا تواقاً على محاذاة السفينة الغريبة . لكن صعوبة غريبة عرضت عندئذ، فقد نسي آخاب في حومة انفعاله في تلك اللحظة انه منذ فقد رجله لم يصعد الى سفينة في البحر الا سفينته ، وان ذلك كان دائماً يتم بواسطة آلية فذة ميسرة مقصورة على الباقوطة ، وان ذلك شيء لا تتوفر له الجبال والوسائل في اية سفينة اخرى في مدى لحظة . وليس من الهين الميسر لكل انسان — إلا لأولئك الذين مارسوا الامر كل ساعة او كادوا من امثال الحواطين — ان يتسلقوا جانب سفينة صاعدين اليها من قارب في عرض البحر ، لان الامواج الهائلة ترفع القارب الى اعلى نحو هيكل السفينة ثم تهوي به على التو الى ان يبلغ منتصف المسافة من الكلزون . واذ كان آخاب قد حرم احدى رجله وكانت السفينة الاجنبية — طبعاً — غير مزودة ابدأ بالوسيلة الرفيعة التي تعوّدها، فانه وجد نفسه وقد تحوّل في زراية الى رجل عاجز من رجال البرّ ، يرمق العلو المتقلب النائي في يأس، ويكاد لا يدركه الرجاء انه بالغه .

لعلني ألححت من قبل الى ان كل حادثة صغيرة مثيرة أملت بآخاب وكانت ناجمة — بطريقة غير مباشرة — عن الآفة المحدودة التي اصابته فانها كانت دائماً تستفزه او تأخذ بخناقها، ومما زاده استفزازاً في الحادث الراهن انه رأى ضابطي السفينة الغريبة وقد انحنيا فوق جانب السفينة عند سلّم عامودي مستمر هنالك وهما يطوحان نحوه زوجين من الجبال الجانبية التي زخرفت بمهارة وحسن ذوق، اذ انها بادىء بدء لم يبد انها يتصوران ان رجلاً ذا رجل واحدة لا بد ان يكون مقعداً بحيث يستعمل الدرايزين البحري الذي لديها . الا ان هذا الحرق المخرج لم يستمر الا لحظة اذ لحظ القبطان الغريب في لحظة كيف حال الامور فصاح : « فهمت ! فهمت ! توقفوا عن الرفع هنالك ! اقفوا ايها الغلمان وطوحوا مرفع القطع » .

ومن حسن الحظ انهم كانوا قبل يوم او يومين قد أجنبوا حوتاً الى سفينتهم فكانت المرافع العظمى ما تزال منصوبة، وكانت كلابة الشحم الجسيمة المتقوسة ما تزال مربوطة الى طرفها وقد أصبحت نظيفة جافة، فانزلوها نحو آخاب في سرعة، ففهم على التو ما هنالك، ودرس فخذه الوحيدة في قوس الكلابة (كان ذلك كالجالوس في كلابة المرساة او في مشعب شجرة تفاح) ثم اعطى الامر بالسحب ووقف ثابتاً مستمسكاً ، وفي الوقت نفسه أعان على رفع ثقله بان جرّ - واضعاً يداً فوق يد - احد الاجزاء الصاعدة من المرفع وعلى التو تطوح بعناية الى داخل الهيكل العالي وحطّ بلطف على قمة المسحاب . وتقدم اليه القبطان الآخر ماداً ذراعه العاجية مرحباً في انفتاح، فقدم آخاب رجله العاجية وسايها الذراع العاجية (كأنها شفرتا سمكتين سيفيتين) وصاح بطريقته التي تشبه طريقة حيوان الفظ : « أجل ! أجل يا عزيزي لتتصافح العظمتان ! ذراع ورجل - ذراع لا يمكن لها ان تنثني ورجل لا يمكن لها ان تجري - ان رأيت الحوت الابيض ؟ - منذ متى ؟ »

فقال الرجل الانجليزي مشيراً بذراعه العاجية نحو المشرق ناظراً على طولها نظرة كثيفة كأنها تلسكوب : « الحوت الابيض - هنالك رأيته، على خط الصيد في الموسم الفائت » .

وسأله آخاب وهو ينزلق نازلاً من رأس المسحاب متكئاً على كتف الانجليزي عند ذلك : « وهو الذي انتزع تلك الذراع . أليس كذلك ؟ »

- « أجل كان هو على الاقل سبباً في انتزاعها . اكدلك هو الامر بالنسبة لتلك الرجل ايضاً ؟ »

- « اسرد علي قصتك . كيف حدث ذلك ؟ »

فقال الانجليزي : « كانت اول مرة في حياتي أطوف فيها على خط الصيد وكنت حيثئذ أجهل كل شيء من امر الحوت الابيض . وذات يوم انزلنا قواربنا لملاحقة صواري من حيتان يبلغ اربعة او خمسة عدداً ، وعلق قاري بأحدها . كان فرس رهان مدرباً ذهب يدور ويدور حتى ان بحارة قاري لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئاً سوى ان يجلسوا متحلقين ، وذلك ان يجعل كل منهم مؤخرته على الحافة الخارجية . وعلى التواء انبثق من قاع البحر حوت عظيم منقض ذو رأس وحردبة في بياض اللبن وكأنما كان جسمه كله مغطى بالغضون والمناسر .

فصاح آخاب وقد أطلق فجأة أنفاسه المحبوسة : « ذلك هو ! ذلك هو ! »

— « وعلى مقربة من زعنفته اليمنى مزارق مغروسة » .

— « أجل ، أجل ! هي مزارقي ، هي الحدائد التي قذفته بها » — كذلك صرخ آخاب في زهو — « ولكن خذ في حديثك ! »

فقال الانجليزي في فكاكة طيبة : « لكن أعطني الفرصة لأكمل حديثي . أقول : ذلك الجدّ المعمر ذو الرأس الابيض والحردبة البيضاء كان يجري وقد تغشاه الزبد بين القطيع ، وأخذ ينهش الحبل المتين بمجرد حارده » .

— « أجل ! فهمت يريد ان يفصمه ، لينجي الحوت العالق به — حيلة قديمة من حيله — فانا أعرفه حق المعرفة » .

ففضى القبطان ذو الذراع الواحدة يقول : « كيف حدث ذلك ؟ ذلك شيء لا أدريه بالضبط . ولكنه في عضه للحبل أوهاه بأنيابه وقد أمسكه بها حيناً من الزمن ، غير أنا لم ندرك ذلك في حينه ، فحين جررنا الحبل من بعد ،

انتفضنا واثنين فجأة على حردبته بدلاً من حردبة الحوت الآخر الذي انطلق
هارباً مع مهب الريح يخبط في عشواء . ولما استبنت الأمر على حقيقته ، وأي
حوت جسيم فخيم هو - أضخم ما رأيته من الحيتان وأفخمها - طوال حياتي -
يا سيدي ، عزمت على أسره رغم الغضب الهائج الذي كان يدو فيه ؛ واذ
ظننت ان الحبل المطوح قد ينفلت او ان السن العالقة به قد تتراجع (اذ كانت
لديّ عصبة من مرده الملاحين في القارب كي يجرؤوا حبل التحويت) أقول : عندما
رأيت ذلك كله قفزت في قارب رأس الضباط - أعني السيد موننتوب (بهذه
المناسبة أعرف أحدياً للآخر : يا قبطان - هذا هو موننتوب ؛ يا موننتوب ،
هذا هو القبطان) ، كنت أقول : قفزت في قارب موننتوب وهو - طال
عمرى - قد كان لصيق قاربي جنباً الى جنب عندئذٍ واختطفت اول رمح
عرض وقذفت به ذلك الجذء الهرم . ولكن رباه ، حنانيك يا سيدي - وحق
القلوب والارواح الحية ، أيها الرجل - في اللحظة التالية ، على التو وجدتني
أعمى كأنني خفاش - قد جحظت عيناى معاً - قد غشاهما وأطفأ النور منهما
زبد أسود - ومن خلال الزبد ينتصب ذنب الحوت عامودياً في الفضاء كأنه
منارة من رخام . لا جدوى في التراجع حينئذٍ ، ولكنى بينما كنت أتلصص في
رائعة النهار وكأنما فوقى شمس تعشي العيون ، لها لألاء كلألاء تاج مرصع
بالجواهر ، أقول : بينما كنت أتلصص الحديدية الثانية لأقذفه بها ، هبط الذنب كأنه
برج ليا ، شاقاً قاربي نصفين ، تاركاً كل نصف منها شظايا ، وبعد ان هبطت
شظيرتا الذنب تبعتهما الحردبة البيضاء سارية من خلال الحطام كأنها تجري
مكسوة بطبقة من الشظايا . وانتفضنا جميعاً متطوحين ومن أجل ان اقفي
ضرباته المريعة قبضت بكلتا يدي على قناة الرمح المنغرس فيه وتعلقت به لحظة
كأنني سمكة من سمك اليمصوص ، إلا ان الموجات المتدحرجة دفعتني بعيداً
وفي اللحظة نفسها مضى الحوت طلقاً كبيراً الى الامام ثم هبط كأنه الثاعة برق ،
واذا بشعلبة ذلك الزج الثاني الملون تنجذب منحنية على مقربة مني فتعلق بي
هنا (وعندئذٍ أمسك يده أدنى قليلاً من الكتف) - نعم ، علقت بي في هذا

المكان بالضبط ، حتى لتصورت انها حملتني هابطة الى نيران الجحيم ، وفجأة ،
والحمد لله الرحيم شقت الثعلبة طريقها على طول اللحم - على امتداد ذراعي
كلها - وانطلقت على مقربة من رسغي ، واذا بي أصدع عائماً - وذلك السيد
هناك سيحكي لك بقية القصة (هذه سائحة للتعارف ، أيها القبطان هذا هو
الطبيب بنجر جراح السفينة ، بنجر أيها الفتى هذا هو القبطان) والآن ، بنجر
أيها الفتى أكمل ما يخصك من غزل في هذا النول .

كان الطبيب الذي أشار اليه القبطان دون كلفة يقف طوال الوقت على
مقربة منهم ، وليس فيه من المميزات الواضحة ما يكشف عن منزلته على ظهر
السفينة ، كان وجهه بالغ الاستدارة إلا انه كان وجهاً رزيناً ، وكان يلبس
صدارة او قميصاً صوفياً حائل اللون وسروالاً مرقعاً ، وكان يقسم اللحظ بين
غرز يحمله في احدى يديه وبين علبة دواء يضعها في الاخرى ، مرسلًا بين الحين
والحين نظرة فاحصة الى العضوين العاجيين لدى القبطانين المصابين ، ولكن
عندما عرفه رئيسه الى آخاب ، انحنى في أدب ، ومضى يؤدي ما أمره به
قبطانه دون تردد .

بدأ الجراح يقول : « كان جرحاً مروعاً خبيثاً ، ونصحت القبطان بומר أن
يبحر بصومي العتيقة - »

فقاطعه القبطان ذو اليد الواحدة مخاطباً آخاب قائلاً : « صومي ترخيم
صوموئيل ، وسفينتي اسمها صوموئيل اندربي . »

- « ان يبحر بصومي العتيقة بعيداً نحو الشمال كي يخرج من هذا الجوّ الحار
المتوهج على خط الصيد ، ففعل ، ولكن ذلك لم يحده نفعاً - أنفدت كل طاقتي ،
سهرت الى جانبه الليالي ، كنت شديد القسوة في أمر الحمية - »

فرن صوت المريض نفسه يقول : « آه : شديد القسوة ! » ثم غيّر صوته فجأة وقال : « كان يشرب شراب الرم الساخن معي كل ليلة حتى يعجز عن ان يرى أين يضع الاربطة ثم يرسلني الى السرير حوالي الثالثة صباحاً وأنا أمتع سكرأ ، آء ايتها النجوم لقد كان يسهر معي حقاً وكان شديد القسوة في أمر الحمية . اوه ان الدكتور بنجر رقيب لا يغفل وهو قاسٍ في شئون الحمية ! (بنجر أيها الكلب جَلْجَل بالضحك ! مالك لا تفعل؟ أنت تعلم أنك عيَّار ظريف أثير) امض في حديثك ايها الفتى اني لأوثر ان اقتل بيدك على ان أظلّ حياً بيد اي امرئ سواك » .

فقال بنجر الرصين ذو المظهر الورع : « ان قبطاني ، كما لعلك لاحظت قبل هذا يا سيدي المحترم ، ذو ميل لان يكون ذا دعاية أحياناً ، فهو ينسج لنا من خياله أشياء كثيرة بارعة من هذا القبيل ، ولكن اسمح لي ان أقول — en passant — كما يقول الفرنسيون — بأنني انا نفسي أعني انا جاك بنجر ، نسل القساوسة المبجلين — انا ممن يحرم الخمر على نفسه فلا يقرها ، أعني انني لا أشرب — »

فصاح القبطان « لا يشرب الماء ، انه لا يشربه ابداً ، شرب الماء يلقيه في نوبات ؛ الماء القراح يبعث فيه مرض الفزع من الماء ، لكن امض — امض في حديثك عن قصة الذراع » .

فقال الجراح في برود : « هذا ما كنت أريد ان أحكيه . كنت أريد ان أنوه يا سيدي — قبل ان يقاطعني القبطان بومر بدعائاته — بأنه رغم محاولاتي المخلصة الشديدة ظلّ الجرح يتطوّر من سيئ الى أسوأ ، والحق يا سيدي أنه كان جرحاً فاغراً بشعاً كأقبح ما رآه جراح في حياته ، يزيد طوله على قدمين وعدة بوصات فقد قصته بجبل الرصاص ودون تطويل أقول إنه أسود ،

كنت أعرف العاقبة فجاءت كما قدرتها ولكن لم تكن لي يسد في وضع تلك الذراع العاجية هنالك فذلك مخالف لكل قاعدة - وأشار اليها بالخمرز الذي يحمله - « ذلك من صنع القبطان نفسه لا من صنيعي ، فقد أمر النجار ان يصنعها ، وعند طرفها وضع تلك المطرقة لكي ينثر بها دماغ من يريد - فيما أظن - كما فعل ذات مرة معي ، ذلك أنه أحياناً يهيج هيجان الشياطين . هل ترى هذه النقرة هنا يا سيدي » - ورفع قبعته وحول شعره الى جنب وكشف عن نقرة مجوفة كالطاس في ججمته ولكن ليس فيها اي أثر لجرح مهما يكن طفيفاً ولا أية علامة تدل على أنها كانت جرحاً - « لا بأس ، فالقبطان سيخبرك كيف حدثت ، فهو يعرف ذلك » .

فقال القبطان : « لا لست أعرف ، إلا ان أمه تعرف فقد ولد بها ، آه ايها الأفقي الوقور يا بنجر ! هل لك مثيل أبداً في عالم المياه ؟ حين تموت يا بنجر فيجب ان تموت في الخلالات يا كلب ، يجب ان تحفظ للأجيال القادمة ايها العيتار » .

- « ماذا حدث للحوت الابيض ؟ » كذلك صاح آخاب وقد أصغى حتى تلك اللحظة فارغ الصبر لهذا الحوار الاستطراذي بين الانجليزيين .

فصاح القبطان ذو الذراع : « آه ، حقاً ، أجل ! بعد ان قس في الاعماق غاب عن أنظارنا بعض الوقت ، والواقع أنني كما ألمعت من قبل لم أعرف اي حوت لعب عليّ هذه الحيلة حتى مضى زمن ما وعدت الى خط الصيد فسمعنا عن مويي ديك - كما يسميه بعضهم - وعندئذٍ عرفت انه هو » .

- « هل عبرت خطاً نخره مرة أخرى ؟ »

- « مرتين » .

« ولكنك عجزت عن أن تضبطه . »

— « لم أرد ان أجرب ذلك . أليس في عضو واحد عبرة؟ ما نفعي لو فقدت الذراع الأخرى ؟ وانا أظن ان موبى ديك لا يضرّس بأنيابه ، وهو يبتلع ما يلتهمه » .

فقاطعه بنجر قائلاً : « حسن اذن ، اعطه ذراعك اليسرى طعماً لتسترد اليمنى ، هل تعرفان ايها السيدان » — وانحنى في خشوع وتقدير مقدّر لكل واحد من القبطانين على حدة — « هل تعرفان ايها السيدان ان جهاز الهضم في الحوت قد ركبتة العناية الالهية على نحو غامض لا يدرك حتى ليستحيل عليه ان يتم هضم ذراع انسان ؟ وهو يعرف ذلك ايضاً ، حتى ان ما تعده حقد الحوت الابيض إنما هو قلة حيلته لانه لا يهدف الى ان يبتلع اي عضو وانما يريد ان يبت الرعب بالخدع ، غير انه أحياناً كذلك المشعوذ الذي كان فيما مضى أحد من عاجلتهم في سيلان ، كان يوهم الناس أنه يبلع السكاكين ، ومرة ترك احداها تسقط في جوفه حقيقة لا وهماً فاستقرت هنالك اثني عشر شهراً او اكثر فسقيته مقيئاً ففقد بها قطعاً صغيرة . لا سبيل له الى ان يهضم سكيناً وان يتمثلها في بنيتها . أجل ، بومر ايها القبطان ، ان كنت متعجلاً الامر وترغب في ان ترهن ذراعاً من أجل ان يكون لك حق دفن الاخرى دفناً شريفاً ففي هذه الحال أنت صاحب الأمر في المسألة ، اذ الذراع ذراعك ، ما عليك إلا ان تسمح للحوت بفرصة أخرى في القريب العاجل ، وذلك كل ما هنالك » .

فقال القبطان الانجليزي : « لا وشكراً يا بنجر ، هنيئاً له بالذراع التي اخذها ما دمت لا أملك ان استردها — ولم اكن اعرفه حينئذ — ولكني لن اجازف بالآخرى . لا اريد حيتاناً بيضاً بعد اليوم ، لقد طارده مرة وذلك حسبي ؛ قد يكون في قتله مجد عظيم ، ذلك ما أدريه ، وفيه ملء سفينة من العنبر

الشمين ولكن أصخ لي، من الخير ان يترك في حال سبيله، أأست تعتقد ذلك ايها القبطان؟» - ولحظ الرجل العاجية .

- «صحيح . ولكن سيظل هنالك من يطارده رغم ذلك . كان تركه في حال سبيله أولى لولا ان ذلك الحيوان اللعين شديد الاغراء والجاذبية، كأنه جسم من المغناطيس . منذ متى رأيته آخر مرة ؟ وفي اي طريق كان يتوجه؟»

فصاح بنجر وهو ينحني دائراً حول آخاب متشمماً، على نحو غريب كأنه كلب : « بارك اللهم روحي والعن الشيطان الرجيم - دم هذا الرجل - هاتوا ميزان الحرارة ! قد بلغ دمه درجة الغليان ! نبضه يهز ألواح السفينة - سيدي ! » واستخرج من جيبه مبضعاً واقترب من ذراع آخاب .

فزأر آخاب وهو يدفعه نحو حافة السفينة : « اليك عني ! هيثوا القارب ! في اي وجهة مضى ؟ »

فصاح القبطان الانجليزي وكان السؤال موجهاً اليه : « يا رب يا رحيم ! ماذا دهاه ؟ أظنه كان متوجهاً شرقاً - » ثم همس يسأل فيض الله : « هل قبطانكم مجنون ؟ »

ولكن فيض الله وضع اصبعه على شفتيه ، وانزلت عن حافة السفينة لكي يقوم على المجذاف الرئيسي في القارب ، وطوح آخاب بالمرافع نحوه آمراً بحارة السفينة ان يقفوا على مقربة منه لانزاله .

وبعد لحظة كان يقف في مؤخرة القارب وكان ابنا مانىلا يثبون نحو مجاذيفهم . وناداه القبطان الانجليزي، فطارت نداءاته في الفضاء . لقد ادار آخاب ظهره للسفينة الغربية، وصوب نظره كأنه الصوان نحو سفينته، ووقف منتصباً حتى حاذى قاربه الباقوطة .

القارورة

لأدوّن في هذا المقام قبل ان تغيب السفينة الانجليزية عن الانظار أنها صَدَرَت من لندن وأنها سميت باسم المتوفى صومويل اندربي أحد تجار تلك المدينة ومؤسس أسرة التحويت المشهورة التي تسمى «أسرة اندربي وأولاده» ؛ وهي أسرة لا تتخلف كثيراً في رأي حوات متواضع مثلي وراء آل تيودور وبوربون مجتمعين ، في أهميتها التاريخية . ان وثائق الصيد العديدة التي في حوزتي لا توضح متى وجدت هذه الأسرة التحويتية الكبرى ، ولكنها في عام ١٧٧٥ جَهَزت اول سفن الانجليزية بدأت صيد حوت العنبر بانتظام مع انه قبل حوالي أربعة عقود من هذا التاريخ (اي منذ ١٧٢٦) كان آل كوفن وماسي البواسل من نانتوكت وفنيارد قد طاردوا ذلك اللويثان في أساطيل ضخمة مقتصرين في صيدهم على الأطلسي الشمالي والجنوبي دون ان يتعدوها ؛ ولكن الوثائق تفيد ان أبناء نانتوكت كانوا اول الناس الذين مارسوا قذف حوت العنبر بالفولاذ المثقف ، وأنهم ظلوا على مدى نصف قرن وحدهم من بين أبناء الكرة الارضية هم الذين يصيدونه على هذا النحو .

وفي عام ١٧٧٨^١ خرجت سفينة لطيفة تسمى أميليا لغاية محددة ، على نفقة آل أندربي النشطاء ، فدارت بجسارة حول رأس هورن ، وكانت اول سفينة تنزل قارب تحويت من أي نوع في البحر الجنوبي الكبير . وكانت الرحلة ماهرة

١ أخطأ ملفل النقل هنا والصواب ١٧٨٨ .

مجدودة ، اذ عادت أميليا الى مرفأها وقد امتلأ عنبرها بزيت العنبر الثمين ، وسرعان ما حذت حذوها سفن أخرى انجليزية وأمريكية ، فانفتحت بذلك مجالات الصيد الفسيحة في المحيط الهادي لاقتناص حوت العنبر ، ولكن آل أندري الذين لا يدركهم الاعياء والفتور لم يقنعوا بهذا العمل الجليل بل انهم همّوا من جديد : صوموئيل وأبناؤه - كم كان عددهم ؟ أمهم وحدها تعلم ذلك - وتحت إشرافهم المباشر ، وأظن أنهم تكفلوا بقسم من النفقات - اقتنعت الحكومة البريطانية بأن ترسل السفينة راتلر - وهي حربية ذات مدفع - في رحلة تحويت للاستكشاف في البحار الجنوبية ، يقودها قبطان أصبح فيما بعد من قباطنة الاسطول ، فقامت (واسمها يعني المجلجلة) برحلة مجلجلة وأدت شيئاً ما ، ولكن ما أدته غير معروف على وجه الدقة . ولم يكن هذا هو كل ما هنالك . بل ان آل اندري جهزوا من أنفسهم عام ١٨١٩ سفينة تحويت للاستكشاف ، كي تذهب في جولة استطلاعية الى بحار اليابان النائية وقد قامت تلك السفينة - وبحق سميت Syren - بتجواب تجريبي رفيع الشان ، وعن طريقها أصبح الناس يعرفون مجالات التحويت اليابانية الكبرى لأول مرة . وكان قبطانها في هذه الرحلة نانتوكتيا من آل كوفن .

ما أخرى آل اندري لهذا بالتمجيد والاشادة ، ولا يزال بيتهم فيما أظن قائماً حتى اليوم ، ولكن لا ريب في ان صوموئيل جدّ هذه الاسرة قد زلقت رجله عن حبل سفينته وهو ذاهب الى البحار الجنوبية في العالم الآخر منذ عهد طويل .

وكانت السفينة التي سميت باسمه جديدة بذلك الشرف لانها كانت سريعة نبيلة من كل وجه ، وقد ركبت فيها ذات مرة عند منتصف الليل على مبعده من ساحل بتاغونيا ، وشربت في منارتها مزرراً لذيداً ؛ كانت عصبه ظريفة وكان كل من فيها - كل نفس على ظهر السفينة - أخاً في الضراء . عاشوا حياة قصيرة

وماتوا موتاً جميلاً ، وتلك العصابة التي عرفتھا - بعد وقت طويل طويل من ملامسة آخاب الشيخ لالواحھا بكعبه العاجي - تذكرني بذلك الكرم السكسوني النبيل المتأصل في تلك السفينة ، نسيني راعيّ وتذكرني الشيطان ان هي غابت عن ناظري أبداً . مزرراً ؟ هل قلت : شربنا مزرراً ؟ أجل وقد « مزرناه » بنسبة عشرة جالونات في الساعة . وعندما هبت العاصف (والجو كثير العواصف ازاء بتاغونيا) ودعي جميع الموجودين - من ضيوف وغيرهم - ليلفوا الاشرعة العليا كنا قد أصبحنا متعتين سكرأ حتى كان على الواحد منا ان يطوح بالآخر عاليأ في حبال الاشرعة كأنه يدفعه في أرجوحة . ويجهل منا لففنا حوافي صداثرنا في الاشرعة ، فتعلقنا هنالك ملفوفين مشبوحين في العاصف العاوي ، نذيراً يعتبر به كل بحار نخمور . ومهما يكن من شيء فان الصواري لم تهبط على ظهر السفينة ورويدأ رويدأ نزلنا زاحفين ، وقد طار السكر من رؤوسنا حتى لعدنا ندير المزر مرة أخرى ، ولكن الرذاذ الملح الشرس الذي كان ينقض نحو ناروزة المنارة جعلني أحس ان المزر قد خفت حدة وتملّح طعمأ حين مازجه الرذاذ .

أما لحم البقر فكان لذيذاً - كان جاسياً بعض الشيء ولكنه كان مكتنزأ حنيذاً ، قالوا انه لحم عجل وقال بعضهم بل هو لحم ثور هجين ، ولكني لا أدري كيف كان ذلك على وجه اليقين ، وكان لديهم فطير سكري ايضاً ، صغير إلا انه غني كروي تام الكرية لا يسهل كسره . ولقد خيل إلي ان المرء قد يحس بكراته ويديرها في جوفه بعد ان يتلعمها ؟ واذا انحنى كثيراً الى الامام فربما انطلقت من جوفه كأنها كرات البليارد . والخبز وما ادراك ما الخبز ؟ كأن فيه ما يمنع فساد الدم وبإيجاز كان الخبز يحوي الغذاء الوحيد الذي يمد لديهم طازجأ ، إلا ان المنارة لم تكن حسنة الاضاءة كثيراً ، فكان من السهل على المرء ان ينحاز الى زاوية معتمة اذا أخذ يأكله . لكن اذا اعتبرت صوموئيل اندربي من كوئلها حتى دفعتها وقدرت ابعاد المراحل التي لدى طبابخها وعددت

فيها مرجه الحى^١ ، أقول : ان صومويل اندري من حيث رمقتها وجدتها
سفينة ظريفة : الغذاء فيها طيب وفير ، والمزر قوي لذيد ، والمزلاء ظرفاء ،
كل امرئ فيهم ممتاز من أخمص قدمه حتى مفرق رأسه .

ولكن لم كانت - فيما تخمّن - صومويل اندري وبعض الحوانات الانجليزية
الخرى التي أعرفها - لا كلها - سفناً مشهورة مضيافة ، تقدم لحم البقر والخبز
والكأس والتادرة ولا يدركها السأم من الاكل والشرب والضحك ؟ سأخبرك .
ان هذا المرح الوفير في الحوانات الانجليزية مسألة تحتاج بحثاً تاريخياً ولم أكن انا
ابداً مثلكم بالبحث التاريخي في شئون الحيتان والتحويث ان بدا ذلك أمراً
مطلوباً .

ان الهولنديين والزيلنديين والدنماركيين سبقوا الانجليز في التحويث ، ومن
هذه الامم استعار الانجليز مصطلحات كثيرة لا تزال مستعملة في حرفة الصيد ،
بل استعاروا منهم عاداتهم القديمة في الاكثار من الاكل والشراب اذ ان السفن
التجارية الانجليزية تقلل عدد الملاحين اقتصاداً ، ولكن الامر ليس كذلك في
الحوانات ؛ واذن فان هذا المرح والتفنق لدى الانجليز في التحويث غير عادي
وغير طبيعي وانما هو عارض وخاص ولذلك كان لا بد له من أصل ، وقد بينت
أصله في هذا المقام وسأوليه تبلياً فيما يلي .

اثناء بحثي في تواريخ الحيتان وقعت على كتاب هولندي قديم^٢ وعرفت من
رائحة العفونة التحويلية فيه انه لا بد ان يكون عن الحوانات ؛ كان عنوانه « دان
كوبمان » فاستنتجت انه لا بد ان يكون مذكرات بالغة القيمة كتبها صانع
براميل أمستردامي يعمل في الحوامة ، اذ كل حوامة لا بد ان يكون فيها مثل

١ يعني معدته .

٢ ها هنا يحاكي ملفل طريقة اسكورسي واحصاءاته ساخراً في هذه الفقرة .

هذا الصانع ، وقوى هذا الرأي لدي حين وجدته من تأليف « فتر الحداد » غير ان صديقي الدكتور زنودهده وهو عالم ضليع واستاذ للهولندية والالمانية في كلية سفتاكلوز وسنت بوتس ، وقد سلمته الكتاب ليترجمه وأعطيته لقاء تعبته صندوقاً من شمع حوت العنبر — هذا الدكتور زنودهده نفسه ما ان القى نظرة على الكتاب حتى أكد لي ان « دان كويمان » لا تعني «صانع البراميل » وانما تعني «التاجر» . وبايجاز اقول ان هذا الكتاب الهولندي العتيق العميق يعالج تجارة هولنده ، وفيه — بين سائر ما فيه — خبر هام ممتع عن التحويت وفي هذا الفصل منه وعنوانه « الشحم » وجدت قائمة طويلة تحتوي اسماء المواد التي تودع في مخازن ونخادع ١٨٠ سفينة من الحوانات الهولندية وأنا أثبت من القائمة ما يلي ، حسبما ترجمها الدكتور زنودهده :

٤٠٠ ٠٠٠	رطل من لحم البقر
٦٠ ٠٠٠	رطل من لحم خنزير فريزلاند
١٥٠ ٠٠٠	رطل من السمك القديد
٥٥٠ ٠٠٠	رطل من البسكويت
٧٢ ٠٠٠	رطل من الخبز الناعم
٢ ٨٠٠	فركين (ربعة) من الزبدة
٣٠ ٠٠٠	رطل من جبنة تكسل وليدن
١٤٤ ٠٠٠	رطل جبنة (اعلمها أقل جودة من الجبنة السابقة)
٥٥٠	أنكر من الجن (الأنكر = ١٠ جالونات)
١٠ ٨٠٠	برميل من البيرة .

أكثر القوائم الإحصائية جاف متيبس لدى القراءة، إلا أن هذه القائمة بخلاف ذلك حيث يفرق القارئ بين دفع من أنابيب وبراميل وربعات وجداول من شراب الجن والمرح الطيبين .

في ذلك الوقت أنفقت ثلاثة أيام وأنا أحاول جاهداً أن اهضم كل هذه البيرة ولحم البقر والحيز فعرض لي في أثناء ذلك كثير من الأفكار العميقة يمكن أن تتقبل التطبيق الأفلاطوني والتجريدي، ثم أني أضفت جداول أخرى استكملتها بنفسى، تتناول كمية السمك القديم وغيره من المواد التي يستهلكها كل حوات هولندي في الحوالة القديمة عند جرينلاند وسبتزبرجن، وتبدى لي لأول وهلة أن كمية ما يستهلك من الزبدة وجبنة تكسل وليدن كمية مذهلة، وعزوتها من ثم إلى طبائعهم الدهنية — بطبيعتها — وقد زادت دهنيته بطبيعة الحرفة نفسها، وبخاصة لمطاردتهم الحيتان في البحار القطبية المتجمدة قريباً من سواحل منطقة الاسكيمو حيث سكان تلك البلاد المرحون يشرب أحدهم نخب الآخر كدوساً من زيت الأسماك أو الحيتان .

كذلك كمية البيرة كبيرة جداً، أعني ٨٠٠ ١٠ برميل . فإذا عرفت أن التحويت في المناطق القطبية لا يمكن إجراؤه إلا في الفترة القصيرة التي يسمونها صيفاً في ذلك المناخ حتى أن الرحلة التي تقوم بها إحدى الحوالات الهولندية بما في ذلك السفرة القصيرة من بحر سبتزبرجن ذهاباً وإياباً لا تتجاوز ثلاثة أشهر بكثير ، وإذا قسدت ثلاثين رجلاً لكل سفينة في أسطولهم ذي الـ ١٨٠ سفينة كان لديك ٥٤٠٠ بحار . لذلك أقول فإن كل شخص يصيبه على وجه الدقة برميلان من البيرة يصرفان له في خلال اثني عشر اسبوعاً، هذا دون أن نحسب ما يخصه من الـ ٥٥٠ أنكر من شراب الجن . ترى هل هؤلاء الحواتون الذين تمألوا بيرة وجنناً — وقد افراطوا في السكر حسباً قد يتخيلهم المرء — هم الناس الصالحون ليقفوا عند رأس القارب ويسددوا الرماح نحو الحيتان الطائرة .

قد يبدو هذا مجازاً للاحتمال بعض الشيء . ولكنهم طالما سدّوا إليها الرياح وأصابوها . غير ان علينا ان نذكر بان هذا كان في اقصى الشمال حيث البيرة تناسب البيئة . اما على خط الاستواء - في المجالات الجنوبية - فان البيرة ترمي الحوات بالنعاس اذا كان في قمة الصاري، وتجعله نشوان وهو في قاربه ، ومثل هذا يجر خسارة بالغة على نانتوكت ونيوبدفورد .

لا مزيد . لقد أشبعت القول لأبين ان الحوات الهولندية القديمة قبل قرنين او ثلاثة قرون كانت تتفنن في الترف وان الحوات الانجليزية لم تغفل هذا المثال الطيب . وفي المثال : اذا كنت تطوف البحار في سفينة فارغة فاستخرج من العالم عشاء طيباً على الاقل ان عجزت عن استخلاص ما هو خير من ذلك . بهذا تفرغ الجعبة، وتصفّر القارورة .

ظرة في البهرد الارمكية

قصرت اكثر اهتمامي - حتى هذا الحد ، وأنا أعالج حوت العنبر واصفاً - على أعاجيب مظهره الخارجي ، وعلى بعض الملامح الداخلية في بنيته ، وتناولت هذه الاخيرة في مواضع متفرقة وفي شيء من الاسهاب ، ولكن يخلق بي من أجل الاحاطة الشاملة والفهم المحيط المستفيض ان أفك عنه سائر الأضرار وأن أمزق معاقده جوربيه ، وان أحل أربطة ساقيه ، وأرخي الاوتار والمحاجيء في مفاصل عظامه الموغلة في بنية جسده ، وأبرزه لكم في عريه الكامل ، أعني في هيكله الذي انحسرت عنه القيود والأعلاق .

ولكن أنسى لك ذلك يا اسماعيل ؟ كيف تسدعي وأنت محض مجذوف في حرفة التحويت أنك تعرف شيئاً عن الاجزاء الدخيلة في الحوت ؟ هل امتطى اسطب اللودعي الاريب مسحاب قاربك وألقى محاضرات في تشريح الحيتان ، وبعون الدولاب الرافع اتخذ أحد الاضلاع وسيلة للتوضيح والبيان ؟ أفصح عن نفسك يا اسماعيل . هل تستطيع ان تطرح على ظهر سفينتك حوتاً للفحص والاختبار مثلما يجزىء الطباخ الخنزير المشوي ؟ طبعاً لا . حتى هذا الحد كنت يا اسماعيل شاهداً موثقاً ، ولكن تدبر كيف تحتاز الميزة التي استقل بها يونان وحده ، ميزة الحديث عن الدعائم والعمد والعوارض وسنادات الجسور والامرة ومواد التأسيس جميعاً في بنية الحوت ، وعن خوابي الشحم وغرف اللبن وحوانيت الخبز والزبدة ودكاكين الجبن في أحشائه .

بعد عاصفة غاضبة ثائرة طال بها الغضب والهياج ، وقد استند رأسه الى شجرة جوز الهند فبدت ثنياتهما المقنزعة التي تشبه الريش كأنها نفائثه المخضوضرة وحين انتزع الجسم الجسم اخيراً من بين المواد التي تكتنفه وهي تبلغ القامة ارتفاعاً وأصبحت العظام جافة كيبيس الثرى تحت الشمس نقل الهيكل باعتناء الى وهدة بوبلا حيث يقيه اليوم هيكل عظيم من النخل العمّ الطوال .

أما الاضلاع فعلمت عليها أسلاب النصر ، وأما الفقارات فنقشت فيها التواريخ الارسكيدية في خطوط غريبة ؛ وأما الجمجمة فقد وضع فيها الكهنة شعلة شديدة لا تنطفئ حتى ان الرأس العجيب ظلّ يرسل نفثاته البخارية بينما علق الفك الاسفل المريع من احد الاغصان ليتذبذب فوق رموس العابدين الاتقياء كأنه السيف المفزع المعلق بشعرة فوق رأس داموقليس .

كان منظرأ عجبا : الغابة خضراء كأنها طحالب الوهدة الجليدية ، والاشجار سامقة مستكبرة تحسّ عصارتها الحية ، والارض الكدود من دونها كأنها نول النساج وعليه بساط رائع فاخر ، وعساليج الكرمة الارضية تمثل السداة واللحمة ، والازهار الحية تمثل الزخارف والرسوم ؛ كل شيء لا يكف عن النشاط والحيوية : كل الاشجار وكلّ ما فيها من غصون مثقلة ، كل الاعشاب والسرخس والحشائش ، والهواء الذي ينقل بينها الرسالات . والشمس العظيمة تبدو بين فجوات الاوراق وشيعة تنسج الحضرة التي لا يدركها حوول . آه ايها الحائك المنهمك ، ايها الحائك الخفيّ ! توقف ، لي اليك كلمة ! الى أين يفيز هذا النسيج ، اي قصر قد يزين؟ ما غاية هذا الكد الدائب؟ أجب ايها الحائك. أوقف يدك ! لي اليك كلمة واحدة ! لا ... ان المكوك يدور ، والزخارف تفيض عن النول والبساط المندفع كالجدول يظل ينزلق بعيداً. اما الرب الحائك فيمضي في حياكته ، ويصمّه النسيج فلا يسمع صوتاً بشرياً ، ونحن الذين ننظر الى النول يصمّنا الطنين ، ولا نسمع آلاف الاصوات التي تتحدث من خلاله إلا

إذا نجونا من ربقتة ، وكذلك هو الحال في جميع المصانع المادية : فإن الكلمات المنطوقة التي لا تسمع بين المغازل الدائرة هي نفسها تسمع بوضوح وراء الجدران مندفعة من خلال المنافذ المفتوحة . على هذا النحو اكتشفت الدسائس ؛ فتنبه اذن يا ابن آدم اذ ان أدق أفكارك وأخفاها في ضجيج هذا النول الكوني قد يكون مسموعاً من بعيد .

وسط هذا النول الأخضر ، نول الحياة التي لا تعرف الفتور في الغابة الارسكيديية يقع ذلك الهيكل الجسم المعبود كسولاً مسترخياً - هو كسلان هائل ؛ ولكن بينا تلتقي السداة واللحمة المحضوستان اللتان لا تكفان عن التداخل والتلاقي والطينين من حوله فان ذلك الكسلان القوي يبدو وكأنه الحائك الذكي وهو نفسه ينسج حول نفسه عساليج الكرمية ، وفي كل شهر ينتحل لنفسه خضرة جديدة أشد من سابقتها اخضراراً ، إلا انه لا يعدو ان يكون هيكلًا . الحياة تغلف الموت ؛ الموت ينسج الحياة ، والرب الجاهم يعرس بالحياة الناضرة الفتية فينجان أمجاداً مجمدة الشعور .

و حين زرت هذا الحوت العجيب في صحبة ترانكو سليل الملوك ورأيت الجمجمة قد جعلت مذبحاً والدخان يتصاعد من حيث تنبثق النفثات الحقيقية عجبت للملك كيف يعتبر المعبد موضعاً للفضيلة ، فضحك ؛ ولكن عجيبي زاد حين عرفت ان الكهنة يقسمون ان نفائته المدخنة كانت أصيلة لا مصنوعة . خطوت أمام هذا الهيكل ذاهباً آيباً ، أزحت عنه عساليج النبات ، تغلغل داخل الاضلاع ، وتجولت فيه وانا أحمل كبة من خيوط القنب الارسكيدي ، وطوفت في منعطفاته الكثيرة ومساربه وعرائشه الظليلة ولكن سرعان ما نفذ الطّوّل المرخي فعدت أتتبعه وخرجت من الفتحة التي منها دخلت فلم أرَ فيه شيئاً حياً ، ولم يكن هنالك شيء سوى العظام .

وأنا أعترف انه قلما أتيح لأحد من الحواتين ، بعد يوفان ، ان يتغلغل بعيداً وراء إهاب الحوت الفتي^١ ، ومع ذلك فقد سنحت لي الفرصة لكي أشرّح صورة منه مصغرة . كنت في إحدى السفن فرفع الى ظهرها ذات مرة حوت عنبر صغير طلباً لجرابه أو كيسه لتصنع منه أغماداً لثعالب الرماح وطلباً للحراب ، فهل تظنني ادع هذه الفرصة تفلت من يدي دون ان استعمل بلطقي الصغيرة ومديتي ، فأفرض الختام وأقرأ كل ما هو مكتوب في ذلك الحُوَيْت ؟

وأما معرفتي الدقيقة بعظام اللويثان في حال اكتمالها نمواً وضخامة فأنا مدين بتلك المعرفة النادرة الفذة الى صديقي الراحل ترانكو ملك ترانكه إحدى الجزر الارسكيدية^١ . ذلك أي منذ سنوات كنت في ترانكه اذ كنت تابعاً للسفينة التجارية « صبغة الجزائر » ، فدعيت لقضاء جانب من عطلي الارسكيدية مع عاهل ترانكه ، في قصره البعيد المحفوف بالنخيل في بوبلا^٢ ، وهذه عند البحر لا تبعد كثيراً عما يدعو ملاحونا مدينة البامبو عاصمته .

وصديقي ترانكوربيب المُلْك قد وهب بين ما وهبه من صفات ظريفة حباً مكيناً لكل ما يتصل بالفضائل البربرية فحشد في بوبلا كل الطرف النادرة التي استطاع الافذاذ من بني قومه ابتكارها ، وبخاصة الخشب المحفور في أشكال عجيبة والاصداف المنحوتة والحراب المرصعة والمجاذيف الثمينة والزوارق الشذية ، وكل هذه قد وزعت بين ما اتفق وجوده من عجائب طبيعية تحملها الامواج حمالة العجائب وتؤديها جزية لذلك الملك على شواطئ بلاده .

ومن أبرز هذه العجائب الطبيعية حوت عنبر جسيم وجد ميتاً مطروحاً ،

١ مجموعة من الجزر عند الطرف الجنوبي من جزائر سليمان ، وليست ترانكه منها وانما هي جزيرة صغيرة على مسافة من شاطي شيلي .

وقطعت قضيباً أخضر يصلح ان يتخذ مقياساً وغصت في الهيكل مرة أخرى فرآني الكهنة من شق في الجمجمة أقيس طول الضلع الأخيرة ، فصاحوا بي : « كيف تجرؤ على ان تقيس هنا . هذا لنا وحدنا » فقلت : « صدقتم أمها الكهنة ولكن كم تقدرون طوله إذن ؟ » وهنا ثار بينهم جدل حاد حول الاقدام والبوصات ، فكسروا رموس بعضهم بعضاً بعضيهم ، ورددت الجمجمة الضخمة الصدى ، فانتهزت هذه الفرصة السعيدة وأنهيت مسرعاً قياساتي .

هذه القياسات هي ما أزمع الآن ان اضعه أمام أعينكم ولكن لأقرّر هامنا أولاً أنني في هذا الامر غير حرّ لا تفوه بأي تقدير مزعوم أشاءه ، لان لديكم ثقات في شئون الهيكل تستطيعون الاحتكام اليهم لتختبروا دقتي . فقد أخبرت ان في مدينة هل بالانجلترا - وهي احدى موانئ التحويت في تلك البلاد - متحفاً للحيتان فيه عينات ونماذج لطيفة من الحيتان المزعنفة والحيتان الاخرى . وسمعت ايضاً ان في متحف مانشستر في نيوهاامشير ما يسميه المالكون له : « العينة الوحيدة الكاملة من حوت جرينلاند او حوت النهر في الولايات المتحدة » ثم ان في مكان بيوركشير في انجلترا اسمه بيرتون كونستابل رجلاً يدعى سير كلفورد كونستابل وهو يملك هيكل حوت عنبر إلا انه ذو حجم معتدل وهو لا يبلغ بأي حال مبلغ الحوت المكتمل الذي لدى صديقي الملك ترانكو .

وفي الحالين تتشابه الاسس التي تم بموجبها أصلاً امتلاك هذين الحوتين اللذين طرحهما البحر وأخذ منها الهيكلان . اما الملك ترانكو فقد استولى على الحوت الذي حازه لانه بحاجة اليه ، واما السير كلفورد فقد استأثر به لانه كان رب السلطة في تلك النواحي ؛ وقد فصل حوت السير كلفورد في جميع أجزائه فأصبحت تستطيع ان تفتحه وتغلقه في كل فجواته العظمية كأنه صندوق ضخم من الادراج وتمتد اضلاعه كالمروحة الضخمة وتتأرجح طوال اليوم على فكه الاسفل . وستوضع الاقفال على بعض مغالقه وأبوابه المسحورة ، وسيكون

دليل الزوار في المستقبل رجلاً يعلق حزمة من المفاتيح على جنبه، ويرى السير
كلفورد ان يتقاضى بنسين على من يطلّ في السقيفة الهامسة في العمود الفقري ،
وثلاثة بنسات على سماع الصدى في تجويف الحنيخ ، وستة على المنظر الفذ الذي
لا يضاهى من جهة جبهته .

وأبعاد الهيكل التي سأخذ في تقييدها هاهنا قد نسختها حرفياً عن ذراعي
اليمنى حيث كنت قد سجلتها بالوشم ، اذ لم يكن لدي في سفراقي المغامرة يومئذ
اي طريقة مأمونة اخرى تكفل الاحتفاظ بهذه الاحصاءات القيمة ؛ ولكن بما
أن المساحة كانت متضايقة ، وكنت أرغب في ان أبقى سائر أجزاء جسدي
صفحة بيضاء لا كتب عليها قصيدة كنت أنظمها حينئذٍ - او على الاقل اكتبها
على ما تبقى من أجزاء غير موشومة - لذلك لم أعنّ نفسي بتقييد البوصات ،
والحق ان البوصات يجب ألا تدخل في أي مقياس مناسب يؤخذ للحوت .

قياس هيكل الحوت

أريد ان اضع بين أيديكم - في المقام الاول - تقريراً خاصاً واضحاً حول البنية الحية لهذا اللويathan الذي سأعرض عليكم هيكله في ايجاز، فقد يكون هذا التقرير في هذا الموطن مفيداً .

حسب التقدير الدقيق الذي قمت به وبنيتة - من بعض نواحيه - على قول القبطان اسكورسي : ان اكبر حوت اثنى (حوت جرينلاند) يبلغ ستين قدماً في الطول فانه يزن سبعين طناً، أقول : حسب تقديري الدقيق ان اضخم حوت عنبر يقع بين ٨٥ - ٩٠ قدماً في الطول وان محيطه في أعرض المواضع اقل قليلاً من اربعين قدماً وان مثل هذا الحوت يزن تسعين طناً على الاقل فاذا قدرت لكل طن ثلاثة عشر رجلاً فانه يرجح كثيراً بسكان قرية كاملة مجتمعين يعدون ألفاً ومائة نسمة .

ألا ترى معي انه لا بد من وضع أدمغة كثيرة في هذا اللويathan ، كالبحر التي تضعها تحت النير، كي تجعله يتزحزح فيدخل في خيال اي واحد من أبناء الارض؟

وبما انه قد سبق لي ان وضعت امامك حجمته ووقب نفائته وفكه واسنانه وذنبه وجبهته وزعانفه واجزاء اخرى متنوعة منه فاني اكتفي هنا بأن ابين اشد ما يثير الاهتمام في الحجم العام من عظامه التي لا يعترض دونها عارض؛ وبما ان الجمجمة الجسمية تحتل نسبة كبيرة جداً من طول الهيكل الكلي مثلما انها اشد اجزائه تعقيداً، وبما اني لن اكرر شيئاً عنها في هذا الفصل فلا أرينك تعجز

عن حملها في ذهنك او تحت ابطك فيما نحن نذهب قدماً، وإلا لم تستطع ان تكسب فكرة كاملة عن بنيته العامة التي سنلقي عليها النظر بعيد قليل .

كان طول هيكل حوت العنبر في ترانكه اثنين وسبعين قدماً، فاذا كسوته اللحم والاهاب وجعلته يمتد حياً كان طوله تسعين قدماً ولا بد ؛ لان هيكل الحوت يفقد حوالي خمس طوله اذا قيس ببنيته وهو حي . وتساوي حجمته وفكه عشرين قدماً من طوله كله، ويبقى خمسون قدماً تمثل العمود الفقري ؛ ويتصل بهذا العمود - على طول يبلغ اقل من ثلث طوله الكلي - قفص دائري هائل من الاضلاع كانت تضم ذات مرة اعضاء الهامة .

وكنت ارى هذا الصدر ذا الحنايا العاجية وذلك الصلب الطويل الموثق به يمتد طويلاً في خط مستقيم فأرى شيئاً يشبه هيكل سفينة ضخمة قد وضعت حديثاً على الاواح ولم يصف الصناع من اضلاعها العارية سوى عشرين او نحوها، فأما أريبتها فما تعدو ان تكون في ذلك الحين ، خشباً طويلاً غير موصول الاواصر .

وعلى كل جهة عشرة اضلاع وأولها - اذا بدأنا العدّ من جهة العنق - يبلغ ما يقرب من ستة اقدام طولاً، والثاني اطول منه وكذلك الثالث والرابع على التوالي ، حتى تبلغ ذروة الضلع الخامس او واحداً من الاضلاع الوسطى وطول الواحد منها ثمانية اقدام وبضع بوصات، ومن ثمّ تتناقص اطوال الاضلاع الباقية حتى العاشر آخرها، وهو لا يبلغ سوى خمسة اقدام وبضع بوصات . وأما في السمك فانها جميعاً ذات سمك مناسب لاطوالها ، وأشدّها تقوساً الاضلاع الوسطى، وهي تستعمل في بعض جهات الاراضي الارسكية عوارض تمد فوقها الجسور للعبور فوق الجداول .

وحين تأملت هذه الاضلاع لم املك الا ان أعجب عجباً مستأنفاً من الامر الذي أبدأت فيه وأعدت في هذا الكتاب وهو ان هيكل الحوت لا يمثل شكله الكلي وهو مطبّق لحماً وشحمًا ، واكبر اضلاع الحوت الذي رأيته في ترانكه - وهو احد الاضلاع الوسطى - يشغل ذلك الجزء الذي يعد في الحوت - وهو حي - أبعد الاجزاء غوراً ؛ واعظم غور لجسم ذلك الحوت قبل ان يجرد من اهابه يبلغ ستين قدماً، في الاقل، بينما لا يبلغ طول الضلع المصاحب لذلك الغور إلا ثمانية اقدام او أزيد قليلاً، فهذا الضلع لا ينقل الينا من حقيقة الغور في ذلك الجزء من الحوت الحيّ إلا نصفها، ثم ان الموضع الذي لم أرَ فيه الا فقاراً عارياً كان مكسواً ذات يوم بأطنان من اللحم والعضل والدم والاحشاء تزيد من ضخامته . زد على ذلك اني لم أرَ مكان الزعانف المستعرضة الا بضعة مفاصل مفككة ، وما رأيته في موضع الشطيرتين الراجحتين الفخمتين اللتين لا عظم فيهما شيئاً سوى فراغ مديد .

وقلت لنفسى حينئذ : ما احق واجهل المرء الفروقة الذي لم يتمرس بالسفار وهو يجرب ان يتصور هذا الحوت العجيب تصوراً شاملاً صحيحاً بالاستغراق في تأمل هيكله الميت المهزول وهو ممتد في هذه الغابة الآمنة . كلا ! لا يدرك احد الحوت وهو في كامل لبوسه ادراكاً صحيحاً حياً إلا في وهو قلب الخطر الوحيّ، إلا وهو دون خطر ان شطيرتيه الغاضبتين، إلا وهو على أثباج البحر العميق المترامي .

والعمود الفقري وما ادراك ما هو ! خير وضع تتأمله فيه وتقدر جسامته هو ان تكس الفقرات فيه صعداً بقوة المرفاع . عملٌ لا يتمّ لحماً . ولكن اذا كان في الامكان اتمامه بدا لك وكأنه سارية بوهي^١ .

١ طولها ٦٧ قدماً على قاعدة تبلغ ٢١ قدماً وتقع على بعد $\frac{3}{4}$ ميل من الاسكندرية .

وعدد الفقرات اربعون ونيف غير موثقة في الهيكل معًا وانما تتراءى كالقطع الحجرية العقداء في مسلة قوطية وتشكل مداмик صلبة من بناء راسخ؛ واكبرها احدى الفقرات الوسطى ويبلغ اتساعها اقل من ثلاثة اقدام بقليل وتزيد في الارتفاع على اربعة، واصغرها حيث يستدق العمود الفقري عند الذنب تبلغ القدمين اتساعًا وتبدو كأنها كرة بليارد بيضاء وقد قيل لي ان هناك فقرات اصغر منها ولكن استطارها بعض الجن الصغار العابثين اعني تلامذة القسيس الذين سرقوها ليلعبوا بها لعبة الأكر . وهكذا نرى ان فقار اضخم الموجودات الحية تستدق حتى تصبح في النهاية لعبة في يد طفل .

الحوت في حالة تخبر

ان جسامه الحوت لتجعل منه موضوعاً غاية في الامتاع يمكن ان يمتد ويتسع ويسترسل اسهاباً واطناباً، ولو شئت ان توجز فيه لما قدرت، فمن حقه ان لا يكتب عنه إلا اضخم المجلدات لا لتعيد القول في الابعاد الممتدة بين مخطمه وذنبه والمسافة التي يبلغها يحيطه عند وسطه وانما فكّر فحسب في تلافيف احشائه الهائلة حيث ترقد في جوفه كأنها حبال ومواصر غليظة قد تطوّت والتفت في أغوار العنبر الاسفل من سفينة حربية .

وبما اني قد اخذت على عاتقي أن أدير هذا الحوت بيدي فن الجدير بي ان اكون كفاهاً بهذا العمل وان أحيط به احاطة العالم الذي احصى كل شيء فيه علماء، فلا أغفل أصغر جرثومة منوية في دمه، وأنشر تلافيف احشائه امام الانظار حتى آخرها . وبما اني قد وصفته في خصائصه البيئية والتشريحية، فانه يتبقى عليّ ان الحظه من زاوية علم الآثار وأراه مستحجراً في أحافير كانت قبل عهد الطوفان . واذا انت استعملت هذه الالفاظ الفخمة — مثل الآثار والاستحجار والأحافير وما قبل الطوفان — وانت تتحدث عن مخلوق آخر سوى هذا اللويathan، كأن يكون غلة او برغوثاً ظنّ الناس — بحق — انك تجعل من الحبة قبة، وتنتحل تفصيحاً وتضجعاً لا يجد له مسوغاً . ولكن ان كان اللويathan هو موضوع حديثك فقد اختلفت القضية . لشد ما تملأ الغبطة جوانحي وأنا أترنح نحو هذه المغامرة تحت وطأة اثقل الالفاظ في القاموس : ولأقرر في هذا الموطن انني كلما وجدت من المناسب أن أراجع قاموساً في سياق هذه

المقالات فاني على الدوام استعمل طبعة ضخمة من قاموس الدكتور جونسون اشتريتها لهذه الغاية، اقولها دون موارد، لان حجم ذلك اللغوي المشهور، وهو حجم غير عادي في ضخامته، قد أهله خير تأهيل لتصنيف قاموس يستعمله مؤلف عن الحيتان مثلي.

وكثيراً ما يسمع المرء عن كتاب ارتفعوا وتضخموا عن طريق موضوعهم وان كان يبدو موضوعاً عادياً مألوفاً فكيف يكون حالي اذن وأنا اكتب عن اللويئات؟ ان خطي ليمتد حينئذٍ لاشعورياً حتى يغدو حروفاً كبيرة كالتي تخط بها الاعلانات. أعطوني ريشة من ريش نسر الانديز اكتب بها! هاتوا لي فوهة بركان فيزوف لأتخذها دواة! أعينوا ساعدي ايها الاصدقاء! اذ انني وأنا أحصر أفكاري حول هذا اللويئات محض حصر تثقلني وتعجزني، فيغمى عليّ من غمرتها المترامية وهي تعبّ عباً فائضاً كأنني أحاول ان أحيط بدائرة العلوم جميعاً وبكل اجيال الحيتان والناس والمستودونات في الماضي والحاضر والمستقبل، وبكل مجالي هذا الكون الارضي الدوّار ومن خلل العالم كله، لا أستثني من ذلك ضواحيه. ذلك هو فضل الموضوع الضخم الطليق وذلك هو الكبر الذي ينفخ به النفس فنحن نمتد حتى نناظره حجماً، واذا نشئت ان تؤلف كتاباً جسيماً فعليك ان تختار موضوعاً جسيماً ولكنك لن تستطيع ان تكتب مجلداً عظيماً خالداً عن البرغوث وان كان من حاولوا هذا ناساً كثيرين.

وقبل ان آخذ في موضوع الحيتان المتحجرة أقدم الوثائق التي تثبت اني عالم جيولوجي فأقرر انني في اوقات متعددة متفاوتة كنت بناءً بالحجر وحفّاراً عظيماً للخنادق والقنوات والآبار وأقبية الخمر والمخادع والصهاريج من كل نوع^١؛ ثم أحب - على سبيل المقدمة - ان اذكر القاريء انه بينما توجد في

١ انفق ملفل عدة اشهر من عامي ١٨٣٨-١٨٣٩ يدرس الهندسة والمساحة واستعان بجواه عمه ليكسب وظيفة في قنال إيرري واخفق فسافر الى لفربول على السفينة «سنت لورنس».

الطبقات الجيولوجية القديمة متحجرات وحوش انقرضت او كادت فان الآثار التالية التي استكشفت فيما يسمى « التكوينات الثلثية » تبدو وكأنها صلة الوصل — او على اي حال الحلقات المتوسطة — بين المخلوقات التي وجدت قبل التاريخ والمخلوقات التي يقال ان نسلها البعيد قد دخل السفينة مع نوح . وكل الحيتان المتحجرة التي كشفت حتى اليوم تنتمي الى الفترة الثلثية وهي الاخيرة التي تسبق التكوينات السطحية ، وليس في هذه الحيتان ما يطابق بدقة اي فصيلة من الفصائل الباقية حتى يومنا هذا غير انها قريبة الشبه منها في مظاهر عامة قرابة تسوغ عدّها متحجرات حوتية .

وجدت متحجرات متفرقة مهشمة لحيتان قبل عهد آدم وهي شظايا من عظامها وهياكلها ، وجدت خلال السنوات الثلاثين الماضية وفي فترات متعاقبة عند قاعدة جبال الألب وفي لمبارديا وفرنسا والمجلترا وسكوتلنده وفي ولايات لويزيانا وميسسي وألباما . ولعلّ من أغرب ما وجد منها جزءاً من جمجمة استخرج عام ١٧٧٩ من شارع دوفينييه بباريس وهو شارع قصير يكاد يفضي رأساً الى قصر التويليري ؛ وعظاماً استخرجت أثناء حفر أحواض السفن بمدينة أنتورب في أيام نابليون . وقد صرّح كوفييه ان هذه الشظايا تنتمي الى فصيلة من فصائل اللويثان غير معروفة أبداً .

ولكن أشد الآثار الحوتية جميعاً اثاراً للدهشة والعجب هيكل ضخمة يكاد ان يكون كاملاً لوحش بائد وجد عام ١٨٤٢ في مزرعة القاضي كريج بولاية ألباما وقد ظنه العبيد السذّج في المنطقة المجاورة الذين تملكهم الرهبة لدى رؤيته عظام أحد الملائكة الذين هووا من السماء ، أما علماء ألباما فقالوا انه زاحف من الزواحف ضخم ودعوه باسم بسيلوساورس ولكن عيّنات من عظامه نقلت بجرأ الى أون عالم التشريح الانجليزي فاذا بهذا الزاحف المزعوم حوت وان كان من فصيلة بائدة ، وهذا شاهد فذ على الحقيقة التي طالما رددناها في هذا

الكتاب أعني ان هيكل الحوت لا يهيب، إلا دليلاً صغيراً على الشكل الحقيقي للحوت الحيّ . وأعاد أون تسميته فسمّاه زيوجلودون وقال في بحثه الذي ألقاه أمام الجمعية الجيولوجية اللندنية انه في جـوهـره من أغرب المخلوقات الغريبة ، التي طمسها من الوجود تقلبات الكرة الارضية .

وأقف بين هذه الهياكل والجماجم والانياب والفكوك والاضلاع والفقرات ، وكلها جسم هائل ، وكلها ذات شبه جزئي للسلاسل الباقية من وحوش البحر ، إلا انها في الوقت نفسه تحمل مشابهة باللويثانات الدارسة المنقرضة التي وجدت قبل عهد التاريخ ، تلك اللويثانات التي تمثل جدودها العليا التي تعز على الحصر والاحصاء . وحين أقف بينها يحملني طوفان عوداً الى تلك الحقبة العجيبة قبل ان يبدأ الزمن نفسه ، ان صح القول ، لان الزمن بدأ بظهور الانسان . ثمه يعب فوق رأسي العماء الرمادي الذي ينشره زحل وأحظى بالتعامات معتمة مرتعشة في تلك الازليات القطبية حين كانت الابراج المتراكبة من الجليد ترهص بوطأتها ما يسمى اليوم المناطق الاستوائية ولم يكن ليرى في مدى الاميال التي تمثل محيط الكون (وعدها ٢٥ ألفاً) عرض الراحة من أرض مأهولة . يومئذ كان العالم كله عالماً للحوت ، وترك وهو ملك المخلوقات أثره على طول الخطوط الراهنة في جبال الانديز والهملايا . من ذا يستطيع ان يدلّ بنسب كنسب الحوت؟ لقد أهرقت حربة آخاب دماً أبعد في العتق والقدم من دم فرعون . وأما متوشالح فانه ليس ازاءه الا طالباً صغيراً . وانظر حولي لأصافح سام بن نوح ، ويملاً الرعب قلبي وأنا انظر الى ويلات الحوت التي لا يمكن الافصاح عنها ، ويلاته التي كان وجودها الذي لا يعرف مبتدأه قبل عهد موسى ، ويلات وجدت قبل ان يكون الزمن ولا بد ان تظل بعد ان تنطوي العصور الانسانية .

ولم يترك هذا اللويثان آثاره القبيل آدمية فحسب مطبوعة على صفحات الطبيعة ، ولم يخلف قاعدته القديمة في الجير والثرى الكلسي فحسب ، وانما نجد

طوابع لا تخطئها العين دمغتها زعنفته على الألواح المصرية التي اكتسب لها قدمها طابع المتحجرات او كاد : منذ خمسين سنة استكشفت في احدى غرف الهيكل الكبير في دندره على السقف الجرانيتي خريطة للبروج منحوتة مدهونة وقد حفلت بصورة السنطور والعنقاوات والدلافن تشبه الصور العجيبة على الكرة السماوية لدى المحدثين ، وينساب بينها اللويائن القديم ساجحاً كما كان يفعل في سالف الازمان . أكانت هناك سباحة في خريطة البروج قبل قرون من وضع سليمان في المهد ؟

وعلىنا ان لا نتناسى شاهداً آخر غريباً على قدم الحوت في كيانه العظيم التالي لعهد الطوفان كما دوتنه جون ليو المحترم رحالة شمال افريقية :

« وغير بعيد من ساحل البحر يقوم لهم هيكل عوارضه وعمده مصنوعة من عظام الحوت ، اذ ان حيتاناً ذات حجوم هائلة كثيراً ما يقذف بها البحر ميتة على الساحل ويعتقد العامة ان لا حوت يستطيع ان يجاوز ذلك الهيكل دون ان يدركه الموت الوحيّ وذلك من سرّ قوة أودعها الله في ذلك الهيكل . وحقيقة الامر ان على جانبي الهيكل صخوراً تمتد في البحر على مدى ميلين وهي تخرج الحيتان كلما حطت فوقها . وهم يتخذون ضلع حوت ذي طول بالغ من أجل اظهار المعجزة وهذا الضلع على الارض وجانبه المحذب في أعلى ، وبذا أصبح قنطرة لا يستطيع ان يبلغ ذروتها رجل يمتطي جملاً . ويقول جون ليو « ان هذا الضلع كان هناك منذ مئات السنين قبل ان أراه ، ويؤكد مؤرخوهم ان نبياً بشر بظهور محمد خرج من ذلك الهيكل ، وبعضهم لا يتورع عن ان يؤكد بأن النبي يونان [ذا الذون] قد ألقى به الحوت عند قاعدة ذلك الهيكل » .

في هذا الهيكل الافريقي - هيكل الحوت - أتركك أيها القارئ واذا كنت من أهالي نانتوكت وكنت حواتاً جلست هنالك تتعبد في صمت .

هل ينقص جرم الحوت ؟ أتراه يندرس ؟

بقدر ما يبذل الحوت من جهد منحدرأً إلنا من منابع الابدية ، يلقي بنا
ان نسال : أتراه في السياق الطويل لاجياله لم يتضاءل حجماً بالنسبة لحجم
أجداده أصلاً ؟

ولكننا لدى البحث لا نجد فحسب ان حيتان العصر الحاضر أسمى جرماً من
تلك التي بقيت منها، في صورة متحجرات، بقايا في العصر الثلاثي (اي في فترة
جيولوجية متميزة قبل ان يكون الانسان) بل نجد ان الحيتان التي وجدت في
الفترة المتأخرة من العصر الثلاثي تفوق في حجمها الحيتان التي وجدت في
الفترات الاولى من ذلك العصر .

وأضخم الحيتان التي استخرجت وهي تنتمي الى عصر ما قبل آدم حوت
الباما الذي ذكرته في الفصل السابق ، وطول هيكله أقل من سبعين قدماً، بينما
قد رأينا ان المقياس يشير الى ان هيكل الحوت الحديث ذي الجرم الضخم
يبلغ اثنين وسبعين قدماً ، وقد سمعت والعهد على الحواتين أنهم صادوا حيتان
عنبر بلغت مئة قدم طولاً وقت صيدها .

ولكن ان كانت الحيتان في الايام الراهنة قد زادت في الجرم على حيتان
جميع الفترات الجيولوجية السابقة ألا يصح ان تكون الحيتان منذ عهد آدم
حتى اليوم قد تضاءلت حجوماً ؟

يقيناً لا بد من ان نقر بهذه النتيجة ان نحن صدقنا أخبار سيد مثل بليني ومؤرخي الطبيعة القدماء بعامة ، اذ يخبرنا بليني عن حيتان كانت تفتش أفدنة وهي حية ، ويحدثنا الدروفاندس عن حيتان أخرى يبلغ طول أحدها ثمانمائة قدم - كأنما هي حبال ممدودة او أنفاق ممتدة تحت نهر التيمس . بل حتى في أيام بانكس وسولاندر المؤرخين الطبيعيين المرافقين لكوك نجد عضواً دغركياً في أكاديمية العلوم يقول ان بعض حيتان ايسلنده (من ذوات الكروش المغضنة) تبلغ ١٢٠ ياردة أي ٣٦٠ قدماً . ويقول لاسيبيد العالم الطبيعي الفرنسي في كتابه المفصل عن تاريخ الحيتان ، وفي فاتحة الكتاب نفسها ، على الصفحة الثالثة ان الحوت الاثني يبلغ مائة متر اي ٣٢٨ قدماً ؛ وقد نشر هذا الكتاب في عام ١٨٢٥ .

ولكن أصدق اي حوات مثل هذه القصص ؟ كلا ، فحوت الايام الحاضرة يبلغ في الحجم مبلغ أجداده الذين عاشوا في أيام بليني واذا قدر لي ان أذهب أبدأ الى حيث يقيم بليني فاني انا الحوات (ولم يبلغ هو في ذلك مبلغي) سأعجراً وأخبره بما أعتقد . لاني لست أفهم كيف ان المومياءات المصرية التي ألحقت قبل آلاف السنين ، قبل ان يولد بليني نفسه ، لا تزيد لو أنك قست طولها وهي في لحودها عن طول فرد من أهالي كنتوكي وهو مرتد جوربه ؛ وكيف ان الماشية وغيرها من الحيوانات المنحوتة على الالواح المصرية والاشورية القديمة حسب مقاييس الرسم النسبية التي رسمت فيها ، تبهن بوضوح على ان ماشية سمثفيلد^١ التي يجري التحري في تناقضها ، وتقدم لها التغذية في مذاودها ، وتعرض لنيل الجوائز ، لا تساوي فحسب ، بل تبذ في جرمها ، أسمن ما كان لدى فرعون من بقر حنيد ؛ لست أفهم كيف يكون ذلك كذلك ثم يرجى مني ان أقر بأن الحوت وحده من بين جميع الحيوانات قد تضاعل جرمها .

١ سوق المواشي بلندن منذ عام ١١٥٠ او قبل ذلك .

ويتبقى سؤال آخر ، سؤال كثيراً ما يشيره أبناء نانتوكت ذور الغموض والابهام : ما دامت الحوانات مزودة بمراقب عند رموس الصواري عليها رقباء كأنما لا تخفى عليهم خافية وهي تتغلغل نافذة حتى من مضيق برنج وفي أقصى مسارب العالم المائي ومغالقه ، وما دامت آلاف الرماح والحراپ تقذف على طول السواحل القارية جميعاً : ما دام الامر كذلك فالنقطة التي يدور حولها الجدل هي : هل يظل اللويثان يتحمل هذه المطاردة الواسعة وهذه الابادة التي لا تشوبها رحمة ؟ أليس مصيره ولا بد في النهاية ان يستأصل من البحار ، وآخر حوت كآخر إنسان ينفث دخان غليونه ثم يتلاشى هو نفسه في النفثة الاخيرة ؟

لنقارن بين القطعان ذوات الحرادب من الحيتان وقطعان الجاموس البري ذوات الحرادب ايضاً فبماذا توحى المقارنة ؟ كانت هذه الثانية قبل ما يقلّ عن أربعين عاماً منتشرة في عشرات الالوف على وجه السهوب في الينوي ومسوري وتزه معارفها الحديدية وتعقد جباهها المتجهمة التي كأنما ساطها الرعد فوق مواقع ما أصبح عواصم نهريّة كثيفة السكان ، حيث يبيعك السمسار المهبّذ كل بوصة من أرض بمبلغ دولار . مثل هذه المقارنة قد تهيم حجة دامغة لا نجد لها نقضاً ، اذ تدلّ على ان الحوت المصيد لن ينجو من مثل هذا الفناء السريع .

ولكن علينا ان ننظر الى الامر من جميع وجوهه . حقاً إن عدد الجاموس البري في الينوي منذ مدة قصيرة - لا تحسن ان تسمى عمراً - كان يربو على عدد الناس اليوم في لندن ؛ وأنت لا ترى اليوم في كل تلك المنطقة ظلفاً او قرناً باقياً ؛ وأن سبب هذا الاستئصال المذهل انما هو حرية الانسان ؛ كل هذا صحيح ، غير ان طبيعة صيد الحوت المباينة لصيد الجاموس تحول حتماً بين الحوت ومثل هذا المصير المزري . أربعون رجلاً في سفينة تصطاد حوت العنبر مدة ثمانية وأربعين شهراً قد يحسبون أنهم أحسنوا صنعاً ويحمدون الله ان عادوا الى وطنهم في النهاية وهم يحملون زيت أربعين حوتاً . أما في أيام الصيادين الكنديين والهنود

القدماء وناصبي الاشرار من أبناء الغرب، حين كان الغرب (الذي لا تزال الشمس تطلع في مغربه) قفراً بكرةً فإن العدد نفسه من الرجال ذوي الاحذية المقسنية ينفقون عدداً مساوياً من الشهور ويعودون وقد ذبحوا أربعين ألفاً من الجواميس او تزيد ، لا أربعين عدداً، وتلك حقيقة يمكن ان تدعم عن طريق الاحصاءات ان شاء أحد ذلك .

بل انك اذا تأملت هذه الحجة على وجهها الصحيح لم تكن دليلاً يؤيد القول بالفناء المتدرج لحوت العنبر مثلاً ، ففي السنوات السابقة (الفترة الاخيرة من القرن الماضي على سبيل المثال) كان الحواتون يرون هذا الحوت في أصورة صغيرة بأكثر مما يروونه اليوم ، ومن ثم لم تكن رحلاتهم تطول كما أنها كانت دائرة بخير وفير ، ذلك ان هذه الحيتان كما لحظنا في غير هذا الموضع سيطرت عليها فكرة عن السلامة والنجاة فهي اليوم تمخر عباب البحار في قوافل كبيرة بحيث تقول ، وقولك لا يبعد الصواب ، بأن الحيتان المفردة وأزواج الحيتان ، والاصورة ، وفئات الايام الاولى أخذت اليوم تتجمع على شكل جيوش كثيفة ضخمة وان كانت جيوشاً متباعدة . ذلك كل مساهنالك . ويستوي مع تلك الحجة في تضليلها توهم من ظن أن الحيتان البلينية وقد كفت عن التردد على مجالات كانت من قبل حافلة بها فهي إذن فصيلة آخذة بالانحدار . ذلك انها إنما طردت من أكمة بحرية الى رأس بحري ، واذا لم يعد أحد الشواطئ ينتعش بنفائتها فكن على يقين من ان هناك سيفاً آخر أنأى منه قد أصبح منذ عهد قريب مفزَعاً بذلك المنظر الغريب .

ثم ان لدى هذه الحيتان التي ذكرتها أخيراً قلعيتين ثابتتين ركيقتين ستطلان ، على وجه ما يقدره بنو الانسان من احتمالات ، عاتبتين منيعتين أبد الدهر . حين تعرضت وديان سويسرا للهجمات تراجع السويسريون أبناء الصقيع الى جبالهم وهكذا الحيتان البلينية : اذا طاردها الصيادون من سهوب البحار الوسطى

ومسارها استطاعت ان تأوي الى حِصْنَيْهَا القطبيين وأن تغوص تحت الحواجز
والجدران الزجاجية القصوى ، وأن تبرز بين حقول الجليد والأطواف الثلجية ،
فاذا تجرم الحول وعاد اليها كانوا الاول العائد أبداً ، تحدث كل مطاردة يقوم
بها الانسان .

وكلما اصطاد الحواتون خمسين من الحيتان البلينية صادوا في مقابلها
قشوطاً غريباً واحداً ، ولهذا استنتج بعض فلاسفة المنارة ان هذه الابداء قد
أنقصت من كتابها إنقاصاً بالغاً . حقاً كان ما يصاد من هذه الحيتان ، طوال
مدة ماضية ، لا يقل عن ثلاثة عشر ألفاً كل عام على الساحل الشمالي الغربي
من الامريكيتين وحدهما ، ولكن هناك اعتبارات تجعل هذا الامر نفسه قليل
القيمة او معدومها في اتخاذ حجة مضادة في هذه القضية .

من الطبيعي ان نتردد في تصديق كثرة الحيوانات الضخمة على ظهر الكرة
الارضية : ولكن ماذا نقول لهارتو مؤرخ جوا حين يخبرنا ان ملك سيام اصطاد
في مرة واحدة أربعمئة فيل ، وأن الفيلة في تلك النواحي عديدة كقطعان الماشية
في المناطق المعتدلة . واذا كانت الفيلة التي مرت عليها آلاف السنين وهي تصاد
— صادتها سميراميس وبورس وهنيبال وجميع من تلاهم من ملوك الشرق —
اذا كانت ما تزال باقية في أعداد كبيرة ، فان الحوت العظيم أجدر ان يبقى
رغم المطاردات ، ولا سبب يدعونا الى ان نرتاب في ذلك ، ما دام لديه مرعى
ينتشر فيه ، مرعى يساوي ضعفي آسيا كلها ومعها قارة امريكا وأوروبا
وافريقية وهولنده الجديدة وجزر البحر مجتمعة .

ثم ان الحوت يطول به العمر كثيراً وهذا يجعلنا نقدر ان الواحد منها قد
يعيش قرناً او اكثر ، واذن ففي حقبة واحدة من الزمن ، تكون أجيال كثيرة
متأيزة من الحيتان الفتية متعاصرة ، وانا لفستطيع ان نكون فكرة عما تعنيه هذه

الحقيقة اذا نحن تخيلنا المقابر والجبانات والفستقيات وهي تبعث من في بطونها
أحياء من رجال ونساء وأطفال كانوا على قيد الحياة قبل خمسة وسبعين عاماً ،
وتضيف هذا الجيش العرمرم الى السكان الاحياء فوق ظهر الارض .

لأجل هذه الامور جميعاً نعد الحوت خالداً زرافات وفصائل مم! يمكن
الفناء من نصيبه افراداً، لقد كان يحب البحار قبل ان ينشق الماء عن القارات ،
وكان ذات يوم يسبح فوق موقع التويلري وقلعة وندسر والكرملين . ويوم عمّ
الكون طوفان نوح ازدرى سفينته؛ فاذا غمر الطوفان العالم مرة أخرى ، كما
تنغمر أراضي هولندا ، ليقتل ما فيه من جرذان فان الحوت الخالد سيقاوم
الفناء ، وسوف يرسل نفثاته المزبدة متحدياً السماء وهو محمول على أعلى قمة في
الطوفان الاستوائي .

رجل آخاب

تلك الطريقة العجلى المتهورّة التي غادر بها آخاب السفينة صومويل أندربى اللندنية كانت مصحوبة ببعض العنف اليسير الذي اصاب شخصه ، فقد نزل على مقعد المجذاف في قاربه باندفاع حتى ان رجله العاجية تلقت صدمة كادت تشظّيها وعندما اصبح على ظهر سفينته ووضع رجله في الثقب المحوري دار دورة حادة وهو يلقي امرأ عاجلاً الى القائم على الدفة (كان خطؤه هو الخطأ المعتاد في انه لم ينحن بدفته انحاء كافياً) ؛ عندئذ تلقت العاجية التي اوهتها الصدمة الاولى وثياً ولياً جديداً ، ومع انها ظلت في ظاهرها سليمة قوية فان آخاب لم يعد يرى انه يمكن ان يوليها ثقته الكاملة .

والحق ان آخاب احياناً رغم تهوّرهِ الاحق الغالب وقلة توقيه كان يولي حال هذه الرجل الميتة التي يتحامل يجاذب من جسمه فوقها عناية فائقة ، وتلك مسألة صغيرة لكنها لا تخلو من اثاره العجب ؛ فقبل وقت غير طويل من مغادرة الباقوطة لميناء نانتوكت وجد آخاب ذات ليلة منبطحاً على الارض فاقدأ وعيه . وقد انتثر عضوه العاجي من مكانه بعنف حتى انه ضرب برأسه طرف وركه وكاد يخترقه ، وبعد جهد جهيد شفي من جرحه الأليم . اما كيف حدث ذلك فذلك يعزى الى قدر مجهول لا يستطيع تفسيره ولا يمكن تصويره .

ورسخ في ذهنه المرور يومئذ ان جميع العذاب الناجم عن ذلك الألم الراهن انما كان وليد بلية سابقة ، ويبدو انه استبان لنفسه ان كل الاحداث التعيسة تلد

— بطبيعة الامر — اشباهها ، مثلها ان اشد الزواحف أذى وسمًا في المستنقع وأحب الطيور المفردة في الحديقة يخلد كل منها نوعه بالتوالد، على نحو محتوم، ويتم هذا التوالد في صور الخير والشر جميعًا على قدر واحد من الهناء والغبطة . بل ان آخاب قال لنفسه : على قدرين متفاوتين، اذ ان نسل الاسى يعمر أكثر من نسل الفرح، لا اعني اني ألمح الى ما جاء في بعض حكم التوراة اذ ورد فيها ان بعض الافراح الطبيعية لا تنجب لها اولاداً في العالم الآخر، انمسا الفرح العقيم سيتلوه كل يأس جهنم، بينما بعض التعاسات البشرية الآثمة ستكون ولوداً فتنجب الى الابد نسلاً من الحزن، وراء القبر ؛ لا لست ألمح ابدأ الى هذه الحكمة، انما على ذلك لا يزال أمر الحزن والفرح اذا حللتها قائماً على عدم التساوي، وقد قال آخاب لنفسه : ان أرفع المسرات الارضية تحتوي على تفاهة تافهة كامنة فيها أما احزان القلب فان في اغوارها اهمية مغيبة ولها لدى بعض الناس رفعة ملائكية . وعلى هذا فان نتاجها اللاذب لا يكذب هذا الاستنتاج الواضح . واذا شئنا ان نتبع نسب هذه التعاسات الانسانية العليا نقلنا ذلك اخيراً الى الابناء البكر المنسوبين الى الآلهة والذين جاءوا من لا أين، حتى نقر امام وجه الشموس الجذلى التي تصنع الحداثق وأمام وجوه الاقمار المرنّمة المستديرة التي تنضج الجنى ، ان الآلهة انفسهم لا يخالهم السرور الى الابد . فعلامه الميلاد الحزينة المدموغة دمعاً لا يطمس على جباه الناس انما هي طابع الأسى في نفوس الذين طبعوها هنالك .

ها قد أفشيننا في هذا الموطن سرّاً ، دون ان نتفطن لذلك ، وربما كان من الانسب لو كشفنا عنه من قبل على نحو عامد : لم مكث آخاب مختفياً قبل ان تغادر الباقوطة الميناء وبعد ان غادرته ، مدة من الزمن، في وحدة كأنها وحدة

اللاما الجليل^١، ولمَ لاذ الى وحدة صامتة في تلك الفترة بين مجمع الرخام الذي يضم الموتى؟ ذلك أمر ظلّ، مع امور اخرى تتصل بآخاب، سرّاً خفيّاً لدى بعضهم. اما السبب المختلق الذي أشاعه القبطان فالج حول هذا الامر فلم يكن مقنعاً بحال وان كان كل كشف يمسّ الجوانب الأعمق من آخاب يعود بنصيب من الظلام المميز اكثر من الضياء الكاشف. غير ان كل شيء اتضح في النهاية او قل ان هذا الامر في الاقل انكشف، فقد كانت تلك الحادثة المحزنة هي السبب في عزله المؤقتة، ولم يقف الامر عند هذا الحدّ بل ان العصبية التي كانت تتناقص ويقل عدد افرادها على الشاطئ، العصبية الذين كان لهم، لأي سبب، حق يبيع لهم ان يقتربوا منه اكثر من سواهم، تلك العصبية الخوّارة تلبست لها تلك الحادثة التي ذكرتها آنفًا بلبوس الرعب وذهب بهم خيالهم الى انها قد تكون من عمل الاشباح ومن دنيا الاتراح، أما آخاب نفسه فانه لم يقدم لما أصابه تعليلًا وان ظلّ مكدر النفس به، ومن خلال حماسة تلك العصبية له اتفقوا فيما بينهم ما دام العلم بالامر مقصورًا عليهم، ان يطووه في صدورهم عن الآخرين؛ وهكذا لم يدع فوق ظهر الباقوطة إلا بعد مضي فترة غير قصيرة من الزمن.

وليكن من كل هذا ما يكون: سواء أكان الذي تدرس - او لم تدرس - بآخاب ابن الارض مجمع غامض محجوب في الفضاء او أسياد النار وسدتها المنتقمون، أقول مهما يكن من امر فان آخاب في هذا الامر المتعلق برجله لجأ الى طرق عملية - اعني انه استدعى النجار.

وحين حضر ذلك العامل بين يديه أمره ان يشرع في صنع رجل جديدة،

١ يقولون ان اللاما في بلاد التبت لا تقع عليه عين.

دون ابطاء ، وأمر ضباطه ان يراعوا انه قد زود بكل الدسر والمسامير من
الفك العاجي (فك حوت العنبر) مما كانوا قد جمعوه اثناء الرحلة حتى ينتقي
منها اقواها وأمتنها وأنصعها وأصفها من العروق ، وحين تم ذلك تلقى النجار
أوامر بأن ينجز صنع الرجل في تلك الليلة وان يزودها بكل مستلزماتها دون
اعتماد على الادوات التي كانت مستعملة في الرجل الموثوءة الواهية ، ثم أمر ان
ترفع عدة الحداد من حيث تقبع في العنبر وأمر الحداد ، رغبة في الاسراع ،
ان يبدأ حالاً بصنع ما يحتاج اليه من أدوات حديدية .

اتخذ لنفسك عرشاً سلطانياً وجلسة متعاطمة بين أقمار زحل، وتحيل الانسان من زاوية تجريدية سامية يتبدى لك عجباً وجلالاً وويلاً، ثم اعتبر بني الانسان جملة وسيبدون لك في معظم الحال رعاغاً من صور مكرورة بعضها حديث وبعضها قديم . غير ان نجار الباقوطة لم يكن صورة مكرورة، على انه متواضع لا يمكن ان يتخذ مثلاً لتجريد انساني سامٍ ، ولذا يظهر على هذا المسرح وحده .

كان هذا النجار ككل النجارين في السفن التي تجتأب البحار، وبخاصة من كان منهم ينتمي الى الحوانات، ذا خبرة في حرف وصناعات عديدة الى جانب حرفته ، وكان يمارسها الى حد عملي في سهولة ودون تعمل ، إلا ان حرفة النجارة كانت هي الجذع القديم الذي تتفرع منه بقية الحرف اليدوية المتصلة - اتصالاً كثيراً او قليلاً - بمادة الخشب من حيث هي مادة فرعية؛ وزيادة على الملحظ العام الذي أضفيناه على نجار الباقوطة فيما تقدم نقول انه كان ينفرد في كفايته في ممارسة تلك الامور الطارئة الآلية التي تبلغ الالف عدداً ولا تحمل اسماء مميزة لها، وهي امور تجري مراراً وتكراراً في السفينة الكبيرة حين تقضي في رحلتها ثلاث سنوات او اربعاً في بحار موحشة نائية. دع عنك ذكر استعداداته لانجاز الشئون العادية من اصلاح القوارب المشقوقة والسواري المتخلعة واصلاح اشكال المجاذيف التي كل حدها وتركيب الكوى في ظهر السفينة وغرز الخوابير الجديدة في الألواح الجانبية وغير ذلك من المواد المختلفة المتصلة مباشرة بصنعتة،

دع ذلك كله تجد أنه زيادة عليه كان ماهراً دون تردد في كل انواع الاهليات المتضاربة سواء في ذلك المفيد منها او الذي يتولد عن نزوة .

وكان المرسح الذي يمثل عليه كل هذه الفصول المتعددة هو الدكة ذات الملزقات ، وهي طاولة طويلة خشنة ثقيلة مزودة بملزمات عديدة من حجوج مختلفة بعضها من حديد وبعضها من خشب ، وهذه الدكة تظل في جميع الاوقات مربوطة بالعرض الى جانب السفينة ربطاً وثيقاً في مواجهة مؤخرة مصانع التصفية إلا حين تكون الحيتان مجنبة الى المركب .

هذا وتد الحبال اكبر من ان يدخل بسهولة في الثقب ، فالنجار « يلزمه » بسين فكي واحدة من ملازماته المعدة ابدًا وعلى التوّ يسجل منه وتدًا اصغر . وذلك طير من طيور البرضال ذو ريش غريب فهو يتلدّد حائرًا على ظهر السفينة ويؤخذ أسيرًا : فالنجار يصنع له قفصاً على هيئة الباغوده « المعبد الهندي » من قضبان مجردة معروقة بيضاء تتخذ من عظم الحوت الاثني تعارضها قضبان اخرى من عاج حوت العنبر . ويوهي أحد المجدفين رسفه فيطبخ له النجار غسولاً مسكناً . ويتوق اسطب الى ان يرى على شفرة كل مجداف لديه صور النجوم مدهونة بالزنجفر ، فيلزم النجار كل مجداف في ملازمته الخشبية الكبيرة ويزوده في انتظام بالصور النجومية ؛ ويرغب احد البحارة في ان يعلق في أذنيه شنوفاً من عظم القرش فيثقب النجار له حجوقي أذنيه . وهذا آخر يشكو ألماً في ضرره فيبرز النجار ملقطه ويلزم احدى يديه الى الدكة ويأمره ان يجلس هنالك ، غير ان الفتى المسكين يتوجع متلويًا متفلنًا أثناء العملية قبل ان تبلغ الحثام ، أما النجار فيدير مقبض الملزم الخشبي ويومئ اليه النجار ان يدخل فكه فيه ان شاء ان يقتلع النجار ضرره .

وهكذا كان النجار مستعداً في جميع الامور ، وكان في أداؤها جميعاً قليل

المبالاة قليل الرعة على حد سواء: كان يحسب الاضرار تنفأ من العاج، والرءوس بكرات في قمم الصواري، وكان يحسب الرجال انفسهم في استخفاف مساحب في سفينة، ولكن بما أنه كان يعمل في ميدان واسع وينجز هذه المتنوعات بحوية في المهارة فكل هذا قد يوحي بأنه كان ذا حظ فذ من الذكاء . ولكن الأمر ليس كذلك على وجه الدقة، اذ لم يكن هذا الرجل يتميز بشيء اكثر من بلادة بليدة مجردة من الحسّ الشخصي؛ أقول مجردة من الحس الشخصي لانها كانت تلقي ظلها على ما لا يحصر من الاشياء المحيطة حتى لترى وكأنها جزء لا يتجزأ من البلادة العامة التي نتحققها في جميع العالم المنظور، وهي قد تكون نشيطة دائبة في أحوال لا تحصى ولكنها مطمئنة قارّة أبد الدهر تتجاهلك حتى ولو كنت تحفر أسساً للكاتدرائيات . إلا ان هذه البلادة التي قد تروّع بعض ارتياح فيه تشمل ايضاً فيما يظهر قسوة قلب متشعبة في جميع الوجّهات غير انها كانت تنهرها على وجه غريب احياناً روح فكاهة كأنها العكاز عريقة شهدت ما قبل الطوفان تجيء هادرة صافرة تتخللها بين الحين والحين التماعات فضية من الفطنة، قد تكون من قبيل تلك الفكاهة الصالحة لازجاء الوقت الواقع خلال رقابة منتصف الليل في المنارة المدببة من سفينة نوح . أكان ذلك لان هذا النجار العجوز كان جواباً مدى الحياة فكان اهتزازة وراء وأماماً سبباً في انه لم يجمل الطحلب يعلق به، بل زاد فحتّ عنه ابي عوالق خارجية قد تكون في الاصل عالقة به؟ كان تجريداً مجرداً؛ عددًا صحيحاً من غير كسر؛ ناداً عنيداً كأنه وليد؛ يحيا دون انتاء مبيت الى هذا العالم او العالم الآخر . وربما كدت تقول ان هذا النداد الغريب فيه يتضمن نوعاً من الغباء اذ لم يكن يبدو انه يمارس حرفه العديدة بالعقل او بالفريضة او لانه درب فيها محض تدريب او بمزيج من هذه الامور كلها، سواء أكان مزيجاً متعادلاً او غير متعادل، وانما كان يؤدي ما يؤديه على نحو أصم أخرس تلقائي حرفي. كان محض امرىء صنّاع، اما ذهنه، ان كان له ذهن أبداً، فقد ترشح في عضلات أصابعه. كان شأنه شأن احدى ادوات شفيلد المبتكرة، مفيدة كبيرة الفائدة ولا عقل

لها - «متعدد في مفرد» - تتخذ ظاهر موسى الجيب المعروفة وان كانت اكثر منها انتفاخاً، لا تحتوي فحسب على شفرات من جميع الهجوم وانما تحتوي ايضاً مثبتات القلاووظ والبرائم والملاقط والمخارز والاقلام والمساطر ومبارد المسامير وسكاكين التخويز . فاذا أراد اسياد النجار ان يستغلوه مثبتاً بقلاووظ فكل ما عليهم ان يفعلوه هو ان يفتحوا ذلك الجانب منه ، واذا بالقلاووظ ثابت في موضعه ، واذا شاموا اتخاذه ملقطاً رفعوه من رجليه فاذا هو ملقط في ايديهم .

ولكن هذا النجار الحريف المتعدد الادوات الذي يعمل بالفتح والاغلاق لم يكن - حسبما سبق ان ألحنا - محض آلة ذاتية الحركة . فاذا لم يكن ثمة روح منبثة فيه فقد كان فيه شيء خفي يعمل عمل الروح على نحو شاذ . ماذا كان ذلك الشيء ؟ أكان روح الزئبق او بضع قطرات من ايدرات الامونيوم ؟ ذلك ما لا احد يدريه ، غير انه كان ثمة ؛ وثمره عاش نحو ستين عاماً او تزيد . وكان مبدأ الحياة هذا الماكر المتدسس فيه الذي لا نجد له تعليلاً وتفسيراً ، ذلك المبدأ هو الذي جعله يقضي اكثر الوقت مناجياً نفسه ، الا انه ليس إلا كالدولاب الجماد الذي يناجي نفسه بالطنين ، او قل ان جسمه كان مأوى الحارس وكان هذا المناجي حارساً فيه فهو يتحدث طوال الوقت ليبقى مستيقظاً .

آخاب والنجار

ظهر السفينة - النوبة الاولى من الحرامة الليلية

« النجار واقف أمام دكتته ذات الملازم وهو منهمك في برد دسار عاجي من أجل الرجل على ضوء قنديلين ، والدسار مثبت في الملمزة ، وتنتثر حول الطاولة شظايا من العاج وقطع الجلد واللباد والبراغي ويختلف الادوات من كل نوع . والى الامام تلوح نار الحدادة حيث القين منكب على العمل » .

المبرد يصيء والعظمة تصيء . صلبة هي التي يجب ان تكون رقيقة ، ورقيق هو الذي يجب ان يكون صلباً ، كذلك نختار نحن الذين نبرد الفكوك القديمة والظنابيب . لنجرب واحدة أخرى . أجل ، هذه أحسن (يعطس) هالو ، غبار العظم هذا (يعطس) ، ولكن (يعطس) نعم انه (يعطس) رحمة الله على روحي ان العطاس لا يدعني أتكلم ، هذا ما يجنيه رجل عجوز يعمل في خشب موات . انشر شجرة حية فانك لا تصادف هذا الغبار ، اقطع عظمة حية فلا تجده ايضاً (يعطس) . هيا . هيا يا اسمط العجوز أعطني يدك ودعنا نأخذ تلك الهراوة وبرغي الالبزيم . سأكون مستعداً لهما في الحال . من حسن الحظ (يعطس) أننا لن نصنع مفصل ركبة فذلك يحير بعض الشيء وانما نصنع قصبه ساق - وهذا أمر سهل كصنع مساند الدوالي ، إلا أني أحتاج ان أصقلها جيداً . المهم هو الوقت ، الوقت ، لو كان لدي وقت لجعلت منه رجلاً صالحة كخير (يعطس) رجل انخنت لسيدة في قاعة . تلك الارجسل المصنوعة من جلود الغزلان او

المعجول ، رأيتها في فترينات الحوانيت ولا أقارنها بها . انها تتشرب الماء ، انها تتشرب وتصبح سبباً في الروماتزم ولا بد من تطيبها (يعطس) بالغسول والماء كالارجل الحية . قدك ؛ قبل ان أنجزها لا بد ان أدعو « جنابه » وأرى ان كان الطول مناسباً ، لعلها أقصر من اللازم — فيما أختن — ان كان يعتورها شيء . ها . ذلك هو الكعب ! نحن محظوظون . ها هو قادم او لعله غيره ما في قدوم أحد من ريب .

آخاب [متقدماً] .

[خلال المنظر التالي يعتمد العطس النجار بين الحين والحين] .

— هلا يا صانع الأدميين !

— في الوقت المناسب جئت يا سيدي ؛ ان سمح القبطان فاني أقيس الطول ، دعني آخذ القياس سيدي .

— تقيس طول الرجل ! حسناً ؛ ليست هذه أول مرة . هيا ! تنبّه دع اصبعك عليها ؛ هذه ملزمة مفحمة تلك التي لديك هنا أيها النجار ، دعني أحس قبضتها مرة . كذا . كذا . انها لتؤذي بالقرص بعض الشيء .

— أواه يا سيدي انها تكسر العظام ، حذار ! حذار !

— لا تخف انا أحب القبضة المحكمة ، أحب ان أحس شيئاً في هذا العالم الزلق يتشبث ويقبض باحكام ، ايها الرجل . ماذا يفعل بروميثيوس هنالك — أعني الحداد — فيم هو ؟

— لا بد أنه يصنع برغي الابزيم .

— صدقت . هذه مشاركة فهو يصنع الجزء العضلي . انه يوقد شعلة حمراء قوية !

— أجل سيدي ؛ لا بد من ان تكون لديه الحرارة البيضاء من أجل هذا النوع من العمل الدقيق .

— ها . ها . لا بد له . اظن هذا شيئاً حافلاً بالمغزى ، أعني ان الاغريقي القديم بروميثيوس الذي صنع الناس كان حداداً ، ولا بد ، ووضع فيهم نسمة الحياة من النار لان ما يصنع من النار لا بد ان ينتمي الى النار ، فوجود جهنم أمر محتمل . كيف يتطاير السناج ! لا بد ان تكون هذه هي الحثالة التي صنع بروميثيوس منها الافريقيين . نجار ! حين ينتهي من صنع الازيم فقل له ان يصنع زوجاً من الاكتاف الفولاذية فعلى ظهر السفينة تاجر جواب يحمل حملاً يقض الظهر .

— سيدي ؟

— أمسك عليك ؛ ما دام بروميثيوس في الميدان فاني سأمر بصنع الناس كامل حسب أنموذج مرغوب . أولاً طوله وهو في جوربه خمسون قدماً ، وأما الصدر فيسوى على نسق نفق التيمس وللرجلين جذور تقفان عليها في مكان واحد ، والذراعان : محيط الواحد منها عند الرسغ ثلاثة أقدام ، لا قلب أبداً . جبهة نحاسية وحوالي ربع فدان من المخ الرقيق ، ثم دعني أنظر — أوصي بعينين تريان الى خارج ؟ كلا وانما أضع ناروزة في يافوخه لتضيء نحو الداخل . ويحك تلق الأمر وامض به !

— ترى عم يتكلم ولن يتكلم ، أود ان أعرف ؟ أأظل واقفاً هنا ؟ (منتحياً جانباً) .

— من يصنع قبة دون كوة فانما ذلك منه عدم مبالاة في فنه المعباري لا . لا . لا . لا بد من قنديل .

— ها . ها . ها هو . ها ها اثنان يا سيدي فأنا يكفيني واحد منها في عملي .

— لم تزجّ كشاف اللصوص في وجهي يا رجل ؟ ألسنت تعلم ان دفع الضوء في الوجه أسوأ من اهداء المسدسات .

— طننتك سيدي تكلمت الى النجار .

— النجار ؟ ذلك — لكن لا — أقول : هذا عمل متقن جداً مهذب غاية في التهذيب ، ذلك الذي تقوم به أيها النجار — او تحب ان تكون مادتك هي الصلصال ؟

— سيدي ؟ الصلصال ؟ تقول الصلصال يا سيدي ؟ ذلك طين ، ونحن نترك الطين لحفاري الحنادق يا سيدي !

— يا له من فتى زنديق ! ما بك تعطس كثيراً ؟

— العظيم مغبرّ يا سيدي .

— اتعظ اذن ، وحين تموت لا تدفن نفسك دون أنوف الناس الاحياء .

— سيدي ؟ اوه ! آه ! ذلك ما أخمنه — نعم — رباه !

— اسمع ايها النجار . لا غرابة اذا قلت لك إنك تدعو نفسك عاملاً صناعاً متقناً كأنك عامل ، أليس كذلك ؟ طيب . اذن اذا أحسست عندما امتطي هذه الرجل التي تصنعها ان هناك رجلاً أخرى في نفس المكان معها فهل يكون هذا ثناء على عملك ؟ وأعني بالرجل الثانية يا نجار رجلي القديمة المفقودة ، أعني ذات اللحم والدم . ألا تستطيع ان تطرد هذا الاحساس عني كما طرد آدم من الجنة ؟

— حقاً سيدي أخذ بصيص من الفهم يتسرب الى رأسي . نعم ، سمعت شيئاً غريباً من هذا القبيل يا سيدي وكيف ان الرجل الذي انحطم صاربه لا يفقد الاحساس تماماً بصاربه القديم بل يظل الصاري يخزه أحياناً . أيجوز لي ان أسأل في تواضع يا سيدي أحقاً ان الحال كذلك ؟

— هو كذلك ايها الرجل . اسمع . ضع رجلك الحية هنا في الموضع الذي كانت فيه رجلي . ها هنا رجل واحدة في نظر العين ولكن الروح تبصر ثنتين . حيث تحس انت بالحياة التي تحز هناك ، تماماً ، هناك ، هناك أحس بها أنا ايضاً في أدق صورها . أهذا لغز ؟

— بل اسميه في تواضع معضلة ، يا سيدي .

— أصخ اذن . كيف تعرف ان شيئاً حياً مفكراً لا يقف خفياً متغلفاً بالضبط حيث تقف أنت الآن ؟ أجل ، بل يقف هنالك رغماً عنك ؟ في أشد ساعات الوحدة اذن ألا تخشى من يسترقون السمع ؟ أمسك ، لا تتكلم . واذا كنت انا ما أزال أحس وخز رجلي المحطومة ، وان طال المهد على انفصالها عني ، فلم لا تحس أنت ايها النجار آلام جهنم النارية الى الابد ودون ان يكون لك جسم ؟ ما قولك ؟

— رباه ! حقاً ، سيدي ، ان كان الامر يبلغ ذلك فلا بد من ان أعيد الحساب ، أظنني لم أحتقب منه رقماً صغيراً يا سيدي .

— اسمع . ان الرءوس التي في شكل البودنج ليس لها ان تقدم المقدمات المنطقية — كم يستغرق انجاز الرجل ؟

— لعله يحتاج ساعة يا سيدي .

- جرّب غباءك في انجازها وأحضرها اليّ (يدور ذاهباً) آه أيتها الحياة .
ها أنا مستكبر كأحد الارباب الاغريقية ومع هذا أراني مدينوناً لهذا الغي من
أجل عظمة أقف عليها ، لعن هذا التقارض البشري الذي لا يستغني عن دفاتر
الحسابات ؛ أستطيع ان اكون طليقاً كالهواء ، وها انا مقيد في دفاتر العالم كلها .
انا غني حتى لقد كنت أستطيع ان أقف نهداً لأغنى البريتوريين في مزاد
الامبراطورية الرومانية (وكانت يومئذ هي العالم) ومع ذلك فأنا مدين باللحم في
اللسان الذي أتشوق به ؛ وحق السماء لأحضرن بوتقة وأدخل فيها وأتلاشى حتى
أحول عظمة فقارية صغيرة موجزة .

النجار [مستأنفاً عمله] :

« حيلك ! حيلك ! اسطب خير من يعرفه ، ويقول اسطب دائماً انه
طوري^١ . لا يقول شيئاً سوى هذه الكلمة الصغيرة الجامعة : « طوري » .
يقول اسطب فيه : طوري ؛ هو طوري - طوري ، طوري ولا يفتأ يدندن
بها في اذن السيد استاربسك طول الوقت - سيدي هو طوري ، طوري ،
طوري ، طوري جداً . وها هي رجله ! أجل ، كلما فكرت فيها وجدت فيها
رفيقتة في الفراش ! انه اتخذ عصا من عظم فك الحوت زوجة ؛ وهذه هي
رجله ، سيقف على هذه . كيف قال ان رجلاً واحدة تقف في ثلاثة مواضع ،
والمواضع الثلاثة جميعاً تقف في جهنم ، كيف كان ذلك ؟ آه . لا أعجب اذا
نظر اليّ بازدراء . انا انسان غريب التفكير أحياناً ، هكذا يقولون عني ،
ولكن هذا لا يجيء إلا من قبيل المصادفة . ان قامة قصيرة قميئة مثل قامتي
يجب ألا تظطلع بالخوض في المياه العميقة مع القباطنة الفارعين ذوي البنية
السامقة كبنية مالك الحزين ؛ مثلي اذا نزل في الماء داعبه الماء تحت ذقنه في

١ طوري : متقلب المزاج .

سرعة ، فأرسل صرخة عالية يطلب قوارب النجاة . وها هي رجل مالك
الحزين ، طويلة دقيقة ، بالتأكيد ! أكثر الناس لديهم رجلان تعيشان العمر كله
وما ذلك الا لانهم يستعملونها في شفقة مثلما تستعمل المعجوز ذات القلب الرقيق
حصاني عربتها المعجوزين المرتجفين كبراً وهزالاً . أما آخاب ، أوامه ، انه
سواقٌ حطّم . طرح ساق احدى رجله الى الموت وعرقب الاخرى طول
الحياة ، وها هو الآن يلبس أرجلاً عظمية يربطها بالخيوط . هالو انت يا اسحق !
مدّ يدك بتلك البراغي ولنتنه من هذه الرجل قبل ان ييجيء نافخ الصور داعياً
بصوره جميع الارجل ، أصلية كانت او مصنوعة ، مثلما يدور رجال المعاصر
ليجمعوا براميل البيرة القديمة كي يملأوها مرة أخرى . أي رجل هي ! تبدو
وكانها رجل حية ، قد تلاشت على الصقل فلم يبقَ الا لبها . سيقف عليها غداً ،
وسيزرع بها المسافات . هالو ! كدت أنسى قطعة الاردواز البيضاء الصغيرة
أعني قطعة العاج الملساء حيث يقيّد المسافات . كذا . كذا الى الازميل ،
الآن ، والمبرد وورق الصنفرة !

آخاب واستاربك في القمرة

كانوا يضحون السفينة حسبما جرت العادة في الصباح التالي وما هو الزيت الذي ذهب مع الماء غير قليل . لا بد ان تكون البراميل في الاسفل قد اصببت بعطب فلتسرب الزيت منها . وأبدى القوم كثيراً من الاهتمام ونزل استاربك الى القمرة لينقل هذا الخبر المزعج * .

عندئذ كانت الباقوطة من الجنوب والغرب تقترب من فرموزه وجزائر باشي التي يقع بينها احد المنافذ الاستوائية المؤدية من المياه الصينية الى المحيط الهادي . فلما دخل استاربك على آخاب وجده قد نشر امامه خريطة عامة للأرخبيلات المشرقية، وخريطة اخرى منفصلة تمثل الشواطئ الشرقية من الجزائر اليابانية - نيفون وماتسمي وسيكوكه . وكان الرجل العجيب قد قطب جبينه وهو يتتبع طريقه القديمة ، وقد جعل رجله العاجية الجديدة الناصعة تطوق قائمة الطاولة المثبتة بالبراغي وحمل في يده مدينة ذات كلاب طويل للتقليم ، وجعل ظهره نحو الباب الشارع على الممر .

* في حوالت العنبر التي حلت اية كمية غير قليلة من الزيت جرت العادة كل نصف اسبوع - دون اخلال - ان يمد خرطوم في العنبر ، وتبلل البراميل بماء البحر ، ثم يصرف هذا في قترات متفاوتة من بعد بمضخات السفينة ، بهذا العمل يريدون ليحفظوا البراميل متماسكة محكمة بالترطيب ، بينا يستطيع الملاحون ان يستكشفوا اي صدع خطير في هذه الشحنة الثمينة وذلك اذا تغيرت طبيعة الماء الذي يسحبونه .

عن هؤلاء التعماء كأن اصحابها هم ضميري . اعلم ان صاحب الشيء هو أمره
الموجّه . وأصخ يا هذا فان ضميري في أرينة هذه السفينة - عد الى ظهر
السفينة ! »

فقال الضابط المحمرّ خجلاً وهو يتقدم في القمرة بجرأة غريبة في توقيرها
وحذرهما حتى لكادت تبدو انها تحاول بكل وجه ان تتجنب أبسط ضروب
الاعلان عن نفسها وانها ايضاً في داخل النفس لتبدو قليلة الثقة بذاتها : « رجل
افضل مني قد يغرس في نفسك ما قد يستنكره - على عجل - في من هو اصغر
منك سنّاً، اجل، وفي من هو اكثر منك سعادة، يا قبطان آخاب . »

— « يا للشياطين ! ابلغت بك المرأة حدّاً ان تنظر الى ناقدّاً ؟ انصرف الى
ظهر السفينة ! »

— « لا يا سيدي ، لم يحن اوان انصرافي ، ارجوك واتوسل ؛ وأنا أجزؤ يا
سيدي - على ان امتنع عن الامتثال ! ألن يفهم احدنا الآخر فهمّاً خيراً مما كنا
فيه حق اليوم يا قبطان آخاب ؟ »

تناول آخاب غدارة محشوة من وقب في الصندوق ذي الكوى (وهو
يشكل جزءاً في اكثر الاثاث المزودة به قمرات من يسافرون في المحيط
الجنوبي) وصوبها نحو استاربك وهتف : « هناك اله واحد هو سيد الارض
وقبطان واحد هو سيد الباقوطة ، عد الى ظهر السفينة ! »

لو رأيت لحظة عيني الضابط وهما تومضان وخديه الملتهبين لكدت تظن انه
حقّاً اقتبس وهجاً من الانبوب المصوّب نحوه . ولكنه ضبط مشاعره ونهض
في بعض هدوء وتوقف لحظة وهو يغادر القمرة وقال : « لقد هجت غضبي ولم

وعندما سمع وقع الخطى صاح دون ان يلتفت : « من هذا ؟ عد الى ظهر السفينة ! انصرف ! »

— « القبطان آخاب مخطيء ؛ هذا أنا . الزيت في العنبر يرشح متسرباً يا سيدي . علينا ان نرفع مرافع الاثقال البرتونية ونستخرج البراميل لمعاينتها . »

— « نرفع مرافع الاثقال البرتونية ونستخرج البراميل ؟ أهذا ونحن نقرب من اليابان ؟ نوقف السفينة أسبوعاً هنا ، لأرأب مجموعة من الاطواق العتيقة ؟ »

— « اما ان نفعل هذا يا سيدي او نضيع زيتاً في يوم اكثر مما قد نكسبه في عام . ان ما قطعنا عشرين الف ميل للحصول عليه يستحق الحرص يا سيدي . »

— « صحيح ، هو كذلك ان استطعنا ان نحصل عليه . »

— « كنت أتحدث عن الزيت في العنبر يا سيدي . »

— « وأنا لم اكن اتحدث عن هذا او افكر فيه ابداً . انصرف ! دعه يرشح ، أنا نفسي ارشح . اجل رشحات في رشحات . لست فحسب مليئاً ببراميل ترشح وانما هذه البراميل الراشحة مودعة في سفينة مشقوقة . وهذه ورطة اسوأ من حال الباقوطة ايها الرجل . ولكني لا أقف لأرأب الصدع الذي في ، اذ من ذا الذي يستطيع ان يجد الصدع في الهيكل المثقل وكيف يمكن رأبه اذا وجدته في عاصف الحياة العاوي ؟ استاربك ! لن أمر برفع مرافع الاثقال البرتونية . »

— « ماذا يقول اصحاب السفينة يا سيدي ؟ »

— « ليقفوا على شاطئ نانتوكت ويتفوقوا على صوت الزعزع بصراخهم . ماذا يهم آخاب ؟ اصحاب السفينة ، اصحاب السفينة ؟ دائماً تهرف لي يا استاربك

تحقّرني يا سيدي ، وانا اسألك ألا تأخذ حذرَكَ مني لذلك ، قد تضحك ولكن
ليكن آخاب على حذر من آخاب . حذار من نفسك ايها الشيخ .

فتمت آخاب حين توارى عنه استاربك : « انه يزداد شجاعة ولكنه مع ذلك
يطيع . تلك شجاعة محتزنة شديدة التوقي ! ما الذي قاله — ليكن آخاب على
حذر من آخاب — في كلامه خبيء ! »

ثم اتخذ الغدارة عكازًا — دون ان يشعر — واخذ يذرع القمرة الصغيرة
جينةً وذهوبًا وجبينه مقطب صارم وسرعان ما اخذت الغضون الكثيفة فوق
جبهته تمتلئس فأرجع الغدارة الى كوتها وصعد الى ظهر السفينة .

واقترب من الضباط استاربك وقال له بصوت خفيض : « انت نعم الرفيق »
ثم رفع صوته مخاطبًا البحارة وقال : « انشروا الاشرعة النبيلة العليا ، ولفوا
الاشرعة العليا أمامًا وخلفًا ؛ اسندوا الدعامة الساندة الكبرى ، عالوا مرافع
الثقل البرتونية ، وانشلوا البراميل من العنبر الرئيس . »

ربما كان من العبث ان نستنتج على وجه الدقة لم تصرف آخاب كذلك فيما
يتصل باستاربك ؛ لعل ذلك كان ومضة من النزاهة فيه او كان سياسة ذكية
بصيرة حجت بصلف في تلك الحادثة ادنى عرض من اعراض الكراهية
المصرّحة ، مهما تكن عابرة مؤقتة — نحو رأس الضباط في سفينته . وأيًا كان
الامر فان اوامره نفذت ورفعت مرافع الثقل البرتونية .

كويكوج في نابوته

وعند التفتيش وجدوا ان البراميل التي أودعوها اخيراً في العنبر كانت سليمة لا عيب فيها ، وأن الصدع لا بد ان يكون بعيداً في البراميل الجوّانية . ولما كان الجو هادئاً مضوا يستخرجونها موغلين وهم يوقظون البراميل الضخمة الكبيرة اللاصقة بالأرض من سباتها ، ويرسلون تلك المناجذ الجسيمة من حلقة الليل الى ضياء النهار في أعلى السفينة . وتوغلوا متعمقين ، وتراءت البراميل الدنيا قديمة مشرّئة مطحلبة حتى ان من كان يراها ليكاد ان يتوقع بعدها خابية حجرية في الزاوية تحتوي نقود القبطان نوح قد لصقت عليها صور من اعلانات ضخمة تحذر العالم المعجوز المتصابي من الطوفان فيضيع تحذيرها سدى . ورفعوا برميلاً اثر برميل مليئة بالماء والخبز ولحم البقر وقطع السواري وحزماً حديدية من الاطواق ، حتى أصبحت الربعات عند ظهر السفينة مكتظة لا يستطيع التنقل فيها ، وأصبح الهيكل الخالي دونها يردد الصدى تحت وطأة الاقدام ، كأنما يدوس المرء على رموس خاوية ، وأخذت السفينة تترنح وتتدحرج في البحر كأنها دجاجة معبأة بالهواء . وثقل رأسها حتى كانت كأنها طالب خاوي المعدة وقد حشا كل فلسفة أرسطوطاليس في رأسه . ومن حسن الحظ ان الزعزع الهوجاء لم تقم بزيارة البحارة أثناء ذلك .

في هذا الوقت نفسه أصيب كويكوج رفيقي الوثني المسكين وصديقي الحميم بحمى قربته كثيراً من النهاية التي لا تعرف نهاية .

ولا بد من أن أقول هنا ان مهنة التحويت ليس فيها موظفون فخريون ،

يتقاضون الأجر ولا يعملون ، بل ان الارتقاء في مناصبها والخطر توأمان لا يفترقان ، وكلما اعتليت في المنصب بذلت قسطاً اكبر من الجهد الى ان تصبح قبطاناً . وكذلك كان حال كويكوج المسكين ، فهو زراق ليس يجب عليه فحسب ان يواجه هياج الحوت الحي ولكن عليه - حسباً رأينا من قبل - ان يمتطي ظهره وهو ميت في البحر المتضرب ، وأخيراً عليه ان يهبط في ظلمة العنبر ، وينضح العرق بمرارة طوال النهار في ذلك الحبس التحتاني ، ويستخرج بعزم أبشع البراميل ويفحص تعبئتها . وأقول بإيجاز ان الزراقين بين الحواتين هم « القوَّمة » - وكذلك يسمون .

يا لكويكوج المسكين ! عندما انتزع نصف احشاء السفينة ، او قرابة ذلك ، كان حرياً بك ان تنحني فوق الكوة وان تطل عليه لتراه وقد تجرد من ثيابه فلم يبقَ عليه الا التبان الصوفي ، وأخذ ذلك المتوحش الموشوم يزحف في وسط الرطوبة والزوجة كأنه سملة خضراء بقعاء في قعر بئر . وقد دلَّ المستودع على انه كان بالنسبة لذلك الوثني المسكين بئراً او بيتاً من الجليد . اذ رغم الحرارة الناجمة عن جهاده أصيب - وما أغرب ذلك - بقشعريرة مفزعة تحولت الى حمى ، وأخيراً وبعد عذاب دام بضعة ايام ، أضجمعه في أرجوحته قريباً من عتبة باب الموت . كيف ذوى وأدركه الهزال في تلك الايام القليلة البطيئة حتى بدا وكأن ما بقي منه - عدا هيكله ووشمه - شيء ضئيل . كل شيء ما عدا هذين هزل وزاد بروز وجنتيه حدة ، أما عيناه فبدا أنها - رغم ذلك - تستديران وتكتملان وأصبح لهما نعومة في البريق غريبة ، واذا رأيتها وهما تنظران اليك في دعة وعمق من وسط المرض والاعياء وجدت فيها شهادة عجيبة على تلك العافية الخالدة فيه التي لا تموت ولا يدركها الوهن . وبدت عيناه تستديران وتستديران كحلققات الابدية ، مثلما ان الدوائر في الماء تمتد وتنداح حين تصبح باهتة ضعيفة . ولقد تتسلل اليك رهبة لا يمكن ان توصف او تسمى ، وأنت تجلس الى جانب ذلك المتوحش الشاحب الداوي وتبصر في وجهه أشياء

غريبة كالتي رأها من شهدوا موت زرادشت^١ . ذلك ان ما هو عجيب مخيف حقاً في الانسان لم يصنع بعد في كلمات ولم يدوّن في كتاب . والاقتراب من الموت وهو مصوب نحو الناس جميعاً يطبع الناس جميعاً بانكشاف نهائي لا يستطيع ان ينبثنا عن حقيقته إلا مؤلف يحيثنا من عالم الموتى . ولنقل مرة أخرى : ان اي كلداني او اغريقي محتضر لم يملك لدى احتضاره أفكاراً أعلى وأقدس من تلك الافكار التي كنت ترى ظلالتها الغريبة زاحفة فوق وجهه كويكوج المسكين وهو مضطجع في سكون في أرجوحته الخطّارة والبحر المتدحرج يهدده بلطف الى راحته الابدية ، وتيار المحيط الخفي يرفعه أعلى فأعلى نحو سمائه المقدورة .

ولم يبقَ أحد في البحارة إلا وأدركه اليأس من شفاؤه . أما ما كان كويكوج نفسه يحمله من رأي حول وضعه حينئذٍ فقد دلت عليه بشدة أكرومة غريبة سألها رفاقه . فقد دعا اليه أحد الرفاق في نوبة الصباح الرماديّ حين كان الفجر ينبلج وأمسك بيده وقال انه حين كان في نانتوكت اتفق له ان رأى زوارق صغيرة مصنوعة من خشب أسود كخشب الحرب الكثير الذي يستعمل في وطنه ، وسأل عنه فعلم ان جميع الحواتين الذين ماتوا في نانتوكت وضعوا في تلك الزوارق السوداء نفسها وقد سرّه كثيراً أن يتصور نفسه مسجىً في واحد منها ، فذلك أمر لم يكن مباحناً للعادة المتبعة بين بني قومه ، ذلك أنهم كانوا بعد ان يحنطوا المحارب الراحل يسجّونه في زورقه ، ويتركونه ليعوم بعيداً نحو أرخبيلات النجوم ، اذ كانوا يعتقدون ان النجوم جزر ، وان بحارهم الوديدة التي لا تحدها يابسة تتداخل مياهها بعيداً وراء جميع الآفاق المرئية ، مع السماوات الزرقاء ، ومن هذا التداخل تتكوّن الامواج الكبيرة البيضاء في نهر

١ نزل برق من السماء ، فارنعم فيه كأنه نجم وغاب عن الانظار ...

المجرة . وأضاف يقول : انه اقشعرّ وهو يتصور أنهم سيضعونه في أرجوحته حسب العادة البحرية المألوفة ، ويقذفون به كأنه شيء كربه الى اسماك القرش التي تلتهم الموت لو عرض لها . كلا انه ليرغب في زورق كتلك الزوارق في نانتوكت ، فذلك أقرب الى طبيعته وأشكل بأمثاله ، فانه حوات وهذه الزوارق المتخذة توابيت تشبه قوارب التحويت من حيث أنها دون أرينة ، وان كان هذا يعني ضللاً في الاتجاه ، واذعاناً للريح حتى تنحدر بالزورق في خضم العصور المبهمة .

وحين علم من في مؤخرة السفينة بهذا المطلب الغريب ألقوا الأمر الى النجار على التو ليلي ما أمر به كويكوج أياً كان فحواه مادياً ومعنوياً . وكان على ظهر السفينة خشبة عتيقة ذات سمة وثنية ولون كلون التوابيت ، قطعت في رحلة طويلة سابقة من الغابات الاصلية في جزائر لاكادي^١ ، فأوصي النجار ان يصنع التابوت من تلك الألواح السود . وما كاد النجار يتلقى هذا الامر حتى تناول آلة القياس ، ثم توجه بكل ما في طبيعته من استجابة سادرة الى المنارة ، وقدر مقياس كويكوج بمنتهى الدقة والضبط . وهو يخط على جسمه بالطباشير ، دون اخلال ، كلما نقل آلة القياس .

واذنبعت بحار لونج آيلاند يقول : « آه يا للمسكين ! عليه ان يموت الآن » .

وعاد النجار الى دكته ذات الملازم فقاس عليها - اهتماماً بالاصح وطلباً لنموذج يعود اليه في عمله - طول التابوت الذي سيصنعه وتيقن ان صورة النموذج لن تنطمس حين حزن حزين في طرفي الدكة . وحين انتهى من ذلك أحضر الألواح والادوات وشرع يعمل .

١ لعله يعني جزائر لاكادييف على مسافة من الساحل الجنوبي الغربي من الهند ، وقد عرفها البحارة العرب منذ عهد بعيد وسموها المائة ألف جزيرة .

وحين دق آخر مسمار في ذلك النعش وسحج غطاءه بالفارة وثبته في مكانه ،
حمل التابوت - بخفة - على كتفه ، وتقدم به ، متسائلاً أتراهم في ذلك الصوب
على استعداد لتلقيه .

وتأدى الى سمع كويكوج صرخات الناس المستائين الذين يمازج استيائهم
بعض الدعابة ، حين أرادوا وهم على ظهر السفينة ان يبعدوا التابوت ، فأمر
- مثيراً الذهول في كل نفس - ان يحضروا اليه ذلك الشيء على التو ، فلم يحرموه
ما طلب ، لان بعض المحتضرين من بين جميع البشر أشدهم جبروتاً وطفيلاناً ،
وبما ان عهد تنكيدهم للاحياء لن يطول ، فان هؤلاء المساكين يجب ان يقابلوا
بالهوادة والتدليل .

والحنى فوق التابوت من حافة أرجوحته وتأمله طويلاً بعين فاحصة ، ثم
دعا برحه ونزع منه القناة وجعل السنان في التابوت مع واحد من بدالات
قاربه . وتلبية لرجائه ايضاً صفت قطع البسكويت حول الجوانب من داخل ،
وعند الرأس وضعت زجاجة من ماء قراح ، وعند التجويف المخصص للقدمين
ثبت جراب صغير من التراب المخلوط بالخشب ، وطويت قطعة من قماش
الأشربة وجعلت وسادة ، ورجاهم كويكوج ان يرفعوه ويضعوه في سريه
الاخير ، ليحرب ما فيه من بواعث الراحة ان كان فيه شيء منها ؛ واضطجع
هنالك بضع دقائق دون حراك ثم سأل أحدهم ان يذهب الى حقيبته ويستخرج
منها إلهه الصغير يوجو ثم عارض ما بين ذراعيه فوق صدره ويوجو بينها وسألهم
ان يضعوا فوقه غطاء التابوت (كان يسميه باب التابوت) ، وكان الجزء الواقع
جهة الرأس من ذلك الغطاء يدور على عقب من جلد ، فأدير ، وتمدد كويكوج
في تابوته لا يبدو منه شيء سوى وجهه المطمئن الهادئ . وتمم أخيراً بلغته
Rarmai : (معقول - هين) ثم أشار لهم كي ينقلوه الى أرجوحته .

ولكن قبل ان يتم نقله جاء اليه ببب وكان ما يزال يحوم قريباً منه في مكرّ

- طوال ذلك الوقت - فاقترب من حيث يضطجع وأمسك بيده وهو يرسل تنهدات رقيقة ، أما في يده الأخرى فكان يحمل طنباره :

« أيها الجواب المسكين ! أترك لن تنتهي من تجوابك المضني ؟ الى أين تمضي ؟ ان حملتك التيارات الى جزائر الانكيل العذبة حيث الشواطئ لا تنبت الا زنباق الماء فهل لك ان تؤدي لي رسالة صغيرة ؟ فلتش عن شخص اسمه بيب فقد منذ زمن بعيد ؛ انا أظنه في تلك الجزر النائية ، اذا وجدته فطيب خاطره وطمنه اذ انه ولا بد أسيان حزين ، ذلك انه خلف طنباره وراءه ، وأنا وجدته رج - آ - دج - دج - دج ! مت يا كويكوج وسأعزف لك لحن الجناز . »

تم استاربك وهو يحدق من الناروزة الى ما دونه : « سمعت ان الناس في الحمى العنيفة وقد استبدت بهم الغيبوبة يتحدثون بلغات قديمة ، وحين تسهر سرّ الأمر يتكشف لك دائماً ان هذه اللغات القديمة كانت تحكى في طفولتهم المنسية وكانوا يسمعون بعض العلماء العلويين يتحدثون بها ؛ وأرى حسب معتقدي العميق هذا ان بيب في هذه الخلاوة الغربية من لوثته يأتي بشواهد سماوية من جميع بيوتنا السماوية . أين تعلم ذلك الا ان يكون قد تعلمه هنالك ؟ أصح . ها هوذا يستأنف حديثه على نحو اكثر غرابة وشروداً . »

- « صفوا اثنين اثنين . لنحيه تحية القائد . أين رحمه . عارضوا به . رج - آ - دج - دج دج . هزّاه ! ليت لدينا ديكا رابط الجأش يقعد على رأسه ويصبح ! يموت كويكوج رابط الجأش ! تأملوا هذا ! يموت كويكوج رابط الجأش . تأملوا جيداً هذا ! يموت كويكوج رابط الجأش . أقول : رابط الجأش ، الجأش ، الجأش اما بيب القميء الحقيّر فمات رعديداً . مات وهو يرتعش . هيا اهاجموا على بيب ! أنصت ، اذا وجدت بيب فخبّر كل جزائر

الانتيل انه هارب. جبان ، جبان ، جبان ! قل لهم انه قفز من قارب التحويت .
لن أحرك طنابوري من أجل بيبي الحقيير ، لن أحياه تحية القائد اذا قدر له ان
يحتضر مرة أخرى في هذا المكان . لا . لا . على كل الجبناء العار والشنار !
ركبهم العار ! ليفرقوا كما غرق بيبي الذي قفز من قارب التحويت . العار
والشنار ! »

كان كويكوج أثناء ذلك كله مغمض العينين كأنه في حلم ، وأبعد بيبي عنه
وأعيد الرجل المريض الى أرجوحته .

وبينا كان كويكوج قد أخذ كل أهبة الموت ، وبينا وجد ان تابوته صالح
له ، ادركه الانتعاش فجاء وبدا على التو ان لا حاجة به لصندوق النجار، وعلى
الاثر قال ما محصله - حين أبدى بعضهم دهشة جذلى - ان سبب نقامته المفاجئة
هو هذا : في لحظة حرجة تذكر ان لديه على البر واجباً صغيراً تركه دون
انجاز ، ولذلك غيّر رأيه في الوفاة ، وأقرّ بأنه لا يستطيع ان يموت حينئذ ،
فسأله: هل الحياة والموت من صنع ارادته المهيمنة ؟ فأجاب: يقيناً ؛ ولأقل
بإيجاز ان كويكوج كان يتصور ان المرء اذا حزم أمره على ان يظلّ حياً فان
المرض لا يستطيع ان يقتله ، لا يقتله إلا حوت او عاصف او مخرب من هذا
القبيل عنيف عائر غي .

بين المتوحش والمتمدن فرق يستحق التنويه : ان المتمدن المريض قد يستغرق
سنة أشهر في دور النقاهة ، اما المتوحش المريض فانه - بوجه عام - يستعيد
اكثر عافيته في يوم ، وهكذا استعاد صديقي كويكوج قوته في وقت صالح ،
وبعد ان جلس على الدولاب الرافع بضعة أيام مسترخية متكاسلة (متناولاً الطعام
بشهوة قوية) وثب فجأة واقفاً على قدميه وتمطى بيديه ورجليه ، ومطّ قامته
وتشاب قليلاً ثم قفز في رأس قاربه المعلق ، اعتقل رجلاً ، وقال انه مستعد
للقتال .

وأدركته نزوة غريبة فاتخذ من تابوته صواناً أفرغ فيه ما كان في جرابه الحيشي من ثياب ونضدها هنالك . وكم من الساعات أنفقها وهو يحفر على الغطاء جميع الصنوف الغريبة من الاشكال والرسوم ، ويبدو انه كان يحاول بطريقته الفجة ان ينسخ نماذج من الوشوم المتلوية فوق جسمه ، وكانت تلك الوشوم من صنع نبي عرّاف راحل في جزيرته ، كتب بتلك العلامات الهيروغليفية على جسمه نظرية كاملة عن السموات والارض ، ومقالة صوفية عن فن بلوغ الحقيقة ، وبذا كان كويكوج في شخصه وكيانه أحجية تتطلب حلاً ، مؤلفاً عجبياً في مجلد واحد ، ولكنه هو نفسه يعجز عن قراءة أسرار ذلك المؤلف ، وان كان قلبه الحيّ ينبض عند تلك الاسرار ، وكان مقدوراً لهذه الاسرار ، من ثمّ ، ان تبلى مع الرقّ الحيّ الذي رقت عليه ، وتستعصي على الحل حتى النهاية ؛ ولعل هذه الفكرة هي التي أوحى لآخاب بتلك الهتفة الغريبة حين أشاح ببصره ذات صباح عن كويكوج بعد ان تفحصه وهو يقول : « آه يا عذاباً شيطانياً بالأمل أرسلته الآلهة » .

المحيط الهادي

حين انسابت بنا السفينة عند جزائر باشي دخلنا اخيراً في حومة المحيط الجنوبي العظيم ؛ ولولا أمور اخرى لازجيت لصديقي العزيز المحيط الهادي شكراً لا يبلغه حصر لان ضراعات شبابي التي طال بي انتظارها قد استجيت، فذلك المحيط الوقور كان يتدحرج الى الشرق مني على مدى آلاف الفراسخ من الزرقة .

في هذا البحر سرٌ غريب عذب لا يدرك كنهه الانسان فكان وثباته الرهيبة الرفيقة تتحدث عن روح خبيثة تحتها كتلك التموجات الاسطورية في مروج افسوس فوق قبر القديس يوحنا الانجيلي^١ ؛ وما أنسب ما ترتفع الامواج وتمهبط وتنبسط وتنحسر دون توقف فوق هذه المروج المائية والسهوب البحرية المترامية وحقول بوترز الشاسعة المنتمية الى القارات الاربع جميعاً . هنالك ملايين الاخيلة والظلال المتازجة والاحلام الغارقة ، وحالات المشي اثناء النوم، والنشوات ، وكل ما ندعوه حيوات وارواحاً، هنالك تقبع جميعاً حاملة حاملة هادئة، وتظل الامواج متقلبة ابدأ كالنوام في أسرهم، بسبب من تضربها دونها.

هذا المحيط الهاديء المطمئن لو رآته مرة عين المجوسي المتأمل لظلّ من بعدُ

١ اشارة الى ما كانت يعتقده بعض السذج من اهالي افسوس - حسباً قصّة ذلك القديس أوغسطين - من ان يوحنا لم يكن ميتاً وانما كان يتخذ قبره مثلاً يتخذ الحيّ سريره وان القبر كان يصعد اربيهط كما يصعد السرير ويهبط .

البحر الذي تؤثره نفسه . فهو الذي يحرك أشد الامواه توسطاً في العالم ، وليس المحيط الهندي والاطلسي إلا ذراعين له . وهذه الموجات نفسها تفصل حواجز المرافىء التي بنيت حديثاً في مدن كاليفورنيا ، التي لم تغرسها احدث اجناس الناس الا امس القريب ، وترحض حوافي البلاد الآسيوية الساحبة التي ما تزال تحتفظ بفتنتها، تلك البلاد الاقدم من ابراهيم عهداً ؛ وبين هذا كله تعوم مجرات من جزر المرجان وأرخبيلات وطيئة مجهولة لا نهاية لها وجزائر كجزائر اليابان مستعلقة لا يستطيع ارتيادها . هكذا يطوق المحيط الهادىء المتأله المنطوي على الاسرار جسم العالم كله ويجعل جميع السواحل خليجاً واحداً له ويتبدى وكأنه قلب الارض النابض بالمد ، واذا ارتفعت فوق هذه الاسنمة الخالدة، انتميت الى رب مضلّ، وعنا وجهك للرب بان Pan .

ولكن الخواطر عن «بان» قلما استثارت ذهن آخاب وهو واقف كتمثال من حديد في موضعه المعتاد الى جانب حبال المظاين فاستنشق بأحد وقبي منخريه — لا واعياً — المسك المعسول من جزائر باشي (وفي غاباتها العذبة عشاق دمثون يتمشون حيثئذ ولا بد) ، واستنشى بالثاني — واعياً — النفس الملح من البحر الذي دخل حديثاً في حومته ، البحر الذي كان الحوت الابيض البغيض يعوم ولا بد فيه حيثئذ . وحين انساق الرجل الشيخ على طول الامواه التي تكاد تعد نهائية ، وانساب نحو ارض التطواف اليابانية ، ترسخت غايته نفسها وتمكنت . والتقت شفتاه كما يلتقي حدّا المِلْزَم ، وانتفخت دال عروق جبهته كأنها جداول قد طفحت ، وفي نومه نفسه انطلقت صيحته من خلال هيكل السفينة المقعب : « الى الوراء جميعاً ! ها هو الحوت الابيض ينفث دماً متخثراً ! »

أما برث الحداد العجوز القرحان المملطح بالسواد فقد اغتم الجو الوديع الصيفي البرود الذي ران على تلك البقاع واستعد لمواجهة التكاليفات اللازمة المتوقعة منه بعيد وقت قصير، فلم ينقل عدته المحمولة الى العنبر بعد ان انتهى من نصيبه في تسوية رجل آخاب، وانما استبقاها على ظهر السفينة مربوطة ربطاً محكماً الى المزلاج الحلقي عند الصاري الامامي، اذ كان الرؤساء والزراقون وأرباب القوارب لا يفتأون يستثيرونه ليؤدي لهم هذا العمل الصغير او ذاك، فهو يغير او يصلح او يثقف اسلحتهم المتنوعة وأثاث قواربهم، وكثيراً ما كانت تحف به حلقة من المتلفين وكلهم ينتظر دوره من خدماته، هذا يمسك بجرفة قارب، وذاك رأس حربة، وثالث يمسك مزراقاً، ورابع حربة، وكلهم يرقب في تلمل حركته السحباء وهو دائب جاهد. وعلى الرغم من ذلك كانت مطرقة هذا الشيخ مطرقة صبوراً تصرقها ذراع صبور، فلا تذمر ولا جزع، ولا نكد يصدر عنه، وانما هو صامت بطيء جاهم يزيد في انحناء ظهره المنكسر تحت وطأة الزمن، ويجهد جهده كأن الجهد هو الحياة نفسها، ووقع المطرقة الثقيل هو نبض قلبه البطيء. وكذلك كان الامر - ما أتعبه!

مشية خاصة كان يمشيها هذا الشيخ، مظهر طفيف لكنه مؤلم فاغر في مشيته، أثار في الملاحين في دور مبكر من الرحلة فضولاً وأذعن لالحاف اسئلتهم الملحة في النهاية وهكذا حدث ان عرف كل واحد القصة المشينة، قصة حظه التاعس المنكود.

في منتصف ليلة مريرة من ليالي الشتاء تأخر الحداد - ولم يكن تأخره بريئاً طاهراً - على طريق تمرّ بين قرينتين، فأحسّ - احساساً لا تنقصه البلادة - ان الحذر المميت يستبد به، فسعى الى مخزن مهدم يريد ان ينقض واتخذ فيه ملاذاً . فكانت نتيجة ذلك ان فقد أطراف قدميه . وبعد هذه الفاتحة جاءت اخيراً الفصول الاربعة من السرور - مشهداً مشهداً - ثم تلاها الفصل الخامس الطويل - فصل الحزن في مسرحية حياته - وان لم يختم بعد بكارثة الختام .

كان شيخاً واجه في سن تناهز الستين ذلك الشيء الذي ارجأته له الايام من اساليب الحزن الذي يسمونه الدمار، فقد كان صانعاً ذا مهارة مشهورة وعمل وفير، فملك بيتاً وحديقة، ورزق بزوجة شابة عروب في سن ابنته وبثلاثة اطفال مرحين موردي الحدود . وفي كل يوم أحد كانوا يذهبون الى كنيسة مغروسة في حديقة منظرها مجلى للعين ؛ وذات ليلة تحت جنح الظلام تسلك لصّ مستشس، زاده تنكره الخبيث الماكر اختفاء وتستترّ، الى بيته السعيد وجرده من كل ما فيه . وأشد حليكة من الظلام ان يكون الحداد نفسه هو الذي هدى ذلك اللص - في جهالة - الى قلب أسرته ؛ كان هو العراف الذي يفتح القمقم^١، وحين طار ذلك السداد المميت أفلت الشيطان من محبسه وطوى بيته تحت جناحه . كانت دكان الحداد - لاسباب معقولة حكيمة اقتصادية - تقع في الدور الارضي من مسكنه الا انها ذات مدخل مستقل، وكانت الزوجة الشابة العروب الريتا تنصت دائماً بقلق سعيد ولذة شديدة الى الطرقات القوية تحدثها مطرقة زوجها الشيخ ذي الذراع الفقي، وتتخافت ذبذبات المطرقة حين تمر من خلل الابواب والجدران فتتأدى اليها في شيء من عذوبة، وهي في غرفة

١ واضح ان الصورة مأخوذة من بعض قصص ألف ليلة وليلة .

أطفالها . وهكذا كان اطفال الحدّاد يهددون للنوم بترنيمه حديدية يغنيها رب العمل المعصلي .

اواه يا ويلاً على ويل ! آه ايها الموت لم لا تستطيع احياناً ان تجيء في أوانك ؟ لو انك اخذت الحدّاد المعجوز اليك قبل ان يحلّ به الدمار الكامل إذن لوجدت ارملة الشاب حزناً لذيذاً، ولوجدت يتاماه أبناً محترماً اسطورياً يحملون به في مقبل السنين، وكلا الامرين كفاء بالهمّ يستطيع ان يصرعه . ولكن الموت انتزع اخاً اكبر فاضلاً كانت مسؤوليات عائلته اخرى معلقة بكده اليومي الصافر، وترك المعجوز الذي لا نفع فيه ماثلاً حتى يجعله بيلى الحياة الكريه اسهل لدى الجنى .

ولم نسر القصة كلها ؟ ان ضربات المطرقة في الدور الارضي اخذت تتضاءل وتخفت، واصبحت كل ضربة في كل يوم اشد خفوتاً من آخر ضربة، وجلست الزوجة متجمدة الاطراف عند النافذة، وعيونها لا تسكب دموعاً، تحديقاً بالقيء في وجوه اطفالها الباكين، وخبا الكبير وامثلاً مصنع الحداد بالرماد، وبيع البيت ، وغاصت الأم تحت العشب الطويل في باحة الكنيسة، ولحق بها ابناؤها مرتين، وذهب المعجوز الطريد الشريد الوحيد متلداً في أسفاله، مصيبته لا يابه بها احد، وشيبه يهزأ بكل الضفائر التي تشبه الكتان .

ولعل الموت هو خير عاقبة يتمناها من بلغ هذا الحد، ولكن الموت ليس فحسب إبحاراً في منطقة تسمى « المجهول الغريب »، انه التحية الاولى لامكانات النائي المديد والموحش والمائي وما لا ساحل له . لذلك فان العيون التي تشتاق الموت - عيون الرجال الذين تبقّى فيهم شيء من وخز الضمير ضد الانتحار - يمدّ لها المحيط المضيف الفاتح ذراعيه كل مجاله الصالح لمغامرات لا يدر كها الخيال،

مغامرات مليئة بالخاوف عجيبة تعدُّ بحياة جديدة، وتغني لها آلاف الحوريات
البحرية من قلوب المحيطات الهوادي اللامحدودة : « تعالوا الي يا كسيري القلوب،
ها هنا حياة لا يتخللها اثم من موت وسيط . ها هنا عجائب خارقة لا يدركها
الموت . تعالوا اليّ . ادفنوا انفسكم في حياة اشدّ اغفالا ونسياناً من الموت
اذا قستموها الى عالمكم الكاره المكروه . تعالوا اليّ ! ضعوا شاهد قبركم ايضاً
في باحة الكنيسة وتعالوا اليّ، الى ان نتحد معاً ! »

اجابت روح الحداد هذه النداءات حين اصغت اليها، شرقاً وغرباً، عند
طلوع الشمس وعند حلول المساء، وقالت ها انا ذا آتية ! وهكذا ذهب بيرث
في رحلة التحويل .

كان بيرث يقف وقد تلبدت لحيته والتفّ في فوطة جاسية من جلد القرش ، قبيل انتصاف النهار ، بين النار والسندان — وهذا الثاني كان موضوعاً على وضم خشبي حديدي — ويده الواحدة تمسك رأس حربة مدسوسة في الجمر ، ويده الأخرى على الكبير ، واذا بأخاب يقبل حاملاً في يده جراباً جليدياً صغيراً في لون الصدا ، وعندما أصبح آخاب المتقلب المزاج على مسافة قصيرة من النار توقف ، وأخيراً سحب بيرث الحديدية من النار وأخذ يطرقها على السندان ، وأخذت الكتلة الحمراء ترسل شرراً يتطاير رفوفاً متكاثفة طار بعضها حتى اقترب من آخاب .

— « أهذه فراخ العجوز كاري^١ يا بيرث ؟ انها دائماً تطير في أثرك ، طيور سائجة ميمونة ولكنها ليست كذلك لجميع الناس . انظر انها تحرق ، ولكنك تعيش بينها دون ان تلذعك » .

فأجابه بيرث وقد اتكأ لحظة فوق مطرقته : « ذلك لأنني محرق في سائر جسدي ، لقد عتوت على اللذع . ليس من السهل ان تلذع جلدأ تلبّد من التحريق » .

- « طيب . طيب . كفى . ان صوتك المنقبض ليتأدى اليّ في هدوء وبلغني

١ طيور كالسنونو يقولون ان وردها ارماس يحو عاصف ، وها يشبه آخاب الشرر المتطاير .

في تعقله مهموماً مكروباً . وبما أني لست في الفردوس ولا في رياض النعيم فأنا أجزع من كل تعاسة في الآخرين ليست مجنونة . لا بد ان تصبح مجنوناً أيها الحداد ؛ قل لي لماذا لا تغدو مجنوناً ؟ كيف تطيق ما تطيقه دون ان تكون مجنوناً ؟ أما تزال السموات تمقتك فهي تحرمك الجنون ؟ ماذا كنت تصنع هنا ؟

— « كنت ألحم وأسوّي رأس حربة قديمة يا سيدي فقد كانت فيه نقب وأخايد » .

— « وهل تستطيع ان تسوّي أملس مستوياً أيها الحداد بعد ان تجرّش في الشدّات واللزبات ؟ »

— « أظن ذلك يا سيدي » .

— « وأنا أظن انك لا تستطيع ان تسوّي اي نقب او تحزير . أتستطيع دون اكتراث منك بصلابة المعدن يا حداد ؟ »

— « نعم يا سيدي أظني استطيع . أستطيع ان أسوّي كل النقب والتحزيرات إلا واحدة » .

فصرخ آخاب — وهو يقترّب منفعلًا واستند بكلتا يديه فوق كتفي بيرث :
« انظر هنا اذن ، انظر هنا — هنا — أتستطيع ان تسوي نقبة كهذه يا حداد ؟ » وجرّ راحته فوق جبينه المغضن — « اذا كنت تستطيع يا حداد ، وضعت رأسي راضياً جذلان فوق سندانك ، وتلقيت أثقل مطرقة لديك بين عيني . أجب ! أتستطيع ان تجتلي هذه النقبة او تسوّي التحزير ؟ »

— « آه يا سيدي هذه هي الواحدة . ألم اقل انني استطيع تسوية كل النقب والتحزيرات الا واحدة ؟ »

— « صدقت يا حداد انها الواحدة التي لا تسوّى . اجلس يا رجل انها لا تجتلى ، صحيح انك تراها بارزة في لحمي ولكنها قد تغلفت في عظام جمجمتي — وجمجمتي كلها غضون ! ولكن دع عنك لعب الاطفال هذا ! لا تسوية لخطاطيف وحراب اليوم . انظر هنا ! » — وأخذ يخشخش بالجراب الجلدي كأنه مليء بالقطع الذهبية : « انا ايضاً اريد ان تصنع لي رمحاً ، واحداً لا يستطيع الفا شيطان ان يكسروه يا بيرث ، رمحاً ينغرز في الحوت مكيناً كأنه عظم زعنفته ، وها هي المادة » — وطرح الجراب على السندان — « تنبه ايها الحداد هذه اعقاب مسامير جمعت من النعال الفولاذية التي تنتعلها خيول الرهان » .

— « اعقاب نعال الخيل يا سيدي ؟ اذن فان لديك هنا يا قبطان آخاب خير مادة نعمل فيها واشدها مراساً » .

— « اعرفها ايها الشيخ . هذه الاعقاب ستلتحم معاً كالغراء الذي يؤخذ من عظام القتلة بعد ان تذاب . عجل ! اصنع لي الرمح ، واصنع لي اولاً اثني عشر قضيباً لتكون له كعصاً ، ثم افنل وابرم . وطرق هذه القضبان معاً كأنها وشائع وجدائل الكرور ، اسرع ! وها انا انفخ على النار » .

وحين خرجت القضبان الاثنا عشر اخيراً جرّ بها آخاب واحداً بعد واحد ، وذلك بأن يلفها بيده على شكل حلزوني حول وتد حديدي طويل ثقيل ، ثم ردّ الاخير منها قائلاً : « هذا مختل ! اصنعه من جديد ، يا بيرث » .

ولما انتهى بيرث من اصلاحه كان على وشك ان يبدأ ملاحمة القضبان ليجعل منها واحداً حين اوقف آخاب يده وقال انه هو نفسه سيلحم رمحاً ، واخذ يطرق الحديد على السندان في همهمات متقطعة منتظمة وبيرث يوصل اليه القضبان المتوهجة واحداً بعد آخر ، والنار التي يؤرها الكبير تطلق لهبها الشديد

صعداً ، وعندئذٍ مرّ الرجل البارسي في صمت فأخنى رأسه للنار وكأنا هو يستنزل لعنة او بركة على هذا العمل ، فلما رفع آخاب رأسه انتحى البارسي جانباً .

وتتم اسطب وهو ينظر من المنارة : « ماذا تصنع عصابة الشياطين هذه اذ تروغ وتتسلل هنالك ؟ هذا البارسي يشم النار كأنها ثقاب الأمن ومنه قضيوع راغحتها كأنه خزان البندقية الساخن » .

واخيراً تلقت ضفيرة الكعب وقد غدت في صورة قضيب واحد آخر إحماء ، ولما ان شاء بيرث ان يسقي حديدتها فدهسها وهي تهسس في برميل الماء القريب ، انطلق البخار السامط في وجه آخاب المكب فوقها .

« اتريد ان تعلمني بوسم يا بيرث ؟ » واجفل متوجعاً لحظة من الألم ثم اردف : « أكنت اذن اصنع ميسمي بيدي ؟ »

— « بحقك ! ليس الامر كذلك ، ولكنني أخشى شيئاً يا قبطان آخاب . أليس هذا الرمح من اجل الحوت الابيض ؟ »

— « من اجل الشيطان الابيض ! والآن هيّا لصنع الكلابات ؛ عليك انت نفسك ان تصنعها يا هذا ، هذه هي الامواس التي أحلق بها - من خير الفولاذ ، خذها ، واصنع منها الكلابات حادة كوخز ابر الثلج في البحر الجليدي » . ورمق الحداد الشيخ تلك الامواس لحظة كأنه كان يريد ان يردها فلا يستعملها .

— « خذها يا رجل لا حاجة لي اليها ، لاني لن أحلق ولن اغتذي ولن أصلي حتى - هاك - الى العمل ! »

ولما ان جعل بيرث الفولاذ أخيراً في شكل سهم وألحمه الى الكعب ، دل الفرق بين المعدنين اين ينتهي طرف الحديد ، ولما ان كان الحداد يضع الكلابات في النار ليحميها آخر مرة قبل ان يسقيها صاح بأخاب ان يسدي منه برميل الماء :

— « لا . لا . لا ماء ولا سقي ! أريدها من سقي الموت نفسه . انتم هناك يا طاشتيقو وكويكوج ودغة ! ماذا ترون ايها الوثنيون ؟ هل تعطوني دماً يغطي هذا الكلاب ؟ » ورفع في الفضاء فأجابته « أن نعم » ثلة من الرؤوس السود أنغضت اليه ، وثقبت الجلود الوثنية في ثلاثة مواضع ، وسقيت بالدم عندئذٍ كلابات الحوت الابيض .

وعوى آخاب وهو ذاهب في البحران ، والحديد يتشرب بنهم دم العباد :

« انا لا أعمدك باسم الآب وانما أعمدك باسم الشيطان ! »

وجع آخاب الأعمدة الزائدة من اسفل واختار من بينها عموداً من شجر الحيقور ما يزال لحاؤه عالقاً به ودسّ طرفه في وقب الحديد . ثم امر بجبل جديد فحلّ وأخذت منه بضع قامات الى الدولاب الرافع ومدّ حتى توتر كثيراً . ووطئه آخاب بقدمه حتى أز الحبل أزيز وتر القيثارة ، ثم انحنى بلهفة فوقه ، واذا لم ير فيه فتائله متميزة هتف : « عظيم ! والآن هيا بنا الى الاربطة المقيرة » .

حلّ الحبل من أحد طرفيه واخذت الفتائل المنشورة وضفرت جميعاً ونسجت حول ثعلبة الرمح ، ودسّ العمود بعيداً في وقب الثعلبية ، ومن الطرف الأدنى مدّ الحبل على نصف طول العمود ، وثبت هنالك بإحكام وذلك بمداخلة الخيوط وتشابكها . واذا انتهى ذلك أصبح العمود والحديد والحبل — كأنها

ربات القدر الثلاث — متواشجة لا تنفصم ، ومشى آخاب في خيلاء معتقلا الرمح
وصوت رجله العاجية وصوت عمود الحيقور كلاهما يرن رنيناً أجوف على كل لوح
خشبي . وقبل ان يلج قمرته سمع صوت خفيض شاذ يشوبه تماجن ولكنه من
أشد الاصوات اثارة للشفقة . آه يا بيب ! ان ضحككتك التاعسة وان عينك
الكسلى المسهدة ، وكل هذه الاقنعة المجونية التي تتلبس بها — كل هذه قد امتزجت
امتزاجاً ذا مغزى بالمأساة السوداء — مأساة هذه السفينة السوداوية ، وسخرت
هازئة منها !

الشرك

حين تغلغل الباقوطة مبعدة في قلب ارض التطواف اليابانية هاج بجواتيها هائج الصيد حتى كانوا يقضون في الجو الوديع الرضي اثنتي عشرة ساعة وخمس عشرة وثمانية عشرة وعشرين وهم في ذروة الكد، منهمكين في قواربهم، مجذفين باتزان او مبحرين او مطاردين للحيتان او منتظرين في هدوء بروزها من الماء، مدة ستين او سبعين دقيقة، وان كان النجاح الذي اصابوه ضئيلاً لا يوازي جهودهم .

في مثل تلك الاوقات تحت شمس خبت حرارتها، يعوم البحار طوال اليوم فوق اثابج 'ملس' بطيئة المد، ويجلس في قاربه خفيفاً كأنه زورق من خشب التامول، ويمتزج امتزاجاً حميماً بالموجات الناعمة نفسها تلك التي تبربر ازاء حافة السفين كالقسط عند احجار الموقد . هذه هي لحظات السكينة الحاملة، اذ ينسقى المرء حين يرى الجمال الهاديء والألق في جلكد المحيط ان قلب النمر ينبض في جوانحه ، ولا يذكر - الا بشق النفس - ان هذا القفاز الخملي يخفي مخلباً ضارباً .

١ - بلغ القاص لحظة حرجة تذكر فيها ما قاله في الفصل : ٢٤ « واذا كان اكثر مظاهر الكون المرئي قد خلق من مادة الحب فان الافلاك غير المرئية انما صنعت من الرعب » وتذكر ان الطبيعة تتبرج وكأنها عاهرة ؛ فتوقف في هذا الفصل لحظة يتأمل هذا الظاهر قبل ان ينوص الى « منطقة الرعب » .

هذه هي الاوقات التي يحس فيها الجوّاب وهو في قارب التحويت، احساساً ناعماً، بشعور بنوي واثق مطمئن نحو البحر كشعور ابناء البرّ نحو البرّ، فيظن البحر برّاً مزداناً بالازاهير؛ اما السفينة النائية التي لا تبدو منها إلا قمم صواريتها وهي تجهد قدماً، فتتبدى وكأنها لا تمخر الامواج المتدحرجة وانما تنهادى بين الحشائش الطويلة في سهوب متموجة. كخيول المهاجرين الغربيين، لا يظهر منها إلا آذانها المؤللة، اما اجسامها المختفية فتخوض غمار الحضرة المذهلة.

والوديان الطويلة البكر وسفوح التلال الوادعة الزرقاء يتسلل فوقها الصمت والطين حتى لتكاد تقسم ان تلك الخلوات ينام فيها اطفال انهكهم اللعب، في ايار الطروب حين ذهبوا يقطفون ازاهير الغابات، ويخالط هذا كله مزاجك الصوفي، فاذا الواقع والوهم - وقد التقيا في منتصف الطريق - يتشابكان ويتداخلان ويكونان كلا واحداً لا فاصل بين جزئيه.

ومها تكن هذه المناظر المسكنة مؤقتة عابرة فانها لم تكن تعجز عن ان تترك أثرها في آخاب، ولكن ان كانت هذه المفاتيح الخفية الذهبية قادرة على ان تفتح خزائنه الذهبية الخفية فان انفاسه فوقها كانت تصبغها بالدنس.

ايتها المسارب المكسوة بالاعشاب! ايتها المجالي الربيعية المترامية في الروح! فيك - وان ايبسك الجذب الموات الذي يلفحك من الحياة الدنيا - فيك يستطيع الناس ان يتمرغوا كالمهاري في الرسم الناضر عند الصباح، ويحسبون ندى الحياة البرود خالداً لديهم، في لحظات تمرّ مرّ السحاب. يا رب ليت هذه الهداة المباركة تدوم! غير ان وشائج الحياة المختلطة المتشابكة تنتسج لحمة وسدى، فلكل هدأة عاصفة تعارضها. ليس في هذه الحياة تقدم دائب قدماً لا يتقهقر. فنحن لا نتقدم خلال مراحل معينة متدرجة ثم نقف الوقفة الاخيرة - لا نفعل كذلك خلال سحر الطفولة اللاواعي، وايمان اليقاعة التسليمي، وشك

عهد الفتاء (وهو مصيرنا جميعاً) ثم الريبة الكلية ثم الجحود، بحيث نقف في طمأنينة الرجولة المتألمة التي تعبر عنها « إذا » . ولكننا كلما قطعنا هذه المراحل عدنا فيها من جديد ونظل الى الابد اطفالاً ويافعين ورجالاً وصوراً من « إذا »^١ .
اين يقع الميناء الاخير حيث لا نرحل المرساة من بعد ؟ في اي اثير سابع يبحر العالم الذي لا يعيا به اكثر الناس إعياء ؟ اين يختفي والد هذا اللقيط ؟ ارواحنا كأولئك اليتامى، ماتت أمهاتهم اللائي لم يتزوجن بعقود وهن يضعنهم : ان سرّ الأبوة قد دخل القبر معهم، فاذا شئنا ان نتعرفه كان علينا ان نذهب هناك .

وفي ذلك اليوم نفسه اطل استاربك من حافة قاربه على البحر الذهبي نفسه وقتم قائلاً : « ايتها الروعة التي لا يسبر غورها، كالتي يراها الحب في عيني عروسه الشابة، لا تحدثيني عن اسماك القرش المرصوفة فيك كالأسنان، ولا تحدثني عن اساليبك في اختطاف لحوم البشر . ليطرد الايمان الواقع . ليطرد الوهم الذكري، انا ارسل النظرة عميقة فأحتقب ايماناً » .

اما اسطب فقد قفز في ذلك الضياء الذهبي نفسه كالسمكة ذات الاراشف البراقة وقال : « انا اسطب، واسطب رجل ذو تاريخ، ولكن اسطب في هذا الموقف يحلف انه كان دائماً مجبوراً » .

١ كلمة EI اليونانية وهي منقوشة على باب هيكل ابولون في دلفي .

الباقوطة والعزب بئرقيان

بعد بضعة اسابيع مضت على تسوية رمح آخاب كانت المشاهد والمسوعات التي عرضت امام الريح بهيجة طروباً .

وكان ما واجهته الباقوطة مركباً نالتوكتياً اسمه «العزب» صفّ في العنبر آخر برميل من الزيت وأغلق المنافذ التي تكاد ان تلتشق امتلاءً ، وكان في ثوب ايام الزينة يبحر ، مسروراً جذلاً وان شابه شيء من اعتداد المغرور ، بين السفن المتباعدة في مواقعها على مجالات الصيد ، قبل ان يحول قيصره عائداً الى الوطن .

وكان الرجال الثلاثة في قمم صواريه يلبسون اعلاماً طويلة من قماش ضيق احمر فوق قبعاتهم ، ومن المؤخرة تعلق قارب تحويت ، قاعه متجه الى اسفل ، اما الدقل المائل فقد شبح فيه مأسوراً الفك الاسفل الطويل من آخر حوت ذبحوه ؛ ومن الحبال والاشرعة في كل جانب كانت ترفرف اعلام وشارات ورايات ذات ألوان . اما الجوانب فقد ربطت في كل قمة من قممها الثلاث المجوفة كالسلال برميلان من زيت العنبر ومن فوقها في مشعبة الصاري العلوي تبدو براميل صغيرة لطيفة تحوي ذلك السائل الثمين ايضاً . وفي القرص الواقع عند أعلى الصاري الرئيس ستر قنديل نحاسي .

وقد علمنا من بعد ان هذا المركب «العزب» احرز نجاحاً مدهشاً غاية في

ذلك ، وما زاد الامر ادهاشاً ان سواه من السفائن الاخرى العديدة قد قضت اشهرًا كاملة دون ان تصيب حوتًا واحدًا . وقد أُلقيت منه براميل لحم البقر والخبز تخلصاً لتفصح مكاناً لما هو اثن منها من زيت العنبر ، ليس هذا فحسب بل ان هذا المركب قايض المراكب الاخرى التي واجهها على براسها ، اضافية ، صفت فيه على طول ظهر المركب وأودعت في غرف القبطان والضباط . حتى المائدة في القمرة كسرت وجعلت وقودًا وأصبح الرفاق الذين يأكلون في القمرة يتناولون طعامهم عند الطرف العريض من برميل زيت مربوط الى ارض الغرفة ليكون زينة متوسطة ؛ وقير البحارة في المنارة صناديقهم - في الواقع - وملأوها بالزيت ، وقيل على سبيل التندر ان الطباخ اتخذ لاكبر حلة لديه غطاء وملأه ، وان قيم الاغذية سد ابريق القهوة الاضافي لديه وعباه ، وان الزرافين غطوا ثعالب اسنتهم وملأوها ، وانت كل شيء ملىء بزيت العنبر إلا جيوب سروال القبطان ، فقد ابقاها خالية ليدس فيها يديه كي يكون ذلك شاهدًا ناطقاً بأنه قانع تمام القناعة .

وعندما اتجه هذا المركب الطروب ذو الجسد السعيد نحو الباقوطة ذات المزاج المتقلب ، سمعنا صوتاً بربرياً من طبول ضخمة آتياً اليها من المنارة ، وعندما زاد اقترابنا منه رأينا حشدًا من رجالها واقفين حول مراجل التصفية الضخمة فيها وهي مغطاة بنخيش يشبه ورق البرشمان او جلد كروش السمكة السوداء ، وكلما دقت عليها قبضات البحارة احدثت زئيرًا عاليًا . وعلى الربة خلف الدقل كان الضباط والزرافون يراقصون فتيات سمراوات بلون الزيتون هربن معهم من الجزائر البولونيزية بينا يهيمن على الرقصة الطروب ثلاثة من زنوج لونج آيلاند قد احتقبوا اقواس كانات من عاج الحوت ، وهم قد تعلقوا في قارب مزخرف ، مثبت باحكام في الأعلى بين الصاري الامامي والصاري الرئيس . وفي الوقت نفسه كان آخرون من عصابة السفينة منهمكين بصخب عند مبنى معامل التصفية حيث نقلوا منها المراحل الضخمة ؛ ولقد يخيل اليك انهم كانوا يهدمون

اسوار الباستيل اللعين فقد كانوا يرسلون صرخات وحشية عندما كانوا يلقون
ما استغنوا عنه من الأجر والحص في البحر .

اما القبطان سيد هذا المشهد وصاحبه فقد وقف منتصب القامة فوق الربرة
المرتفعة خلف الدقل الاعظم حتى كانت الرواية البهيجة تجري كلها تحت بصره
وكانها إنما ابتدعت طلباً لتسليته .

وآخاب ايضاً كان واقفاً على الربرة اشعث اسود تعلوه كآبة عنيدة لا تريم ،
وعندما عبرت كل من السفينتين نحر أختها واحداهما تقيم افراحاً لأمر مضت
واخرى تتوجس النذر من أمور آتية كان القبطانان يمثلان في شخصيهما موضع
المفارقة اللافتة في ذلك المشهد .

صاح قبطان « العزب » الطروب وهو يرفع كأساً وزجاجة في الفضاء :
« تعالوا الينا ، تعالوا الينا ! »

فصر آخاب بأسنانه مجيئاً : « هل رأيت الحوت الابيض ؟ »

فقال الآخر في دعاية ومرح : « كلا ، انما سمعت به ، ولكن لا يكن لك فيه
اعتقاد . تعال الى ظهر سفينتنا ! » .

- « انت مفرط في مرحك اللعين . أبجر . هل فقدت رجالاً ؟ »

- « لم أفقد شيئاً يستأهل ذكراً - اثنين من أبناء الجزر ، ذلك كل ما
فقدت ، لكن تفضل يا رفيق القلب ، تعال الينا ، انا استطيع ان أنزع ذلك
السهم الاسود من جبينك توأ . أقبل ، ألا تقبل ! (هذا اوان الجدل) ، سفينتنا
ممتلئة مزعة نحو الوطن » .

فتمت آخاب: «ما اقرب الاحق من ان يالف ويؤلف!» ثم بصوت جهوري:
«تقول ان سفينتك ممثلة وانها مزمنة نحو الوطن، اذن فاعلم ان سفينتنا خالية
وانها مبعدة عن الوطن، فاذهب في طريقك وانا في طريقي. انتم في الامام!
انشروا الاشرعة وأقبلوها وجه الريح!»

وبينا ذهبت احدى السفينتين امام النسبات جذلى مسمحة، ناطحت الاخرى
الريح جاهمة عنيدة، وافترقت السفينتان، اما بحارة الباقوطة فينظرون
نظرات رصينة مترددة نحو «العزب» العائد، واما رجال «العزب» فلم يلقوا
بالا لنظرات أولئك وهم في نشوة وحبور. وعندما كان آخاب مستنداً على
أعلى الكوثة ورمق السفينة المزمعة نحو وطنها استخرج من جيبه قارورة من
رمل، وحول نظره من السفينة الى القارورة، فبدا كأنما يجمع بذلك بين متباعدين
لان تلك القارورة كانت مليئة بمستخرجات من بحر نانتوكت.

الحوت المحتضر

حين ييامننا أبناء السعد المجدودون ويبحرون على مقربة منا، نقبس لانفسنا،
وان كان القنوط يأخذ بمجامع نفوسنا من قبل، قبساً من ذلك القسم الهابّ،
ونحسّ في مرح ان اشرعتنا قد انتفخت بالأمل . هذا شيء غير نادر في الحياة
وذلك هو ما حدث للباقوطة، فان ملاحيا بعد ان قابلوا «العزب» المراح،
رأوا الحيتان في اليوم التالي وذبحوا اربعة منها، وذبح آخاب من الاربعة واحداً.

كانت الشمس قد طفلت؛ وعندما قرّت الرماح جميعاً في تلك المعركة
القرمزية، طفا في بحر الغروب الجميل والسماء الجميلة اثنان : الشمس والحوت، ثم
أفلا في سكون الموت معاً، ثم تمعجت في الافق الوردي عذوبة وكآبة،
وتصاعدت ابتهالات متضافرة متلاحمة، حتى بدا وكأن نسيم البر الاسباني بعيداً
صاعداً من الوديان الخضر في جزائر مانيلا قد تقحمت به همته فتحول بحاراً
فولى وجهه نحو البحر محملاً بتلك الابتهالات والانايد المسائية .

وتبددت جهامة آخاب وانبسطت اساريه مرة اخرى، وانما انبسطت
تمهيداً لجهامة اعق واعمق، وكان حينئذ قد ذهب الى المؤخرة بعيداً عن الحوت
وجلس ممعناً يرقب سكراته الاخيرة من قاربه الهادئ . ولحوت العنبر مشهد
غريب وهو يحتضر اذ يولتي رأسه وجهة الشمس ثم يلفظ انفاسه الاخيرة؛ ذلك
المنظر الغريب في ذلك المساء الوداع المطمئن نقل الى آخاب عجباً لم يعرفه من
قبل :

« يدور ويدبر جبهته مستقبلاً لحظة الختام ، ما ابطأه ولكن ما احزمه وهو يحول جبهة عانية بالخشوع مبهتة ضارعة مشفوعة بآخر ايماءات الاحتضار ! هو ايضاً يعبد النار ، يا تَبْنَعُ الشمس الأمين الكبير الرفيع ! أوَمِرْ لك ان ترى هذه الاعينُ المفعمة بالود هذه المشاهد المفعمة بالود . تأمل ! ها هنا وراء محبس الماء ، خلف كل طنين تبتعثه السعادة والتعاسة في دنيا البشر ، في هذه البحار الصريحة النزيهة حيث لا صخور تقدم ألواحاً تخطط فوقها التقاليد ، حيث الامواج منذ عصور صينية طويلة ما تزال تتقلب خرساء لا يحدثها احد ، كالنجوم التي تتلألأ فوق منابع النيجر المجهولة ، هنا ايضاً تموت الحياة مولية وجهها شطر الشمس ، مفعمة بالايمان ؛ ولكن أرجع البصر كرة ! ما يكاد الموت يدركها حتى يلتف الموت حول الجثة فتولي وجهها وجهة اخرى . »

« آه ايها الهندوسي الاسود ، يا نصف الطبيعة ، يا من بنيت من العظام الفارقة عرشك في مكان ما في قلب هذه البحار التي لا يكسوها اخضرار ، انت يا كافر ، ايها الملك ، وأنت تنطق بالحقيقة اذ تحدثني في الزرع الصرصر التي يعم بها الخراب والموتان ، وفي المدفن الساكن الذي يسمى هدأة بعد جيشان . ان حوتك هذا اذ يحول رأسه المحتضر نحو الشمس ثم يدور مرة اخرى ليحمل اليّ عبرة اي عبرة . »

« وانت يا عاتق القوة الموشح الملتحم في ثلاث طاقات ، أنت ايتها النفائث الطمّاحة الموشاة بقوس قزح ، كيف يجهد المرء منا ، كيف يوالي نفثاته باطلاً ! باطلاً ايها الحوت تطلب الشفاعة لدى الشمس العجلى التي تسترد الحياة ولا ترجعها بعد ؛ غير انك ايها الجانب الاسود تهدهدي بايمان أشد سواداً واكثر كبرياء ،

كلّ الاشياء التي تمازجت لديك ولا يمكن حصرها تسبح دوني ؛ ترفعني انفاس
اشياء كانت قبل حية ، تضوع كالهواء فأصبحت ماء ، .

« تحية لك ، تحية الى الابد ايها البحر يا من لا يجد الطائر البري راحة نفسه
إلا فوق اضطرابك الابدي . انا ابن الارض ، أرضعني البحر : السفح والوادي
كفلاني غير ان الامواج اخوتي بالرضاع » .

السهر على الحوت

ماتت الحيتان الاربعة التي ذبحت في ذلك المساء ، متباعدة ، أحدها مات نائياً ضد الريح والثاني أقرب منه وجهة الريح ومات الثالث على محاذاة القيدوم والرابع على محاذاة الكوثة . وجُرَّت الثلاثة الاخيرة وأجنبت الى السفينة قبل حلول الليل ، اما الذي مات ضد الريح فلم يمكن الوصول اليه حتى الصباح وكان القارب الذي تولى ذبحه هو الذي سهر الى جانبه طوال الليل ، وذلك هو قارب آخاب .

وقد غرست عصا الراية قائمة في نفثة الحوت الميت والقنديل معلق في اعلاها يرسل لألاء مضطرباً متردداً على الظهر الاسود الصقيل ويلقي ومضات بعيدة على امواج الليل التي كانت تمس في رفق جانب الحوت العريض كأنها امواج ناعمة تتكسر على الشاطئ الصخري .

وبدا آخاب وجميع ملاحى قاربه نائمين الا البارسي الذي أقعى في مقدم القارب ، وجلس يرقب أسماك القرش وهي تتلعب كالطياف من حول الحوت ، وتندق ألواح الصنوبر الخفيفة بذيلها ، وجرى في الفضاء صوت راعش كأنه صوت النواح بين الجنود على الذين خسفت بهم الارض وتحولوا قاراً من اشباح عامورة المذنبين الذين لم تدركهم المغفرة .

وهب آخاب من نومه ، فادابه وجهاً لوجه امام البارسي ، وكانت حلقة

الليل تطوّق الرجلين فيبدوان وكأنهما آخر اثنين في عالم طفى عليه الطوفان .
وقال : « عاودتني الرؤيا مرة اخرى » .

— « رؤيا عربات الموتى ؟ ألم اقل لك ايها الشيخ انك لن تعرف تابوتا او
عربة ؟ »

— « وهل يحتاج من يموت في البحر عربة تنقله ؟ »

— « ولكنني قلت ، ايها الشيخ ، انك قبل ان يدركك الموت في هذه الرحلة
سترى عربتين حقاً على البحر اما الاولى فلم تصنعها أيدي بشرية واما الخشب
المصوص في الثانية فلا بد انه من اشجار امريكية » .

— « اجل ، اجل . منظر غريب حقاً ، يا بارسى — ان ترى عربة والریش
من فوقها عائمة على المحيط ، والموجات هي حاملة النعش . ها ! مثل هذا المنظر
لن نراه وشيكاً » .

— « صدق او لا تصدق ، انك لن تموت الاحتمى ترى هذا المنظر ، ايها
الشيخ » .

— « وما ذاك الذي قلته عن نفسك ؟ »

— « مع ان الامر آجل فيا يتصل بي ، الا ابي سأكون ربيثة لك ، أمضي
قبلك » .

— « وحين تمضي قبلي — ان حدث ذلك ابدأ — فاني قبل ان ألحق بك ،
فلا بد من ان تظهر لي ، لتكون دليلاً لي ؟ أليس كذلك ؟ حسن ، اني أصدق
كل ما تقوله يا دليلى وربيتي ، ما يزال علي عهدان : ان أقتل موبى ديك وأن
ابقى حياً بعد قتله » .

فقال البارسي وعيناه تومضان كأنها يراعتان من نار الجباحب في الحلك :
« اقطع على نفسك عهداً ثالثاً ايها الشيخ ، فلن يقتلك الا القنّب » .

— « تعنى حبال المشتقة ^١ . اذن فأنا خالد على البر وعلى البحر — » كذلك
صاح آخاب بضحكة ساخرة — : « خالد على البر وعلى البحر » .

ولاذ الرجلان بالصمت كأنهما رجل واحد ، وطلع الفجر الداكن ، ونهض
الملاحون النائمون من قعر القارب ، وقبل الظهر أُجرّ الحوت الى السفينة .

١ هذا خطأ آخاب التقدير وطن ان القنّب لا يعني الا حبال المشتقة .

مقياس الزوايا

مع الزمن اقترب موسم الصيد على الخط^١، وحين كان آخاب يصدر كل يوم من قمرته ويلقي نظرة الى اعلى كان قيم الدفة اليقظ ، يعالج محاور دولابه^٢ متباهياً ، والبحارة اللاهفون يحرون بسرعة الى حلقات الحبال ويقفون هنالك وعيونهم مصوبة على الدبلون المسمّر، وقد فرغ صبرهم في انتظار الامر بأن يوجهوا قيدوم السفينة نحو خط الاستواء . وجاء الامر في إبانة ، كان الوقت يقترب كثيراً من الظهيرة وكان آخاب وهو جالس في صدر قاربه المرفوع عالياً، يرى برصد الشمس — حسب عادته اليومية — لتقدير مدى ارتفاعها .

ونهار الصيف في البحار اليابانية كجدول من الألقى الوضاء، فالشمس اليابانية الحية التي لا يطرف جفنها تبدو وكأنها البؤرة المتوهجة في مجهر المحيط الزجاجي المتراامي، وتبدو السماء مصبوغة باللك ولا سحاب هنالك، والأفق سابع، وهذا العربي ذو الألق الذي لا يخبو كأنما هو سناء عرش الله لا تستطيع العيون ان تحدد فيه . ومن الخير أن كان مقياس الزوايا لدى آخاب مزوداً بعدسات ملونة يستطيع من خلالها ان يبصر تلك النار الشمسية ؛ وبقي آخاب في جلسته لحظات ليقع على اللحظة الدقيقة التي تحلّ فيها الشمس في الأوج، وهو قد جعل يراوح جسمه على حسب تقلبات السفينة ، ووضع على عينيه منظاره الذي يشبه

١ هنا جعل الدفة دولاباً، وكان قد قال في الفصل : ١٦ ان لها غلا اتخذ من فك حوت .

آلات التنجيم . وبينما كان انتباهه كله مستغرقاً ، كان البارسي راکعاً دونه على ظهر السفينة ، ووجهه متجه الى أعلى كوجه آخاب ، وهو يرقب الشمس مثله ، إلا ان جفون عينيه كانت تخفي حدقتيه بعض اخفاء ، ووجهه الغريب قد استبد به ركود ارضي . وأخذ آخاب نتيجة الرصد بعد ذلك ، وحسب بقلمه على رجله العاجية ماذا كان ارتفاع الشمس في تلك اللحظة نفسها ، وعاد يتردى في غمرة حلم مدة لحظة ثم رفع رأسه الى الشمس وتمم قائلاً : « انت يا علامة بحرية ، انت ايها الرائد القوي الرفيع ، انت تصدقيني الخبر عن موضعي في الحاضر ، ولكن أتستطيع ان تلمحي اليّ تلميحاً أين أكون في المستقبل ؟ او تستطيعين ان تخبري اين تعيش بعض الاشياء الاخرى سواي في هذه اللحظة ؟ أين موبى ديك ؟ لا بد من انك في هذه اللحظة تبصرينه ، ان عيني لتنظران في نفس العين التي تبصره ، أجل وفي العين التي ترى الاشياء على الجانب الآخر المجهول منك ايتها الشمس ، على حد سواء » .

ثم نظر الى آلة قياس الزوايا ، ومس مبتدعاتها ورموزها العديدة واحداً بعد آخر ثم تفكر ثانية وتمم : « لعبة حقاء ! ألهية اطفال يحملها الاميرالات المستكبرون والقومودورات والقباطنة ؛ ان العالم ليباهي بك ، ويزهو بحيلتك وقوتك ، ولكن ماذا بعد كل هذا تستطيعين ان تفعلي سوى ان تعيَني النقطة المسكينة الذليلة التي تكونين انت نفسك فيها على هذا الكوكب الواسع ، واليد التي تمسك بك : لا . لا شيء سوى ذلك ، ولو كان مقدار ذرة ! انك لا تستطيعين ان تنبئينا اين تكون غداً عند الظهر قطرة ماء او ذرة رمل ، ومع ذلك فانك من القحة بحيث تحقرين الشمس ! علم ! لعنت ايتها اللعبة المغرورة ! ولعنت جميع الاشياء التي توجه عيون الانسان نحو تلك السماء ، فان حيويته الحياة انما تلفح عينيه مثلما ان هاقين العينين الشائحتين يحرقها ضوءك ايتها الشمس . ألحاظ عيني الانسان على مستوى واحدٍ وأفقَ الارض بطبيعتها ، ولم ينبتها الله في أم رأسه كأن الله قد اراده ان يحدث في جلد سمائه . لعنت ايتها الآلة التي تقيس

الزوايا ! » ثم قذف بها على ظهر السفينة : « بعد اليوم لن استبين طريقى الارضى بك ، سيهدينى ويرينى موقعى فى البحر ، بوصلة السفينة المستوية ، والاعتماد على التقديرات التخمينية المرتجلة » . - ثم اضاف وهو نازل من القارب الى ظهر السفينة : « اجل ! كذا أدوسك انت يا شيئاً خسيساً يشير بوهن الى الاعالى ، هكذا احطمك واضربك ! »

وما ان نطق الشيخ الهائج بهذه الكلمات وما ان داس برجليه كليتيها الحية منها والميتة على الآلة حتى مرت على وجه البارسي الاخرس القابع دون حراك سحابتان : احدهما نصرٌ ساخر كأن المقصود بها هو آخاب والاخرى يأس قاتل كأن نفسه هي المعنية بها . ونهض دون ان يلحظه احد وانسلَّ ذاهباً ، اما البحارة الذين تملكهم الرهبة لمنظر رئيسهم فانهم احتشدوا فوق أعلى المقدمة حتى صرخ آخاب وهو يذرع ظهر السفينة فى اضطراب : « الى حلقات الحبال ! ارفعوا الدفة - أديروا الدعائم الساندة ! »

وفى لحظة دارت الدعائم الساندة ، واستدارت السفينة على عقبها نصف دورة ، وصواربها الثابتة الجليلة مصوبة فى انتصاب على هيكلا الطويل المضلع كأنها هي ثلاثة فرسان - كل واحد منهم اسمه هوراتيوس^١ - يرقصون على حصان واسع الظهر .

وكان استاربك يقف بين رءوس اولئك الفرسان يرقب طريق الباQUOTE الصخاب ويرقب آخاب ايضاً حين ذهب يتأبل على ظهر السفينة :

- « لقد جلست امام نار الفحم الكثيفة وشهدها وهي تنوهج مفعمة بحياة

١ ثلاثة اخوة هم ابنا هوراتيوس حاربوا ضد الاخوة الكورائيين حفاظاً على سيادة ألبا .

اللهيب المتلوي ورأيتها وهي تأخذ في الخود، وتنطفئ، حتى تصبح رماداً
أخرس ! يا شيخ البحار هذه الحياة النارية التي فيك ما الذي يبقى منها في الختام
سوى حفنة من رماد !»

وصاح اسطب : « اجل إلا انه رماد فحم البحر - تأمل هذا يا سيد
استاربك - قولي « فحم البحر » - لا فحمأ عادياً مبتدلاً . طيب ! طيب !
سمعت آخاب يتمتم قائلاً : « ما قد دس بعضهم هذه الورقات في يدي وحلف
ان ألعب بها أنا ولا احد سواي » . عليّ اللعنة ان كنت يا آخاب لا تلعب لعباً
سليماً؛ عش في اللعبة حازماً، ومت حازماً» .

الشموع

أشد المناخات دفئاً يربّي اضرى الصواري : فتمر البنغال يقمي في حدائق
الافاويه ذات الحضرة الدائمة . والسماء اشد شيء اشراقاً الا انها تحتقب اشد
الصواعق فتكنا : هذه كوبا الفاتنة تعرف الاعاصير التي لم تطف ابداً ببلاد
الشمال ؛ كذلك هي الحال في هذه البحار اليابانية المتألقة ، فالبحار يواجه فيها
أعنى العواصف اعني الزعزع الموحجاء « التيفون » . فهي تنبتق احياناً من ذلك
الفضاء الصافي كأنها قنبلة متفجرة في مدينة مبهورة نائمة .

قبل مساء ذلك اليوم تمزقت أشرعة الباقوطة واضحى على الصواري العارية
ان تنازل الزعزع التي ضربتها ضربة على أم رأسها ؛ وحين حل الظلام كانت
البحر والسماء يهدران ، والرعد يشقها والبرق يتوهج فيها ، ويفضح الصواري
العاجزة ، والمزق ترفرف حولها من هنا وهناك ، وهي كل ما تركه لها هياج
العاصفة الاول ، لتتلهى به في لعبها المقبل .

وكان استاربك يقف على الربعة خلف الدقل الاعظم وهو ممسك باحدى
هذه المزق ، ولدى كل لمعة برق يرفع بصره الى اعلى ليرى اية كارثة اخرى قد
اصابت الادوات الضرورية هنالك . اما اسطب وفلاسك فكانا يوجهان الرجال
في رفع القوارب الى اقصى علو وفي كيفية الربط بأقصى احكام ، وبدا ان جهدهم
يضيع هباءً ، فمع ان القوارب رفعت الى قمة الروافع فان قارب الربعة المضادة
للريح (قارب آخاب) لم تكتب له النجاة فقد اندفقت امواج هائلة متضربة ضدّه

جانب السفينة المترنح العالي وشقت قاعدة القارب عند المؤخرة وتركته مرة
اخرى يقطر ماء كأنه غربال .

قال اسطب وهو يتأمل القارب المتصدع : « صنعته رديئة ! صنعته رديئة
يا سيد استاربك ولكن لا بد للبحر ان يفعل ما يريد . انا واحد من الناس الذين
لا يستطيعون منازلته . اما ترى يا سيد استاربك ان الموجة تطيل التحفز قبل
ان تثب ، فهي تجري حول العالم كله ثم تقفز ، اما انا فكل مسافة التحفز التي
لدي هي عرض هذه الالواح ها هنا . لكن لا بأس بذلك ، فكله يتم في دعاية ،
كذلك تقول الاغنية القديمة : (يغني)

آه ان الريح طروب
والخوت ساخر ضحوك
وذيله ناضر
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجان ،
والرشاش يتطاير
وهذه اصبعه تثير زبدا
حين يتململ في العبير
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجان
والرعد يشق السفين
وانما هو يتمطق
اذ يلحق اصبعه
والبحر فتى دعبوب مرح لعوب ساخر ضاحك مجان

فصاح استاربك : « حسبك يا اسطب ودع الزعزع تغني وتضرب قيثارتها
ها هنا في حبالنا وأشرعتنا ، ولو انك كنت رجلاً شجاعاً للزمت الصمت » .

— « ولتكني لست رجلاً شجاعاً ، ابدأ ما قلت انني رجل شجاع ، انا جبان ،
وانا أغني تشجيعاً لقلبي وانا اخبرك بالأمر يا سيد استاربك : لا شيء يوقف غنائي
في هذا العالم الا ان يقطع حلقي ، وحين يحدث ذلك فأنا اراهنك انني سأنشد
تساويح الختام » .

— « احمق ! انظر من خلال عيني ان لم يكن لك عينان » .

— « مه ! كيف ترى من الليلة الظلماء خيراً مما يراه سواك مهما يكن حقه ؟ »

فصاح استاربك وهو يقبض على كتف اسطب ويشير بيده نحو مقياس
الطقس : « افتح عينيك ! ألا ترى الريح تهب من الشرق ، اي من نفس الجهة
التي سيجري فيها آخاب من اجل موبى ديك ؟ نفس الجهة التي أمر بالدورات
نحوها ظهر اليوم ؟ تأمل قاربه هناك اين وقع التشقق ؟ في أشعة المؤخرة ، يا
رجل ، حيث تعود ان يقف ، لقد انشقت البقعة التي يقف فيها يا رجل ! والآن
اقفز من حافة السفينة وتغن متلاشياً ان كان لا بد من غناء ! »

— « لا أفهمك حتى بعض الفهم ، ماذا في الريح ؟ »

فناجى استاربك نفسه فجأة غير آبه لسؤال اسطب قائلاً : « نعم ، نعم .
الدوران حول رأس الرجاء الصالح أقصر طريق الى نانتوكت ، والريح التي
تدقنا بطرقتها الآن لتشق سفينتنا يمكن لنا ان نحولها الى ربح رخاء تسوقنا الى
الوطن ، هناك ضد مهب الريح ظلمة مصير اما مع مهب الريح ، فالوجهة هي
الوطن - أراها تضوىء هناك ، لكن ذلك ليس من فعل البرق » .

في تلك اللحظة اثناء احدى فترات الظلمة الحالكه التي تتلو التماع البرق سمع استاربك صوتاً الى جانبه وفي اللحظة نفسها على وجه التقريب تدسحرجت فوق رأسه زخة من قصف الرعد .

— « من هناك ؟ »

— « الرعد الرعّاص » — قال آخاب ذلك وهو يتلمس طريقه على حافة الربرة العليا ذاهباً الى الثقب المحوري ، إلا انه فجأة وجد طريقه واضحاً أمامه على ضوء حراب مقدوفة من نار .

ومثلما ان مانعة الصواعق في برج على البر انما يراد منها ان تصرف التيار الخطر في الارض فكذلك اختها مانعة الصواعق التي تحملها بعض السفن على كل صار فانما يراد منها ان تسرّب التيار نفسه في الماء ، ولكن بما ان هذا الموصل يجب ان ينزل الى عمق غير قليل حتى تتحاشى نهايته كل مساس بهيكل السفينة وبما انه زيادة على ذلك اذا ظلّ هنالك مجذوباً على الدوام فانه يكون عرضة لكثير من الكوارث ، هذا علاوة على انه قد يتدخل تدخلا غير قليل ببعض الحبال والاشرعة وبذلك يعيق طريق المركب في الماء كثيراً او قليلاً ، من اجل ذلك كله فان الاجزاء الدنيا من موانع الصواعق في السفينة لا تكون دائماً على ظهرها وانما هي بعامة تصنع من حلقات طويلة دقيقة لكي يتم سحبها الى أعلى في السلاسل الى خارج او القاؤها في البحر حسبما يتطلبه الموقف .

صاح استاربك للبجارة وقد استفاق فجأة بقوة البرق اللماح الذي كان قد اخذ يرسل شعله المنطلقة لتنير موقع آخاب :

« موانع الصواعق ! موانع الصواعق ! أهى فوق الظهر ، أنزلوها في المقدمة والمؤخرة ! عجلوا ! »

فصاح آخاب : « حسبك ! دعنا نتذرع بروح رياضية في هذا النزال وان كنا نحن الفريق الاضعف . اني قد اسهم في رفع موانع الصواعق على جبال الهملايا والانديز حتى أحفظ العالم كله من الخطر ، ولكن دعنا من استغلال الامتيازات لانفسنا ، دعها حيث هي يا سيدي . »

فصاح استاربك : « انظر الى أعلى ، انها شعل القديس اميليو (جسم قديس) انها جسم قديس ! جسم قديس ! »

كانت كل الدعامات الساندة في السفينة قد مالت على وهج نار صفراء وكانت كل نهاية مثلثة الرؤوس في كل طرف من اطراف مانعة الصواعق الثلاثة قد علق بها ثلاث شعل بيضاء مستدقة ، وكل واحد من الصواري الطوال الثلاثة كان يلتهب في صمت في الفضاء الكبيرتي وكأنه جميعاً ثلاثة رؤوس مستدقة من شموع ضخمة منصوبة امام المذبح .

« سحقاً للقارب ! ليذهب ! » كذلك صرخ اسطب في تلك اللحظة عندما ارتفع الماء المتلاطم تحت قاربه الصغير حتى ان حافته لطمت يده بعنف وهو يمرّ حبلاً . « سحقاً له » -- ثم انزلق الى الورا على ظهر السفينة وعيناه المصعدتان تبصران الشعل . ثم على التو صاح مغيراً نغمته : « ارجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها ! »

في لعنات البحارة كلمات مألوفة ، فهم قد يلعنون وهم في نشوة السكينة مثلاً يلعنون وهم بين نواجذ العاصفة ، وهم قد يصبون اللعنات من نهايات الدعامات الساندة عند الشراع الاعلى حين يكونون اشد شيء ترنحاً من بحر هائج . ولكني قلما سمعت في كل رحلاتي لعنة مترددة حين يكون اصبع الرب الملتهب قد نزل على السفينة حين تصبح كلمات بليشاصر « منا منا ثقيل وفرسين » منسوجة مع الاشرعة والحبال .

وبينا كانت هذه الصفرة تتلهب في الاعالي لم يسمع بين البحارة المسحورين كلام الا قليلا ، وكان البحارة قد تجمعوا في عصابة كثيفة واقفين عند منارة السفينة وعيونهم جميعا تلتصع في تلك الصفرة الفوسفورية الشاحبة كأنهم عقد نائم من النجوم . واذ تبدى دغة ذلك الزنجي الضخم اللامع إزاء ذلك الضياء الشبحي لاح في الطول ثلاثة امثال قامته الحقيقية ، وبدا كأنما هو السحابة السوداء التي انطلق البرق منها . واما شفتا طاشيقو المنفرجتان فقد كشفتنا عن اسنان في بياض القرش تلتصع التمتع غريبا حتى كأنما قد مستها شعل القديس اميليو . واما وشم كويكوج فانه حين سطعت عليه الاضواء السباوية ، توهج فوق جسمه كأنه شعل شيطانية زرقاء .

وذوى رواء الصورة جميعا حين طفت عليها الصفرة الشاحبة في الاعالي ، ومرة اخرى كانت الباقوطة وكل نفس عليها ملفعين في عباءة ، ومرت لحظة او اثنتان حين اصطدم استاربك بشخص وهو يتقدم الى الامام ، كان الشخص هو اسطب ، فقال له : « ما رأيك ايها الرجل الآن ، سمعت صيحتك ، فلم تكن نظير ما جاء في الاغنية » .

— « لا . لا . لم تكن ، لقد قلت : ارجو ان تولينا شعل القديس جميعا رحمتها ، وانا لا ازال ارجو ان تفعل ذلك ، أتراها لا تولي الرحمة الا الوجوه العابسة ؟ أليس لديها طاقة لتقبيل الضحك ، وانظر يا سيد استاربك أقول « انظر » والظلام حالك يحول دون الرؤية ، والصواب ان اقول : « اسمع » : اني اعد الشعلة التي علقت برأس الصاري علامة الحظ السعيد ، لان هذه الصواري مغروسة في عنبر سيطفح بزيت العنبر ، — فهمت ؟ — وبذا فان الزيت سيتغلغل في الصواري كمصير الحياة في الشجرة . اجل ان صوارينا الثلاثة ستصبح ثلاث شموع من زيت العنبر — ذلك هو الفأل الحسن الذي رأيناه » .

في تلك اللحظة رأى استاربك وجه اسطب وقد أخذ في بسطه ينوح منه

بصيص ، ونظر الى اعلى وصاح : « انظر ! انظر ! » ومرة اخرى تراءت الشعل
العالية المستدقة وقد بدا في شحوبها ما لاح كأنه شيء فوق طبيعي قد تضاعف
ما فيه من سمات علوية .

وصاح اسطب مرة اخرى : « أرجو ان تولينا شعل القديس جميعاً رحمتها » .

وعند قاعدة الصاري الرئيس تحت الدبلون واللهب تماماً كان البارسي راکعاً
امام آخاب ورأسه منحني بعيداً عنه ، بينما كان عدد من البحارة عن كذب منه ،
عند الحبال المقوسة والمدلاة ، منهمكين في حفظ احد الصواري من العطب
فسدهم الوهج فتلاصقوا ملتحمين ، ووقفوا معلقين كأنهم ثلة من الزناير الخدرة
تعلفت من غصن متدل من شجرة ، وبقي آخرون مغروسي الاقدام في ظهر
السفينة في وقفات متنوعة مسحورة كأنهم الهياكل الجسمية في هر كولانيوم
بعضها واقف وبعضها يد الخطو وبعضها راكض . الا ان عيونهم جميعاً كانت
مصوبة الى أعلى .

فصاح آخاب : « أجل ، أجل ، يا رجال صوبوا النظر اليها ، عاينوها جيداً ،
ان الشعلة البيضاء لتثير الطريق الى الحوت الابيض ، ناولوني حلقات الصاري
الرئيس هناك ، انه ليسرني ان ألمس هذا النبض وادع نبضي يندق ازامه . دم
يواجه ناراً ! كذا هو » .

ثم استدار وقد قبض بإحكام على آخر حلقة ووضع قدمه على البارسي
وأثبت نظره الى أعلى وطرح ذراعه الايمن على امتداده الى اعلى ووقف منتصباً
امام ذلك الثالوث العالي ذي الرؤوس الثلاثية من الشعل :

« آه يا روحاً صافية من نار صافية ، كنت اعبدتها ذات يوم فوق هذه البحار
كما يعبدها الفارسي حتى حرقته في شعيرة قربانية فأنا لا أزال احمل ندوبها

حتى الساعة^١ . انا اعرفك الآن، ايتها الروح الوضاعة، وانا اعرف الآن ان عبادتك الحق تحديّ ، انك لا تعطفين على الحب او الاحترام، واما الكراهية نفسها فلا يمكنك إلا قتلها، وكل شيء تقتلين . فاليوم لا يقف في وجهك احق سادر لا يعرف الخوف . في قوتك التي لا تتكلم ولا تتحيز في مكان ، ولكني سأظل حتى الرمق الاخير من حياتي الزلزالية انازع في هيمنتها المطلقة غير المتكاملة على نفسي . في وسط حومة الاشخصاني المتشخص، ها هنا تقف شخصية، وان كانت في خير احوالها نقطة . من أين أتيت والى اين اذهب ؟ غير اني ما دامت لي حياة البشر ستظل تحيا في الشخصية الملوكية وتستشعر حقوقها الملوكية . غير ان الحرب ألم والكراه ويل . تعالي في أدنى اشكال الحب وسأركع امامك وأقبلك، اما في اعلى صورك فتعالي محض قوة علوية، ومع انك تسوقين اساطيل من عوالم مفعمة بمشحوناتك فهناك ذلك الذي لا يزال قليل المبالة بك، آه ايتها الروح الصافية، من نارك خلقتني، وانا مثل ابن النار البار انفسها مردودة اليك » .

[تعود خطفات البرق مكرورة مفاجئة . تقفز الشعلة التسع في اتجاه طولي بحيث تصبح ثلاثة اضعاف ارتفاعها الاول . آخاب وسائر الرجال يغمضون أعينهم، وقد غطّوها براحتهم] .

« في قوتك التي لا تتكلم ولا تتحيز في مكان . ألم اقل كذلك ؟ وهي لم تنزع مني ، ولا انا القى هذه الحلقات الآن . انت تستطيعين ان تضربيني بالعمى

١ درس احد النقاد رمز «النار» في قصة مويي ديك ففسر هذه العبارة بقوله : « كان آخاب يعبد النار أولاً لانه يرى فيها محطماً للشرّ على الطريقة الزرادشتية الصحيحة، اذ كان يعدّها مبدأ النور ، واذا فعل ذلك ضربه البرق فأحرقته النار ، فكان فعلها موازياً للتشويه الذي أحدثه مويي ديك ... » .

ولكنني عندئذ استطيع ان أتلص طريقي، انت تستطيعين ان تهلكيني ولكنني استطيع عندئذ ان اكون رماداً . خذي اليك ولاء هذه العيون البائسة وهذه الراحات المتخذة وقاءً . أما انا فلا أريد ولاءً . ان البرق ليلتمع خلال جمجمتي ، وحدقتاي تؤلمان وتوجعان ، وذهنني المصعوق كأنه مقطوع الرأس يتدحرج على ارض صعّاقة . آه ! آه ، وان غشيني العمى فأنا اتكلم اليك ، انت ضياء ، ومع ذلك فانك تنبثقين من الظلام ، وانا ظلام انبثق من الضياء ، انبثق منك انت ! قد كفت حراب البرق عن الانطلاق ، ها انا افتح عيني ، فهل أبصر ؟ هناك تلتهب الشعل ، آه ايتها الفخيمة ! ما اشد ما اعز الآن بانتسابي اليك ! ولكنك ليس ضياؤك إلا والدي الناري اما أُمي الحلوة فلا اعرفها . آه ايتها الجائرة انك لا تعرفين كيف جئت ولذلك تقولين لم تلديك أم ؟ يقيناً انك لا تعرفين مبتدأك ومن ثم تقولين انك قديمة لا أول لك ، انا اعرف ذلك من نفسي ، اعرف ما لا تعرفينه من نفسك ايتها الجبارة المهيمنة . ورائك شيء لا يمتزج بغيره ايتها الروح الوضاء ليست ابديتك إزاءه الا زمناً ، ليست قدرتك على الخلق ازاءه الا آلية ؛ من خلالك ، من خلال نفسك الملتبهة تراه عيناى المحرقتان رؤية غائمة ، ايتها النار اللقيطة ، ايتها الناسكة الازلية ان فيك لغزك الذي لا يحل ، فيك حزنك الذي لا يشر كك فيه احد . ها هنا في ألم مستكبر اجد جدي وأقرأ اسراره . اقفزي ، اقفزي الى اعلى والحسي السماء ، انا اقفز معك ، احترق معك . ويسرنى ان التحم بك ، بهتدي اعبدك ! »

فصاح استاربك : « القارب ! القارب ! انظر ما حلّ بقاربك ايها الشيخ ! »

بقي رمح آخاب الذي صنعه في نار بيرث مربوطاً وربطاً محكماً في محبأه المرئي الظاهر حتى انه نتأ بعيداً عن مقدم قارب التحويت ، ولكن البحر الذي شق قاعدته قد جعل الغمد الجلدي المرتخي يسقط عنه ، ومن كلابة السنان الفولاذي الحادّ سطعت شعلة مستوية من نار شاحبة ذات شعب ؛ وعندما كان

الرمح الاخرس يحترق هنالك كأنه لسان حية، قبض استاربك على ذراع آخاب قائلاً: «الله، الله ضدك ايها الشيخ؛ كفت عما اعتزمته! فهذه رحلة منكودة الطالع، بدايتها منكودة والاستمرار فيها منحوس، دعني احول وجهة السفينة، ما دام في مقدورنا ذلك، ايها الشيخ، ونساير الريح الرخاء نحو الوطن حتى يتاح لنا ان نخرج في رحلة خير منها» .

وتأدى الى البحارة الذين كان قد تملكهم الفزع ما قاله استاربك فبحروا الى حيث الحلقات، وان لم يكن هناك شراع واحد مرفوع، ومرت عليهم لحظة كانت افكار الضابط المبهور فيها هي افكارهم، فرفعوا عقائرهم بصيحة تمردية - بعض التمرد، ولكن آخاب قذف بحلقات موانع الصواعق المفعقة على ظهر السفينة، واختطف الرمح المحترق وهزه كأنه شعلة بينهم وأقسم ان يسم به اول بحار يحلّ طرف حبل، وشلمهم منظره عن الحركة، وأخافهم المزراق الناري الذي يحمله فانكمشوا وتراجعوا في فزع، وتكلم آخاب ثانية فقال :

«كل ايمانكم التي حلفتموها لصيد الحوت الابيض تلزمكم كما يلزمني يميني، ان آخاب الشيخ مرتبط بقسمه قلباً ونفساً وجسماً ورثتين وحياة، وانتم كمي تعرفوا لاي نعمة يدق قلبه انظروا ها هنا، سأطفيء آخر خوف» . ونفخ نفخة واحدة على الشعلة فأطفاها .

ومنهما يهرب الناس في العاصفة التي تكتسح السهول من جوار شجرة دردار ضخمة منفردة ، يجعلها ارتفاعها وقوتها ابعاد عن السلامة ، لانها تكون بذلك هدفاً واضحاً للصواعق، كذلك فان كثيراً من البحارة حين سمعوا كلمات آخاب الاخيرة هربوا في هول الفزع مبتعدين عنه .

ظهر السفينة قريباً من نهاية النوبة الاولى في الحراسة الليلية

(آخاب جالس عند الدفة ، واستاربك
يقترّب منه) .

— « يجب ان نزل الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع العلوي يا سيدي فان
الرباط قد استرخى ، والرافع الأيمن قد وهى حتى كاد ينقطع فهل أنزلها يا
سيدي ؟ »

— « لا تنزل شيئاً ، اربطها ، لو كانت لديّ دعائم اشرعة مساوية لأمرت
برفعها الآن » .

— « سيدي ؟ بحق الاله ! سيدي ؟ »

— « طيب » .

— « المراسي تعمل يا سيدي فهل أجعلها تدخل فوق ظهر السفينة ؟ »

— « لا تنزل شيئاً ولا تحرك شيئاً بل اربط كل شيء . الريح تعلو ولكنها لم
تبلغ بعد الى هضباتي ، اسرع واهتم بالامر ، وحق الصواري والأرينات ، انه
ليعدني قبطاناً أحذب مسئولاً عن سفينة مساحلة ذات دفل واحد . يريد ان

ينزل الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع العلوي ! واه يا قدور الغراء ! أعلى تويجات
الصواري انما صنعت لأقصى الرياح، وتويج دماغي هذا يبحر وسط منطلق
السحاب ، فهل انزله ؟ لا ينزل تويجات أدمغتهم في وقت العاصفة الا الجبناء ؛
اي فوضى هنالك في الأعلى ! لكنك احسبها فوضى رائعة لولا ان القولنج مرض
مزعج ؛ آه ، خذ دواء ! خذ دواء ! »

منتصف الليل - هوافي السفينة

عند المنارة

(اسطب وفلاسك قد ركبا حوافي السفينة عند المنارة وهما يبران أربطة اضافية فوق المراسي المعلقة هنالك).

— « لا يا اسطب ؛ تستطيع ان تدق تلك العقدة قدر ما تشاء حتى تسحقها ولكنك لن تستطيع ان تجعلني أزدد ما كنت تقوله قبل قليل ، ترى كم مضى عليك منذ كنت تقول نقيضه تماماً ؟ ألم تقل ذات مرة ان اية سفينة يبحر فيها آخاب فتلك السفينة يجب ان تدفع شيئاً اضافياً على بوليصة تأمينها ، كأنها معبأة ببراميل بارود في مؤخرتها وصناديق من أعواد الثقاب في مقدمتها ؟ قف الآن : ألم تقل انت ذلك ؟ »

- « طيب هب انني قلته ؟ فماذا في ذلك ؟ منذ ذلك الوقت غيّرت لمحي جزئياً فلم لا أغير عقلي ؟ ثم هب ان سفينتنا معبأة ببراميل البارود في الخلف واعواد الثقاب في القيدوم فكيف بحق الشيطان يمكن لاعواد الثقاب ان تلتقط النار في هذا الرشاش البليل ؟ انت يا أخي ذو شعر أحمر جيل ولكنك لا تستطيع ان تلتهب ، انقض نفسك ، انت اكواريوس او حامل الماء يا فلاسك . تستطيع ان تملأ جراراً واباريق عند ياقة معطفك ، ألا ترى اذن ان شركات التأمين البحري قد تطلب ضمانات اضافية من اجل هذه الاخطار الاضافية ؟ ها هنا صنادير كبرى يا فلاسك ، ولكن أصخ - مرة اخرى - وسأجيبك عن

الامر الآخر . اولاً أبعد رجلك من قمة المرساة هنا ، حتى تستطيع ان أجز الحبل ، أصغ اليّ : ما الفرق الكبير بين الامساك بمانعة صواعق في صارٍ اثناء العاصفة والوقوف لصق صارٍ ليس فيه اية مانعة صواعق ابدأ في العاصفة ؟ ألسنت ترى ، يا ذا الرأس اليبس ، ان لا اذى يصيب المسك بقضيب المانعة الا اذا ضربت الصاعقة الصاري أولاً ؟ عمّ تتكلم اذن ؟ لا تجد سفينة واحدة في كل مائة مزودة بموانع الصواعق ؛ ولم يكن آخاب ، ايها الرجل ، ولا كنا جميعاً في خطر ، حسب رأي المتواضع ، اكثر من الخطر الذي يتعرض له البحارة في عشرة آلاف سفينة تبهر الآن في البحار . لكن انت ايها الدعامة الكبرى ، انت ، اظنك تتمنى لو ان كل فرد في الكون يمشي وقد جعل في زاوية قبعته قضيباً صغيراً يمنع الصواعق كالريشة المثبتة في قبعة ضابط الميليشيا ، ويجررها من خلفه كأنها حزامه . لم لا تكون عاقلاً يا فلاسك ؟ من السهل ان يكون المرء عاقلاً ، فلم لا تكون انت ؟ اي امرىء له نصف عين يستطيع ان يكون عاقلاً .

— « لا أدري لم يا اسطوب ، احياناً يجد المرء ذلك عسيراً » .

— « نعم عندما يكون المرء نقيعاً فمن العسير ان يكون متعقلاً ، هذا حق . وانا أكاد انتقع بهذا الرشاش . لا بأس ، امسك اللفة هنالك وأمرها ، يبدو لي اننا نربط هاتين المرساتين كأننا لن نستعملهما من بعد ابدأ . ان ربط هاتين المرساتين يا فلاسك يشبه من يشد امرءاً كتافاً ، جاعلاً يديه وراء ظهره . وما اكبر هاتين اليدين واكرمها ، يقيناً . هاتان قبضتاك الحديديتان ، مش كده ؟ واي قدرة فيها على القبض ايضاً ! ليت شعري يا فلاسك هل للعالم مرساة في مكان ما ؟ ان كانت له مرساة فانها تتأرجح من حبل طويل شاذ في مبلغ طوله . دق تلك العقدة هناك وبذلك ينتهي عملنا . خير شيء يرضي النفس ، سوى النزول الى البر ، هو النزول على ظهر السفينة ، اقول : انفض حواشي صدائتي ، اتسمح ؟ شكراً لك . يسخر الناس من المعاطف الطويلة يا فلاسك ، ولكن يخيل

الىّ ان المعطف ذا الذيل الطويل يجب ان يلبس دائماً اثناء كل العواصف في
الاعالي ، فاذا كان الذيل مستدقاً الى اسفل فانه يأخذ الماء . فهمت ؟ وكذلك
الامر في القبعة ذات العرف فان العرف يا فلاسك يمثل طنفاً الجرن في نهاية السقف
الهرمي . لا اريد بعد اليوم الصدارات البحرية الضيقة او قبعات التربولين ، سأأخذ
سترة فراك و قبعة محردة . كذا قررت . مرحى ! ووه ! ها هي قبعتي التربولين
تهوي الى الماء ، رباه ، رباه كيف تكون الريح التي تهب من السماء قليلة الذوق !
هذه ليلة قدرة يا فتى ! »

في الاعالي عند منتصف الليل - الرعد والبرق

(الدعامة الرئيسية التي تسند الشراع
الاعلى، وطاشطيقو يحزمها بأربطة
جديدة).

«م؛ م؛ م. أوقف ذلك الرعد، هذا رعد كثير هناك في الاعالي. ما
فائدة الرعد؟ م؛ م؛ م. لا نريد رعداً. نريد رمًا. اعطنا كأساً من رم؛
م؛ م؛ م؛ م!»

البندقية

في خلال أعتى الصدمات التي كانت تحدثها الزعزعة كان الرجل الواقف عند نخل السكان ، المصنوع من عظم الفك، ينطرح مترنحاً عدة مرات على ظهر السفينة بسبب حركاتها المتقطعة مع ان جبالاً واقية كانت قد ربطت بها - اذ كانت جبالها مسترخية - لانه لم يكن ثمة معدى من ان يكون النخل حراً بعض الشيء .

وفي عواصف عديدة كهذه العاصفة ، حين لا تكون السفينة إلا خذروفاً متقلباً في يد الريح ، فانه ليس من المستغرب ان ترى الابر في البوصلات ، بين فترة واخرى، تدور وتدور، وذلك هو ما حدث في الباقوطة، فان قيم الدفة لم يفتته ان يلحظ عند كل صدمة تقريباً، سرعة الدوران في الابر فوق لوحاتها، وذلك منظر لا يكاد يلحظه اي انسان دون الاحساس بنوع من الشعور لم يألوه .

وبعد مضي بضع ساعات على انتصاف الليل خبت حدة الزعزعة كثيراً حتى ان البقايا المترجرجة من الاشرعة : المقدم والمستأخر والعلويّ الرئيس، انفصلت عن الصواري بالجهود المضنية التي بذلها كل من استاربك واسطب ، واحدهما منهمك في الامام والآخر في الخلف ، وذهبت تغزل بعيداً مع مهب الريح كأنها ريش طائر البطروس، وهو الريش الذي تتلعب به الريح حين يكون ذلك الطائر الذي تقلبه العاصفة ناشراً جناحيه .

وأُمِلت الاشرعة الثلاثة المناظرة وطويت، ونشر شراع مرن في المقدمة ينشر مثله عادة في العواصف، حتى ان السفينة جرت على الماء مرة اخرى بشيء من التثبت المتناسك، وأمر قيم الدفة بأن يوجهها ان كان التوجه ممكناً في اتجاه شرقي جنوبي شرقي، ذلك انه خلال هيج العاصفة انما كان يوجه السفينة حسب تقلب الحال بها واذا كان يقرّب السفينة من مجراها قدر الامكان، مراقباً البوصلة في الوقت نفسه - يا لله ! ما احلى هذه العلامة ! ها هي الريح تدور من المؤخرة، اجل ان ما كان ريحاً نكباء قد اصبح ريحاً رخاء !

وعلى التوّ أدبرت الدعامات الساندة على نغمة اغنية حيوية مطلعها : « هو ! الريح رخاء ! او هي - هو، تهلاً يا رجال » والبحارة يتغنون طرباً ؛ ومن عجيب ان الامل بالتغير قد زيف على التوّ وجه نذر الشرّ التي سبقته .

وما كاد استاربك يعدّل الدعامات وفق المهب - في حرد وبرم وكآبة - وكان منوطاً به ان يعلن حالاً في اية ساعة من الساعات الاربع والعشرين عن كل تغير يحدث في شئون ظهر السفينة، امثالاً منه في ذلك لأوامر رئيسه، ما كاد يفعل ذلك حتى هبط آلياً الى الطابق السفليّ ليحيط آخاب علماً بتعديل الدعامات وفق المهب .

وتوقف لحظة امام غرفة رئيسه - توقفاً لا ارادياً - قبل ان يقرع الباب . كان قنديل القمرة اثناء تأرجحاته الطويلة ذاهباً جائياً يلتهب تلهباً مترجرجاً ويلقي ظلالاً متذبذبة على الباب المغلق ' - وهو باب رقيق ثبتت فيه ستائر في موضع الألواح الخشبية العليا، وكان انسفال القمرة في انعزالها يجعل الصمت

١ قارن هذا بقنديل يوثان في موعظة الاب مابل ص : ٩٢ من هذا الكتاب .

المهم يرين في ذلك المكان وان طوّق ذلك الصمت من جميع النواحي بهدير العناصر جميعاً . وانكشفت البنادق المعبأة من محاجتها، لامعة، منصوبة عامودياً ازاء الجدار الحاجز الامامي . كان استاربك رجلاً نزيهاً مستقيماً ولكنه لحظة ان رأى البنادق انطلقت من قلبه - على نحو غريب - خاطرة شريرة، إلا انها كانت مختلطة بأفكار اخرى بعضها خير وبعضها لا هو الى الخير ولا هو الى الشر، حتى انه لم يكذب يستبينها قائمة بنفسها في تلك اللحظة .

تمتم قائلاً : « كان يريد ان يردني بالرصاص ذات مرة ؛ نعم تلك هي البندقية نفسها التي صوبها اليّ - تلك ذات الخزان الرصع - لألمسها ، لأرفعها، من الغريب ان ارتعش وانا الذي تمرست بكثير من الحراب القاتلة . معبأة ؟ دعني افحصها . اجل، اجل والبارود في الخزان ؛ ليس هذا امرأ حسناً . أمن الافضل ان افرغها ؟ - مهلاً . سأبرأ بما انا فيه . سأمسك بها في جراحة ما دمت افكر - جئت اخبره بان الريح طيبة . كيف تكون طيبة ؟ طيبة تصلح الموت والفناء - اي هي صالحة لموبي ديك . ما من ريح طيبة الا الريح التي تصلح لذلك الحوت اللعين . هذا هو نفس الانبوب الذي سدده اليّ، نفسه، هذا نفسه، وانا امسك به، كان يمكن ان يقتلني بالأداة التي اقبض عليها الآن بيدي . اجل ولعله يرتاح لو قتل جميع بحارته . ألا يقول انه لا ينزل صواريه لأية عاصفة ؟ ألم يحطم مقياس الزوايا ؟ أليس يجد طريقه في هذه البحار المليئة بالمخاطر عن طريق التقدير التخميني المرتجل المستمد من سجل الرحلة وهو سجل حافل بالخطأ ؟ ألم يخلف في هذه الزرع نفسها انه لن ينصب موانع صواعق ؟ ولكن أنظّل نرضى لهذا الشيخ الجنون ان يجر جميع عصبة السفينة الى هوة العدم في صحبته ؟ نعم ان ذلك يجعله قاتل عمد ثلاثين رجلاً او اكثر ان لقيت هذه السفينة اذى بالغا مميتاً . اما انها ستلقى اذى بالغا مميتاً فان روحي تقسم ان ذلك حاد لا ريب فيه ان لم يجد آخاب من يكبح جماحه، فاذا تمت تنحيته في هذه اللحظة فارت تلك الجريمة لن تكون من صنعه . ها ! أترأه يتمتم في نومه ؟ نعم هناك - في

الداخل - انه ناثم . ناثم ؟ اجل ولكنه ما يزال حياً، وسيستيقظ حالاً . انا لا
استطيع ان اعارضك عندما تفيق ايها الشيخ . انك لا تصيخ للتعقل ، للاحتجاج ،
للتوسل ؛ كل هذه امور تزدريها . الطاعة الحاسمة لاوامرك الجازمة : ذلك هو كل
ما تتردد به انفساك . اجل وتقول ان الرجال نذروا على انفسهم مثل نذرك ،
تقول ان كل واحد فينا آخاب ، لا سمح الله العظيم ! ولكن اما من مخلص آخر ،
مخلص شرعي ؟ نسجنه حتى نرجع به الى الوطن ؟ مه ! أترجو ان تنتزع القوة
الحية في هذا الشيخ من يديه ؟ لا يجرب ذلك الا احمق . هب انه صفد ، عقدت
من حوله كل الحبال والواصر ، قيد بالحلقات على ارض القمر ، عندئذ يكون
اشد افزاعاً من نمر في قفص ، انا لا استطيع ان اطيق هذا المنظر ، وربما لم استطع
ان اهرب من عوائقه فالراحة والنوم والعقل الرزين - جميع هذه ستفارقني
عندئذ في الرحلة الطويلة المشؤومة . وماذا يتبقى بعد ؟ بيننا وبين البرّ مئات
الفراسخ واقرب برّ الينا اليابان التي يحرم علينا النزول فيها ، انا اقف وحدي
فوق بحر منبسط وبينني وبين القانون ميطان وقارة ، أجل . اجل انه لكذلك ،
أيذنب ارتكاب القتل الى السماء حين تصيب بصواعقها من سيصبح قاتلاً ، وهو
في سريرته ، فتحرق الاغطية والجلد معاً ؟ أكون قاتلاً إذا —» وفي بطاء
واستخفاء ، وهو يسترق النظر استراقاً ، وضع طرف البندقية المعبأة ازاء الباب .

« على هذا المستوى تتأرجح ارجوحة آخاب في الداخل ، ورأسه في هذه
الجهة ، « كبسة » واحدة يستطيع استاربك بعدها ان يعيش ليعانق زوجته
وظفله مرة اخرى . آه يا ماري ! ماري ! بني ! بني ! بني ! ولكن ان لم
أوقظك للموت ، ايها الشيخ ، فمن يدري في اية اعماق لا قرار لها يتردى جسد
استاربك في هذا اليوم من الاسبوع ، مع جميع البحارة ، يا رب يا عظيم ! اين
انت ؟ أقدم ؟ أقدم ؟ — قد هدأت الريح وتحوّلت يا سيدي ، وقد طوينا
الأشرعة الامامية والرئيسية العليا وعادت السفينة الى مجراها . »

— « الى المؤخرة ! آه يا مويي ديك اخيراً وضعت 'جُنعَ يدي على قلبك !»

كذلك كانت الاصوات التي انبعثت من فم الشيخ في نومه المتقلب بالعذاب
كأن صوت استاربك قد انطق الحلم الآخرس .

واهتزت البندقية التي ما تزال مصوبة، ازاء الباب، كأنها ذراع سكران،
وبسدا استاربك وكأنه يصارع ملاكًا، ولكنه استدّار عن الباب وردّ انبوب
الموت الى كنفه وغادر المكان .

- « انه في نوم عميق يا سيد اسطب، اهبط اليه انت وأيقظه وابلغه الخبر،
انا سألقي نظرة على ظهر السفينة، وانت تعرف ما تقول » .

في اليوم التالي كان البحر الذي لم يخبُ هيجته تماماً يتقلب في امواج طويلة بطيئة ذات حجم هائل ويدفع الباقوطة قدماً وهو يتمطى في آثارها المقرقرة، كأنه راحتاً مارد مبسوطتان . وتكاثرت النسبات القوية الصامدة حتى بدا الفضاء والهواء وكأنها شرعاان ينتفخان انتفاخاً شديداً، وكأن كل الكون يجيش متموجاً امام الريح . وانحجبت الشمس متلعة في ضوء الصباح ، فلم نعد نستبينها إلا بما تشره حولها من ضوء قويّ حيث كانت اشعتها الطعانة تتجه محتشدة مكدسة . وهيمت على كل شيء زخارف كالتي يزدان بها الملوك والملكات البابليون؛ اما البحر فكان بوتقة ذهب مذاب، يتوثب مرسلًا نفاخاته بقوة الضوء والحرارة .

ووقف آخاب منتحياً جانباً وقد طال به الصمت المسحور ، وكلما أمالت السفينة المترجرجة دقلها المائل الامامي وجه نظره الى اشعة الشمس اللامعة التي تلمعت في الامام، وكلما استقرت مطمئنة عند المؤخرة التفت الى خلف ورأى موقع الشمس عند المؤخرة، وكيف ان اشعتها الصفراء تمتزج بمخر السفينة الذي لا يتعوج ولا ينحرف .

ها، ها، يا سفينتي ! ليستطيع المرء ان يعدك عربة الشمس . هو ! هو !
ايتها الامم تلقاء القيدوم أنا آت اليك بالشمس ! ضعوا النير فوق اعناق الامواج
النالية، هالو ! اجعلوها عربة مردفة، ها انا اسوق البحر ! »

ولكن خاطرة مناقضة كبحت جماعه فجأة فأسرع نحو الدفة وتساءل
بصوت اجش : « كيف اتجاه السفينة ؟ »

فأجاب قيم الدفة المرتاع : « شرقاً - جنوب شرق يا سيدي » . فصفعه
بقبضته مجتمعة وقال : « كذاب ! أتتجه شرقاً في هذه الساعة من الصباح
والشمس في المؤخرة ؟ »

تحيّرت لدى هذه الحقيقة كل نفس ، لان الظاهرة التي لحظها آخاب فانت كل
من عداه فلم يفتنوا لها ، ولكن السبب في ذلك هو انها كانت حقيقة ساطعة
يعشي سطوعها عين الفكر .

ودسّ آخاب رأسه بعض الشيء في صندوق الابرة فلمح البوصلتين لحماً ، وببطء
هبطت ذراعه المرفوعة وبدا لحظة وكأنه يترنح ، ونظر استاربك الذي كان
يقف وراءه ، يا للهول ! كانت البوصلتان تشيران الى الشرق والباقوطة ذاهبة
دون انحراف نحو الغرب .

ولكن قبل ان يتأدى النذير الاول المرعب بين البحارة هتف الشيخ في
ضحكة جاسية : « لاحت لي ! لقد حدثت قبلاً ؛ ان رعد الليلة الماضية يا سيد
استاربك قد ادار بوصلتينا ، هذا كل ما في الامر ؛ وأنا اعتقد انك سمعت بمثل
هذا من قبل » .

— « اجل ، ولكنه لم يحدث من قبل لي أبداً يا سيدي » — ذلك ما قاله
الضابط الشاحب في اكتئاب ووجوم .

ولا بد من ان اقرر في هذا المقام ان حوادث كهذه قد وقعت غير مرة

للسفن اثناء العواصف العنيفة فان الطاقة المغناطيسية حسبما توجد في ابرة البحار، هي كما يعرف الجميع، لا تفرق في اساسها بشيء عن الكهرباء التي ترى في السماء، ولذلك فيجب ألا يملكنا العجب كثيراً اذا حدثت مثل هذه الامور، وقد وقعت حوادث، ضرب البرق فيها المركب وحطم بعض الصواري والمعدات، فكان التأثير على الابر احياناً انكى واشد، اذ انعدمت منها القوة المغنطيسية حتى اصبح ما كان فيها فولاذاً ممغنطاً لا تنفع فيه اكثر مما في ابرة الحياطة في يد امرأة عجوز . ثم ان الابر في الحالين لا تستعيد من ذاتها ما تبعد من قوتها الاصلية او اضمحل، واذا تأثرت البوصلة التي في الصندوق لقيت البقية الموجودة في السفينة مصيراً مماثلاً حتى ولو كانت بوصة في ادنى اجزاء السفينة مودعة في الكلزون .

وقف الشيخ عامداً امام صندوق الابر يلحظ البوصلتين المنحرفتين، ومحدد يده الممتدة عدلهما حسب وجهة الشمس بدقة، ولما أن رضي عن دقة التحويل للابرتين أصدر أوامره بتغيير وجهة السفينة وفق ذلك؛ فرفعت الباحات ومرة اخرى طعنت الباقوطة بمقدمتها الباسلة وجه الريح المضادة اذ ان الريح التي ظن انها طيبة انما كانت تمازحها وحسب .

وفي الوقت نفسه لم يقل استاربك شيئاً، مها تكن خواطره الخفية، وانما أصدر في هدوء الاوامر المطلوبة، وانصاع كل من اسطب وفلاسك للاوامر بالمثل دون تذمر، وان بدا انها كانا حينئذ يشاركانه المشاعر نفسها الى درجة قليلة . واما الرجال الآخرون فان خوفهم من آخاب - وان بدا بعضهم يهمهم في خفوت - كان أشد من خوفهم من الاقدار، واما الزراقون الوثنيون فظلوا كما كانوا ابدأ من قبل غير عابئين بشيء، او اذا هم اكثرثوا فانما كان اكترائهم معاطيسية يطلقها قلب آخاب العاتي الذي لا يلين في قلوبهم المعاتية التي لا تلين .

ومشى الرجل الشيخ مدة على ظهر السفينة في احلام متكوّرة ولكنه
ن ان زلق على كعبه العاجي ، فرأى انابيب المنظار النحاسية المحطمة ،
وهي انابيب مقياس الزوايا الذي طرحه في اليوم السابق على ظهر السفينة .

« يا ناظور السماء المستكبر المسكين ، يا رائد الشمس ! أمس حطمتك ،
والبوصلة اليوم كانت تودّ لو تحطمني . كذا ، كذا ؛ ولكن آخاب ما يزال سيد
المغناتيس المشحون . يا سيد استاربك - هات حربة دون قنّاة ، ومطرقة
واصغر ابرة من ابر صانعي الاشرعة ، عجل » .

ربما كان الدافع الذي يمي عليه ما يريد ان يفعله مشفوعاً ببعض دوافع صادرة
عن بصيرة ، وربما كانت غايتها انعاش نفوس البحارة بصنيع من مهارته الماكرة
في امر مثير للعجب كأمر البوصلتين المحولتين . ثم ان ذلك الشيخ كان يعلم حق
العلم ان الابحار على هدي ابرتين مواربتين ، وان كان امراً عملياً على نحو أرعن ،
فانه ليس من الامور التي يمر بها البحارة المؤمنون بالخرافة مرّاً الكرام ، دون
ان يحسوا بالقشعريرة ونذر الشر .

والتفت في رباطة جأش نحو البحارة حين سلمه الضابط الادوات التي طلبها :
« يا رجال ؛ يا رجالي لقد عكس الرعد ابر آخاب الشيخ ولكن آخاب
يستطيع من هذه القطعة من الفولاذ ان يصنع ابراً ، تشير الى الوجهة الصحيحة
كأي ابر اخرى » .

تبادل البحارة بينهم نظرات مرتبكة تفيض بالدهشة الدلية حين سمعوا
هذا القول ، وترقبوا بعيون هيفة اي سحر يبدو . اما استاربك فحوّل نظره
ناحية .

هوى آخاب بالمطرقة على الحربة الفولاذية فأطار رأسها بضربة ، وأعطى الضابط سائر القضيبي الحديدي وأمره ان يسكه عامودياً دون ان يمس ظهر السفينة ، ثم دق الطرف الاعلى من هذا القضيبي الحديدي مراراً بالمطرقة ، ووضع الابرة الكلية مقلوبة في طرف القضيبي ، ودقها دقاً خفيفاً عدة مرات ، والضابط ما يزال ممسكاً بالقضيبي ، ثم حركها بضع حركات غريبة - ولا احد يدري أكانت ضرورية لمغنطة الفولاذ او قصد بها ليزيد من الرهبة في نفوس بحارته - وطلب خيطاً من الكتان ، ومشى الى صندوق البوصلة فزحزح الابرتين المعكوستين واستخرجهما ، وعلق ابرة الشراع من وسطها أفقياً فوق واحد من قرصي البوصلة . فأخذ الفولاذ في بادئ الامر يدور ويدور مهتزاً متذبذباً في طرفيه واخيراً استقر في موضعه ، وعندئذ تراجع آخاب الذي كان يرقب هذه النتيجة بامعان من جانب صندوق الابرة ، وأشار اليه بذراع ممدودة نحوه وهتف : « احكموا انتم ان كان آخاب - او ان لم يكن - سيد المغناطيس . الشمس في المشرق ، وهذه البوصلة تقسم ان ذلك صحيح ! »

وأطلوا عليها واحداً اثر آخر اذ لم يكن يستطيع ان يبدد جهلاً كجهلهم
الا المعاينة بالنظر ، وانسلتوا ذاهبين واحداً اثر آخر .

في نظراته النارية التي ترسل الاحتقار والانتصار كنت ترى آخاب وهو
في ذروة خيلائه القاتلة .

مقياس السرعة وهبل المقياس

على الرغم من طول ما عامت الباقوطة الساعية الى مصيرها خلال هذه الرحلة فان مقياس السرعة والحبل المتصل به قلما استعملا ؛ وبعض السفن التجارية وكثير من سفن الحوافة ، نظراً لاعتمادها المطمئن على وسائل اخرى في تحديد الموقع الذي تحلّ فيه ، وخاصة اثناء تجوالها، تغفل رفع مقياس السرعة اغفلاً تاماً . وان كان قباطنتها في الوقت نفسه يسجلون بانتظام على اللوحة المعهودة ، وكثيراً ما يكون علمهم هذا حفاظاً على شكيليات الامور دون اي شيء آخر ، المساق الذي ابجرت فيه السفينة ، كما يسجلون نسبة التقدم التخميني كل ساعة . وكذلك جرت الحال بالنسبة للباقوطة فقد ظلت البكرة الخشبية والقرمة الخشبية ذات الزوايا المتصلة بها معلقة دون مساس مدة طويلة ، تحت الدرازين الواقع في الحوافي الخلفية ، وقد نشعت بالرطوبة من الامطار والرشاش ، وقلّصتها الشمس والرياح ، اي تضافرت كل العناصر لتبلي شيئاً معلقاً متبطلاً . ولكن آخاب الذي لم يقنعه لكل هذا لفتت هذه الحال نظره عندما اتفق له ان ألقى نظرة على البكرة الخشبية ، بعد مشهد المغناطيس بساعات غير كثيرة ، وتذكر ان مقياس الزوايا لم يعد له وجود ، وتذكر قسمه المحنق حول القرمة المستوية والحبل . كانت السفينة تبجر في الضباب ، والامواج في مؤخرتها تتدحرج صخابة حين صاح : « اتم في الامام ! ارفعوا مقياس السرعة » .

جاء اثنان من البحارة : التاهيتي ذو البشرة الذهبية وابن جزيرة مان الاشعث فقال لهما : « ليقف احداً عند البكرة الخشبية وأنا اسحب » .

فذهبا الى اقصى المؤخرة على الجانب الايمن من السفينة حيث كان ظهرها بقوة الريح المواربة يكاد ينغمس في البحر المزبد المندفع على انحراف .

فأمسك الرجل ابن جزيرة مان بالبكرة الخشبية ورفعها الى اقصى ما يستطيع ممسكاً بها من طرفي اليدين البارزتين في مغزها الذي يلتف حوله ملف الحبل ، ووقف كذلك والقرمة ذات الزوايا معلقة مدلاة حتى اقترب منه آخاب .

وقف آخاب امامه وكان يحل بخفة ثلاثين او اربعين لفة لكي يكوّن منها طويلاً يطرحه من فوق السفينة حين تجرأ ابن جزيرة مان الذي كان يلحظه في اعمان ويلحظ الحبل ، فتكلم قائلاً :

— «سيدي انا لا أثق فيه ، هذا الحبل هالك ، قد اتلفته الحرارة والرطوبة في المدى الطويل » .

— «لا بأس به ايها الشيخ فانه سيستمسك ؛ هل اتلفتك انت الحرارة والرطوبة في المدى الطويل ؟ ما تزال مستمسكاً لا بأس بك ، او ربما كان الاصوب ان اقول : ان الحياة لا تزال مستمسكة تقوم بك ، ولست انت الذي تقوم بها » .

— « انا امسك الملف يا سيدي . الامر كما يقول قبطاني . ليس من الجدير بي وقد اشمطت الذوائب فوق ذهني ان اجادل ، وبخاصة ان اجادل رئيساً لن يعترف لي بالصواب » .

— «من هذا ؟ ها هنا استاذ رث الهيئة في كلية الطبيعة الملكية المبنية من حجارة الفرائيت ، ولكن يلوح انه نافع حتى ليتجاوز حد النفع . اين ولدت ؟ »

— « في الجزيرة الصغيرة الصخرية التي تسمى جزيرة «الانسان» (مان) يا سيدي » .

— « عظيم ! انك تستطيع ان 'تحرز' الكون بذلك ! »

— « لا ادري يا سيدي، ولكنني ولدت هنالك » .

— « في جزيرة «الانسان» ، مش كده ؟ لو عكست القول لكان افضل .
ها هنا انسان من « الانسان » — انسان ولد في « الانسان » التي كانت ذات يوم
مستقلة ، واليوم جردت « الانسان » من الانسان — ابتلعت ، من ابتلعها ؟ ارفع
البكرة ان الحاجز الجامد الاعى ليدع كل الرؤوس الباحثة عن جواب في النهاية .
ارفعها ! هكذا » .

جرّ مقياس السرعة وتوترت اللفائف المسترخية على عجل في حبل طويل
ممتد من المؤخرة ، وعلى التوت اخذت البكرة الحشبية تدور . ثم ان مقاومة الجذب
في قرمة المقياس ، وقد رفعتها الموجات المتضربة وانخفضت بها في ارتجاج ، قد
جعلت بدورها الرجل المعجوز المسك بالبكرة يترنح ترنحاً غريباً .

— « تثبت ممسكاً ! »

فرقة ! ان الحبل الذي تجاوز في توتره الحدّ تدلّس متقوساً في الخناء مديدة
وغابت القرمة المسحوبة .

— « انا حطمت مقياس الزوايا والرعد عكس الابر ، وهذا البحر الجنون يقطع
حبل مقياس السرعة ، لكن آخاب يستطيع ان يصلحه . اسحب الى هذه
الناحية ايها التاهيتي ؛ لفّ انت الحبل حول البكرة يا ابن جزيرة مان ، واسمع !
قل للنجار يصنع قرمة اخرى وانت اصلح الحبل . هيا اهتم بالأمر » .

— «ها هو ينصرف . كأن لم يحدث شيء في نظره» ، اما انا فاني ارى ان المحور قد انقلبت من وسط العالم . اسحب . اسحب . يا تاهيتي . هذه الحبال حين ترخيها تجري سليمة وحين تلفها تأتي متقطعة وتنجر ببطء . ها بيبي ؟ جاء يقدم العون ؟ ماذا يا بيبي ؟ »

— «بيبي ؟ من ذا الذي تناديه باسم بيبي ؟ بيبي قفز من قارب التحويت . بيبي مفقود . دعني ارى ان كنت قد استخرجته من البحر ايها الصياد . ان الحبل ينجر بعسر وتثاقل ، وانا اظن انه ممسك بطرفه . انفضه ايها التاهيتي ، اطرحه عنك ! فنحن هنا لا نسحب جبناء . هو ! ها هي ذراعه تشق الماء . البلطة ! البلطة ! اقطعوها ، فنحن هنا لا نسحب جبناء . يا قبطاننا آخاب ! سيدي ، سيدي ! ها هو بيبي يحاول ان يعود الى ظهر السفينة » .

فأمسك به ابن جزيرة مان من ذراعه وصرخ : « اهدأ ايها الممرور المجنون ، انصرف عن الربة خلف الدقل الاعظم ! »

فتمتم آخاب وهو يقترب : « الابله الاكبر يوبّخ الابله الاصغر ، ارفع يديك عن تلك القداسة الطاهرة ! أين تقول ذهب بيبي ايها الغلام ؟ »

— « في المؤخرة يا سيدي هناك في المؤخرة ! تأمل ! تأمل ! »

— «ومن انت ايها الغلام ؟ انا لا أرى خيالي في انساني عينيك الفارغين . ربا ! هذا الانسان شيء تتخذة الارواح الخالدة منتخلا تنفذ منه ! من انت ايها الغلام ؟ »

— «انا الجراس يا سيدي ، أنشد الضالة في السفينة . دن - دن - دن ! بيبي ! بيبي ! من دلّ على بيبي فله مائة رطل من صلصال ، ارتفاعها خمسة

اقدام — علامته أنه جبان — تسهل معرفته بهذه العلامة ! دن — رن — دن ! من رأى يبب الجبان ؟ »

— « بعد خط الثلج لا يمكن ان تكون هناك قلوب . آه ايتها السماوات المتجمدة ، انظري من على الى ما هو هنا . أنت ولدت هذا الطفل التعس وهجرته ، انت ايتها الفاجرة الولود . الي يا غلام ! ان قررة آخاب ستكون بيت يبب ما دام آخاب حياً . انك لتلمس سويداء قلبي ايها الفتى ، انك موصول بي بحبال منسوجة من خيوط قلبي . تعال هيا بنا نهبط الى القمره . »

فقال يبب وهو يمعن محدقاً في يد آخاب ويتحسسها : « ما هذا ؟ هذا جلد قرش مخلي ، آه لو ان يبب المسكين لمس شيئاً لطيفاً كهذا فربما لم يذهب فقيداً ! هذا يبدو لي يا سيدي مثل حبلٍ جانبي في سفينة ، شيء تتعلق به النفوس الضعيفة . آه يا سيدي ادع بيرث الحداد لكبي يأتي و « يبرشم » هاتين اليدين معاً ، السوداء مع البيضاء ، لأنني لن ادع هذه اليد تفلت من يدي . »

— « آه يا غلام ويدي لن تفلت من يدك إلا اذا جررت الى احوال اسوأ من التي هنا . تعال اذن الى قمرتي . تأملوا يا من تعتقدون ان الآلهة فيها الخير كله وان الانسان فيه الشر كله ، تأملوا ! انظروا كيف ان الآلهة العليمة بكل شيء تسهو عن الانسان المتألم ، وان الانسان على بلاهته وجهله بما يأتيه مليء بالاشياء العذبة من حب وشكران . تعال ! اشعر انني اشد خيلاء حين اقودك بيدك السوداء مما لو امسكت بيد امبراطور ! »

فتمتم الأشيب ابن جزيرة مان : « ها هنا يمشي اثنان مجنونان . احدهما مجنون بالقوة والآخر مجنون بالضعف ، ولكن ها هي نهاية الحبل البالي ، كله يقطر ماء ايضاً . يقول لي اصلحه ! اظن من الخير لنا جميعاً ان نجد لنا حبلاً جديداً تام الجودة . سأقابل السيد اسطب في الامر . »

عومة الانقاذ

أبحرت الباقوطة في اتجاه جنوبي شرقي على هسدي المؤشر الفولاذي الذي طرقه آخاب، وليس فيها ما يعين مقدار سرعتها سوى القمرة المستوية والحبل اللذين سواهما هو. واستمر بها طريقها نحو خط الاستواء. فكان قيامها برحلة طويلة خلال مياه مهجورة بحيث لا ترى سفناً وتصبح بعد وقت غير طويل مسوقة - على انحراف - بقوة رياح تجارية لا يتغير مهبا - على أمواج وديعة يستمر مرير وداعتها ابداً، كل هذه الامور بدت وكأنها الاشياء الهادئة الغريبة في هدوئها التي تجيء ارهاصاً بمشهد صخّاب مستئش.

وعندما اقتربت السفينة اخيراً من ضواحي مجال الصيد الاستوائية - ان صبحّ التعبير - وكانت في الحلقة المبهمة التي تسبق الفجر تبجر الى جانب عنقود من الجزيرات الصخرية، عندئذٍ روع حراس النوبة - وكان فلاسك يرأسهم - بصيحة وحشية منكرة، لما تنضح به من كآبة منتجة كأنها ندب مغمغم ترسله اشباح جميع الابرياء الذين أزهق ارواحهم هيرودس، حتى انهم وحداناً وزرافة هبوا من هجماتهم ووقفوا او جلسوا او اتكثوا صاغين في تصلب كتمثال العبد الروماني المنحوت - على مدى بعض لحظات - وتلك الصيحة الغريبة الوحشية ما تزال منهم بسمع. اما المسيحيون او الفريق المتمدن بين البحارة فقالوا انها حوريات البحر، وانتفضت اجسامهم ارتعاداً، واما الزراقون الوثنيون فظلوا ساكنين لا يدركهم فزع، غير ان ابن جزيرة مان

الاشيب - اكبر البحارة جميعاً في السن - اعلن ان الاصوات الوحشية المثيرة التي سمعوها انما كانت اصوات قوم حديثي الفرق في البحر .

وكان آخاب في ارجوحته في الاسفل فلم يسمع بهذا حتى طلع الفجر الداكن وصعد هو الى ظهر السفينة ، فأفضى اليه فلاسك بالنبا مشفوعاً بتلميحات الى بعض معاني الشؤم ، فضحك ضحكة جوفاء وأورد التفسير التالي لذلك الامر الغريب :

تلك الجزر الصخرية التي مرت بها السفينة هي ملاذ عدد كبير من حيوان الصيل^١ ، وبعض افراد الصيل الصغار الذين فقدوا امهاتهم او الامهات اللواتي تشكلن صغارهن قد اقتربن ولا بد من السفينة وظللن يرافقنها معولات ناتحات على نحوٍ شبيه باعوال بني الانسان ونواحهم ؛ ولكن هذا التفسير كان أبلغ تأثيراً مما عداه في نفوس بعضهم لان اكثر البحارة يستشعرون احاسيس موشحة بالخرافات نحو حيوانات الصيل وذلك لم ينشأ لديهم فحسب من نغماتها المعولة حين يلم بها مصاب ، وانما نشأ ايضاً من مظهرها الانساني فهي ذات رءوس مستديرة ووجوه ذكية بعض ذكاء ، حين تبرز متطلعة من الماء عن كئيب . وكثيراً ما أخطأ الناس في البحر تحت ظروف معينة حقيقة الصيل وحسبوه آدمياً .

ولكن مخاوف البحارة أتتبع لها ان تجدها تؤكد أغاية في الاستصواب ، وذلك بالمصير الذي لقيه احدهم ذلك الصباح ، فقد غادر ذلك الرجل ارجوحته عند طلوع الشمس الى قمة الصاري عند المقدمة ، أتراه لم يكن قد استكمل يقظته من النوم (لان البحارة احياناً يصعدون وهم في حال بين النوم واليقظة) ؟ أتراه كان كذلك ؟ لا احد يدري . لكن مهما يكن الامر فانه لم يمكث طويلاً في مجثمه حتى سمعت صيحة - صيحة وانقلاب - ونظر البحارة الى اعلى فرأوا في الفضاء شبحاً يهوي ، ونظروا الى أسفل فرأوا كومة صغيرة متموجة من الفقاقيع البيض في زرقة البحر .

وأُنزلت عوامة الانقاذ - وهي برميل نحيف طويل - من عند المؤخرة حيث تظل دائماً معلقة في انتظار وثبة لبقة الا انه لم تمتد يد للقبض عليها ؛ وبما ان الشمس كانت قد ضربت ذلك البرميل فقد تَكَمَّشَ حتى انه امتلأ بالماء في ببطء وتشبع خشبه اليبيس بالرطوبة في كل مساماته ، ولذا فان البرميل المسمّر بالدسر المطوّق بالحديد لحق بالبحار الى القعر كأنه يقدم له من نفسه وسادة حقيقية وان كانت صلبة الملمس .

وبذا فان اول رجل من رجال الباقوطة اعتلى الصاري ليرقب الحوت الابيض عند المجال الخاص بذلك الحوت ، ذلك الرجل ابتلعه اليم في جوفه . ولكن قل " ان تجد احداً تنبه لهذا في الحين . بل انهم في الواقع لم يأسفوا لهذه الحادثة ، او في الاقل لم تحزنهم بكونها نذير شر " ، فقد عدوها تحقيقاً لشرّ كانت قد جاءت به النذر لا ايذاناً بشر سيقع في المستقبل . فصرحوا انهم قد ادرّكوا سبب الصيحات الوحشية التي سمعوها في الليلة السابقة . ومرة اخرى قال ابن مان العجوز : لا .

وأصبح تدبير عوامة انقاذ بدلاً من العوامة التي فقدت امراً لازماً ، وولي استاربك امر الاهتمام بذلك ، ولكنهم لم يجدوا برميلاً مناسباً في خفته ، وكانت جميع الايدي ، في اللفة المحمومة لما بدا انه ازمة موشكة في الرحلة ، جازعة من ان تبذل جهداً الا ان يكون وثيق الصلة بغايتها القصوى ، أياً كانت تلك الغاية . لذلك كانوا يريدون ان يتركوا مؤخرة السفينة غير مزودة بعوامة انقاذ حين ألح كويكوج الى تابوته في اشارات وائماء غريبة .

فصاح استاربك مجفلاً " تابوت يتخذ عوامة انقاذ ! »

وقال اسطوب : « ذلك شيء مستهجن في رأيي » .

وقال فلاسك : « انه يصلح تماماً ، وهذا النجار سيسوّيه في يسر » .

فقال استاريك بعد توقف سوداوي : « هاته ، ليس يصلح سواه . زوده بالحبال يا نجار ، لا تنظر اليّ هكذا ، انا اعني التابوت ، أتسمعي؟ شده بالحبال » .

فقال النجار وهو يحرك يده كأنه يحمل مطرقة : « وهل ادق غطاءه بالمسامير يا سيدي ؟ »

— « أجل » .

— « وهل أقيّر ملاقيه يا سيدي ؟ » — وحرك يده كأنه يحمل وعاء القار .

— « انصرف ! ماذا لديك فيما يتصل به ؟ اصنع عوامة انقاذ من التابوت ، ولا شيء سوى ذلك . يا سيد اسطب يا سيد فلاسك تقدّما معي » .

— « لقد انصرف ساخطاً . يستطيع ان يتحمل الكلّ اما عند الاجزاء فيحزن ويتسخط . انا لا احب هذا . لقد صنعت رجلاً للقبطان آخاب وهو يلبسها كما يفعل الرجل الدمث المهذب ثم صنعت صندوق قبعات لكويكوج فرفض ان يدس رأسه فيه . أيذهب كل تعبي سدى في ذلك التابوت ؟ وهو يأمرني الآن ان اصنع منه عوامة انقاذ . هذا يشبه قلب معطف قديم فهذا يعني انني سأجعل القفا وجهاً ، انا لا احب هذا النوع من العمل الذي يليق بالاسكاف . لا أحبه ابداً . لا كرامة فيه . ليس هنا موضعي . تصلح الآنية يحتاج الى غلمان السمكرية . نحن خير من هؤلاء . لا أحب ان امس بيدي الامهات نظيفة بكرراً رياضية قلباً وقالباً ، اموراً تبدأ بانتظام في البداية وتكون في الوسط حين تبلغ الوسط وتأتي الى النهاية عند الحتام ، لا مهمة اسكاف تكون منتهية في الوسط ، وعند البداية تكون في النهاية . ان تكليف المرء بمهمات

الاسكاف من حيل العجائز . رباه ! ما اشد حب العجائز للسمكرية . انا اعرف عجوزاً في الخامسة والستين هربت مع سمكري شاب اصلع وهذا هو السبب الذي كان يجعلني امتنع من اداء اي عمل للعجائز المترملات «الوحدانيات» على البرّ حين كان لي دكان في فنيارد، فلعله كان يخامر رءوسهن الشائخة «الوحدانية» ان يهربن معي . لكن هي - هو ! ليس في البحر قبعات الا قبعات الثلج . خلني أرى . اسمّر الغطاء . أقيّر الملاقي ثم اطلّ عليها به مرة اخرى ، ثم أدق عليها خشباً مستعرضاً وأحكمه ثم اعلقه باللؤلؤ التناش فوق مؤخرة السفينة . هل حدث من قبل ان اجريت هذه الامور على تابوت ؟ بعض المسنين من النجارين المؤمنين بالخرافات قد يُشدون بالقيود والحبال قبل ان يقبلوا تجاوز هذه المهمة ولكنني مصنوع من شوكران خشب ارستوك الاعدد . لا أبالي . مقعدتي كفن وأطوف مبحراً في صينية من مقبرة ! لا بأس . نحن العاملين في الخشب نصنع أسرة العرسان وموائد اللعب مثلما نصنع التوابيت وعربات الموتى . نعممل بالشهر او بالحرفة او بالفائدة . لا نسأل من صنعتنا ما مآلها وما منتهاها ، الا ان كانت ترقيعاً «وتسكيجاً» ، وعندئذ نتخلى عنها اذا استطعنا . هم ! سأؤدي المهمة الآن في رفق ، سيكون لدي - يا سيدي - كم واحد في السفينة ، المجموع ؟ نسيت . على اي حال ، سأعمل ثلاثين حبل انقاذ متفرقة ، طرف كل منها معمم بعقدة كرأس التركي ، طول كل منها ثلاثة اقدام ، كلها معلقة حول التابوت ، فاذا غرق هيكل السفينة فانه يكون هناك ثلاثون شخصاً حياً يتنازعون كفناً واحداً ، منظر لا تبصره كثيراً تحت الشمس ! إليّ ايها المطرقة والاسفين ووعاء القار والمحرز ! الى العمل ! »

ظهر السفينة

(التابوت موضوع على برميلين من براميل الحبال بين الدكة ذات الملازم والمدخل المفتوح ؛ النجار يقف ملاقيه ؛ خيط من الدر الملوّية ينحل ببطء من كبة كبيرة موضوعة في جيب صدارته الداخلية. يأتي آخساب بطيئاً من باب القمرة ويسمع حسن يبب وهو يتبعه).

— «ارجع يا فتى! سأرجع اليك بعد قليل . ها هو ذهب ! هذه اليد لا تناسب مزاجي بأكثر مما يناسبه ذلك الغلام — جناح متوسط في كنيسة ! ما يجري هنا ؟»

— «عوامة انقاذ يا سيدي . هذه هي اوامر السيد استاربك . آه ، انظر يا سيدي . احذر ان ترتطم بالمدخل !»

— «شكراً ايها الرجل . ان تابوتك قريب من القبو» .

— «ما يقول سيدي ؟ يعني المدخل ؟ حقاً هو كذلك سيدي ، هو كذلك» .

— «ألست انت صانع الرجل ؟ انظر ألم يأت هذا الجذم من حانوتك ؟»

— «أعتقد انه منه يا سيدي ، كيف حال الطوق^١ ؟»

— « جيد . ألست انت ايضاً حانوتياً ؟ »

— «بلى سيدي . انا أقمت هذا الشيء تابوتاً لكويكوج ، ولكنهم كلفوني الآن ان أحوله الى شيء آخر» .

١ ferrule يعني الطوق المعدني الذي صنعه لرجله العاجية .

— « اخبرني اذن ، ألسنت انت سافلاً لعيناً جشعاً متطفلاً احتكارياً ذا ميول وثلية اذ تصنع يوماً أرجلاً ، ويوماً آخر توابيت لتلحد فيها الارجل ثم تستخرج من هذه التوابيت نفسها عوامات انقاذ ؟ لا مبدأ يوجهك شأنك شأن الآلهة ، فأنت كمن يزاول حرفاً كثيرة » .

— « ولكنني لا أعني بهذا شيئاً يا سيدي . أنا أفعل حسبما يعنّ » .

— « هذا ما تفعله الآلهة ايضاً . أصخ . ألا تترنم بالغناء وانت تصنع تابوتاً ؟ يقولون ان العمالقة الطيطان كانوا يهيمون بالغناء وهم يسوون فوهات للبراكين ، وحفار القبور في « هملت » يغني والمجرفة في يده . ألم تفعل ذلك ابدأ ؟ »

— « أغني يا سيدي ؟ هل أغني ؟ آه ، ان الغناء وعدمه لديّ سيأت ، يا سيدي ، ولكن السبب الذي جعل حفار القبور يصنع موسيقى هو ان مجرفته لم يكن فيها اية موسيقى يا سيدي . اما دقماق التقدير فانه مليء بها . أصخ له » .

— « أجل وبسبب الغطاء أصبح لديك صندوق ألحان . والذي يصنع صندوق الالحان من بين الاشياء جميعاً هو انه ليس تحته الا فراغ ومع ذلك فان التابوت الذي سجي فيه جسم يرن نفس الرنين ايها النجار . هل اتفق لك ان أعنت في حمل نعش وسمعت التابوت وهو يرتطم ببوابة المقبرة عند دخولهم اليها ؟ »

— « وحق ايماني يا سيدي لقد — »

— « ايمان ؟ ما معنى هذا ؟ »

— « ايماني — يا سيدي — هذه لفظة تجري على طرف اللسان — لا اكثر يا سيدي » .

— «م . م . امض في حديثك» .

— «كنت أوشك ان اقول يا سيدي ان —» .

— «أأنت دودة قز ؟ أتغزل أكفانك من ذانك ؟ انظر الى صدرك ؟ وأزح
هذه الاحابيل عن الانظار » .

— « انه يذهب الى المؤخرة . ذلك شيء مفاجيء ، ولكن العاصف يجيء
ايضاً فجأة في العروض الاستوائية . سمعت ان خط الاستواء يشق جزيرة ألبارل
وهي احدى جزر جاليباجوس من وسطها . يبدو لي ان استواء هام يشق هذا
العجوز ايضاً في وسطه . فهو دائماً تحت خط الاستواء حار ناري ، صدقوني !
ها هو ينظر الى هذه الجهة . تعالي ايتها الدسر ، أسرعي ، ها هنا نذهب نحن .
هذا الدقماق الخشبي هو السداد وانا أستاذ في الكؤوس الموسيقية — سدّ! سدّ! »

[آخاب يناجي نفسه] :

«هذاك منظر ! هذا صوت ! نثار الخشب الاشمط يسد شجرة جوفاء .
الاعمى والاخرس موضع حسد في مثل هذا الموقف . ما أرى ! هذا الشيء
الموضوع على برميلين من براميل الحبال ، مملوءاً من حبال الجرة . ذلك المرء مهرج
ماكر شديد الحبث . رات — تات ! هكذا تدق دقائق العمر . آه لجميع المواد
كيف انها غير مادية ! اي شيء حقيقي في الكون إلا الافكار التي تعجز المتأمل !
ذلك هو رمز الموت الجاهم ، رمزه الخوف ، وقد أصبح اتفاقاً العلامة الموضحة
للعون والامل في حياة محفوفة بالخطر ، عوامة انقاذ تصنع من تابوت ! أيمن
الامعان في هذا الرمز ؟ أيكون ان التابوت بمعنى من المعاني الروحية ، بعد كل

ذلك ، ليس الا حافظة خلود ! سأفكر في هذا الامر . لكن لا . لقد أمعنت في البعد الى الجانب المظلم من الارض اي جانبها الآخر فاذا الجانب النظري المضاء يبدو لي شفقاً غير يقيني . ألسنت قلته ايها النجار من هذا الصوت اللعين ؟ انا أهبط الى قرتي فلا أريد ان ارى هذا الشيء اذا عدت . بيب سيحدثني في الامر نفسه من جديد . انني أشرب فلسفات عجيبة منك ! لا بد ان هناك قنوات مجهولة من عوالم مجهولة تفرغ تيارها فيك ! »

الباقوطة تلتقي براهيل

لاحت في اليوم التالي سفينة كبيرة اسمها «راحيل»، عامدة نحو الباقوطة وقد تجمع البحارة محتشدين عند صواريتها جميعاً . وكانت الباقوطة عندئذ قد احرزت سرعة طيبة في الماء، ولكن لما كانت السفينة الغربية المنشورة الاجنحة مع المهب تدنو منها ، هبطت الاشرعة المنتفخة جميعاً كأنها مئانات فارغة انفجرت، وهربت الحياة جميعها من الهيكل المصفوع .

تمم المعجوز ابن جزيرة مان يقول: «أخبار سيئة . انها تحمل اخباراً سيئة». وقبل ان يتمكن قبطانها، وقد وضع النفير على شفثيه، من ان يقف في قاربه، ويحيي آخاب وملء نفسه الأمل، سمع صوت آخاب ينادي :

— «أرأيتم الحوت الابيض؟»

— «أجل . أمس . هل رأيتم قارب تحويت تائماً يتقاذفه التيار؟» وخنق آخاب فرحته، وأجاب عن ذلك السؤال المفاجيء بالنفي، وكان على وشك ان يسازل الى السفينة الغربية، حين أوقف القبطان الغريب طريق مركبه وشوهد وهو ينزل من جانبه، وبعد بضعة تحذيفات صادقة اعلق خطاف قاربه الى السلاسل الرئيسية في الباقوطة وقفز فوق ظهرها . فعرف فيه آخاب على التو أحد ابناء ناتتوكت ولكن لم تجر بينهما تحية رسمية .

— «أين كان؟ — لم يقتل ! لم يقتل !» — كذلك صرخ آخاب وهو يدنو متقدماً — «كيف كان؟»

ومجمل الحكاية التي حكاها القبطان الغريب ان ثلاثة قوارب انهمكت، في وقت متأخر بعض الشيء من بعد ظهر اليوم السابق، في مطاردة سرب من الحيتان قادها على بعد اربعة اميال او خمسة من السفينة، وبينما كانت في مطاردة سريعة مع المهبّ برزت فجأة حردبة مويي ديك البيضاء ورأسه من الماء الازرق، غير بعيد في اتجاه الهبوب؛ وعلى اثر ذلك أنزل القارب الرابع المعدّ - وهو قارب احتياطي - للمطاردة توأ، وبعد انبحار مغدّ امام الريح، بدا وكأنّ هذا القارب الرابع - وهو اسرعها قاعدة - قد نجح في ان يشكّ الحوت ويُعلقه بالحبل على الاقل، حسب استطاع نظر الرجل الواقف في رأس الصاري ان يستبين من الامر، فقد رأى القارب المتضائل المنقط على البعد، ثم ابصر دفقة عاجلة من الماء الابيض يعلوها الحبب، ثم لم ير شيئاً آخر، ولذا قدّر البحارة ان الحوت المطعون قد جرى هارباً بمطارديه الى غير وجهة، حسبما يحدث في اغلب الاحيان. كان هناك تخوف ولكن الفزع الايجابي لم يتمكن في النفوس، ثم وضعت شارات الاستعادة في مكان عالٍ، غير ان الظلام حلّ واضطرت السفينة ان تلتقط القوارب الثلاثة التي توغلت في الابعاد مع المهبّ قبل ان تذهب في البحث عن الرابع الذي مضى في اتجاه مضاد تماماً، ولذا فانها لم تجد لزاماً عليها فحسب ان تترك هذا القارب يلاقي مصيره حتى قريب من منتصف الليل وانما اضطرت لتزيد بعدها عنه في الوقت نفسه. ولما وجدت ان سائر البحارة اصبحوا على ظهورها في امان حشدت اشعتها جميعاً - الاشرعة الجانبية الخفيفة على نظائرها - وأزمنت خلف القارب المفقود، مشعلة في مراجل التصفية ناراً جعلتها فناراً، ووضعت كل امرئ في الاعالي - بالتناوب - رقيباً. ولما ان قطعت مسافة غير قليلة لتدرك المكان المفترض للبحارة المفقودين، حيث لاحوا آخر مرة، ولما ان توقفت لتنزل القوارب الاحتياطية كي تجذّف جميعاً من حولها ولم تجد شيئاً اندفعت ثانية في إبحارها، ثم توقفت، ثم أنزلت قواربها، واستمر مريرها على ذلك حتى تبلج ضوء النهار، ولكن لم يلح من القارب المفقود ادنى لائحة.

ولما ان انتهى القبطان الغريب من سرد قصته، مضى على التو يكشف عن غايته في النزول الى ظهر الباقوطة، فقال انه يرغب ان تشترك هذه السفينة مع سفينته في البحث، وذلك بأن تسير السفينتان في البحر اربعة اميال او خمسة منفصلتين على خطين متوازيين، وبهذا ترودان أفقين بدلاً من أفق واحد.

فهمس اسطب في أذن فلاسك يقول : «أراهن على شيء . أراهن ان احد الذين في القارب المفقود قد لبس خير معطف عند هذا القبطان او لعله اخذ ساعته، فهو قلق يريد ان يسترجعه او يسترجعها . من سمع ابداً بسفينتي حوالة ورعتين تجوبان البحر بحثاً عن قارب تحويت في ذروة موسم التحويت ؟ ما رأيك يا فلاسك ؟ انظر ما أشد شحوبه، شحوب حتى في بؤبؤي مقلتيه - تأمل - لعله ليس المعطف - لا بد انه -» .

- « ابني، ابني نفسه بين المفقودين، بحق الاله ارجوك، استخلفك -» هنا هتف القبطان الغريب قائلاً لآخاب : «دعني استأجر سفينتك مدة ثمانى واربعين ساعة - سأدفع الأجر راضياً ، وادفع على آخر قرش - ان لم يكن هناك طريقة اخرى - لثمانى واربعين ساعة فقط - لا غير - لا بد لك، آه، لا بد لك، ولسوف تؤدي لي هذا الصنيع » .

فصاح اسطب : « ابنه ! آه ان المفقود هو ابنه ! انا اسحب ما قلته عن المعطف والساعة . ماذا يقول آخاب ؟ علينا ان ننجي ذلك الولد » .

فقال ابن جزيرة مان وكان يقف خلفهم : « لقد غرق مع البقية ليلة أمس لقد سمعت ؛ انتم جميعاً سمعتم صراخ ارواحهم » .

وتبين لنا بعد قليل ما جعل حادثة راحيل أشجى وعلق بالأسى، ذلك ان القبطان لم يكن له وحسب ابن في عداد بحارة القارب المفقودين وانما كان له في

الوقت نفسه ابن آخر بين بحارة القوارب الاخرى، وقد انفصل ايضاً عن السفينة خلال الاحداث السود ، احداث المطاردة ، حتى ان الولد التمس ، ظلّ لذلك أمداً ، وهو غارق في قرارة اشد حيرة شدة وظلماً ، ولم ينقذه من حيرته تلك إلا رئيس ضباطه ، حين هدته الغريزة الى ما عمله سفينة التحويت ١٠٨ في مثل هذه اللزبات الملحة ، اعني انها اذا وقعت بين قوارب متباعدة معرضة للتهلكة فانها دائماً تتجه نحو انقاذ الاغلبية . ولكن القبطان لسبب مزاجي مجهول تحاشى ذكر هذا كله ، فلم يلمح الى ابنه الآخر المفقود الا حين اضطرتة الى ذلك برودة آخاب ؛ كان ذلك الابن يافعاً في الثانية عشرة من عمره اراد والده له بكل ما في النانتوكتي من حمية الحب الابوي المؤيد ببسالة لا يدركها ريب ، ان يتمرس باخطار المهنة وعجائبها ، فهي منذ القدم تمثل القسمة التي قسمت لبني قومهم ، النانتوكتيين . وكثيراً ما يحدث ان يرسل قبطان نانتوكتي ابناً ، وهو في هذه السنّ الناعمة ، بعيداً عنه في رحلة طويلة تمتد ثلاث سنين او اربعاً على سفينة غير سفيته ، حتى لا تضعض معرفته الأولى لحرفة التحويت بهوى عارض او توجس نابٍ او فضل اهتمام يبيديه نحوه أبوه ، ومثل هذا أمر يُعدّ طبيعياً في الآباء .

وكان القبطان الغريب في الوقت نفسه ما يزال يتوسل ان يمنحه آخاب ما سأل ، بينا ظلّ آخاب واقفاً كالسندان يتلقى كل ضربة دون ان يقابلها بأدنى هزة .

قال القبطان الغريب : « لن أترجح حتى تقول لي : أجل ؛ اصنع من أجلي ما تريدني ان اصنعه من اجلك في مثل هذا الموقف ، فان لك انت ايضاً ابناً يا آخاب — هو طفل يترعرع بأمان في بيته — هو ابنك في شيخوختك ايضاً — نعم ، نعم ، أراك تلين ؛ أرى ذلك منك ، جرياً ، عدواً ، يارجال وقفوا على أهبة كي تديروا الباحات ... » .

وصاح آخاب : « حسبك ! لا تمسّ لفافة حبل » ، ثم أكمل في صوت نهر

فيه كل لفظة في تودة وأناة : « قبطان جاردنر . لن افعل ذلك . بل ان الوقت بهذا يضيع من يدي . وداعاً ، وداعاً . لتنزل عليك بركات الله ايها الرجل ، وأرجوان اغفر لنفسى ، غير انه لا بد لي من الذهاب . يا سيد استاربك ، انظر ساعة البوصلة وأنذر جميع الغرباء بالرحيل بعد ثلاث دقائق من هذه اللحظة : ثم شدوا الحبال والقلوع كي تبجر السفينة مثلما كانت قبلاً » .

واستدار مسرعاً مشيحاً بوجهه ، ونزل الى قمرة ، مخلفاً القبطان الغريب متصلياً مندهشاً لهذا الرفض البات المطلق الذي واجه به رجاءه الملح . ولكن جاردنر صبحا من ذهوله وأسرع في صمت الى جانب السفينة ، وقد تقول انه ارتقى ساقطاً في قاربه ولم يهبط هبوطاً ، وعاد الى سفينته .

وسرعان ما تباعدت السفينتان في مخرهما ، وحين كانت السفينة ما تزال برأى منّا ، كانت تتلدد هنا وهناك خارجة عن مجراها عند كل بقعة سوداء في الماء مها تكن صغيرة ؛ وفي تلدها تدار باحاتها في هذه الوجهة وفي تلك ، وبقيت تجري شمالاً ويمينا ، احياناً تواجه موجاً من امامها وأحياناً تنساق امام الموج ، بينا صواريتها وباحاتها طوال ذلك قد احتشدت بالرجال كأنها ثلاث شجرات سامقة من الكرز والاطفال معلقون لقطفه بين فروعها .

وكنت ترى بوضوح ان هذه السفينة ، وهي تتوقف وتتعرج بها طريقها التاعسة ، ما تزال مجهدة تبكي ، ودمعها رشاش الماء ؛ كانت هي راحيل تبكي اولادها ، لانهم لم يبقوا لها ^١ .

١ ارميا ٣١ : ١٥ « هكذا قال الرب : صوت سمع في الرامة ، نوح بكاء مر » ، راحيل تبكي اولادها ، وتأسى ان تتعزى عن اولادها لانهم ليسوا بموجودين » .

القمرية

« يتحرك آخاب ذاهباً الى ظهر السفينة ؛
يمسك بيب بيده ليصطحبه » .

— « يا فتى ، يا فتى ، أقول لك ، عليك ان لا تتبع آخاب الآن . انت
الساعة لآتية تلك التي لن يدعك آخاب فيها تفزع منه ، الا انه لا يريد لك ان
تكون معه . فيك ايها الفتى المسكين ما أحسن انه شفاء لدائي . هو كالدواء ؛
إلا ان دائي من اجل هذه الرحلة خير صحة أرجوها . قرّ إذن في القمرية حيث
يخدمونك كأنك القبطان نفسه . أجلس يا فتى ، ستجلس هنا فوق كرسي
المثبت بالقلاووظ ، وأنت ستكون فيه قلاووظاً ثانياً » .

— « لا . لا . لا ! ليس لك جسم كامل يا سيدي . استعمل جسم
بدل رجلك المفقودة ، حسبي ان تدوس عليّ يا سيدي . ما أريد مزيداً
أظّل جزءاً منك » .

— « آه ! على رغم ملايين الاخستاء ، يجعلني هذا متطرف الايمان في وفاء
بني الانسان ، الذي لا يزول ولا يحول ! — وهو اسود ! وهو مجنون ! ولكن
يخيل اليّ انه يعتريه الشفاء ؛ فيها هو يعود عاقلاً » .

— « يقولون لي يا سيدي ان اسطب تحلى مرة عن بيب الصغير المسكين ،
الذي تلتهم عظامه الفارقة بياضاً رغم سواد بشرته ، ولكنني لن أتخلى عنك
يا سيدي كما فعل اسطب لبيب . سيدي لا بد ان اذهب معك » .

— «إذا أطنبت في الحديث معي على هذا النحو فإن هدف آخاب ينقلب رأساً على عقب . أقول لك لا ، ذلك لن يكون .»

— «آه يا سيدي الطيب ، سيدي ، سيدي !»

— «لئن انتحبت كما تفعل فاني قاتلك ! حذار ، فان آخاب ايضاً مجنون . أصغر وسوف تسمع قدمي العاجية كثيراً على ظهر السفينة وتعلم اني ما أزال هنا . ها انا أغادرك . يدك تتصافح ! تلاقنا ! انت صادق يا فتى صدق المحيط حول المركز ؛ هكذا : حصلت عليك بركة الله ابدأ ، واذا بلغت الامور هذا الحد — نجّاك الله ابدأ وليكن ما يكون .»

[يمضي آخاب ويتقدم بيّب خطوة الى الامام]

— «هنا وقف في هذه اللحظة . انا اتخذ مثل هيئته — غير اني وحدي ، لو كان بيّب المسكين هنا لتحملت ذلك ولكنه فقد . بيّب ! بيّب ! دن ! دن ! من رأى بيّب ؟ أظنه في الاعلى ، لأجرب الباب . ماذا ؟ لا قفل ، لا مزلاج ، لا عارضة ، ثم لا يفتح . لا بد انه الحلقة السحرية . أمرني ان أمكث هنا ، أجل وقال ان هذا الكرسي المثبت بالقلاووظ لي . ها هنا ، أجلس إذن قبالة الطرنسوم في منتصف السفينة عينه وأمامي كل أريقتها وصواربها الثلاثة . ها هنا فيما يحدثنا ملاحونا الشيوخ يجلس امراء البحر العظام احياناً الى المائدة في مراكبهم السود المزودة بـ ٧٤ مدفعاً ويتزعمون على المائدة ومن دونهم صفوف من القباطنة والنواب . ها ! ما هذه اسبليطات ؟ اسبليطات ؟ انها تجيء محتشدة ! أديروا القناني ، يسر لي ان أراك ، املاؤا الكؤوس يا سادة ! اي شعور غريب يقتابني حين يكون غلام اسود مضيئاً لرجال بيض يلبسون الاشرطة الذهبية فوق معاطفهم !

١ الاسبليطة : رمانة مقصبة فوق كتف السترة العسكرية .

سادتي هل رأيت فتى يدعى بيب ؟ فتى زلجي قمىء طوله خمسة اقدام ، ملاحه
كلامح الكلب التبيع الذليل ، تنضح جبناً . قفز مرة من قارب تحويت . هل
رأيتموه ؟ لا ! لا بأس إذن ، املاوا كؤوسكم مرة أخرى ايها القباطنة ولتشرب
نخب عار الجبناء جميعاً ! لا أسمى احداً ، العار والشنار لهم ! ضعوا قدماً على
الطاولة . العار والشنار للجبناء جميعاً ، صه ! في أعلى اسمع صوت عاج — آه
سيدي ! سيدي ! يهبط قلبي حقاً حين تمشي فوقى ، ولكنى سأبقى هنا وان
كانت هذه المؤخرة ترتطم بالصخور ، فتنبعج ، ويحيى المحار ليرافقنى .

البقرة

بعد هذا التجوال الاولى المديد بدا وكأن آخاب، في الزمان والمكان الملائمين، قد أُلجأ عدوه بعد ان جاب مياه التحويت الاخرى الى حظيرة بحرية كي يتسنى له ذبحه دون ان يفلت من يده . لقد وجد نفسه في نفس البقرة التي أصيب فيها بجرحه الاليم ؛ لقد قابل سفينة وتحذث الى قبطانها وعرف انها أمس في الواقع التقت بمويي ديك . لقد كانت لقاءاته التالية لمختلف السفن كلها متضافرة تدل عن طريق المفارقة على عدم المبالاة الشيطانية التي مزق بها مويي ديك صياديه، سواء أثنوا في حقه او لم يأنموا ؛ لقد اخذت عينا الرجل الشيخ تومضان بشيء تكاد النفوس الضعيفة لا تطيق رؤيته . كانت غاية آخاب ثابتة تلتصع من عل على جهامة البحارة الجاهمين وليل كأبتهم الذي لا يريم، كأنه النجم القطبي الذي لا يغور وانما يظل يرسل خلال ليالي الاشهر الستة الطوال في المنطقة المتجمدة نظرته النفاذة المركزة المسددة . كانت غايته تهيمن عليهم حتى ان توجساتهم وشكوكهم ورييبهم وخاوفهم كانت تؤثر ان تختفي تحت ارواحهم فلا تنطلق منها سنبلة او ورقة .

وفي هذه الفترة المرتقبة تلاشى كل ميل الى الفكاهة، طبيعية كانت او مصطنعة، فلم يعد اسطب يحاول ان يثير الابتسام ، ولم يعد استاربك يحاول ان يخفت ابتسامه . كلا النقيضين من سرور وحزن، من رجاء وخوف، كأنما سحقا فأصبحا غباراً دقيقاً وصبا في الملاط المجهول، حينئذ، حول روح آخاب

الحديدية ؛ كانوا كالآلات يتحركون صامتين فوق ظهر السفينة وهم على رقبة من ان عين الشيخ المستبدة مسلطة عليهم .

ولكنك لو تأملت في عمق، وهو في احدى ساعاته الأمانة الواثقة، حين كان يظن ان لا عين تراه الا عين واحدة، لرأيت انه بينا كانت عينا آخاب ترهبان عيون البحارة فان نظرة البارسي المبهمة كانت تُرهب نظرة آخاب او على الاقل تؤثر فيها احياناً على نحو غريب . ومثل هذا المزيد من الغرابة الساربة اخذ يكتنف فيض الله النحيل، مثل هذه الارتعاشات المسترسلة اخذ يهزه حتى اخذ الرجال يتطلعون اليه في ارتباب، غير مستيقنين اليقين . كله انه حقاً مصنوع من مادة الآدميين او انه خيال مرعب ألقاه على ظهر السفينة جسم كائن خفي، وان ذلك الخيال كان ما يزال يحوم دائماً هنالك اذ لم يعرف عن فيض الله انه ينام او ينزل الى الطابق السفلي حتى في الليل؛ انما هو يقف دون حراك ساعات وساعات، لا يجلس ولا يستند، وعيناه الكثيبتان العجيبتان تقولان دون ايهام : « نحن الرقيبين لا نرتاح ابداً » .

ثم ان البحارة لم يعودوا يستطيعون ان يمشوا في اي وقت ليلاً كان او نهاراً على ظهر السفينة الا اذا كان آخاب امامهم، إما واقفاً في الثقب المحوري وإما ذارعاً الألواح بين طرفين لا يتجاوزهما، وهما الصاري الرئيس والمظن، فان لم يكن هذا او ذاك رأوه واقفاً في ناروزة القمر، وقد مدَّ رجله الحية فوق ظهر السفينة كأنه يريد ان يخطو وانكفأت قبعته على عينيه بقوة، حتى انه مهما يكن ثابتاً دون حراك، ومهما تمرّ الليالي والايام عليه وهو لم يضطجع في ارجوحته، فان البحارة لا يستطيعون ان يعلموا يقيناً لا يعتوره خطأ ان كان هو حقاً يغمض عينيه احياناً لانها تختفيتان تحت تلك القبعة المنكفئة او ان كان ما يزال منعماً النظر اليهم ؛ ثم لا يمه بعد ان يقف هذه الوقفة في الناروزة ساعة كاملة على امتدادها، غير عابىء ان تتجمع رطوبة الليل حبات من ندى

على ذلك المعطف وتلك القبعة اللذين يتلبسان صخرأ منحوتأ، فان الثياب التي يندبها الليل تجففها شمس اليوم التالي دون ان يخلعها ؛ ويوماً اثر يوم وليلة بعد ليلة لم يعد يلم بالطاقب السفلي، وانما كان يرسل في طلب اي شيء يحتاج اليه من القمره .

كان يتناول الطعام في ذلك الهواء الطلق، اعني الوجبتين الوحيدتين: الفطور والغداء، اما العشاء فلم يكن يمسه، ولم يكن يشذب لحيته وانما تمت معشكلة متلبدة كأنها جذور اشجار مقلوبة اقتلمت من الارض، ولا تزال تنمو في استرخاء فوق قاعدة عارية وقد جفت خضرتها في الاعالي. ومع ان حياة آخاب كلها اصبحت رقبه واحدة متصلة على ظهر السفينة، ومع ان رقابة البارسي الغامضة كانت ايضاً كرقابة آخاب دون انقطاع، فان هذين الاثنين لم يكونا يتحدثان احدهما للآخر الا أن تعرض مسألة عابرة غير ذات شأن، في فترات طويلة، تجعل التحادث بينهما ضرورياً. كانت حلقة سحرية قوية كأنما تربط سرأ بين الاثنين ومع ذلك فانها كانا علناً في نظر البحارة المملوءين رهباً يبدوان متباعدين كأنها قطبان، فاذا اتفق ان تبادلا كلمتين نهاراً، ظلأ كلامهما في الليل أخرسين حتى فيما يتصل بأوهى تتممة شفوية. واحياناً كانا يقفان اطول الساعات دون ادنى هتفة، متباعدين تحت ضوء النجوم. اما آخاب فهو في ناروزته واما البارسي فيقف عند الصاري الرئيس، غير انها يتحدثان احدهما في الآخر بعيون نافذة؛ كأن آخاب يرى في البارسي خياله ملقى امامه، وكأن البارسي يرى في آخاب كيانه الجسدي الذي بارحه .

غير ان آخاب، فيما كان يفصح به عن ذاته الحق يومياً وكل ساعة وفي كل لحظة بأوامر يلقيها الى مرءوسيه، آخاب بذلك كان يبدو السيد المستقل، بينما البارسي عبد له. ومع ذلك ظل الاثنين وكأنها مدبجان في قسرن، يسوقها طاغية خفي، ويمشي الخيال النحيل منها الى جنب الدعامة الصلبة، اذ مهما يكن البارسي فان آخاب الصلب كان كله دعامة وأرينة .

وعندما بزغ اول خيط من خيوط الفجر متلألئاً سمع صوته الجمهوري آتياً من المؤخرة : « زودوا رموس الصواري بالرجال ! » وطوال اليوم كله حتى بعد المغيب وبعد الشفق يظل يسمع ذلك الصوت نفسه - كل ساعة عندما يصدق جرس قيم الدفة - صارخاً : « ماذا ترون ؟ حددوا انظاركم ! حددوا ! »

ومضت ثلاثة ايام او أربعة على لقاء راحيل التي كانت تنشد ولديها دون ان تظهر نفاثة واحدة ؛ وعندئذ بدا وكأن الشيخ الممرور يرتاب في امانة ملاحيه ، او على الاقل يرتاب فيهم ما عدا الزرايين الوثنيين ، بل اخذ يشك في اسطب وفلاسك وانها قد يغفلان عامدين المنظر الذي يسعى اليه . ولكن ان كانت هذه الريب فيه فانه تحاشى التعبير عنها بكلمات ، وكان ذلك من حكمته ، مهما تكن اعماله موحية بها .

فقال لنفسه : « سأكون انا اول من يرى الحوت » اجل ان آخاب سينال القطعة الذهبية ! » ونسج بيديه عشا من حبال الاشرعة على هيئة زنبيل وارسل يداً الى اعلى ببكرة ذات دولاب واحد ليربطها الى رأس الصاري الرئيس فتلقى طرفي الحبل المشدود الى اسفل ، وعقد احد طرفيه بالزنبيل ، وأعدّ وتداً للطرف الآخر كي يوثقه الى اللوحة في حافة السفينة ، وما ان فعل ذلك ، والطرف الثاني ما يزال في يده وهو واقف الى جانب الود ، حتى نظر الى ملاحيه نظرة انتقلت من واحد الى آخر ، متوقفة طويلاً عند دغة وكويكوج وطاشطيقو متحاشية فيض الله ، ثم ركز بصره الثابت الواثق على رأس الضباط وقال : « امسك الحبل يا سيدي - انا اضعه في عهدتك يا استاربك » . وبعد ان اتخذ جلسته في الزنبيل أمر بان يرفعوه الى مجثمه ، وكان استاربك هو الذي امسك الحبل آخرأ وبعدئذ وقف قريباً منه ، وكانت احدى يدي آخاب تقبض على الصاري الملوكي بينما نظراته مرسلت عبر السفينة الى مدى اميال واميال في البحر ، أماماً وخلفاً وإلى هذا الجانب وإلى ذاك - ضمن الدائرة الواسعة المديدة التي يمكن ان يمتد إليها البصر من ذلك العلو الشاهق .

يرفع البحار الى ذلك الموضع حين يعمل بيديه في مكان عالٍ يكاد يكون منعزلاً بين الجبال والاشرعة ، وربما لم يكن لديه موطئ قدم فيه ، وانما يبقى معلقاً بالحبل . وفي مثل هذه الظروف يعهد دائماً بطرف الحبل المربوط عند ظهر السفينة الى شخص يكون دقيق المسؤولية في النظر والحراسة . ذلك ان الجبال المسترسلة تشبه تيهاً ، ولا يستطيع المراقب الذي يرى القسم المنظور منها عند ظهر السفينة ان يستبين دائماً ودون خطأ علاقاتها وتشابكاتها المختلفة في الاعالي . واذا كانت اطراف هذه الجبال عند ظهر السفينة تنحلّ كل دقيقة من علائقها ، فان من الخطر البالغ على البحار المرفوع — بطبيعة الحال — ان لا تزود الجبال بمحارس دائم اليقظة ، اذ ان اهمال البحارة قد يجعله يهوي وينقض في الماء . لذا فان ما صنعه آخاب في هذا الصدد لم يكن امراً شاذاً ؛ انما الشيء الغريب في الامر هو انه عهد بالحراسة الى استاربك ، ويكاد استاربك ان يكون الرجل الوحيد الذي تجرأ ابدأ على مخالفته في أي شيء على نحو لا يقلّ عن الجزم البات إلا هنة يسيرة ، وهو احد الذين كان يبدو على آخاب انه يشك في امانتهم في الحراسة ، لذا كان من المستغرب ان يقع اختياره على هذا الرجل نفسه ليقوم بحراسة الجبال ، اذ معنى ذلك انه وضع حياته كلها مختاراً في يدي انسان غير موثوق فيه .

وما ان جثم آخاب في الاعالي ، وقبل ان يمضي عليه عشر دقائق ، حتى اقترب منه صقرٌ من تلك الصقور البحرية الكاسرة ذوات المناقير الحمر التي كثيراً ما تطير على نحو مزعج حول رءوس صواري الحوئات المزودة بالرجال ، في تلك النواحي ، صقر من تلك الطيور جاء يدوّم ويصرخ حول رأس آخاب في تيه من الدورات السريعة التي لا يستطيع النظر ان يحقها ، ثم انطلق على مدى ألف قدم مستقيماً في الفضاء ثم خات متولباً وذهب يدوّم حول رأسه مرة اخرى .

وبدا كأن آخاب وهو معلق النظرة في الافق النائي المبهم لم يلمح هذا الطائر البري ولا كان لأي واحد آخر ان يعيره اهتماماً ، لانه مظهر مألوف لديهم ، لولا ان أقلّ الناس يقظة عندئذ بدا وكأنما يرى في كل منظر معنى خبيئاً .

وفجأة صاح البحار الصقلي الذي كان جائئاً عند قبة المظيين: «قبعتك ! قبعتك يا سيدي !» وكان يقف خلف آخاب وان كان على صعيد أدنى ويفصل بينهما خليج عميق من فضاء .

ولكن الجناح الاسود كان قد اصبح امام عيني الرجل الشيخ، واصبح المدرس الاعقف الطويل عند رأسه : وانطلق الصقر الاسود صارخاً وقد فاز بغنيمة .

حول رأس تاركوين^١ طار صقر ثلاثاً، نازعاً قبعته ليعيدها الى مكانها، ومن ثم اعلنت تناقيل زوجته ان تاركوين ربما أصبح ملكاً على روما، ولكن الحادث عدّ فالاً حسناً لان القبعة اعيدت الى مكانها، اما قبعة آخاب فلم تعد ابداً ونأى بها الصقر طائراً، ومضى بعيداً عن مقدم السفينة، واختفى في النهاية، وعند لحظة اختفائه رؤيت - في انبهام - هنة صغيرة سوداء، تسقط من ذلك العلو الشاهق الى البحر .

١ هو لقومو تاركوينوس، اصله من كورنث، غادر موطنه الاترسكي بحثاً عن ما يأتيه به الحظ في روما .

لقاء بين الباقوطة والمسرة

مضت الباقوطة ذات المرة الشزر في إبحارها ؛ وتوالى كرتّ الامواج والايام ،
والتابوت الذي جعل عوامة انقاذ ما زال يتأرجح بخفة ، وشوهدت سفينة
أخرى أساء أصحابها اختيار الاسم حين دعوها : « المسرة » . وحين اقتربت
تعلقت الانظار جميعاً بعوارضها العريضة ويسمونها « المقص » ، فهي تعارض في
بعض سفن التحويت الربعة الواقعة خلف الدقل الاعظم على ارتفاع يبلغ ثمانية
اقدام او تسعة ، وتستعمل لحمل القوارب الاحتياطية او غير المعدة او التي لم
تعد صالحة .

وعلى مقص السفينة الغربية شوهدت دعائم بيضاء محطمة وبضعة ألواح
متفلقة كانت من قبل تسمى قارب تحويت ، ولكن البصر كان ينفذ من خلال
ذلك الحطام فيرى ما وراءه بوضوح ، مثلاً ينفذ من خلال هيكل حصان مسلوخ
ناصع البياض يهتز بعض اهتزاز .

— « هل رأيتم الحوت الابيض ؟ »

فأجاب القبطان الغائر الوجنتين من أعلى الكوئلة : « تأمل ا » وأشار بالنفير
الى الحطام .

— « هل قتلتموه ؟ »

— « ان الرمح الذي قد يحقق ذلك لم يصنع بعد » -- كذلك أجاب القبطان

الآخر وهو يرمق في أسف أرجوحة مدوّرة على ظهر السفينة ، كان بعض البحارة منهمكين - في صمت - يخيطنون أطرافها المجموعة .

فاختطف آخاب الحديدية التي سوّاها بيرث من محجّأها ، وامسك بها وهتف : « لم يصنع بعد ، انظر ايها النافثوكتي ، في هذه اليد يقبّع موته ! سقيتها دماً هذه الكلابات وروّيتها بالبرق وانا أحلف اني سأثقفها ثالثة بغمسها في الموضع الحار خلف الزعنفه حيث يكون الحوت الابيض أشد شيء احساساً بحياته اللعينة ! »

- « اذن حماك الله أيها الشيخ » - وأضاف مشيراً الى الأرجوحة - « هل ترى هذه . فيها أدفن واحداً من خمسة رجال اشداء كانوا احياء امس ، لكنهم ماتوا قبل حلول الليل . هذا الوحيد هو الذي أدفنه اما البقية فدفنوا قبل ان يموتوا وأنت تبجر فوق قبرهم » ثم التفت الى بحارته وقال : « أنتم مستعدون هنالك ؟ ضعوا اللوح على الحافة العليا وارفعوا الجثة . كذا . آه » - وتقدم نحو الأرجوحة بيدين مرفوعتين وهو يقول : « يا رب اجعل البعث والحياة -- » .

فصاح آخاب في رجاله كأنه البرق : « شدوا الحلقات ! ارفعوا الدفة ! »

ولكن الباقوطة التي أجفلت فجأة لم تكن سرعتها كافية لتتحاشى الرشاش الذي أحدثته الجثة حين ارتطمت في الماء . لم تكن سرعتها كافية حقاً غير ان بعض الفقاعات المتطايرة بللت هيكلها بمعموديتها الروحية .

ولما انسابت السفينة بأخاب نائية عن « المسرة » الخائرة لاحت عوامـة الانقاذ الغريبة معلقة في مؤخرة الباقوطة ، واضحة بارزة .

فانبعث صوت في مخرها محمل بالنذر : « ها . هناك ! انظروا هناك يا رجال ! عبثاً ايها الغرباء تفرون من جنازتنا الحزينة لانكم انما تديرون لنا كوثة سفيلتكم كي ترونا تابوتكم ! »

السيفونية

كان يوماً صافياً كأنه الفولاذ زرقه ، وكاد الجلسدان الأزرقان : الفضاء والبحر لا ينفصلان في تلك اللازوردية الشاملة ؛ ولكنها يتباينان : فأما الهواء الساكن فإنه كان واضحاً شفافاً ناعماً له وجه امرأة ، وأما البحر الصليب فإنه مسترجل تعلو فيه موجاته الطويلة القوية المتأنية كأنه صدر شمشون وهو نائم .

وهنا وهناك في الاعالي كانت تنساب اجنحة ناصعة ، أجنحة طيور صغيرة بيضاء لا شية فيها ، وتلك هي الافكار الرقيقة التي يتمخض عنها الهواء الموث اما في الاعماق ، في دركات الازرق الذي لا قرار له ، فكانت الحيتان وأسماك السيف واسماك القرش تتدافع - جيئة وذهوباً - ، وتلك هي الافكار القوية المضطربة القتالة التي يتمخض عنها البحر المسترجل .

ومع ان هذه المفارقة كانت قائمة بينهما اذا اعتبرتهما من داخل ، فان هذه المفارقة بينهما انما كانت في الظلال والاخيلة اذا اعتبرتهما من خارج ، فكلا الاثنين كانا شيئاً واحداً ، ولا فرق بينهما إلا فرق ما بين التذكير والتأنيث .

وفي الاعالي كانت الشمس ، كأنما هي قيصر او ملك فخيم ، تزف الهواء الرقيق للبحر الجسور المتضرب كما تزف العروس الى زوجها . وعند طوق الافق تنبأ حركة ناعمة مرتجفة - اكثر ما ترى هنا عند خط الاستواء - تدل على

الثقة المدلّهة النابضة ، والخاوف الحبيبة التي تفتح العروس الحفيرة بها صدرها لتتلقى حبيبها .

ووقف آخاب الصامد في وضوح الصباح وقد رفع حاجباً يشبه الخوذة المشطّاة نحو جبهة السماء التي تشبه جبهة فتاة شقراء ، وهو مقيد مبروم ، ملوّى معقد بالتجاعيد والغضون ، ثابت لا يلين على شحوبه ، وعيناه تتوهجان كأنهما جمرتان ما تزالان تبصّان تحت رماد الدمار .

آه ايتها الطفولة الخالدة ، يا براة الكون اللازوردي ؟ ايتها المخلوقات الخفية المهنّجة التي تمرّج من حولنا ، ايتها الطفولة العذبة التي يثلها الفضاء والسماء ! ما كان أشد غفلتك عن الويل المعشش في نفس آخاب الشيخ ! غير أنني رأيت مريم ومرتا ، حوريتان تضحك عيونهما ، تلعبان دون اكتراث حول راعيها الشيخ ، وتعبشان بدائرة الخصلات المشعّوطة التي نبتت على حافة عربة دماغه الملتهبة .

عبر آخاب ظهر السفينة من الناروزة في بطء واستند على حافتها وراقب كيف يفرق خياله في الماء ويظنّ يفرق تحت بصره ، كلما ازداد سعيّاً ليخترق الأعماق ؛ ولكن يبدو ان الاريج اللطيف في ذلك الهواء المسحور استطاع في النهاية ان يبدد - لمدى لحظة - ذلك الشيء السرطاني في روحه . لقد استطاع ذلك الهواء المرح السعيد وتلك السماء الطروب ان يربّتا عليه وان يلاطفاه بالمداعبة . والدنيا أمّ دفر التي طالما كانت قاسية القلب ، أخفتت قسوتها وألقت من حول عنقه الصليب ذراعيها الحاديين ، وأخذت في سرور تنهّد فوقه كأنما تفعل ذلك فوق رأس امرئ تستطيع ان تجد له في قلبها عطفاً يقيه العثرات ويكفل له البركات ، مهما يكن فيه من عناد وأخطاء . وانحدرت من تحت قبعة آخاب المنكفئة دمعة نزلت في البحر ، ولم يكن المحيط الهادي كله يحتوي ثراء كتلك الدمعة الصغيرة .

ورأى استاربك الرجل الشيخ ، رآه وهو يلقي ثقله مستنداً على الحافة ويبدو انه سمع في قلبه الصادق ذلك التنهد المديد الذي انسل من وسط السكون المحيط . وظلَّ استاربك حريصاً على ألا يمس آخاب وان لا يلفت انتباهه ، ومع ذلك فانه اقترب ووقف هنالك .

التفت آخاب .

— « استاربك ! »

— « سيدي » .

— « آه يا استاربك هذه ريح عليلة عليلة ، وهذه السماء لطيفة ودبعة . في مثل هذا اليوم — في عذوبة كهذه تماماً — طعنت اول حوت — كنت حواتاً صغيراً في الثامنة عشرة ! اربعون — اربعون — اربعون سنة مضت ! — مضت ! اربعون سنة من التحويث المستمر الدائب ! اربعون سنة من الحرمان والاضطار ومواسم العواصف ! اربعون سنة على البحر القاسي الذي لا يرحم . أربعين سنة هجر آخاب البر الآمن المطمئن ، أربعين سنة ليسن الحرب على ويلات الماء ، أجل ونعم يا استاربك ، من هذه الأربعين لم أقض على الشاطئ ثلاثاً كاملات . حين أفكر في الحياة التي عشتها — وكيف كانت وحشة الوحدة ، كانت عزلة قبطان مشيدة مسورة ، لا تسمح لأية عاطفة من الارض الخضراء ان تتسرب اليها الا من خلال نافذة صغيرة — آه ، فيها الملل والسأم ، عبودية القيادة المتوحدة ! حين أفكر في كل هذا ، ولم أكن أعرفه من قبل بهذا الوضوح وانما كنت أخمن ما هنالك بعض تخمين ، عندما أفكر كيف اني طوال أربعين عاماً عشت على طعام مملوح جاف — خير رمز للتغذية اليابسة التي عاشت عليها روحي — وعندما يكون في متناول أفقر رجل من أبناء البر فاكهة طازجة يومياً ، وهو يكسر أنضر الرغفان في الكون بينا أتناول انا البقسماط

اليابس ، بعيداً ايّتها المحيطات على سمعتها ، بعيداً من تلك الزوجة الفتاة التي تزوجتها بعد ان تجاوزت الخمسين وسافرت في اليوم التالي الى رأس هورن ، تاركاً على مخدة الزوجية أذحية واحدة لا غير ، زوجة ؟ أقول زوجة ؟ بل الأخرى أرملة وزوجها حيّ ! اجل ، لقد أرملت تلك الفتاة المسكينة حين تزوجتها يا استاربك . ثم الجنون والجنس والفورة في الدم والحاجب الملعقود بالدخان تلك الامور التي كانت عدة آخاب آلاف المرات لدى انزال القوارب ، بها يطارد في هياج مزبد فريسته ، اقرب الى الشيطان في حاله من الانسان ، اجل ، اجل ! ما كان احمق آخاب على مدى اربعين عاماً - احمق - احمق معرقاً في الحمق كان آخاب المسنّ ! لم هذا الجهد في الصيد ؟ لم تضنى اليد حتى تكاد تكون مشلولة على المخذاف والمزراق والحربة ؟ هل أصبح آخاب اليوم اغنى وافضل مما كان ؟ تأمل واحكم . آه يا استاربك ! أليس من القسوة - وانا احمل هذا العبء المظني - ان تختطف مني رجل كنت بها أقوم ؟ أزح هذا الشعر الاشيب ناحية فانه يعشيني حتى أبعدو وكأنني ابكي . مثل هذه الخصلات التي اشتعلت شيباً لم تخرج الا من رماد ! ولكن أتراني ابعدو هراً ، هراً جداً يا ستاربك ؟ انني لأحسني خائراً مقوس الظهر محدودباً كأنني آدم يترنح تحت عبء القرون المتراكمة مذأهبط من الفردوس . رباه ! رباه ! رباه ! ليتفطر قلبي ! لينشق رأسي ! سخرية ! سخرية ! يا سخرية مريّة لذّاعة يمثّلها هذا الشعر الابيض ! هل مارست السرور الكافي حتى تجيء ايها الشيب له ختاماً فأبعدو وأشعر انني كبرت كبراً لا يطاق ؟ قرّب ! قف بقربي يا استاربك . خلّطني انظر في عين انسان ، ذلك افضل من التحديق في البحر او الفضاء ، أفضل من التوجه بالنظر الى الله . وحق الارض الخضراء ، وحق الموقد المتوهج هذه هي المرأة السحرية يا رجل ، فانا ارى في عينك زوجي وطفلي . لا . لا . ابق على ظهر السفينة ، على ظهر السفينة ! لا تنزل قاربك حين أنزله انا ، لا تنزله حين يأخذ آخاب الموسم في مطاردة موبى ديك . لن تكون تلك المخاطرة من نصيبك ، لا . لا . لن تفعل وانت تحمل بيتي النائي في تلك العين ! »

— « آه يا قبطاني ! يا قبطاني ! يا ذا الروح النبيلة ! يا ذا القلب الكبير، بعد هذا كله ! لم يطارد احدٌ تلك السمكة المقيمة ! تعال معي ! دعنا نهرب من هذه المياه القاتلة، لنعد الى الوطن ! ان استاربك لديه زوجة وطفل — زوجة وطفل يتمثلان في لدات شبابه، لدات كأنهم اخوته واخواته، كزوجتك وطفلك يا سيدي هم اللدات الذين عرفهم العمر المتجيب التواق ذو الاحاسيس الابوية . لنبتعد ! هيا بنا نبتعد ! في هذه اللحظة دعني أغير وجهة السفين ! ما اسعدنا، ما أشد تهللنا يا قبطاني ونحن نتدحرج في طريقنا لثرى نانتوكت القديعة ثانياً ! أظن يا سيدي انهم في نانتوكت ينعمون بهذه الايام الوادعة الزرقاء، كيومنا هذا . »

— « ينعمون . ينعمون . رأيتهم، بعض ايام الصيف وقت الصباح، عند هذا الوقت او قريباً منه — نعم ان ابني الآن في القيلولة — ثم يصحو مرحباً ويجلس في سريره، وتحديثه امه عني، عني انا العقي المفترس، وكيف اني أمعنت في البحار، ولكنني سأعود اليه لأرقتسه . »

— « انها ماري زوجتي، ماري زوجتي فعلت كذلك ! فقد كانت تعد ان تحمل ابني كل صباح الى الرابية لكي يرى اول ومضة من اشعة أبيه ! نعم ! نعم ! حسبنا ! قضي الامر ! اننا نتوجه الى نانتوكت ! تعال يا قبطاني قدّر الاتجاه، ولنذهب . انظر ! انظر ! ها هو وجه الطفل يطل من النافذة ! ها هي يد الطفل على الرابية ! »

ولكن آخاب أشاح بوجهه واهتز كأنه شجرة تفاح مثوفة وطرح آخر تفاحة مغبرة على الثرى .

« ما هذا ؟ اي شيء غير أرضي لا يسمّى ولا يعلل هو هذا ؟ اي سيد

خبيء خداع ، اي امبراطور جائر عسوف يوجهني ، حتى انني أظل اندفع
واحترشد وازج بنفسي كل وقت مقاوماً كل مظاهر الحب والشوق الطبيعيين ،
ويجعلني مستعداً لأودي دون مبالاة ما لو استأنست بشعور قلبي الطبيعي لم
أجرو على ان أوديه ! أأخاب هو آخاب ؟ أنا ام الله ام من ذا يرفع هذه
الذراع ؟ ولكن ان كانت الشمس العظيمة لا تجري من نفسها وانما هي عبد
مأمور في السماء ، ولا يستطيع اي كوكب ان يدور إلا ان تديره قوة خفية ،
فكيف اذن ينبض هذا القلب الصغير وكيف يفكر هذا الذهن الضئيل لولا ان الله
هو الذي يسبب النبض والفكر ، هو موجد الحياة لا أنا . وحق السماء يارجل اننا
ندار في هذا العالم كذلك الدولاب الرافع والقَدَرُ هو الخلل . وطوال الوقت ،
تأمل ! تلك السماء الباسمة وذلك البحر الذي لا يسبر له غور ! انظر ، انظر
ذلك البيقور ! من ذا الذي اوحى اليه ان يطارد تلك السمكة الوثابة ويقبض
عليها ؟ اين يذهب القتلة يا رجل ؟ من ذا الذي يصدع بالحكم حين يجرّ القاضي
نفسه الى موقف المتهم ؟ ولكن الريح وديعة لطيفة والسماء وديعة الحياء ،
والنسمات تنفخ كأنما هبت من مرج نائم بعيد ، كانوا يحصدون عند سفوح الانديز
يا استاربك والحصادون نائمون بين القش الحديث حصاده . نائمون ؟ اجل ،
مهما يكن ما نبذله من كدّ فاننا ننام في النهاية في الحقل . ننام ؟ اجل ويعلوننا
الصدأ بين الزرع الاخضر ، كالمناجل التي طرحت وتركت بين الاغمار والشمالات ،
يا استاربك !

ولكن اليأس ران على وجه الضابط فقدا في لون الجثة ، وانسلّ ذاهباً .

واجتاز آخاب ظهر السفينة ليطل عن الجانب الآخر ، غير انه اجفل اذ
رأى خيال عينين محددين في الماء . كان فيض الله متكئاً دون حراك على
تلك الحافة نفسها .

المطاردة - اليوم الاول

في النوبة الوسطى من الحراسة تلك الليلة حين انتقل القبطان الشيخ - حسب عادته بين الحين والحين - من الناروزة التي يستند فيها وذهب الى الثقب المحوري، نصب وجهه فجأة بعنف، مستنشياً هواء البحر، كما يفعل كلب فطين على سفينة تقترب من احدى الجزر المتأبدة. وأعلن ان ثمة حوتاً قريباً، ولا بد. وسرعان ما أصبحت تلك الرائحة الفريدة التي يبعثها حوت العنبر الحي على المدى البعيد احياناً، واضحة يشمها جميع الرقباء. ولم يندعش اي بحار حين ذهب آخاب فعابن البوصلة ثم مؤشر الريح وعين بدقة منشأ الرائحة قدر المستطاع ثم أمر في سرعة ان يغير اتجاه السفينة تغييراً طفيفاً، وان يقصر الشراع.

وكان لهذه السياسة الماضية التي تملي تلك التحركات ما يسوغها عند انبلاج النهار، فقد كانت ملوثة "مديدة" تغشي البحر أماماً على اتجاه طولي بعيد، ملساء كأنها الزيت وتشبهه، في الفضون المائية المثناة التي تقع عند حدها، العلامات المصقولة كالمعدن التي يتركها انمراج التيار السريع عند مصب جدول عميق سريع.

« زدودوا المراقب بالرجال ! استدعوا جميع العاملين ! »

ودق دغة بمؤخرة ثلاث عتلات مجتمعة على ربة المنارة فنبه النائمين بدقات كأنها نفخات الصور حتى بدا وكان الناروزة بعثرتهم منشورين، فظهروا على التو وملابسهم في أيديهم.

صاح آخاب وقد بسط وجهه نحو السماء : « ماذا ترون ؟ »

فكان الجواب الذي تأدى من على : « لا شيء ! لا شيء ! يا سيدي ! »

— « انشروا الاشرعة العليا النبيلة ! والاشرعة الخفيفة الجانبية ، في الاعالي والاداني وعلى الجانبين ! »

ونشرت جميع الاشرعة فأرخصى حبل الحياة الذي يستبقيه لكي ينقله الى رأس الصاري الملكي الرئيس ، وفي بضع دقائق كانوا يرفعونه الى مرقبه . ولم يبلغ إلا ثلثي الارتفاع المطلوب وهو يحدد امامه خلال الفراغ الافقي بين الشراع العلوي الرئيس والشراع العلوي النبيل حتى رفع عقيرته في الفضاء بصوت كأنه صراخ النورس : « هناك ينفت ! هناك ينفت ! حردبة كربة ثلج ! هو موي ديك ! »

حمي الرجال على ظهر السفينة بتلك الصيحة التي ردها في الوقت نفسه الحراس الثلاثة ، فاندفعوا الى جانب الجبال والاشرعة ليروا الحوت المشهور الذي طاردوه — وما زالوا — طويلاً . وبلغ آخاب عندئذ مرقبه وهو يعلو اقدماً فوق المراقب الاخرى ومن دونه طاشطيقو على رأس الصاري العلوي النبيل حتى كاد رأس هذا الرجل الهندي ان يكون على مستوى أخمص آخاب . ورأى المراقبون من مرتفعهم هذا ذلك الحوت على بضعة أميال او نحوها الى الامام ، وكلما تقلبت الامواج انكشفت حردبته العالية اللامعة وهو يرسل نفثاته الصامتة بانتظام في الفضاء . وبدت نفثاته لأعين البحارة السذج نفس النفثات التي طالما رأوها في المحيطين الاطلسي والهندي تحت ضوء القمر .

وصرخ آخاب وهو ينادي الرجال الجاثمين في مراقبهم من حوله :

— « أو لم يره احدكم من قبل ؟ »

فقال طاشطيقو : « أكاد أكون رأيتك في نفس اللحظة التي رآه فيها القبطان آخاب يا سيدي وقد صرخت عند ذلك » .

— « ليست نفس اللحظة ، كلا ليست نفسها ، لا . ان القطعة الذهبية من نصبي ، لقد حفظها القدر لي ، انا وحدي ، لا أحد فيكم كان يمكن ان يبصر الحوت قبلي . ها هو ينفت ! ها هو ينفت ! ها هو ينفت هناك ! هناك مرة اخرى ! هناك ثانية ! » — كذلك صرخ في نغمات مستطيلة بطيئة رتيبة ، منغومة حسب نفثات الحوت المسترسلة المنتظمة . — « يريد ان يقمس ! اطووا الاشرعة الخفيفة الجانبية ! انزلوا الاشرعة العلوية النبيلة ، قفوا الى جانب قوارب ثلاثة . الدفة هناك ! كائب الريح ، اقترب منه درجة . هكذا . ثبات يا رجل ثبات ! هاها شطيرتا ذنبه ! لا . لا . ليس هذا الا ماء كثيفاً أسود ! أكل القوارب مستعدة ؟ قربوا قربوا ! انزلي يا سيد استاربك ! أنزل ، انزل . سريعاً . أسرع ! » وانزلق خلال الفضاء هابطاً الى ظهر السفينة .

فصاح اسطب : « انه عامد نحو المهب يا سيدي ، بعيداً عنا ؛ لا يمكن ان يكون قد رأى السفينة بعد » .

— « اخرس يا رجل ! قف عند حلقات الجبال . وجه الدفة الى تحت ! شدّ الجبال . هزّها ! هزّها ! هكذا . أحسنت ! القوارب ، القوارب ! »

انزلت كل القوارب على التوالى اقارب استاربك ، ونشرت جميع أشرعتها وأعملت جميع بدالاتها وهي تنطلق نحو المهب بخفة متممجة ، وآخاب في الطليعة يقود الهجوم ، وضواً في عيني فيض الله الغائرتين بصيص شاحب ينتمي الى الموت ، ولوت فمه حركة شنيعة .

وأسرعت مخاطمها الخفيفة خلال الماء كأنها أصداف بحرية لا حفيف لها من

نوع النوطل^١، ولكنها لم تكن تقترب من العدر إلا في بطنه ، وعندما اقتربت منه زاد سكون البحر وانبساطه وكأنه ينشر بساطاً على الامواج ، كأنه مرج مستوي في الظهيرة ، كذلك كان يمتد في هدوء وصفاء . وعلى المدى اقترب الصياد اللاهث من فريسته التي تبدو مطمئنة حتى بدت لعينيه بوضوح حردبته اللامعة المعشبة كاملة ؛ سارية في عرض البحر كأنها كيان منعزل عما عداه ، وهو باستمرار يوضع في حلقة دوارة من أرق الزبد الصوفي الخوضر . ومن وراء ذلك رأى التجاعيد المتداخلة المتراصة في رأسه البارز بروزاً طفيفاً ، وأمام الرأس بعيداً على الامواج الناعمة كأنها سجاد عجمي انطلق الخيال الابيض اللامع من حجمته العريضة الناصعة ، في تفضينات موسيقية تصاحب الخيال مرحة لاهية ، ومن خلف تغطي المياه الزرق متداخلة في الوادي المتحرك الذي يشقه غره المسترسل ، وعلى كلا الجانبين ترتفع نفاخات براقة وتراقص من حوله . إلا ان هذه النفاخات انماثت مرة أخرى حين مستها أصابع رفيقة ، هي أصابع مئات الطيور المرحة ترفرف في نعومة فوق البحر ، وتعود فتحلق طائرة . وبرزت من ظهر الحوت الابيض قناة طويلة محطومة لحربة غرست فيه حديثاً كأنها سارية راية ترتفع من سفينة تجارية وحيدة الشراع ذات هيكل مدهون . وبين الحين والحين كانت سرب من الطيور المحلقة ذوات الاصابع الناعمة ، تسف في طيرانها فوق الحوت كأنها ظلة وتحط على هذه القناة وتهتز متأرجحة ، والريش الطويل في ذيلها يتموج كأنه أعلام .

كان يكتنف الحوت المنساب بهجة رفيقة - وداعة من سكونه مستحكمة في خفة ؛ ولا كذلك جوبتر نفسه في صورة ثور أبيض مختطفاً أوروبة عنوة ، ساجحاً بها وهي بمسكة بقرنه الرشيقين ، وقد أنعمت عيناه - المتوددان الغامزان - نظراً موارباً الى الفتاة ، وهو يتلوى عامداً في سرعة رشيقة أخذاة نحو خيلة العرس في كريت ، ولا جوبتر نفسه ، ولا ذلك المتجلي ذو الجلال العظيم ، كان يفوق الحوت الابيض المجيد الفخيم ، وهو سابح في تأله وبهاء .

ومع وقع التموجات التي يشقها فاذا تركته أبعدت نائية، كان الحوت ، على جانبيه الناعمين ، على الجانبين اللامعين ، يسكب صنوف الاغراء . فلا عجب اذا وجد بين الصيادين من جذبهم هذا الهدوء وأغراهم الى حدّ بعيد فغامروا بمهاجمته ولكنهم وجدوا بعد ان أصاب منهم مقتلًا ان السكينة انما تخفي وراءها اعصاراً غير انك ايها الحوت تنسرب هادئاً ، هدوءاً خلاباً معنوياً ، لكل من يرمقك اول مرة ، مها يكن عدد الذين غررت بهم على هذا النحو وقضيت عليهم .

وهكذا مضى مويي ديك من خلل الهدأة الهادئة في البحار الاستوائية ، التي توقف بين أمواجها التصفيق بالايدي لشدة الانبهار ، وهو قد حجب عن الانظار المفزعات الكاملة التي يمثلها جذعه الغاطس مخفياً اخفاءً تاماً البشاعة الخفيفة التي يلتوي بها فكه . وسرعان ما برز الجزء الامامي منه ببطء من خلل الماء ، وعلى مدى لحظة كوّن جسمه الرخامي كله قنطرة عالية كأنها الجسر الطبيعي في فرجينيا ، وهزّ شطيرتي ذنبه في الفضاء منذراً ؛ لقد تجلى الله العظيم ثم قس واختفى عن الانظار ، وتوقفت طيور البحر البيض مدوّمة ، وانحرفت على أجنحتها ، وتمطت في توق فوق البركة المتमوجة التي بارحها .

وعامت القوارب الثلاثة في بطم وقد انتصبت مجاذيفها، وهبطت بدالاتها، وضلّت اشرعتها وهي ترقب عودة مويي ديك الى الظهور .

« ساعة » - كذلك قال آخاب وهو واقف راسخ في مؤخرة قاربه ونظر الى ما وراء موقع الحوت نحو المسافات الزرق المبهمة والفراغ المديد الحافز في اتجاه الريح . ولم تكن الا لحظة ؛ فقد عادت عيناه تدوران في محجريها وهو يدهما ليمسح المجال المائي . وهبّ النسيم بروداً واخذ البحر يلتفخ متموجاً .

وصاح طاشطيقيو : « الطيور ! الطيور ! »

كانت الطيور البيض كلها تطير نحو قارب آخاب في طابور هندي طويل كأنها رفوف مالك الحزين محلقة، وعندما أصبحت دونه على مسافة بضعة ياردات بدأت تخفق بأجنحتها فوق الماء وتدور وتدور وهي ترسل صيحات البهجة والرجاء. كان بصرها أحد من بصر آخاب. فانه لم يستطع ان يستكشف اية علامة في البحر ولكنه حين حدق وأطال التحديق في الاعماق رأى على غور بعيد بقعة بيضاء حية ليست اكبر من ابن عرس ابيض، ترتفع في سرعة عجيبة وتكبر كلما ارتفعت، حتى تحولت عائمة من القعر الذي لا يستطيع استجلاؤه، وعندئذ وضع فيها صفان طويلان اعوجان من انياب بيض لامعة. كان ذلك هو قم مويي ديك المفتوح وفكه المنشاري. اما جسده الضخم المحجوب فكان ما يزال مختلطاً بعض اختلاط بزرقة البحر؛ وانقعر القم المتلألئ تحت القارب كأنه قنبر رخامي نزع بابه، فأدار آخاب القارب جانباً بضربة مواربة من مجذافه ليحيد عن شبحه المرعب ثم نادى فيض الله، ليتبادلا مكانيهما وذهب الى مقدم القارب وأمسك بالرمح الذي صنعه بيرث وأمر بحارته ان يمسكوا بمجاذيفهم وان يقفوا متاهبين كي يتمكنوا من العودة للوراء.

وبسبب من دورة القارب عندئذ حول محوره جعل مقدمه، من قبيل المبادرة، مواجهاً رأس الحوت وهو ما يزال تحت الماء، ولكن كأنما لحظ مويي ديك هذه الخطة بذلك الذكاء الماكر الذي يعزى اليه، فاستبدل في مواربة بمكانه مكاناً آخر، في لحظة، مطلقاً رأسه المغضن طولياً من تحت القارب.

واهتز القارب من اقصاه الى اقصاه وسرت الهزة لحظة في كل لوح ودعامة، والحوت مضطجع على ظهره في انحراف على نحو ما يضطجع القرش الكدّام وهو يتناول مقدم القارب كله ببطء وتحسس في فمه حتى ان الفك السفلي الطويل الضيق المنشاري تلوى بارزاً في الفضاء وعلق احد الانياب باحد مساند المجذاف. وكان داخل الفك المائل الى الزرقة الابيض بياض اللؤلؤ على بعد ست بوصات

من رأس آخاب ثم بلغ الى اعلى من ذلك، وفي هذا الموقف هزّ الحوت الابيض ذلك الرمث الضئيل كما تهز القطة الظالمة في وداعة طريدها الفأر . ونظر فيض الله بعينين لا دهشة فيها، وشبك ما بين ذراعيه، غير ان الملاحين الذين في صفرة النمرور كانوا ينقلبون فوق رؤوس بعضهم البعض وكل منهم يبادر لينال لوأذاً في أقصى المؤخرة .

وبينا كانت كلتا الحافتين المرتين تثبان داخلاً وخارجاً، والحوت يداعب القارب الهالك بهذه الطريقة الشيطانية، ولا يمكن قذفه بالرماح من المقدم، لان جسمه غاطس تحت القارب، ولأن المقدم نفسه يكاد يكون داخل فكّه ؛ وبينا توقفت القوارب الاخرى عفواً كأنها امام ازمة سريعة يستحيل عليها مواجهتها، عندئذ هاج آخاب لمصابقة خصمه له مصابقة تعذبه بوشك نجاز الامل ، لانها وضعته وهو حيّ أعزل بين الفكين اللذين يمتقتها — هاج واستبد به الحقنق، فأمسك الفك الطويل بيديه المجردتين وحاول بضراوة ان يزحزحه عن ذلك الاطباق الضاغط الكرز ؛ وفيما كان يجهد هذا الجهد الضائع انزلق الفك من بين يديه ، واستسلمت الحافتان الهشتان، وانقلبتا، وفرقعتا عندما انزلق الفك كأنهما مقصان بعيداً الى وراء، وشقا القارب نصفين، ثم انطبقا في الماء في مسافة متوسطة بين النصفين العائنين . ولما ان عاما تدلت الاطراف المكسرة، وتعلق الملاحون عند النصف الخلفي من القارب بالحافتين، وجاهدوا ليستمسكوا بالمحاذيف حتى يربطوها الى بقية الحطام .

في تلك اللحظة التمهيدية قبل ان يتم انشقاق القارب كان آخاب اول من ادرك قصد الحوت، وذلك لانه رفع رأسه بحركة مأكرة فتراخت عنه قبضة آخاب وقتاً ما ؛ في تلك اللحظة بذل آخاب بيده آخر محاولة ليدفع القارب بعيداً عن مكدم الحوت، ولكن القارب ما عثم ان انزلق هابطاً في فم الحوت وتمايل على جانبيه وهو ينزلق فحال بين قبضة آخاب وفك الحوت، فهوى آخاب حين انحنى ليدفعه وسقط منبطحاً على وجهه فوق الماء .

أما موبى ديك الذي انسحب عن فريسته متممجا فقد استلقى على مسافة قصيرة وقد طعن برأسه الأبيض المستطيل عاموديا في الامواج صعودا ونزولا وفي الوقت نفسه أدار ببطء جسمه المتطاوّل حتى ان جبهته المغضبة الفسيحة عندما برزت - على مدى عشرين قدما خارج الماء، او تزيد - تكسرت تلقاءها الاثباح المتعالية بكل ما فيها من امواج مترافدة تكسّراً يهرّ الابصار وهي تقذف رشاشها الراعش عالياً في الفضاء، حقدأ واضطراماً* . كذلك امواج «القتال» التي ترتد على اعقابها مقهورة بعض الشيء اثناء العاصفة تتراجع عن قاعدة «اديستون» لا شيء الا لتطاوّل قمتها زهوآ في اندفاعها المتوثب .

وسرعان ما استعاد موبى ديك وضعه الافقي فسبح بخفة ولف حول الملاحين المنتثرين ودار، وهو يمحض الماء في مخره الحقود، كأنه يهم ان ينطلق في غارة جديدة اشد من اختها فتكاً . وبدا كأنما يهيج فيه منظر القارب المتشظي جنونا كما فعل الجريال القاني من دم العنب والتوت حين سكب امام فيسلة انطيوخوس، حسبا جاء في كتاب المكابيين . وفي الوقت نفسه كان آخاب يوشك ان يخنق في الزبد الذي اثاره ذنب الحوت الوقح، وأعجزه عجزه عن ان يسبح، وان استطاع ان يبقى عائماً حتى في قلب مثل تلك الدوامة، وظهر رأس آخاب الذي آده العجز وخانه الحول كأنه نفاخة متقلبة قد تفجرها اصفر صدمة عارضة . ورمقه فيض الله من مؤخرة القارب التي تناثرت شظايا بنظرة ودیعة باردة ليس فيها لهفة المتطلع . فأما الملاحون المتشبهون عند الطرف الآخر المتقاذف فلم يستطيعوا اغاثته، اذ كان حسبهم ان ينظروا في ما دهمهم ، فقد كان منظر الحوت الأبيض مهولاً في دورانه، وكانت الدوائر المنداحة التي

* هذه الحركة خاصة بحوت العنبر وتسمى «قذف الحربة» تشبيهاً لها بتسديد الحربة صعوداً وهبوطاً في التحويث حسبما تقدم الوصف (انظر الفصل : ٨٤) وهذه الحركة يستطيع الحوت ان يرى ، خير رؤية واشملها ، اي شيء يحيط به .

يحدثها سريعة كأنها دورة كوكب، حتى خيل اليهم انه سينقض عليهم اقلياً؛ وأما القوارب الاخرى فانها، وان لم يمسا أذى، كانت تحوم عن كسب دون ان تجرؤ على التجذيف ودخول تلك الحومة ومباشرة الضرب، لئلا يكون في ذلك اشارة على الهلاك الوحي للمطروحين بين انياب التهلكة، اعني آخاب وسائر الملاحين، وفي مثل هذه الحال فانهم ايضاً لا يرجون لانفسهم نجاة، ولذا وقفوا يتطلعون بعيون متخازرة عند الحافة الخارجية من ذلك الفلك المريع الذي اصبحت نقطة المركز فيه رأس آخاب .

ومنذ البداية كان هذا كله في اثناء ذلك برأى من الرقباء في أعالي الصواري، فأدارت السفينة باحاتها، وعمدت الى ذلك المشهد، ودنت كثيراً حتى ان آخاب ناداها قائلاً: « ابحروا نحو ... » وفي تلك اللحظة اندفع نحوه موج فاصل من لدن مويي ديك غمره حيناً، غير انه تخلص منه جاهداً، واتفق ان ارتفع على سنام موجة متعالية فصاح « ابحروا نحو الحوت ! - طرّوه شلاً ! »

أشرعت مقادم الباقوطة المحددة، وكسرت الحلقة المسحورة فحالت بين الحوت الابيض وضحيته، وعندما ابتعد ساخطاً متبرماً سارعت القوارب مخفة الى النجدة .

جرّ آخاب الى قارب اسطب وعيناه اللتان تقدحان شرراً عشواءان، والملح الاجاج يتقرص في تجاعيده، وقد انقطعت في جسمه اوتار القوة لطول النزاع والتوتر، فاستسلم بلا حول لمصير جسده وظلّ بعض الوقت مستلقياً محطماً في قعر قارب اسطب كأنه شخص داسه قطيع من الفيلة بالأقدام . ومن اعماق اعماقه السحيقة انبعثت أنات تعجز الوصف كأنها اصوات موحشة تنبعث من أخاديد .

ولكن هذه الحدة في استسلامه الجسدي قصّرت من عمر هذا الاستسلام العاني ؛ ذلك ان بعض القلوب الكبيرة احياناً تستجمع - بلح البصر - جميع الآلام الرقراقة المبعثرة برفق خلال أعمار الناس الضعفاء وتكتنفها في صورة غمرة عميقة من الألم ، فاذا شامت الآلهة فان مثل هذه القلوب تحتقب في عمرها وحده ألم عصر كامل ، ألماً مؤلفاً من تلك المكثفات المفاجئة ، وان كنت ترى فيها خلاصة ألم اذا نظرت إليها في كل فرد متألم على حدة ؛ فهذه الكائنات النبيلة تحتوي في نقاط مراكزها الهندسية كل محيط من محيطات النفوس الضعيفة .

قال آخاب ناهضاً بعض نهوض ، مستنداً في تضجع على ذراع واحدة محنية :
« الرمح ! - هل هو سليم ؟ »

فقال اسطوب وهو يرفعه امام عينيه : « أجل سيدي ، لانه لم يقذف ؛
ذلك هو السبب » .

— « ضعه امامي - هل فقدنا احداً ؟ »

— « واحد ، اثنان ، ثلاثة ، اربعة ، خمسة ، كانت لدينا خمسة مجاذيف يا سيدي وها هنا خمسة رجال » .

— « حسن . أعني يا رجل ؛ اود ان اقف . كذا ، كذا ، ذاك هو ! هناك !
هناك ! ما يزال ذاهباً في اتجاه الريح . أية نفثة وثابة ! حطوا أيديكم عني ! ان
النسغ الخالد عاد يحري في عظام آخاب ! انشروا الاشرعة . أحضروا المجاذيف ؛
الدفة ! »

اذا انشق قارب ما ، فان بجارته في أغلب الاحيان ، حين يلتقطهم قارب آخر ، يعينون على التجذيف في الثاني وتستمر المطاردة بما يسمونه المجاذيف المزدوجة ، وهذا هو ما حدث حينئذٍ ؛ ولكن القوة الزيدة في القارب لم تكن

تساوي القوة الزائدة في الحوت لانه يبدو انه «ثلث» كل زعنفه من زعانفه ، فقد كان حينئذ يسبح بسرعة تدل بوضوح على ان البحارة ان اندفعوا نحوه في تلك الظروف فان المطاردة ستكون طويلة لا تنتهي الى حدّ، هذا اذا لم تكن نتائجها غير مرجوة . ولا تستطيع اية عصابة من الملاحين ان تطيق مثل هذا التوتر الطويل المستمر دون راحة ، عند المجاذيف ، طول هذه المدة المديدة ، فذلك شيء لا يطاق الا في دورة قصيرة واحدة . ولذا فان السفينة ، كانت كما يحدث احيانا ، هي الوسيلة المرجوة الوحيدة للاضطلاع بمعبء المطاردة ، ومن ثمّ عمدت القوارب نحوها ورفعت في التواء الى معالقتها ، وكانت هي قد احتازت نصفي القارب المحطوم من قبل ، فرفع كل شيء الى جانبها ، وكوّمت جميع ما فيها من أشرعة في الاعالي ، ومدت من جوانبها الاشرعة الجانبية الخفيفة كأنها جناحا البطروس المزودان بفصلين ، واشتدت تجري في مخر مويي ديك الذاهب في اتجاه الريح .

وكان الرقباء في أعالي الصواري يهتفون بانتظام بأنهم رأوا نفائة الحوت المتلألئة في فترات معروفة رتيبة فاذا قيل لأخاب انه قمس توأ ، عين الوقت ، ثم اخذ يذرع ظهر السفينة ، وساعة صندوق الابرة في يده ، فاذا انقضت آخر ثانية من الساعة المقدرة سمع صوته يقول : « لمن القطعة الذهبية الآن ؟ هل ترونه ؟ » فاذا كان الجواب : « لا يا سيدي » أمرهم على التواء ان يرفعوه الى مرقبه . على هذه الحال تصرم النهار : حيناً يكون آخاب في الاعالي جائئاً دون حراك ، وآونة يذرع الألواح قلقاً .

وحين كان يتمشى كذلك دون ان يحدث صوتاً الا ان يهتف بالرجال في الاعالي او يأمرهم ان يرفعوا شراعاً الى ارتفاع اكبر ، او ينشروه على عرض أوسع — حين كان كذلك يتمشى جيئةً وذهوباً كان عند كل دورة يدورها وهو معتمر قبعته المنكفئة يمرّ بقاربه المحطم الذي كان قد أنزل على الربرة خلف

الدقل الاعظم ، ووضع هناك مقلوباً ، مقدمه مكسور وكوثله محطوم . واخيراً
توقف امامه ، وانسلّ فوق وجهه الشائخ مزيد من كآبة ، مثلما ان السماء الملبدة
بالغيوم يزحف على وجهها مزيد من أسراب جديدة من السحب في بعض
الاحايين .

ورآه اسطب متوقفاً ولعله اراد دون ان يخامر الغرور ان يبدي عزيمته التي
لم تن وبقي لنفسه في ذهن قبطانه مكانة الباسل الشجاع ، فتقدم منه ورمق
القارب المحطوم وهتف : « الحمار رفض الشوك . لقد وخزت فمه بحدة يا سيدي ،
ها ! ها ! »

— « اي شيء تعوزه الروح هذا الذي يضحك وهو قبالة شيء محطوم ؟ يا
رجل ، يا رجل ! لو لم أكن أعلم انك شجاع كالنار التي لا تعرف الخوف
(ومثلها حركة آلية) لأقسمت انك جبان رعديد . يجب ألا تصدر أنسة او
ضحكة امام شيء محطوم » .

فقال استاربك وهو يدنو منه : « أجل سيدي ، هذا منظر جليل ؛ انه
فأل ، وانه فأل سيء » .

— « فأل ؟ فأل ؟ — لفظة في المعجم ! اذا كانت الالهة ترى ان تحدث
الانسان دون التواء فانها تحدثه بشرف ونزاهة صراحة دون التواء ، ولكنها لا
تهز رؤوسها وتغمغم بتلميحات مبهمه كالتي ترسلها العجائز . انصرفا ! انتما قطبان
متضادان في شيء واحد . ليس استاربك إلا اسطب معكوساً ، وليس اسطب
إلا استاربك معكوساً . وانتما تمثلان جميع البشر . وآخاب يقف وحده بين
ملايين الارض المأهولة ، وليس له جيران من بشر او آلهة ! برد . برد . أرتجف !
كيف ذلك ؟ انتم في الاعالي هل ترونه ؟ اهتفوا كلما رأيتم نفثة حتى لو نفث
عشر مرات في الدقيقة ! »

كاد اليوم ينقضي ، ولا شيء يصدر حفيفاً سوى حواشي ثوبه الذهبي .
وسرعان ما خيم الظلام او كاد ، ولكن المراقبين بقوا في امكنتهم لا يؤذن لهم .

فصاح صوت من الفضاء : « لا نستطيع نرى النفاثة الآن ، سيدي ، الظلام
حالك » .

— « كيف كانت وجهته عندما رأيتموه آخر مرة ؟ »

— « كما كان من قبل ، سيدي ، عامداً نحو مهب الريح » .

— « طيب ! ما دام الليل قد حلَّ فانه سيتباطأ في رحلته . أنزلوا الاشرعة
الملكية والعلوية النبيلة من الاشرعة الجانبية الخفيفة يا سيد استاربك ؛ علينا ألا
نسبقه قبل الصباح ، انه يقوم برحلة الآن ولعله ان يتوقف مدة . الدفلة
هناك ! اجعلها منصوبة تماماً امام الريح ! انتم في الاعالي ! انزلوا ! يا سيد
اسطب ، ابعث بديلاً الى قمة الصاري الامامي ولاحظ ان يظل مزوداً بمراقب
حتى الصباح » . ثم تقدم نحو الديبلون المغروس في الصاري الرئيس وقال :
« هذه القطعة الذهبية لي ، لاني كسبتها ، ولكني سأبقيها هنا حتى يموت الحوت
الابيض ، وأي امرئ منكم ينبئ به أولاً في اليوم الذي يقتل فيه فستكون هذه
القطعة من نصيبه ، واذا كنت انا الذي أنبئ به في ذلك اليوم فان عشرة امثالها
ستقسم فيما بينكم . انصرفوا ! انت القيم على ظهر السفينة يا سيدي » .

وما ان قال ذلك حتى وضع نفسه في موقع وسط داخل الناروزة وكفأ
قبعته ، ووقف هنالك حتى الفجر إلا ان ينهض بقامته احياناً ليرى كم انقضى من
الليل .

المطاردة - اليوم الثاني

عند بزوغ الصبح زودت رءوس الصواري بحراس جدد في موعدهم وصرخ
آخاب بعد ان انتظر قليلاً حتى ينتشر الضوء : « هل ترونه ؟ »

— « لا نرى شيئاً يا سيدي » .

— « تضافروا جميعاً في نشر القلوع ! انه ليسير بأسرع مما قدرت . انشروا
الاشرعة العلوية النبيلة . اجل كان الحق ان أبقيا منشورة طول الليل . لا بأس ،
انها الراحة قبل الاندفاع » .

لأقرر في هذا المقام ان هذه المطاردة المصاهرة وراء حوت واحد ، والليل
فيها يفضي الى النهار والنهار الى الليل دون توقف ، انما هي شيء لا تعزّ نظائره
في حرفة التحويت بالبحار الجنوبية ، ذلك ان بعض العباقرة العظام بفطرتهم
بين القباطنة النانتوكتيين قد أحرزوا من المهارة العجيبة ومن لقانة التجربة ومن
الثقة الصامدة المرابطة ما جعلهم — اذا لحظوا الحوت محض لحظ في آخر مرة
انكشف لأعينهم فيها — يتنبأون ، على نحو دقيق في ظروف معينة ، بالاتجاه
الذي سيظل ينحواه في سباحته فترة ما ، وهو غائب عن الابصار ، وبمقدار
السرعة المحتملة في تقدمه أثناء ذلك . وفي هذه الاحوال يفعل الحوات بالنسبة
للحوت ، وهو يرقب بوصلته ، ما يفعله الربان حين يوشك ان يخفي عن نظره
ساحل يعرف سيفه حق المعرفة وهو يرغب في ان يعود اليه مرة اخرى ، لا في
الموقع الاول بل في موقع آخر أبعد منه ، فهذا الربان يقف عند بوصلته ويقدر

بدقة اتجاه الرأس البادي لعينه حيثئذ لكي يستيقن انه ان عاد لزيارة الرأس
المحجوب عن عينيه فانه سيتخذ اليه مسلكاً مسدّداً لا ينحرف به يميناً او يسرة.
كذلك هو شأن الحوَّات ، بعد ان يطارد الحوت ويميزه بعلامة فارقة خلال
ساعات عديدة في ضوء النهار، ثم يحلّ عليه الليل فينجب الحوت وراء ظلمته،
هذا الحوات يكاد يرسم في عقله الراجح سياق نحر الحوت بدقة تحت الظلام ،
كما يرسم السيِّف في ذهن الرّبان . ويستوي في مهارة هذا الحوات - وهي مهارة
مدهشة - النقش على الماء - أعني سياق النحر - والنقش في الحجر ، فهما لديه
سيان من حيث الكفاية والغناء ، في كل ما يراد منها ، وان ضرب المثل بقلة
غناء النقش على الماء . ألسنت ترى الرجال يعرفون « الحوت » الحديدي الجبار
الحديث بكل خطوة من خطواته ويقدرّون ، وساعاتهم في أيديهم ، نسبة
سرعته كما يقدر الاطباء نبض الطفل ويقولون في سر : القطار الغادي او القطار
الرائح سيصل المكان الفلاني في الساعة الفلانية ؟ يكاد ذلك ان يكون هو عين ما
يحدث لدى الصيادين من ابناء نانتوكت فانهم في بعض الاحوال يوقّتون لحوت
البحار حسب ما لحظوه من نسبة في سرعته ويقولون لانفسهم : بعد كذا وكذا
ساعة يقطع هذا الحوت مائتي ميل ، ويبلغ هذه او تلك الدرجة العرضية او
الطولية . ولكن ان كان لهذه الحذاقة ان لا تفيل في النهاية فلا بد ان يظلل
البحر والرياح حليفين للحوَّات . اذ ماذا تغني الحذاقة عن ملاح سكن بحره او
واجهته الرياح حين تؤكد له أنه على بعد ثلاثة وتسعين فرسخاً وربيع الفرسخ من
الميناء ؟ وبعد فالحوَّات يستطيع ان يستخلص من هذه الحقائق أموراً دقيقة
أخرى تناظرها فيما يتصل بصيد الحيتان ومطاردها .

ومضت السفينة تشق الماء ، مخلّفة في البحر ثلماً ، كأنها قنبلة مدفع طاشت
فاتخذت سكة محراث فهي تشق الحقل المستوي أثلاماً .

وصاح اسطب : وحق الملح والقنب ! ان هذه الخفة في حركة ظهر السفينة

لتنسلّ في رجل المرء وتطنّ في القلب . أنا وهذه السفينة رفيقان بإسلان - ها !
ها ! ليت أحداً يرفعني ويلقيني في الماء على ظهري ، أحلف بالبلوط الرطب ان
ظهري أريئة . ها ! ها ! اننا نسير في طريق لا يثور فيها غبار ! »

- « هناك ينفت ! ينفت ! ينفت ! أمامنا تماماً ! » - تلك هي الصيحة
التي أرسلها الحراس من رموس الصواري .

فصاح اسطب : « أجل ، أجل ! عرفت ذلك - لن تنجو - انفت وفجر
نفائتك ايها الحوت ! الشيطان نفسه في أثرك . انفخ في بوقك حتى تتفرح
رئناك ! آخاب سيهريق دمك مثلما الطحان يغلق منفذ الماء الشارع على
الجدول ! »

وكان اسطب يتحدث بهذا والملاحون جميعاً عن كتيب ؛ وكان الحق الذي
أثارته المطاردة قد جاش بهم عندئذٍ جيشان الحبب ، كالخمر المعتقة تبدأ صنعها
من جديد ، فما كان قد أحسّ به بعضهم قبل من مخاوف وهواجس شاحبة لم
تبقَ خفية عن الانظار فحسب بسبب تزايد آخاب هيبة ، وانما اثاثت تلك
المخاوف والهواجس كالارانب المذعورة على السهوب وهي تذهب بدداً امام
البيسون الجمّاز ، فقد اختطفّت يد القدر أرواحهم جميعاً وبالمخاطر المثيرة في
اليوم السابق وعذاب الترقب في الليلة الفائتة والطريقة العامدة العمياء السادرة
المستأسدة التي ذهبت بها سفينتهم الوحشية غائصة تمرّ مرّ السحاب ، بهذه الامور
جميعاً تدحرجت قلوبهم قدماً . اما الريح التي كانت تنفخ من أشرعهم كروشاً
ضخمة ، وتدفع السفينة بسواعد خفية لا تقاوم ، فقد بدت وكأنها رمز لذلك
الفعّال الخفي الذي اتخذهم عبيداً في هذا المضمار .

كانوا رجلاً واحداً لا ثلاثين ، كل تميز فردي في كل امرئ منهم : شجاعة

هذا وخوف ذاك ، اثم هذا وبراءة الآخر ^١ ، جميع هذه الانواع امتزجت في وحدة واحدة ، ووجهت كلها نحو الهدف المهلك الذي كان يسعى اليه سيدهم وسندهم آخاب . كانوا في ذلك شأنهم شأن سفينتهم فقد صنعت من اشياء متنافرة : دخل في تركيبها الخشب من سندبان وغرب وصنوبر ، والحديد والقار والقنب ، وكل هذه تضافرت وتداخلت لتكون هيكلأ واحداً ملموساً ، ينطلق في طريقه متزنأ مستندأ على أريئة متوسطة طويلة توجهه أنى شاءت .

عمروا الاشعة والحبال فدبت فيها الحياة ؛ وأضحت رموس الصواري كقمم النخلات العم الطوال تصنع لها جمّة من سواعد وأرجل ، وكان بعضهم يتعلق بالسارية بيد واحدة فيصل السارية الاخرى ، وهو يتأرجح متناوِحاً ، وآخرون جلسوا على أقصى الباحات المتأرجحة وهم يظللون أعينهم من وهج الشمس ؛ كانت جميع الدعائم والسواري قد أثمرت بشراً ، وقد نضج ثمرها ، وحن ان تؤتي للقدر أكلها . يا لله ! كيف مضوا يجاهدون خلال تلك الزرقة اللانهائية سعياً وراء ما قد يرددهم في هوة الابد .

وصرخ آخاب بعد ان مضى على الهتاف الاول بضع دقائق ولم يسمع هتافاً آخر : « لم لا تهتفون ان كنتم ترونه ؟ ارفعوني يا رجال ، لقد خدعتكم أبصاركم ، ليس موبى ديك بالذي يبعث نفثة مستهجنة واحدة ثم يختفي » .

وقد صدق ؛ فان الرجال في لهفتهم الحافزة قد رأوا شيئاً ظنوه نفثة الحوت ، وسرعان ما أيدت الأحداث ذلك ، اذ ما كاد آخاب يبلغ مجشمة ، وما كاد الحبل يربط بالوتد المحصص له على ظهر السفينة ، حتى حرك مفتاح النغم لجوقة

١ في الاصل : guilt and guiltiness والكلمة الثانية يجب ان تكون guiltlessness اي براءة .

موسيقية جعلت الهواء يتذبذب كأنه تحت وقع طلقات بنادق مجتمعة ؛ وسمعت هتفة ظافرة ، كأن ثلاثين يوقاً من جلد الغزال تدبعت معاً حين لاح مويي ديك — أقرب الى السفينة من النفاثة الكاذبة اي أقل من ميل الى الامام — ؛ ذلك ان الحوت الابيض لم يعلن حينئذٍ عن مكابته بالنفثات الهادئة المتراخية، لم يعلن عنها بذلك الدفق المطمئن من تلك النافورة الخفية في رأسه، وانما بتلك الظاهرة المدهشة التي يسمونها الوثب العلوي ” ، اذ يرتفع حوت العنبر بأقصى سرعته من أبعد الاعماق ويمط جسمه كله في الهواء الخالص ، مكدساً جبلاً من الزبد الباهر ويكشف عن موضعه على بعد سبعة أميال او اكثر ، وتشبه ان تكون الامواج الممزقة المحنقة التي يرجحها في تلك اللحظات عرفاً له ، ويكون هذا الوثب العلوي في بعض الحالات تحدياً .

وارتفعت الصيحة : « هناك يثب وثبته العلوية ! هناك يثب وثبته العلوية ! » وذلك حين قذف الحوت الابيض نفسه في الفضاء كأنه سمكة سلمون، مزهواً متحدثاً بنعمة شجاعة متطرفة . أما الرشاش الذي أثاره ، فقد شوهد فجأة في وضح الزرقة على بسيط الماء ثم وهو يرتفع ازاء زرقة أشد في حاشية السماء، فتلاًلاً وتوهج لحظة يزوغ عنه فيها البصر كأنه جبل من جليد، وتلبث هنالك وحيدة وهجه الاول تتضاءل وتأفل تدريجياً، حتى تحوّل الى ضبابية غائمة كأنه سحابة توشك ان ترسل قطراتها في الوادي .

فصاح آخاب : « أجل . ثب وثبتك الاخيرة نحو الشمس يا مويي ديك ! دنت ساعتك ودنا من يدي الرمح الذي سيرديك ! انزلوا ! انزلوا جميعاً الا واحداً في المقدمة . القوارب ! تأهبوا ! »

أغفل البحارة استخدام سلام الحبال المملّة عند القلوع وانزلوا هابطين على ظهر السفينة كأنهم رجوم الشهب ، عن طريق الدعائم الخلفية المتفرقة وحبال الاعلام، بينما انزل آخاب من مركبه في انطلاق أقل وسرعة اكثر .

ولما ان بلغ قاربه - وهو قارب احتياطي أعد بعد ظهر اليوم الفائت -
صاح : « انزلوا القوارب . السفينة في عهدتك يا سيد استاربك ، ابقى متحاشياً
للقوارب ولكن قريباً منها . انزلوا قواربكم جميعاً ! »

وكأنما اراد مويي ديك ان يلقي رعباً وحيّاً في قلوب العصب الثلاث من
الملاحين ، اذ كان هذه المرة هو البادىء بالهجوم فقد استدار وتقدم نحوهم . وكان
قارب آخاب متوسطاً ، فأخذ يشجع رجاله ويخبرهم انه سيعمد الى اخذ الحوت
« رولسي » ، أي انه سيجذف عامداً نحو جبهته - وهو شيء غير شاذ في التحويت ؛
فمثل هذا المسلك على بعد معين يمنع الحوت من ان يرى الهجمة القادمة لان رؤيته
جانبية لا رأسية . ولكن قبل ان تبلغ القوارب الثلاثة ذلك الحد ، وفيما هي
واضحة لعيني الحوت كأنها الصواري الثلاثة في السفينة ، تمعج مويي ديك وتلوّى
في سرعة هائجة وفي لمح البصر اندفع منطلقاً بين القوارب الثلاثة وفكّاه فاغران
وذنبه يتقلب كالسوط وهو يطلب النزال على كل جانب في معركة مفزعة غير
عابىء بالحراب التي 'تقذف نحوه من كل قارب ، وكأنما هو قد صمم على ان يفني
كل لوح من الواح تلك القوارب ، ولكن القوارب داورته بمهارة وظلت تدور
دون توقف كأنها مهاجمون مدربون في ميدان ، وتروغ من طريقه وان كان
روغانها لا ينأى بها عنه اكثر من عرض لوح خشبي ، اما نداءات آخاب الوحشية
طوال ذلك الوقت فقد كانت تمزق كل صيحة اخرى سوى صيحة الحوت نفسه
وتلقيها بدداً .

ودار الحوت دورات لم تخلف أثراً فاجتاز الجبال الثلاثة العالقة به وأعاد
اجتيازها ، وعقد اجزاءها المرخاة في ألف طريقة حتى قصّر مداها ، فقتربت
هي القوارب المتحمسة من الشفار المغروسة فيه ، وان كان الحوت قد انتحى
جانباً لمدى لحظة كأنه يستجمع لانقضاض مريع . وانتهر آخاب هذه الفرصة
فأرعى مزيداً من الجبل ثم أخذ يحره وينخعه - أملاً منه ان يفك بعض

تعتقداته - ولكن مهم ! لقد تمّ منظر أشد وحشية من انياب القرش المتراسة !

ذلك ان الرماح والحراش التي انخلت ، بكلاياتها الشائكة وشفراتها المشحودة ، علقت بالحبل والتوت فيه وتداخلت بين تشابكاته التي جعلتها كالبريمة ، وومضت لامعة تقطر ماء عند خطافات المقدمة في قارب آخاب . وما كان في مقدرته ان يعمل إلا شيئاً واحداً ، فأمسك بسكين القارب ووصل بشيء من عسر دون تلك الادوات الفولاذية ثم من ورائها ، وقبض على الحبل هنالك وجره . وأمره في القارب الى الرجل القائم عند المقدمة ، ثم قطع الحبل في موضعين عند الخطافات ، وأسقط تلك الحزمة الفولاذية في البحر وربط النخل مرة اخرى . في تلك اللحظة قام الحوت الابيض بهجمة مفاجئة بين التشابكات الباقية في الحبال الاخرى ، وبهذا العمل جرّ قاربي فلاسك واسطب المتورطين دون ان يستطيعا المقاومة نحو شطيرتي ذنبه ، وضرب احدهما بالآخر كأنها ثفالاً . قبح متدحرجتان فوق أوادي شاطئ صخري ، ثم قمس في الماء واختفى في درودر جيش الغليان ظلت فيه شطايا الشربين الشذي من القاربين المحطومين تتراقص وتدور - على مدى - كأنها شذرات من جوزة الطيب في كأس من شراب البنش يحرك بخفة .

وكان أفراد عصبي الملاحين ما يزالون يدورون في الماء سعياً وراء براميل الحبال المتقلبة والمجاذيف وغيرها من أدوات العوم ، وفلاسك الصغير الجسم في انحدار يهتز صاعداً هابطاً كأنه قارورة فارغة ، مقرفصاً رجله الى اعلى لينجو من فكوك القرش المخوفة ، واسطب يغني بحركة لعلّ أحداً ينتشله ، وحبل القبطان الشيخ ، وقد انفصل ، يمكنه من التجذيف في البركة المزبدة لينقذ من يقدر على انقاذه ؛ في ذلك الجو الضاري الذي تحتشد فيه معاً آلاف المخاطر لتتجسد ملموسة ، بدا وكأن القارب الذي ما يزال سليماً ، قارب آخر ، تجره نحو السماء أسلاك خفية ، ومن البحر عامودياً انقض الحوت الابيض منطلقاً انطلاقة

السهم، فصدم بجبهته الواسعة قاعدة القارب وأرسله متدحرجاً متقلباً في الفضاء حتى سقط ثانية وحاقته منكسة، وآخاب ورجاله يناضلون للخروج من تحته كأنهم حيوانات الصيل يحاولون الخروج من كهف في شاطئ بحر .

وكان أول زخم دافع للحوت قد ألقاه فوق السطح لا ارادياً فعدّل من وجهته حين لامس السطح، على مسافة يسيرة من مركز الحراب الذي أحدثه ، واضطجع وهو مستدبر له لحظة يتحسس في بطنه ويتقرّى بذنبه من جانب الى آخر، وكلما لامس جلده مجذاف ضالّ او قطعة من خشب أو أقل شظية او شذرة، انحاش ذنبه متراجماً وأخذ يلطم به البحر على الجانبين . وكأنما أرضاه انه أدى عمله وانتهى منه في تلك النوبة فدفع على التو خطمه المغضن خلال المحيط، وخلفه تنسحب الحبال المعقدة، واستمر في طريقه وجهة الريح وكأنه رحالة يمشي بخطى منتظمة رتيبة .

ومرة اخرى جاءت السفينة وقد رقت المعركة كلها — كما فعلت من قبل — مخفة للانقاذ، وأنزلت قارباً التقط الملاحين العائمين والبراميل والمجازيف وكل ما أمكن بلوغه والتقاطه وأمنتهم على ظهرها سالمين، اعني سلامة من الموت، والا فقد كانت فيهم اكتاف وأرساغ وأعقاب كلها مرضوضة ، وكدمات مزرقّة وكانت هناك رماح وحراب معوجة، وحبال معقدة لا يمكن حلها، ومجازيف وألواح محطمة، جميع هذه كانت هنالك، ولكن يبدو انه لم يصب أحد منهم بسوء ميت او خطير. وقد وجد آخاب متشبثاً في عناد بنصف قاربه المكسور، كما فعل فيض الله في اليوم السابق، وكان ذلك يهيء له عوامة مريحة نسبياً، بل انه لم يصب بالانهالك كما حدث في كارثة اليوم المنصرم .

غير انه حين أعين على الصعود الى ظهر السفينة تركزت فيه جميع العيون، وبدلاً من ان يفتحي جانباً ظلّ شبه معلق على كتف استاربك وكان حتى

عهدئذ في طليعة من يقدمون له المساعدة . أما رجله العاجية فقد انقصفت ولم يبق منها إلا شظية محددة قصيرة .

— « أجل ، أجل يا استاربك ، جميل ان يتكئء المرء احياناً اياً كان هو الذي يتكئء ، وليت آخاب الشيخ تذوق الاتكاء اكثر مما فعل » .

فقال النجار وكان قادمأ حينئذ : « طوق الحديد لم يتحمل شدة يا سيدي ، لقد أخذت العمل في هذه الرجل » .

وقال اسطب في اهتمام صادق : « أرجو ألا يكون العظم قد أصيب يا سيدي » .

— « أجل ! تراها وقد انقصفت شظايا يا اسطب ! تراها ؟ ولكن آخاب الشيخ لم يصب بشيء ولم تنكسر له عظمة واحدة وليس في ذرة من عظم تشبهني مثل هذه العظمة الميتة التي فقدتها . لا أحد ، حوثاً ابيض او انساناً او شيطاناً ، يستطيع ان يكشط شيئاً من كيان آخاب الصحيح الذي تتقاصر دونه الايدي . أيستطيع الرضاص ان يلمس ذلك القاع ، أيستطيع سارية ان تخدش ذلك الجلد ؟ انتم في الاعالي ! ما وجهته ؟ »

— « عامد وجهة الريح يا سيدي » .

— « عدل الدفة اذن ، احشدوا الاشرعة مرة اخرى ، يا قوأم السفينة ؛ انزلوا ما تبقى من القوارب الاحتياطية وجهزوها . اذهب يا سيد استاربك واجمع ملاحي القوارب » .

— « دعني أساعدك أولاً على بلوغ الحافة يا سيدي » .

— « آه ، آه ، آه ! ما أشد ما تؤلني هذه الشظية ! يا للقدر الملعون ! كيف يكون للقبطان الذي لا تنهزم روحه رفيق جبان ! »

— « ما يقول سيدي ؟ »

— « لا أعنيك انت يا رجل ، انما أعني جسدي . أعطني شيئاً أتوكأ عليه ، تلك الحربة المترجرة تصلح . اجمع الرجال . يقيناً لم أره بعد ، وحق السماء هذا مستحيل ! ضاع ؟ أسرع ! ادعهم إليّ جميعاً » .

كانت الخاطرة التي ألمت بالشيخ صحيحة فعندما اجتمع الرجال لم يكن البارسي بينهم .

وصاح اسطب : « البارسي ! لا بد انه علق في — »

— « ذرعكم القبيء الاسود ! اركضوا جميعاً الى فوق ، الى أسفل ، في القمر ، في المنارة ، اعثروا عليه — لم يذهب — كلاً لم يذهب ! »

ولكنهم رجعوا في سرعة ليخبروه ان البارسي لا أثر له أبداً .

فقال اسطب . « أجل يا سيدي علق في تشابكات حبلك — أظنني رأيته مسحوباً الى أسفل » .

— « جبلي ! جبلي أنا ؟ ذهب ؟ اذن ذهب ؟ ماذا تعني هذه الكلمة الهيمنة ؟ اي جرس جنازة يدق فيها حتى ان آخاب الشيخ ليرتعب كأنه برج الجرس ! والرمح ايضاً ! يتقلب فوق التابوت هنالك ، هل ترونه ؟ السنان الذي أعدده يا رجال ، لقتل الحوت الابيض — لا ، لا ، لا ، يا لك من أحق متقرح ! هذه اليد قدفته ! انه في الحوت ! انتم في الاعالي ! اغرسوا أعينكم فيه ، — اسرعوا ! ليذهب الجميع لاعداد القوارب — اجمعوا المجاذيف — يا زراقين ! الشفار ! الشفار ! — ارفعوا الاشرعة الملكية أعلى فأعلى — شدوا القلوع ! الدفة ! ثبات ! ثبات من اجل حياتكم ! سأطوق الكرة الارضية المستفيضة بالدوران عشر مرات ر أغوص عامداً خلفها ، إلا اني مصمم على قتله ! »

فصاح استاربك : « يا لله ! لحظة واحدة كفَّ عن القول بأذك ستقتله ؛
لن تقتله ايها الشيخ ، باسم المسيح حسبك ، فهذا شر من جنون الشيطانات .
طاردناه يومين ، وانشقت قواربنا مرتين الى شطايا ، حتى رجلك اختطفت من
تحتك مرة اخرى - لقد بارحك شبحك الشرير - كل الملائكة الابرار يتألبون
لتنبيهك بالندر فأني مزيد تريد ؟ أنظل نطاردها هذا الحوت القتال حتى يفرق
آخر شخص فينا ؟ أيسحبنا الى قعر البحر ؟ أيجرنا معه الى دركات العالم الأدنى ؟
آه آه ، ان الماضي في مطاردته جحود وكفر ! »

- « استاربك ! منذ عهد قريب أحسست بمشاعري تقترب منك على نحو
غريب ، منذ تلك اللحظة التي رأينا فيها أحدا - وانت تعرف ما رأينا - في
عيني الآخر . ولكن ليكن وجهك لي في امر هذا الحوت كراحة هذه اليد ،
سطحا لا شفة فيه ولا قسما ، ان آخاب سيظل هو آخاب الى الابد يا رجل ؛
هذا العمل كله مقدور على نحو لا يتبدل . فقد حفظناه وتلوانه أنا وأنت قبل ان
تتقلب أمواج هذا المحيط ببلايين السنين . أحمق ! انا ساعد الاقدار ؛ انا أثمر
بأمرها ؛ اسمع ايها التابع المرموس ها انت تطيع أوامري . - تخلقوا حولي يا
رجال ، انتم ترون شيئا قد قطع جذعه ولم يبق الا جذمه يتكوى على قناة حربة
لينة تهتز ، ويستند على قدم واحدة . ذلك هو آخاب ، ذلك هو الجزء الجسدي
منه ، اما روح آخاب فانها ذات مئة قدم تمشي على مئة رجل . انا أحس بالتوتر
وبأني جانح ضال كالخبال التي تربط فرقاطة حطمت صواريخها في العاصف ، وقد
أبدو لكم كذلك ، ولكنني قبل ان انقطع فانكم ستسمعون فرقة . واعلموا ،
حتى تسمعوها ، ان موصار آخاب ما يزال موثقا الى هدفه . أتصدقون ايها
الرجال ما يسمونه الفأل والطيرة ؟ اذن فجلجلوا بالضحك وصيحوا ثانية !
الاشياء التي تهتم بالغرق ترتفع مرتين الى السطح قبل ان تغرق ، لكي تغوص الى
الابد . كذلك هو شأن موبى ديك - عام يومين ، وغداً يومه الثالث . أجل يا

رجال سيبرز مرة أخرى — لا شيء الا ليلفظ آخر نفثة . هل تحسون أيها الرجال الشجعان انكم شجعان ؟ »

فصاح اسطنب : « كالنار جراءة » .

وقتم آخاب : « ومثلها آلية » . ثم مضى يتمتم والرجال يذهبون الى الامام : « الاشياء التي تسمى فألاً وطيرة ! وأمس قلت الشيء نفسه لستاربك حول قاربي المكسور آه ! كم أسعى بجراءة لأسكب في قلوب الآخرين ما يتشبث متعلقاً بقلبي ! البارسي — البارسي ! ذهب ، ذهب ؟ وكان لا بد ان يذهب قبلي ، ولكن لا بد ان أراه مرة أخرى قبل ان أموت — كيف ذلك ؟ ها هنا لغز قد يرد جميع الحقوقيين ومن ورائهم أشباح جميع القضاة خاسئين حائزين . وهو ينقر ذهني كأنه منقار الصقر ، لكني انا الذي يحله ولا بد » .

وحين حلّ الفسق كان الحوت ما يزال يتجه نحو المهبّ . ومرة أخرى خففت سرعة الاقلاع ومرّ كل شيء كما مرّ في الليلة الفائتة الا ان صوت المطارق وطنين المسنّ كان يسمع حتى يكاد ينبلج الصباح اذ كان الرجال يكدون على ضوء القناديل في اعداد القوارب الاحتياطية اعداداً كاملاً دقيقاً ويشحذون أسلحتهم من أجل الغد . وفي الوقت صنع النجار لآخاب من الارينة المنكسرة في قاربه المخطوم رجلاً أخرى . اما آخاب نفسه ذو القبعة المنكفئة فوقف ، كما وقف في الليلة الماضية ، ثابتاً داخل نطاق الناروزة ، وعينه المختبئة المترقبة — كأنها عبّاد الشمس — قد ركزت خلفاً على المزولة في توقع وانتظار ، وجلس قبالة المشرق يتطلع متى يبرز اول خيط من الضياء .

المطاردة - اليوم الثالث

تبلغ صباح اليوم الثالث جيلاً ناعشاً ومرة أخرى انتهت نوبة الحارس الليلي الوحيد القائم عند قمة الصاري الامامي، وحلّ محله جموع من رقباء النهار تعلقوا بكل صارٍ وتشبثوا بكل دعامة .

وصاح آخاب : « هل ترونه ؟ » ولكن الحوت لم يكن قد لاح بعد .

— « لا يجيد عن مساق مخره ، اتبعوا ذلك الخمر ، ذلك كل ما هنالك ؛ الدفة هناك ! تثبت وأنت ذاهب مثلما كنت تفعل حتى الآن . ما أجل هذا اليوم ! ان يشرق على العالم يوم اجل منه حتى ولو خلق هذا العالم من جديد وأعد بيتاً يأوى اليه الملائكة في الصيف ، وجعل هذا الصباح اول يوم يستقبلهم فيه . ها هنا غذاء للفكر لو كان لدى آخاب ندحة للتفكير ، إلا ان آخاب لا يفكر ابداً انه ، يشعر ، يشعر ، يشعر وحسب ؛ وهذا حسب الآدمي الذي قدر عليه الموت ! أما التفكير فانه قحة . وليس هذا إلا حقاً وميزة لله وحده ، فالتفكير برود او هدوء او يحب ان يكون كذلك ، وقلوبنا المسكينة تحفق ، وأدمغتنا المسكينة تجاوبها بقوة في ضرباتها . ومع ذلك فقد خيل إليّ احياناً ان عقلي هادىء — هادىء متجمد — وهذه الجمجمة المسنة تقعقع كأنها زجاجة تحولت محتوياتها الى ثلج وانت تهزها . وهذا الشعر نام ، وما يزال ينمو في هذه اللحظة ، ونغوه يتطلب حرارة ، ولكن لا ، انه كذلك النوع المعروف من العشب الذي قد ينمو في اي مكان ، بين وهداث الجليد في جرينلاند او في حم فيزوف . كيف تحركه الريح ! انها لتسوطني به كقطع ممزقة من شراع مشقوق تسوط السفينة

المتقلبة وهي بها متشبثة . ريح غادرة هبت ولا ريب قبل اليوم خلال دهايز
السجون وزناناتها وأقبية المستشفيات، وجددت تهويتها وها هي تهب الينا بريئة
كأنها جزز الصوف ؛ اطردها ! انها ملوثة . لو كنت ريحاً لما مضيت أهب على
مثل هذا العالم التاعس الشرير، اذن لزحفت الى كهف وتسللت داخلا فيه ؛ ومع
هذا فهذه الريح شيء سام بطولي ! من ذا استطاع ان يغلبها ؟ في كل معركة
تقوم بالضربة الفيصل المريعة ؛ اهاجم عليها طعنًا تجد نفسك بين ثناياها . ها !
رعديدة هي الريح التي تضرب الآدميين العراة عرياناً ثم لا تقف لتتلقى ضربة
واحدة، حتى آخاب أقوى مراساً منها، واسمى من مثل سلوكها . ليت الريح
كانت ذات جسم، ولكن كل الاشياء التي تكاد تزهق الآدمي وتثير سخطه انما
هي اشياء لا اجسام لها ؛ لا اجسام لها اذا اعتبرتها موضوعاً لا حين تعتبرها
فعالة . ثمة فرق بين الحالين، فرق بالغ المكر، بالغ الخبث ! ومع ذلك فاني اقول
ثانية وأقسم على ما أقول ان في الريح شيئاً كله عظمة وكله جلال . هذه الرياح
التجارية الحارة، على الاقل، التي تهب في اثناء صفاء الجو على استقامة في وداعة
قوية صامدة نشيطة، لا تتحول عن مجراها مهما تتحول تيارات البحر الدنيا
وتتبدل، ومهما تتعرج الانهار الجبارة الكبرى على اليابسة وتسرع غير مستيقنة
الى اين تتجه في النهاية . وحق القطبين الخالدين ! ان هذه الرياح التجارية نفسها
التي تسوق سفينتي ، هذه الرياح او ما يشبهها، شيء لا يحول، مثلها اكتمالاً وقوة
هو الذي يسوق سفينة روحي في وجهتها اليه ! انتم في الاعالي ا ماذا ترون؟»

— « لا شيء، يا سيدي » .

— « لا شيء ، والظهر قريب ! القطعة الذهبية ستجد رجلاً يستحقها !
أترون الشمس ! أجل أجل ، فهمت ، لقد تجاوزته في الابحار . كيف ؟ هل تسلم
زمام المبادرة ؟ أجل انه الآن يطاردني ، لست انا الذي أطارده . هذا سيء ؛
كنت أقدر ذلك . أحق ! الحبال - الرماح يحرها الآن . أجل . أجل لقد

تجاوزته الليلة الماضية . حولي ! حولي ! انزلوا جميعاً إلا اصحاب النوبة !
زودوا حلقات الحبال بالرجال ! »

كانت الريح والباقوطة مبحرة تصيب ربعا فلما عكست اتجاهها اصبحت
السفينة المشدودة الحبال تواجهه النسمات متعسفة وهي تثني الزبد في غرها
الابيض عائدة .

وتتم استاربك لنفسه وهو يلف الحبل الجديد الرئيسي في حلقة على الحافة :
« ضد الريح يبحر سائراً الى الفم الفاجر . حانا الله ؛ غسير ان عظامي تترشح
رطوبة في داخل جسمي وتبلل اللحم من داخل ؛ أنا لا تخامرني ريبة في اني
أعصي الله اذ أطيعه ! »

وصاح آخاب وهو يقترب من زنبيل المصيص : « قرب لكي ترفعني الى
أعلى ؛ علينا ان نواجهه حالاً » .

— « أجل ، أجل يا سيدي » . وامثل استاربك أمره توأ مرة أخرى كان
آخاب يتأرجح مرتفعاً .

مضت ساعة كاملة ، طرقت كما يطرق الذهب وسحبت فاذا هي عصور .
وتجرح الزمن نفسه انفاساً طويلة من الهواء وهو في هيئة ترقب حاد ، وأخيراً
رأى آخاب النفثة الثانية على بعد ثلاث درجات من مقياس الطقس . وعلى التو
سمعت ثلاث زعقات من قمم الصواري انطلقت وكأن السِنَّة اللهب هي التي
نطقت بها .

— « جبهة لجبهة سأقابلك للمرة الثالثة يا موي . انتم يا من عسلى ظهر
السفينة ، جرّوا الحبال في حلقاتها ؛ احشدوها في عين الريح . ما يزال أبعد من

ان ينزل الينا قواربه يا سيد استاربك . الاشرعة تهتز ! قفوا فوق قيم الدفة
ومعكم المطرقة الكبيرة ! هكذا ، هكذا ؛ يبحر بسرعة ، وعلي ان أنزل
للقائه . ولكن لألق نظرة أخرى هنا على البحر وأنا في الاعالي ، ما يزال لدي
وقت كافٍ . منظر قديم هرم ومع ذلك فانه شاب جديد . لم يتغير قلامة
ظفر منذ رأيتة اول مرة وأنا غلام من كثبان نانتوكت ! المنظر نفسه ! نفسه .
سيان هو في عيني نوح وفي عيني . ثمة رذاذ ناعم مع المهب . ما أحب هذه
الوجوهات التي تذهب فيها الريح ، لا بد أنها تقود الى مكان ما ، الى مكان غير
هذه الارض المبتدلة ، اكثر نخليّة من النخيل ، مع الهبوب ! الحوت الابيض
يذهب في تلك الوجهة ، اذن فانظر ضدّ الريح ، تلك هي الناحية الفضلى وان
كانت أمرّ الناحيتين لكن وداعاً وداعاً يا قمة الصاري القديم ! ما هذا ؟
- الاخضر ؟ أجل طحالب دقيقة انتسجت في هذه الصدوع التي تمر فيها الحبال .
مثل هذه الحضرة لا يلوث رأس آخاب ! ذلك فرق ما بين هرم الانسان وهرم
المادة ، لكن أجل ايها الصاري كلانا نهرم معاً ، اما الهيكلان فانها سليمان ،
أليس كذلك يا سفيني ؟ إلا رجل مفقودة ، ذلك كل ما هنالك ؛ وحق السماء ان
هذا الخشب الميت لا خير حالاً من لحمي الحي من كل وجه ، فلا أستطيع ان
أقارنه به لقد عرفت سفناً صنعت من أشجار ميتة عاشت عمراً أطول من
أعمار رجال صنعوا من « أحياء » مادة حيوية كانت لدى آباؤهم الحيويين . ما
ذاك الذي قاله ؟ انه يجب ان يذهب قبلي ، فهو ربيثي ، وأنه سيرى ثانية ؟
لكن اين ؟ أياكون لي عينان تبصران في قاع البحر اذا نزلت هذه الدركات
التي لا تنتهي الى قرار ؟ وها انا طول الليل ظلمت أبحر نائياً عنه ، أيا غاص .
أجل ، أجل لقد أخبرت حقيقة مريعة عن نفسك وكثيراً من حقائق أخرى يا
بارسي ! ولكن ما تنبأت به لآخاب قصر عن المدى . وداعاً يا قمة الصاري .
ارقي الحوت بعين يقظة ، ما دمت غائباً . سنتحدث غداً ، لا ، بل الليلة حين
يكون الحوت الابيض ممدداً هناك مربوط الرأس والذنب .

وألقى الامر بالنزول وكان ما يزال يتلفت حوله وهو ينزل متمكناً شاقاً
الهواء الازرق ، الى ظهر السفينة .

وأنزلت القوارب في الوقت المناسب ، وفيما كان آخاب واقفاً في كوثة
الشالوب وهو يهمّ ان يضع رجله في موقع النزول ، لوح بيده للضابط الذي كان
يمسك أحد حبال المرافع على ظهر السفينة وأمره ان يتوقف .

— « استاربك ! »

— « سيدي ؟ »

— « لثالث مرة تبدأ سفينة روحي هذه الرحلة يا استاربك » .

— « أجل يا سيدي انك أنت الذي تريد ذلك » .

— « بعض السفن تبهر من موانئها ، ومن ثم تصبح مفقودة الى الابد يا
استاربك ! »

— « صحيح يا سيدي ؛ تلك حقيقة مؤسفة » .

— « بعض الناس يموتون عند الجزر ، بعضهم في مياه ضحلة ، بعضهم عند
طغيان الماء . وانا أحس الآن كأني موجة ، كلها عرف مقنزع ، يا استاربك .
انا هرم — صافحني ايها الرجل » . وتلاقت يداهما ، والتحمت عيونهما وكانت
دموع استاربك هي الفراء الذي دبّقها معاً . « آه يا قبطاني ، يا قبطاني ! يا ذا
القلب النبيل ، لا تذهب ، لا تذهب ! أترى ، ان هذا الذي يبكي أمامك رجل
شجاع ، فما أشد عذاب الاقناع اذن ! »

فصرخ آخاب وهو ينفذ ذراع الضابط عنه : « انزلوا القوارب ! ليتأهب الملاحون ! »

وفي لحظة كان المجدفون يعملون القارب على كشب مكائب من جهة الكوثة ، وصاح صوت من نافذه القمرة السفلى : « القرش ! القرش ! سيدي ، سيدي ، ارجعوا ! »

غير ان آخاب لم يسمع شيئاً اذ كان صوته نفسه عالياً حينئذٍ ، وجزم القارب مبتعداً .

لكن الصوت لم يقل الا حقاً ، اذ ما كاد القارب يبتعد عن السفينة حتى كانت أعداد من أسماك القرش ، كأنما برزت من المياه السوداء تحت هيكل السفينة ، تنهش بمجدد شفرات المجاذيف كلما انغمست في الماء ، وعلى هذا المنوال رافقت القارب بنهشاتها . ذلك شيء مألوف حدوثه لقوارب التحويت في تلك البحار المحتشدة ، اذ تلحقها أسماك القرش أحياناً ظاهرة للعيان على النحو التنبؤي الذي تحوم فيه الطيور الكاسرة فوق رايات الكتائب الزاحفة في الشرق . ولكن هذه القرشان كانت اول قرشان تراها الباقوطة منذ ان أبصرت الحوت الابيض اول مرة . لقد كان ملاحو آخاب همجاً صفراً كالنمور ، ترى هل كان لحمهم أشدّ شديّ مسكياً في أنوف القرشان ، وهو أمر يؤثر في نفوس هذه الحيوانات أحياناً كما هو متعارف ؟ أياً كان الأمر فانها مشت في أعقاب ذلك القارب وحده ولم تقترب من القوارب الاخرى .

وتتم استاريك وهو يحدق من على حافة السفينة مآداً عينيهِ نحو القارب المتقهقر : « يا قلباً من الفولاذ الخالص ! أما تستطيع ان ترنّ في جسارة عند هذا المنظر ؟ تنزل قاربك بين القرشان الفراسية وهي تتبعك فاغرة الافواه الى الصيد ، وهذا هو اليوم الثالث العصيب ؟ ذلك انه اذا مضت ثلاثة ايام في

مطاردة حادة دائبة فكن على يقين ان اول يوم فيها هو الصباح وثانيها هو الظهيرة وثالثها هو المساء وهو نهاية ذلك الامر - اياً ما تكون النهاية . ربه ! ما هذا الذي ينطلق في داخلي ويجعلني في هدأة الموت متلبساً أتوقع - مصلوباً على وشك الارتعاد ! شئون المستقبل تطفو أمام عيني كأنها في هيئات فارغة وهياكل ، والماضي كله قد غدا مبهماً . ماري يا فتاتي ، ان صورتك قد انبهت في الاعماد الشاحبة من ورائي . وانت يا بني ! يبدو انني لا أرى الا ان عينيك قد غدتا زرقاوين جذابتين . تتكشف أغرب مشكلات الحياة لعيني ولكن السحب تحول بيني وبينها . أنهاء رحلتي آتية ؟ رجلاي يسري فيها الاعياء كالذي ظل طول يومه يمشي . تحسس قلبك - أترأه ما يزال يخفق ؟ حرك نفسك يا استاربك - شقه نصفين ، حركه ، حركه ! ارفع صوتك بالكلام ! انت يا قمة الصاري ! هل ترين يد ابني على الرابية ؟ جنت - انتم في الاعالي ! ابقوا عيونكم يقظة مفتحة على القوارب - عاينوا الحوت جيداً هو ! ثانية ! اطردوا ذلك الصقر ! ترونه ! انه ينقر - انه يمزق دوائر الريح - يشير الى الراية الحمراء التي ترفرف عند التويج الرئيسي - « ها ! ها هو يفرُّ بها ! أين الرجل الشيخ الآن ؟ هل ترى هذا المنظر يا آخاب ! - رعشة ، رعشة ! »

لم تكن القوارب قد أبعدت كثيراً حين صدرت اشارة من قمة أحد الصواري وامتدت ذراع تشير الى أسفل ، عرف منها آخاب ان الحوت قد قمس ؛ ولكنه رغبة منه في ان يقترب منه لدى برونه ، ظلّ ذاهباً في طريقه منحرفاً قليلاً عن المركب ، وظلّ الملاحون المأخوذون في صمت عميق حين كانت الموجات الرأسية تدق وتدق على مقدم القارب .

« اغرزي ، اغرزي مساميرك ايتها الامواج حتى نهاياتها ولكنك تدقينها في شيء لا غطاء له ، ولن يكون لي ثابوت او عربة جنائز ؛ لا يقتلني إلا القنب ، ها ! ها ! »

وفجأة انتفخت المياه من حولهم ببطء في دوائر واسعة ثم ارتفعت بسرعة كأنها تنحدر عن جوانب جبل جليدي غاطس في الماء ، ناهض بسرعة الى السطح . وسمع صوت خافت مدمدم ، ثم طنين تحتاني ، ثم حبس كل منهم أنفاسه اذ انطلق جسم مديد طويلاً على مواربة من جوف الماء ، وهو مشعث بالحبال المجرورة والرماح والحرا ب . وحلق لحظة في الفضاء الموشح بقوس قزح وقد تلفع في حجاب رقيق متهافت من الضباب ، ثم سقط متممكاً في الماء .

تنثر الماء في الجو على ارتفاع ثلاثين قدماً وأومض لحظة كأنه اكداس من النوافير ، ثم تهاوى منكسراً في زخة من الندف المتناثر تاركاً السطح المنداح مزبداً كالحليب الطازج حول جذع الحوت الرخامي .

صاح آخاب في المخذفين : « وسّعوا المدى ! » وانطلقت القوارب متقدمة للهجوم ولكن مويي ديك كان قد ثار نائره بالشفرات الجديدة التي أخذت تأكل منه منذ أمس فبدا وكأنما تلبست به مجتمعة كل الملائكة التي طردت من الجنة . وبدأت الخطوط الواسعة من العضلات المتلاحمة المنتشرة في جبهته العريضة البيضاء تحت بشرته الشفافة وكأنها قد انعقدت معاً ، واجتاز رأسه القوارب فأخذ يتلعب بذنبه فيما بينها ، ومرة أخرى دقها ففرقها نائراً من قاربي الضابطين ما هنالك من شفرات وحرا ب ، ومندفعاً في جانب من الجزء العلوي من مقدمتيها غير انه خلّى قارب آخاب دون ان يحدث فيه خدشاً .

وبينا كان دغة وكويكوج يوقفان الألواح المضغوطة والحوت يسبح مبعداً عنها ، فقد دار وأبرز زعنفة كاملة حين انطلق من جانبها ، في تلك اللحظة صعدت صيحة سريعة : رؤي جسم البارسي الممزق مربوطاً في عدة مواضع الى ظهر الحوت ، اذ كان الحوت في الليلة الماضية قد لفّ حوله لفائف الحبال فقيده بها

وهو يدور طاقاً فوق طاق، وقد أصبحت مسوحة السود ممزقة ارباً ارباً وعيناه
المنتفختان قد استدارتا مصوبتين الى آخاب .

سقط الرمح من يده .

وأخذ نفساً طويلاً نحيلاً وهو يقول : « مخدوع ! مخدوع ! أجل يا بارسي !
ها أنا أراك ثانية — أجل وأنت ربيثي، تتقدمني، وهذه اذن، هذه هي عربية
الجنائز التي أنبأت بها . ولكني أحاسبك على كل كلمة قلتها . أين العربية الثانية؟
امضيا، ايها الضابطان، الى السفينة . هذان القاربان قد أصبحا قليلي الجدوى .
اصلحاهما ان استطعتما في الوقت المناسب وارجعا اليّ، فاذا لم تستطيعا فحسب
الموت ان يستقبل آخاب . انزلوا يا رجال ! اول شيء يقفز من هذا القارب
الذي انا فيه، فاني أقذفه بالمزراق . لستم انتم رجالاً آخرين وانما انتم ساعداي
ورجلاني ولذا أطيعوني . — اين الحوت ؟ هل قُسم مرة اخرى ؟ »

ولكن موبى ديك بدا بالغ القرب من القارب، اذ كان يسبح ثانية الى الامام
في ثبات كأنما انتوى ان يذهب هارباً بالجثة التي يحملها او كأن موقع الجولة
الاخيرة لم يكن سوى مرحلة في رحلته تحت الريح . وكان قد تجاوز السفينة التي
كانت حتى هذا الوقت تبجر في اتجاه مضادّ له وان كانت قد توقفت حينئذ عن
المضي في وجهتها . وبدا انه يسبح باقصى ما لديه من سرعة وانه لا ينوي إلا
المضي في طريقه المستقيم في الماء .

وصاح استاربك « آه ! يا آخاب لا يزال لديك ندحة من وقت، حتى هذه
اللحظة، في اليوم الثالث، ان تكف عنه . تأمل ! ان موبى ديك لا يطلبك .
انما انت الذي تطلبه وتسعى وراءه في جنون ! »

وأطلق القارب الوحيد أشرعته مع الريح الناشئة، فاندفع تحتها في سرعة،

بقسوة المجاذيف والقلوع ؛ وعندما كان آخاب ينزلق في النهاية على مقربة من السفينة ، مكاثباً بحيث يستبين وجه استاربك بوضوح وهو متكئ على الحافة ، هتف به ان يدير السفينة ، وان يتبعه دون اسراع كثير في فترة مقدورة . وعندما نظر الى اعلى رأى طاشطيقو وكويكوج ودغة وقد امتطوا القمم الثلاث في لهف ، بينما كان المجدفون يقلبون القاربين المشقوقين اللذين رفعا قبيل قليل الى جانب السفينة وهم منهمكون في اصلاحهما ، واذ أسرع رأى من خلال المجازات الجانبية لمحة خاطفة كلا من اسطب وفلاسك وهما مشغولان على ظهر السفينة بين اكوام من الشفرات والحرايب الجديدة ، وبينما كان يرى هذا كله ، بينما كان يسمع المطارق في القاربين المكسورين كانت مطارق اخرى بعيدة وكأنما تدق مسماراً في قلبه . غير انه تشدد مستجمعاً نشاطه . ورأى ان دوّار الريح او العلم لم يعد موجوداً في قمة الصاري الرئيس فصاح بطاشطيقو ، الذي كان لتوه قد بلغ ذلك المرقب ، لينزل فيحضر علماً آخر ومطرقة ومسامير ، لكي يسمّره الى الصاري .

وأخذت سرعسة الحوت تحبوا فيما يبدو فقد غدا القارب مرة اخرى قريباً منه في سرعة ، وان كانت إجحالة الحوت الاخيرة غير طويلة مثلاً كانت من ذي قبل . ترى ما سرّ هذه التؤدة ؟ أكلت قد اصابه اللغوب بعد ثلاثة ايام من المطاردة الدائبة ومن المقاومة التي تحدثها له المعرقات المعقدة التي يحملها اثناء السباحة ؟ أكان تباطؤه وليد خداع وخبث كامنين فيه ؟ ربما ، من يدري ؟ وفيما كان آخاب ينساب فوق الامواج كانت القرشان الغلاظ القلوب ما تزال ترافقه وهي قد لظمت القارب في إصرار واستمرت تنهش المجاذيف الدائبة حتى أصبحت شفراتها مثلمة متدغدة ، وتكاد كلما انغمست في الماء تخلّف فيه شذرات من شظايا .

— « لا تكثرثوا بها ! هذه الاسنان انما تهيبىء لمجاذيفكم مساند جديدة . فك القرش أفضل للراحة وأثبت ظهراً من الماء الخاذل » .

— « ولكن يا سيدي في كل نهشة تصبح شفرات المجاذيف أصغر من ذي قبل » .

— « قضايين » وقتاً كافياً ! جدفوا » . ثم تتم : « من يدري ان كانت هذه القرشان تسبح لتعيّد على لحم الحوت او على لحم آخاب ؟ — لكن جدفوا ! هيا ، أجل بكل حيوية . ها نحن نقرب منه . الدفة ! خذ الدفة ؛ دعني أمر » . — واذ قال ذلك أعانه اثنان من المجذفين ليبلغ مقدم القارب الذي ما يزال طائراً . وحين انحاز القارب الى جانب ، على طول المدى — وجرى على محاذاة زعنفه الحوت الابيض بدا وكأن الحوت ساء عنه وعن تقدمه — وهو شيء يعتري الحوت احياناً — وأصبح آخاب في نطاق الضباب الدخاني الطودي الذي قذفت به نفثة الحوت فأخذ يتلوى حول حردبته الضخمة الرابية « المونادنوكية »^١ . وعلى هذا الوضع كان آخاب قد أصبح منه قريباً فتقاعس يحسمه ورفع ذراعيه كليهما طويلاً الى اعلى للتسديد ، وقذف بشفرته العنيفة وبلغته الاعنف في الحوت البغيض ، ولما ان غاصت الشفرة واللعة حتى الثعلبة كأنما ابتلعتهما ردغة سبغة تلوى مويي ديك من الجانبين الماء ، وكور زعنفته القريبة ، متشنجاً ، ضدّ مقدم القارب ، ودون ان يشق فيه ثقباً رماه فجأة بضربة أدارته على عقبه ولولا ان آخاب أمسك بالجزء المستعلي من الحافة متشبثاً لانطرح في البحر مرة اخرى ، غير ان ثلاثة من المجذفين هورا في الماء لانهم لم يكونوا يقدرّون اللحظة الحاسمة لهجومه ، ومن ثم لم يكونوا على استعداد لتناجها . وأتيح لاثنين منها ان يمسكا بحافة القارب واذ ارتفعا الى مستواه على ظهر موجة طرحا نفسيهما على ظهره مرة اخرى . أما الثالث فقد سقط عند المؤخرة بلا حول ولا قوة ، غير انه ظلّ عائماً سابحاً .

وفي الوقت نفسه ، تقريباً ، انطلق الحوت الابيض خلال البحر الحباب بعزم

١ نسبة الى جبل مونادنوك وهو منزل يشبه القبة في جنوبي نيوهامبشير .

قويّ وخفة وحيّة، دفعة واحدة، فصاح آخاب بقيّم الدفة ليباشر أمر الحبل ويمسكه ، وأمر الملاحين ان يدوروا في مقاعدهم وان يجرّوا القارب الى هدفه، وما ان احسّ الحبل الغدّار بذلك الشدّ والسحب المريبين حتى فرقع في الفضاء الفارغ منقطعاً .

— « ما الذي انقطع فيّ ؟ بعض عضلاتي تتصدع ! عادت سليمة ؛ المجاذيف ! المجاذيف ! عليه، هيا ! »

ولما سمع الحوت صوت القارب يشق الماء في اندفاع هائلة، دار متحرّفاً بجبهته الناصعة متحدياً، ولكنه لمح في دورانه هيكल السفينة الاسود مقترباً، وكأنما رأى فيها مصدر كل هذا التعقب الجائر، وربما حدث نفسه أنها عدو اكبر وأسمى فائقض فجأة على خطمها المقرب ، وفكاه يصطكان وسط وابل ناري من الزبد .

ترنح آخاب ولطم جبهته بيده وقال : « أصبحت أعمى، الايدي ! مدوا ايديكم كي أتحمس طريقي . هل حلّ الليل ؟ »

فصاح المجذفون المنكمشون : « الحوت ! السفينة ! »

— « المجاذيف ! المجاذيف ! انحدرا ايها البحر الى أعماقك كي يستطيع آخاب ، قبل ان تضيع فرصته الى الابد، ان ينحدر هذه المرة الاخيرة الاخيرة منزلقاً الى هدفه . فهمت . السفينة ! السفينة ! اندفعوا يا رجالي ! ألا تريدون ان تنجّوا سفينتي ؟ »

وحين دفع المجذفون عنوة خلال الامواه المتلاطمة كالماطرق الضخمة عاط طرفا اللوحين في المقدم الذي لطمه الحوت، واصبح القارب المصاب مؤقّتاً في

لحمة او نحوها مسجى على مستوى الامواج تقريبا، وملاحوه الذين غطسوا الى انصاف الماء خائضين يحاولون جاهدين ان يسدوا الثغرة وينزحوا المياه المنصبه فيه .

وفي تلك اللحظة نفسها ظلت مطرقة طاشطيقو، اثناء ذلك متصلبة في الفضاء، ولفته الراية الحمراء بعض التفاف كأنها رداء بلاضي ثم تموجت منحسرة عنه كأنها قلبه الذي جاش منفلتا من قفصه، اما استاربك واسطب اللذان كانا دونه على الدقل المائل فقد لحظا الوحش المنقض حالما لحظه طاشطيقو .

— « الحوت، الحوت ! ارفع الدفة ! آه ايتها القوى العذبة في الهواء جميعا، ضمني اليك بقوة ! لا تجعلي استاربك يموت ان كان لا بد من ان يموت، في نوبة اغماء تليق بالنساء . ارفعوا الدفة، أقول، أيها الاغبياء، الفك ! الفك ! أهذه خاتمة صلواتي المتفجرة ؟ كل ضروب الوفاء التي عرفتها طول عمري، آه آخاب آخاب ! تأمل ما صنعت . ثبات، يا قيم الدفة، ثبات ! لا . لا . ارفع الدفة مرة اخرى ! انه يدور ليلاقينا ! آه ان جبهته الساخطة تنطلق نحو امرىء يقول له واجبه انه لا يستطيع ان يتخلى عنه، رباه ! عونك، كن الى جانبي ! »

— « لا تكن جنبي، كن دوني ايا كنت يا من تريد ان تعين اسطب، لارت اسطب ايضا لابت هنا لا يتحلحل . انا اكشر في وجهك ايها الحوت العبوس ! من ذا أعان اسطب او من ذا أبقاه يقظا سوى عينه التي لا تطرف ؟ والآن يذهب اسطب المسكين لينام على حشية شديدة النعومة، ليتها كانت محشوة بالعصي . انا اكشر في وجهك ايها العبوس القمطير ! انظري ايتها الشمس، ايها القمر، ايتها النجوم ! أنا أدعوك أصحاب غيلة حشاشين لخير شخص ذي خيال كان أبدا، ومع ذلك كله فأنا أقرع كأسى بكثوسك، فليتك تعطينني الكأس ! آه، آه، آه، آه ! ايها الحوت العبوس، سيتاح لك كثير من الجرع واللاهوات . لم

لا تطير يا آخاب ! أما أنا فاني اخلع نعليّ وصدارقي استعداداً له . ليمنت اسطب في تبانة ، موتاً شديداً العفونة أجاجيّ الملوحة مع ذلك . كرز ! كرز ! كرز ! آه يا فلاسك ليتني أثال كرزة حمراء واحدة قبل ان اموت ! »

— « كرز ؟ لتمنيت فحسب ان نكون حيث ينمو الكرز ، آه يا اسطب ارجو ان تكون امي المسكينة قد تسلمت القسط الباقي من مرتبي قبل اليوم ، فاذا لم تفعل فان ما تأخذه بعد لن يزيد على بضعة مليات ، لان الرحلة قد انتهت . »

أطلّ جلّ البحارة من مقدم السفينة متوقفين عن العمل وقد بقيت في أيديهم المطارق وقطع الخشب والحرايب والرماح دون ان يتنبهوا للاقائها ، تماماً كما بارحوا أعمالهم المختلفة ، وعيونهم المسحورة جميعها مصوبة نحو الحوت الذي كان يراوح رأسه المتوعد بالمصير من جانب الى جانب على نحو غريب ، وقد أرسل امامه وهو مندفع نطاقاً عريضاً من زبد متناثر في اشكال نصف دائرية . وفي منظره كله عقاب وانتقام وحيّ وحقد خالد ، ورغم كل ما قد يستطيع الانسان ابن الفناء ان يفعله ، فان ذلك الركن البارز الصلد الابيض من جبهته لطم المقدم اليساري في السفينة حتى ترنحت الرجال والاشباب ، وبعضهم سقط مكباً على وجهه ؛ واهتزت رموس الزرافين في الاعالي فوق اعناقهم الغليظة كأنها تويجات قد سحطت من اماكنها .

وصرخ آخاب من القارب : « السفينة ! عربية الموتى ! — هي العربية الثانية ، خشبها لا يكون الا امريكياً ! »

وغاص الحوت تحت السفينة المتفرشة وجرى يتأطر على طول قاعدتها ، ثم استدار وهو تحت الماء وانطلق بخفة الى السطح ثانية بعيداً عن المقدم الأيمن الا انه من قارب آخاب على بضع ياردات واستلقى هنالك ساكناً مطمئناً .

— « ها انا أحول جسمي عن الشمس ، أنت يا طاشطيقو ! دعني اسمع مطرقتك ، آه ايتها السواري الثلاث التي لا تغنو ، أنت ايتها الأرينة التي لا تنصدع ، وأنت أيها الهيكل الجميل المتأله ، وأنت أيها الظهر الثابت ، أيتها الدفة المستكبرة ، أيها المخطم المصوب نحو القطب — يا سفينة مهيبه كاللوت ، هل تفنين اذن ولا بد ، دون ان أكون فيك ؟ هل أحرم من آخر كبرياء حمقاء ينالها أدنى القباطنة الذين تتحطم سفنهم ؟ آه يا موتاً موحشاً يختم حياة موحشة ! أحس ان ذروة عظمتي تحل في ذروة حزني . هو ، هو ! من أقصى حدودك ، انصبي اليّ ايتها الموجات الجريئة ، موجات حياتي الغابرة جميعاً وطاولي موجة موتي هذه المديدة المعرومة . نحوك أتدحرج ايها الحوت المبيد الذي لا يحرز غلبة ، الى النهاية أصاولك مصارعاً ، من جوف الجحيم أسدّد اليك الطعن ، من أجل البغض أبصق عليك آخر أنفاسي . كل التواييت وعربات الجنائز تغوص في بركة واحدة ! وبما أني لن أحل على تابوت او عربة فلا تسحب مزقاً وانا ما أزال أطاردك ، ايها الحوت اللعين . هكذا أبعث الحربة . »

قذف الرمح ، فندّ الحوت المصاب الى الامام ، وجرى الحبل خلال أخدوده بسرعة مضطربة — جرى ملتوياً . ووقف آخاب ليسويه وسواه حقاً ، ولكن اللفة علقت مارقةً حول رقبتة ، ودون نامة ، كما يفعل خرس الاثراك حين يخنقون الضحية بوتر القوس ، انطلق من القارب قبل ان يعرف الملاحون انه ذهب . وفي اللحظة التالية ندت الانشودة الثقيلة في طرف الحبل من البرميل الفارغ تماماً وصرعت أحد المجدفين فلطم وجه البحر واختفى في أعماقه .

وتوقف بحارة القارب المأخوذون لحظة ثم داروا : « السفينة ! يارب يا عظيم اين السفينة ؟ » ومن خلل حجب وغشاوات بحيرة رأوا خيالها المتلاشي يميل جانبياً ، كأنه ملفع بتلايف السراب في مضيق مسينا ، ولم يبقَ بازراً فوق الماء إلا الصواري العليا بينما ظل الزرقاؤون الوثنيون يرقبون البحر غاطسين

وهم مستقرون في مراقبهم العلية إما بقوة الهيام او الوفاء او القدر . وأحاطت
بالقارب الوحيد دوائر منداحة ، فاذا كل ملاحيه وكل مجذاف عائم وكل قناة ،
وكل ذي نسمة وغير ذي نسمة فيه ، يدورون ويدورون دورة الفلكة في
دردور مائي واحد ، حمل أصفر شظية من الباقوطة وغاب بها عن الانظار .

وعندما انصبت الغمرات الاخيرة المتمازجة فوق رأس الهندي عند الصاري
الرئيس تاركة بضع بوصات من السارية المنتصبة خارج الماء ، مع عصا الراية
الطويلة المرفرفة ، التي أخذت تتموج في هدوء ، محدثة مفارقة ساخرة ، فوق
الامواج المحطمة التي تكاد تلامسها - في تلك اللحظة ارتفع ساعد أحمر ومطرقة
وحلقا خلفياً في الفضاء ، يريدان تثبيت العلم وتسميره في السارية الهابطة ، وحط
صقر سمائي تبع التويج الرئيسي زاجراً موبخاً ، هابطاً من موطنه الطبيعي بين
النجوم ، حط على الراية مزعجاً طاشطيقو هنالك ؛ واتفق ان دسّ هذا الطائر
جناحه العريض المرفرف بين المطرقة والخشبة ، وفي الوقت نفسه أحسّ
طاشطيقو المتوحش الغاطس من دونه بتلك الهزة الاثيرة وهو في سكرة الموت ،
فأبقى مطرقته متصلبة لا تريم ، وهكذا فان طير السماء ذا الزعقات ، بزعقاته
التي تشبه نفخ الصور ، والمنقار الملوكي المندفع الى أعلى ، والهيئة المستأسرة جميعاً
الملفوفة في راية آخاب ، هبط مع سفينته وهي كالشيطان لا تفوص في جهنم الا
اذا جرّت معها قطعة من السماء ، اتخذتها خوذة لنفسها .

وطارت صفار الطير تزعق فوق الفوهة الفاغرة ، ثم تكسرت موجة بيضاء
نكدة على حواقيها المنحدرة ، ثم انهار كل شيء ، وانبسط كفن البحر المترامي ،
متدرجاً ، مثلما كان يفعل منذ خمسة آلاف عام .

خاتمة

« ونجوت انا وحدي لاخبرك » (سفر ايوب ١ : ١٥)

تمت الرواية . فلم يعود هذا الممثل للظهور على المسرح ؟ لان واحداً ظلّ حياً
بعد الدمار .

واتفق ان كنت انا الفتى الذي كتبت له الاقدار بعد اختفاء البارسي ان
يحلّ محلّ القيم على المقدمة في قارب آخاب، حين احتل ذلك القيم المكان الحالي
بفقدان البارسي، وهو نفسه ذلك الملاح الذي سقط عند المؤخرة حين قذف
الملاحون الثلاثة، آخر يوم من ايام المطاردة، من قاربهم الخطّار . وكنت عائماً على
حاشية المنظر التالي، والمشهد كله بمرأى مني، وحين بلغني ضغط السفينة الغائصة،
وقد تبدد بعض قوته، كنت حينئذ انسحب ببطء نحو الدردور الآخذ بالانفلاق،
واذ وصلته كان قد تحول الى بركة بيضاء مزبدة، فدرت ودرت مشدوداً نحو
تلك النفخة السوداء التي تشبه الزر في محور تلك الدائرة الدوّارة في بطن كأي
اكسيون آخر^١ . حتى اذا بلغت ذلك المركز الحيوي انفجرت النفخة السوداء
الى أعلى، واذا بالتابوت منفلاً بقوة مرونته الدقيقة وقابليته الكبرى للوعاء ينطلق
طولاً من البحر بقوة عظيمة ثم يهوي ثم يعوم الى جانبي . وطفوت بعون ذلك

١ في اساطير اليونان والرومان ان اكسيون ملك لبيطاي في تساليا عوقب ط فجوره بان
ارسل الى الجحيم وربط الى دولا ب ناري دائم الدوران .

التابوت مدة يوم وليلة وعمت فوق بحر ناعم كأنه المرثية الحزينة، وانسابت القرشان حولي دون ان تمسني بأذى، كأنما وضعت على افواهها اقفالاً، وانسابت صقور البحر من فوقني بمناقير مغمدة . وفي اليوم التالي اقتربت مني سفينة، واقتربت، وانتشلني ملاحوها أخيراً . كانت هي « راحيل » الجرة الضالة ، التي وجدت، اثناء بحثها المتروك عن ولديها الضائعين، يتيماً آخر .

ملحوظة

كل التعليقات التي رُمز اليها بعلامة كهذه * فهي مما كتبه ملفل نفسه .
أما التعليقات المصدّرة بالأرقام فهي من تقييدات المترجم .

الفهرس

٧	المسهمون في هذا الكتاب
٩	فصل في الاشتقاق
١١	مقتطفات
٢٩	١ تباشير
٣٧	٢ حقيبة من القماش
٤٣	٣ حانة النفاث
٦٣	٤ غطاء السرير
٦٩	٥ الفطور
٧٣	٦ الشارع
٧٧	٧ المعبد
٨٣	٨ المنبر
٨٧	٩ الموعظة
٩٩	١٠ صديق حميم
١٠٥	١١ المنامة
١٠٩	١٢ موجز سيرة
١١٣	١٣ عربة يد
١١٩	١٤ نانتوكت
١٢٣	١٥ الشودر
١٢٩	١٦ السفينة
١٤٩	١٧ الصوم

١٥٧	١٨	علامته
١٦٣	١٩	ايليا المتنبيء
١٦٩	٢٠	كل شيء على قدم وساق
١٧٣	٢١	ركوب البحر
١٧٩	٢٢	عيد ميلاد سعيد
١٨٧	٢٣	الشاطئء الآمن من الريح
١٨٩	٢٤	دفاع عن التحويت
١٩٧	٢٥	تذيل
١٩٩	٢٦	فرسان ووصفاء
٢٠٥	٢٧	فرسان ووصفاء
٢١١	٢٨	آخاب
٢١٧	٢٩	شجار
٢٢٣	٣٠	الغليون
٢٢٥	٣١	ربة الاحلام
٢٢٩	٣٢	علم الحيتان
٢٤٧	٣٣	مقطع الشحم
٢٥١	٣٤	المائدة في القمرة
٢٥٩	٣٥	أعلى الدقل
٢٦٩	٣٦	الربعة خلف الدقل الاعظم
٢٨١	٣٧	الغروب
٢٨٥	٣٨	غبح الظلام
٢٨٧	٣٩	النوبة الاولى في الحراسة الليلية
٢٨٩	٤٠	منتصف الليل عند المنارة
٣٠١	٤١	مويي ديك
٣١٥	٤٢	بياض الحوت

٣٢٩	٤٣ أصخ
٣٣١	٤٤ الخريطة
٣٣٩	٤٥ الاقرار بيمين
٣٥١	٤٦ أوهام
٣٥٥	٤٧ النساج
٣٥٩	٤٨ القوارب تنزل اول مرة
٣٧٥	٤٩ الضبع
٣٧٩	٥٠ قارب آخاب وملاحوه - فيض الله
٣٨٣	٥١ النفائة الشبح
٣٨٩	٥٢ الفطرس
٣٩٣	٥٣ الجمّة
٣٩٩	٥٤ قصة تاو نهو
٤٢٩	٥٥ صور مشوهة ترسم للحيتان
٤٣٧	٥٦ صور للحيتان أقل اخطاء وصور صحيحة لمشاهد التحويث
	٥٧ الحيتان كما تتمثل في الالوان وفي الاسنان وفي الخشب
٤٤٣	وفي صفائح الحديد وفي الحجر وفي الجبال وفي النجوم
٤٤٧	٥٨ القشريات
٤٥١	٥٩ السبيدج
٤٥٥	٦٠ جبل الصيد
٤٦١	٦١ اسطوب يصيد حوتاً
٤٦٩	٦٢ المزراق
٤٧١	٦٣ الشعبة
٤٧٣	٦٤ عشاء اسطوب
٤٨٥	٦٥ الحوت بين ألوان الطعام
٤٨٩	٦٦ مذبحة بين اسماك القرش

٤٩١	٦٧ تقطيع شحم الحوت
٤٩٥	٦٨ البطانية
٤٩٩	٦٩ الجنازة
٥٠١	٧٠ أبو الهول
٥٠٥	٧١ قصة السفينة يربعام
٥١٥	٧٢ حبل القرد
	٧٣ اسطب وفلاسك يصيدان واحداً من الحيتان الاثينة
٥٢١	ثم يشتركان عنده في حديث
٥٣١	٧٤ رأس حوت العنبر - موضع مفارقة
٥٣٧	٧٥ رأس الحوت الاثين - موضع مفارقة
٥٤١	٧٦ المنجنيق
٥٤٥	٧٧ دن هيدلبرج الكبير
٥٤٩	٧٨ حوض ودلاء
٥٥٥	٧٩ جبهة كالسهب اتساعاً
٥٥٩	٨٠ لب الجوزة
٥٦٣	٨١ الباقوطة تلتقي بالسفينة « العذراء »
٥٧٩	٨٢ ما في التحويت من شرف ومجد
٥٨٣	٨٣ النظر في يونان من زاوية تاريخية
٥٨٧	٨٤ قذف الحربة
٥٩١	٨٥ النافورة
٥٩٩	٨٦ الذنب
٦٠٧	٨٧ اسطول ضخيم من الحيتان
٦٢٣	٨٨ مدارس ونظارها
٦٢٩	٨٩ سمكة موثقة وسمكة مخللة
٦٣٥	٩٠ رموس أو أذئاب

٦٣٩	٩١	الباقوطة تلتقي ببرعم الورد
٦٤٩	٩٢	العنبر الرمادي
٦٥٣	٩٣	طريح بين الامواج
٦٥٩	٩٤	عصر الاكر الشحمية
٦٦٥	٩٥	الكازاك
٦٦٧	٩٦	معامل التصفية
٦٧٣	٩٧	المصباح
٦٧٥	٩٨	التعبئة والتفريغ
٦٧٩	٩٩	الدبلون او الدينار الاسباني
	١٠٠	ساق وذراع . الباقوطة النانتوكتية تلتقي بصومويل
٦٨٩		اندري اللندنية
٦٩٩	١٠١	القارورة
٧٠٧	١٠٢	ظلة في البلاد الارسكية
٧١٣	١٠٣	قياس هيكل الحوت
٧١٧	١٠٤	الحوت في حالة تمجبر
٧٢٣	١٠٥	هل ينقص جرم الحوت ؟ أتراه يندرس ؟
٧٢٩	١٠٦	رجل آخاب
٧٣٣	١٠٧	النجار
٧٣٧	١٠٨	آخاب والنجار
٧٤٥	١٠٩	آخاب واستاربك في القمر
٧٤٩	١١٠	كويكوج في تابوته
٧٥٧	١١١	المحيط الهادي
٧٥٩	١١٢	الحداد
٧٦٣	١١٣	نار الحداد
٧٦٩	١١٤	الشرك

٧٧٣	١١٥	الباقوطة والعزب يتلاقيان
٧٧٧	١١٦	الحوت المحتضر
٧٨١	١١٧	السهر على الحوت
٧٨٥	١١٨	مقياس الزوايا
٧٨٩	١١٩	الشموع
٧٩٩	١٢٠	ظهر السفينة قريباً من نهاية النوبة الاولى في الحراسة الليلية
٨٠١	١٢١	منتصف الليل — حوافي السفينة عند المنارة
٨٠٥	١٢٢	في الاعالي عند منتصف الليل — الرعد والبرق
٨٠٧	١٢٣	البندقية
٨١٣	١٢٤	الابرة
٨١٩	١٢٥	مقياس السرعة وحبل المقياس
٨٢٥	١٢٦	عوامة الانقاذ
٨٣١	١٢٧	ظهر السفينة
٨٣٥	١٢٨	الباقوطة تلتقي براحيل
٨٤١	١٢٩	القمره
٨٤٥	١٣٠	القبعة
٨٥١	١٣١	لقاء بين الباقوطة والمسرة
٨٥٣	١٣٢	السيمفونية
٨٥٩	١٣٣	المطاردة — اليوم الاول
٨٧٣	١٣٤	المطاردة — اليوم الثاني
٨٨٥	١٣٥	المطاردة — اليوم الثالث
٩٠١		خاتمة

هذا الكتاب

تقتفي « موبى ديك » في أصالتها آثار كل عمل أدبي عظيم . فهي ليست عملاً أحادي المعنى ومستقيم الدلالة ، لأنها في قراءتها أو قراءاتها تفتح أمام الشرح والتأويل آفاقاً مطلقة السراح . ومع ذلك ، فتعددية القراءة وتعددية التأويل لا تطمس فكرة الرواية الجوهرية ، فهذه الرواية ، في كلها وتفصيلها ، لا تحكى صراع الإنسان مع الطبيعة ، بل صراع « إنسان » مع الطبيعة . ترسم صورة « آخاب » ، سجين فرديته ورهين ذاتيته ، في سعيه اللاهث للتسيد على الكون وتنصيب ذاته نظيراً للحقيقة ومثيلاً للمطلق . وهذه الحالة ، فإن هذا « الكابتن » ، الهاذي فوق الموج ، لا يمثل حالة فريدة ، أو حالة عصابية معزولة ، بل يشير إلى ظاهرة بشرية ، إلى حالة إجتماعية ، تسقط شرها على الخارج ، وتعطيه كياناً واسماً ، ثم تطارده كي تبني فوق أنقاضه مملكة الخير .

يعتقد « آخاب » بطل رواية « موبى ديك » أنه رسول الخير ووسيط النعمة الإلهية ، ويمتدّبه الوهم فيرى في حوته مثلاً للشر المطلق ، وينطلق في مطاردة شره حتى يتكسر على أعتاب هذيان فرديته ، فيبقى « الحوت » ويتلاشى « آخاب » في ثنايا الصمت والأمواج .